الأعمال الكاملة

يوسف إدريس



القصص القصيرة "٢"

دار الشروق







يوسف إدريس

القصص القصيرة "٢"



يوسف إدريس



القصص القصيرة "٢"

الغلاف للفنان حلمى التونى







رجــال وثــيران



- ١ -

أعرف أن هناك صداقة مثلاً وزمالة وعلاقات اعجاب.. أعرف أن هناك عداوة أو محبة أو لا مبالاة، ولكني لا زلت لا أعرف كيف أضع اسماً للعلاقة الانسانية التي ربطتني به. من ناحيتي كنت واحداً من ثلاثين ألف آدمي لا تجمع بينهم الا «الأرينا» الهائلة الحجم، ولا يلتقون الا عند رغبة ملحة واحدة.. رغبة من رغبات البشر التي تظل تلح وتصر حتى تفرض نفسها وتتحقق بطريقة أو بأخرى. فرد من آلاف.. مجرد طرف سلبي، عملي طول الوقت أن أجلس وأشاهد، والجهد الايجابي الوحيد الذي كنت أقوم به لا يتعدى بضع محاولات، معظمها فشل، لكبت انفعالي كي لا أنساق وراء المواء الجماعي اذا صدر عن الآلاف، أو إخفاء وجهي اشمئزازاً أحياناً، أو خوفاً، أو لضعف الأعصاب.

أما هو فقد كان بالنسبة لي مجرد وجه اختارته عيناي من بين الآلاف لتلمحه، وما تكاد تلمحه حتى تتوقف عنده كقطار سريع يبطىء ليعود يمضي فاذا بإبطائه يتحول الى وقوف. لم تتوقف عيناي لأن الوجه كان شاحباً، لم يكن أصفر، ولا كانت هناك نقاط عرق،

ولا كـان الشحـوب بـإرادتـه، الشعـور الـذي دهمني وأجبـرني على التوقف ان نظرتي الأولى لـه أشعرتني أن هنـاك شيئاً هـو الذي أذهب لـونه، وبيض قمحية وجهه، شيء وسطَ الـزحـام الشـديـد لا يمكن إدراكـه أو ضبطه، ولكن كـان باستـطاعتي أن أقسم أنـه هنـاك، وأنـه المسيـطر على كـل تلك الآلاف وإن كـانت مـلامحهم لا تنجـح في الكشف عنـه، ولا يهديـك اليه الا نـظرة لذلـكَ الوجـه، أجـل هنـاك كعُقاب خفي داكن رابض فوق سماء «الأرينا».

عُقـاب لـه ثـلاثـون ألف مخلب، في كـل وجـه ينشب مخلباً وطواطياً لا يمكن انتـزاعه، ويفعـل هذا دون أن يعي بـه أو ينتبه اليـه أحد، أو يترك أثراً واحداً يشير الى وجوده لولا ذلك الاحساس المبهم الـذي تحسه وتشم رائحتـه تتسرب.. احسـاس جامـع شامـل له دوي الجنازات القادمة من بعيد، والانقباض الذي يشمـل البيت اذا نعقت في غنائه بومة.

وربما الذي استوقفني في الوجه أنه الوحيد المتميـز الشحوب، وكأنه من نوع خاص ناتج عن احسـاس خاص لا يشـاركه فيـه سواه، وكأنه وحده هو الذي يدري، ووحده الذي يتـوقع، وحـده الذي حين تراه ينتقل اليك علمه، وتبـدأ أنت الآخر تـدرك وجود شيء في الجـو والمكـان، شيء آخر غيـر الناس والازدحـام وشمس مـا بعـد الـظهـر وضجـة «الفيستا» والاحتفـال، شيء حـاضـر خفي داكن رابض ينتـظر اللحظة المناسبة ليعلن حتماً عن وجوده وينقض، وفي الحال، ودوناً عن الثلاثين ألف انسان، وبمثـل شرارة التمـاس لا بد أيضـاً أن يدق

قلبـك دقة الخـوف، اذ تدرك على الفـور ادراكاً غـريباً مبهمـاً وكأنمـا يهبط عليك كالإلهـام، أن ثمة شيئـاً غير عـادي سيقع اليـوم لصاحب ذلك الوجه، وأنه أبداً لن يغادر «الأرينا» بنفس الحال التي جاء بها.

هـذه الدقـة المفاجئـة وما صـاحبها من انـزعاج صغيـر عـابـر، حددت لحظة خطيرة غريبة في حياتي، لحظة التقائي بإنسان جـديـد لم يكن منذ ومضة يعنيني أمره. فاذا بالدقة تبدأ معها علاقـة، وتتعدى العـلاقة بسـرعة مـراحل التعـارف الأولى الى مرحلة الصـداقـة، بـل تتعـداها الى مـا هو أكثـر.. الى مـرحلة القلق العـظيم على الصـديق والتتبع المشفق لخط مصيره.

وهكـذا ألقيت النظرة الثـانية على صـديقي الجديـد وكـأن بين النظرتين عاماً، وكأنني أعود أتفحص ملامح عزيز طالت غيبته محاولاً أن أدرك ما حدث له ولشكله من تغيير. كان الوجه دقيقاً نحيـلاً يصنع برأسه الأنيق الذي بدأ شعره من أمام يخف ويتـراجع ويستعـد لتسليم الرأس ـ أو الجزء الأمامي منه على الأقل ـ لصلع قريب.. كـان يصنع مـع وجهه النحيف مثلثـاً رشيقاً صغيـراً كل مـا فيـه حتى أذنـاه رشيق صغير. ولكل وجه في الدنيـا قصة يحكيهـا أو معنى أو صيحة يـطلقها ويعلن بها عن جماله مثلاً أو ذكائه، أو عما يكمن في أعماق صـاحبه من دهاء. ذلك الوجه كان من الوجوه التي لا تتحدث عن نفسها.. من الوجوه التي نحس بهـا دائماً مشغـولة بحـدث خارج عنهـا أو بقضية. ولحظة رؤيتي الثانيـة له لم يكن وجهـه يتحدث عن شيء بـالذات أو مشغـولاً بشيء، كان صـامتاً.. صمتـاً لو صبـرت عليه لاستحـال الى

حزن، حزناً لا بد شفافاً كحزن الملائكة أو ابتثاس الأطفال.

وكان يبدو في الثالثة والعشرين، ولكن مجرد النظر في وجهه ومراقبة صمته وهو يأخذ لون الأحزان البريئة يرغمك أيضاً، ولا تدرك كيف، على أن تحس تجاهه ـ ومهما كانت سنك. ولو كنت أصغر منه ـ بأبوة لا تفسير لها ولا تبرير.

ـ ٢ ـ

كنت قد حضرت ـ كأي مقدم على عمل لأول مرة ـ مبكراً، وقضيت بعض الوقت أطوف «بالأرينا» وممراتها ودهاليزها، وأراقب السوق السوداء لبيع التذاكر، وآلاف السياح والأوتوبيسات الفاخرة التي لا يكف عن التحديق فيها الأطفال الأسبان أشباه العراة وهي تقف ويهبط منها خليط عجيب من البشر من بين لغاته الكثيرة تميز بسهولة الخناقة الأمريكية الممدودة والغالبة، ومئات العربات الخاصة.. أفخم وأحدث عربات من نوعها في العالم، وأبوابها تفتح لكي تنساب منها سيدات.. أجمل سيدات.. وأروع عطور.. وأغلى وأشيك فساتين، ورجال بصلعات وكروش وأرصدة مكتظة، وشبان أثرياء بالكابورليهات، والجميع يمضون الى مقاعدهم المحجوزة، بينما جمهور اللعبة الحقيقي ـ أفراد الشعب الأسباني ـ يتقاتلون حول التذاكر، ويتدافعون أمام باب الدخول، وفي الداخل لهم المدرجات المواجهة لشمس مدريد في الصيف وما أحرها.

ومن متحف المصارعة عدت الى مكاني في المدرجات حيث المتحف البشري الزاخر الوافد على مدريد والساحة من كل أنحاء

الأرض، وكيف تقبل أفواجه كالسحب المثقلة التي لا تلبث أن تبطىء حركتها وتتكاثف وتتساقط في أنحاء الدائـرة الكبيرة على هيئـة أجساد غير واضحة المعالم فوق مقاعدد مقامة من الأسمنت المسلح. سـاحة و «أرينـا» لا تختلف كثيراً عن تلك المـوجـودة في رومـا التي أقـامهـا الـرومان من آلاف السنين ليتسلى الحكـام الرومـانيون بصـراع العبيد العزل مع الوحوش، كل الخلاف هنا أن الانسان زود بدلاً من المسلة بقطعة أطول من المعدن على هيئة سيف.. ولكن الصراع لا يـزال هو الصراع.

وربمـا استدارة الأرينـا، أو ربما هي الحلقـة البشـريـة الهـائلة المحيطة بالدائرة الرملية الفارغة، ربما الحيرة، ربما الدوي المستمـر الذي لا ينقطع، ربما العقاب الرابض في مكان ما من سماء السـاحة ناشباً مخالبه في الـوجوه والمـلامح، ربمـا أي شيء، ولكن الذي لا شك فيه أن ثمة قلقاً، وكأن أحدهم قـد ألقى في قلب الساحـة ببضع قنابل مثيرة للقلق واللهفة، لا على المصارعة وبـدئها والـرغبة أن تتم بسرعة، فكلنا نعلم أنها تبدأ في السادسة وأن بيننا وبينها بضع دقـائق لا تحتمل اللهفة أو التـرقب. انه قلق وتـرقب ولهفة المشغـولين بشيء قـاهر حـاد، لا يـدرون مـا هـو بـالضبط ومـا الـذي يشغلهم بـه تلك المشغولية العـظمى. . المشغوليـة التي تجعلك لا تستقر على وضـع ولا تستسلم لموضوع، بحيث لا يحتمل منك الشيء أكثـر من نظرة، وبحيث يبدو الحديث مملاً بعد جملة حواره الأولى، وأجمل الفتيات تكفيهـا التفاتـة. . مشغوليـة عظمى غيـر محددة أو معـروفة الأسبـاب

١٥

ولكنها قائمة وموجوده وذات أزيز.

وكـان عليّ أن أكـافـح رغبتي في التـطلع ودوامـة المشغـوليـة المبهمـة التي تبتلعني كـالآخـرين، كي أستخلص نفسي وأستمـع للهاتف وأعود أتابع صاحب الوجه الشاحب الصامت الرشيق

-٣-

كانت ساعتي قد بدأت تشير الى السادسة، وكنت قد بدأت أميز خلال المسطحات البشرية ذات الألف لون ولون والتي تنسدل كسجادة هائلة مزركشة فتغطي المدرجات دون أن تترك فجوة.. كنت قد بدأت أميز أبواب الدخول، والمكان المخصص لرئيس «الفييستا»، اذ لا بد لكل احتفال من رئيس، وركن الفرقة الموسيقية، والمظلة التي تظلل نافخي الأبواق الثلاثة. والساعة كما قلت كانت قد أشرفت على السادسة ولم يحدث في الأرينا ولا داخل الحلقة المغطاة بالرمل والمتناثرة فيها صناديق الاعلانات ما يدل على قرب البدء. ولكن جاري الأسباني الضخم الجثة العالي الصوت وقد لمح دهشتي وحدثني بأسبانية لا أفهم منها الا أن أرد بقولي: لا أفهم الأسبانية.. نون كومبريندو اسبانيول.. ولم يعقه هذا عن مواصلة الحديث وعن شرح ما يريد قوله لي باستعمال لغة الأيدي والاشارات العالمية. وفهمت منه أن كل الساعات غير معتمدة، وأن الساعة الوحيدة التي ستحدد الوقت هي ساعة الأرينا المطلة من برج عال منتصب في جزء من محيط الدائرة.

وكـانت هـذه الأخيـرة تشيـر الى السـادسـة الا أربــع دقـائق، واسترحت فأمامي بعض الوقت أستـطيع أن أوقن فيـه مرة أخـرى أني لست في حلم، وأن الظروف قد ظلت تتـآمر عليّ حتى قـادتني على الرغم مني الى مدريـد، وأني الآن في أكبر ملعب لمصـارعة الثيـران في أسبـانيا ومن ثم في العـالم كله، وأنه بعـد أقـل من خمس دقـائق سيحـدث أمام عيني ذلـك الصراع الغـريب الذي ألهب مخيلتي وأنـا طفـل في قصة دمـاء ورمـال، والـذي غـذى خيـالي شـابـاً وأنـا أقـرأ لهيمنجواي، الصراع الـذي انفعلت به قـرائح فنـانين وكتاب وشعـراء ومخـرجين، الصراع الـذي صنعت منه مـآسي وأهوال، وفي خضمـه هلك أناس واستشهد أبطال، ونمت قصص حب.

وكان عليّ أن ألقي نظرة على صـاحبي. هذه المـرة وجدتـه قد أصبح فرداً في طابور المصارعين الثمانية الآخذين أمـاكنهم في الممر خلف «البيكـادورز» (راكبي الخيل) في انتـظار تحرك المـوكب الذي يبدأ به العرض، وكان قد وضع فوق رأسه قبعة الميتادورز المستعرضة السـوداء، وخيل لي أنهـا تبتلع جزءاً كبيـراً من رأسه الصغيـر وتخفي بعض وجهه. ولأمر مـا تصادف أن رفـع رأسـه وتصـورت أن نـظراتنـا التقت، ولكني كنت أعلم أنه مجرد خيال فمن موقفه البعيد هو قطعـاً لا يرى نظراتي. إن ما أمامه مجرد نقط صغيـرة سوداء تكون رؤوساً لا تهمـه معالمهـا بقدر مـا يهمه أن تصـدر عنها بعـد قليل ضجتهـا التي تدوي: أوليه، تحييه وتستحسن عمله.

ولـم يكن في مشهده ومشهد زملائه السبعة المصطفين أي روعة

مما تجسدها السينما بألوانها وعالمها، كانت ملابسهم بديعة النقوش حقيقة تستوقف البصر، وتلمع زخارفها اذا تحركوا وتومض، والجاكتة معلقة فوق الكتف الأيمن كوضعها التقليدي، والسراويل الضيقة حتى تكاد تمنع الحركة، وكان هذا هو كل ما هنالك بلا تضخيم أو تهويل.. بل هم بملابسهم أنظف وأجمل ما في الموكب المنتظر، فالخيل التي يركبها البيكادورز عجفاء عجوز ودروعها مهلهلة، وحاملو الأعلام أزياؤهم غير متشابهة كما يجب، وكما تظهر لنا العدسات التي، ما أكثر ما تفتري على الواقع وتقلب الفقر روعة والدنيا بكل عيوبها وقصورها جنة.

ولكني في اللحظة التالية كان احساس غامر ـ وكأنما ادخرته لهذه اللحظة ـ قد طغى عليّ تماماً.

وانتشيت به! الاحساس باللعبة.. الاحساس أنك بسبيلك إلى أن تلهو وتختلس من وراء ظهر الزمن ساعتين تشبع فيهما متعة ومرحاً وانفعالاً.

نفس الاحساس الذي يراود الطفل حين يلمح اللعبة التي اشتراها له أبوه تطل من حافة الحقيبة أو اللفافة، ويتأكد تأكداً قاطعاً من أن عينيه لم تخدعاه وأنها فعلاً لعبة جديدة اشتريت خصيصاً له. هذه اللحظة «ما بين الاحساس بأنه حالاً سيلعب بها وبين تسليمها له وبدء لعبة حقيقية بها» نشوة كهذه غرقت مختاراً فيها وأنا أقول لنفسي، لا فرق الا أن هذه لعبة أكبر بكثير ومضمونة أيضاً، والا لما جاء كل هذا العدد من الناس ودفعوا آلاف الجنيهات ليشاركوك في

ممارستها.. والأمتع أنها لعبة خطرة تحفها المفاجآت وتنخلع لها القلوب.

وحين شملت الأرينا تنهيدة عميقة وكأنما هي قادمة من تحت الأرض متصاعدة في شمول واتساع لتغطي وجه السماء. أول عمل جماعي يقوم به المشاهدون معاً، عمل أوقف مشغوليتهم. تنهيدة كانت ايذاناً بأن لم يبق على السادسة الا أقل من دقيقة.

وفي ثوان كانت كل صناديق الدعاية قد أخرجت من الساحة، وسكتت الأصوات جميعاً، وتحولت ضجة المكان الى فحيح، واتجهت الأنظار كلها في ترقب دافق الى نافخي الأبواق.

ولم نسمع دقات الساعة.

فقد طغت عليها أصوات النفير والرجال الثلاثة يبذلون أقصى قواهم، ومع هذا لا تكاد أصوات أبواقهم تسمع في أنحاء الأرينا كلها.

ولكنه كان قد أعطاها.. متهافتة حقيقة لا تدوي أو تصم الآذان وتوقع الرهبة في النفوس، ولكنها وهذا هو المهم اشارة البدء.

-٤-

وعلى مصراعيه انفتح جزء من سور الدائرة الرملية المواجه للممر الذي يلاصقنا، انفتح على هيئة باب. وبينما جزء الموكب الأمامي يدلف متأنياً الى الساحة كنت بكل الشغف وحب الاستطلاع والقلق العظيم على الصديق أختلس نظراتي الأخيرة الى طابور المتادورز وإلى صديقي - الثاني الى اليمين في الصف الأول - والطابور صفان: أربعة من هنا، وأربعة من هناك، وبين كل ميتادور وآخر مسافة.

ومن المقاعد في أقصى اليمين تبينت أصوات الفرقة الموسيقية تعزف المارش، والطبول تدق والأنغام تهب علينا من بعيد باهتة المعالم مخنوقة بالحشرجة. وأبالغ إذا قلت أني دهشت، فالواقع مرت الحركة ساعة حدوثها ببساطة.. نفس البساطة التي حدثت بها حين رسم كل منهم في آخر لحظة لوقوفه، اللحظة التي سيبدأ بعدها يتحرك، رسم كل منهم علامة الصليب على صدره.

ولم يدهشني أني رأيت صديقي يفعل مثلهم مع أنه لم يكن

من النـظرات الأولى اليه شـديد التـدين. أخذتهـا على أنهـا نـوع من العـادة الكاثـوليكية لا أكثـر، وكدت أقف من صـاحبي في هذا الأمـر موقف المحايد لولا أني لمحت أنه لا يؤديها كعلامة أو كـواجب، في وجهه بالذات ـ في نصف وجهه الذي كنت أراه من مكاني ـ كان ثمة ابتهال حقيقي واضطراب، لا بـد علت معه دقـات قلبه وخيـل لي أن لونه ازداد شحوباً.

ولكنها لمحة سريعة، كان أسرع منها ذلك القنـاع الذي انتشـر فوق وجهه وكسا مثلث ملامحـه الصغير بقشـر صخريـة معتمة أخفت كل شيء حتى الشحوب، وما بقى ظاهراً كان قسـوة مفاجئـة مجهولـة المصدر. وفي اللحظة التالية كان يتحرك ليدخل الأرينا.

ورغم أن المـوكب كان يـأخـذ طـريقـه على رأسـه البيكـادورز (حاملَي الحراب)، ووراءهما طابور الميتادورز (المصارعين)، تتبعهم صفـوف غارسي الأعـلام (البانـدريللوس)، وصبيان اللعبة وعمالهـا.. موكب حافل ملفت للنظر يستولي على اهتمام الجميع ويصفقون لـه، وهو يأخذ طريقه الى حيث منصة الرئاسة. ورغم انشغال الناس جميعاً بالموكب كنت لا أزال أفكـر في علامـة الصليب، ومن زاوية جـديدة غيرت الموقف في نظري تماماً. إن مجرد تسمية الشيء باللعبة ـ حتى لو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوش ـ يعطيها في فهمنا لـوناً مـا.. معنى غير جدي جدية تـامة حتى لـو كانت خـطرة، فهي ليست سوى لعبـة. واللعبة لا تقتـرن في تفكيرنا باللعب فقط ولكن أيضـاً بـالهـزل. ولسبب مـا.. هناك.. فيمـا وراء كل مـا كنت أراه من جديـة وخـطورة

واستعدادات، كانت فكرة أن المسألة كلها ليست بالوعـورة والخطورة التي صوروها لنا في السينما والروايات، ولا بد هناك من طـرق متفق عليها ومتبعة للتقليل من خطورتها في الباطن مـع إضفاء الـرهبة عليهـا من الخارج.

هذه الحركـة التي لمحتها في آخـر لحظة، جعلت الشـك يبدأ يتسـرب اليّ في اعتقادي، وجعلتني أتسـاءل: أليس من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعـة حقيقية فعـلاً بلا أي عبث ممـا اعتقدتـه أو اتفاق، وأن الناس جميعاً يأخذونها جداً ما عداي؟

تسـاؤل راحت الأحداث المتعـاقبة تـدعمـه من نـاحيـة وتنفيه من نواح، وظللت لا أجد البرهان الدامغ الذي لا يقبل الشـك، ولم أكن أعرف ما ينتظرني يومها.

-٥-

بنفس الاستخفاف قابلت الخطبة القصيرة التي ألقاها قائد البيكادورز أو حاملي الحراب أمام رئيس الفييستا (الاحتفال)، وكذلك كل ما تلا هذا من تسليم الرئيس للرجل مفتاح الباب المؤدي الى حظيرة الثيران والموجود على يسار المنصة، ثم تراجع الطابور الى حيث احتل كل مشترك فيه المركز الخاص به. المصارعون وقفوا خلف الحواجز الخشبية الواقية، والبيكادورز خارج الحلبة عند بابهم، والصبية تناثروا على محيط الدائرة يحضرون العباءات وأعلام الغرس «الباندريلالاز» والحراب.

وسكتت الحركة في الحلبة، وكذلك خيم صمت الترقب على المدرجات والأرينا، واضطر أي متحدث أن يخفض صوته وأن يدفعه الصمت المتزايد الى أن يكف عن الحديث ويسكت تماماً.

وكالمفاجأة المتوقعة تصاعدت أصوات النفير! وفتح باب الحظيرة واندفع الى الحلبة كائن أسود مدكوك القوام ما إن رأى الساحة خاوية والناس حولها في احتشاد عظيم حتى توقف لبرهة..

لبرهة! إذ ما كاد يلوح أحد المصارعين بعباءته من آخر الحلبة حتى بدا وكأن الثور ركبه ألف عفريت، اذ اندفع لا يجري وإنما يثور أو يغلي أو ينفجر جارياً، كالصاعقة منقضاً، كالقوة الغاشمة العمياء، لا يقيم وزناً لشيء وليس له الا طريقة واحدة للتعبير عن قوة الحياة المحشودة داخله في تضاغط هائل.. الا أن ينطح بقرنيه. وقرناه ليسا كقرني ثيراننا المستأنسة بارزين إلى الجانبين، إنهما قرنان رفيعان كأسياخ الحديد بارزان إلى أمام على هيئة مسمارين مستقيمين ممتدين في تواز، وهو لا ينطح بهما أو برأسه أو باستعمال عضلات رقبته.. إنه ينطح بكل جسده. يندفع ككتلة سوداء أسطوانية مدكوكة باللحم والعضلات إلى الأمام في سرعة هائلة، وبكل جسده المندفع المحتشد يكتسح ما أمامه بقرنيه. ولا يهم أن يكون ما أمامه صخراً أو حديداً أو انساناً دقيقاً حساساً بينه وبين هذه الحياة الشرسة الخرساء العمياء ملايين السنين من التطور والترقي.

ولكن هكذا أرادها الانسان.. أن يواجه هذه القوة الغاشمة التي لا ترحم، ويحشد أمام العضلات المزدحمة الرهيبة كل مزايا عقله الانساني من ذكاء وقدرة على التصرف وقدرة على الخبث والخديعة أيضاً، ولكن كما أن العضلات المحتشدة وحدها لا تقتل.. الذي يقتل شيء أكثر بدائية من العضلات هو القرون، فللثور قرونه، وعلى الانسان هو الآخر أن يستعمل حين يبلغ الصراع أعلى مراحله ويصبح لا بد أن يخلص أحدهما على الآخر، أن يستعين بآلة قتل.. بسيف،

ليصبح السيف في يده والقرن في رأس الثور، والنصر لمن يبادر بالطعنة.

انطلق الثور هائجاً كزوبعة حيوانية هبت على الدائرة الرملية، واندفعت تعصف بكل اتجاه عصفاً بعث الرعب في قلوب المشاهدين الذين تفصلهم عن الثور الهائج مسافات وحواجز، ولكن الغضب الوحشي الذي كان يجتاح الثور ويوشك معه أن يحطم الأرض ويخرق السماء، ولا يبقي أو يذر شيئاً بينهما.. حالة كانت الحواجز والمسافات فيها لا يمكن أن تؤدي إلى أي اطمئنان.

كتلة الحياة الهائجة السوداء تلك، المركزة المضغوطة في هذا الحجم الثوري المحدود، هذا الجبار الطاغي الواثق بنفسه وقوته ثقة كقوته عمياء، لا يتردد معها أن يقتحم أية قوة أمامه وأي كائن مهما كان. هذا المغرور الأحمق الذي يثير الرعب بكل خلجة من خلجاته، ولا شيء على الاطلاق يدفعه هو إلى الرعب أو حتى الخوف أو التردد.

هذا المبعوث الداكن يمثل كل ما في الحياة من قوة وتعطش للعدوان والرغبة في التحطيم والدم والتخريب. هذا الذي من فرط سرعته وتجبره لا يكاد يستقر في مكان، وينتقل من محيط الحلقة إلى محيطها الآخر قبل أن تدرك أنه انتقل. هذا الموجود في كل مكان، الضيق بكل مكان، المتحرك كالبرق كالضوء.. كالوباء في كل اتجاه، حركة بلا هدف الا الحركة نفسها، ورغبة في التخريب والتحطيم بلا

هدف الا التحطيم ذاته، والتغلب على كل ما يقف في طريقه صديقاً كان أو عدواً بلا هدف أو حكمة الا هدف التغلب ذاته. كتلة الحياة المركزة تبركيز الجن في القمقم، المنطلقة المتفجرة بلا غاية أو هدف، تجسد لنا ذلك المعنى الذي كثيراً ما تداولناه حتى اعتدناه.. تجسد لنا كلمة الوحش، وترينا السبب والدوافع التي حدت بأجدادنا الأول أن يطلقوها على بعض أعدائهم من الحيوان.

هذه الظاهرة التي من فرط حيويتها تجعلك تؤمن أن الحياة ليست أرقى الجماد وأوجه بقدر ما هي شيء مرعب حقاً، التي تجعلك تعيد تأمل سطح الأرض وما عليها وتدرك أن الرعب شعور لا تحسه إلا الكائنات الحية، وأيضاً لا تثيره سوى هذه الكائنات نفسها، لا شيء في الطبيعة يخيف إلا كائناتها الحية، ولا شيء يخيف الا وهو أيضاً يخاف. كلها ما عدا هذا الشيء الأسود الحي الذي أعتقد أنهم اختاروه للعبة لأنه الوحيد بين الكائنات الذي يخيف ولا يخاف.

ولكنني وإن كنت قد ظللت أتابع بانتباه طاغ حركة الثور وحركة مصارعيه، إلا أنني لم أستطع من أول مرة أن أفهم. كنت أعتقد أن واحداً هو الذي عليه أن يصارع الثور من أول دقيقة إلى أن يصرعه، وإذا بالموضوع أكثر تعقيداً وله هو الآخر قواعده وأصوله ونظامه.

فهذا التلويح الأول بالعباءة للثور، ذلك الذي يجعله يتفجر جرياً وبحثاً عما يمزقه بقرنيه.. في تلك المرحلة يراقب المصارع خصمه ليعرف كيف يجري والسرعة التي يتوقف بها ويستدير، ومبلغ

شجاعته.. ومقياس الشجاعة أن لا يتردد الثور في مهاجمة كل ما يعترضه.

ثم تبدأ المرحلة الثانية مرحلة الفرس أو «سيوريت دي فاراس»، حيث ينفخ في النفير ويدخل راكبا الخيل «البيكادورز»، وحين يلمحهما الثور يندفع بلا تردد لمهاجمة أقرب الحصانين، وتبلغ قوته حينئذ حد أن يستطيع رفع الحصان وراكبه وإلقاءه خارج الحلقة. وحين يندفع لمهاجمة الحصان ينتهز الفارس الفرصة ويغرس في كتف الثور حربة سميكة تصنع جرحاً غائراً ينزف منه الدم، والغرض من إحداث الجرح هو إضعاف الثور والحد من قدرته الهائلة على المهاجمة والحركة.

بعد هذا تبدأ مرحلة الباندريللاس أو الأعلام، حيث يقوم الباندريلوس أو غارس الأعلام برشق ثلاثة أزواج من الأعلام في ظهر الثور.. مهمة لا تقل خطورة عن مصارعة الثور نفسها! فعلى الراشق أن يستفز الثور إلى درجة يقبل عليه بسرعة هائلة، وفي نفس اللحظة التي يتحرك فيها الثور مهاجماً ينطلق الفارس مسرعاً على نفس الخط القادم منه الثور. وفي الومضة الأخيرة وهما يوشكان أن يلتقيا وتوشك قرون الثور على اختراق جسد الرجل، في آخر لحظة ينحرف الفارس بساقيه فقط عن الخط، بينما يظل نصفه الأعلى ويداه الممسكتان بالعلمين في نفس الاتجاه بحيث حين يمر الثور يرشق الفارس علميه، وبعد هذا تبدأ مرحلة الصراع أو الميوليتا وهي المرحلة التي يحاور فيها المصارع الثور باستعمال العباءة الحمراء، وفيها أيضاً

يمتاز المصارع على المصارع إذ هي المرحلة التي تتبدى فيها ألـوان وأشكال من الحيل والطرق.

وتنتهي تلك المرحلة حين يكون الصراع قد هد كيان الثور إلى حد بعيد، بحيث لم يعـد يهاجم من تلقـاء نفسه ولا بـد من استفزازه كثيراً لدفعه للهجوم. حينئذٍ يستبدل المصارع العباءة بأخرى داكنة في لون الدم، ويستبدل العصاة المعدنية بسيـف، ويستعمل السيف وسيلة لفـرد العباءة في سلسلة محـاورات أخرى ومـداورات، إلى أن يحين الحين وبنفس الطريقة التي يغرس بها الباندريلوس علمـه، يغرز بهـا المصارع سيفه إلى المقبض في الجزء المقابل للقلب من ظهر الثور، كـل ما في الأمـر أن الغرس يتم والثـور شبه واقف، ولكن خـطورتهـا على المصـارع أن يستعمل يـداً واحدة للطعن بينمـا الأخرى تمسـك بالعباءة، وأنه يضطر للاقتراب كثيراً من جسد الثور بحيث ان أي خطأ صغير في حساب المسافة يجعـل منه غنيمـة سهلة للقرون التي طـال تعطشها إلى الفتك.

-٦-

وهكذا لم أفق من استغراقي في الانتباه ومحاولة التفهم إلا على الميتادور الأول وهو يستفز الثور الذي كان قد تبلد وفقد الكثير من طاقته على الحركة والمهاجمة.. الثور الذي نزف كمية هائلة من الدم وأنهكه الجري المجنون المتواصل وأصبح يلهث بصوت يبلغ ارتفاعه أنه كان يصلنا ونحن في أماكننا بالمدرجات بعيداً عن الساحة.

الثور الذي أصبح مهما لوح أمامه بالعباءة الحمراء لا يأبه كثيراً لها، وبرغم تعبه كان الجبار لا يقوى على كبت رغبته المجنونة في الاستجابة للتلويح الأحمر، فما تكاد تتكون لديه أول دفعة قوة وأول قدرة على الحركة حتى ينطلق مهاجماً، ويعاود الكرة بضع مرات يكون قد استنفذ خلالها دفعة طاقته فيعود يرغم على الوقوف. هذه الفترة عرفت فيما بعد أنها أنسب وقت «لقتل» الثور وهو في وهنه، وقبل أن يستريح بدرجة تكفي ليعاود الهجوم مرة أخرى.

وهكذا ظل الميتادور الأول يستفز الثور للحركة حتى تحرك وأقبل ناحية العباءة بأقصى ما في قدرته من سرعة. ورغم أني رأيت كل شيء إلا

أني لم أدر ما حدث بدقة، ولا يكفي أن ترى لكي تدرك! أقبل الثور مسرعاً وحدثت بضعة أشياء في وقت واحد.. أبعد الميتادور العباءة وتنحى عن طريق القرون والرأس بنصفه الأسفل، ومن سرعة الحركة وخفتها لم ألمح السيف وهو يغمد، وحين انتهت الحركة رأيت مقبضه فقط هو البادي منه إلى يسار السلسلة الفقرية.

ويا للبساطة! ما كادت تمضي ثانية واحدة حتى وجدت الثور كالحائط القديم المائل يسقط هكذا فجأة، وكأنه ممثل مسرح يؤدي دور الموت، وتحسبه لا يجيد التمثيل للسرعة التي يسقط بها نفسه ويموت. حقيقة وواقع يحدثان أمامك ولا تكاد تملك القدرة على تصديقها، لا يمكنك أبداً أن تصدق أن نفس هذا الكائن الذي كان يثير بحركته وجبروته الرعب حتى في الهواء وذرات الحصى، يرقد بعد أقل من عشر دقائق في نفس الساحة التي كان يحيلها بركاناً من الحياة والحركة جثة يعف عليها الذباب. نفس الجسد بنفس العضلات والقرون، بنفس القدرة والطاقة وقد أصبح فاقداً كل القدرة وانتهت حركته إلى الأبد.. ولماذا؟ لأن قطعة معدن صغيرة دخلت جوفه فاختل نظام الحياة داخله وتوقف. أجل نظام الحياة. إنه لشيء مضحك حقاً أن تعرف أن تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي كانت تبدو على هيئة فوضى كاملة تريد أن تعيث فساداً في كل شيء وتخل نظام كل شيء وتحيل كل شيء إلى مزق، هذه الطاقة الحيوية المتفجرة لتشيع الفوضى في كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة دقيق، لولاه ما استطاع أن يحرك ذيلاً أو ينش ذبابة أو يأخذ شهيقاً.. نظام

يكفي أن تخدشه بقطعة معدن أو دبوس لكي ـ من شدة اتقانه ـ يختل وينتهي كنظام حياة ليبدأ يعمل فيه نظام آخـر.. نظام المـوت والتحلل والفناء.

ولا بد أننا نكـره هذا النـظام الآخر ـ نـظام الموت ـ إلى درجـة مقيتة.. إلى درجة أننا نأسى لو حل حتى بأعدائنا. فما تمنيت شيئاً وأنا أرى الثور يعصف هادراً ممزقاً غارساً قرنيه بوحشية في كـل شيء، ما تمنيت أكثر من أن ينجح الميتادور في الإجهاز عليـه ويريحنـا ويريـح الدنيا منـه. ولكن.. ولكنني حين رأيت السيف مغمداً إلى حد مقبضه في صـدر الثور، ثم رأيتـه على أثـر الـطعنـة المصـوبـة بخبـرة ودقـة وشجاعة يسقط ميتاً رافعاً ساقيه، شعرت رغماً عني ـ ولماذا أختار هذا الشعور لأقول رغمـاً عني؟ ومشاعـرنا دائمـاً لا تتحرك بـإرادتنا وإنمـا رغماً عنا ـ شعرت بأسى، وأحسست أنا الواحد من الثلاثين ألفاً الذين كان يشيع في قلوبهم الرعب من دقائق، أحسست أني أشفق عليه شفقة حقيقية صادقة، وأنه صعب عليّ. وليس في قدرتي أن أجد لهذا أوهى تفسير فليفسره علماء النفس إذا استطاعوا. وحتى لم أتبين بالضبط من الميتادور الذي كان يصارعه والذي قتله؟ فكلهم يـرتدون نفس الـزي ولهم تقريباً نفس القامة. لم أعـرفه إلا حين تهـاوى الثور وسط حلقـة الميتادورات التي تلتف حوله في تلك اللحظات وكأنما تحاصره حتى تتأكد من خمـود أنفاسـه، مخافـة أن يقدم في لحـظة الموت واليـأس الأخيـرة على قتـل الميتـادور الـذي صـرعـه. من وسط هـذه الحلقـة وجـدت واحداً منهم يتلفت وينحني رداً على تصفيق الجماهير الـذي

تعالى.. ثم حين تأتي الأحصنة الأربعة المخصصة لجر الثور الميت وتخرجه من الحلقة مشيعاً بالتصفيق الشديد والهتاف، وإخراج المناديل والتلويح بها علامة الاستحسان الكبير للطريقة والشجاعة والشرف التي تمت بها المصارعة، وللميتة المتقنة التي صرع بها الثور بغير عذاب أو ألم. حين حدث هذا وجدت الميتادور يدور حول الحلقة يرد على تحيات الجمهور، وخلفه اثنان من زملائه يجمعان الزهور والسيجار والسجائر والشيكولاتة التي تلقى له اعجاباً وتقديراً.

وظل الميتادور يجري بضعة أمتار ويتوقف ليتلقى تحية الجزء المقابل من محيط الدائرة، ثم يعود يجري بضعة أمتار ليختصر الزمن ويتلقى تحية الجزء التالي، حتى وصل إلى ذلك الجزء من الدائرة الرملية الذي يواجه مقاعدنا. وحين رفع رأسه بعد انحناءة التحية لم أكد أصدق عيني.. كان هو بعينه صديقي الذي منذ أن تاه عني مع الميتادورات في الساحة والقلق يجتاحني في صمت من أجله. ودون أن أحس وجدت نفسي أصفق بحماس زائد وكأني ألقاه بعد غيبة طويلة في أدغال خطرة مجهولة. وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أقفز إليه وأعانقه وأضمه ـ ذلك الابن الضال ـ الى صدري، وأتأكد بنفسي أنه حقيقة خرج سليماً ومعافى.. قبل أن ينفجر احساسي بخيلاء الأب لأنه لم يخرج معافى فقط، وإنما خرج بطلاً أيضاً.

وما كان أروعه وأنا أسمعه يلقي إلى الميتادور خلفه بأمر هامس ولكن في لهجة حاسمة.. لهجة قائد لا يزال بريق انتصاره يخطف

البصر. كان وجهه القمحي قد ابيض تماماً، ولكن الأمر يختلط عليك هذه المرة وتمنع نفسك أن تجزم إن كان هذا البياض شحوباً شديداً سببه تعاظم الرهبة أم تعاظم الفرحة، أم الاثنين معاً.

وألقى جاري الأسباني إلى الساحة ـ خلافاً للقانون ـ بالمخدة الجلدية التي تستأجر بقروش لتلين من صلابة الأسمنت المسلح، وانتزعت جارتي عقداً من الفل كان حول رقبتها وقبلته وألقته إلى الساحة، ومن بين مئات الأشياء التي ألقيت اليه والتي كان يترك مهمة جمعها لمساعديه وجدته يلحظ صاحبة العقد الفل، وبعد أن كان قد استدار ليكمل الدورة وقف وانحنى والتقط الأزهار والجزء الذي انفرط منها وقبلها ورفع يده مشيراً بها إلى الفتاة. وهاج الجمهور في المدرجات وخاصة في ذلك الجزء الذي يجاورنا، وانطلقت صفافير وصيحات هتاف واستحسان بينما الأبصار كلها مضت تحاول أن تشق طريقها بصعوبة بين الاجساد.. مئات الأجساد المتشابهة المتلاصقة لتستطيع أن تميز الفتاة التي اختارها الميتادور ليرد تحيتها.

وكنت أسعد الجميع حظاً وليس عليّ لكي أراها إلا أن التفت.

والتفت.

كانت الفتاة قد تجمدت في مكانها تماماً حتى خيل إليّ أنها كفت عن التنفس، وبعدما أرسل قلبها كل ما استطاع ارساله من الدم إلى وجهها حتى كادت خدودها تنزف من تلقاء نفسها، توقف عن النبض. وكانت عيناها تنظران إلى أسفل مفتوحتين، ولكن.. وكأن

غطاءً داخلياً أغلقهما وسد أذنيها وقطع كل صلة بين حواسها وبين هدير البحر البشري الصاخب المحيط بها .

وكنت أعتقد أنها مفاجأة لن تلبث أن تزول، ولكن.. حتى بعد أن انتهى الميتادور من تلقي التحيات وغادر الساحة.. حتى بعد أن انتهت نظرات الاستطلاع الثانية التي تريد أن تعيد تفحصها.. حتى بعد أن كاد الناس ينسون الواقعة ويندمجون في المصارعة التالية التي كانت قد بدأت، ظلت هي بنفس وضعها ولونها وتوقفت حركتها كأن الحادثة قد حنطتها على آخر وضع كانت فيه، وهبطت عليها فترينة زجاجية عزلتها عن الدنيا.

أما جاري الأسباني الآخر فقد كان يبرطم ويحادث جيرانه ويحتج، ولم أعرف ما الذي كان يثيره ولكني استطعت أن أخمن أن الطريقة التي تم بها تبادل الاعجاب لم تخضع تماماً للقواعد والأصول، وما لبث أن أخرج كتاب مصارعة الثيران وراح يقرأ، وتولى ترجمته سائح أمريكي لا أعرف ما الذي جعله يجيد الأسبانية الا أن يكون أسباني الجدود، راح جاري يقول بصوته الجهوري المزعج : لا يصح للميتادور أن يبدي اعجابه بهذه الطريقة.. ان له الحق فقط في إهداء عملية قتله للثور إلى الحسناء التي يختارها، ولكن هذا لا يصح الا بعد مرحلة الميوليتا حين تحين لحظة القتل، إذ له حينئذ «وأخذ يقرأ من الكتاب» أن يقف في مواجهة السيدة، ويرفع قبضته بالتحية، ثم يستدير إلى الثور ويبدأ عمله.

ولكن أسبانياً آخر تصدى له باعتراض، وبدأ نقاش فني على

مستوى عال لم يلبث أن أخمد، ليعود يـظهر على هيئـة همس متقطع مصر.. حين دخل الثور الثاني إلى الحلبة.

وعجبت حين صـدر من الجمهور على أثـر دخولـه مواء. قـطع الجـار المناقشـة ليفسر لنـا سببه، إذ يبـدو أن الجمهور استصغـر سن الثـور وحجمـه. إن أصـول اللعبـة تحتم أن يكـون الثـور «التـورو» بـالأسبانيـة (ومنها تـرى أنها قـريبة جـداً من الاسم العـربي، بـل إن الأسبان أنفسهم يقولون إن العرب هم الذين ابتكروا مصارعة الثيـران وعنهم أخذها الأسبان، وهم أيضاً الـذين وضعوا لهـا تقاليـدها الأول وأصـولها، ولا تـزال بعض التعبيـرات العـربيـة بـاقيـة إلى الآن مثـل «أوليه»، وهي نفس كلمة الله التي نقولها دهشـة أو اعجابـاً) تحتم أن يكون الثور من سلالة الثيران المتوحشة المسماة «أورو»، حيث يختار أفرادها بعناية ويقدم لها غذاء خاص وتربى من أجل المصارعة فقط، ويجب ألا يقل عمر الثور منها عن خمسة أعوام. وقـد بدا ذلـك الثور الذي دخل أقل من ذلك أو أنه ليس بالقـوة المطلوبـة، ومن هنا جـاء مواء الاحتجاج. ولكن الثور نفسه ما لبث أن تولى الرد على كل هـذه الاعتـراضات، فمـا أن رأى تلويحة «الكـابا» الحمـراء من بعيـد حتى انقلب إلى زوبعة وحشية أسكتت كل الأصوات.

وهذه المرة حين دخل الفارس ووجه الطعنة إلى الثور المشغول بدفع قرونه في بطن الحصان، ماء الجمهور مرة أخرى اعتقاداً منه أن الطعنة طالت وأن في هذا إضعـافاً للثـور أكثر من الـلازم، والجمهور أبداً لا يريد هذا. إن الجمهور في مصارعة الثيران ليس مجـرد متفرج

على اللعبـة.. إن هنـاك رئيســاً للفييستـا أو الاحتفــال يتـولى الحكم والفصل، ولكن الجمهور دائماً يتدخل، أولاً مع الثور يحتج إذا كـان ضعيفاً، وأحياناً يمضي في احتجاجه مطالباً بتغيير الثور بأقوى منه. إنه يريد أن يظفر بأقصى متعة، وهو لا يفرق حينئذ بين الطرف الانسـاني أو الحيواني في هذه اللعبة. كل ما يهمه أن يكون الطرفـان قويين وأن يكونا أيضاً متعادلي القوة بحيث لا يحظى أحدهما بانتصار سهل على الآخر، وبحيث تطول المعركة وتصعب، وبحيث يحشد كل طرف لها أقصى ما لديه من طاقة وفن ومصارعـة الثيران قـد تبدو لـلأجنبي لعبة يقتل فيها الرجل الثور أو تحدث الكـارثة ويقتـل الثور الـرجل، ولكن الجمهور الأسباني لا يـأخذهـا هكذا أبـداً، انها عنـده مباراة بكـل ما تملكه الكلمة من معنى.. مباراة بين القوة الحيوانية الوحشية الغـاشمة من ناحية، والذكاء الانساني والرشاقة وسرعة الادراك والفـطنة وسعـة الحيلة من نـاحيـة أخـرى.. مبـاراة بين شجـاعـة الحيـوان الـلاوعيـة وشجاعة الانسان الواعية.. مباراة بين الحياة في بدائيتها القوية وبينها في رقيهـا الذي أضعف قـدرتهـا العضليـة وقـوى قـدراتهـا العقليـة، باختصار مباراة بين العضل والعقل.

ولهذا فعلى عكس ما نتصورمصارعي الثيران هم ليسوا ضخـام الأجسام أو رياضيي القوام. إن كل المطلوب من أجسادهم أن تكـون سـريعة الحـركة سـريعة الاستجـابـة لإشـارات العقـل، ولهـذا تجـد معظمهم نحيفاً هشاً يبدو كالشاعر أو عازف البيـانو، رقيقـاً كالنسمـة، ولكنه لا بد أن يكون شجاعاً. والشجاعة كلمة لا يمكن تحديد معناها

بسهولة. ان الشجاعة لدى الثيران أن لا تتردد في مهاجمة كل ما يقع تحت بصرها سواء أكانت نداً له أم لم تكن. سوا أقضى عليها أم قضت عليه، وتلك هي الشجاعة العمياء اللاواعية.. الشجاعة الجاهلة. شجاعة الانسان، والميتادور بالذات من نوع آخر، فهو يخاف الثور مثلما يخافه أي متفرج، بل ربما أكثر. ولكنه مطلوب منه ألا يجعل هذا الخوف يتحكم فيه! المطلوب أن يتحكم هو في الخوف بحيث يستغله كمولد للارادة والذكاء والقدرة على التصرف، بحيث يستعمله ليشحذ كل حواسه ويحيل جسده إلى مركز راداري حساس باستطاعته أن يلتقط أوهى البوادر ويتصرف تجاهها أسلم التصرفات. فالخطورة في مصارعة الثيران تأتي مثلاً من تأخر في تلقي بادرة، أو تلقيها في وقت مناسب.. ولكن الرد عليها رد ليس هو المطلوب. إن أي خطأ تافه في هذه الحالة قد يؤدي إلى مصرعه. انها امتحان خطير للانتباه والقدرة على وزن الاحتمالات بميزان دقيق، وموهبة اختيار أفضلها.

والناس لا يولدون هكذا. ان هذه الخصال لا بد لها من تدريب شاق طويل، ومع هذا فهو تدريب لا نهاية له ولا يمكن أن تصل فيه إلى درجة تصبح بعدها في أمان مطلق. فالمصارعة سلسلة مواقف يدركها المصارع ويتصرف إزاءها، والتدريب الطويل لا يفعل أكثر من أن ينمي لدى المصارع القدرة على ضبط أعصابه مثلاً أمام الموقف وعلى إدراك نوعه،وعلى السرعة في إيجاد الحل. ان التدريب لا ينمي سوى القواعد العامة، أما حلول كل موقف والتصرف إزاءه

ببراعة فصحيح أن التدريب الطويل يجعلك تلم بـالكثير منهـا، ولكن المواقف في المصارعة نادراً ما تتشابـه، بحيث إنك في كـل جزء من الثانية تجد نفسك في موقف جديد لا بد أن تحله حـلاً جديـداً نابعـاً من الموقف ذاته. لهذا فالمصارع يظل مهما بلغت شهرته وصيته محل اختبار في كل مرة تحتويـه الساحـة مع ثـور.. اختبار هـو معرض فيـه للفشل أو النجاح كما لو كان مبتدئاً. ولهذا أيضـاً لا يوجـد «كبير» في الميتادورات، كلهم صغار! واللحظة التي يكبر فيهـا أحدهـم هي فقط اللحـظة التي ينتصر فيهـا على هذا الثـور أو ذاك، لحظة ينتهي كبـره بـانتهائهـا. حتى إذا ما دخـل مباراة ثـانية دخلهـا صغيراً من جـديـد، احتمالات نجاحه تتساوى مع احتمالات فشله! ولا بـد له، مثله مثـل الـداخـل للمـرة الأولى أن يتـوقف قبـل أن يـدخـل السـاحـة ويرسم ـ مبتهلاً ـ علامة الصليب.

-٧-

ارتفع المواء يلعن الفارس الذي كان لا يزال يدفع حربته أكثر وأكثر داخل ظهر الثور ويطالب بإنهاء عملية الطعن، حتى لا تقل قوة الثور عما هي عليه كثيراً وحتى يظل كامل السرعة والهياج. فكلما ظل هكذا أصبحت مهمة الميتادور شاقة، وتطلب الأمر منه أن يعتصر نفسه ليستخرج آخر قطرات فنه وقدراته.

وإحساس غريب ذلك الذي يتملك الجمهور في تلك اللحظات القصار التي تبدو طويلة كالساعات، اللحظات التي يستغرق فيها الثور في نطح الحصان والتي في أثنائها يغرس الفارس وبكل قواه الحربة في ظهره.لحظات لا يسكت فيها الجمهور أبداً وكذلك لا يصدر ضجة، ولكن من بينه.. ومن أفواه مجهولة وكأنما ليست أفواهه تظل تصدر طوال تلك اللحظات أصوات مكتومة فيها قلق وفيها ألم وفيها معاناة. فيها احساس بالرفض وصرخات استغاثة لا تنبعث.. بينما الأجساد جميعها وبلا استثناء تتململ وتتحرك في أمكنتها ضيقاً ونفاد صبر. وبينا سيدات كثيرات يشحن بوجوههن بعيداً عن المشهد تشترك عيون بقية السيدات مع الرجال في صب نظرات

حنق وضيق واحتقار فوق الفارس الطاعن ولا تنتهي هذه النظرات أو معانيها حتى بعد أن يكف الرجل عن فعلته، بل تظل الأصوات بلغتها المبهمة المكتومة تزجره وتطلب منه بكل ما تملك من اشمئزاز أن يغادر الدائرة الرملية إلى خارج الحلقة، مشيعاً بكل ما تملك النظرات من استهجان. والرجل لا ذنب له، إنه كممثل دور الشرير في الرواية الذي يتحمل بلا جريرة ـ وزر دوره، ودوره في المباراة لا يحسد عليه! ففي مهرجان البطولة هذا.. بطولة الثيران وشجاعتها من ناحية وبطولة الميتادورات وهي تقاتل الثيران وتحاربها وتحاورها وتصرعها من ناحية أخرى، يقتصر دوره هو على الاختباء داخل دروعه والتحصن فوق حصانه، وطعن الثور والإصرار على طعنه حتى تنهد قواه.

ومع هذا فهو يظل بعد خروجه يقطع الممر الفاصل بين الساحة والجمهور والحربة في يمناه، وقبعته الخطيرة فوق رأسه بينما هو جالس في عظمة فوق سرج الحصان المنطوح العجوز «حثالة الأحصنة التي تختار لهذه المهمة حتى إذا ما نفقت لا تكون الخسارة فيها جسيمة».. يقطع الممر في عظمة دونها عظمة نابليون، ونظراته التي يواجه بها نظرات الجمهور في تحد وشموخ تدل على أن رأيه في دوره يختلف تماماً عن رأي الناس فيه، معتقداً لا بد أنه المتباري الأساسي، وهو أول من يأخذ «حموة الموسى» ويلتقي بالثور وهو في عنفوان قواه، معرضاً نفسه رغم كل دروعه لأخطار جمة. كم يبدو شبهه في نظراته وتصوراته تلك قريباً ـ وبالذات ونحن في أسبانيا ـ من الخالد الذكر الدون كيشوت أو كيخوت كما ينطقونها هناك.

٤١

هذا الإحساس الغريب التي يتملك الجمهور ساعة الطعن ليس تافه المضمون أبداً. إذ كيف يتململ الجمهور ويحتج لطعن ثور هائج كان يلقي الرعب في قلبه، وكان يتمنى منذ اللحظات لو تتفتح الأرض عن قوة تستطيع مواجهته وكبح جماحه؟ ان معناه هنا ان الغاية في نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة، وأن يحتمي فارس بالدروع ليطعن الثور المتوحش القاتل في ظهره وسيلة ليست شريفة من وسائل الحرب، والوسيلة في الحرب ـ في أي حرب ـ لا تقل أهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها. انه احتجاج ضد الخداع والجبن! ان للجمهور دوراً آخر في المباراة، دوراً مهماً.. أن يحافظ على «القيم» ويحرسها. ليس مهماً في نظره لمن يكون النصر، المهم دائماً وأولاً كيف يأتي الانتصار.

والدليل هو ما حدث لهذا الثور نفسه حين مضت أدوار المصارعة التي وضح من خلالها أن الميتادور ليس بذي باع طويل في اللعبة. وحين جاءت اللحظة التي عليه أن يصرع الثور فيها وصوب إليه الطعنة الأولى، لم يغمد السيف إلى آخره. ومعنى هذا أنه لم يحسن تقدير المسافة، أو صوب الطعنة وهو أبعد مما يجب خوفاً على نفسه. وقابل الجمهور فشله الأول بالصمت مؤثراً أن يعطيه فرصة أخرى، وكان عليه أن يستخرج السيف من مكانه بواسطة سيف آخر له خطاف في نهايته ويعيد الكرة. وهذه المرة أيضاً لم ينفذ إلى الصدر سوى نصف السيف وبقي نصفه الآخر مع المقبض خارجاً. وماء الجمهور ولكنه آثر أيضاً أن يطيل في صبره. وطعن الميتادور

الطعنة الثالثة وغاص السيف هذه المرة إلى المقبض، وخرج الميتادورات يحيطون بالثور على هيئة حلقة في انتظار سقوطه وموته، ولكنه لم يسقط إذ يبدو أن الطعنة وإن كانت قد اخترقت الصدر إلا أنها لم تصب القلب أو أحد الأوعية الكبرى. وبدلاً من هذا انطلق الثور فجأة مهاجماً مندفعاً في كل اتجاه باحثاً عما يصوب اليه قرنيه ويطعنه.

واهتزت الأرينا بتصفيق حاد، وعمتها موجة من الحماس الشديد للثور الذي رفض بإصرار أن يموت. وحاول الميتادور أن يستخرج السيف الغائب إلى المقبض ليعود يطعنه ولكن محاولته قوبلت بمواء مستنكر عريض وصيحات غضب وصفير جعلته يعدل عنها.. إذ الجمهور حارس القيم وحاميها، لم يعد يهمه أن يصرع الميتادور الثور بطريقة فنية، أصبح المهم لديه أن الثور لا بد سيتألم ألماً شديداً نتيجة للطعنات الثلاث الفاشلة، وليس من العدل أن يظل بطل كهذا يتألم، ولا بد من إراحته فوراً وتخليصه من ألمه. بمعنى آخر كان على الميتادور أن يقتل الثور في الحال باستعمال طريقة «الديسكابيلو»، وذلك بطعنه في رقبته بسيف خاص أو ببساطة أشد بذبحه، ولكنه ذبح بلا تكتيف أو اشتراك أحد، ذبحه وهو حي واقف شديد الخطر. وتتم العملية بأن يفرد الميتادور عباءته الحمراء فوق الأرض كي ينجذب اليها بصر الثور وانتباهه، ويستغل المصارع انشغال الثور بمهاجمتها ليصوب إلى رقبته طعناته بواسطة السيف الخاص.. وهي عملية بشعة ما في ذلك شك، أكثر بشاعة من عملية

الطعن التي يقوم بها الميتادور والتي تثير تقزز الجمهور. فهنا لا يعود الأمر مباراة بين طرفين لكل منهما مؤهلات قوى مختلفة، هنا الأمر عملية قتل واضحة، الثور فيها منهك خائر القوى مطعون في صدره وظهره ينزف ويلهث.. ولكن مع هذا لم يتنازل عن جرأته وإصراره على الحرب والمهاجمة والاستجابة لكل ما يثيره حتى وهو في أتعس حالاته، ولهذا فهو ينقض على العباءة مركزاً فيها همه بينما من وراء ظهره وبالخديعة يذبح ذبحاً لا فن فيه ولا مهارة إلا مهارة الجزر والجزارين.

عملية قتل تجعل الجماهير تفيق وتختفي من أمامها العناوين البراقة والحجب وكل ما يجعل من مصارعة الثيران رياضة تجذب وتثير الانفعال، ويبدو الأمر في النهاية على حقيقته العارية البشعة.. انه ليس سوى عملية قتل، الانسان فيها هو الذي يتولى ذبح الثور ويفعل هذا على مشهد من ثلاثين ألف متفرج. عملية ترعاها الدولة وتنظمها وتدعو لها في كل أنحاء العالم ليأتي السياح آلافاً وأفواجاً وينفقوا الاسترليني والدولار وتمتلىء خزائن البنوك الخاوية، وفي أسبانيا بنوك كثيرة أكثر من البنوك في أي مكان آخر من العالم، ومع هذا فهي على حسب احصاءات هيئة الأمم المتحدة أفقر بلاد أوروبا. آلاف السياح وملايين الاسترليني و الدولارات التي تضل لأمر ما طريقها إلى جيوب الفقراء، وتتكدس في خزائن البنوك ولدى أصحاب البنوك وزبائنها وروادها، ويحدث هذا كله بثمن أن يقوم انسان يرتدي ملابس مزركشة وسط ضجة ومهرجان واحتفال وموسيقى

بذبح ثور وإسالة دمائه، ذبحاً مؤلماً أشد الألم يتأوه له الرجال ويكاد يغمى على النساء! الشاب الذي كان يجلس أمامي أخفى رأسه كالطفل المذعور بين ركبتيه، والأسباني جاري انهمك في مسح عرقه الذي مضى ينزف بغزارة، وجارتي الحسناء أخرجها المشهد من كل تصلبها الخجل وجمودها.. ومن الحمرة القانية شحب وجهها حتى أصبح في صفرة العلم الأسباني.. وبدأت أسنانها تصطك، بينا سيدة سمينة أمامي بصفين مضت تحملق في المشهد وهي في حالة استسلام كامل، بدا هذا واضحاً من طريقة مضغها للبانة حيث لم تتوقف عن المضغ، وكلما وجهت الطعنة إلى الثور ونخ بنصفه الأمامي ألماً، وتفجر الدم يبلل الرمال ويصنع منها طين الدم البني، ويلوث بعضه ملابس الميتادور الأنيقة، أطالت الفترة بين مضغة اللبانة والمضغة التالية، وبينما سيد مهذب جداً في نفس صفها يبتسم وعيناه لا تتحولان عن المشهد، وبالأصح كانت ملامحه قد توقفت على هيئة وجه مبتسم استغرقته المشاهدة وشغلته إلى درجة لم يجد لديه وقتاً أو بالاً لمجرد تغيير ملامحه.

مشهد لا يحرك إلا الألم البشع! يحركه استنكاراً وضيقاً واحتجاجاً عند أناس؛ وعند أناس آخرين يحرك المتعة بالألم.. أدنأ الأحاسيس وأكثرها خسة وشذوذاً. ذلك الاستعذاب للألم والرغبة في إطالته والاستزادة منه. وكل هذا بنقود كثيرة وبدعاية واحتفالات وتهليل، والشهيد في النهاية ثور، ذلك الثور مثلاً.. ذلك الذي لم يلبث تحت وقع الطعنات الكثيرة أن ارتمى على الأرض مجهداً

٤٥

وحسبوا أنه مات، ولكنه ما لبث أن وقف مرة أخرى وكأنه بسبعة أرواح، وحاصروه وبدأ الميتادور يلوح بعباءته استعداداً لجولة طعن أخرى. وبدأ الجمهور يتأوه مقدماً وبصوت عال مسموع، ولكن الثور لم يلبث أن تهاوى على جانبه لآخر مرة، وبقي في مكانه صريعاً لا يتحرك.

ـ ٨ ـ

ومن ساحة صامتة كئيبة مليئة بالخزي والتقزز والندم والاشمئزاز، وكأنما الجميع حتى المشاهدين قد ساهموا منذ هنيهة في ارتكاب جريمة خلقية شاذة، انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذي ذبح الثور، فلا انتظار لتحية هذه المرة أو زهو. حسبه أنه سيخرج قبل أن يفطن اليه الجمهور وينفجر قاذفاً إياه بكل ما في متناوله. كان الجمهور لا يزال يحيا مع الثور المقتول وكأنما يقيم له جنازة تلقائية سريعة يتذاكر فيها كل ما أبداه خلال المصارعة من ألوان القوة، وبطريقته الخاصة.. الصمت.. يؤنبه.

وجاءت الخيول الأربعة وأحكم وضع الحبل على قرونه وبدأت تجره خارج الساحة، ومن أعماق الصمت المخيم اندفع فجأة مواء، هذه المرة عميق وحقيقي لا سخرية فيه ولا صفير، وظل يشيع جثة الثور حتى غابت بخيولها خارج الساحة. كان المواء استهجاناً لمقتله.. الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الجمهور في وقت كهذا أن يبدي سخطه ويصدر حكمه، الحكم بانتصار الثور الميت على الميتادور الحي، طريقة خيل إليّ من صراحتها وصرامتها وقسوتها ان

الميتادور لحظتها لا بد فضل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا التمجيد على أن يكون هو الحي بكل ذلك الاستهجان. وأي انسان مكانه كان رغماً عنه يتمنى أن يصبح الميت المنتصر ولا يبقى للحظة واحدة ذلك الحي المهزوم.

ان الهزيمة علناً وأمام الملأ هكذا وبحكم جماعي يصدره الآلاف مرة واحدة ومباشرة، الهزيمة التي لا تقبل جدلاً ولا تملك أن تبررها حتى لنفسك، وما يصاحبها من ذل وخزي أكثر إيلاماً من أي شيء آخر على سطح الأرض.. أكثر إيلاماً من الموت نفسه. ان فقد الحياة أهون بكثير من الحياة مع معاناتها.

ويا للمصارع المسكين! انه إذا لزم جانب الحرص على نفسه ليخرج من المباراة سليماً معافى لم يرحمه الناس، واذا أراد ارضاء الناس واقترب كثيراً من الخطر لن ترحمه قرون الثور وأظلافه. للصدف جاءت وقفة الميتادور المهزوم وراء العارضة الخشبية القريبة مني، ولمحته يمسك بأعلى العارضة وكأنما يعلق أو يشنق نفسه منها، بينما جسده قد تراخى وتثنى ورأسه شبه متدل على صدره. كان يبدو كالمطعون سواء بسواء، طعنة قرون أقسى من قرون الثور وأمر، قرون جمهور غاضب أصابته في الصميم وجعلته يتألم، ليس ألم المجروح فلم يكن هناك جرح أو دم ولكنه ألم أشد وأعتى.. ألم الهزيمة!

كان ما يحدث وما أراه جديداً عليّ تماماً مروعاً، لكأني في عالم مسحور وبين قوم ذوي قيم وحياة غريبة على عالمنا تماماً، أو

على الأقل غريبة على بلادنا في شرق البحر الأبيض وجنوبه.

ان الحياة هنا لها معنى مختلف اختلافاً جذرياً. لقد ربينا على أن أصح وأهم ما يمكننا عمله هو أن نحيا ونظل نقاوم الظروف والأعداء كي نبقى على قيد الحياة.

ولعل الأمر كذلك في أسبانيا نفسها وفي كل الدنيا، ولكن هنا في هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالماً آخر مختلفاً عن العالم في الخارج وفي كل مكان. عالم الهدف فيه ليس أن تحيا أو تحافظ على وجودك، الهدف أن تنتصر بحيث تحل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت، وبحيث تختلف كل المقاييس تبعاً لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود. وكأن الناس هنا لم يستطيعوا أن يغيروا هذه المقاييس في حياتهم العادية فابتكروا مصارعة الثيران أو تبنوها وجعلوا لها ساحة، و «أرينا» ومتحفاً وعالماً كاملاً يدخلونه ليحيوا ولو لبضع ساعات كل أسبوع بهذه المثل والقيم، وبدلاً من أن تقرأ كتاباً يروي لك قصة بطل لا يهمه الموت أو الحياة بقدر ما يهمه الهزيمة أو الانتصار، وبدلاً من أن تدخل داراً للسينما أو مسرحاً تطفأ فيه الأنوار وتعيش أو تقنع نفسك أنك تركت عالمك المليء بالضعف والانهيار وملايين الناس المتشبثين بحياتهم ـ وأنت منهم ـ تشبث المستميت، وأصبحت في عالم آخر عالم مخلوق من أناس أبطال لا يترددون أمام أي صراع أو خطر، يخوضونه وينتصرون فيه أو يهلكون دونه. بدلاً من هذا أوجد الأسبان لأنفسهم هذا المسرح الحي الذي يضم كائنات من الأحياء. مسرحاً

لا يخدعونك بتمثيل الصراع فيه ولكنك تجد نفسك أمام صراع حقيقي لا تمثيل فيه ولا تمويه. الجماهير المطحونة المهزومة في حياتها اليومية، المتمسكة بالحياة رغم تفاهتها تمسكاً مستميتاً لا يخلصها منها سوى قوة قاهرة جبارة كالموت، هذه الجماهير تدخل الساحة لتشهد أناساً يستخفون بالحياة إلى درجة السفة.. إلى درجة البطولة في سبيل أن ينتصروا. ولهذا فالمصارع لا ينظرون اليه نظرة تمجيد منفصلة عنهم، إن كلاً منهم يخوض الصراع المخيف من خلاله! ويرسل كل منهم خيطاً من ذات نفسه وروحه لتتجمع آلافها وتلتقي عند المصارع، وبنفسه وبها يخوض المعركة.. يخوضها أساساً لحسابهم وكأنهم أنابوه عنهم ليقوم بالعمل البطولي العاجزين هم عن القيام به. ولهذا أيضاً فما أشد نقمتهم عليه اذا لم يقم بعمله كبطل، اذا عمل حساباً لكيانه المستقل، ومحافظة عليه تهاون في القيام بالبطولة التي وكلوا اليه أمرها.

انهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة شاب يصارع ثوراً في حدود أن يظل حياً ولو لم يصرعه، انهم جاءوا لينيبوا عنهم بطلاً.. بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها. ولهذا فمتعتهم الغامرة ليست هي أن ينقذ نفسه بتجنب المأزق الخطر، ولكن أن يضع نفسه في المأزق الخطر ويخرج منه سالماً، أن ينتصر على الخطر بمواجهته وليس بتجنبه.. فهم في حياتهم يفعلون هذا، هم دائماً يتجنبون الخطر ويهربون من المأزق مؤثرين أن يوصفوا بكلمة الجبن أو الرعونة مع النجاة أو البقاء أحياء، وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون

بفعله ولا يستطيعون، أن يوصفوا بالبطولة ولو كان فيها مواجهة متعمدة للخطر وتعرض أكيد للهلاك.

ولهذا فالمصارع في أسبانيا ليس مجرد نجم رياضي، انه أولاً وأساساً بطل شعبي وأداة الشعب للبطولة، وكما لا يمكن أن تقبل الناس من بطلها السياسي أن يساوم أو يهادن فهي أيضاً لا تقبل أبداً من مصارعها أن يقوم بعمل ليس فيه بطولة. يجب أن يرتدي أجمل الثياب ويبدي اعجابه علانية بأجمل السيدات وأن يتصرف دائماً وأبداً كبطل. هذه الوقفة التي ينفخ فيها صدره ويقذف برأسه إلى الخلف رافعاً ذقنه في ترفع وكبرياء مستفزاً الثور، هذه الوقفة التقليدية لم تأت عبثاً.. انها وقفة البطل. هذه المرارة القاتلة اذا هزم أو فشل في إظهار بطولته لم تأت عبثاً أيضاً، فهي ليست هزيمة شخص عادي.. إنها هزيمة بطل.

ومسكين ذلك الميتادور الذي كان لا يزال يعلق نفسه من ذراعه بحافة العارضة، حتى الإشفاق لم يكن يحظى به بل ولا نظرة التشفي. لم يكن هناك إلا الإهمال التام غير المتعمد وكأنه مسح من الوجود، وكأنه انتهى دون أن يخلف أثراً، كأنه مات.. بل حتى الموتى يبقى لهم بعض الأثر، أما هذا فلم يكن قد تبقى له عند الجمهور شيء، لا شيء بالمرة تبقى.

-٩-

ونفخ في الأبواق ودخل الثور الثالث..

كانت الأرينا لا تزال تعاني من حالة الركود المخيمة، وظلت كذلك لا حيث الثور ولا حيث الميتادور، ومرت أدوار المصارعة الأولى كما يمضي الشيء الروتيني.. انتباه حقيقة وتحديق ومتابعة ولكن دون حماس شديد، أحياناً تتصاعد آهة اعجاب بحركة من حركات «الميوليتا» ولكنها أبداً لا تشمل الساحة كلها وتبقى دائماً داخل حيز محدود.

إلى أن حدث شيء لم يكن يتوقعه أحد.

كان الثور مقبلاً مهاجماً، وفي آخر لحظة أزاح الميتادور العباءة الحمراء كالعادة من جانبه إلى أمامه لينتهي الهجوم إلى لا نتيجة.. وكالمعتاد أيضاً بدأ يدور حول نفسه ليواجه الثور الذي كان قد توقف عن اندفاعه واستدار ليعود، في تلك اللحظة انزلقت قدم المصارع فوق الأرض الرملية التي تكفلت المصارعات السابقة بإثارة تربتها.. وسقط الشاب على الأرض.

وفي أجـزاء قليلة جداً من الثـانية حـدثت أشياء كثيـرة مهولـة، فعلى أثر سقطته تصاعـدت من الثلاثين ألف حنجـرة شهقة هلع تثيـر وحدها الهلع في القلوب، وكان الثور يستـدير، ومـا أن لمح خصمـه ملقى على الأرض على بعد أمتار قليلة منه حتى أقبل نحوه ككتلة شر عـاتية مـوجهة.. بينمـا من خلف العوارض الخشبيـة أسـرع أكثـر من ميتادور يلوح للثور الهائج المقبـل كي تتكاثـر أمامـه الألوان الحمـراء وتصرف انتباهه عن الزميل المطروح أرضاً، ولكنها محـاولات فشلت في صـرف انتباه الثـور. وفقط حين أصبح بينـه وبين الشاب أقـل من مترين كان الأخير بالكـاد قد نجـح في الوقـوف وتعريض العبـاءة له، وهكذا أنقذ في آخر لحظة بينما الجمهور لا يـزال واقفاً على أطـراف انتبـاهه وشعـوره هلعاً. وقبـل أن يصفق أحد لنجـاة المصارع أو حتى يعود إلى جلسته كان قد حدث شيء آخر!

فبعد مرة أو مرتين والثور يهـاجم والميتادور يتنحى، حـدث أن فقـد الشاب تـوازنه مـرة ثانيـة فتهاوى.. وقبـل أن يسقط على الأرض كـانت رأس الثور هنـاك إذ لم يكن قد ابتعـد. واعتقـد الجميـع أنهـا النهاية هذه المرة. وقبل أن تشيح أي سيدة بوجههـا ويزدرد أي رجـل ريقه كان الثور قد دفع الشاب برأسه ليـرفعه الى أعلى وليسقط أمـامه ويفترسه بعد هذا، ولكن بدلاً من أن يسقط الشاب الى الأمام، بدفعة حظ واهية سقط الى الخلف فوق ظهر الثور.. ومـا لبث أن انزلق إلى الأرض، إلى حيث استـدار الثـور وتجمـع الـزمـلاء في غمضـة عين يحيطون بالمصارع ويدرؤون عنه الخطر. ولكن الشـاب حين سقط ما

كاد يلامس الأرض حتى كان قد اعتدل وكأنما «بزمبرك»، وحتى كان ممسكاً بالعباءة في يده يحاور الثور مرة أخرى ويداوره وكأن شيئاً لم يحدث.

وارتجت الأرينا بتصفيق عال راعد وكأنما يتنفس الناس الصعداء تصفيقاً، وما لبث الحماس أن انتقل الى المصارع، ونجاته من ميتتين متتاليتين أذهبت عنه غشاوة الخوف من الموت، فمضى بكل إقدام يعرض نفسه الى مسافة شعيرات من القرون المخيفة، وينجو كل مرة في تفاديها والخروج من المأزق، وهكذا بعد السكوت الطويل مضت الساحة تجلجل «بأوليه» اثر «أوليه» نشوة واستحساناً.

وبدأت أدرك شيئاً وأكاد أضحك من نفسي.

فبالرغم من كل ما ذكرته عن الخطر والخطورة والحياة والموت، بالرغم من ادراكي أن مصارعة الثيران ليست لعبة أو رياضة، بالرغم من كل ما قلته وفكرت فيه ففي أعمق أعماقي كنت لا أزال غير مؤمن بجدية خطورتها. كنت أعتقد أن كل ما يدور أمامي ليس سوى استعراض للخطورة، أما الخطورة نفسها فهي شيء لم أكن قد أحسسته بعد أو لمسته أو رأيته رأي العين.

ما الذي يمنع أن تكون هناك احتياطات دقيقة وراء كل ذلك المظهر الخطر، بحيث يمكن في آخر وقت انقاذ المصارع ودفع الأذى الحقيقي عنه؟ وحتى حين كنت أرد على نفسي بما رأيته في المتحف وبقائمة الشهداء الموضوعة في مكان بارز، كنت أقول: لا

بد أن الأمر كان كذلك أيام زمان. . أيام البطولة الحقة. . أيام الفتوحات الأسبانية والأرمادا. أو حتى أيام المجد أيام لوركا والحرب الأهلية، أما الآن فلقد اخترقت البلاد طولاً وعرضاً دون أن ألمح بادرة بطولة غير عادية، فما الذي يجعلها تنحصر هنا فقط؟ لا بد أن التطور الذي حدث لرعاة البقر في أمريكا حيت تكفلت الأيام والحياة الحديثة بنقل بطولاتهم ومسدساتهم ومغامراتهم من الحياة والواقع الى الشاشة والقصص، لا بد أن شيئاً مماثلاً قد حدث لمصارعة الثيران هي الأخرى، وأصبح الخطر الحقيقي خطراً مفترضاً، والشهداء والأبطال مكانهم في المتحف وليس في الحلبة، وما يدور أمامنا الآن ان هو الا «تمثيل» متقن للعبة بحيث تحياه وكأنه حقيقة تقنع نفسك وتقنعك الدعاية والقصص والأخبار انها موجودة، في حين أنك لو دققت وأعملت عقلك لن تجد لها أثراً.

الحادثان اللذان وقعا من لحظات كانا قد تكفلا بقلب كيان أفكاري تماماً، فلقد أكدا لي ولكل من راوده الشك ان كان الشك قد راود أحداً، أن المسألة لا هزل فيها ولا خدعة، وانها مصارعة جادة حقيقية الخطر فيها ليس موجوداً فقط، أو له لحظات يتبدى فيها. ولكنه قائم في كل لحظة منها، ولدى كل حركة أو التفاتة، وتكفي حصاة صغيرة تنزلق فوقها القدم لتنتهي حياة المصارع في ومضة، وقبل أن يفيق هو أو يفيق أحد لما حدث.

ويا لغرابة الانسان، فمجرد انتقال ايماني بجدية ما يدور من

طبقة في اقتناعي الى طبقة أعمق، قلب الصورة في نظري كلية وتغير معنى كل شيء، وأصبحت لأشياء موجودة معان لم تكن موجـودة ولا تصورت وجودها.

مسألة أربكتني وجعلت حمى قلق وانتباه تجتاحني، إذ الآن قد أصبح كل شيء أمامي خطراً ومصدر خطر.

حتى راكب الفرس الذي يطعن الثور وهو محتم خلف دروعه، يكفي أن ينطح الثور الفرس بطريقة يسقط معها الفارس إلى الداخـل بـدلاً من الخـارج لكي يقتله الثـور في الحـال. يكفي التـواء قـدم المصارع أو تكفي عثرة، يكفي ألا تـواتيه سـرعة البـديهة في الـوقت المنـاسب كما حـدث لذلـك المصارع الـذي يصدر التلويحـة الأولى للثور حين لم يفطن إلى شدة سرعته، فكانت النتيجة أن الثور وصـل اليه قبل أن يتمكن من الوصول إلى العارضة الخشبية التي يحتمي بها المصارعون. لم يكن هناك حل للمـوقف إلا أن يختفي المصارع من أمام الثور بطاقية اخفاء، أو تنشق الأرض وتبتلعه، ولو فكر لجـزء من ألف من الثـانية في الـطريقة التي يختفي بهـا للقي مصـرعـه قبـل أن يكمل التفكير، ولولا أنه بلا تفكير، وبقوة ورشاقة منقطعة النظيـر قفز قفزة أوصلته إلى حافة السور، و «ببلانس» آخر كان قد أصبح خـارج الحلقـة، لولا هـذا لمزقتـه القرون تمـزيقاً.. فقـد وصلت الى السور ونطحته تقريباً في نفس اللحظة التي كان جسده يغادر خشب السـور. حتى عملية غرس الأعلام، سنتيمتر واحد من الانحراف كفيل بضياع الفـارس. وهذه الحـركات التي يـأتيها المصـارع في مرحلة الميـوليتا

ليثبت بها قدرته وفنه، مثل الركوع على ركبة واحدة وهجوم الثور عليه وهو على هذا الوضع، والأخطر منها النزول بركبتيه، أو ما هو أخطر وأخطر الثبات في مكانه ودورانه حول نفسه فقط ليتفادى من هجوم الثور كلما غير الثور من اتجاهه. أية أعصاب مدربة علمتها الارادة الحديدية والتمرين على الخوف ألا تفزع أو تأتي بحركة طائشة غير مسحوبة، والثور يهجم عليك وقد تكفلت أنت بتحديد مكانك له وآليت على نفسك ألا تبارحه، وفقط تتفادى من جسده المهاجم بالدوران ربع دائرة، لكي يمر الثور من المسافة الكائنة في الفرق بين مواجهتك للثور بعرضك وبصدرك، ومواجهتك له بجانبك، فرق لا يزيد على الخمسة عشر سنتيمتراً، بحيث لا بد أن تمسك قرون الثور وأكتافه، وتلوث الدماء الناتجة عن جرح الطعنة والأعلام المغروسة في ظهرة والدماء السائلة على كتفه ثيابك. وتفعل هذا بافتراض أن الثور سيندفع في خط مستقيم وسيبقي رأسه في أثناء المرور في خط مستقيم. ماذا لو كان الرأس معوجاً قليلاً اعوجاجاً يحرك القرن عن موضعه ثلاثة سنتيمترات مثلاً؟ ليس هناك سوى احتمال واحد لا احتمال غيره حينذاك.. أن ينفذ القرن في جسدك بدل أن ينفذ في الفراغ.

تغيرت الصورة أمامي تماماً، وتغيرت نظرتي إلى المصارعين والثيران. أما العقاب الرابض فوق الأرينا ينتظر اللحظة المناسبة لإعلان عن وجوده وينقض، لم أعد أحس به كافتراض من خلق الخيال.. أصبحت وكأني أراه، لم يعد بيني وبين رؤيته منقضاً سوى المفاجأة

التي تخفيها اللحظة التالية.. سوى حصاة تتحرك أو بقعة أرض تلين أو قرن يشتبك في قطعة دانتلا تزين ثوب.

أما الميتادورات الذين كانوا يتحركون وآخذ حركاتهم قضايا مسلماً بها لم أعد آخذها كذلك، أصبحت كل حركة من أيهم لها معنى وفيها صعوبة ومشقة، وليس سهلاً على أي انسان أن يقوم بها حتى لو بدت عادية لا مجهود فيها ولا بطولة أو فن، فهي حركات ليست في الهواء الطلق، انها حركات في قلب الخطر.. في فم الأسد، وتحت رقابة عشرات الآلاف من العيون التي لا ترحم، وتحت رحمة كتلة الحياة البدائية المدمرة التى لا تغتفر لحظة ضعف، والتردد أمامها معناه الموت.

حتى الجمهور في نظري تغير، لم يعد في رأيي خارج ساحة الصراع.. أصبح داخلها وجزءاً لا ينفصل عنها، ودوره فيها ليس دور متفرجين آدميين.. أصبح وكأنه جماعة شياطين، آلاف الشياطين! دورها في الصراع هو نفس دور ابليس والشيطان! عملها أن تزيد النار اشتعالاً فتظل تحتج على طعن الثور واضعافه حتى تبقي له كل قوته وضراوته، وتظل تموء وتهتف وتهيب بالمصارع وتوسوس له وتحرضه حتى يضع نفسه في أشد المواقف خطورة، محاصراً من كل اتجاه بمأزق الموت والحياة، مأزق الموت الأكيد والحياة شبه المستحيلة، فاذا حدث هذا تركته حينئذ يواجه مصيره وحده، فدورها ـ دور الأبالسة والشياطين ـ يكون قد أدى مهمته وانتهى، ليبدأ دورها كجماهير متفرجة همها الأوحد أن تنهل كل ذرة متعة وكل بادرة نشوة

من الموقف الذي خلقته شياطينها وحرضت عليه.

تغيرت نظرتي تماماً، وعرفت لماذا اجتاحت الأرينا موجة الحماس للمصارعة، وللمصارع الثالث الذي لم يدفعه الى هذا الموقف الذي واجه فيه الموت مرتين الا السلبية المطلقة التي استقبله الجمهور بها والتي ظلت هي المسيطرة طول الوقت.. سلبية ليست في الواقع إلا تحريضاً صامتاً يضع شرطاً للايجابية والتشجيع والمشاركة أن يريهم المصارع بسالته ويقف ولو مرة واحدة يواجه الموت، وجعلته حصاة صغيرة يفعل هذا، والحماس الذي تدفق جعل اقترابه الشديد من الثور يعرضه لموت ثان نجا منه أيضاً ونال المكافأة.. تلك الأوليهات التي ظلت تجتاح الأرينا في نوبات متعاقبة. لكم هي تافهة تلك المكافأة وكم هو غريب ذلك التكوين الذي ينشأ عليه الميتادور والذي يستعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للموت الأكيد من أجل «أوليهة» اعجاب قد تكون آخر ما يسمعه، بل قد ينتهي قبل سماعها.

ولكنه الاحساس بالأهمية ذلك الذي يدفع الانسان ليقدم على أكبر حماقة في العالم كي يظفر به، انها ليست رغبة في البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته، ولكن لإظهارها للآخرين وأمام الآخرين. انها كالتمثيل وفيها منه الشيء الكثير! الفرق أن الممثل هناك «يمثل» الدور وبمقدار اتقانه «للتمثيل» وتقمصه لشخصية البطل ينال اعجاب الناس، وهنا الممثل «يقوم» بالدور فعلاً، ويقوم به في مسرحية لا يتخيلها أحد إنما في واقع كأنه مسرح، في حقيقة كأنها

خيال، وبمقدار اتقانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال يحظى بالاعجاب. أجل! الفرق بين المسرح وحلبة الصراع أنهم في المسرح يحاولون أن يحيلوا الخيال إلى حقيقة يصدقها العقل، بينما في الحلبة يحاولون أن يحيلوا الحقيقة والواقع إلى أعمال خيالية لا يكاد يصدقها العقل! في المسرح يخلقون من الخيال حياة بطلة تدفع إلى كره الحياة الواقعة وتغييرها، وفي الحلبة يخلقون من الحياة العادية الخاملة نفسها حياة بطولة حقيقية تدفع إلى نفس الغرض، ولكنها تدفع اليه بقوة أعظم ومفعول أشد. ان الانسان في بحثه الدائب عن بطولة الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدم أية وسيلة، حتى تلك الملوثة بالدماء المقطرة بالجريمة. انه بحث أيضاً ولكنه يتم بطريقة نيتشوية عارمة القسوة لا يغفر لها إلا أنها عارمة المفعول في نفس الوقت.

ولو أن هذا الميتادور الثالث نفسه، حين جاءت ساعة القتل لم يتمكن من صرع الثور بالطعنة الأولى، ولا حتى بالثانية، إلا أنه كان قد قدم دليل البطولة وقربانها واضحاً لا شك فيه، وكان الجمهور رغم نهمه الى كل ما يثيره وضيقه بكل ما لا يؤدي الى غرضه ويصيب، على استعداد لأن يصفح عنه من أجل هذا الفشل ويغتفره ولا يموء والمصارع يستخرج السيف أكثر من مرة ليعود يطعن به. ويظل يفعل هذا إلى أن يخر الثور صريعاً لا من الاصابات المباشرة، ولكن بحكم النزيف الذي لا بد حدث داخله.

وهكذا انتهى الشوط الأول من المصارعة وبقي جزؤها الثاني

الـذي كان على المصـارعين الثـلاثـة أنفسهم، وبنفس التـرتيب، أن يصرعوا فيه ثلاثة ثيران أخرى.

وفي أثنـاء الاستراحـة التي سويت فيهـا أرض الساحـة ودخلت عربة رش سريعة خاصة انتهت من بخ الأرض بذرات الماء لكي تبلل فقط رمالها التي جفت، في تلك الأثناء وخلال عشرات ومئات وآلاف المناقشات السريعة التي دارت بين جيران وأصدقاء وأناس لا يعـرفون بعضهم بعضـاً، أجمعت التعليقـات على أن الثيــران ليست بـالقــوة المفـروضة، وكـأن هناك مؤامـرة من وراء الستـار لاختيـارهم صغـاراً ضعافاً هكذا ليكونوا للمصارعين غنيمة سهلة.

وأجمعت التعليقات أيضاً أنه باستثناء المصارع الأول، صديقي الـذي سـرني سـروراً خفيـاً هـذا الاجمـاع على استثنـائـه وتفضيله، فالجميع دون المستـوى المفروض. وبـدأت حناجـر أسبانيـة عجـوز محروقة تترحم على كبار المصارعين في الزمن الغابر، وتـذكر بـالخير بعض الشبان المعاصـرين أمثال بـاكوكـا مينو ودييجـو بورتـا وجواكين برنادو وجيم أوستوس وغيرهم. ولكن الأمر لم يعدم أصواتاً أكثر تفاؤلاً بدأت ترتفع وتدافع عن المصارعين اللذين كان أحدهمـا برتغـالياً من لشبونة وكان الآخر من أسبانيا الشمال من برشلونة وتقول ان ما حدث سببه الوحيد رهبة المواجهة الأولى، رهبة لا بد أنها زالت الآن تمامـاً وأنهم لا بد بسبيلهم إلى مشاهـدة عرض رائـع في الجزء الثـاني. وما لبثت آراء بقيـة المعلقين أن انساقت وراء هـذه التفسيـرات المتفـائلة مستسلمـة للرأي أو مفضلة في الحقيقـة أن تتفـاءل وتستسلم على أن

تظل على عنادها متشائمة.

وكان مكان جارتي الفتاة خاوياً، وقبل أن تذهب بي الظنو
إلى أبعد من الساحة وجدتها قد عادت متأبطة باقة أزهار لا أعرف
كيف وجدتها وبمثل تلك السرعة. ولكنها كانت تلهث وفي عينيها
ذلك البريق الذي يفضح تصميمها على أمر ما. وكانت منفعلة تبدو
كمن فقدت لتوها وربما لأول مرة في حياتها السيطرة على نفسها حتى
انها فعلت ما لم أكن أتصور مطلقاً أن تفعله، بدأتني بالكلام لا أذكر
كيف ولا في أي موضوع، ولكنا في دقائق قليلة قلنا أشياء كثيرة يأخذ
الناس في العادة ساعات طويلة ليتمكنوا من قولها. وأغرب شيء أننا
تحاشينا تماماً ذكر الحادثة التي سببت كل هذا وحيرتني، فقد كان
شكلها أسبانياً ولكنها كانت تتكلم الانجليزية بطلاقة وكأنها لغتها
الأولى، وتتكلمها بخناقة أمريكية واضحة.

وخمنت أنها ليست أمريكية ولكنها تحيا في أمريكا، فغير
الأمريكان يبدون أكثر تمسكاً ونطقاً باللهجة الأمريكية من الأمريكان
أنفسهم. والمفاجأة كانت حين أخبرتني أنها من كوبا، ولكي لا تترك
ظلاً من الشك أردفت أنها ضد كاسترو وأنها لا تتمنى شيئاً في الدنيا
قدر أن تراه مهزوماً كذلك المصارع الثاني مدحوراً.

ورغم أني أحسست أن حاجزاً سميكاً قد سقط بيننا فجأة، إلا
أن الحديث لم ينقطع وعرفت أنها ابنة أحد كبار مزارعي الدخان
الذين طردهم كاسترو. ورغم هذا فهي لم تكن تحيا في كوبا، كانت
تعيش وتتعلم منذ طفولتها في ميامي حيث كان لأبيها فيللا يأتي اليها

مع العائلة بطائرته الخاصة من عاصمة كوبا «هافانا» ليقضي معهـا هو والعائلة نهاية الأسبوع. وقد جاء الأب ليحيـا معها بعـد أن «ذهب كل شيء»، أمـا لماذا هي في أسبـانيا فـالسبب قصة طـويلة حول ميـراث وقضية وأب أصابته الصدمة بانهيـار وأصبح العبء كله على عـاتقها، وليست هذه أول مرة تأتي فيها لمدريد، ولا المرة الأولى التي تشاهـد فيها المصارعة، ولم تكن أبداً ـ في حياتها تتوقع أن يحـدث لها شيء مثلما حدث.

كـانت تتكلم بلهجة التي تعـرف ما تـريـد ولا يمكن أن يثنيهـا شيء عن تحقيقه. كلام ولهجة وشخصية ما أكثر ما تقابلهـا في الجيل الأمـريكي الجـديـد، الجيـل الـذي لم يـزجـره أب ولا نصحتـه أم، المدلل الذي عودوه منذ الصغر أن تكون رغباته ونزواته قوانين تتـطوع الأسرة بتقديمها وهو طفل، ويفرضها بالقـوة وهو كبيـر. وكانت جميلة جمالاً لاتينياً متفجراً وان كانت الحيـاة في ميامي قـد شذبتـه وأمركتـه وصبغت أنـوثتهـا ـ كمعـظم الفتيـات الأمـريكيـات ـ بعنـاد الـذكـور وحقوقهم، وأحياناً بصفاقتهم وخشونتهم.. حقيقة تـدفعك للعجب أن تكون هي نفسها الفتاة التي تجمدت محمـرة خجلاً منـذ وقت قليل، فقد كان بادياً عليها أنها من صنف وجيل لم يعرف الخجل ولا جربه، ولا يستحي حتى من رغباته الخاصة جداً. اذ هو يعتبر أن كل ما يريده ويحس به قانوني وحلال. ثم لماذا الاحساس بـالخجل أمـام الناس، ولا أحد يقيم لهؤلاء الناس وزناً أو يعطيهم الحق في الحد من حريتـه وحرية تعبيره عن رغباته؟ ربما كانت هذه المـرة الأولى التي يدهمهـا

فيها احساس كهـذا وعلى تلك الصورة. وربمـا أيضاً.. ولأنـه الوحيـد الـذي استطاع أن يجبـرها على هـذا الموقف الأنثـوي الخالص.. لن تنسى أبـداً لهذا الميتـادور فعلته، بـل الـواضـح أنهـا بـدأت ، وقـد خرجت وعادت تحمل الزهور «تصرف أنثوي آخر»، بـدأت تنسى كل شيء.. مزارع التبغ وميامي والقضية وأبـاها وحتى كـاسترو، ويصبـح همها الوحيد في دنياها ـ هنا ـ معلقـاً بهذا المثلث الشـاحب الرشيق، بوجه صديقي الذي اخترته أنا الآخر ولآسباب أخرى كي أغـدق عليه اهتمامي وأرعاه رعاية الأب لابن ضال.

-١٠-

ودوت أصوات الأبواق عالية بحيث سمعها الجميع هذه المرة، ولفت أصداؤها أنحاء الأرينا. ورفع مراقب المصارعة السبورة الخشبية التقليدية التي يكتبون فيها اسم المصارع. كنت أعرف ومتأكداً هذه المرة أنه دور صديقي الميتادور، ولأنني أستغربت أن أكنّ له كل ما أشعر به وأنا لا أعرف مجرد اسمه، فقد حاولت أن أدير رأسي مع السبورة كي أقرأ الاسم من مكاني والمراقب يلوح بها في كل اتجاه، ولكني لم أستطع. وعرفت حينئذ أن عليّ أن أظل أجهل اسم ذلك الصديق حتى وهو يخوض للمرة الثانية مأزق الموت والحياة.

وبينما خلت الساحة تماماً من المصارعين الذين اختفى كل منهم وراء أقرب حاجز خشبي، دوت أصوات الأبواق مرة أخرى.

وفتح باب الممر المؤدي الى الحظيرة.

ودخل الثور هائجاً كالعادة، مندفعاً متفجراً.

ولكن دخوله قوبل بآخر ما كنت أتوقعه. فقد انفجرت في الحال

بقع احتجاجات متفرقة، وبدأت الصيحـات تنتشر وتشمـل مساحـات أوسع من الجمهور.

كان واضحاً أن الجمهور لا يعجبه الثور، ويرى أنـه أصغر سنـاً مما يجب وأقل قوة.

وكانت الصيحات تطالب بتغييره.

ويـدأت معـركـة خفيـة بين المشـرفين على «الفييستـا» وبين الجمهور، المشرفون هدفهم الإسراع بالإجـراءات التمهيديـة لوضـع الجمهور أمام الواقع، والجمهور يقاوم هذا بكل قـوته ويـطالب بتغيير الثور.

أما الثور فقد كان أمره يدعو للحيرة، فهو في أحيان يبـدو قويـاً يملك طاقة لا حد لها، وفي أحيان أخرى يتوقف فيظهر حجمه وسنـه على حقيقتهما. وتتعالى صرخات الجمهور.. بل دفعته سرعته الرعناء التي يتحرك بها مرة الى أن يتعثر ويسقط على أطرافه الأمـامية، ولكن الاندفاع الجبار الذي كان قادماً به جعله يحمل جسده كله ويقلبه الى أمام مرتكزاً على قرنيه ليعود ينقلب مـرة أخرى ليقف معتـدلاً وينطلق وبنفس السرعة إلى هدفه لا يلوي على شيء.

وبـدأ المصارعـون يبرزون ويلوحـون، والجمهور يـزداد تشنجه وصخبه.

وكمحاولة أخيرة من المشرفين دوى صـوت الأبواق يـأمر راكبي الفرس « البيكادورز» بالدخول. وكأنما كان هذا ليس فقط اشارة البدء

لدخولهم وإنما لاستماتة الجمهور أيضاً في رفض الثور. فقد شملت المدرجات كلها موجات متعاقبة متزايدة صاخبة من المواء والصفير والهدير الغاضب.

ولكن الباب كان قد فتح ودخل الفارسان وكل منهما قابض على حربته. ولم يلبث كل منهما أن مضى الى النصف الخاص به من الدائرة الرملية بحيث اذا اختار الثور أن يهاجم أحدهما انسحب الآخر.

وسكب دخولهما وقوداً جديداً فوق النار المشتعلة، وازداد الجمهور عنفاً، وبدأت القبضات تلوح وألفاظ السباب تسمع واللعنات من كل اتجاه تنصب على الفارسين اللذين تسرب الشحوب إلى وجهيهما. وبدأ أحدهما يلوح بحربته مهدداً الجمهور في حركة لا ارادية.. ولكنه تهديد الخائف الشاحب، خوف يدعو للتأمل، فهذا جمهور لا قرون له ولن يقتل غضبه، ولكن صيحاته.. جثيرة.. عداءه بعث في قلوب الفارسين رعباً دونه رعبهما من الثور والخطر الداهم بكثير.

ولم يكن هناك وقت لتأمل أكثر، في هذه اللحظة دوت أصوات الأبواق مرة أخرى.

حسبتها الغالبية أمراً للفارسين ببدء الهجوم.

ولكنه كان أمراً من رئيس الاحتفال وقاضيه الأعلى يطلب منهما

الانسحاب ومغادرة الساحة. وارتجت الأرينا بتصفيق كاصطفاق أمواج المحيط.

وفرح الفارسان وقد عادت الدماء الى وجهيهما بعد طول امتقاع.

وكذلك انسحب المصارعون بعباءاتهم الى ما وراء العوارض الخشبية.

وبقي الثور وحيداً وسط الدائرة الرملية.. واقفاً وقفة تحفز.. ينظر في ريبة إلى السكون المفاجىء الذي شمل الدنيا فجأة من حوله.

ولا بد أن الخطوة التالية كانت اخراجه من الساحة. والمشكلة العويصة التي وجدتها تحتل كل تفكيري هي كيف ومن الذي يجرؤ وأية قوة يمكنها أن تجبر هذا الكائن الجهنمي الطليق أن تجعله بطريقة أو بأخرى يعود الى دخول الباب الذي خرج منه؟

وكنت على يقين أن التراث الطويل للعبة قد أوجد حلولاً لمثل هذه المواقف، ولكن أي حل، ذاك ما رحت أفكر فيه وكأن الموضوع لغز عليّ أن أخمن له حلاً سريعاً قبل أن أرى الحل الصحيح أمامي بعد قليل.

وقد فكرت في طرق شتى ولكني أبداً لم أتصور أن يكون الحل الذي ابتكرته التجربة الطويلة والخبرة سهلاً وبسيطاً وعبقرياً الى هذه الدرجة.

الطريقة أنهم أدخلوا في الساحة ثلاث أو أربع بقرات من نفس الفصائل، وقد علقوا في رقابها علباً من الصفيح داخلها قطع معدنية تحدث ضجة كلما اهتزت. وقد كنت أحسب إناث هذا النوع لها نفس شراسة الذكر وطبيعته العدوانية، ولكن البقرات دخلت في هدوء وكأنها بقرات مستأنسة. وقد كنت أتصور أيضاً أن الثور سينقض عليها لحظة أن يراها مثلما يفعل بالحصان أو بالخشب أو بأي مما تقع عليه عيناه، ولكنه ما كاد يسمع أصوات الخشخشة حتى رفع رأسه مترقباً والأبقار تسرع الى وسط الحلقة حيث يقف، ليس إسراعاً أهوج متفجراً أحمق، ولكنه اسراع الإناث المتأني، إسراع الحياة الحريصة على استمرارها.. المعقولة.

وفي ثانية كان الثور قد اختفى بينها وأصبح فرداً من قطيعها، يتحرك معه اذا تحرك وبنفس سرعته، ويقف اذا وقف وتنطبق عليه كل قوانينه. وقد زال عنه توتره وتحفزه ورعبه، وأيضاً زالت تماماً كل رغبة لديه في المهاجمة أو الانقضاض وأصبح وكأنه الابن الضال الخائف المتوجس وقد عاد لأحضان أمهاته وخالاته وعماته، وزالت عنه صفات الشريد المجرم لتحل محلها وداعة أبناء الأسر.

وكان التغير سريعاً وحاداً وملحوظاً إلى درجة لا بد تصيب المتتبع له بذهول. لكأنما عصا ساحر أشارت فاختفى الثور المرعب في ومضة وحل محله ثور آخر مختلف في كل شيء عنه. أتراها الأمومة؟ أم هي سحر الجماعة والقطيع؟ أم هو الاحساس بالونس؟ أم هذا كله مجتمعاً؟.. إلى درجة لم أصدق فيها ما أراه حين دخلت

إلى الحلقة بعد هذا فرقة من ثلاثة أو أربعة فتيان غير مسلحين إلا بسياط تفرقع في الهواء، وبفرقعتين تحرك القطيع مسرعاً ناحية باب الخروج تحركاً لا تستطيع أبداً أن تميز فيه الثور المتوحش من البقرات المستأنسات. وهكذا وفي مثل لمح البصر انحلت المشكلة التي خيل إليّ أنها ستستغرق أزماناً لحلها.

وأحسست بحاجتي أن يشاركني أحد فيما أفكر فيه وأتصوره، وليأسي من جاري الأسباني وبيننا الخندق اللغوي العميق، التفت إلى جارتي الفاتنة المحتضنة زهورها والسابحة في وديان، ويبدو أني فعلت هذا في وقت مناسب جداً وكأنها هي الأخرى كانت تهفو إلى من تشاركه، حتى خيل إليّ أني ألمح ألفاظ الحوار المتزاحمة تكاد تنزلق من تلقاء نفسها وتغادر طرف لسانها. وكادت الانجليزية التي أتقنها تخونني وأنا أحاول أن أجسد لها الخواطر التي راودتني وأنا أراهم يستعملون سلاح الأمومة للقضاء على وحشية الثور ورغبته في البطش.

ودون أن تعتدل وجدتها تقول في اعتداد كسول وبلهجة من تعودت أن تقو ل رأيها ليصبح للآخرين منزلاً وقانوناً:

ـ لا أمومة هناك ولا شيء من هذا.. المسألة تدريب، لقد دربوا الثور على أن دخول الأبقار وما يصاحبها من ضجة معناه الأمان ومعناه أن عليه أن يترك تحفزه وبطشه. نوع من الانعكاس المشروط، ألا تعرفه؟ ألا تعرف الانعكاس المشروط الذي اكتشفه بافلوف؟.

أعرفه؟!.. لقد كان باستطاعتي أن أقضي اليوم بطوله أناقشها فيه. ولكن ما فائدة أن تناقش انسانة لا تناقش لتقتنع أو حتى لتظل على الحياد وإنما هي تناقش فقط لتقنعك، اذا فرض وتنازلت هي وقبلت مبدأ أن يستمر النقاش، هكذا بدت حتى وهي هادئة تائهة سرحانة.

وكان غريباً منها، وفي ظرف كالذي كنا فيه، وفي أحرج فترة.. تلك الواقعة بين إخراج الثور وإدخال الآخر الذي لا بد أنه أقوى وعورة وخطراً، خطورة حتماً سيتحمل وزرها وضراوتها صديقها الميتادور الذي خصها بعنايته والذي تحمل له الزهور. غريب منها في لحظات حرجة كتلك أن تستطرد سارحة أيضاً وتائهة لا لتكمل النقاش حول كيفية اخراج الثور وإنما لكي تسألني عن شيء خاص بي أنا.. عن جنسيتي. سؤال لم تصدق أني أقول لها الحقيقة مجيباً عنه. وبعناد غريب يضحك رفضت أن تقتنع أني عربي من مصر، وحمداً لله انها اكتفت بهذا الرفض ولم تشأ أن تفرض بمنطقها شديد المراس المدلل جنسية أخرى. والظاهر أننا كنا لا بد سنصل عاجلاً أو آجلاً الى الموضوع الذي تحاشيت دائماً أن نخوض فيه، فقد سألتني عن رأيي في كاسترو وثورته. وكأنما كانت تتوقع الاجابة فلم يبد عليها الامتعاض الكثير الذي توقعته، وإن شعرت أن مجرد نطقي بالرأي قد حدد الى درجة ما علاقتنا الى الأبد، وجعلها تنزل من ناحيتها حاجزاً سميكاً لا يمكن اختراقه أو تجاهله. ومن خلال الحاجزين.. ذلك الذي أسدلته من ناحيتي والذي أسدلته من ناحيتها.. بدا أن لا محل

ولا مجال لأية خطوة مقبلة نخطوها معاً. فالأمر عندها ليس خلافاً في الرأي أو سياسة. ليس هناك إلا واحداً من اثنين: إما أن تكون معها فأنت حينئذ صديقها، أو عليها وضدها لكي تصبح عدوها اللدود الذي لا تتورع عن محاربته بكل سلاح وأي سلاح! والناس بالتالي ليسوا في نظرها بشراً لهم حيواتهم ووجوودهم وآرائهم الخاصة، ولكنهم أيضاً إما معها أو ضدها. إما أعداء أو أصدقاء ولا وسط ولا حياد. والعداوة عداوة كاملة! والصداقة أيضاً ليس فيها درجات! فهي تبغضك اذا نسيت وتجاهلتها ولم تحبها.. تماماً مثل بغضها لك اذا قتلت أباها. عداوة وصداقة ليست بالعقل ولا بالمعقول ولا تخضع لمنطق أو حجج. فهي لا تستطيع أن تبرر لك عقلياً كرهها لكاسترو، وتجد أن من الاهانة لها أن تطلب منها تفسيراً لرأيها، اذ يكفي جداً أنها هكذا أرادت وعليك أن تقبل وليس على العالم الا أن يخضع لتلك الارادة، وإلا عادته وأصبح في نظرها هو ذلك العالم المقيت السخيف الذي لا معنى له.

وكم أحسست بنفسي موزعة مشتتة بين كلامها الذي يكشف عن شخصية جديرة بالدراسة والتفرج، وبين انشغالي الأعظم بالمصارعة وبالثور الذي خرج، وبصديقي الميتادور وغريمه الذي لا ريب سيدخل حالاً.. أريد أن أترك كل شيء وأسمعها ولا أستطيع إلا أن أهب نفسي تماماً للدقائق الرهيبة التي يضمني فيها ذلك العالم الجديد عليّ تماماً.

غير أن الواقع نفسه لم يلبث أن تكفل بضبط اهتمامي.

فقد تصاعد صوت الأبواق يعلن فتح الباب للثور الجديد.

واندفعت الكتلة السوداء داخله.. وأسكت دخول الثور الساحة تماماً وقضى على كل ما كان باقياً من همهمات. فقد اختير وكأنما ليفحم الجمهور الحاضر ويغلق أفواهه. بدا للآعين أضخم من كل ما سبقه من ثيران وأكثر قوة وشراسة. ولم يندفع إلى الحلقة في جري مراهق مجنون مثل سابقيه، ولا مضى بحمق وإسراف وبذخ يبعثر قواه في سباق موهوم لا طائل من ورائه، بدا وكأنه مدرب محترف لا حد لثقته بنفسه، يدخر قواه كلها الى اللحظة التي يلمح فيها هدفاً أو تتحرك أمامه عباءة. حينئذ وباندفاع ديناميتي صاعق، وفي أقل من غمضة عين يكون قد انطلق ووصل وانقض على الهدف مكتسحاً اياه بكل سرعته وكتلته، وما في جسده المحشو من طاقات، وكأنه «بولدوزر» خرافي كفيل بتحريك الجبل اذا اعترضه، بل كفيل بسحقه ونسفه وتحويله إلى هباء. ثور ما كاد يدخل ويلوح له بالعباءة مرة أو مرتين، ويقطع الدائرة الرملية منقضاً، ويبدأ الناس يمعنون فيه النظر ويتأملونه حتى تأكدت أن كلاً منهم لا بد قد أصيب بنفس القشعريرة التي أحسستها.. حتى وأنت واثق تماماً ومتأكد أنك بعيد عنه وأنه لن يقترب منك أبداً ومستحيل أن يهاجمك لا تملك إلا أن تحس بالخوف.. ذلك النوع من الخوف الذي نشعر به تجاه كل شيء مهول مطلق بغير حدود، تجاه كل ما ليس له ند، تجاه كل ما لا يمكن التصدي له أو مقاومته.

ولأول مرة أحسست بالقلق العظيم يتحول إلى خوف حقيقي،

خوف على صديقي الميتادور الذي كان عليه أن ينازل هذه القوة الغاشمة المطلقة. صحيح هو قد أثبت لي وللألوف الثلاثين ومنذ وقت قليل أنه بطل وأنه حاذق، وأن باستطاعته أن يصرع الثور في لمح البصر.

ولكن ما رأيناه شيء وما كنا نراه شيء آخر.

رحت أتأمل الثور وأعود أتأمل الجزء الظاهر من جسد صاحبي الدقيق النحيف، وما من مرة أعقد المقارنة إلا وأحس أني على وشك أن أصرخ طالباً منه أن يترك الساحة وينسحب. وكأنه سمع الصرخات التي لم تنطلق، ففي تلك المرحلة الأولى حيث يتناوب المصارعون محاورة الثور لدقائق قليلة لاختبار مدى قوته وإدراك نقط ضعفه ومعرفة طريقته في الهجوم ومبلغ تحكمه في جسده وأطرافه، خرج له صاحبنا يتحداه ويستفزه، بجسد بدا أنحف وأدق مما يكاد يتحول إلى مستطيل..

وانقض الثور بكل عنفه وقواه، وببساطة غريبة تحاشى الميتادور هجمته، وانقض ثانية وتحاشاه.. ومرة ثالثة استجمع كل البدائية والتوحش وانقض وتحاشاه، وتصاعد من الأرينا تصفيق كأنه علامة اطمئنان كبرى.

واسترجعت بعض انفاسي، وتضاءل خوفي ولكنه ظل هناك.

وبدأت مرحلة البيكادورز راكبي الأحصنة.. مرحلة الطعن للإضعاف. ولم يقدر للفارس الأول أن يفعل شيئاً، فبضربة واحدة من

قـرنيه أطـاح الثور بـالفرس وألقـاه كتلة لا تتحرك في نـاحيـة، وسقط الفـارس في ناحيـة أخرى. ضـربة من القـوة بحيث اعتقـد النـاس أن الفارس والفرس قضيا، ولكن كان لا يزال في عمرهمـا بقية، وتكفـل ثمـانية مصـارعين بشغل الثـور وقتاً أمكن فيـه إيقاف الفـرس المكـوم وإخراجه، وكذلك فعلوا بالفارس.

وبـوجه ليمـوني أصفر دخـل الفارس الثـاني وهالـة من إشفـاق الجمهور تحفه، الجمهور نفسه الذي لا يكره شيئاً قدر كرهه للفارس ودوره وقد قلب جبروت الثور عواطفه وموازينه.

والمفروض أن الثور لا يهاجم الفرس مباشرة، ولا يفعل هذا إلا بسلسلة من المحاورات يقوم بهـا المصارعون على التوالي ليـزحزحـوا الثور من مركز الدائرة الرملية في الوسط إلى ذلك الجزء من محيـطها الذي يوجد فيه الفارس. وفقط حين يحدث هذا ويلمح الثـور الفرس يبدأ في مهاجمته.. هذه المرة ومن مكانه في مركز الدائـرة لمح الثـور الحصـان وراكبه، ولم يحتـج الأمر منـاورة أو مـداورة فقـد أقبـل في زوبعة سوداء هائلة، ولولا أن الفارس تحرك بفـرسه قليـلاً وفي الوقت المناسب لحدثت كارثة، اذ بهذا الانحراف القليل تفادى من الصـدام المروع وانكشف له ظهر الثور، ولم يلبث أن غرس فيه بجمـاع قوتـه الحربة. وظل الثور يدفع الفرس برأسه، والفارس بكل ما فيـه من قوة ومـا تسلط عليه من رعب يـدفع الحـربة بين كتفيـه. الثور يـدفع وهـو يدفع. اللحظات نفسها التي يتأوه لها الجمور تقززاً وتألماً لم تحـدث شيئـاً من هذا الأثـر، فالثـور كان يبـدو للجمهور كمـارد عمـلاق غيـر

محـدود القوة لا يمكن أن يتـألم أو تؤثر فيـه طعنات. حتى حين خلع الفارس حربته ورشقها في النـاحية الأخـرى طاعنـاً إياه طعنـة ثانيـة، مصراً على إبقاء الحربة مغروسة في لحمه، ودفعها بأقصى قواه وطعنه، لم يتأثر الجمهور أو يتململ فقد كان على استعداد لتقبل طعنـة ثالثـة ورابعة.

ولكن الأبواق دوت معلنة انتهاء مهمة الفارس.

وكذلك دوت الساحة بموجة تصفيق ربما المرة الأولى والأخيرة التي يصفق فيها الجمهور لفارس على مهمته المقيتة وعلى نجاحه في أدائها.

وانسحب البيكادور وهو يحيي الجمهور ووجهه يطفح بالسعادة، وكان أقصى ما كان يتوقعه أن يخرج سالماً واذا به يخرج بطلاً أيضاً.

وجاء دور غارس الأعلام «الباندريللوس».

وأن تفعلها مع أي ثـور أمر قـد يكون معقـولاً، أما مـع هذا الثـور بـالذات فهـو انتحار لا شـك فيه. اذ قـد بدا من تحـركاتـه الأولى أنه يملك مقدرة هائلة على تكييف اندفاعـه وضبط تصويبـه والقدرة على إيقاف نفسه في الحال والاستدارة ثم الانـطلاق بنفس سرعتـه الأولى المخيفة.

ولكن المــرحلة تمت ودون أي حـادث، والجمهــور لا يكـاد يصدق وغارس الأعـلام نفسه كـأنه في حلم أو أنقـذ من موت محقق بمعجزة أو بأعجوبة.

هكذا كانت ملامحه تنـطق وتوزع ذهـولها على زمـلائه والثـور

والمدرجات. وبنفخة بوق طالت وامتدت أعلنت بداية مرحلة الصراع الحقيقي «الميوليتا».

ومن خلف العارضة، وبقناع شامل من الثقة والشموخ، وبخطوات ارادية محسوبة تحرك صديقنا الميتادور آخذاً طريقه داخل الدائرة مقترباً من الثور.

ولا بد أن خطأ كان قد وقع أو حدث، فقد سرت في المدرجات همهمة، ارتفعت داخلها أصوات سرعان ما لفتها نوبات دهشة واستغراب.

وزادت دهشتي حين بدأت الأنظار تتجه إلى ذلك الجزء من المدرج الذي كنا نجلس فيه. حركة جعلتني أفيق من الأحداث التي جرت وامتصت انتباهي وأعود أفطن إلى وجود جارتي اللاتينية الفاتنة التى لا بد أن الأنظار تقصدها، وتقصدها لسبب ما.

ووجدت نفسي أقتحمها أنا الآخر بنظراتي.

كانت الحمرة هذه المرة ليست أبداً حمرة الخجل.. حمرة قانية.. حمرة دم محروق لا يزيده الزمن إلا سواداً.. وكانت ملامحها جامدة أيضاً ثابتة لا تتحرك،ووجهها قد انحرف ينظر إلى ناحية. نفس صورتها الأولى مع فارق أساسي واحد أن السبب فيها لم يكن الخجل، كان الغضب.. غضب المدللين الجارف العنيد. فقد كان وضاً بعد هذه التحية التي تلقتها منه في المرة الأولى أن يأتي إلى ـلس هذه المرة ويحييها قبل أن يبدأ صراعه مع الثور، علناً

وأمـام الناس، ويقـذف لها بقبعتـه مهديـاً اليها عمله «الفني» الخـطير الذي يوشـك الإقدام عليـه. ولكن شيئاً من هـذا لم يحدث، فهـا هو يتجه إلى الساحة ومعه العباءة الحمراء دون أن يهـدي اليها أو يهـدي إلى أحد شيئاً، وها هي جماهير المتفرجين، حتى المتفرجين، تتذكر ما كان يجب عليه عمله وتلتفت اليها، بينما هو ـ وكأنما لم تكن ـ ولا حدث بينهما شيء.

كانت احدى يديها تقبض على باقة الزهور بشدة بينما الأخـرى تسحق زهرة اختارتها وأخرجتها من مكانهـا ومضت تمزقهـا بأصبعيهـا ووجههـا أسود بـالاحمرار والغيظ.. غيـر أن هـذا لم يـدم إلا للحـظة تمالكت نفسها بعدها، أو على الأقـل هذا مـا بدا، ووضعت الـزهور جانباً وارتكزت على الحاجز أمامها بكلتا ذراعيها وانصرفت تمـاماً، أو هكذا بدا أيضاً، الى التفرج ومتابعة ما يدور في الساحة.

كنت أتمنى لو استجابت للضعف الأنثوي مرة وأسقطت دمعة، اذ ليس أجمل من أن ترى العناد المدلل وهو يتحطم أمامك رغماً عنه وعن صاحبته.

ولكني لم أشأ أن أضيع الوقت في انتظار ظهور دمعتها، وعدت إلى الساحة.

مرحلة الميوليتا بالذات، قمة اللعبة وأروع ما فيها، مرحلة لهـا كيانها المستقل وخصائصها. الميتادور يكون قد اشترك مع زملائه فيما قبلها من مراحل وخبر الثـور وعرف الكثيـر عنه. ولكنـه لا يبدأ يعـرفه

معرفة حقيقية إلا هنا، حين تخلو الساحة تماماً إلا منهما، حين تصبح عليه وحده مسؤولية مواجهته. ولهذا فدقائقها الأولى مليئة بالتوتر والأعصاب المشدودة وكل المظاهر المصاحبة لبداية العمل الخطير، ولكنها مظاهر وظواهر لا تبدو الا لعين خبيرة. فالمصارع يحرص بوعي شديد ـ ولعله العمل الواعي الوحيد الذي يقوم به المصارع عن ارادة وإدراك خلال تلك الدقائق ـ يحرص على إخفاء حالته تماماً في ثوب الكبرياء الذي يرتديه والبطء النسبي الذي يتحرك به.. لكأنه يقدم لغريمه أول مرة ويحرص على أن يبدو أمامه على هيئة المترفع المتعالي الذي يتنازل ويقبل مصارعته. هكذا يبدو الميتادور وهو واقف وقفته التقليدية معوج العنق، رافعاً ذقنه في شموخ، نافخاً صدره، متراجعاً برأسه إلى الوراء، داقاً الأرض بقدمه دقات تتلوها وتسبقها أصوات منادية مستفزة يتحدى بها الثور أن يهاجمه كاشفاً له الوجه الأحمر للعباءة ليثيره ويدعوه إلى الانقضاض.

والحقيقة لا تكون هناك حاجة لاستثارته أو دعوته، فهو المبادر دائماً بالحركة.. المندفع.. يهاجم في كل اتجاه، المثير في غريمه كل ذلك الاضطراب الأول، والتوتر وشدة الأعصاب.

وكل هجمة من الثور تزيد من اضطرابه وضعف ثقته بنفسه.

وكل حركة من المصارع يحشد لها كل طاقته المشتتة ويضع فيها كل حذقه ليرد بها على الهجوم، وكل حركة كهذه تصدر عنه ولا تظفر من الجمهور بتحية أو ترتفع لها «أولية» تزيد الموقف تعقيداً والأعصاب المشدودة توتراً.

يـظل الميتادور هكـذا واجف القلب فاقـداً الثقة ضـائعاً بـالكاد يستطيع التماسك والوقوف، خـائفاً من الثـور خوفـاً يضيف الى وجهه كل جزء من الثانية طبقـة صفرة جـديدة، يـظل هكذا إلى أن يحـدث ويأتي بحركة رد يخرج بها من مأزق وعر، فتفلت من الجمهور رغمـاً عنه آهة الاستحسان الأولى. فقط حين تتصاعد هذه «الأوليـة» الأولى وتصاعدهـا بالمنـاسبـة ليس أمـراً سهـلاً، ففي دقـائق البـدايـة يقف الجمهور دائماً من الميتادور موقف المتحفظ الكـابح لجمـاح انفعالـه بحيث يظل بإرادته يؤجل إظهار استحسانه إلى حركة أروع وأخطر.

واذا ترك امر لإرادتـه فمن المحتمل جـداً أن تنتهي المصارعـة دون أن تـظهر بـادرة استحسان، ولأن اظهـارها أمـر مهم وهـو الـذي يجعل المصارعة تحمى والمصارع يقـوى وينتصر. بغيـر مشاركـة هذا العنصر المهم فلن توجد اللعبة أو قد توجد على هيئة محاورات باردة لا تثيـر أية متعـة أو انفعال. ولهـذا فصيحـة الاستحسـان الأولى تـأتي دائمـاً لا ارادية، أكثـر من هـذا، تـأتي رغم ارادة الجمهـور الكـابت لرغبته كلما انتابته الرغبة لإظهار الاستحسان.

هذه «الأولية» الأولى هي الشرارة التي تحدث وتضرم النيران.

فعلى أثرها تنتهي تماماً كل مظاهـر اضطراب البـداية ويتحـول المصارع من طرف سلبي همه أن يدافع عن نفسه ضد هجمات الثور حتى وإن بـدا أنه هـو الذي يستفـزه للهجوم، إلى الـطرف الايجـابي الذي يسيطر على المصارعة ويحركها ويزيد سرعتها ويبطئها. الـطرف الـذي يحرك الثـور في الاتجاه الـذي يريـد، فيضيق عليه الخنـاق أو

ينصب له الشرك، صاحب اليد العليا.

وهنا وحين تتخطى مرحلة الميوليتا هذا الطور الأول ينسى الميتادور شكله المتكبر المترفع الذي يحب أن يبدو به أمام الثور وأمام الناس، ويبدأ يتحرك بحرية وبلا أي تقيد بالمظهر وهمه كله أن يستغل قدرته على التحرك السريع وخفته كي يتغلب بها على شدة مراس خصمه وقدرته الجبارة على الجري والاندفاع.

وهكذا مضى صديقي الميتادور وكل أعصابي وانتباهي وتركيزي قد أصبحت جميعها معه وكأنني أخوض المعركة بجواره، مضى يحاور الثور الذي بدا، بارتفاع منطقة أكتافه الأمامية وعنقه ورأسه عن بقية جسده، كأسد بقري متوحش أحضر لتوه من الغابة.. أسد لم يتكفل جسده العاري من كل فروة أو شعر بتخفيف حدة مظهره أو كتلته،، وكأنه مصنوع من صخر أسود كثيف ثقيل أو من حديد حي، الضخم ضخامة لا بد تبعث على الدهشة والذهول اذا قورنت بسرعته وقدرته على الاندفاع من الصفر إلى سرعة أكثر من المائة كيلو متر فجأة، وقدرته الأخرى الخارقة على التوقف فجأة أيضاً، والهبوط من المائة إلى الصفر مرة واحدة. وليس توقفاً فقط ولكنه التوقف والدوران دورة كاملة ثم معاودة الاندفاع من الصفر إلى المائة، وكل هذا يحدث في لمح البصر ويصدر عن هذه الكتلة الثقيلة الرهيبة الضخمة.

وفي مقابله كان صديقي الميتادور، عوده له مثل رشاقة ملامحه.. ليس فارع الطول ولكنك لا تحس به قصيراً، وساقاه تبدوان

في سـروالـه الضيق الـلاصق بهمـا رفيعتين كنبـوتين من نبـابيت «الصعـايدة» عنـدنا ولكنهمـا أيضاً تبـدوان غير هشتين بـالمرة وكـأنما صنعتا من خشب الرمـان، سريعتي الحـركة بـطريقة لا تكـاد تراهمـا وهما تتحركـان حتى لتظهـرا وكأنهمـا ثابتتـان، ولا وجه للمقـارنة بين حجمه وحجم الثور. لا يكـاد حجمه أو وزنـه يعادل طـرفاً واحـداً من أطراف الثور الأربعة، ولعل هذا ما كان يدفع الثور إلى الجنـون وإلى الهجوم بجنون على ذلـك الشيء الصغير الـواقف أمامـه في الساحـة يتحـداه ويقف اذا هاجمـه ولا يهرب منـه أو يخاف، مستغـلاً الفـارق البسيط الذي ميزته به الطبيعة أبرع وأروع استغلال. فـالثور رغم كـل جبروته وضخامته يتحرك على أربع، مسألة قد تبدو غير مهمة اذا كان الثور منطلقاً في جريـه إلى الأمام، أمـا حين يتطلب الأمـر استدارة أو انحرافاً أو تغييراً للاتجاه تصبح الأطراف الأربعة كارثة معـوقة، ويبـدو الثور عندها وكأنه العربة بلا «دركسيون» اذا كان عليها أن تنحرف فلا بد أن تصنع قوساً كبيراً.

واذا كان عليها أن تستدير لا تفعل هذا بنقطة كما يفعل الانسان في الـطريق. انه يستـدير في دائـرة ويغير اتجـاهـه بمنحنى وينحـرف بقـوس ولا يملك كما لا يملك كـل بني مملكته إلا أن يفعـل هذا إلا اذا ملك القطار أن يتحرك بلا قضبان.

وعلى هـذه النقطة التي تبـدو بسيطة هينـة بنيت لعبة مصـارعـة الثيران بكل مهرجاناتها وتاريخها وآلاف السياح الذين يأتون من آلاف الأمكنـة وينفقون آلاف المـلايين من الدولارات لـرؤيتها. أجـل قدرة

الانسان على أن يستدير حين يريد في نقطة وعدم قدرة الثور على الاستدارة الا في دائرة.. هذا الفرق بين النقطة والدائرة، بين المركز والمحيط، هو الذي يصنع منطقة الأمان التي يحتمي بها المصارع ويضمن ضماناً أكيداً ألا يمسه الثور طالما هو داخلها لا يتعداها. وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حين يقبل مهاجماً وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفاً في مكانه ثابتاً إلى أن يصبح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التي يصنعها الثور اذا دار حول محوره، أي الدائرة الكائنة بين ساقيه الأماميتين والخلفيتين. على المصارع أن ينتظر إلى أن يصبح الثور منه على هذه المسافة، لأنه لو تحرك والثور على بعد أكبر ففي استطاعة الثور أن يغير اتجاهه وينحرف ويصيبه. أما حين تكون بينهما هذه المسافة وينحرف المصارع، فإن الثور اذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقاً أن يصل اليه أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتاز المكان الذي انحرف اليه المصارع حتى أصبح المصارع يواجه منتصف بطنه. وبفرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فوراً فهو لا يملك أيضاً أن يصيب الرجل، وعليه لكي يفعل أن يستدير ليواجهه برأسه.

ولو كان يستدير كالانسان في نقطة، أي هو واقف في محله، لأمكنه فعلاً أن يسدد اليه الاصابة. ولكنه لا يستطيع أن يستدير إلا اذا صنع بجسده دائرة كاملة، وحين يتم الدائرة ويتهيأ للانقضاض لا يجد المصارع هناك أيضاً، إذ يكون الأخير قد انتظر حتى استدار الثور ثم غير من موقفه بطريقة على الثور فيها أن يصنع دائرة كاملة أخرى حول

المصـارع، دائرة المصـارع مركـزهـا، المصـارع الـذي ينتـظره حتى يقارب إكمال الدائرة لينـدفع بسـرعة وخفـة وينحرف جـانباً مغيـراً من مركز الدائرة مطالباً الثور أن يعود ليصنع دائرة جديدة وهكذا.

سلسلة من المـواقف تكون سلسلة من الـدوائر التي يـدور فيها الثور محاولاً في كل مرة أن يـواجه المصـارع ليسدد لـه طعناتـه بينما المصـارع لا ينيله غرضـه، بحيث كلمـا قـارب الثـور اتمـام الـدائـرة والهجـوم غير المصـارع من مـوقفـه قليـلاً لكي يتحتم على الثـور أن يصنع دائرة أخرى ليواجهه، ولا يتحقق هدفه أبداً لأن المصـارع يغير دائماً من موقفه في اللحظة المناسبة .

ذلـك هو الأسـاس أو المبـدأ الـذي منـه تتشعب المبـاغتـة في المصارعة ويختلف الميتادور عن غيره، بحيث ان أبرعهم جميعاً هـو ذلك الذي يجعل الثور يتحرك أكثر وأقوى حركة في مقابل أقل حـركة ممكنة منه.

ولذا كلما انتظر الميتادور حتى اللحظة الأخيرة لإكمـال الدائـرة ليغير موقفه، أصبح على الثور أن يتحرك أكثر اذ لا بد أن يصنع دائرة كاملة ثانية. في حين أنه لو تحرك في وقت مبكـر ففي استطاعـة الثور أن يوفر الجهد فلا يضيعـه في اكمال الـدائرة الأولى ومن فـوره يشرع في صنع الثانيـة. وكذلـك كلما قـربت المسافـة بين موقف المصـارع الأول وبين الموقف الذي ينتقل اليه، ، ضاقت الدائرة التي على الثور ان يصنعها، وبالتالي بذل جهداً أكبر كي يجعـل كتلته الضخمـة تلك تتحرك دائرة داخل هذا النطاق الضيق المحدود.

وهكذا يعتبر المصارع المثالي هو المصارع الـذي يستطيـع أن يتأخر في حركته الى أن يكاد الثور يـلامسه، واذا تحـرك مغيراً مـوقفه تحرك أقل مسافة، أو أروع وأروع حين لا يتحـرك بالمـرة وحين يظل واقفـاً في مكانـه بحيث تتضاءل المسـافة التي يتحـركهـا حتى تصبـح الفرق بين مواجهة الثور بصدره ومواجهته له بجانبه.

ان الهدف من مرحلة الميوليتا كلها هو ارهـاق الثور إلى درجـة الاستسلام.

وهذه الحركـات الدائـرية المحـدودة أشد ارهـاقاً للثـور من أي جري منطلق في أنحاء الساحة. ولهذا فبعد بضع حـركات كهـذه يبلغ الارهاق بالثـور المطعـون قبلاً، النـازف اللاهث المغـروس في ظهره ستة أعلام تنخر عظمه وتؤلمه، يبلغ الارهاق به إلى حد أن يكف عن الهجوم أصلاً ويقف في مكانه لا يتحرك، وحينئذ تصل ثقة الميتـادور بنفسه وبما ألحقه بالثور من ارهاق حد أن يغادره مولياً اياه ظهره محيياً الجمهور الذي تدوي الساحة بهتافاته.

وكنت قد رأيت مرحلة الميوليتا تمر بهذه الخطوات أو معظمها. رأيت الثـور يدخلهـا كتلة حياة تنفجـر بالحـركة والـوحشية والنشـاط، وبطريقة يبدو وكأنها ستظل هكذا إلى الأبد وكـأن لا شيء هناك قـادر على النيل منها. ويظل الأمر كـذلك الى أن يـدخل الثـور فخ الـدوائر اللانهائيـة، ولا تكاد تمضي بضـع دقائق عليـه فيها حتى ينقلب لهثـه إلى فحيـح مسمـوع وزبـد، وحتى يمتـد لسـانـه شبـراً من فمـه تعبـاً وإجهـاداً، وحتى يكاد يسقط من تلقـاء نفسه إعيـاء. بضع دقـائق فقط

يتولى هو بنفسه قتل نفسه فيها تعباً وارهاقاً، وتتكفل رغبته الغاشمة البدائية في مهاجمة كل أحمر أمامه، تلك التي تدفعه للجري المهلك حاشراً نفسه داخل دوائر أضيق فأضيق ساعياً وراء سراب العباءة الحمراء، تتكفل هذه كلها بإحالته من كتلة حياة متفجرة إلى حياة خامدة، إلى مجرد حيوان متعب لاهث لا فرق بينه وبين الكلب أو الخنزير. رأيت هذا يحدث للثور الأول والثاني والثالث، أما هذا الثور الرابع ومع صاحبي الميتادور، فقد رأيت ما لا يكاد يصدق.

-١١-

كان الشاب ينصب فخ الدائرة بإحكام ويظل كأعتى ميتادور إلى آخر ومضة في اللحظة، إلى حين تمس قرون الثور العباءة وتشتبك بها أحياناً.. وأحياناً تمزقهـا قبل أن يتحرك جانباً ليتفـادى من الهـجمة من ناحية، وليصنع من نفسه هدفاً آخر لهجمة ثـانية، وبـالكاد لا يتحـرك متبعاً في هذا أخطر القواعد مجازفاً بنفسه، متهـوراً في اتباعهـا. وكل هذا ليستنفد طاقة غريمه بسرعة، وليجبره على التحرك بكتلته الضخمة داخل نطاق أضيق دائرة ممكنة الى درجة كان ضيقها يشل حركة الثور أحيـاناً،وهـو يضغط نفسه ويقتـرب بنصفه الخلفي من نصفـه الأمامي اقتراباً تتداخل معـه أطرافـه، وكل هـذا ليصغر من حجمـه كي يصنع بحجمه الصغير أصغر دائرة.انها ليست عملية إجهاد فقط.. إنها جهاد عارم القسوة والعذاب لكأنك تعتصر نفسك بجبروت ضاغطاً جسـدك ليتـداخل وتختصـر حجمه، وتفعـل هذا كي تنـطلق وبأقصى سـرعـة تتحرك حركة دائريـة يبلغ ضيق دائرتهـا حد أنـك بالكـاد تستطيـع أن تتحرك، فما بالك أن تتحرك في سرعة وانقضاض.

ولكن الثور كان يفعلها، ويتحكم في حجمه الضخم كالرياضي

المدرب ويستمر يفعلها. ويلمح جسده المظلم الأسود بالعـرق، وتبرز عـظام أكتافـه رافعة مـا فوقهـا من لحم وعضـلات بـاديـة للعيـان في محـاولته ضم نفسـه وضغطهـا، ولا يتوقف عن الهجـوم لثـانيـة، ولم يكف مرة ولا احتاج للتلويـح والاستفزاز.. حتى تحـول جزء كبيـر من التصفيق والهتاف الذي كان يتوالى تحية للميتادور على براعته وحذقه ودوائر الخطر التي يتحـرك فيها بـلا خوف أو وجـل، تحول جـزء من التصفيق والهتاف إلى الثور الماضي في هجومه لا ينال منـه تعب ولا يؤثر في طاقته أي مجهود، حتى بدا الأمر محيراً.

ان العـادة جرت ألا تـزيد هـذه المرحلة عن دقـائق قليلة تنتهي بعـدها كـل طاقـات الثور.. دقـائق نادراً مـا تتعدى الخمس، وهـا قد مضت عشر دقائق وربع ساعة بأكمله والثور لم تتغير قدرته إلا قليـلاً، من القلة بحيث يبدو التغير غير ملحوظ.

ولكنني كنت الوحيد تقريباً المشغـول بهذا الحسـاب قلقاً على صاحبي، أما جماهيرالمتفرجين فالصراع الدائر كان يستغـرقهم كلية، وانتباههم كله مركز في الحركة الحادثة امامهم فقط، في ذلـك الجزء من الصراع الذي يرونه بأعينهم الآن، وانفعالهم الشديد لا يـدع لهم فرصة استرجاع ما حدث من دقيقـة أو اعادة تـدبره، ولا مـا يمكن أن يحـدث بعد قليـل. وكذلـك لا تهمهم حالـة الثور أو حـالة الـرجـل، المهم أنهما لا زالا يتصارعـان صراعـاً قويـاً ممتعاً حـاداً من النادر أن يظفر به جمهور واحد في يوم واحد ولمدة طـويلة كهذه. الثـور شحنة الطاقة فيه خالدة لا تنفد،تدفعه وتثنيه وتفرده وتقبضـه وتشكله عشرات

ومئات الأشكال حسبما تقتضيه ظروف المعركة، جسوراً لا يني ولا يرحم ولا يتردد، كثيراً ما يتجاوز تقديرات الميتادور ويستدير بسرعة أكبر مما قدر وأكبر من أن تصدق، أو يختصر محيط الدائرة وكأن جسده استحال الى جسد ثعبان ليس أسهل من أن يستدير ويلتف، ويكاد يوقع كلما حدث هذا صاحبنا الميتادور في الفخ الذي أراده له. وكثرة المرات لا تنال منه بل تزيده قوة وهياجاً وإصراراً حتى تكاد تجعل له اليد العليا في الصراع، وتحيله إلى مطارد وتحيل الميتادور الى مجرد مدافع عن نفسه ليس أمامه إلا أن يهرب ويظل يهرب.. والميتادور هو الآخر في قمة نشاطه وصلاحيته، ان كان قد اعتمد في ضبط خطواته الأولى على رصيده السابق من البطولة وعلى الزهو الذي حصل عليه منذ وقت طويل لقتله الثور الأول في لمح البصر، فبمضي الصراع تناسى زهوه ورصيده وخاض معركته مستمداً منها نفسها الوحي والقدرة وحكمة التصرف. ولم يكن يستعرض، ولكنه في كفاحه الرهيب من أجل أن يقهر غريمه يقدم ألواناً من المصارعة قد لا يكون لها جمال ألوان الاستعراض الخارجي، ولكنها تحتوي على فن وخطورة لا تجدها في أروع الاستعراضات.

كان يستغل دقة حجمه إلى أقصى حد بحيث كان يرغم الثور على الدوران في دائرة لا تتعدى المتر أحياناً، حتى لتكاد تؤمن أن عظامه لحظتها تتهشم وتسمع قرقعتها. وكان يعمد إلى التغييرات السريعة في تكتيكه لإدراكه أن الثور حين يستمر على طريقة يتقنها بسرعة وذكاء غريبين على كائن مثله، فكان يغير من طريقة إلى طريقة

بحيث لا يترك لغريمه أي مجال للتعود والاتقان. وحين وصلا إلى طريقة الدوائر أخذ يضيق على الثور الخناق واستغرق في هذا إلى درجة لم يلحظ معها أن الثور أيضاً يضيق عليه الخناق حتى انه توقف في مكانه عن الحركة ليجعل الثور يدور حوله مكتفياً بتغيير اتجاهه لتغير وقفته والمركز الذي يدور فيه.. وكان صعباً أن تحدد في تلك اللحظة من منهما الذي يحاصر الآخر ويضيق عليه الخناق! ولكن بدا في اللحظات الأخيرة للحركة أن الثور هو الذي يفعل وأن أمام صاحبنا أخطر مشكلة، أن يتخلص فوراً من هذا الحصار. وربما لو فكر عاماً بأكمله وهو بعيد عن الساحة والموقف لما وصل إلى الحل الذي اهتدى اليه، وكأنما بالغريزة في نفس اللحظة التي وضح أن الثور في هجمته التالية سيصيبه دون أدنى شك.

والطريقة أنه غير فجأة من دورانه.. أي أقدم على مغامرة مجنونة. اذ بهذا التغيير أصبح الثور يواجهه بحيث لم يعد بينه وبين رأسه إلا أقل من متر، ولو قد فطن الثور إلى أنه سيفعل هذا لوفر على نفسه مشقة عمل دائرة أخرى ولطعنه بقرنيه في الحال. ولكنه يبدو أنه فعلها وهو متأكد تماماً أن الثور مستغرق في اللف بالطريقة التي اعتادها في الفترة القصيرة الأخيرة، وأنه لن يفطن اليه إلا بعد أن يكون قد ابتدأ في الدورة الجديدة، الا متأخراً بجزء على مائة جزء من الثانية. وحتى لو لم يكمل الدائرة الجديدة واتجه اليه من فوره فيكفيه هذا الجزء على مائة لكي يفلت من الحصار الخانق ويكسر الدائرة الرهيبة التي أرادها للثور فوقع فيها. وهو بالضبط ما حدث،

وما انتقل بعده هكذا في واحد على مائة من الثانية من انسان انتهى أمره إلى انسان حر طليق، الساحة كلها تحت أمره.

حركة أرعدت على أثرها المدرجات تصفيقاً وصياحاً كصياح من فقدوا العقول. ان أحداً لا يصدق ما حدث أمام عينيه، لا يصدق أن هذا الشاب النحيل قد أوتي وهو على وشك الموت هذه الشحنات القوية من الجرأة والذكاء وسعة الحيلة لكأنه لخص تاريخ اللعبة وتراثها والهدف منها.. اذ ذلك هو بالضبط ما أراده الذين ابتكروا المصارعة، وذلك بالضبط ما يريده الجمهور.. أن يخوض انسان بطل فيه كل مؤهلات الجانب الانساني الصراع ضد ثور بطل فيه كل مؤهلات الجانب البدائي الوحشي، ويظل الصراع بينهما سجالاً أو يكاد بحيث لا تحدث المواقف الفاصلة نتيجة ضعف أحد الطرفين، وإنما تنتج رغماً عن الاثنين معاً وبسبب تعادل قوتهما في الصراع. وحين يحدث ذلك الموقف الفاصل الاجباري ويصبح على الانسان فيه أن ينقذ نفسه فعليه ألا ينقذ نفسه كيفما اتفق وبأية وسيلة، وإنما عليه أن يختار أكثرها جرأة وحذقاً وذكاء، أن يختار الطريق البطولي بحيث لو نجحت وأنقذ بها نفسه استحق البطولة عن جدارة، وبحيث لو فشلت ومات اعتبرت ميتته ميتة أبطال وخلد ذكره.

وقد يكون هذا كله حقيقياً ورائعاً وجميلاً، وقد تربي أشياء كهذه الشعب وترسي فيه دعائم البطولة الانسانية كما يجب أن تكون في عصور أصبحت فيها هذه البطولة أثراً من آثار التاريخ لا تعثر عليها إلا في المتاحف والكتب. فهذه الأنواع من البطولة.. بطولة أن

يواجه الانسان الخطر بقلب جريء ويرى الكارثة أمامه تهدد حياته فيقتحمها غير هياب أو وجل. بطولات كهذه خلقتها وغرستها العصور التي كان المجتمع فيها يعتمد على الانسان الفرد ويهمه أن يمجده ويجعل منه البطل، عصور الآحاد القليلين الكبار. بطولات كهذه اندثرت وحلت محلها أنواع أخرى وأنماط، أنواع نابعة من مجتمعات ازدحمت ولم يعد الفرد فيها يواجه القدر أو الحظ أو العدو وحده. العداوات أصبحت جماعية، والمواجهات جماعية.. والعصور عصور الأفراد الكثيرين الصغار، وقوى الطبيعة المتعددة التي استؤنست على هيئة آلات كما استأنس الأجداد الحيوانات البرية والوحوش. عصور القوة التي لا تتركز في شيء واحد بعينه حتى لو كان فرداً نابغة عظيماً هرقلي القوة! القوة فيها موزعة متشابكة متعاونة أو متنافرة، قوة مستحيل أن تحددها أو تعزلها، ولهذا فمجال البطولة لم يعد أن يواجه الانسان وحده الغريم وببطولة يصرعه، اذ الغريم هو الآخر لم يعد فرداً او شيئاً بعينه، الغريم هو الآخر مجموع قوى منبثة في مجموعات من الكيانات. لمن يصفق الناس اليوم؟ لم يعودوا يصفقون لمن يصرع عدوه. فبالأمس كان يوجد متصارعان ومشاهدون محايدون.. اليوم لا يوجد متفرجون ولا حياد، وأي معركة تدور اليوم على سطح الكرة الأرضية لا بد أن تجد نفسك منضماً إلى أحد طرفيها. وحتى التصفيق اعجاباً لم يعد علامة اعجاب مطلق.

انها تصفق بإعجاب له هدف، تصفق لمن يقدم لها ببطولة المصلحة والخدمة العظمى. الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة

أو بـأخرى، من يسيـطر على أكبـر قـدر ممكن من مصـادر القـوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للنـاس مطالب وأعمالاً عجز غيره عن تحقيقها. وهي بطولة أرقى! ففي الماضي كان الشخص يقوم لنفسه ولمجده ولذاته فيصفق له الناس ويمنحونـه لقب البـطولة، ولكننـا في عالمنـا الحاضـر نمنح البـطولـة لمن يقـوى لنـا ولفائدتنا.

ولهـذا فأنت في مصـارعـة الثيـران تحس كلمـا حمي الصـراع هكذا وحدث التجاوب على تلك الصورة، تحس كلما اقتربت اللعبة من حقيقتها ومن الهدف الذي وجدت لأجله شعرت انك تنفصـل عن عالمنا هذا، انك ترتد إلى ماض تهب ريحه حـاملة معها أصـداء من زمن ذهب وقيم تغيرت. أي رجل في عصرنا الحاضر ممكن أن يفعل وهو مالك لكل قواه العقلية ما فعله صاحبنا الميتادور؟ أي رجـل على استعداد لأن يقف ليواجه قطاراً من العضـلات الوحشيـة القاتلة قـادماً تجاهه ليفاجئه ويجبره على الدوران؟ أي رجل في عصرنـا الحاضـر، حتى لو أراد هو، تطيق أعصابه ويطيعه قلبه وفكره وإلهامه وهو يـواجه الموت في وضح النهار وكل حـظه في الحياة متـوقف على أمل واهن غير مؤكد أن يفـاجأ الثـور بالحـركة فعـلاً وتنجح الخـطة؟ ماذا اذا لم يفاجأ؟ ماذا اذا استدار الثور في لحظة مناسبة أو انـزلقت قدمـك أنت وأنت تستـديـر بسبب حصـاة صغيـرة، حصـاة مـوجـودة في السـاحـة بالآلاف والملايين.

وكل هذا من أجـل تحية اعجـاب واعتراف بـالبطولـة؟. بمنطق

عـالمنا الحـاضر، وبمنـطق الانسان الجـالس على مقهى مع شلة من أصحابه، بمنـطق سائقي التـاكسي أو سكرتيـر النقابـة، وحتى بمنطق المدله حباً في روايات طرزان ومغامـرات رجال العصـابات، بمنـطق الأم والعمة والخالة، بمنطق عالمنا الحـاضر، المسـألة كلهـا سخافـة وجنـون وقلة عقل. شيء لا يمكن أن يقبـل أو حتى يحلم بقبولـه أي كائن عاقـل معاصـر أو حتى نصف عاقـل. عمل لا يمكن أن يـوصف بـالبطولـة ويقدر إلا في عصـور كعصور عنتـرة بن شداد أو إيفـانهـو وروبين هـود.. وذلـك هـو مـا تحمله رائحـة المـاضي التي تهب من الساحة وعليها، ورغم أن الناس والأزيـاء والمصارعين والثيـران وكل شيء عصري من عمل عصرنا ونتيجته، إلا أنك تحس بدوي الأبواق وظهور الموكب وملابسه وتقـاليده الـراسخة من قـديم الزمـان، تحس تمـامـاً مثلمـا يحـدث لـك في السينمـا والمسـرح. إن اطفـاء النـور والافتتاحية الموسيقية تنقلك من واقعك إلى واقع الرواية بحيث تجوز عليـك الخدعـة المتفق عليها وتعيش أحـداث الروايـة وكأنهـا حقيقـة وليست أبداً من صنع الخيال.

الشيء نفسه يحدث في المصـارعة، وتتكفـل أبواقهـا وموكبهـا وإجـراءاتها الأولى بنقلك أنت والسـاحة وكـل ما عليهـا من الحـاضـر الواقع بكل قيمه وأنواع بطولاته إلى عالم مضى تحياه وكأنـه حاضـر، وكأنهم يحضرونه لك لتحياه على أنه مـاض حاضـر.. ولكن ليس في الأمـر خدعـة متفق عليها. الصحيـح أنها حقيقـة متفق عليهـا. صـراع حقيقي يـدور أمامـك، من فرط صـدقه وانـدماج أطـرافه تنـدمج أنت

الآخـر وتتبنى الأسس التي يدور حـولها الصـراع وتتحمس للقيم التي تحدد أحكامك له أو عليه.

اندماج لا يحدث في العادة بسهـولة ولا يتم فجـأة أو ببساطـة، فهـو يستغرق زمنـاً وجـذبـاً بين أن تسلم وتصـدق وبين أن تستسخف وتكـذب. اندمـاج في الحقيقة لا يتم بـإرادتك أبـداً وانمـا أنت تجبـر عليـه، تجبرك عليـه الحراب والمـآزق والدم النـازف والخـطورة التي تحدق بالمصارع لدى كل خطوة. وأن ينادي شخص بمبدأ مـا بمجرد كلام ربما لا يدفعك هـذا للاقتنـاع به، ولكنـك لا بد تغيـر من رأيك حين تراه يخوض المعارك الدامية من أجل هـذا المبدأ فيعـرض نفسه لخطورة الموت ببساطة دفاعاً عنه.

وهكـذا بنفس منطق اللعبـة، بـالقـوة، تجـد نفسـك في ردة حضارية تحياها كاملة وتقتنع بها تماماً حتى لتبدأ تتحمس وتنفعـل لما كـان يتحمس لـه وينفعـل الأجـداد الأول، وتشمئـز ممـا كـانـوا منـه يشمئـزون، وتمنح البـطولة أو تقبضهـا على نفس الأسس والقيم التي كانوا بها يمنحون أو يقبضون.

ومعظم الناس تنتهي ردتهم بـانتهاء المصـارعة، وحين يعـودون إلى حياتهم الطبيعية يزاولونها كمـا كانـوا قبلاً يفعلون بقـوانين العصر وتقـاليـده،، بمقـاييس النـاس الكثيــرين الصغـار في عـالم يـومهم المزدحم. معظمهم يعرفون كيف يفرقون بين الساحة والحيـاة فينسون حماسهم الشديـد للبطولـة مـن أجل البـطولة على بـاب الأرينا، وهـم أنفسهم الذين بحت أصواتهم هتافاً للمصارع وهو يضحي بحيـاته من

أجل أن يمجد قيمة أو يقوم بعمل من أعمال البطولة، هم أنفسهم الذين لا يتورعون عن الكذب في اليوم التالي والخداع واستجداء الشفقة وإزجاء الملق للرؤساء. هذه مسألة وتلك مسألة أخرى. هذه ساحة بطولة وأبطال وتلك ساحة حياة لا بطولة فيها ولا أبطال.

وهناك قلة من الناس تفشل في الاندماج والتصديق، يأبى خيالها الضيق أن يرتد وأن يتصور شيئاً آخر غير ما يزاوله في حياته ويؤمن به ويراه. من أجل هذا تغادر الأرينا كما دخلتها ساخرة من كل ما رأت ومن الدم الذي سال بينما تعليقاتها لا تتعدى الحاضرين والحاضرات، وعدد الفاتنات، وهل رأيت فلانة نجمة هوليوود، والشيء الوحيد الذي يؤلمها هو ثمن الدخول اذ بنفس قيمته كان من الممكن للواحد منهم أن يحتسي بضع زجاجات بيرة تعود عليه بالانبساط، أو يأكل أكلة ساخنة تغذي جسده غذاء حقيقياً مضمون الفائدة.

أما أقل القليل فهم أولئك الذين تتأخر عودتهم من تلك الردة التاريخية بعض الوقت، اذ تكون التجربة التي خاضوها شديدة الوقع عليهم وعلى تفكيرهم إلى درجة ليس من السهل أبداً التخلص منها.

أولئك الذين يغادرون الأرينا وثمة زلزال قد حدث لعقولهم، تحطمت على أثره أشياء في تفكيرهم وارتبكت أشياء. يخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا! لقد دخلوا مجرد قادمين من عالم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواصفاته للبطولة، وها هم قد خرجوا وقد أتيح لهم أن يحيوا في عالم آخر ملك عليهم

تفكيرهم بحيث لا يستطيعون التخلص من أثره، وبحيث يقضون أياماً كثيرة بعدها طلاب بطولة على نسق التي رأوها، وباحثين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان. وكأن الأرينا بالنسبة اليهم اكتشاف في عالم هم يحتقرونه ويشمئزون من علاقاته البشرية ومخازيه الكثيرة وضعف الرجال فيه. ها هم يساقون إلى حيث يجدون في تلك الواحة التاريخية نموذجاً حياً صادقاً لعصر بطل، فتسكرهم النفحات ويتمنون أن يبقوا إلى الأبد هنا، أو حين يضطرون إلى مغادرة الساحة إلى إحالة عالمهم الحاضر كله ليصبح على شاكلة تلك الواحة.

ولكنها دفقات الانفعال الأولى والحماس، فما هو إلا يوم أو يومان وتبتلعهم الدوامة مرة أخرى واذا بهم يعودون آحاداً من ملايين الصغار الكثيرين الذين يزدحم بهم عالم اليوم الصغير. كل المجهود الايجابي الذي تقوم به اراداتهم تمسكاً بهذا العالم وحباً فيه ان نفوسهم بعد حين تبدأ تهفو وتلح مطالبة بعودة أخرى إلى عالم الساحة والبطولة، وشيئاً فشيئاً يصبحون زبائن المصارعة المستديمين.

غير أنه كما هي الحال في كل أمر مشابه، تجد هناك دائماً أشخاصاً نادرين أندر من أن تصدق وجودهم.. لا يفعلون كهؤلاء أو كأولئك. هذه القلة النادرة يبهرها عالم الأرينا ويستبد بها، وتجتمع عوامل كثيرة أولها ارادة وطبيعة ثورية غير مدربة على الخضوع بل متعتها الكبرى أن تعارض وتعير وتخرج عن الحد المرسوم.. وثانيها

علاقات واهية بالعالم المزدحم الصغير.. علاقات ليست من القوة بحيث تجذب وترغم وتكبح جماح الإرادة وتظل وراء الشوري حتى يقنع نفسه أن قمة الثورية هي الخضوع.. وثالثها استعداد طبيعي يأخذ شكل الرغبة الجامحة. هذه القلة النادرة تشاهد المصارعة مرة لتظل إلى الأبد تحياها وتحيا عالمها البطل بكل ما فيه من سحر وقيم. وسرعان ما تجدها قد انضمت إلى هذا المجتمع المحدود الضيق.. مجتمع المصارعين الذي لا يرحب كثيراً بالغرباء، والذي تجد كل ما فيه، أو بالأصح تجد معظمهم ونوابغهم متصوفين في محراب هذه الردة التاريخية.. ومنتهى أملهم في الوصول أن يكافحوا أنفسهم ونزواتهم والمغريات الصغيرة الكثيرة من حولهم لتتشابه حياتهم داخل الدائرة الرملية مع حياتهم خارجها.. لتكون حياتهم سلسلة متصلة الحلقات من اقتحام المخاطر وخوض الأهوال، من النخوة والشجاعة والمواجهة والإصرار على الانتصار.

وكثيرون منهم يفشلون. انهم جميعاً أبناء فقراء وأحياناً بلا آباء، خرجتهم طفولة محرومة وصدهم وعاداهم المجتمع صبية وشباباً، وفي المصارعة عثروا على أنفسهم.. على الوسيلة التي يستطيع بها الشاب النكرة اليتيم أو ابن الحرام الجائع العاطل أن يفرض نفسه على المجتمع بكل ملايينه وثرائه وطبقاته، وكما يأتي الانتصار ومن ثمة البطولة في المصارعة باختيار الموقف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التغلب عليه بعد هذا واقتحامه، فهم أيضاً في سبيل فرض أنفسهم على المجتمع الذي حرمهم كل شيء يختارون الطريقة

الأخطر.. أخطر طريقة، العمل كمصارعي ثيران، ذلك الذي يعرضون أنفسهم فيه للموت الأكيد كل لحظة ثم لا يموتون، يقهرون الموت وينتصرون، وينحني لهم المجتمع معترفاً ومتحمساً ومصفقاً.

والفشل يلحق البعض بل الكثرة، متسللاً من نفس الطريق إلى المجد، من نفس الدوافع التى حدت بالشاب المحروم أن يمتهن المصارعة ليصبح بطلاً ويشبع بعض حرمانه. من نفس هذا الطريق يدب سوس الفشل، حين يسكر الميتادور بخمر البطولة وتصبح المصارعة عنده ليست غاية على استعداد من أجلها أن يصون نفسه وارادته ليصبح أقوى وأكثر قدرة على التحكم في ذاته، ولكن تصبح المصارعة بعد الوصول إلى القمة مجرد وسيلة لا تخدم نفسه بعد حرمانها الطويل.

واذا كان بعض النساء وبعض الخمر وبعض النقود تحفز همة نجم المصارعة إلى الصعود، فإن ما يهوي به هي جرعات أكبر من هذه العقاقير المحفزة نفسها، ولا بد أنه مثل صادق ذلك الذي يقول: ما كان قليله يحفز فكثيره يضيع ويفقد.

-١٢-

كانت المعركة بين الثور وصاحبنا ومحاوراتهما قد أخذتهما بعيداً عن مقاعدنا إلى الناحية الأخرى. والقرب والبعد مسألة مهمة، لا لإمكان متابعة الصراع عن كثب وملاحظة كل تفاصيله ولكن لأن وجودك بعيداً عن الصراع يقلل من انفعالك به دون أن تشعر، بحيث تراقبه وليس بينك وبينه مسافة مترية فقط، ولكن مسافة نفسية أيضاً تجعل الصراع يصلك وكأنه أخبار تنتقل اليك. أما وجودك على مقربة من المعركة فهو يجعلك رغماً عنك تشترك فيها وتحياها، تماماً مثلك حين تمر بخناقة بعيدة مهما بلغت قواها فلن يصل اهتمامك بها إلى حد التوقف أو التوجه اليها، وحين تمر بالخناقة على نفس رصيفك فإنك رغماً عنك تتوقف وتصبح جزءاً منها.

وهكذا تكفلت المحاورات المتصلة بنقل مركز الصراع بحيث أصبح في الجزء من محيط الدائرة الرملية الذي يلاصق مقاعدنا، أصبحت المعركة بالنسبة لجمهور مدرجاتنا كله أكثر جدية ورهبة ووحشية. كان الثور حين يقبل مهاجماً نحس لقربنا الشديد انه لا يصوب قرنيه إلى الميتادور وحده ولكنه يصوبهما الينا أيضاً، وكأن

الميتادور متفرج معنا متطرف المقعد أو الوقفة ليس إلا. وحين كانت المعركة بعيدة كنا نتفرج ونتحمس أو يهبط حماسنا تبعاً لما نراه من حركات.

ولكننا هنا فقدنا القدرة على التفرج، شلت أكفنا وحناجرنا عن أن تصفق أو تهتف، أصبحنا كصاحبنا المصارع نتنهد فرحة كلما نجح في الإفلات من هجمة وتدق قلوبنا برعب حقيقي حينما يضيق عليه الثور الخناق ويقبل، وكأنما للمرة الأخيرة التي جهز فيها نفسه على أن يضرب الضربة القاضية وقد أصبح وجهه قريباً باستطاعتنا رؤية تفاصيل ملامحه.

يا لبشاعتها حين يقبل متخذاً بها سحنة الضربة القاضية. لقد اكتشفت وأنا أتأمل ملامحه وأفعل هذا ربما للمرة الأولى في حياتي، ونادراً ما يحدث لنا أن نعيد تأمل ملامح أي كائن من الكائنات التي تعودنا رؤيتها، نادراً جداً ما نلقي نظرة فاحصة واعية نراجع بها شكل القطة في نظرنا مثلاً. هذا الثور، لقد آمنت أنه أبشع المخلوقات شكلاً، وكل ما في ملامحه كتل كروية بشعة اللون والتكوين، كرتان بارزتان من جانبي جبهته ثعبانيتي اللون على هيئة عيون، وكرة ذات فتحتين موضوعة على بعد كبير من الكرتين لتكون الأنف.. أي أنف.. وفم ليس سوى شق واسع قبيح يشطر ذلك الشيء المستطيل بلا معنى، المثلث بلا هدف، إلى شطرين وكأنما هي كتلة خشب لا تصلح من بشاعتها لشيء قام نجار غبي بشقها بلا هدف أيضاً، ووسع الشق بإسفين، هو ذلك اللسان الممدود، ناهيك حين تنقلب هذه

الملامح البشعة تحت تأثير الهياج والرغبة البدائية الوحشية في التحطيم والقتل والتخريب، حين تتفتح على آخرها ثقوب الأنف وتنقلب حوافها إلى أعلى وترتعش منقبضة منبسطة. وحين تحمر كرتا العينين وينقلب الثعباني الأصفر إلى لون الدم، ويصبح الوجه المستطيل المغبى أكثر استطالة وغباءً وحمقاً، وشق الفم أكثر اتساعاً وإسفينه اللساني قد تدلى وارماً متضخماً يسيل منه اللعاب. لعاب كثير يسيل من اللسان ومن الفم والأنف وحتى من العينين، وتتساقط السوائل كغضب سائل، كنقمة ذلك الوحش الكاسر تلفظها عيناه، وتتفصد من كل عظمة وعضلة وظلف فيه.

كان المنظر يرعب حقاً ويدفع الفتاة الكوبية للتشبث بحديد السور وكأنما تستغيث مروعة استغاثات مكتومة، لا تحاول هي وحدها بل يحاول الجميع كتمانها كل على طريقته.

وكان الثور يلهث، وهو طوال الوقت يلهث، ولهثه كان أبشع من أي شيء سمعته أو تسمعه أذناك. لا، ليس خواراً ولا شخيراً وانما شيء كالشهقات المتقطعة المخنوقة التي تنبعث ليس من التنفس وانما من معاناة الألم العظيم. صوت خشن منخفض مكتوم متوال على هيئة لهث منتظم متزايد السرعة تقشعر له الأذن نفسها حتى قبل أن تنقله إلى مركز الاحساس العليا ليبعث القشعريرة في الجسد كله، صوت لا بد يذكرك لا بشيء سمعته في حياتك أو حياة آبائك وأجدادك، ولكن بأصوات المخاطر البدائية الأولى حين كنت انسان الغابة وحيث لا تزال بقايا عقلك البدائي تحتفظ بأمثال هذه

الأنات وبأصداها، وترتعش رعباً اذا استعادتها رغم ملايين السنين من التطور والتغير والتاريخ.

وكانت قد مضت عشرون دقيقة على بداية «الميوليتا» اعتبرها الأسبان المتناثرون حولنا في لحظات الراحة التي كانت تتم رغماً عنا، وبسبب فشل أجهزتنا وقوانا في القدرة على استمرار المتابعة وتركيز الانتباه مع الانفعالات الهائلة المروعة التي تصاحبه، لحظات راحة تتبدى على هيئة تعليق طال كبته، أو آهة مسموعة تنطلق بلا أوان، أو كلمة لا معنى لها تصدر عن صاحبها بلا وعي أو هدف. اعتبرها هواة اللعبة الأسبان رقماً يحطم غيره من الأرقام من ناحية الزمن، ومن ناحية القدرة اعتبروها معجزة. فلم يحدث في تاريخ اللعبة ـ أو على الأقل تاريخهم في اللعبة ـ أن رأوا ثوراً يستمر هذه المدة كلها يهاجم بلا توقف وبلا اجهاد يجبره على الاستسلام. وكذلك لم يحدث أن بقي مصارع وقتاً طويلاً كهذا حافظاً لقوته وخفته وتوازنه.

وكأنما الخاطر كان يدور في العقول كلها في آن واحد، اذ بلا مناسبة ومن غير داع ودون أن يحدث في المعركة ما يستحق، دوت الأرينا كلها وفي وقت واحد بموجة تصفيق مرتفعة مدوية تحس أنها ليست موجهة إلى طرف دون طرف، انها موجهة للاثنين معاً تحييهما وتحيي معهما البطولة التي جاوزا بها الحد المتعارف عليه، اذ لولا صمود كل منهما ما ظفر الآخر.. موجة تصفيق مالبثت أن انحسرت وانتهت.

ففي تلك اللحظة انزلقت قدم الميتادور وسقط على الأرض، في نفس الوقت الذي كان الثور فيه يستدير ليواجهه.

وكعربات النجدة السريعة اندفع المصارعون المختبئون خلف العوارض الخشبية.

وتحرك الفرسان نحو باب الدخول، وطار إلى جزء السور القريب من المعركة صبيان الملعب بالحراب الطويلة.

وكانت قلوبنا ـ نحن الملاصقين للمعركة ـ تقفز من صدورنا إلى الساحة حيث تمنع الكارثة.

ولكن صاحبنا كفى الجميع مؤونة أية خطوة أو اجراءآخر، فما كاد يسقط ويلامس جسده الأرض حتى كان قد اعتدل، والوقت كان كافياً أمامه ليقف ويواجه الثور المقبل على قدميه، ولكنه شاء لست أدري لم؟ ربما ليزيل من النفوس لمحة الاشفاق التي صاحبت سقوطه، وربما ليستأنف المصارعة لا على نفس المستوى الذي سقط عنده وانما على مستوى أعلى وكأنما ليجعل من السقطة إلى أسفل سقطة إلى أعلى، ليمضي صاعداً باستمرار في أعين جمهوره.

شاء أن يواجه الثور وهو على ركبتيه نصف واقف.

ولكنه لم يجلب لنفسه سوى اللعنات، وما أغرب هذا الجمهور الذي يظل يطالب ويلح في المطالبة بالمواقف الخطرة، الجمهور الذي يحرض على اقتحام الخطر هو نفسه الذي يستنكر أن يقوم صاحبنا بحركة خطرة كهذه. ولكن يبدو أن الفترة التي قضاها صاحبنا

يصارع ذلكم الثور الجهنمي، ويبدي في صراعه آيات بطولة حقيقية دون أن ينتظر أحداً ليحرضه على اقتحام المخاطر انما هـو من تلقاء نفسـه يقتحمها ليخـرج منها سليمـاً ظافـراً، هذا كله جعـل الجمهـور يؤمن أنـه أمام بـطل حقيقي من أبطال المصـارعة، أمـام بطل نـادر.. بـطل لم يحظ بإعجـابه فقط ولكن هـا هي ذات اللعنات التي تنصب عليـه تثبت أنـه ظفـر أيضـاً بمـا هـو أصعب من الاعجـاب بكثيـر، بالحب.. حب الجمهور له، الحب الذي وصل إلى درجة الاحسـاس بالتملك والحرص، فها هو الجمهور الذي يحرض المصارعين الذين لا يعرفهم على تعريض أنفسهم للخطر مع احتمال أن يذهبـوا ضحية سهلة للتحريض، ها هو نفسه أصبح يحافظ على صاحبنا ويقلق على مصيره ويحرضه هذه المرة على المحافظة على نفسه.

استنتاج دفعني بنوع من الزهو، فها هو الشيء الذي قدرتـه من أول رؤيـة لصـاحبي، هـذا الشيء الـذي ربـطني بـه من أول دقيقـة ودفعني من أول دقيقة أيضاً كي أتابعه وأقلق عليـه وعلى مصيره، هـا هــو ذا تثبت صحتـه ويثبت أني كنت على حق. هــا هي الخيــوط، ثـلاثون ألف خيط تمتـد من ثلاثين ألـف نفس وتـربطهم بـه، هـا هـو الاحسـاس الـذي كنت أحسـه وحـدي يشـاركني فيـه آلاف، آلافهم جميعاً، حتى الفتاة الكوبية التي سود دماءهـا منذ هنيهـة، ها هي ذي تبـدو وكأنهـا نسيت كل شيء أو غفـرت وراحت باهتمـام يكاد يعـدل اهتمام كافة البشر تتابعه وتجن قلقاً عليه.

كـانت مواجهـة الثور على تلك الصـورة عملاً بـطولياً حقيقـة،

ولكنه يتطرف ليصبح نوعاً من البطولـة المبالـغ فيها التي هي والحمق سواء بسواء. فالثور لم يكن منهكاً أو فاقداً الكثير من طاقته، والصراع كان يدور سجالاً بينهما بحيث يبدو ألا حل للموقف إلا أن ينتهز أيهما أية فرصة أو ثغرة يقدمها الآخر، والركوع على الركب يعطي الفرصة كاملة للثور ويهبط بقدرة المصارع الى ما دون النصف بكثير، وهي حركة لا يجرؤ المصارعون على القيام بها إلا قرب نهاية النهاية وحين يكون الثور قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت تعباً واجهاداً.

وأقبل الثور بأسرع مما يتوقعه أحد، وكأنما غذت سرعته فرحة القرب من لحظة الفوز، وبدا الموقف خطيراً إلى أبعد درجات الخطورة، وكأنما الميتادور نفسه قد أدرك مدى خطورته وسخافة إقدامه على الحركة. وتصاعدت صيحات التحذير والتأوه والاستغاثة، ولمحت المئات يضربون جباههم بأيديهم تعاسة ويأساً واحساساً بالخسارة، ودقات القلوب، الثلاثين ألف قلب وهي تتلاحق وتتعالى مضت تنطق بما لم تكن الألسنة تجرؤ على البوح به، بأنه ضاع وانتهى. اذ أين المفر؟ وكيف النجاة؟ والثور ينقض ولا وقت للعدول عن الحركة ولا وقت للوقوف ولا أمل في النجاة.

شيء واحد فقط يطمئنني، أن إلهامي لم يهمس لي أنه سيموت.

دليل تافه وغير علمي وسخيف، ولكنه كان كل ما لديّ في تلك اللحظة لأتمسك به.

وانقض الثور على العباءة محنياً رأسه.

وانثنى الشاب بآخر ما يستطيع من مدى إلى ناحية انثناءة جعلت ساقه اليسرى تستقيم.

وهكذا مر الثور هذه المرة دون أن يصيبه بأذى.

ولكن هذا كان أمراً شبه متوقع، فالخطورة في الحركة التالية حين يستدير الثور في طرفة عين ويقبل مهاجماً من الناحية الأخرى، اذ حينئذ سيأتي الهجوم من ناحية ظهره بينما هو راكع على الأرض غير قادر على الحركة أو الاستدارة. ان الرد الوحيد أن يقف ويستدير ويواجهه ليستطيع أن يحدد اتجاه هجومه ويتنحى عنه، ولكنه رد مستحيل فالوقت الذي سيأخذه للقيام بكل هذه الحركات أضعاف الوقت الذي سيستغرقه الثور للاستدارة والهجوم.

هكذا كان يبدو الأمر للجمهور، وهكذا حدث لنا ذلك الصمم الغريب وكأن الآذان نفخت بهواء ساخن مضغوط.

ولم نعرف، ويبدو أننا لن نعرف إلى الأبد كيف حدث هذا، اذ في نفس اللحظة التي كان الثور يستدير فيها كان الميتادور الشاب قد وقف على ساقيه.. وهكذا حين أقبل الثور مهاجماً وجد أمامه المصارع محدداً خط هجومه مستعداً للتنحي في الوقت المناسب. خيل إليّ أنه في تنحيه الأول حين استقامت ساقه اليسرى وقد مر الثور ارتكز على اليمنى وحشد كل قواه حتى ارتفعت به عضلاتها وكأنها آلة رافعة إلى مستوى الوقوف. ولكنه مجرد فرض، فالقيام بحركة كهذه في حاجة إلى قوة عظمى تسري في الساق في تلك اللحظة، قوة خارقة كالمعجزة لا يمكن لإنسان ما مهما بلغت قوة

ارادته أن يستحضرها، لا بد لهـا أن تأتي ان كـانت ستجيء من تلقاء نفسها، كأي معجزة لا تواتي الانسان إلا في حالـة الضرورة الحيـوية القصوى التى يستدعيها لانتشال نفسه من لحظة موت مؤكدة.

ولم تجتـح الأرينا كمـا توقـع الجميع مـوجة تصفيق عـارم، لم يتصـاعد هتـاف فالنـاس تصفق وتهتف للبطولـة، اما المعجـزة فالـرد الوحيد عليها هو الانبهار والذهول.

واستمرت الميوليتا.

-١٣-

عشر دقائق أخرى استمرتها بحيث لم يعد هواة الإحصاء يحسبون أو يعجبون، وبحيث كان الجمهور نفسه هو الذي أصابه التعب والإجهاد حتى كاد يلهث وهو يتفرج، بحيث شبع الناس من آيات البطولة ومآزق الخطر كجائع مضى يلتهم الطعام حتى أصيب بالتخمة وبدأت نفسه تعاف الطعام، ولم يعد يهمه الا أن تنتهي هذه المرحلة ويحين الوقت كي يغرس المصارع سيفه بين ضلوع الثور ويخلص عليه ويخلصهم منه.

عشر دقائق طويلة كالأبد والثور العنيد أمام المصارع العنيد وكلاهما لا يرحم الآخر، وكلاهما لا يمل أو يكل وكأنما يخجله أن يضعف في حضرة خصمه. والساحة قطعاها من المحيط إلى المحيط ولم يعد فيها مكان إلا وشهد مأزقاً أو خطراً أو حركة بالغة البراعة والبطولة.. ومنهما معاً.

لم يعد يربط الناس في الحقيقة إلى مقاعدهم وإلى المعركة اللانهائية الدائرة أمامهم إلا تلك الخيوط الخفية، آلافها المؤلفة التي تربط كلاً منهم وكأنما بطريقة شخصية محضة بصاحبنا المصارع،

والتي بمضي الثواني والدقائق كانت تقوى وتشتد حتى لقد ملوا المصارعة ولكنهم لم يملوا المصارع ولم تتخل عنهم لومضة متابعتهم له، أو غادرهم لثانية قلقهم الهائل عليه وعلى مصيره، حتى لقد انعكس ذلك الارتباط والاهتمام على نظرتهم للثور. قد يكرهونه أو يحقدون عليه فقد كان يحارب ببطولة هو الآخر وحذق، ولكنهم أيضاً لم يحبوه أو يشفقوا عليه. الحقيقة كانت عواطفهم تجاهه تنبت فجأة وتتغير فجأة وتختفي فجأة! فاذا حاصر المصارع وبدا أنه سينقض، ارتفع لديهم حقد مفاجىء عليه يبلغ الذروة، وينخفض حالاً إلى الصفر حين ينجح صاحبنا المصارع في التغلب على المأزق. وحين كانوا يرون الثور يبذل جهده المضني القاتل ويلهث لهثة المؤرق وهو يكافح ليستدير وليعود يهاجم، كانت تنبت له في أنفسهم شفقة ولكنها إلى حين. وأخيراً وكميل شمس يوم صيام طويل حار تشرخت له من الظمأ حلوق الصائمين، كميل شمس يوم كهذا للمغيب، بدا في النهاية أن التعب قد نال من الثور تماماً حتى أصبح يتوقف عن الحركة مرغماً.

وكاد الناس يتنفسون الصعداء لولا أنهم أدركوا أن المصارع هو الآخر كان قد هده التعب هداً. بدا هذا واضحاً من الجهد العظيم الذي كان يبذله لكي يولي الثور ظهره مبتعداً عنه، حين يكف الهجوم ليتلقى تحية الجمهور.

وكأنما بمعاهدة غير مكتوبة كثرت النوبات التي يتوقف فيها

الثور بلا حراك، والتي يتركه فيها المصارع ويستدير محيياً الجمهور في بطء.

وكذلك مضى الثور يستغرق مدداً أطول لكي يستعيد ويعاود الهجوم فترات ونوبات أتاحت للغريمين العنيدين أن يختلسا بضع لحظات يلتقطان فيها أنفاسهما استعداداً للمرحلة الحاسمة المقبلة.

وهكذا ودون أن يدوي نفير، أو يدل شيء على الحدث الخطير التالي، ، ترك المصارع الثور واقفاً وسط الدائرة الرملية لا يتحرك، واقترب من السور حيث استبدل بالقطعة المعدنية سيفاً من الصلب اللامع، وكذلك غير (الكابا) الحمراء بأخرى في لون الدم القاني.

ودارت محاورات أخرى.. الخلاف الوحيد بينها وبين ما سبقها أن المصارع كان يستعمل السيف في سند العباءة وفردها بدل القطعة المعدنية. المحاورات التي يأمل المصارع منها أن يصل الإنهاك بالثور حد التوقف عن الحركة، وأن يضمن توقفه هكذا لبعض الوقت بحيث حين يبتعد عنه وينشن بالسيف على المكان المناسب للطعنة ثم يندفع تجاهه، لا يتحرك الثور إلا قليلاً وبهذا يأخذ الطعنة إلى النهاية، إلى مقبض السيف.

وانتهت المحاورات بتوقف الثور وقد هد جسده واستنفذت قواه إلى آخر قطرة.

وحف بالزمن على قصره سكون مهيب تام.

وشملت «الأرينا» رهبة.. رهبة الموقف.. ورهبة الموت المقبل.

ان الموت دائماً وفي كل زمان ومكـان وبالنسبـة لأي كائن حي لحظته أبداً لا تمر عادية.

ان الحياة كل أنواع الحياة تكاد تسكن تجاهها حداداً وخشوعاً.

وهذه ليست ميتة عادية، انها ميتة بطل! وبطولة الكائنات تقربها كثيراً من جنس البشر، دليل آخر على غرور الانسان كأنما البطولة من صفاته وحده، وحتى لو كان البطل ثوراً فقد بز بني جنسه جميعاً وقام بما لم يقم به ثور.

وليست رهبة الموت فقط ولا رهبة الموت للبطل.

ولكنها أيضاً وأهم رهبة الموت المدبر، رهبـة القتل.. حتى لـو كان القتل تتويجاً لصراع فهو لا يزال.. أمامنـا قتلاً. هـا هو المصـارع يستعـد له ويتـرصد، ويتـراجع إلى الخلف ويسبق عمله بـالإصـرار، وينشن..

رهبة الاغتيال..

حين تؤخذ الضحية على غرة، فصحيح أن الثور يرى المصارع ويرى ما يقوم به من استعدادات ولكن إنهاكـه يشله ويحول بينـه وبين مهاجمته، غير أنه لو قدر له أن يعي أن هذه التحـركات نفسهـا ليست سوى مقدمات قتله ومصرعه لاندفع يهاجم خصمه ولو مـات إنهاكـاً، ولما وقف أبداً مستسلماً لتعبه أو كالمستسلم.

لحظة رهبة حقيقيـة ـ لا بطولـة فيها ولا يتحمس فيهـا الجمهور

لـطرف أو لعمل، اذ هـو لحظتهـا يكون مشغـولاً بما هـو أهـم وأشمل وأخطر، بغريمه اللدود وبغريم كل كائن حي.. بالموت الذي يتاح لـه أن يراه وأن يعرف أنه سيقع حـالاً، وأن هذا الكـائن الحي المنتصب أمامه سيرقد بعد ثوان ميتاً.

يشغل الجمهور بالموت، بـل تتعدى مشغـوليته الكبـرى إلى ما هـو أخطر من المـوت.. معرفـة الموت قبـل وقوعـه.. والـوقت الـذي سيحـدث فيه والكـائن الذي سيمـوت. انها تجـربة لا يحيـاها أي من الآلاف الثلاثين كل يوم، تجربة تمسه شخصيـاً هذه المـرة وتستدعي إلى واعيته ألواناً وآلافاً من الخواطر.

وذلك هو الصمت الـذي كان مستتبـاً وشامـلاً، كان صمتـاً من الخارج.

فهـو من الـداخـل آلاف ومـلايين من الخـواطـر والهـواتف والهـواجس تتشابـك وتتلوى وتصرخ كمـلايين الحيات الـزاحفة ذات الأجراس داخل آلاف الجماجم والرؤوس.

وتحدث الحركة بأسرع مما يبرق البرق أو يلمع النصل ويغيب.

اذ هكـذا ما كـدنا نلمـح المصارع وقـد انتهى من تدبـر موقفـه وحركته القـادمة واتجـاهه، حتى رأينـاه كإشـارة ملوحة ينـدفع والثـور يتحرك في نفس الوقت ولا يرى للتماس أو الاحتكاك أثر، وفقط حين ابتعد المصارع واندفع الثور يستدير لمحنا السيف وكـأنما غـرسته يـد

أخف من يد حاو. ولكن الطعنة لم تكن قد وصلت بالسيف إلا لمنتصفه.

وليس هذا هو المهم فممكن أن تكون هناك طعنة ثانية وثالثة.

المهم أن الثور ما كاد يتلقى الطعنة ويحس بالنصل المعدني البارد قد اخترق صدره واقترب من صميم الحياة له، حتى حدث ما لم يكن في حسبان أحد، كأنما ضغط السيف بطرفه على زر التفجير، كأنما الطعنة فتحت أبواب مخازن طاقة كامنة هائلة لا تفتح إلا على كلمة السر تلك، كأنما الغدر الذي تمت به استدعى للوجود وحشية الوحش وأجداده وسلالاته أجمعين، كأنما حدث بهذه الحركة التي بالكاد لحظها أحد شيء طاغ عات، اذ جاء رد الفعل طاغياً عاتياً وحشياً أثار القشعريرة في البدن. فهذا الثور الذي كان الإعياء قد شله وأتى على كل قواه انتفض منه كائن آخر كأنما لا يمت اليه بصلة، كائن قل فيه ما شئت من صفات، مجنون غاضب سفاح مجرم! قل كل ما شئت فلن تستطيع وصفه أبداً ولن أستطيع، اذ المفاجأة التي تم بها التغيير، والسرعة التي تعاقبت بعدها الأحداث لم تدع لأحد وقتاً يتأمله ويدقق في صفاته، ومن يدقق في صفات البحر حين تندلع العاصفة؟ ومن يتأمل النار ساعة شبوب الحريق؟.

انطلق الثور في غضب أعمى يهاجم المصارع في قسوة وبهدف واضح صريح كأنما كتب على جبينه أن يقتله.

وكان ردة الفعل أن بدأ المصارع يجمع في ثانية شتات قواه

التي بعثرها صـراع عنيد طـويل، ودفعتـه الرغبـة في الحياة وصـرخة الدفاع عن النفس التي انـطلقت على نية الثـور الواضحـة وكأنهـا نية كائن بشري تظهر ملامحه مـا ينتويـه، ومضى يدافـع عن نفسه دفـاعاً كان في الحقيقة مرحلة أكثر يـأساً من الـدفاع عن النفس.. كـان فقط تأجيلاً للحظة الموت.

ومن خمود الشبعى المتخمين انتفضت آلاف الجماهيـر مستردة وعيها وانتباهها حاشدة قواهـا، تكاد تقف على أطـراف أصابعهـا قلقاً وذهولاً وخوفاً.

وفي هجمته المنتفضة الثالثة أو الرابعة اندفع السيـف من تلقـاء نفسه طائراً في الهواء، وكأنما قذفه خارج الصدر بركان تفجر داخله.

وأصبح الثور أكثر انطلاقاً.

واندفع في اتجاه المصارع.

ولم يكن في العمليـة كلهـا سـواء من جـانب الثـور أو جـانب المصارع تكتيك أو أصول حساب وقـواعد. كـان الثور يهـاجم وحين يتفاداه الشاب يغير من اتجاهه ويستمر يهاجم، ولم يكن هاجم العباءة الحمراء وحدهـا، أصبح يهـاجم العباءة إن وجـدها وجسـد المصارع نفسه اذا كان أمامه. ومزقت قرناه العباءة أكثـر من مرة، وبـالكاد كـان يجد المصارع وقتاً أو مكاناً لاستبدالها.

وكان لا بد أن يحدث ما حدث.

ففي هجمته اشتبكت قرون الثور بثياب المصارع. ودفع الثور رأسه إلى أعلى، ولكن هذه الحركة البسيطة أطارت الشاب النحيف في الهواء وأسقطته على بعد أمتار. ولحظه الحسن جاءت سقطته قريباً من السور، واندفع نافذاً بجلده ليحتمي بالعارضة القريبة من الثور المقبل عليه، والكلمة المكتوبة على جبينه تتوهج وكأنما تحولت حروفها إلى نار. وحين خرج ستة مصارعين لتعطيله حتى يتمكن زميلهم من الوصول إلى العارضة، اندفع الثور يكتسحهم وبانقضاضة منه يدور عليهم مشتتاً شملهم بحيث يطلق كل منهم ساقيه للريح يبحث عن عارضة تحميه.

وفعل هذا كله دون أن ينسى غريمه، فقد أقبل على العارضة التي يختفي خلفها ولم يهمه أنها من الخشب فقد نطحها بقرنه أكثر من مرة، وحين لم يجد فائدة وقف أمامها لا يتحرك متربصاً لغريمه تربص قاتل صمم على الإجهاز.

أكدت الحادثة ان النية التى تحملها ملامحه وتتوهج نارية من عينيه نية حقيقية لن يتراجع إلا بتحقيقها، وأكدت هذا أول ما أكدته للمصارع نفسه، وبهذه الانقضاضة التى لولا ضربة حظ عشواء لأتت عليه. وفي الحال انقلب خط الدفاع عن النفس الذي كان قد اتخذه إلى غضب أحمق مجنون هو الآخر، وانقلبت عنده نية قتل الثور من نية قتل طلباً للبطولة إلى نية قتل غريم وعدو لدود، ألد الأعداء، قاتلك.

وهكذا لم ينتظر أن يغادر الثور مكانه ليدع له فرصة الخروج،

أشار إلى زملائه آمراً بنفس لهجة الغضب أن يلوحوا للثور بعباءاتهم ليبعدوه عن مكان الخروج. ولم يأبه الثور للتلويحات الأولى وكأنما هو قد حدد غريمه وطاعنه ولا يريد أن ينشغل للحظة واحدة عنه.

ولكن إصرار الزملاء وملاحقتهم دفعاه إلى التخلي عن موقفه والجري وراء العباءة.

وغادر صاحبنا مخبأه الاجباري والغضب الهائل لا يزال يجتاحه ويمتقع له وجهه كما لم يمتقع بالخوف أو رهبة الدفاع عن النفس.

وكان الجمهور أيضاً قد بدأ يغضب لغضبته، ويقف معه وان كان بالقلب وحده ضد غريمه المجرم الذي عقد العزم على الفتك به.

وبدأ جو ثان غريب يسيطر على الساحة، وخيم على الناس صمت كان له صوت لا أثر مادي له، ولكنه أعلى من كل صوت.

ولا أدري لماذا شعرنا جميعاً ونحن في مقاعدنا بتحفز مفاجىء.. لم تكن المحاورات والمناورات بين الثور والمصارع قد تغيرت، انها هي نفسها التي كانت دائرة قبل عملية الطعن الفاشل ولكن وقعها كان مختلفاً، وكان الثور يؤدي دوره بشراسة أكثر.. وبدا في رد المصارع نوع من فقدان الاعصاب، ذلك الذي ينتج حين تشد الأعصاب وتتوتر إلى آخرها حتى يبدأ بعضها يتمزق وتبدأ طاقات الصبر تنفذ واحدة وراء الأخرى.

وكذلك بدأ وجهه يصبح أكثر شحوباً وتصميماً.

ومن الصعب المستحيل أن أصف اللحظات القليلة التي سبقت ما حدث، فنحن لا يمكننا وصف ما يسبق الحادث إلا اذا كنا على معرفة سابقة بحدوثه أو على الأقل نتوقع حدوثه.. كل ما أستطيع قوله أن المحاورة ظلت دائرة، وكلما طال استمرارها ظهر التخبط الأعمى في حركات الثور والاضطراب الذي لا مبرر له في تحركات الميتادور. قال البعض انه التعب، لقد استنفذا كل قواهما وإلى آخر قطرة. قال آخرون ان الثور بسبب النزيف المستمر قد أصيب بالعمى وانه لم يعد يرى فقد أصبح يهاجم بلا سبب ويتوقف بلا سبب، وتطيش هجمته مرة ويرتد مرة أخرى فجأة وبلا توقع فيكاد يأتي على الميتادور.. ولكنه كان يفعل هذا كله بدافع بدا مختلفاً تماماً وكأنه الحقد.. الحقد الدفين المبيت.. الحقد الذي يشعل في الكائنات العليا نار الحرب ويجعل الأخ يذبح أخاه.

وفجأة، أجل فجأة! هكذا تحل الأحداث دائماً فجأة، فجأة! ولغير ما سبب معلوم أو مرئي انزلقت قدمه وسقط، لم يعرف أحد لماذا انزلقت قدمه أو السبب الحقيقي لسقوطه فقد وجدناه فجأة ممدداً على الأرض.

كان الثور قريباً منه ورأسه في اتجاهه أيضاً، ورغم أن سقطته المفاجئة أعقبتها في الحال وقفة مفاجئة منا، من الثلاثين ألف متفرج، وقفة خوف إلا أنه خوف يشوبه اطمئنان كثير فقد خدعتنا نجاته السابقة، واعتقدنا جميعاً وبلا استثناء واحد أنه لا بد سيحدث

كما حدث في المرة الأولى، وسيهب حالاً من وقفته ويستأنف الصراع. ولكن الثور في تلك اللحظات كان مقبلاً عليه إقبالاً أسرع من الزمن ـ هكذا بدا لنا ـ أسرع من خواطرنا، أسرع من حساباتنا، أسرع من أي شيء في الوجود، اذ كان له سرعة النكبة والكارثة والقضاء حين يحم.

ولكن سرعته تلك لا تنفي أبداً أنه لم يكن هناك وقت، ليس وقتاً كثيراً، ولكنه ذلك الحد الأدنى من الوقت، ذلك الذي تستطيع بالكاد أن تلمحه وتحس وجوده أو مروره، وقت كان يكفي على الأقل ليعتدل الشاب، ولو أوتى نفس قدرته الأولى لكان أستطاع أن يقف ويتفادى من الثور القادم.

ولكنه لم يقف ولم يعتدل ولا حتى رفع ذراعاً أو حرك ساقاً. رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتاً إلا أنها أثارت استنكاراً، فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المنقض، أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المنقض، وكأنما بفعل صاعقة وجدانية شاملة مكتسحة. في ذلك الجزء من الوقت أحسست لفرط تآزري معه في معركته، لفرط تبنّي لموقفه، لقوة الخيط الذي يصل بيني وبينه والذي كاد يسحب مني الروح لتحل بجسده، أحسست وكأنما الشلل الذي انتابه قد شلني أنا الآخر وأصابني.. شلل لا تفسير له ولا تبرير، شلل ساعة حدوثه لا تستطيع أبداً تبينه أو ادراكه، لا تحس به إلا هناك حينما تجلس مثلي على مكتب تستعيد ما حدث وأمامك الوقت متسعاً للتأمل والتحليل والتبرير. لطالما سمعت عن تلك

اللحظة وقالها الناس أمامي وسخرت من قولهم، تلك التي يقولون عنها ان «سهم الله» قد نفذ فيهم فأوقف التفكير وشل الجسد وأعمى الروح. تلك التي تحدث لنا حين نواجه بغتة خطراً لا قبل لنا به، أو قوة غاشمة عاتية لا يمكننا أبداً مقاومتها. انها آخر مراحل وقوفنا أمام تلك القوة. اننا أساساً كبشر لا نعترف بوجود قوة غاشمة لشيء في الكون لا قبل له به. وحين نرى تلك القوة أو نلمحها وبيننا وبينها مسافة. مسافة مترية أو زمنية أو نسبية، مسافة «أمن» نسبي، فأول شيء نفكر فيه أن نقاوم تلك القوة ونعاديها ونحاربها، هكذا تلقائياً وغريزياً وبصفتنا كائنات حية، حتى لو اضطررنا للهرب منها ففي الهرب معاداة وكره، تماماً مثلما ما في المواجهة من معاداة وكره. ونظل في حرب معها، في احساس شامل بمقاومتها والرغبة في تحطيمها وتشتيتها حتى تنجح تلك القوة في الاقتراب منا وتهديدنا وتخرق بهذا خط أمننا النسبي. حين يحدث هذا ونروع نحن باندحار هذا الخط وبأن هذه القوة الغاشمة قد اقتربت منا ومن تهديدنا إلى درجة أصبحنا معها تحت رحمتها، وبأن لم يعد هناك مفر ولا مهرب، وحينئذ يبدو وكأنما قانون كقوانين الجاذبية يطبق.. فكما يجذب الجسم الكبير الأجسام الأصغر منه يحدث أن تتحكم القوة الغاشمة الأكبر في قوتنا الانسانية المحدودة وتفرض عليها نفسها فلا تعود أجسامنا تتلقى أوامرها من عقولنا ووعينا ولكنها تخضع خضوعاً أوتوماتيكياً مباشراً لهذه القوة الغاشمة الكبرى، وبدلاً من أن تحدث المقاومة بفعل العقل والوعي وغريزة الدفاع عن النفس يحدث الشلل.. الشلل الكامل الشامل بفعل هذه القوة الأكيد مباشرة

وبأمرها، تلك اللحظة التي نسميها مرة أن سهم الله قد نفذ فيها أو أن القضاء قد حم والأجل قد انتهى أو التي لنا أن نسميها لحظة انهيار خط الأمن النسبي وتحكم القوة الغاشمة فينا.

والحدث كما وقع أمامنا تم ببساطة وكأنه دورة أخرى من دورات «الميوليتا». سقطة، وارتفعت على أثرها وقفة وشهقة جماعية مرعبة، شهقة كالصرخة.. كالطلقة، وكأنها العون السريع تقدمه يد الضعفاء الكثيرين غير المنظورة التي تمتد لتمنع عن الضعيف الواحد الذي انهار خط أمنه الأذى الغاشم الذي لا قبل له به. ثلاثون ألف يد غير منظورة امتدت لتساعده، ولكن كيف تستطيع أيد غير منظورة حتى لو كانت تعد بالملايين وملايين الملايين أن تمنع القدر الغاشم أن يقوم بعمله، فعلى أثر الشهقة تماماً، اذ الحدث لم يأخذ سوى الوقت الذي استغرقته الشهقة، كان الثور قد وصل اليه، وبغل أسود مجنون، وباندفاعه الأهوج الأعظم، نفذت قرونه من خلال صدر الشاب المزركش إلى رمال الأرض. وكانت الطعنة الأولى التي تبيناها، اذ على أثرها تداخلت الأحداث والأشياء والأزمان، تأوه أناس وكأنما هم الذين أصيبوا بالطعنة، وأشاحت سيدات بوجوههن وشاركن الرجال، وسقطت قلوب ودقت أرجل وأغمي على كبار. والخوف الأكبر، الخوف الذي كان يرهبه الجميع منذ أول لحظة، ذلك العُقاب القابع في مكان خفي من الأرينا، ثمة احساس جامح شامل أنه أخيراً وقع، أخيراً انقض وبمخالبه العزرائيلية يضرب ويطعن ويقتل أعز مخلوق. ألف ألف انفعال يجمعها كلها شعور عارم جارف

واحد أنه ضاع وانتهى، كأنما القوة الغاشمة قد اخترقت خطوط أمنهم هم الآخـرين أجمعين، ولم يعـودوا يملكـون سـوى شلل الحسـرة وانفعـالات الجامـدين. وكيف كان بـاستطاعـة أي منهم ـ باستـطاعتي أنا ـ أن يشيح بـوجهه أو يهـرب من مواجهـة المصير؟ ومن أين كـانت تواتيني الشجاعة أن أغمض عيني عما يحدث؟ انها المأساة، مأساتي في صـاحبي، صاحب اللحـظة الذي بـدا لي فجـأة وكـأنـه صـاحب العمـر. من أول دقيقة والهـاتف اللعين في خاطـري يؤكد لي أنـه في هذه المرة لن يفلت، وأنـاضله بجنون في انـتظار معجزة المعجـزات ولكني بـدلاً منهـا أرى الـطعنـات، أرى رأس الثـور يـرتفـع كمقبض الخنجـر ثم يهوي ليغيب نصـلا القرنين فيمـا كنت أعتقد أنـه الأرض أحياناً، وفي ملابسه أحياناً أخرى، ليثبت لي بعد هذا بكثير أنهـا كلها كانت في جسده، في صدره وبطنه وجذر عنقه وتحت ابطه.

وماذا أقول؟ أأقول ان كل هذا لم يستغرق زمناً ما وكأنه عاصفة هول هبت فجأة ودارت دورة سـريعة ثم اختفت، دورة أسـرع من أن يلحقها الميتادورات السبعة بعباءاتهم والقدر بمعجزة من معجزاته؟ بل أسـرع حتى من أن أتبين، مع أني كنت قـد تحولت بكلي إلى عينين جاحظتين، على وجه التقريب كنه ما حـدث؟ كان في رأسي من أول ومضة للأزمة طبل حـزين كبير مجلل بـالسواد مضى يـدق في سرعـة تشجب قدسية الحزن.. انه الثور هذه المرة.. القوة الغاشمة الجـاهلة الحمقاء هي التي تفتك، والضحية هي الكائن الانسان الراقي الشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم. كم بدا لي البطل

ضعيفاً في تلك اللحظة، طفلاً، ضنى عزيزاً.. كم غلت في عروقي دماء أعمق وأقوى القرابات، ، قرابة الانسان البشري للانسان البشري تلك التي تدفعنا بلا وعي أو ارادة لنجدة المأزوم اذا استغاث وحتى اذا لم يستغث. . لم يكن ما كنت أحسه من هلع ليختلف كثيراً لو أن المطعون كان ابني أو أخي أو أبي، فقد كنت في أقصى درجات الهلع وأقصى درجات الغضب وبآخر ما استطيعه من حزن كنت أضيق، وبأقوى ما استطيعه من هلع كنت أحقد على عدو الميتادور وعدوي وعدو كل من في الساحة وعدو البشر.. القوة القاهرة العمياء الغاشمة ـ أية قوة عمياء غاشمة ـ وليس عليها هي بالذات ولكن عليها حين نراها أقوى بكثير منا وأقدر، حين نراها في انتصار عارم ملموس ونحن في هزيمة ساحقة باردة واقعة.

وأبعدوا الثور عنه، إلى أين؟ لم ير أحد. كانت العيون كلها هناك منصبة فوق رقدته التي لم تطل، فما لبث أن أقبل زميلان له ودون أن يرفعاه وقف ومعه وقفت أرواحنا وأنفاسنا ودقات القلوب.. أيكون ما رأيناه خداع بصر؟ ها هو ذا أمامنا وبعد كل تلك الطعنات يقف دون مساعدة من أحد.. لا بد انها لم تصبه.. لا بد انها جاءت عشواء وحادت عن الهدف، ولكنها آمال أيضاً لم تطل.. فقد حدث شيء.. اذ وكأنما كان قد استنفذ كل ما لديه من حلاوة الروح، انثنى فجأة برقبته وهو واقف على صدره، ووضع يده على ثديه الأيمن، وقبل أن يتهاوى كان زميلاه قد رفعاه فيما بينهما وبسرعة مضيا يعبران به الساحة تحت خيمة سكون مذهل مرعب.

وحين اقتـرب الموكب منـا لمحت بقعة الـدم في نفس المكان الذي وضع فيه يده على صـدره، وجف ريقي وأحسست أن قلبي قد انتقـل إلى رأسي ومضى ينبض في حيـزهـا المحـدود بقـوة تسحق العقل.

وأدخلوه من بـاب يفتـح على السـاحـة ومـكتـوب عـليهـا «المستشفى»، ولم يمنعني مـا كنت فيـه من أن أدرك أني لم ألحظ وجود هذا الباب ووجود المستشفى نفسه قبلاً.

ورغم ما كنت فيه أيضاً وجدتني ألتفت فجـأة إلى يساري حيث الفتاة الكوبية، وأكثر ما دهشني أني وجدتها لا تزال في مكانها. كنت أتـوقع أن أجـدها قـد قفزت الحـاجـز وسبقتـه إلى بـاب المستشفى، ولكنهـا كانت هنـاك لا تزال منكفئـة على حديـد «الدرابـزين» مخفيـة وجههـا ممسكة الحـديد بقـوة أذهبت الـدمـاء من يـديهـا حتى بـدتـا شاحبتين كأيدي الموتى.

ولم يدم السكون طويلاً فمـا لبثت الهمسات الملحـة أن بدأت تسري وتتساءل عن مصيره وعن مدى ونوع جروحه بلا اجابات تشفي غليـلاً، اذ باب المستشفى كـان قد أغلق عليـه وحده ومعـه الممرض والطبيب ولم يسمح لأحد بالدخول أو حتى مجرد الاستفسار.

ومرت بضع لحظات لا زلت لا أدري ماذا كـان يدور بخـاطري فيها، كل ما استطيع أن أؤكده أني كنت تـائهاً مـذهولاً.. ذلـك النوع العميق المستمر من الذهول، مفجوعاً.. وكأني المفجوع الوحيـد، أو كأن فجيعتي أكبر من فجيعة الآلاف الثلاثين مجتمعة.

لمـاذا؟ لم أكن أعرف أو أدري! كـان إشفـاقي على نفسي من ثقـل ما أحمله من هم يـدفعني لمحاولـة التخفيف عنها بقـولي إنه لم يصب إلا بجروح ومن المحتمل جـداً أن يشفى، ثم حتى لو كـان قد مـات فماذا يحملك على هـذه الجنازة الحـالكـة السـواد التي أقمتهـا داخلك والتي تهدد بقبض روحك؟.

ولـم تكن أقوال كهذه تدفع إلا لمزيد من الفجيعة والحزن.

غير أنه على سطح كل هذا كان يـطفو احسـاس آخر بـالانبهار. الحقيقة أني رغم كل ما قلت وأعدت كانت جدية المصارعة وما فيهـا من بطولة لا تـزال عندي مـوضع شـك، وإن كان بمضي الـوقت كان يضعف إلا أنـه أبـداً لم ينعـدم. لم ينعـدم إلا في تلك اللحـظة التي أدخلوه فيهـا المستشفى مشبعاً بـالطعنـات ودوائر الـدم النـاضحـة من ملابسه الأنيقة تتسع وتتسع، ذلك الفتى الشهم الرقيق الذي كان يلف ويدور في الأرينا ممتلئاً بالحيـاة والقوة والصحـة. لحظتهـا أدركت أن رسمـه، ورسمهم جميعاً لعـلامة الصليب قبـل دخولهم السـاحة أبـداً ليس من قبيـل التدين أو الفـأل الحسن. لحظتهـا أدركت سر الصفـرة المتعـاظمة التي كـانت تكسو وجهـه ووجوههم جميعـاً طول الـوقت. انهم كـانـوا أدرى النـاس بمـا يختفي وراء كـل تلك «الأوليهـات» والتهليـلات والحشـود من السيـاح والأسبـان والمـلابس المـزركشـة والتقاليد العتيدة. اذ هناك يختفي الموت وعلى أبشع صـورة.. الموت بـالارادة، الموت بـالحظ، الموت لأقـل هفوة، المـوت حتى ولـو لم ترتكب هفوة.

وانبهاري كان سببه أني أدركت متأخراً ومفجوعاً مخنوق الأنفاس بالحزن أنهم أبطال، وأن صديقي هذا الذي اخترته من أول لحظة بطل. ليست البطولة التي تستدعي التصفيق والتهليل ولكنها البطولة التي تدفع للبكاء والدموع واحتقار النفس لما يمكن أن يكون مترسباً فيها من خوف الموت. ها هم كما رأيناهم، ها هو كما رأيناه، كان يدري بالخطر الأكبر الكامن ليس في هذا اليوم بالذات، ولكن في كل يوم، في كل مرة يطأ رمل الدائرة بقدمه، في كل حياته، ومع هذا لا يتراجع، ويقدم، ويلف ويدور ويواجهه حتى يسقط، سقطة حقيقية، سقطة في بحر من دمه.

كانت المصارعة والغربة واليوم والدنيا كلها قد انتهت تماماً بالنسبة اليّ. كل حماسي ورغبتي وقدرتي حتى أن افتح العين وأنظر وأعقل قد انتهت. كنت أحيا بجماع نفسي هناك على باب المستشفى داخل تلك الحجرة ذات الباب المنخفض التي نقلوه اليها. هل لا زال يتنفس؟ هل بدأ النزيف الداخلي؟ هل مات؟.

وكذلك كان الجميع إنصافاً للحق، كنا جميعاً هكذا وكأن الخيوط التي كانت تربطنا به قد قويت فجأة وتماسكت حتى جذبت منا كل الوعي والانتباه، والصمت أيضاً كان لا يزال هناك، والهمسات تخرج خافتة وتحدث خافتة

ولكني لم أتوقع ما حدث.

وازداد ذهولي عمقاً وأنا ألمح الأنظار قد بدأت تتجه شيئاً فشيئاً

إلى الثور الذي كان هناك لا يزال واقفاً، عليه ينصب حقد ستين ألف عين.

والسؤال المسيطر هو ماذا يمكن أن يحدث.

وما حدث هو نفس ما يحدث في كل مرة، فليست تلك أول مرة يسقط فيها ميتادور وبالتأكيد لن تكون الأخيرة.

كان لا بد أن تستمر المصارعة.

واعتقدت تماماً أنها ستستمر بلا جمهور، فالجمهور كان منصرفاً عن الساحة واهتمامه كله قد تركز على الباب المنخفض المغلق، وبقلبه اذ هو لا يستطيع ببصره كان يتابع لاهث الأنفاس ذلك الصراع الآخر الذي لا بد يدور في تلك الدقائق داخل الحجرة، لا بين المصارع والثور ولكن بينه وبين ما هو أقوى وأبشع وأكثر وحشية من كل ثيران الدنيا مجتمعة.

-١٤-

في تلك اللحظات، وبخطوات لا حماس فيها، وبرعب.. تقدم مصارع آخر، ذلك الذي فشل في قتل ثوره الأول الذي كانوا يسمونه البرتغالي، تقدم من الثور ومعه العباءة والسيف وقبل أن يتوسط الساحة كان الأخير قد انطلق نحوه مهاجماً.

ومع أني ظللت مشدوهاً بكلي إلى الصراع الأكبر داخل حجرة المستشفى، إلا أنه رغماً عني وبحكم وجودي وسط تلك الكتلة الحية الضخمة التي تكون جماهير الأرينا وجدت نفسي أتابع وبإهمال شديد وبلا حماس، لا ما يدور في الدائرة الرملية ولكن ما يحدث للجماهير. اذ كان ما يحدث شيئاً لم أستطع تصديقه ولا استطاع عقلي إلى الآن هضمه واستيعابه، بالتأكيد هم لم يولوا المحاورة الدائرة في الساحة أول الأمر اهتماماً يذكر، ولكن بعد دقائق قليلة كان قد بدأ اهتمام، وبعد دقائق أقل كان الاهتمام قد استحوز على عقولهم تماماً، ولم تكد تمضي خمس دقائق حتى تصاعدت أول «أوليه». كدت أقف صارخاً محتجاً لاعناً هذا الجمهور الجاحد مطالباً اياه بالعودة لتركيز ارادته وهلعه وانتباهه مرة أخرى إلى الشاب الراقد

في الداخل يصارع الموت من أجلهم، ولكن حتى لو كنت قد وقفت وصرخت ومزقت نفسي لما كان لما أفعله أثر، لكأني كنت أريد أن أقف بجسدي لأمنع ماء البحر من التدفق، أو لأوقف موجه العاتي لأرغمه أن يهدأ حداداً على سفينتي الغارقة. ان السكون حداداً معناه الموت، والحياة والبحر والموج لا بد أن تستمر، ولهذا كان لا بد أيضاً أن تستمر المصارعة وتستمر الصيحات تتعالى، ويستمر الصراع يمتص انتباههم، فقد كانوا هم الآخرين لا يزالون أحياء. صحيح كان الحقد الهائل لا يزال ينصب على الثور، وصحيح كل جزء كبير من المتابعة هدفه أن يشهد كل منهم في النهاية بعينيه مصرع ذلك الذي صرع بطله وحبيبه، ولكن هذا لم يمنع أنه في سبيل تلك المتابعة نسي تماماً بطله وحبيبه.

ومع أني كنت أتابع فقط بحكم الوجود والعدوى وبلا ارادة، إلا أن ما استرعى انتباهي حقيقة هو الرعب العظيم الذي كان مسيطراً على «البرتغالي»، والحقد العظيم أيضاً. كانت عملية أخذ بالثأر أكثر منها مصارعة، كان ثمة دم قد سال ولم تعد المسألة رياضة أو اثارة. هكذا في النهاية انكشفت اللعبة على حقيقتها العارية المجردة، وأصبحت عملية قتل، إما قاتل أو مقتول، هكذا بلا مواربة أو اخفاء للنوايا أو استعراض.

ومات الثور في النهاية. مات دون طعنة واحدة أصابته من البرتغالي. فجأة توقف عن جريه هنيهة ما لبث بعدها أن سقط كتلة واحدة على جانبه رافعاً ساقيه في الهواء لافظاً أنفاسه لا بد بتأثير

الطعنة التي كالها له الميتادور الأول، والتي كـانت السبب في هياجـه ومصرعه.

وبقلب مفعم بـالمرارة والـدهشـة رحت أتـابـع عـودة الاهتمـام بالبطل الصريع في فترة الاستراحـة، والمحاولات الكثيـرة التي بذلت لمعرفة مدى اصابنه. وتلفت، كانت الفتـاة قد اختفت ولم أستـطع أن أقطع إن كانت قد مرت أمامي في طريقها للخروج، ولكني أحسست لاختفائها بنـوع من عرفـان الجميل، فعلى الأقـل في وسط الجمهور المتوحش الحاشد ها أنذا أعثر على إنسانة.

ولم تسفر محاولات الاستفسار عن جديد، كان جميع الواقفين أمـام الباب المنخفض يكتفـون بهـز الـرؤوس وزم الأفـواه في صمت مبيت حزين.

وحين بـدأ الـدور الثـاني وانتهت الاستـراحـــة، خيـل إليّ من الأصـوات الكثيرة التي بـدأت تتصاعـد من الأرينـا والـزعيق والتحفـز الـذي قوبـل به دخـول الثور أن الحـادث قد خفت حـدتـه كثيـراً وأن بعضهم لا بد قد نسيه وآخرين لا بد قد أرغموا أنفسهم على نسيانـه، ربمـا لكيلا تفسـد ذكراه تمتعهم الكثيـر المقبل.. غيـر أني كنت على يقين أنهم إنما يفعلون هذا بقشـرة وعيهم الممتدة فـوق السطح، أمـا من الداخل فهم أبداً لم ينسوا ولن ينسوا.

وابتـدأ الشوط وانتهى، وكـذلك بـدأ الثالث، وفي لحـظة خيل اليّ أن أحداً من الجمهور لم يعد يذكر الشاب الصريع فمن أعماقهم

كـانوا يتـابعـون الأشـواط، وبكـل ذرة من كيـانهم اصبحـوا يلوحـون ويهتفون، وكذلك قل إلى درجة الانعدام الكـامل عـدد الواقفين أمـام الباب المنخفض.

وبمصـرع الثور الثـالث وبلا أحـداث أخـرى انتهت الفييستـا، وبدأ الناس.. أقليـة قليلة تتسابق للخـروج، والأغلبية تتلكـأ وقد عـاد الحـديث عن الميتادور الصـريع، وكله بـالطبـع أسف وحسرة وتـذكر لمواقفه وشجاعاته.

وعند الباب العاشر، أقرب باب إلى حجـرة المستشفى، تجمع جمهـور حوالي الخمسمـائة أو أكثـر قليلاً يهـدفون أن يـروا الميتادور حين تقبل عربة الموتى وتنقله، فـإلى تلك اللحظة لم يكن البـاب قد فتح ولا تسرب عنه خبر.

وأخيراً فيما يشبه الموجة انتشر بين الواقفين خبر، اذ كان الباب قد فتح وأطل منه رأس. الخبر كان أنه لا يزال حياً وإن كان يعاني من صدمة شديدة، وإن كان قد أصيب بسبعـة جروح وكسـر وتهتك. ومـا كاد الخبر ينتشر حتى كان قد انصرف لسمـاعه نصف الـواقفين، وبدأ الازدحـام يخف ولم يصبح ثمـة واجب كثيـر أمـام عسـاكـر البـوليس الأسباني الخيالة الذين كانوا يتولون المحافظة على النظام.

وما كادت ربع ساعة أخرى تنقضي حتى كان قد انصرف أغلب الـواقفين، ولم يعـد سـوى بعض المتسكعين وبعض من لا عمـل وراءهم أهم من مشاهدة خروجه.

وهنا وفي تلك اللحظة فقط لمحت الفتاة الكويبية واقفة بجوار أحد العمدان وبصرها مسدد إلى الباب، وهي دائبة النظر إلى ساعتها.

ودون أن أفكر كثيراً ذهبت إلى حيث تقف. وبلهفة قابلتني أنا الذي خفت أن تشيح بوجهها عني وسألتني وذكرت لها ما سمعت، ولم يزد ما ذكرته أو يقلل من لهفتها وتطلعها واضطرابها.

وفي الدقيقة التي مضت على وقوفي معها رأيتها تتطلع مرتين إلى الساعة.

وحتى قبل أن أسألها أجابتني أنها للحظ السيىء لا بد أن تسافر الليلة إلى لشبونة وأن طائرتها ستغادر المطار في الثامنة، وأنها لا بد أن تذهب قبل هذا لفندقها والساعة كانت السابعة إلا ربعاً. كانت حالتها تدعو للرثاء حقاً، تمد رأسها إلى آخر ما تستطيع ناحية الباب العاشر ثم ترتد إلى باب المستشفى ومنه إلى الساعة ثم إلى السيجارة تمتص دخانها بقوة وكمد وشراهة.

واندفعت مرة مسرعة إلى باب الخروج، ولكنها بعد بضع خطوات توقفت وعادت إلى حيث كانت واستجمعت يدها ودقت العمود بقبضتها دقة رن لها خاتمها رنيناً مكتوماً وسقط فصه. وبضيق أشد تناولته وقذفته بقوة داخل حقيبة يدها.

وتمنيت أن تبكي ولكنها لم تفعل، وحينئذ قلت لها لماذا لا تذهب وتلحق بطائرتها؟ وهنا في ضوء الشمس المتبقية من العصر لمحت

عينيها تحمران ـ فقط كان احمراراً ـ واختنق صوتها وهي تقول:

ـ من تظنني؟

وآثرت أن أسكت.

وظهرت عربة الاسعاف عند الباب، وجذبت من صدرها نفساً عميقاً وألقت بسيجارتها. وعلى أطراف أصابعها شبت لتستطيع أن ترى عبر الرؤوس الكثيرة التي تجمعت لا تدري من أين؟ وقفت لتشهد عملية نقله إلى العربة.

غير أنه لا هي ولا أحد من أصحاب الرؤوس وصاحباتها أتيح له أن يشهد شيئاً، فقد فتح باب حجرة المشتشفى ودخلت العربة إلى منتصفها، وظلت عشر دقائق على وضعها ذاك ثم مضت مغبشة الزجاج لا يرى خلاله أحد شيئاً.

ولا أعرف إن كانت الغمغمة التي وصلتني وهي تندفع خارجة في أعقاب العربة كلمة وداع.

ولكنها في لمح البصر قد اختفت.

وبخطوات مثقلة وكأنما بحديد مضيت إلى الخارج. وكنت أحسب المصارعين أناساً يحيون بين العربات الفاخرة والسهرات والفيللات، فقد فجعت حقيقة وأنا أرى بعد عربة الاسعاف بدقائق سيارتين من سيارات التاكسي قد وقفتا أمام الباب وشحن فيها المصارعون

وصبيانهم كل ستة في عربة.. واعتقدت أنهم ذاهبون لا بد إلى المستشفى، وخطر لي أن أستقل عربة وأتبعهم لأعرف أي مستشفى هو، لكن الفكرة بدت لي في لحظتها شاذة وغير معقولة.

وأنا في الطريق من الحلبة إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة وجدتني وجهاً لوجه أمام عوض.. كنت قد تركته في المغرب وها هي الصدف المحضة تجمعنا في مدريد.

ولو كنت قد قابلته في فرصة أخرى لفرحت للقائه كما لم أفرح في سفرتي كلها، فليس أحب إلى قلب الانسان من أن يصادف صديقاً في غربة فما بالك اذا كان الصديق عوض أخف أهل الأرض دماً وأكثرهم مرحاً وتفتحاً للحياة واستمتاعاً بها. اذا غصت معه إلى الأعماق غاص معك وان شئت أن تعبث وتطفو إلى السطح سبقك.

سألني عما بي وقد رآني واجماً، ولكني لم أستطع اجابته فالحقيقة لم أكن أعرف.

وابتلعتنا مدريد الهائلة بشوارعها وأناسها وسياحها وأمسيتها تلك وليلتها. ولم أستطع أبداً أن أنسى، بل كان يحز في نفسي أن كل هؤلاء الناس لا يذكرون أن عوض مرح وأنه يعتبر مصارعة الثيران عملاً وحشياً لا يليق بعالم اليوم عالم القرن الحادي والعشرين.

وافترقنا في الثانية صباحاً على موعد أن ألقاه في الصباح.

وحين أصبحت وحدي في الحجرة الضيقة التي عثرت عليها في ازدحام فنادق مدريد بمثل ما تعثر على الابرة في كومة القش،

حجرة مليئة بصورالقديسين، وهناك صورة كبيرة نوعاً للعذراء أسفلها مصباح كهربائي، ولكن بلاتينه الداخلي يضيء بنور أحمر خافت على هيئة صليب، جعل حركة رسم الصليب قبل الدخول إلى الساحة تعود تدق على ذاكرتي وتدق.. حين احتوتني الحجرة شعرت برغبة في البكاء، رغبة لا علاقة لها ألبتة بحادث اليوم، ولكنها مجرد شجن خاص وضيق. ولكنني استسخفت الرغبة، بل استسخفت المسألة كلها. ما هذا الجنون؟ ولماذا أحمل وحدي تلك الجنازة السوداء الخانقة في صدري؟ وهل أنا مسؤول عن أرواح الناس وما يحدث لهم؟ وماذا كان باستطاعتي أن أفعل ولم أفعله لأوقف الكارثة؟

إن ما حدث قد حدث، واذا كان الناس قد نسوه وتفرقوا بعد الاحتفال إلى لهوهم وحياتهم بينما مضت به وحده عربة الاسعاف بين الموت والحياة إلى المستشفى فتلك هي لا بد سنة الناس هنا، بل هي سنة الحياة! فليس مفروضاً أن تتوقف لأن أحدهم مات أو أصيب ولو كان الميت بطلاً.

خواطر وردود على الخواطر كنت أقولها لنفسي محاولاً أن أبعد شبح ما حدث عن تفكيري، محاولاً أن أبعد هذا الانسان النـ الرقيق عن وعيي بلا جدوى، كانت الصور تعود وتصر على العودة كنتف متفرقة من فيلم طازج لا تزال عالقة به أملاح التحميض. ونمت.

وفي الصباح صحوت، وكان أول ما فعلته بعد تناول الشاي في

المقهى القريب اني اشتريت الجرائد ورحت أقلب صفحات أولاها إلى أن وصلت إلى ما خيل إليّ أنه صفحة الرياضة، وأنا لا أعرف الأسبانية ولكني من جذورها المشتركة مع الانجليزية والفرنسية استطعت التعرف على الخبر، كان في ركن من الصفحة بعنوان على ثلاثة أعمدة ولم أجد فيه ذكراً لكلمة الموت.

وفي جريدة ثانية كان الخبر منشوراً على عمود في الصفحة الأولى ومعه صورة، ومرة أخرى عاودتني خيبة الأمل. كنت أتوقع أن أصحو فأجد الخبر قد عم المدينة ولا حديث للناس والجرائد إلا عنه، وها هم أناس يزدحم بهم المقهى يتناولون إفطارهم في صمت جاهل وقور.

«الفصل الأخير»

غادرت المكان تاركاً الجرائد ما عدا احداها، تلك التي ذكرت عنوان المستشفى الذي يرقد فيه، ومضيت أسير في الشوارع بلا هدف وقد قررت أن أخلف موعدي مع عوض.

كانت الشوارع مزدحمة بأناس كثيرين أيضاً.. آلاف الناس الصغار الكثيرين ماضين مكهربين مكربجين إلى أعمالهم دون كلمة واحدة عما حدث بالأمس وعن الميتادور الصريع.

وفجأة قررت أن أذهب إلى المستشفى، ورمقني سائق التاكسي بنظرة مستطلعة وأنا أشير اليه دون أن أنطق إلى العنوان المكتوب في الجريدة وقد وضعت تحته خطاً.. وفي الطريق قال كلاماً كثيراً بالأسبانية ممزوجاً ببعض كلمات انجليزية ـ لا بد علمه اياها التعامل مع الأمريكان ـ كلاماً فهمت منه أنه يعلق على ما حدث للميتادور ويريد رأيي.. واكتفيت بهز رأسي، وحين يئس غمغم ببضع كلمات خمنت انها لا بد سباباً.

وزعمت لبواب المستشفى أني طبيب مصري وأني أريد مقابلة

أستاذ الجراحة، وفي قسم الجراحة سألت الراهبة بالاشارة عن المكان الذي يرقد فيه الميتادور، وأشارت إلى ممر جانبي كانت تقف في نهايته مجموعة قليلة من الرجال بينهم سيدة عجوز وصبي لا يتعدى العاشرة، وحولهم وقريباً منهم كانت تتناثر بضع باقات.. واقتربت. كانت رؤوسهم منخفضة ولكن اقترابي دفع بعضها إلى الارتفاع.

كانت الحجرة مغلقة وعلى أكرتها لافتة معلقة لا بد كانت أمراً بمنع الزيارة.

ووقفت قريباً من المجموعة ذات العيون المستطلعة صامتاً مثلهم، منكس الرأس خجلاً، ففي لحظتها كنت قد أفقت على سؤال: ماذا أتى بي إلى هذا المكان، ومن أنا بالنسبة للجريح الراقد في الداخل؟ أو حتى بالنسبة إلى هؤلاء الناس؟

وفتح باب الحجرة وخرج طبيب سرت بجواره بضع خطوات وحييته، وأسعدني أنه يعرف الانجليزية، وزعمت له هذه المرة أني صحفي عربي وأني أريد أن أبرق بالخبر إلى جريدتي، وسألته عن حالة المصارع فقال:

- Grave.
- Internal hoemorrhage?
- Two, one in the chest and another in the abdomen.
- External ones too.
- Prognosis nil then.
- Scientifically yes ... unless.

- Unless what?
- Something happens, you know, a miracle for example!

وتوقفت عن السير، وتابع الطبيب طريقه.

وتحـرك واحد من المجمـوعة الـواقفة كـان أكبرهم سنـاً ولكنـه أكثرهم صحة، حيـاني بـالأسبـانيـة، وهـزت رأسي، وبمـزيـج من الانجليزية والفرنسية والايطالية قدم إليّ نفسه. كان المحرر الـرياضي لجـريدة لم أهتم بمعـرفة اسمهـا، وكانت رائحـة البرانـدي الأسباني تفوح منه، وسألني عما قاله الطبيب وأخبرته بالحقيقـة. انه يعـاني من نزيف داخلي وخارجي في الصدر والبطن معاً وإنه علميـاً لا يمكن أن يعيش، ولـم تبق على حد تعبير الطبيب ـ سوى المعجزة.

قال بازدراء غريب:

ـ ومن أين تأتي المعجزة؟

قلت:

ـ من السماء.

ورفع بصره إلى السقف وثبتـه بعض الوقت، ثم عـاد يواجهني وقال:

ـ قبل أن أعمل محرراً كنت مصارع ثيـران، وتحدثـوا في العلم والمعجزات كما يحلو لكم ولكنـه لحظة أن سقط أمـامي في الساحـة وشلته السقطة عن أن يحرك يداً أو ساقاً أمام الثور المقبـل عرفت أنـه انتهى ومات.

وكانت باقات أخرى من الزهور قد بدأت تفد فاستطرد:

- زهوروزهور. . كفنوه بالزهور. . دعوا الزهور تصنع المعجزة التي ينتظرها الأطباء.. من أي بلد أنت يا سنيور؟. أنا لا يهمني من أي بلد أنت ولكني أريدك أن تكون شاهداً على المأساة.. أنا لا أستطيع أن أكتب هذا في جريدتي وإلا فصلت، وأنا في حاجة إلى العمل لآكل وأنا قد جربت الجوع. أنا نشأت في ملجأ أيتام الفرنسيسكان وأعرف ما هو الجوع. أنا مصارع قديم.. بطل! أسبانيا كلها والمكسيك والبرتغال كانت تهتف جميعها لي، ولكنني أخيراً اكتشفت المهزلة، كذب كذب كذب كل ما تقرؤه عن التقاليد الأسبانية في الفروسية وشجاعتهم التي خلقت مصارعة الثيران. ليس هناك شعب أشجع من شعب، قل لي إني شارب ومخمور ونحن الآن في.. كم الساعة الآن؟ التاسعة. اذكر كل ما تراه هنا ولا تنسه فأنت الشاهد.. شاهدي.. لقد كنت أحب هذا الولد أنطونيو.. كان ابني الذي لم أخلفه.. وكنت أعرف أنه سيموت. ان الكثرة منهم تعيش ولكن الشجاع الحق هو الذي يموت، وفي كل عام نفقد عدداً من الشجعان، أتعرف لماذا نفقدهم؟ انها لعبة كبيرة جداً.. لعبة عالمية ما تراه في الساحة هو الفصل الأخير فقط منها. وإذا لم تصدقني فتصور أسبانيا بلا مصارعة ثيران. من المجنون الذي يأتيها؟ ان احصاءاتنا الرسمية تقول ان بلادنا تستقبل في الصيف موسم المصارعة ربع مليون سائح يومياً أو ربما خمسين ألفاً، لا أذكر الرقم. لعنة الله على الأرقام! كذا ألف ينفقون كذا مليون دولار. ألـغ

المصارعة تلغ الدولارات، أقم حفلات المصارعة واستحضر ثيراناً متوحشة واجعلها تنفرد بالرجال، ماذا يحدث؟ الرجال يقتلون الثيران

ولكن لا بد أن تقتل الثيران بعض الرجال، وبغير أن تقتل الثيران بعض الرجال فلا لذة في المصارعة ولا متعة. أتصدق أن هؤلاء الناس الذين يجيئون من كل مكان إلى الأرينا يأتون لكي يروا الرجل ذا السيف يقتل الثور الأعزل؟ انها كذبة كذبة. انهم يأتون على أمل أن يقتل الثور المتوحش الرجل ذا السيف، وحبذا لو حدث القتل أمامهم انهم لا يجاهرون برغبة كهذه لأنها تبدو شاذة كريهة غير لائقة بالرجل المتحضر، ولكنها وأقسم لك الرغبة الكامنة في صدورهم. عرهم من ملابسهم ونفاقهم وتظاهرهم لتجدها ملتوية على نفسها كالثعبان هناك.. نحن نعرف هذا وأصحاب الفنادق يعرفون هذا، وشركة كوك تعرف هذا، ومصلحة السياحة عندنا تعرف هذا، والبنوك والحكومة والدولة والكنيسة تعرف هذا، كلها تعرف أن كذا رجلاً سيقتلون في هذا الموسم كذا ثوراً، وأن كذا ثوراً ستقتل على وجه التقريب كذا رجلاً. ولا أحد أبداً يفعل شيئاً لمنع هذا القتل، بالعكس إنها كلها تتعاون وتتسابق لكي يتم القتل على أكمل صورة. الحكومة تصنع الدعاية في الخارج وتدعو الناس من جميع أنحاء الأرض كي يحضروا إلى أسبانيا لرؤية المصارعة، أي لحضور القتل.. وشركة طيراننا تنقلهم، وأصحاب فنادقنا يصنعون كل ما في وسعهم لراحة المدعوين، وشركات السياحة تهيىء لهم بجوار المشاهدة نزهات ونزوات، والبلدية تقيم الأرينا وتؤجر المقاعد.

والكل سعيد، السياح ينفقون بسعادة، ونحن نقبض بسعادة، والتفرج على المصارعة متعة العمر، وماذا يهم بعد هذا اذا كانت تلك السعادة كلها مقابل أرواح خمسة أو عشرة أو عشرين رجلاً كل عام؟وخاصة ونحن اذا مات أحدهم، أو أصيب بالعجز الكامل هللنا له وضججنا وتوجناه بطلاً وعاملناه معاملة لا يحظى بها شهيد الواجب والجندي في الميدان. أنا لا أعرف من أين أنت قادم ولا يهمني أن أعرف، ولكني أرجوك أن تكون الشاهد، شاهدي وأن تنظر إلى ما وراء هذا الباب. فلو كان الأمر بيدي لوضعت على الحجرة أو على قبره لافتة مكتوباً عليها بالخط الكبير: هنا يرقد شهيد مصلحة السياحة الذي قضى وهو يؤدي الواجب المقدس، واجب تكديس النقود في أيدي شركات الطيران ومديري الفنادق وأعضاء المجلس البلدي والمؤسسات ومساهمي البنوك وأصحاب الكاباريهات وشركات السفر والسياحة.. أنت لا تصدق.. اذا شعرت أني أكذب وأبالغ فحدق في هذه الباقات من الزهور واقرأ.. أليس هذا كارت لويجي كاستيللو نائب ومدير بنك سبيلا؟ أو ليست هذه باقة اتحاد اصحاب سيارات التاكسي؟.. انها أكبر من هذا. لا بد أيضاً أن تكتب: هنا يرقد شهيد المؤامرة العالمية لإلصاق مؤهلات ومميزات بطولية خاصة للشعب الأسباني، تمهيداً لتقبل الرأي العام المتمدين فكرة المصارعة بين الرجال والثيران، كمقدمة لا بد منها أيضاً لكي يتقبل ذلك الرأي العام نفسه فكرة أن يسمح في عصرنا هذا لثور متوحش أن يصرع انساناً ويمزقه بطريقة قانونية جداً وبطولية جداً وممتعة جداً.. جداً جداً.

لقد انفردت طويلاً بالكلام مع أني لا أريد الكلام، أريد البكاء! ولكني في حاجة لمعجزة كي أستطيع فقد تعلمت ألا أبكي، ولهذا أسكر. ولهذا أنا سكران وأريد أن أسكر أكثر، أريد أن أبكي على هيئة أن أشرب، فأنطونيو كان أعزهم، لقد رأيته وسنه خمسة عشر عاماً، وكان صغيراً ومن أول لحظة عاملته كابني ولكنهم اختاروه هذه المرة ليقتلوه.

لقد قرأت لا أذكر متى ولا أين ولا يهمني أن أذكر، أن في مصر عادة قديمة، أنهم في كل عام يختارون أجمل فتاة لديهم لتلقي بنفسها في نهرهم النيل ليكثر ماؤه ويفيض، ولكن قرون الثور فظيعة فظيعة! أنت لم تجربها، لم يصبك الرعب، ما هو أكثر من الرعب، تفكك العقل، وتشتت أجزائه هلعاً، لا من الطعنة في حد ذاتها ولكن من الفكرة، من الموقف، من الوحش الغاشم ذي العيون الواسعة البلهاء، وقرني الشيطان البارزين من رأسه، هنا في فخذي مسني الوحش فخرب ساقي، وهنا في صدري مسني الرعب منه فخرب روحي، لو أزحت ضلوعي يا صديقي لما وجدت وراءها شيئاً. أنا انسان مخرب وأنت شاهدي، أنت باستطاعتك في جريدتك أن تكتب، اكتبها.. المؤامرة، واترك لي أنطونيو فأنت لم تعرفه، أنت لم تره وهو يداعب القطة ولا هو ينتحي ركناً معزولاً من قاعة أي احتفال، ولا رأيت الخجل يعتريه حين يزلف لسانه وينطق الكلمة بلهجة تكشف عن أصله القروي المتواضع. أما أنا فأستطيع، سأفعلها مرة، وبدلاً من الأخبار سأكتب مقالاً، فقط يلزمني أن أكف ليلتها عن

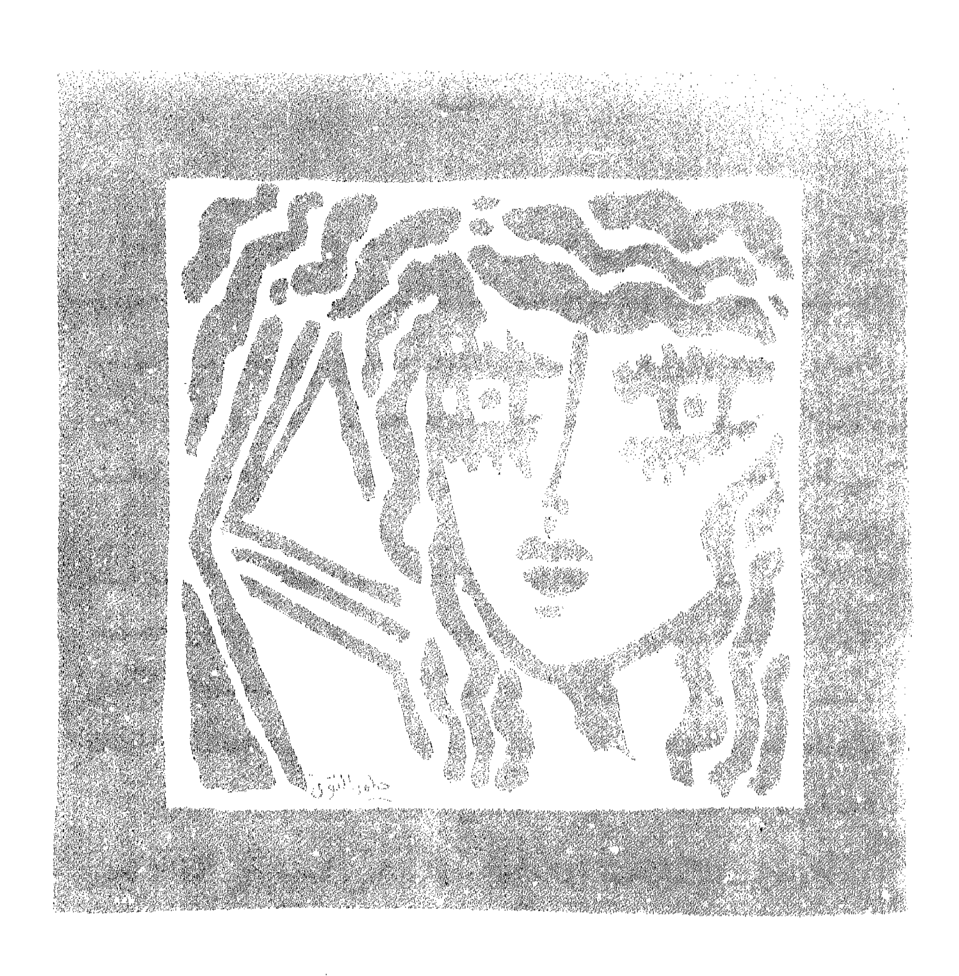
الشـراب، قسمـاً سـأكف ليلتهـا عن الشـراب من أجلك يـا أنـطونيـو وبحبي لك يا أنطونيو وبحبي لك يا ابني الـذي لم أخلفه ولم أتـزوج أمه، قسماً سأفيق ليلة وأقول الحقيقة كلها يا أنطونيو.

تمت




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





حـادثـة شـرف


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محطـة

في المحطة الأولى صعد الشاب ـ واحد من شبان هذه الأيـام ـ القميص «نص كم» ومفتـوح مـع أننـا لا نـزال في الشتـاء، وشعـرات الصدر القليلة بارزة من فتحتـه، والبلوفر مخلوع ومـربوط من أكمـامه حول العنق، والسلسلة إياها تارة ملفـوفة حـول ساعـده وأخرى دائـرة بين أصـابعـه، ونـوت المحـاضـرات راقـدة في إهمـال تحت إبـطه . .

وفي المحـطة التاليـة صعـدت الفتـاة ـ واحـدة من بنـات هـذه الأيام ـ نحيفـة قمحية، حتى ابتسـامتها قمحيـة، شعرهـا ذيل حصان، وصـدرهـا لم يبلغ بعـد حب الـرمـان، ولكن (السـوتيـان) تكفـل بإنضاج حب الرمان. وكانت تمسك في يدها مندوب العائلة ـ أخـاها الصغير ـ الموفد لا بد لحراسة الحمل النحيف من قطعان الذئاب.

وأوتـوبيساتنا مزدحمة ودائماً مزدحمة، حتى ليخيل لي أننا لا نعتبر أزدحـامها مشكلة، ولكننـا نعده مفخـرة قوميـة كالأهـرام وأبي الهـول سنظل نحتفظ بها إلى أبد الدهر.

وكان الأوتوبيس مـزدحماً. . ومـزدحماً بـالرجـال الكبار، كلهم يرتدون السترات الغامقة وأربطة العنق الـوقورة. الجـالسون جـالسون

في أدب واتـزان، والواقفـون واقفـون رغم تـلاصقهم وازدحـامهم في جـدو حزم، حتى حين كـان الأوتوبيس يهـوي بالـواحد منهم ويجعله يتأرجح كالدائـخ ذات اليمين وذات اليسار، كـان يفعل هـذا في جـد ووقار أيضاً وبوجه صارم الملامح والقسمات.

والسيد الجالس بجواري كان هو الآخر من هذا الصنف الوقور الحـازم، بل كـان واضحاً أنـه أكثر الـركاب جـداً ووقار إذا كـان هـو الوحيد الـذي يرتـدي بالـطو فوق بـدلته، مـع أن الصباح كـان جميلاً مشرقاً يغري الإنسان بالمشي عارياً تحت أشعة الشمس.

وحين صعد الشاب مبتسماً، ولكن أحداً من الرجال الكبـار لم يعبأ به أو بابتسامته.

وحين صعدت الفتاة صعـدت مبتسمة، ورمقهـا الرجـال الكبار ذوو السترات بنظرات سيئة النية، ولكنهم أطمأنوا حين وجدوا أنها في أعمـار بناتهم أو دون ذلـك وأنها لا تصلح للفـراش بـل لا «يليق» أن ترى مع أحدهم في الشارع، ولهذا سرعان ما صرفوا النظر عنها وعن ابتسامتها.

ولكن جاري أعلن رأيه بصراحة، فقد شعرت به يتململ دا البـالطو حين صعـدت الفتاة ومـا لبث أن عقد مـلامحه وقـال في سبه غمغمة مستنكرة:

ـ ودي إيـه اللي يخليهـا تـركب في الـزحمـة دي كمـان.. قلة أدب!

وكدت أنا الآخر أصرف النظر عنها لولا أن حدث شيء، نفس الشيء الذي يحدث كلما صعد إلى عربة الأوتوبيس راكب جديد. فقد تقلقلت صدور واصطدمت بطون واستعملت الأكتاف للمرور، وتبودلت كلمات الاعتذار بالإنجليزية والفرنسية والعربية والبلدية، وحدثت حركة تنقلات وترقيات بين أصحاب الأمكنة وحاول كل منهم أن ينتهز الفرصة ويحتل المكان الذي طال حلمه به.

وكان من نتيجة تلك الحركة أن جاءت وقفة الشاب الصغير بجوار الفتاة الصغيرة، وجاءت وقفتها بجوار المقعد الذي أحتله أنا والسيد جاري.

ورمق كل منهما الآخر بنظرة سريعة لا هدف لها ولا معنى.. لم تغير من الابتسامة التي صعد بها كل منهما، بل لم يلاحظها أحد من ركاب العربة.

وكنت قد عانيت الأمرين من السيد جاري. فمنذ أن جلس بجواري وهو لم يكف أبداً عن الحركة ولا عن التعليق ولا عن إعطاء الأوامر الخاصة للسائق حين تدخل العربة في مأزق، أوامر يقولها بينه وبين نفسه: اطلع يا جدع. خد يمينك. سواق نيله.

وأنا لا أحب أن يناديني أحد بكلمة السيد لست أدري لماذا. تصور اسمك مقروناً بلقب السيد حتماً ستحس أن شيئاً قد تغير أو تجمد، أو أنك أحلت مثلاً إلى الاستيداع. ولكن هناك أناس تحس أن لقب السيد فلان يناسبهم جداً. وكان جاري من هذا

الصنف، لا تملك حين ترى طربوشه وتكشيرته ومعطفه والشعر الأبيض في ذقنه الذي يحلق يوماً بعد يوم إلا أن تقول له يا سيد.. وإن لم تقلها له غضب، ولهذا فهو الذي يبدؤك باللقب حتى لا تنسى أن تعيده إليه إذا حادثته.

كان واضحاً أنه يحب الأصول.. والأصول ألا يأخذ الناس على بعضهم بسهولة. ومع هذا فمنذ أن جلس بجواري وهو لا يعاملني بالأصول أبداً، فقد احتل وحده أكثر من ثلثي المقعد ومع هذا ظل كوعه مغروزاً في جنبي يكاد يخرق حجابي الحاجز، وكان قد قرأ من جريدتي أضعاف ما قرأته منها، وحين قررت حلاً للإشكال أن أعطيها له ألقى عليها نظرة سريعة ثم طواها وردها لي، وما كدت أفتحها حتى وجدت وجهه يتسلل من فوق كتفي ويعاود القراء.ولعله لمح فيها دواء مقوياً «للأعصاب». ثم إن عينه لم تغفل عني لحظة، حدق في وجهي مرات ربما ليرى إن كنت أحمل شبه إحدى العائلات التي يعرفها. وحين أخرجت محفظتي لأدفع جرد كل محتوياتها بنظراته الجانبية واشمأنط حين وجدها شبه خالية، حتى حذائي لم يسلم من تحديقاته ربما ليعرف إن كان نعله جديداً أو ليدرك نوع جوربي وحالته الداخلية، ومن كثرة خجلي أدخلت قدمي تحت المقعد لأريحه وأريح نفسي.

ولم ينقذني من نظراته إلا مجيء الشاب الصغير والفتاة الصغيرة فقد تركني وتحول إليهما.

ولأنني كنت بعيداً عن النافذة لم يعد أمامي لكي أقطع الوقت إلا أن أنظر في وجوه الركاب. ولم تفلح هذه التسلية لقطع أي وقت فقد كفتني نظرة واحدة إلى الوجوه لكي أدرك أنها نسخ متفاوتة الإتقان من جاري العزيز. . وهكذا لم يعد أمامي إلا أن أراقب الشاب الصغير والفتاة الصغيرة.

وبدأت أجد في مراقبتهما تسلية عظمى.

فقد لمحت ابتسامة الشاب الطبيعية يرتجف سطحها قليلاً وقليلاً ويتغير شكلها ويصبح لها معنى خاص مضى يمسح به وجه الفتاة وشعرها وجسدها وحتى ملابس أخيها الصغير.

المسألة فيها إعجاب إذن.

وكان إعجاباً، مجرد إعجاب غير موجه إلى الفتاة بعينها، ولكن إعجاب أي شاب صغير بأي فتاة صغيرة. .

ولكن الأمور بدأت تتطور.

فقد اتسعت ابتسامته حتى شملت وجهه كله، وبدأت السلسلة تضطرب في يده وأصابعه تتجاذبها بلا وعي وفي عصبية.

وقلت في نفسي: عظيم! إنه يريد أن يكلمها.

وأن ينظر الشاب إلى فتاة مسألة سهلة، وأن يبتسم لها مسألة أسهل، أما أن يكلمها فتلك هي المشكلة. . المشكلة التي شغلت جيلنا كله أيام أن كنا طلبة في الكليات وشباناً حديثي التخرج. كنت

لا تجد شاباً منا إلا ولديه مشكلة من هذا النوع؛ وكل يوم ينتحي بك صديق من أصدقائك ركناً ويسوق مقدمات طويلة ويدعي أول الأمر أن المشكلة خاصة بشاب آخر، ثم ينفجر في النهاية قائلاً: أحبها يا أخي وأعبدها، وهي جميلة وأراها كل يوم وتراني، وأجلس بجوارها في المدرج أو في الأوتوبيس وأبتسم لها كثيراً، وأحياناً يخيل إليّ أنها تبتسم لي فدبرني ماذا أصنع؟ . .

وتجد أن الحل في غاية السهولة فتقول:

ـ كلمها يا أخي كلمها.

ولا بد أن يضحك مستشيرك ضحكة هستيرية مغتصبة ويقول:

ـ وجبت إيه من عندك؟ ما أنا عارف . . إنما إزاي . . إزاي أكلمها؟! .

ولا تظن أن مستشيرك هذا قد فتح صدره لك وحدك باعتبارك صديقه الحميم، فلست إلا واحداً من عشرات وربما مئات حدثهم وكاشفهم وخبط رأسه في الحائط أمامهم وهو يقول:

ـ المشكلة كيف أكلمها؟

وتظل المشكلة معلقة شهوراً طويلة وربما سنين. أحد زملائنا ظل يحب زميلة له خمس سنوات بأكملها دون أن يجرؤ على مخاطبتها، وحين جمع شجاعة الدنيا وذهب يحادثها ألقى على مسامعها الجمل الخمس التي كان قد جهزها، ثم استأذن منها وغادرها في الحال حتى قبل أن تفتح هي فمها وترد.

ونفس الوضع لدى الفتيات ولكنهن لا يملأن الدنيا عويلاً وصراخاً كما يفعل الشبان. هن يصمتن على نار والمشكلة تحيرهن وصدورهن العذراء تحترق احتراقاً داخلياً لا تطفئه دموع ولا تنهدات، وتؤججه الأغاني والروايات. وكل جنس يريد الآخر ويراه ويلمحه، وليس بينه وبين الآخر مسافة.. ومع هذا فهناك حائط زجاجي سميك لا يدري أحد من أقامه ولا يجرؤ أحد على كسره.

ولكن جيلنا أفاق.. فوجدنا إخوتنا الصغار وأطفال جيراننا وأولاد المعارف، قد استطالت أجسامهم فجأة واخضرت شواربهم وكشفوا الصدور والسواعد وبدأت أصواتهم تتغير، وبدأت إذا حاولت أن تمنع الواحد منهم عن مناقشتك قال لك:

ـ إزاي؟ أنا مش عيل.. أنا راجل زيي زيك.

*   **   *

وكان الشاب لا يزال يبتسم في غموض وحيرة ويحرك رأسه ليأخذ وجهه أوضاعاً مختلفة، وينظر إلى قدمه مرة ثم يسرح فجأة ويتأمل سقف العربة، ويمسك بعامود الأوتوبيس ويقبض عليه بشدة ويتململ محرجاً ويعود ينظر إلى الفتاة تلك النظرات الخاصة.

وابتسمت.. كان الشاب الصغير في نفس المشكلة التي لم نجد لها حلاً. ترى هل لم يجدوا لها هم الآخرين حلاً؟ ارتباك الشاب واضح، وأتحداه إن كان يستطيع أن ينجح فيما فشلنا فيه.

كان لا يزال يحاصرها بنظراته ورغباته الخرساء ويحاول أن

تلتقي أعينهما ليكلمها بعينيه. وكانت الفتاة واقفة بجواره تماماً ولكنها لم تكن تنظر إليه.. كانت عيناها مركزتين على رأس أخيها الصغير. ومع هذا كانت تبتسم بطريقة ما ابتسامة تحس معها أن الفتاة وإن كانت لا ترى نظرات الشاب الموجهة إليها وتدعي أنها لا تحفل بوجوده، ومع ذلك تحس من الطريقة التي تبتسم أنها تدرك وجوده وتشعر أنه يحاصرها بنظراته وأنه حائر مرتبك متردد، وكأن لها ألف عين غير مرئية تنقل لها بطريقة خفية كل ما يحدث عن كثب منها.

وبدأت أنفعل وكأني أشاهد مباراة للأشبال.

وبدأ قلبي يدق ويتمنى أن يبقى كل شيء على ما هو عليه، وأن يبقى الشاب مرتبكاً متردداً.. وأن تبقى الفتاة صامدة كالقلعة الحصينة حتى ولو لم تكف عن ابتسامتها التي لم يكن لها أي مكان في أوتوبيس مزدحم كهذا.

واكتشفت أنني لست وحدي الذي يشهد الصراع فقد التقت نظراتي المتلصصة بنظرات السيد جاري وهي تؤدي نفس المهمة. وطبعاً كان اللقاء مخجلاً لكلينا، وعقد جاري ملامحه حتى أصبحت أكثر جدية وخطورة وادعى أنه ينظر أمامه دوغري لا يمكن أن يلومه عليها أحد. ولم يمنعه هذا طبعاً من أن يحرك عينيه في محجريهما خلسة ليشهد ما يدور هناك. وكذلك لم يمنعني خجلي من أن أجعل نظراتي تسترق الخطى هي الأخرى في دوريات استطلاعية متقاربة.. كنا فقط نتحاشى أن تلتقي أنظارنا، وإذا التقت ـ لسوء الحظ ـ طلى

كل منا وجهه بقشرة سطحية مبتسمة وادعى أنه فقط ينظر ببراءة إلى وجه الرجل الأفطس الواقف قريباً من الشاب والفتاة سابحاً في ملكوت من صنعه.

ظللت أنا وجاري نلعب لعبة «الاستغماية» هذه حتى حدث شيء. فقد وقف الأوتوبيس ثم تحرك. وكعادة الأوتوبيس إذا وقف ثم تحرك أن تحدث الاصطدامات التي لا بد منها بين كل جار وجار، والتقت الوجوه مبتسمة ومعتذرة.

وكذلك التقى وجه الشاب بوجه الفتاة وابتسم الشاب معتذراً.

وقبلت الفتاة اعتذاره باسمة.

وازدادت حركة الشاب، حتى حذاؤه كما يتحرك بتردد وعصبية وكأنما يحاول أن يجد له مكاناً بين الأحذية الضخمة الكثيرة المتراكمة حوله، ولم تكف عضلات وجهه عن التغير. تنقبض وتنبسط وترتجف، وأحياناً يبتسم فجأة بلا سبب ثم يلتفت إلى الفتاة وكأنه يهم بعمل شيء ولكنه سرعان ما يرتد وبه بعض الشحوب.

والفتاة كانت قد أمسكت بيد أخيها الصغير بعد أن كان هو الذي يمسك بيدها، وراحت تضغط عليها ضغطات منتظمة بينما وجهها قد اتخذ زاوية معينة لا يحيد عنها.

أما جاري فقد راح يتأفف من الحر، ولكن يبدو أنه أحس بأن الأمور سوف تتطور حالاً فقد ترك خجله مني جانباً واستدار بوجهه كلية إلى حيث يقفان.. ولم يرفع عينيه منذ تلك اللحظة عنهما أبداً.

وعلى حين بغتة استدار الشاب مرة وحمل وجهه ظرفاً كثيراً، وأعاد اعتذاره إلى الفتاة عن الصدمة السابقة في همس خافت بدا كأنه نجوى.

ولم ترد الفتاة هذه المرة.. ولكنها خفضت رأسها واحمر وجهها. وازداد اضطرابي.

وازداد أكثر حين عنّ لأحد الركاب الواقفين وكان سميناً ذا كرش عظيمة أن يغير من وقفته، فتحرك حتى أصبح جسده الضخم يحول بيننا وبينهما. وكان اضطراب جاري أفظع.. ورحنا نحن الاثنين نصوب للرجل وكرشه نظرات نارية ملتهبة تكاد تخرقه أو تذيبه لكي نستطيع العودة إلى متابعة المشهد.

ويبدو أن الرجل أحس من نظراتنا أننا نتهمه بتهمة أبشع من مجرد التستر، فقد وقف محرجاً مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل ليرضينا.. وسرعان ما خف الجار إلى نجدته فقال له بصوت جاد آمر:

ـ ما تتفضل حضرتك تخش جوه فيه وسع جوه.. اتفضل جوه مضايق نفسك ومضايق الناس ليه؟ ما دام فيه وسع نضيق على أنفسنا ليه؟.

وتحرك الرجل وهو يشكر للجار نصيحته.. وعدنا إلى مسرح الأحداث وعاد وجه جاري يحفل بالاستمتاع والنشوة.

وخفت أن أكون قد عدت متأخراً كثيراً.. ولكن حمداً لله! كل ما كان قد حدث أن الفتاة رفعت رأسها وأن الشاب كان قد مد ذراعه

اليسري ليمسك عامود الأوتوبيس، فأصبحت ذراعه لصق شعرها.

ولمحت فمه يرتجف. . لا بد أنه يجرب كلمات ما قبل أن ينطقها. وأحسست بالارتياح. . هكذا كنا نفعل. ولكننا كنا حين نوجد في حضرة الفتاة تتسمر الكلمات على أفواهنا ولا تنطق.

ولكن الشاب هز نفسه وقال في همس ملح:

ـ أنا شفت حضرتك في الجامعة. . في الآداب؟ مش كده.

وما كاد ينتهي من آخركلماته حتى كان وجهها في حالة غضب كامل وحتى كانت قد استدارت إلى الناحية الأخرى في اشمئزاز ظاهر. بينما راحت يدها تتابع ضغطها على يد الأخ الصغير، والمسكين يحاول أن يخلص يده من يدها بلا فائدة.

وصحيح أني لم أسترح إلى الطريقة التي غضبت بها، فقد غضبت بسرعة غير عادية وكأنها كانت تتوقع أن تحدث محاولة كهذه. ثم لماذا تلك الضغطات العصبية على يد مندوب العائلة؟.

ومع هذا رحت أرمق الشاب الصغير في شماتة وتوقعت أن وجهه لا بد أن يحفل حالاً بالبياض والعرق، ففي أمثال هذه المناسبات كانت صدمتنا تمتد إلى أسبوع وربما أكثر.

ولكني لم أجد في وجهه شحوباً ما ولم أجد نقطة عرق باردة واحدة، وجدت ابتسامته لا تزال كما هي وكل شيء فيه كما هو، وكأنه هو الآخر كان يتوقع هذه الغضبة الأولى. وقلت لنفسي لا بد أنه من الصنف البارد التلم، ولكني أدركت أني ظلمته فلم يكن يبدو عليه

برود أو تلامة. كان شاباً عادياً جداً لا تحس به جريئاً ولا خائفاً ولا واسع الحيلة أو قليل الدهاء.

وفي أيامنا كانت تقتلنا ولا نستطيع أن نكرر المحاولة، وكنا لا نعمل شيئاًطوال أيام كثيرة إلا أن نستعيد دقائق ما حدث في المحاولة الأولى.. ونهوي إلى آبار خجل لا قرار لها، ونظل نؤنب أنفسنا ونلعن من أشار علينا ونسب الدنيا والحظ وأحياناً نفكر في الانتحار.

أما الشاب الصغير فقد اقترب مرة أخرى منها في إلحاح جديد:

ـ الله !مش المدموازيل في الآداب؟.

ولم تتحرك شعرة واحدة فيها وكأنها لم تسمع.

وبدأت أتفاءل.

ولو كنت مكانه لهبطت من الأوتوبيس في الحال، ولظللت أهيم على وجهي في الشوارع حتى أنسى مرارة الفشل. ولكنه قبل أن يختفي صدى الجملة الثانية كان قد اقترب بوجهه من وجهها للمرة الثالثة، اقترب كثيراً وهمس في عصبية:

ـ حضرتك رايحة هناك؟

وظل رأسها ثابتاً في مكانه ووجهها ثابتاً على وضعه ونظراتها مركزة على رأس الأخ الأصغر. شفتاها فقط اشتد ضغطها عليهما

حتى برزتا إلى أمام في شبه احتقار. وصحيح أني كنت أتوقع من فتاة غضبت في أول محاولة أن تصنع شيئاً أكثر من هذا في ثالث محاولة، ولكن من الطريقة التي ضغطت بها شفتيها أحسست أن صبرها قد فرغ وأن الويل له لو حاول مرة أخرى.

وحاول، اقترب منها كثيراً وكادت السلسلة تنقطع في أصابعه وهو يهمس بسرعة وفروغ صبر:

ـ لازم رايحة البيت؟

وكتمت أنفاسي في انتظار النتيجة.

وبدا أنه فشل في هذه المرة الأخيرة أيضاً، لولا.. لولا ذيل الحصان اللعين فقد لمحته يهتز، خيل لي أول الأمر أنه يهتز اهتزازاً طبيعياً ولكن أبداً كان اهتزازه عن عمد وعن سبق إصرار، وكانت تقول له:

ـ أيوه.

وفي الحال وقبل أن تغير رأيها قال بسرعة وانتصار:

ـ في الجيزة مش كده؟

وقالت هذه المرة بلسانها وقد انتقل الخجل من وجهها إلى ابتسامتها:

ـ أيوه.

وكدت أوجه لكمة إلى رأس مندوب العائلة الذي كان واقفاً

يتفرج على الشارع من خلال النافذة في بلاهة منقطعة النظير.

ولكني لم ألبث أنا الآخر أن رحت أتطلع مثله، وقد تركت جاري العزيز مستغرقاً في المشهد الذي يدور أمامه دون أن ينبس بحرف ووجهه لا يزال يحفل بالنشوة والمتعة!.

وحين عدت من رحلة يأسي كانت الأمور قد تطورت بسرعة، وكان الشاب يحادثها بصوت الواثق من نفسه.. بصوت الرجل الظافر حين يهتك حجب الخجل عن أنثاه في إصرار.

وكانت قد تركت يد الأخ الأصغر وراحت يدها اليسرى تقضم أظافر اليمنى وتعبث بها بينما الأخ يحاول أن يجذب يدها ليعود يمسكها بلا فائدة، وكان ذيل حصانها يهتز باستمرار اهتزازات أفقية ورأسية وبيضاوية ودائرية، وأحياناً يرتعش.. فقط يرتعش، شعراته المنضمة إلى بعضها في حزمة ترتعش وتتباعد قليلاً ثم تعود إلى الانضمام.

ولم أعد كثير الحماس لسماع ما يدور بينهما. جاري كان هو المتحمس، وكان من فرط حماسه قد مد رقبته على آخرها حتى كادت تصبح له أذن عند فم الفتى وأخرى عند فم الفتاة.

وحين عدت كان الشاب يتحرك كمن يستعد للنزول، فقال لها وكل عضلة في وجهه وذراعيه تنتفض وتشجعها:

ـ خلاص؟.

واهتز ذيل الحصان اهتزازات رأسية كثيرة متلاحقة.

وعاد وهو يقول:

ـ أوعي تنسي النمرة.

واهتز ذيل الحصان اهتزازات أفقية تنفي بها.

ـ طب كام؟

وواجهته بعيون مرتعشة وقالت:

ـ مش ٨٩٩؟

ثم سكتت وخجلت وأطرقت وبسرعة عادت تقول:

ـ ٨٩٩٥٩٢

وتهلل وجهه فرحاً وكاد يعانقها قائلاً:

ـ برافو! إيه ده؟ دا أنت هايلة.. ح تكلميني إمتى؟!

يمكن بكره.

ـ لأ النهار ده.

ـ أما شوف.

ـ النهارده.

ـ طب النهارده.

وخيل إليّ أنه يكاد لولا الناس يقبلها، بل لم أستبعد أن يفعلها فقد كان وأضحاً أنهما لا يحسان كثيراً بكل ما حولهما.

وقال الشاب هامساً:

ـ بس حاسبي، أخويا صوته شبهي تمام.. أوعي تغلطي فيه ابقى اتأكدي أني أنا اللي برد.

ـ اتأكد إزاي؟

ـ لما أقول أنا أحمد ردي .

ـ اسمك أحمد .

ـ أيوه . وانتي؟!

وأطرقت وارتفع ذيل الحصان في الهواء كثيراً وكأنها ترفع راية الخجل، وغمغمت باسم لا يمكن أن يسمعه أحد ولكن الولد لقطه وسمعه، عرفت هذا حين قال :

ـ اسمك حلو قوي .

ـ ثم أردف بجرأة :

ـ زيك .

وسحب جاري رقبته الممتدة بسرعة وكأنما لسعته ولعة سيجارة أو كأنما أحس أن الشاب يغازله هو، غير أنه لم يلبث أن أعاد رأسه إلى وضعه في الحال حتى لا تفوته كلمة .

وكان الأوتوبيس يستعد للوقوف في محطة الجامعة وكان الشاب هو الآخر يستعد للنزول، وقبل أن يأخذ طريقه إلى الباب همس :

ـ لولا المحاضرة مهمة كنت وصلتك . خلاص؟

ـ خلاص .

ـ النهاردة؟

ـ النهاردة .

ـ فاكرة النمرة؟

ـ مش ح انساها

ـ طب كام؟

وخجلت من نفسي وأنا أحاول أن أنافس الفتاة وأجهد ذاكرتي لأتذكر الرقم، ولكني فشلت.

وقالت الفتاة بسرعة وكأنها جهاز تسجيل:

ـ مش ٨٩٩٥٩٢.

وقال الشاب في انبهار:

ـ برافوا أنا ح اقعد طول النهار جنب التليفون.. أوريفوار.

وتدفقت الدماء إلى وجنتيها ترد.

وهبط الشاب وبشعاع واحد من عينها ودعته واطمأنت على جمال مشيته، ثم عادت يدها تتسرب في وهن وهيام وتسمح ليد الأخ الأصغر أن تقبض عليها وتفعل بها ما تشاء.

ولست أدري كيف أدركت وهي في قمة حالتها هذه أن محطتها هي التالية، فقد وجدتها بعد قليل تجذب يد أخيها وتأخذ طريقها إلى الباب.

وما كاد جسدها النحيل يختفي في الكتلة البشرية المتزاحمة قرب الباب حتى أفاق جاري من نشوته في الحال، وما لبث أن إرتفع صوته وراح يضرب كفاً بكف وينظر إلى بقية الركاب يستنجد بهم ويشهدهم، ويقول في غضب حقيقي:

ـ أما كلام فارغ صحيح وقلة أدب! البلد خلاص باظت.. أنفلت عيارهم.. إيه ده؟ لازم يوقفوا في كل أوتوبيس عسكري من بوليس الآداب، لازم يقاومهم زي ما بيقاوموا النشالين. دي مسخرة دي.. دانا شايفه بعيني بيمد إيده عليها. مش كده يا أستاذ؟ والله لولانا كان

مد إيده عليها وهي ساكتـة. دا إجرام ده. . مفيش بـوظان بعـد كده. دانـا سامعـة بودني بيـديها نمـرة تليفونـه. . بودني. كـده والـلا لأ يـا محتـرم؟ كده والـلا لأ؟ وكل ده في محـطة واحـدة، دا لازم القيـامـة ح تقوم، والله يمكن قامت فعلاً. . لازم القيامة قامت!.

شيخوخة بدون جنون

في صابح اليوم كهذا مات عم محمد.

والذي ضايقني أن كل الناس يأخذون خبر موته على أنه مسألة مفروغ منها، مسألة لا تحتمل بكاء ولا تأثراً أو حتى مصمصة شفاه.

يومها بدأت العمل بالتصديق على شهادات الميلاد.. وكل يوم كنت أبدأ عملي بالتوقيع على هذه الشهادات حتى يصبح المولود من هؤلاء مواطناً رسمياً معترفاً به من الدولة. والواقع أن عملي كمفتش صحة طالما ذكرني بسيدنا رضوان، فإذا كان عمله هو حراسة الآخرة فلا أحد يدخل فيها إلا بإذنه ولا أحد يغادرها إلا بتصريح منه، فأنا الآخر أحرس الدنيا لا يدخل فيها أحد ولا يقيد وارد ومولود إلا بإمضائي، ولا يعتبر الواحد قد خرج من الدنيا ومات إلا إذا وافقت أنا على هذا. كنت أبدأ باعتماد الشهادات، ثم يقف سرب طويل من الأمهات أمامي لأكشف على أذرع أطفالهن وأرى إن كان التطعيم قد نجح أم لا.. نفس الأطفال الذين كانوا من فترة لا تتجاوز سنهم الأربعين يوماً مجرد شهادات ميلاد، الآن أصبح لهم عمر وبدأت لهم مشاكل.

والحق أني كنت رغم مضايقات العمل الكثيرة أحس بنشوة وأنا أزاول عملية «المناظرة» تلك. الأطفال كلهم صغار وفي عمر واحد كأنهم باقة من أزهار الفل الصغيرة السن أشمها كل صباح، كلهم صغار وكلهم حلوون، وصراخهم مهما علا فهو رقيق لا يؤذي السمع، وأيديهم بضة صغيرة، وأظافرهم دقيقة تحب أن تقبلها، ورفساتهم فيها كل نزق الحياة وروعتها. والأمهات ـ أمهاتهم ـ كلهن أيضاً حديثات الزواج وصغيرات، وكلهن فرحات بأطفالهن مبالغات في الحرص عليهم ولفهم في سبع لفائف، قادمات لا بد من الصباح الباكر إلى مكتب الصحة وقد تجمعن وارتدين أحسن ما لديهن، وخططن حواجبهن وتكحلن، ووجوههن صابحة تلمع بالنظافة، وكلامهن صاف لا ضغائن ولا نقار ولا خناق ولكنه أنثوي عذب فيه كل دلع المصريات المؤدب الذي لا يزيد عن الحد، وفيه كل خجلهن.

يقف الطابور أمامي وعلى ذراع كل أم صغيرة طفل صغير، ولا يستقيم الطابور أبداً فكل واحدة تنخلع منه لتختلس النظر إلى ملابس الأخرى أو لتقارن بين ابنها اسم الله عليه وحجمه وسمنته وابن التي أمامها أو خلفها. . مقارنة لا تحمل سوى حب الاستطلاع ووالله ليس فيها حسد، ومع هذا فكل واحدة تحاول إخفاء ابنها عن الأخرى مخافة العين، فتزيد من عدد اللفائف وتحيط عنقه الأبيض بالأحجبة وأسنان الذئاب، ولا بد أنها حين تعود إلى البيت ترقيه وتبخره. وحين تصل الواحدة أمامي ترتبك وهي تحاول أن تستخرج اليد الدقيقة من

الكم الدقيق، وكم هو جميل ذلك الكم ـ ويبدو أن كل شيء صغير جميل ـ ترتبك وهي تستخرج الذراع.. ذراع طولها طول الإصبع ولكنها مشاكسة وقبضتها مضمومة في إصرار وكأنما تتوعد الدنيا وتتحداها، ويرتفع الصراخ.. صراخ هذه المرة غاضب أحمق وحمقه حبيب، وكم كان يؤلمني الجرح الحادث من التطعيم، الجرح البشع السخيف الذي يشوه البشرة الناعمة البضة.

وينتهي الطابور وتنتهي المناظرة ويخف ازدحام المكتب، وتختفي أصوات النساء بكل ألوانها ولهجاتها ونبراتها لتبدأ ضجة أخرى تعلو وتعلو.. ضجة ليس فيها أنوثة النساء ولا رجولة الرجال، ضجة الفتيان الصغار والفتيات الذين كانوا من سنين قليلة مجرد أطفال على أذرع أمهاتهم في طابور المناظرة، ولكنهم قادمون على أرجلهم هذه المرة وبأنفسهم. إذ هم التلامذة الذين يريدون شهادات من المكتب لتقبلهم المدارس، والعمال الصغار والعاملات الذين جاءوا لإقرار أن سنهم تزيد على الاثني عشر عاماً لينطبق عليهم قانون تشغيل الأحداث وبهذا يمكنهم أن يبدءوا معركة العيش بعرق الجبين. وطابور هؤلاء لا ضجة فيه ولا صخب، فهم يقفون صامتين مستغربين عيونهم تحدق في الناس والأشياء بدهشة وذهول، وفي صدورهم خشوع الداخل إلى عالم ثان مجهول.

وقبل أن ينتهي طابورهم تكون ثمة ضجة أخرى قد بدأت تتجمع في الخارج، ضجة فيها زعيق وعصبية وأيمانات مغلظة وكلمات مكتومة تتناثر عن الظلم والعدل والإنسانية والحكومة والوقت

الضـائـع، ضجـة الـرجـال. . ضجـة لا تهـدأ حتى بعـد أن يـوقفهم التومرجي طابوراً وتنكمش قبضته الواسعة على النفحات الضئيلة التي يجـود بها البعض، ويهـز رأسه مئـات المرات وهـو يؤكد لهم أن كله بالدور وأنهم حتماً سيأخذون الإجازات التي يريدونها وسينجحون بإذن الله في الكشف الطبي، وأن الدكتور خالـد طيب وابن حلال ومزاجه اليـوم عال العـال، وعلى العين والرأس أعمارهم ستقدر وحـاجاتهم ستنقضي بس شوية صبر: والصبر يا إخواننا من الإيمان.

ويدخل طابور الرجال. . طابور عمره ما وقف طابوراً. طابور لا تلمـح فيه سـوى وجوه رجـال قلقـة تملؤها عجلة السبـاق المجنـون للاستحواذ على الرغيف وانتزاعه من أفواه الآخـرين، وجوه خـربشتها الحياة وخشنتها وجرحتها. . والجراح لا تزال يقطر منها الدم.

وحين تبلغ الساعة العـاشرة أنتهي من عـالم الأطفـال والفتيـان والكبـار لأدخل في عـالم آخر عالم الموتى. وللأمـوات هم الآخـرين عالمهم ومشاكلهم، والميت لا ينتهي أمره أبداً بموته فقد يثير بـوفاتـه أضعاف المشاكل التي أثارها بحياته، فإذا كان عقاب أهل المولود إذا هربوه إلى الدنيا بلا تصريح أو شهادة ميلاد هو الغرامة جنيـه، فعقاب أهـل المتوفى إذا هـربوه من الـدنيا ودفنـوه بـلا تصـريـح هـو الحبس والسجن. وإذا كانت الحكومة لا يهمها كيف يعيش الإنسان طالما هو حي فهي توليه العناية القصوى إذا مات، والقانون لا يسـأل أبداً كيف عاش ولكنه يصرخ بأعلى صوته: كيف مات؟

وإذا كان المعروف أن بعض الظن إثم فالمشروع يرى أن كل الظن فضيلة عظمى، فأي إنسان يموت لا بد أنه مات مقتولاً ما لم يثبت عكس ذلك وأنا الذي كان يقع على عاتقي إثبات ذلك العكس، فعليّ أن أكشف على كل متوفى وأعاينه وأفحصه وأشمشم وأرتاب، حتى إذا ما اطمأن قلبي خمنت السبب التقريبي لوفاته وقيدت ذلك في الشهادة، وفي لحظتها فقط يصبح من حق الميت أن يدفن ويتوكل على الله إلى العالم الآخر.

في الساعة العاشرة كنت أبدأ عملي مع الموت، وأول من كنت أراهم في هذا العالم هم صبيان الحانوتية حين يدخلون ويتجمهرون أمام المكتب. وكان عم محمد أحد هؤلاء الصبيان، وأول الأمر لم أكن أستطيع تمييزه من بينهم فقد كانوا جميعاً متشابهين، وإذا كان الصبيان في العادة لا يمكن أن تتعدى أعمارهم مرحلة الصبا فأولئك كانوا أغرب صبيان، إذ إن أصغرهم لا بد قد تجاوز الخامسة والستين من زمن طويل. كلهم عواجيز. . وكبرهم ليس من ذلك النوع الصحيح السليم مثل الموظفين المحالين إلى المعاش مثلاً أو المتقاعدين الذن تجدهم قد ابيضت شعورهم حقيقة. . وتجد وجوههم فيها تجاعيد وظهورهم قد أصابها الاعوجاج، ولكنك تحس إذا نظرت إلى الواحد منهم أنه رجل كبير في السن ليس إلا. هناك نوع من الكبر يمسخ الكائن الحي ويحيله إلى هيكل هش مرتجف. هذا الوجه الإنساني المتناسق التقاطيع المرتب القسمات يستحيل إلى زبيبة. . مجرد زبيبة جافة مكرمشة لا يمكن أن تقول أبداً إنها كانت

حبة عنب حمراء مملوءة بالدم والحياة في يوم من الأيام.

كان صبيان الحانوتية كلهم من هذا الطراز، الطويل فيهم قد زاده الكبر نحولاً وطولاً، والقصير قد زاده العمر الطويل قصراً.

ودائماً وجوههم ضامرة غلبانة، جلدها خشن مجعد وذقونها بيضاء نابتة، ونظراتها كليلة والعين الواحدة لا بد مصابة بأكثر من داء. ولهم ملابس«شغل» جلابيب قديمة ممزقة قد تختلف أنواعها وألوانها ولكنها قصيرة كجلابيب التلامذة لا تتعدى الركبة، ولهم غطاء رأس واحد.. فلكل منهم عمامة عبارة عن خرقة - أي خرقة - ملتفة حول طاقية - أي طاقية - أو حتى يتعمم بها على اللحم.

كنت ما أكاد أراهم حتى يخالجني الضحك، فقد كانوا يبدون بأعمارهم تلك وعاهاتهم وملابسهم وعمائمهم ككائنات غريبة عن عالمنا هبطت لتوها من كوكب آخر كل ما فيه شائخ وعجوز.

وكان عمل هؤلاء «الصبيان» يبدأ من اللحظة التي تطلع فيها روح الميت تماماً كالملائكة، فإذا كان الملائكة يتولون حمل الروح إلى السماء كعابي أو على مراكب الشمس، فصبيان الحانوتية يتكلفون بالجثة حتى يغيبوها في باطن الأرض. وقد يبدو للبعض أن عمل الحانوتية أسهل ولكنه في الواقع أصعب مائة مرة من الصعود بالروح إلى السماء، وقد يبدو للبعض أنه عمل بغيض والواقع أنه ليس بغيضاً ولا يحزنون، إنه مجرد عمل كغيره من الأعمال. وإذا كنا

نعمل فقط من أجل أن نأكل فكل عمل بغيض وكل عمل شغل، وكل شغل كار وكل كار له أصول.

والأصول أن معلم الحانوت الكبير هو الذي يجلس في الدكان يتلقى بلاغات الوفاة ويقابل الزبائن ويقبض العربون، وفي أحوال نادرة يتولى بنفسه غسل الكرام.

أما الصبيان فهم الذين ـ حين يتم الاتفاق ـ يذهبون جرياً في جري إلى البيت المتوفى، ويتولون معاينته وخلع ملابسه، ثم يجري الواحد منهم إلى مكتب الصحة قبل فوات الميعاد، ثم يعود جارياً في جري مستصحباً الطبيب، ثم يجري إلى الحانوت.. وإلى الدكان أو العطار، وبأذرعه النحيلة يحمل الميت إلى المغسلة ويلبسه الكفن ويسخن الماء ويدلقه ويضع الميت في النعش، وقد يساهم بقسط كبير في حمل المتوفى إلى الجامع والمدافن، والنعش له ذراع خشبية طويلة غير ممسوحة أو مهذبة تستقر فوق عظمة الطوق العجوز التي لا يغطيها لحم فتكاد تقطعها، والنعش ثقيل والمسافة دائماً طويلة، وما أفظع الصيف.. والمصيبة الكبرى لو كان الميت من أصحاب الأوزان الثقيلة.

في الساعة العاشرة يدخل عليّ صبيان الحانوتية ويتجمهرون أمامي وتمتد أذرعهم الجافة العجوزة ببلاغات الوفاة، وكل منهم ينافس الآخر في إغرائي ، وكل منهم يحاول أن أذهب معه أولاً لأكشف على متوفيه وأصرح له بالدفن لينجز عمله قبل فوات النهار.

وكنت ما أكاد أراهم حتى تنتابني آلاف المشاعر والرغبات أقواها جميعاً رغبتي في أن أضحك. ولم أكن أدري بالضبط لماذا يراودني الضحك.. ولكن شيئاً ما في تركيب صبيان الحانوتية هؤلاء كنت لا أكاد أراه حتى أضحك،لا من الصبيان ولا من تزاحمهم ولكن من الحياة نفسها، ذلك الشيء الرائع الجميل الذي نتشبث به بكل ما نملك من قوة، تلك الحياة أحياناً تضحك. وكنت لا أكتفي بالضحك بل كان لساني يتحرك، أحياناً يسخر وأحياناًيتفلسف وأحياناً يقول شيئاً تافهاً لا معنى له. وفي أغلب الأحوال كنت أقول«للصبي» الذي اكتسح زملاءه في سباق الأيدي وأصبح أمامي مباشرة:

ـ وأنت.. إن شاء الله حنكتب شهادة وفاتك إمتى؟

وكان الصبي الشيخ حينئذ يضحك.. وضحكهم ليس كضحكنا، فالواحد منهم ينظر إلى الأرض ويمط رأسه ويعض على نواجذه وتتسع عيناه قليلاً، ثم تخرج..هه..هه. تخرج من حنجرة جافة شائخة لم تعد تقوى حتى على الضحك.

كانوا في العادة يضحكون كلما سألتهم ذلك السؤال، غير أني قلت لأحدهم شيئاً كهذا مرة فلم يضحك واستغربت، فالعادة قد جرت أن يضحك الجميع لكلامي سواء أرادوا أم لم يريدوا إذ كل منهم كان يحاول إرضائي. استغربت وأمعنت النظر في«الصبي» ولم أجده يختلف عن بقية زملائه في قليل أو كثير.

فقد كانوا جميعاً متشابهين كما يتشابه الأطفال حديثو الولادة في

طابور المناظرة، وكأنما يبدأ الناس متشابهين وينتهون متشـابهين. كل ما استطعت أن ألحظه من فوق أن عينيه الاثنتين كانت عليهمـا غشاوة رمادية داكنة كسحب الشتاء. وقلت له:

ـ مالك؟!

كان لا بد أن في الأمر شيئاً فقال ووجهه إلى الأرض:

ـ يا ريت الواحد مات بداخلها.

ـ بدال مين؟

ـ مش بنتي تعيش أنا.

ـ ماتت.

ـ أيوه إمبارح.. هب فيها الوابور وماتت في المستشفى.

ولم أصدقه فقد قال هذا دون أن يتغير الانفعـال الذي لا يبـرح وجهه، وسألت (معلمه) لأتأكـد.. ومعلمه لم يكن رئيسـه فقط ولكنه يرأس ثلاثة صبيان شيوخ آخرين من صبيان حانـوته. ولم يكن رجـلاً ضخماً له شـوارب كعادة(المعلمين).. كـان شابـاً في الثلاثين حليق اللحية والشارب لونه برونزي قاتم وملامحه شديدة الخطورة،ومع هذا كان فهلوياً مضحاكاً ورث الحانوت حين مات أبوه بعـد أن لفـ ودار، وتجمعت له كل حداقة اللفـ والدوران. ومن حركاته وطريقة ابتسـامه تحس أنـه ولـد لا تفـوت عليـه الـواحـدة، وإذا فـاتت فبخاطره فقط ورضاه. ورغم صغر سنه فقد كـان يرتـدي الزي التقليـدي للمعلمين الكبار.. طربوشاً وجيهـاً فاقـع الحمرة، وجلبـاباً من الصـوف تحته

قفطان من الحرير يبدو قيطانة الأسود من فتحة الجلباب، وحذاء أسود أنيقاً، وفي يده سبحة كهرمان.

سألته فأكد لي أن ما قاله الرجل صحيح وأن ابنته ماتت حقيقة في المستشفى، وقد أصبح بموتها وحيداً مقطوعاً من شجرة.

وصعب عليّ عم محمد جداً وهو واقف وقفته المنحنية المائلة وكأنما تجذبه الى الأرض قوة عاتية تستعجل اللحظة التي تواريه داخلها، واقف لا يبكي ولا يدمع ولا يهز رأسه ولا ينهار.

وقلت له:

ـ معلش يا عم محمد. . . البقية في حياتك.

وتنبهت وأنا أقول له هذا إلى أني أخمن فقط أن اسمه عم محمد وأنني لا أعرف اسمه الحقيقي، ولا أعرف إن كان محمداً أو علياً أو سمعان. . كنت أناديهم جميعاً بيا عم محمد، وكانوا من فرط تواضعهم وأدبهم يردون وكأن لم يعد مهماً لدى الواحد منهم أن يمتلك اسماً. ودغم عم محمد الكلمات وهو يردد ويقول:

ـ يا ريت الواحد كان مات بدالها.

ونحن كثيراً ما نسمع تعبيراً كهذا يردده الناس في مناسبات كهذه، ولكننا نأخذه على محمل التأثر الشديد لا غير، ولكن طريقة عم محمد في قوله كانت لا تقبل الشك وكان واضحاً تماماً أنه يعني ما يقول.

ومن يومها بدأت أهتم بالرجل.. بل بدأت أهتم بكل عم المحمدات من أمثاله، وعرفت السر في كبر السن الذي يبدو كأنه شرط أساسي من شروط العمل كصبي حانوت، فمعظمهم كانوا فراشين في مدارس أو سعاة في مصالح، أو عساكر بوليس أو خدمة سايرة، ثم أحيلوا الى المعاش والاستيداع بعد أن بلغوا السن وقضوا السنوات التي أعقبت الإحالة يزاولون أعمالاً أخرى. ثم حين تنهد قواهم تماماً ويبلغون من العمر أرذله ولا يعودون يصلحون لأي عمل آخر، لا يصبح أمامهم مجال لكي يأكلوا العيش إلا العمل كصبيان حانوتية.. هذا إذا ساعدهم الحظ وكان هناك محل خال، إذ هي صنعة لا تتطلب قوة كبيرة وأجرها ضئيل لا يرضي به أحد، لا يرضى به إلا عجوز على شفا الموت ضعفاً أو جوعاً.

ومع هذا.. ومع درجات العمر التي بلغوها.. وفي تلك السن التي لا يستطيع العجوز فيها أن يفعل شيئاً إلا أن يستلقي فوق فراشه وينتظر الموت، مع هذا فما أكثر ما كانوا يتعبون ويشقون.

وعشرات الرحلات قطعتها مع عم محمد.

وقبل أن تبدأ الرحلة لا بد أن تحدث المسرحية التي تتكرر كل أسبوع.. فعم محمد مستعجل ويريد أن ينتهي من أخذ تصريح الدفن بسرعة ليتفرغ لغيره من المشاكل، وليرضي المعلم ويريه كأي صبي شطارته. ولهذا فهو لا يريد أن أكشف على المتوفى لأن معنى الكشف أن أذهب الى بيته والرحلة تستغرق وقتاً طويلاً. هو يريدني أن أمضي له التصريح ونحن في المكتب، ولكن الأوامر هي الأوامر وعليّ أن أكشف على المتوفى قبل التصريح. ويتحمس عم محمد

جداً وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن الوفاة طبيعية وألا جناية هناك ولا شبهة وأنه بنفسه قد خلع ملابس المتوفى وفحصه وجذب شعره وحملق في عينيه وتحسس عظامه، وأنه لا يريد سوى راحتي فقط. وأهز له رأسي علامة الرفض فيهز رأسه علامة اليأس، ويجري أمامي ويقول:

ـ على كيفك يا بيه.. اتفضل..

ونمشي قليلاً ثم يتوقف عم محمد ويعود يقول:

ـ والله يا بيه دا راجل كبير في السن وما فيه إلا شيخوخة بدون جنون.

و«شيخوخة بدون جنون» تعبير اصطلح على إطلاقه على سبب الوفاة حين يكون المتوفى كبير السن وليست هناك علامات مرضية أخرى تصلح سبباً للوفاة. وتضاف كلمة «بدون جنون» لأسباب قانونية تتعلق بميراث المتوفى والمشاكل التي تنشب بين الورثة حوله، هذا إذا كان قد خلف ثروة فعلاً وعقاراً.

وهذا الاصطلاح قد شاع وانتشر بين أطباء الصحة وموظفي المكاتب والحانوتية لدرجة أنه لم يعد من المستغرب أن يقترحها عم محمد كسبب للوفاة...

يتوقف عم محمد ويحاول محاولته الأخيرة تلك، ولا يجد لها صدى عندي فيعود يجري ويسبقني ليريني الطريق الى بيت المتوفى، والمنطقة آهلة بالسكان والبيوت والذباب وكل شيء قد يخطر على

البال، الناس أكثر من البيوت.. والبيوت أكثر من الفضاء.. والذباب بمعدل مليون ذبابة لكل قاطن.. والأشياء مكدسة مزدحمة وكأن من كومها فوق بعضها مستعجل لا وقت لديه.

وعم محمد رجلاه رفيعتان مقوستان وعرقه يسيل، وحجمه ضئيل أصغر من قرد عجوز يكافح ليلاحق خطوي، ويكافح ويكافح ليصبح أمامي، ويزيح الناس حتى يدبر لي مكاناً محترماً أمر فيه، ويصنع من نفسه عسكري مرور ويوقف عربات الكارو، ويأمر باعة الخضار بالكف عن تشويحات الأيدي والزعيق حتى يمر «البيه»، ويلهث ويحدثني ويسليني، ويلعن الخلق والزحمة ومن يخالفون أوامره ولا يفسحون الطريق، ويقول إن الخير زال وأيام زمان كان الموتى على قفا من يشيل وكانت الأشياء معدن، ويلهث وأسأله وقد بدأت أنا الآخر ألهث عن المتوفي وبيته وهل لا يزال بعيداً، فيقول خطوتين بس. وأخطو عشرات الآلاف من الخطوات ولا يظهر بيت ولا ميت! وموكبنا الصغير يدلف من شارع الى زقاق ومن زقاق الى خندق وحارة.. أسوأ موكب، ما أن يرانا الناس حتى ترتفع الهمسات:

ـ يا فتاح يا عليم ع الصبح.. يا ترى مين مات النهارده؟

وعم محمد يجري أمامي ومن خلفي وعلى جانبي، خائف خوف الموت أن أزهد وأزهق فأؤجل الكشف الى ما بعد الظهر أو الغد وتكون الكارثة.

وأخيراً جداً نصل الى بيت المتوفى، وقبـل أن نصل إليـه يستميت عم محمـد وهو يـأخذ ثـوبه في أسنـانه ويضـاعف من جريـه ليسبقني ويوسع السكة.

ومـا أكاد أضـع قـدمي على البـاب حتى تـدوي عـدة أصـوات ينخلع لها قلبي، ثم يرتفع تعديـد: جالـك الحكيم يا ضنـايا. وكـأن القادم هو عزرائيل.. ولكن عم محمد لا يأخذ بالـه من هذا، يـرتفع صوته خارجاً على ضعفه:

ـ وسعي يـا بنت انتي وهيه.. اتفضـل يا بيـه.. يـالـلا بـلاش لكـاعة.. يـا خـويـا النسـوان الكتيـرة دي بتيجي من أنهى داهيـة.. اتفضل يا بيه.

وتتسلل أكوام السواد والملاءات التي كانت تملأ حجرة البيت، تتسلل الى اليمين والى اليسار تنقب في وجه الحكيم وتتأمله وتعلق.

ولا بد أن تأتي اللحظة التي تخلو فيها حجرة المتوفى ولا يبقى معه سوى القريب وعم محمد وأنا.

فينـدفع عم محمـد وهـو لا يـزال يلهث من المشـوار والجـري ويكشف عن الميت غطاءه ويقول وكأنه يريد أن يثبت لي براءته، وأنه كان على حق في أن الوفاة طبيعية:

ـ أهه يا بيه.. زي الفل اهه.. والله ما فيه جنس حاجـة. آدي صـدره اهـه، وآدي بـطنـه، وآدي بقـه اهـه نضيف زي الصيني بعـد غسيله، وآدي شعره اهه.

ويجذب عم محمد شعر الميت ليريني أنـه لم يمت مسمومـاً، وإلا لتساقط الشعر في يده، يجذب الشعر بقوة وعصبيـة فهو يـريد أن يخلص والظهر اقترب، ويقول له أهل المتوفى حاسب! فيقول:

ـ حـاضـر. . أحـاسب غصب عن عين أبـويـا أحـاسب. وآدي الرجلين يا سعادة البيه.

ويرفع ساقي الميت ويقول:

ـ والله ما في إلا شيخوخة بدون جنون، وآدي ضهره.

ويحـاول عم محمـد أن يقلب الميت لأرى ظهـره، ويستعين بالسيدة والحسين وكل الأولياء ولكنـه لا يستطيـع، فيكش فيه المعلم ويهب قائلاً:

ـ اوع يا شيخ. . . جك تربة تلمك.

ولكن عم محمد لا يتنحى بل يظل في مكانه يساعد معلمه في قلب الميت ولو برفع ساق أو عدل يد.

وحين ينتهي الكشف ونخـرج تبقى أنـظار عم محمـد معلقـة بمـلامحي وكأنـه ينتظر نتيجـة امتحان، ولا يتنفس الصعـداء إلا حين أمضي التصريح فيأخذه وكأنه نعمة هبطت لتوها من السماء. . ويعض على نواجذه وتتسع عيناه وكأنه يبتسم ويقول:

ـ مش برضه شيخـوخة بـدون جنون يـا بيه؟. مش قلتلك؟ أنـا كنت بس عامل على تعبك.

ثم تنطلق سيقانه المقوسة الرفيعة تجري وتسبقني الى المكتب.

ومرة لمحت في عين عم محمد دمعة . . دمعة صغيرة دقيقة وكأنها آخر دمعة في حصالة عينيه. وكانت على أثر قلم سريع خاطف ناله من المعلم. كان قد ارتكب خطأ ما إذ حين ذهبت لأكشف على متوفى لم يكن قد خلع عنه كل ملابسه. وقبل أن ألوم المعلم على هذا الإهمال أو أؤنبه كان هو قد هوى بكفه على صدغ عم محمد في صفعة سريعة خاطفة وكأنما ليقرر بها أن الذنب ذنب صبيه، ويريني أن العقاب قد أنزل ولم يعد هناك داع لكلمة لوم واحدة مني. وتولاني غضب جامح . . أما عم محمد فالعجيب أنه لم يثر ولم يحتج ولم يترك الغرفة، بل وقف ويده مثبتة فوق مكان الصفعة وعلى وجهه إحساس بالذنب، تماماً كما يفعل أي صبي صغير حين يخطىء ويعاقبه المعلم.

وذهبت الى المكتب مرة فوجدت حشداً كبيراً من العم محمدات. وكانوا يبدون إذا وقفوا معاً وسط ما يحفل به المكتب من نساء صغيرات وأطفال ورجال، يبدون كقبضة من قش الأرز في وسط باقة من الزهور. وكانوا إذا وقفوا معاً لا يتحدثون كما تفعل جماعات الناس بل يقفون ساكتين صامتين وكأنهم من طول ما تكلموا في أعمارهم الطويلة قد ملوا الكلام.

واستغربت إذ لم أتعود وجودهم في جماعات كبيرة كتلك. وما إن رآني المعلم الشاب حتى أقبل هاشاً باشاً متهلل الوجه مصبحاً

بالفل والياسمين والقشطة ومقبلاً الأيادي، ولم يسلم الأمر من ضحكة عريضة جوفاء رددها، ثم بدا عليه تأثر مفاجىء وضم قبضته على بطنه وقال:

ـ اسكت يا شيخ.

ـ إيه؟

ـ مش الراجل مات.

ـ راجل مين؟

قلتها وأنا أكاد أضحك، فقد كان من عادة المعلم أن يحدثني عن أشياء لا أعرفها وكأني أعرفها، ولكنه قال:

ـ الصبي بتاعنا..

ـ عم محمد؟..

ـ تعيش أنت.

وفي الحال اتخذت سيماه طابع العمل وقال:

ـ بس والنبي يا دكتور تخلص لنا تصريح الدفن بتاعه بسرعة.. انت عارف.. الدنيا صيف وده راجل عضمه كبير..

وضحكت فلم أصدق أن عم محمد مات حقيقة، فقد كان معي بالأمس يجري أمامي وخلفي وعلى جانبي، ثم لما تصورته ميتاً ضحكت لا لأني لم أحزن ولكن لأن هناك نوبات من الحزن تأتي على هيئة ضحكات. ثم إن معلمه كان يستعجل تصريح دفنه بنفس الطريقة التي يستعجل بها تصاريح الزبائن!.

وقال المعلم وهو يستحثني :

ـ هيه يا بيه . . قلت إيه؟

فقلت :

ـ بقى الراجل يعملها ويموت .

فقال المعلم :

ـ أيوم . . ولو ما ربنا بعت لنا صبي غيره كانت بقت وقعة النهارده . . .

ـ صبي غيره؟

ـ أهه . . تعال يا جندي .

وجاء جندي . . عجوز آخر في السن ولكنه لم يكن قد ارتدى الزي الرسمي بعد، فعلى رأسه كان ثمة طربوش قديم قد انهار وتكوم في كتلة لا شكل لها ولا معنى .

وقال المعلم :

ـ امضي لنا التصريح بقى يا بيه .

فقلت له :

ـ لا . . أنا لازم أروح أشوفه .

فعاد يقول :

ـ يا بيه هو غريب؟ . . ما أنت عارفه . . أنا بس عامل على تعبك . هو أنا ح اضحك عليك؟ دا راجل مسن، صرح لنا من هنا وخلاص . . شيخوخة بدون جنون والله ما في غيرها .

وتطوع أكثر من صبي من صبيان الحانوتية والواقفين بالرجاء

والإلحاف ومساندة المعلم. كانوا زملاء الفقيد قد جاءوا بلا ريب تدفعهم الرغبة لعمل شيء للزميل الراحل.

غير أني أصررت على الذهاب ولو لألقي على عم محمد نظرة الوداع، فللرفقة حق ولقد كان رفيق الطريق.

وبعد قليل غادرنا المكتب للكشف على عم محمد.

وكان موكبنا رهيباً.. كنت في المقدمة وبجواري المعلم وقد رفع ذيل جلبابه بيد وراح يحدثني بيده الأخرى وبأصابعه وهزات رأسه عن «خرجة» عم محمد وكيف سيخرجه هو على نفقته، مع أن الوقت غير ملائم والدنيا على كف عفريت.

وخلفنا كانت جمهرة العم محمدات.

وكان الموكب رهيباً إلى الدرجة التي كانت توقف الحركة في الشارع، وتدفع الناس إلى التساؤل عن الميت الهائل الذي يتطلب الكشف عليه هذا العدد من الحانوتية وصبيانهم.

وكان البيت الذي يقطن فيه عم محمد بعيداً في سفح الجبل، وعبارة عن حوش واسع في وسطه كومة هائلة من الزبالة وحولها حجرات أكثرها منهار، ومع هذا فلكل حجرة سكان وقاطنون.

ولم يثر مقدمنا ضجة ولا صراخاً ولا صخباً، كان كل شيء هادئاً وكأن لم يمت أحد. كل ما حدث أن بعض الكلاب هبهبت فصرخ فيها المعلم وأبعدها.

وكانت الحجرة مظلمة لا يضيئها غير النور الداخل من الباب،

وكان عم محمد راقداً بجوار الحائط ومغطى بأوراق جرائد ألمانية قديمة لا يدري أحد كيف جاءت إلى هذا المكان.

وزعق المعلم في «الصبي» الجديد:

ـ اكشف يا جدع.

وانحنى الصبي الشيخ بسرعة وأزاح الجرائد ويده تهتز وترتعش.. وبدا عم محمد ممدداً وميتاً ووجهه إلى الحائط كالتلميذ المذنب. كان ممدداً بنفس ملابس الشغل وجسمه الصغير يكاد يتكور على نفسه، وقدماه اللتان طالما لفتا الدنيا جرياً في جري كانتا مستكينتين وعليهما حذاء سميك من الطين الجاف والتراب.

وقال المعلم:

ـ أهه.. ما فيش حاجة بتاتاً.. اقلب يا جدع.. اقلبه على ضهره وريه للبيه.

ومد الصبي العجوز يديه وحاول قلب الجثة ففشل.

* * *

وحينئذ رأيت وكأن عم محمد ينبري له من ميتته وينتفض مستديراً بطريقته الخفيفة النشطة:

ـ أوعى يا جدع جك تربة تلمك.. أنا هه.. اتفضل يا بيه.. أنا اللي أقلب بنفسي.. بس كان لزومه إيه تعبك يا بيه؟. أنا هه نضيف زي الفل ما فياش صنف حاجة.. آدي يا سيدي رجليه أهه.

ومد عم محمد رجليه، فبدتا كجريدتين رفيعتين من جرايد

النخل وقد نزع عنهما السعف.

ـ وآدى جسمي أهه.

وخلع ملابسه بسرعة، ووقف في وسط الحجرة عارياً كما ولدته أمه، وبدا جسده جافاً ناشفاً ليس فيه درهم واحد من اللحم. ويبدو أن الإنسان كالنبات يولد بذرة ويظل ينمو وتخضر أوراقه، ثم يزدهر في شبابه وتتفتح وروده، ثم ينضج وتتكون له الثمار في الرجولة، وبعدما يخلف ويؤدي رسالته في الحياة ويصبح عجوزاً يحدث له ما يحدث للنبات بعد قطف ثماره فيجف وتبرز عظامه ويتناقص لحمه، حتى ينتهي إلى شيء كعود القطن الجاف بعد جمعه.. ومضى عم محمد يقول وهو يستدير ليستعرض جسده:

ـ مش قلتلك يا بيه؟. عضمه كبيره، وآدى دراعه أهه..

وحاول عم محمد جذب ذراعه فلم يستطع، إذ يبدو أن الروماتيزم الذي كان يشكو لي منه دائماً قد جففها تماماً وجمدها، فتركها عم محمد يائساً وانتقل إلى رأسه:

وآدى الراس.

رأس قد صغر الكبر حجمه حتى استحال إلى جمجمة كروية صغيرة، فكها الأسفل يلتوي إلى أعلى والأعلى يلتوي إلى أسفل، وملامحها كلها تكاد تنشفط داخل الفم.

ـ وآدى الشعر اهه.

وجـذب عـم محمد بكلتـا يـديـه الشعـرات القليلة المتبقيـة في رأسه.

ـ وآدى رجليه أهه.

ومد أقداماً شاحبة جداً وكأنها ماتت من عشرات السنين.

ويبدو أن المجهود الذي بذله في عرض نفسـه قد أنهكـه، فقد قال وهو يعود إلى رقدته ويعود إلى مواجهة الحائط:

ـ كنت ريحت نفسـك يـا بيـه.. مـا قلتلك.. والله مـا في إلا شيخوخة بدون جنون..

* * *

وعدت إلى نفسي على قول المعلم:

ـ هيه.. قلت إيه؟

فقلت له:

ـ غسل.

وفي الحـال بـدأت حـركـة هـائلة في الحجـرة، وخلع المعلم جلبابه الصوف ووقف كالقبطان تصدر منه الأوامر متتابعة.

وبعد قليل كان عم محمد قـد استقر في النعش، وكـان النعش محمـولاً على أكتاف الـزملاء «التـربيـة»، وكـانـوا يتمـايلون بـه وهم يغـادرون البيت بـلا صـوت واحـد يـدوي ويـودع عم محمـد.. أو صرخة.

وما كاد المعلم يطمئن إلى أن كل شيء قـد انتهى وأنه قـد قام

بـواجبه وأخـرج صبيه على خيـر ما يـرام، حتى فوجئت بـه يتـراجـع ويجلس على قرافيصه بجوار الحائط ويخفي رأسه بين ركبتيه ويخرج صوته خشناً مكتوماً يتخلله البكاء:

ـ يا ولداه يا عم محمد.

وبعد أن ذهبت نوبة بكائه رفع رأسه وقال بعينين محمـرتين وقد تذكر الرسميات:

ـ مش مضيت له التصريح يا دكتور؟.

وهززت رأسي فعاد يقول:

ـ مش برضه..؟

فقلت:

ـ أيوه.. شيخوخة.

ومسح دموعاً تكونت في عينيه وهو يقول:

ـ بدون جنون.

فأجبته:

ـ أيوه.. بدون جنون.

طبلية من السماء

أن ترى إنساناً يجري في شارع منية النصر فذلك حادث، فالناس هناك نادراً ما يجرون. . ولماذا يجرون وليس في القرية ما يستحق الجري؟المواعيد لا تحسب بالدقائق والثواني. . والقطارات تتحرك في بطء الشمس. قطار إذا طلعت. . وآخر حين تتوسط السماء. . ومع مغيبها يفوت واحد. ولا ضجيج هناك يثير الأعصاب ويدفع إلى التهور والسرعة. كل شيء بطيء هادىء عاقل، وكل شيء قانع مستمتع ببطئه وهدوئه ذاك، والسرعة غير مطلوبة أبداً والعجلة من الشيطان.

أن ترى واحداً يجري في منية النصر فذلك حادث. . وكأنه صوت السرينة في عربة بوليس النجدة فلا بد أن وراء جريه أمراً مثيراً وما أجمل أن يحدث في البلدة الهادئة البطيئة أمر مثير.

وفي يوم الجمعة ذاك لم يكن واحد فقط هو الذي يجري في منية النصر، الواقع أنه كانت هناك حركة جري واسعة النطاق. ولم يكن أحد يعرف السبب. . فالشوارع والأزقة تسبح في هدوئها الأبدي وينتابها ذلك الركود الذي يستتب في العادة بعد صلاة الجمعة، حيث

ترش أرضها بماء الغسيل المختلط بالرغوة والزهرة ورائحة الصابون الرخيص، وحيث النسوة في الداخل مشغولات بإعداد الغداء والرجال في الخارج يتسكعون ويتصعلكون إلى أن ينتهي إعداد الغداء. . وإذا بهذا الهدوء كله يتعكر بسيقان ضخمة غليظة تجري وتهز البيوت، ويمر الجاري بجماعة جالسة أمام بيت فلا ينسى وهو يجري أن يلقي السلام، ويرد الجالسون سلامه ويحاولون سؤاله عن سبب الجري ولكنه يكون قد نفذ. حينئذ يقفون ويحاولون معرفة السبب وطبعاً لا يستطيعون، وحينئذ يدفعهم حب الاستطلاع إلى المشي ثم يقترح أحدهم الإسراع فيسرعون ويجدون أنفسهم آخر الأمر يجرون، ولا ينسون أن يلقوا السلام على جماعات الجالسين فتقف الجماعات ولا تلبث أن تجد نفسها تجري هي الأخرى.

غير أنه مهما غمض السبب فلا بد في النهاية أن يعرف. ولا بد أن يتجمع الناس في مكان الحادث بعد قليل. . فالبلدة صغيرة وألف من يدلك، وقبل أن تلهث تكون قد قطعتها طولاً وعرضاً.

وهكذا لم يمض وقت طويل حتى كان قد تجمع عند الجرن عدد كبير من الناس. . وكل من في استطاعته الجري قد وصل، ولم يبق مبعثراً في الطريق غير كبار السن والعواجيز الذين آثروا التمشي حتى يبدوا كباراً في السن، وحتى يبدو ثمة فرق بينهم وبين الشبان الصغار والعيال. ولكنهم كانوا أيضاً يسرعون وفي نيتهم أن يصلوا قبل الأوان وقبل أن يصبح الحادث خبراً.

ومنية النصر كغيرها من بلاد الله الواسعة تتشاءم من يوم الجمعة،

وأي حادث يقع فيه لا بد أنه كارثة أكيدة. . ليس هذا فقط، بل إنهم مبالغة في التشاؤم لا يجرءون على القيام بأي عمل في هذا اليوم بالذات مخافة أن يصيبه الفشل، وعلى هذا تؤجل الأعمال كلها إلى يوم السبت. وإذا سألت لماذا هذا التشاؤم قالوا لك لأن في يوم الجمعة ساعة نحس. ولكن الظاهر أن السبب الحقيقي ليس هذا. . والظاهر أن ساعة النحس هذه حجة ليس إلا ووسيلة يستطيع بها الفلاحون أن يؤجلوا عمل الجمعة إلى السبت وبهذا يصبح يوم الجمعة راحة، ولكن الراحة كلمة بشعة عند الفلاحين. الراحة إهانة لخشونتهم وقدرتهم الخارقة على العمل التي لا تكل. الراحة لا يحتاجها إلا أبناء المدن فقط ذوو اللحوم الطرية الذين يعملون في الظل ومع هذا يلهثون. الراحة الأسبوعية بدعة، إذن ألا يكون يوم الجمعة شؤماً وفيه ساعة نحس، وحينئذ فقط يكون من الجائز أن تؤجل الأعمال لتتم في يوم السبت.

ولهذا كان الناس يتوقعون أن يكون سبب حركة الجري هذه مصيبة كبرى حلت بأحد. ولكنهم حين يصلون إلى الجرن لا يجدون بهيمة فطسى ولا حريقاً قائماً ولا رجلاً يذبح رجلاً.

كانوا يجدون الشيخ علياً واقفاً في وسط الجرن وهو في حالة غضب شديد وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بعصاه وراح يهزها بعنف. وحين يسألون عن الحكاية يقول لهم السابقون:

ـ الشيخ ح يكفر.

وكان الناس حينئذ يضحكون فلا ريب أن تلك نادرة أخرى من

نوادر الشيخ علي الذي كان هو نفسه نادرة. فرأسه كبير كرأس الحمار، وعيناه واسعتان مستديرتان كعيون أم قويق، وله في ركن كل عين جلطة دم. وصوته إذا تكلم يخرج مبحوحاً مكتوماً كصوت الوابور إذا انكتم نفسه وشحر. ولم تكن له ابتسامة فقد كان لا يبتسم أبداً. إذا إنبسط ونادراً ما ينبسط قهقه، وإذا لم ينبسط كشر. وكلمة واحدة لا تعجبه يتعكر دمه حتى يستحيل إلى مازوت وينقض على قائلها.. قد ينقض عليه بيده ذات الأصابع الغليظة كالصوامع أو قد ينقض عليه بعصاه.. وعصاه كان لها عقفة وكانت من خيزران غليظ وكان لها كعب من حديد، وكان يحبها ويعزها ويسميها الحكمدار.

أرسله أبوه ليتعلم في الأزهر وهناك أخطأ شيخه مرة وقال له: أنت بغل. فما كان من الشيخ علي إلا أن رد عليه وقال: إنت ستين بغل. ولما رفتوه وعاد إلى منية النصر عمل خطيباً للمسجد وإماماً. ونسي ذات يوم وصلى الجمعة ثلاث ركعات،ولماحاول المصلون وراءه تنبيهه لعن آباءهم جميعاً وطلق من يومها الإمامة والجامع.. ولأجل خاطرهم طلق الصلاة. وتعلم الكوتشينة وظل يلعبها حتى باع كل ما يملكه، وحينئذ حلف بالطلاق أن يبطلها. وكان محمد أفندي المدرس بالمدرسة الابتدائية في البندر فاتحاً دكان بقالة في البلدة، عرض على الشيخ علي أن يقف في الدكان ساعات الصباح فقبل، ولكنه لم يعمل إلا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع كان محمد أفندي واقفاً أمام الدكان يتصبب حلاوة طحينية. فقد اكتشف الشيخ علي أن محمد أفندي يضع قطعة حديد في الميزان ليطب وقال له الشيخ علي:

ـ إنت حرامي .

وما كاد محمد أفندي يقول :

ـ لايمها يا شيخ علي واسكت وخليك تاكل عيش .

حتى قذفه الشيخ علي بكتلة الحلاوة الطحينية . . ومن يومها لم يجرؤ أحد على أن يعهد للشيخ علي بعمل . وحتى لو كان قد جرؤ فالشيخ علي نفسه لم يكن متحمساً لأي عمل .

وكان هذا الشيخ علي قبيحاً . . ضيق الصدر لا عمل له ، ومع هذا لم يكن في البلدة من يكرهه . . كان الجميع يحبونه ويعشقونه ويتداولون نوادره . وألذ ساعة هي تلك التي يجلسون فيها حوله يستفزونه ليغضب ، وغضبه كان يضحكهم . كان إذا غضب وأربدت ملامحه وانكتم صوته . . كان الواحد منهم لا يتمالك نفسه ويموت من الضحك . . ويظلون يستفزونه ويظل هو يغضب . . ويضحكون حتى ينفض المجلس . وعلى كل لسان كلمة : الله يجازيك يا شيخ علي . ويتركونه وحيداً ليصب جام غضبه على «أبو محمد» فقد كان يسمي الفقر «أبو أحمد» وكان يعتبره عدوه الوحيد اللدود . . ويتحدث عنه كما لو كان آدمياً موجوداً له اسم ولحم ودم . وكانت مجالسه تبدأ حين يسأله أحدهم :

ـ أبو أحمد عمل فيك إيه يا شيخ علي النهارده؟ .

وكان الشيخ علي يغضب حينئذ غضباً حقيقياً ، ذلك لأنه لم يكن يحب أن يحدثه أحد عن فقره . . إذا تحدث هو كان بها . أما أن يتحدث الناس عن فقره فذلك شيء يدفع إلى الغضب . . فالشيخ علي

كان خجولاً جداً رغم قسوة ملامحه وكلامه، وكان يفضل أن يبقى أياماً بلا دخان على أن يطلب من أحدهم أن يلف له سيجارة. وكان يحمل معه على الدوام إبرة وفتلة لرتق جلبابه إذا تمزق، وإذا اتسخ ذهب بعيداً عن البلدة وغسل ثيابه وظل عارياً حتى تجف. ولذلك كانت عمامته الوحيدة أنظف عمامة في البلدة.

كان حرياً إذن بأهل منية النصر أن يضحكوا من هذه النادرة الجديدة.. ولكن الضحكات كانت تموت في الحال والألسن تتراجع خائفة إلى الحلوق وكأنما لدغتها عقارب. فكلمة الكفر كلمة بشعة. والبلدة مثل غيرها من البلاد تحيا في أمان الله فيها كل ما تحفل به سائر البلاد: الناس الطيبون الذين لا يعرفون إلا أعمالهم وبيوتهم، واللصوص الصغار الذين يسرقون كيزان الذرة والكبار الذين ينقبون الزرائب ويسحبون البهائم من أنوفها بالخطاطيف، والتجار الذين يتاجرون بالمئات وتجار القروش، والنساء الملعبات غير المعروفات وأولئك المعروفات على نطاق البلدة كلها، والصادقون والكاذبون والخفراء، والمرضى والعوانس والصالحون.. فيها كل ما تحفل به سائر البلاد.. ولكن الجميع تجدهم في الجامع إذا أذن المؤذن للصلاة ولا تجد واحداً منهم فاطراً في رمضان. وثمة قوانين مرعية تنظم حياة الكل ويسمونها الأصول، فلا يتعدى اللص على لص، ولا يعير أحد أحداً بصنعته، ولا يجسر واحد على تحدي الشعور العام. وإذا بالشيخ علي يقف ويخاطب الله هكذا بلا إحم ولا دستور.

كانوا يضحكون قليلاً ولكنهم ما يكادون يسمعون ما يقوله حتى يتولاهم وجوم.

كان رأسه عارياً وشعره القصير يلمع بالعرق وبالشيب، والعصا الحكمدار في يمينه وعيناه تنفثان حمماً، وفي وجهه غضب أحمق شديد، وكان يقول موجهاً كلامه إلى السماء:

ـ إنت عايز مني إيه؟ تقدر تقول لي إنت عايز مني إيه؟ الأزهر وسبته عشان خاطر شوية المشايخ اللي عاملين أوصياع الدين. ومراتي وطلقتها. والدار وبعتها. وأبو أحمد وسلطته عليّ دوناً عن بقية الناس. هو ما فيش في الدنيا دي كلها إلا اني؟ ما تنزل غضبك يا رب على تشرشل والـلا زنهاور. . مش قادر إلا عليّ اني؟ عايز مني إيه دلوقت؟ المرات اللي فاتت كنت بتجوعني يوم وباستحمل. . واقول يا واد كأننا في رمضان وأهو يوم وينفض. المرة دي بقالي ما كلتش من أول امبارح العصر، وسجاير ممعيش سجاير بقالي أسبوع. ومزاج حد الله ما دقته بقالي عشرة أيام، وإنت بتقول فيه في الجنة عسل نحل وفواكه وأنهار لبن. ما بتدنيش منهم ليه؟. مستني أما أموت م الجوع علشان أروح الجنة وآكل من خيرك؟ لا يا سيدي يفتح الله. أحييني النهارده وأبقى بعد كده وديني مطرح ما توديني. يا أخي ما تبعد عني أبو أحمد ده. ما تبعته أمريكا. هو كان انكتب عليّ؟ إنت بتعذبني ليه؟ آني ما حلتيش إلا الجلابية دي والحكمدار. عايز مني إيه؟يا تغديني دلوقتي حالاً يا تاخدني حداك على طول. ح اتغديني والا لأ؟.

كان الشيخ علي يقول هذا بانفعال رهيب حتى تكوم الزبد فوق فمة، وطمه العرق، وامتلأ صوته بحقد فاض عن حده. وأهل منية النصر واقفون وقلوبهم تكاد تسقط من الرعب. كانوا خائفين أن يسوق

الشيخ علي فيها ويكفر. ولم يكن هذا فقط مبعث خوفهم فالكلمات التي يقولها الشيخ علي خطيرة.. قد تغضب الله سبحانه وتعالى، وقد تحل ببلدهم من جراء ذلك نقمة تأتي على الأخضر واليابس. كان كلام الشيخ علي يهدد البلدة الآمنة كلها وكان لا بد من إسكاته. وعلى هذا بدأ العقلاء يطلقون من بعيد كلمات طيبات يرجون فيها من الشيخ علي أن يعود إليه رشده ويسكت، وترك الشيخ علي السماء قليلاً والتفت إليهم:

- أسكت ليه يا بلد دون؟ أسكت لما أموت م الجوع؟ أسكت ليه؟ خايفين على بيوتكم ونسوانكم وزرعكم.. اللي حداه حاجة يخاف عليها، إنما أنا مش خايف على حاجة، إن كان زعلان مني ياخذني. إنما وديني وما أعبد، إن إيجه حد ياخذني إنشالله يكون عزرائين نفسه لمدشدش على رأسه الحكمدار. وديني ما ني ساكت إلا ما يبعت لي مائدة من السما حالاً. أنا مش أقل من مريم. هي مهما كانت حرمة إنما أنا راجل. وهي ماكنتشي فقيرة إنما أنا أبو أحمدطلع ديني. وديني وما أعبد ماني ساكت إلا أما يبعت لي حالاً مائدة.

والتفت الشيخ علي إلى السماء وقال:

- هه.. ح تبعتها دلوقتي والا ما اخلي ولا ابقي حدايا إلا ما أقوله؟ مائده حالاً. جوز فراخ وطبق عسل نحل ورصة عيش ساخن. على شرط عيش ساخن. وأوع تنسى السلطة. وديني لعادد لغاية عشرة وإن ما نزلت المائدة ماني مخلي ولا مبقي.

ومضى الشيخ علي يعد وقلوب منية النصر تعد معه مقدماً، والأعصاب قد بدأت تتوتر وأصبح لا بد من عمل شيء لإيقاف

الشيخ علي عند حده. واقترح أحدهم أن يلتف جماعة من شباب البلدة الأقوياء حوله ويوقعوه أرضاً ويكمموا فاه ويعطوه علقة لا ينساها. . غير أن نظرة واحدة ألقاها الشيخ علي من عينيه المشتعلتين بالغضب المجنون أذابت الاقتراح. فمن المستحيل أن ينالوا الشيخ علي قبل أن يخبط هو خبطة أو خبطتين برأس الحكمدار. . وكل شاب قد قدر أن الخبطة ستكون من نصيبه. والذي يهدد بدشدشة رأس عزرائيل كفيل بدشدشة رأس الواحد منهم، وعلى هذا ذاب الاقتراح.

وقال له أحدهم في فروغ بال:

ـ ما انت طول عمرك جعان يا راجل إشمعنى النهارده؟.

وأصابته نظرة نارية من الشيخ علي وأجابه:

ـ المرة دي يا عبد الجواد يا معصفر الحكاية طالت.

وزعق فيه آخر:

ـ طب يا أخي لما أنت جعان مش تقول لنا وإحنا نوكلك بدل الكلام الفارغ اللي إنت قاعده تقوله ده؟

وهب فيه الشيخ علي:

ـ آني أطلب منكم؟ آني أشحت منكم يا بلد جعانة، دا انتو جعانين أكثر مني أقوم أشحت منكم؟ آني جاي أطلب منه هو، وإذا ما ادانيش ح اقدر أعرف شغلي.

وقال له عبد الجواد:

ـ ما كنت تشتغل يا أخي وتاكل. يخفي وجهك.

وهنا بلغ الغضب بالشيخ علي منتهاه وتزربن وراح يهتز ويصرخ ووزع كلامه بين الجمع المحتشد عن بعد وبين السماء:

ـ وإنت مالك يا عبد الجواد يا بن ست أبوها. ما نيش مشتغل. مش عايز اشتغل. ما بعرفش اشتغل. مش لاقي شغل. هو شغلكو ده شغل ياعالم بقر؟ دا شغلكو ده شغل حمير وآني مش حمار. آني ما إقدرش يتقطم وسطي طول النهار، ما اقدرشي أتعلق في الغيط زي البهيمة يا بهايم. يلعن أبوكو كلكو ما نيش مشتغل. والنبي لو حكمت أموت م الجوع ما اشتغل شغلكو أبداً.

وكان غضبه شديداً إلى الدرجة التي جعلت الناس تضحك بالرغم منها، وبرغم الموقف الرهيب الذي كانوا فيه.

وانتفض الشيخ على انتفاضة عظيمة وقال:

ـ هه. . ح اعد لغاية عشرة والنبي أن ما بعت لي مائدة لكافر وعامل ما لا يعمل.

وكان واضحاً أن الشيخ علي حقيقة لن يتراجع وأنه ينوي أن يلبخ، ويحدث حينئذ ما لا تحمد عقباه.

وبدا الشيخ علي يعد وبدأت نقاط العرق تنبت على الجباه، وأصبح حر الظهر لا يطاق حتى أن بعضهم تهامس أن النقمة لا بد قد بدأت تحل، وأن ذلك الحر الفظيع إن هو إلا مقدمة للحريق الهائل الذي سوف ينشب ويأتي على كل القمح الواقف والمحصود.

وأخطأ أحدهم مرة وقال:

ـ ما تشوفوا لقمة يا ولاد يمكن يهبط.

ويبدو أن الكلمة وصلت إلى أذن الشيخ علي مع أنه كان يعد بصوت عال مرتفع، فقد استدار إلى الجميع قائلاً:

ـ لقمة إيه يا بلد يا غجر؟ لقمة من عيشكو المعفن وجبنتكم القديمة اللي كلها دود؟ وده أكل؟ وديني ماني ساكت إلا أما تنزل لي المائدة لغاية هناهه وعليها جوز فراخ.

وسرت همهمة كثيرة في الجمع، وقالت ولية من الواقفات:

ـ آني طابخة شوية بامية حلوين يا خويا أجيب لك صحن؟

وصرخ فيها الشيخ علي:

ـ إخرسي يا مره. بامية إيه يا بلد كلها قرون. دا عقولكو بقت كلها بامية وريحة بلدكو زي ريحة البامية الحامضة.

وقال أبو سرحان:

ـ حدانا سمك صابح يا شيخ علي شارينه لسه من أحمد الصياد.

وزأر فيه الشيخ علي:

ـ سمك إيه بتاعكو ده اللي قد العقلة يا بلد «صير»؟ هو ده سمك؟ وديني إن ما بعت جوز فراخ والطلبات اللي قلت عليها لشاتم وزي ما يحصل يحصل.

وأصبح الوضع لا يحتمل، إما السكوت وضياع البلدة ومن فيها وإما إسكات الشيخ علي بأي طريقة، وانطلقت مائة حنجرة تعزم عليه بالغداء، وانطلق صوته مائة مرة يرفض ويصر على الرفض ويقول:

ـ ماني قاعد على اللضى يا بلد بقى لي تلات أيام ما حدش عزم عليّ بلقمة، حليت العزومة دلوقتي؟ وديني ماني ساكت إلا أما تيجي المائدة من عند ربنا.

واستدارت الرؤوس تسأل عمن طبخ في هذا اليوم إذ إن كل الناس لا يطبخون كل يوم، وأن يكون لدى أحدهم(زفر) أو فراخ يعد حادثاً جللاً وأخيراً وجدوا عند عبد الرحمن رطل لحمة (بتلو) مسلوقاً بحاله فأحضروه على طبلية. . وأحضروا معه فجلاً وجوزين عيش مرحرح ومخ بصل، وقالوا للشيخ علي:

ـ يقضيك ده؟ .

وتردد بصر الشيخ علي بين السماء والطبلية، وكلما نظر إلى السماء قدحت عيناه شرراً وكلما نظر إلى الطبلية احتقن وجهه غضباً. . والجمع يغمره السكون، وأخيراً نطق الشيخ علي وقال:

ـ بقى آني عايز مائدة يا بلد غجر تجبولي طبلية؟ وفين علبة السجاير؟ .

وأعطاه أحدهم صندوق دخانه.

ومد يده وتناول قطعة كبيرة من اللحم، وقبل أن يتاويها في فمه قال:

ـ وحتة المرة فين؟!

فقالوا له:

ـ حقه إلا دي.

وهاج الشيخ علي وقال:

ـ طب هه. وترك الطعام وخلع جلبابه وعمامته وراح يهز عصاه ويهدد بالكفر من جديد. ولم يسكت إلا بعد أن أحضروا مندور تاجر المر، وبلبع له فصاً وقال له:

ـ خد.. خد يا شيخ مش خسارة فيك. أصلنا ما حد ناش نظر وما كناش عارفين بتنكسف تطلب، الناس تقعد وياك وتنبسط وبعدين تدلدل ودانها وتمشي وتسيبك واحنا لازم نشوف راحتك يا شيخ. هي بلدنا من غيرك أنت وأبو أحمد تسوى بصلة؟ إنت تضحكنا واحنا نأكلك.. إيه رأيك في كده؟!

وغضب الشيخ علي غضباً شديداً، وطار وراء مندور وهو في قمة الغيظ ومضى يهز الحكمدار وهو يكاد يهوي بها على رأسه ويقول:

ـ أنا اضحكوا؟ هو آني مضحكة يا مندور يا ابن البلغة؟ إمش داهية تلعنك وتلعن أبوك.

وكان مندور يجري أمامه وهويضحك، وكان الناس يتفرجون على المطاردة وهم يضحكون، وحتى حين طار الشيخ علي وراءهم جميعاً وهو يسبهم ويلعنهم كانوا لا يزالون يضحكون.

ولا يزال الشيخ علي يحيا في منية النصر ولا تزال له في كل يوم

نـادرة، ولا يـزال سـريـع الغضب، ولا يـزال النـاس يضحكــون من غضبه . . غير أنهم من يومها عرفوا له، فما يكادون يرونـه واقفاً وسط الجرن وقد خلع جلبابه وعمامته وأمسك بالحكمدار في يده وراح يهزها في وجه السماء، حتى يدركوا أنهم نسوا أمره وتركوا «أبو أحمد» ينفرد به أكثر من اللازم، وحينئذ وقبل أن تتسرب من فمه كلمة كفـر واحدة تكون الطبلية قد جاءته وعليها ما يـطلبه، وأحيـاناً بمـا قسم وأمره إلى الله .

اليد الكبيرة

هبطت من القطار في العصر. ودائماً أصل بلدنا في العصر والمحطة على ناحية من السكة الحديد وبلدنا على ناحية، والشمس صفراء وفي صفرتها هدوء وسكون ومرض، وبلدنا أيضاً تقبع صفراء ببيوتها المصنوعة من الطين وأشجارها حتى قمم النخيل كانت تظللها صفرة..

ورمقني نفر من دائمي الجلوس على كنبة المحطة إذ هي مكان صالح للجلوس الفارغ، لا أحد يطرد الجالس ولا يطلب منه الثمن. رمقني ذلك النفر بنظرة لا بد أنه كان فيها رثاء. ومشيت والقطار لا يزال واقفاً برأسه الأسود البشع السواد، والأصوات الخشنة القبيحة التي لا تكف عن الصدور منه، والعين الواسعة المدورة الحمراء التي تنفخ في داخلها بين الحين والحين وتنفث جحيماً أحمر، الرأس الذي طالما أخافنا ونحن صغار بأفظع مما كان يخيفنا رأس الغول. هذه المرة عبرت القضيب الحديدي من أمامه وأنا لا أحفل بشيء ولا أخاف الموت.

وكنت حين أصبح على المشاية الضيقة التي توصل إلى داخل

البلدة وإلى دارنا أحس إحساساً غريباً بـأني أخيراً عـدت، ودائماً كنت أصـادف في طريقي ثـلاثة أو أربعـة من أهل بلدنـا منتشرين في تلك البقعة وأقول لهم: سلام عليكم! ويجيبونني ويرحبون بي وهم يرمقونني ويرون ما أحدثته السنون فيّ من تغيير وأرى ما أحدثته السنون فيهم من تغيير. رأيتهم وأنا طفل ورأوني وهم شباب، واليوم لم أعد طفلاً ولم يعودوا شبابـاً. الزمن. . الـزمن الغادر الـذي لا أمان لـه لا يكفـ عن المضي ونحن لا نكف عن الكبر ولا نكف عن الاقتراب من النهـاية. ونحن لا نحس بالزمن إلا إذا رأيناه، ونحن نرى مـا أحدثـه الزمن في الآخـرين فنتوقع أننا لا بد أننا نحن الآخرين كبرنا. .

وقـريتنا دائماً هادئـة، لا صـوت. . لا زعيق. . لا شجـار. . لا شيء، هواء يداعب ما على الأسطح من حطب، وقوافل الأوز ساكنة لا تكاكي، وكل شيء من الـطين، والأرض فـوقهـا تراب، وفي السمـاء دخان المواقد، والناس يتحركون في صمت ووجوم وبلا حماس كمن يدرك ألا داعي للعجلة مطلقاً ولا فائدة فيّ الحركـة، الناس صـامتون كأنما ينتظرون يوم القيامة ليتكلموا أو ينتظرون الموت.

وأعرف أني إذا وضعت قدمي على المشاية فسأرى بيوتاً على عتباتها نسـوة. وتعودت من صغـري أن أغض طـرفي حين أمـر، وتعـودن أن يتهامسن بعد مروري يحدقون في وأنا قادم ثم يتهامسن.

والمشاية قطعتها عشرات الآلاف من المرات. . إلى الابتـدائية ببنطلون قصير، وتعلمت فيها ركوب العجلة، وجريت فرحـاً بنجاحي في الامتحان، وتزحلقت أيام المطر، ولعبت فيها مع الأولاد بـالليل،

وفي آخرها بيتنا له سور وباب من الصاج، وأمامه مباشرة باب جارتنا بديعة وهي دائماً أمام الباب أطفالها حولها وهم صغار، والنسوة حولها لما كبر الأطفال. ودائماً تصنع شيئاً، تدعك النحاس أو تنشف الغلة أو تسأل عن فرخة ضائعة، ومن لحظة أن تراني هالاً من أول المشاية تلمحني وتفرح، ثم تنهمك فيما تصنعه فهي تريدني أن أقول لها العواف، تريدني فقد كنت من سنين طويلة طفلاً أعطش. إذا لعبت وجريت وأذهب لأشرب من عندها خوفاً أن تضربني أمي إذا ذهبت لبيتنا ورأت ما أنا فيه من إجهاد، وكانت خالتي بديعة تسقيني وتحميني وتخبئني عندها إذا غضبت وتحوش عني إذا ضربت، ولكني كبرت وتعلمت وأصبحت أفندياً طويلاً له بدلة، ترى ألا زلت أذكرها؟ ذاك بلا ريب ما كان يدور في خاطرها كلما رأتني مقبلاً من مصر ومعي الشنطة، والسنون قد جففت عودها وكرمشت جلدها ولكنها أبقت لها ابتسامتها الوديعة ذات الطيبة.

وقلت لها:

ـ العواف يا خالة بديعة.

ورفعت رأسها ولمحت الفرحة الدافقة على عينيها واضطراب يدها وهي تجلي الحلة بالتراب، وكادت تبتسم ولكنها عادت ورددت في صوت حنون راث رقيق، وهزني الصوت فلم تكن خالتي بديعة كذلك.. كانت ما تكاد ترد على عافيتي حتى تترك ما في يدها وتقوم هالعة وتفتح بابنا وتكاد تزغرد، وتقول:

ـ أهو جه.. أهو جه..

وتحدث حينئذ ضجة هائلة في بيتنا، فهم لم يروني من ستة أشهر أو سنة ودائماً في شوق إليّ، وكنت قد تخرجت صغيراً ومن يوم أن تخرجت لا أراهم إلا لماما، وكانوا يحبونني.

يفتح بابنا ويخرج أكثر من واحد من إخوتي حفاة وبجلابيبهم، وأحياناً بالفانلة والسروال، ويتعلق كل منهم في جزء من رقبتي وفرحتهم بأخيهم الكبير لا توصف، فرحة تتفجر على ألسنتهم صياحاً وتهليلاً ولا يقولون سوى: هيه.. هيه.. هيه..

وأعانقهم بكل قلبي وأذرعي، هم إخوتي وأنا أحبهم.. والمدينة التي أعيش فيها مليئة بالصراع وحياتي هناك مقبضة أدافع فيها عن الوجود، وجودي ووجود غيري، وأقف أمام قوات هائلة.. وقلبي وحيد، والناس لا أكرههم وأرثي لهم وأصدقائي كثيرون، ولكن مثل هذا الحب لا أتذوقه إلا هنا.. حب لا مقابل له ولا حدود، حب ملموس محسوس لا يخفيه أحد ولا يضن به أحد.

أعانقهم أبذل الجهود لأتخلص من أذرعهم الصغيرة الطفلة.. حتى أرى أبي فأنا دائماً مشتاق له.. أنا ابنه الكبير وحبيبه الكبير أيضاً. وكان وضعي يحتم عليّ أن أبدو كالرجال تماماً، وكنت أفعل ولكني كنت دائماً أحن إلى أبي.. إلى طفولتي.. إلى أن أنفض عني ثياب الرجال وأعود طفلاً أو كالطفل حتى أبدو ابناً، وحتى أحس أني ابن. وكنت أحب أبي.. أدخل من الباب فأجده قد أفاق مما كان يفعله على عجل، واقفاً يرتدي جلبابه ورأسه عار وصدره مفتوح وهو حائر فرحان يبحث هنا وهناك عن شيء يضعه في قدميه ليستطيع أن يسرع

ويقابلني . . فقد كان هو الآخر يحبني ، يحبني أكثر من أي شيء آخر في الوجود. ويقف على باب دارنا الكبيرة ويفتح يديه الاثنتين ويقول:

ـ أهلاً أهلاً . . اخص عليك يا شيخ .

وأندفع إلى حضنه ويندفع إلى حضني وكم حضنته وكم احتضنني ، وطول عمري كنت أريد أن أظل أحتضنه . كنت وأنا صغير لا أطول إلا ساقه فأحتضنها، ثم كبرت حتى أصبح في استطاعتي أن ألف يدي حول وسطه وكم كان يملؤني هذا بالغبطة . ثم كبرت حتى أصبحت طوله ، وها أناذا أصبح أطول منه وأحبه أكثر مما أحببته وأنا لا أكاد أتعدى ساقه. أحتضنه وأقبله بلهفة ، وألمح جلد رقبته وقد حفل بالتجعدات. أحب تجعيداته ، وشعر صدره وقد ابيض وأطل من فتحة الفانلة ، ولون بشرته الداخلية الفاتح ، ووجهه الأسمر ، وأنفه الهادىء الطيب ، وعينيه الحافلتين بالخير والحب ، وأقبله أكثر ويقبلني أكثر والدموع تكاد تأخذ طريقها إلى عينيه وهو يقول:

ـ اخص عليك يا شيخ وحشتنا . . خالص . .

وفي تلك اللحظات أصمت وأحس بالروح تعود إليّ ، أنا مضيَّع في المدينة الكبيرة وحيد ، وهنا أبي ، هنا بيتنا ، هنا أنا إنسان له أب ويعرف أصله وفصله والأرض التي شب عليها .

أبي لا يريد أن ينهي العناق ، وإخوتي من حولي يتخاطفون مني الحقيبة ويتشبثون بملابسي ويعانقوق بعضهم بعضاً . وأمي أعرف أنها لا بد في تلك اللحظة متناومة تنتظر مني أن أذهب إليها وأنادي فلا

ترد عليّ وكأنها في أحلى نعاس، فأذهب إلى الفراش وأمسك يدها وأميل بجسمي كله وأقبل اليد البيضاء الخشنة، وحينئذ تفتح أمي عينيها وكأنها تستيقظ وتقول في حزن:

ـ الله يسلمك.

ولا أملك نفسي فأضمها وأقبلها في جبهتها فلا تملك نفسها هي الأخرى وتقبلني في وجنتي وصوتها ممدود شاك حزين، وتلك طريقتها في بث أشواقها إليّ إذ هي لا تظهر حبها أبداً.

ونجلس حول فراشها وكل أخ من إخوتي يزاحم الآخر ليجلس بجواري أو فوق رجلي، وأبي يبتعد عني ليوفر لهم المكان ولو كان الود وده لزاحم وما تركني، وأمي تشكو من الزكام والروماتزم ورأسها الذي يكاد يطير، وأبي فرحان فرحاً لا يوصف يخفيه بصمته وتهيئة وسائل الراحة لي فيضع وراء ظهري مسنداً، أو يجعلني أقوم من مكاني لأجلس في مكان آخر أكثر راحة. وهو من فرط فرحته قد نسي أن يرتدي في قدميه مداساً.. وأقدامه كبيرة كنت شغوفاً وأنا صغير أن أمسح وجهي في بطنها وألعب في أصبعها الكبير وأنا فخور بكبره وكبرها..

نجلس، عائلة تواجه الحياة ولكنها في صفو، ساعة تتبخر فيها الأحزان والمتاعب ولا يبقى سوى الحب والشوق والكلمات الصغيرة المبعثرة والضحكات.. ضحكات صافية، والعائلة صغيرة والحياة كبيرة والطريق شاق، ولكن لها هي الأخرى ساعتها، ساعة كتلك.. اللمبة الغاز مشتعلة والحجرة حجرة أرياف والسرير له ناموسية والكنبة تضيق بنا، وفي الصيف لنا جلسة في الفضاء أمام الباب، وأبي سعيد

بيننا كالإله، كلنا نحبه ونذوب في حديثه. ما أجمله حين يتحدث! في الحال نصمت كلنا ونترقب، ويبدأ حديثه بابتسامة تظل طوال الحديث، وحنجرته رنينها حلو وصوته ملآن وطريقته في الكلام تأسرنا وتخلب ألبابنا. يكون قد ذهب إلى المحكمة مثلاً وأدى الشهادة ويقص هذا علينا، ونحب قصته فهو يبدأ من اللحظة التي نريده جميعاً أن يبدأ منها ويقص علينا التفاصيل المثيرة الدقيقة ويسرح بنا ويدخل في حكاية أخرى، ولا نحس أن حكاية بدأت وأخرى قد انتهت إنما نحس أننا سعداء وأننا نحب أبانا ونعبده.

* * *

لم تقم خالتي بديعة وتترك ما في يدها وتعلن قدومي في هذه المرة. بل ردت تحيتي وخفضت رأسها وانهمكت تجلي الحلة. وتركتها واتجهت إلى دارنا. كان باب الحوش مفتوحاً والباب من الصاج والهواء يتلاعب به فتزيق مفاصله، ووراء الباب فرخة منكمشة على نفسها ، وطفل يتبول. ودخلت. . الهدوء هو الهدوء، ولكن بيتنا ليس هو البيت فهذا أوسع وأكثر ارتفاعاً وفيه فراغ كبير. خطوت إلى الداخل بضع خطوات. . الفناء هو الفناء«الطلمبة» موجودة وحوضها من الحجرة والماء يتسرب من الحوض ويصنع قنوات، والأشجار متفرقة كعادتها، والنخلة قد نمت وقتلت ما حولها من نخيل صغير وأصبحت أطول من الحائط، وشجرة العنب ماتت لا ريب من كثرة الماء، وبرج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود والظلام يشع من داخلها، والأرض عليها عفش

ومهملة والفناء كبير. .

ووجدت باب البيت مفتوحاً هو الآخر ولا أحد على الباب ولا أحد في الداخل ولا أحد ينتظرني وكل شيء مهمل، والدنيا شتاء واصفرار الشمس قد ازداد والنخلة الصغيرة طول ظلها يمتد بطول منزلنا. .

ودخلت البيت. . الصالة الكبيرة أكبر مما رأيتها آخر مرة، والسقف مرتفع وعروق السقف أكثر بروزاً، والكنبة بياضتها متسخة ومساندها نائمة، والحجرات مقفلة ولا صوت.

الحمام واقف على قمة الباب المؤدي إلى السلم يهدل هديلاً ممدوداً قبيحاً، وكلبنا نائم على فروة الصلاة، وعصافير غير مرئية تصفر، وشعاع شمسي قد اخترق بئر السلم وسقط على أرض الصالة فصنع دائرة صغيرة من الضوء الأصفر، وتعلقت بالشعاع ملايين الذرات.

وأحسست أن بيتنا قد خرب.

وعدت إلى الخارج ثم إلى الشارع، وما رأتني خالتي بديعة حتى قالت:

ـ عايز حاجة؟.

قلت:

ـ هم فين؟

قالت:

ـ طلعوا على الجبانة.

قلت:

ـ وسايبين البيت فاضي؟

قالت:

ـ ما أنا هه.

ورأيت نفسي أمشي.

كان صدري فارغاً موحشاً كئيباً والدنيا من حولي لا تجذب انتباهي. ما قيمة أي شيء؟ ما قيمة أن أقول للناس: سلام عليكم. فيردون السلام وتفضل؟ إنهم أحياء وأنا حي، ولكن ما حدث قد حدث.

وتهت.. بدت لي بلدنا التي أعرف كل ركن من أركانها بلدة أخرى. كنت أمر في هذه الشوارع والحواري دائماً وأنا لا أحس لها وجوداً، وأنا آلفها وكأنها بيتنا. واليوم وأنا أمشي فيها كنت أراها لأول مرة، وكنت أعرف أناس بلدتنا وألفتهم من طول معرفتهم، ولكني كنت أمر بهم وأراهم فأحس أنهم رجال، وأنهم أغراب وأنهم متعبون. شيء لا بد قد حدث.. فأنا أحس الآن ببلدتنا وأناسها وكنت قبلاً آلفهم.. شيء ما لا بد قد حدث.

تهت، فخلال السنين التي كنت بعيداً عنها كبرت بلدتنا واتسعت وأنشئت بيوت جديدة. وكنت قبلاً أعرف طريق الجبانة فبجوارها كانت توجد وسعاية يقام فيها العيد. العيد؟ ترى لماذا لم يعد هناك عيد؟ لماذا لم نعد نحس به؟ يأتي ويمضي كأي يوم من الأيام. أين

اليقظة المبكرة، والكعكة والعيدية، وثياب الناس الجديدة الزاهية، والمراجيح، والمشبك والحلاوة الطحينية، و«الفردأبو فلة» الذي كان يفرقع ونخيف به جداتنا؟.

تهت، ولكني وصلت وأصبحت خارج البلدة.. ولم أجد الوسعاية. كانت قد تراكمت فيها بيوت أخرى مصنوعة من الطين. وكانت الجبانة هناك تطل قبورها من بين البيوت.

وكم كنا مغفلين!

فها هي القبور أمامي وحولي.. قبور فقيرة مهدمة لا شيء يرعب فيها ولا يخيف. ترى ما سبب الفزع الذي كنا نحسه ونحن صغار حين نلمح الجبانةمن بعيد؟ ترى أين قبر جدتي وأين قبر عمي وخالي؟ إن القبور مهدمة كلها ومبعثرة لا تكاد تفرق بين أحدها وآلاخر، وكل ما يميزها قد تآكلت أوراقها واستحالت إلى نسل.

جبت المكان بناظري فلم أجد أحداً، لا ريب أنهم كانوا قد غادروا الجبانة وعادوا إلى البيت، ولم أجد عناء كبيراً في العثور على القبر فقد كنت لا أزال أذكر أنه قرب شجرة الكافور، وها هي شجرة الكافور. لا بد أن هذا هو القبر.. ووقفت أمامه. كان الأسمنت لا يزال أخضر، ولم يكن البناء جيداً وأثر«المحارة» واضح، ومن الأمام لافتة مركبة كتب عليها: المرحوم.. وقرأت اسم أبي. وعدت أنظر حولي.. القبور مهدمة، وأشجار الكافور طويلة وحيدة جرداء، والشمس خنقها العصر الضيق، والغربان تتناحر عن بعد، وسوادها كثير.

أبي هنا إذن تحت هذا القبر! كل هذه الكمية من الحجارة والتراب والأسمنت فوقه وهو الذي كان لا يحتمل إغلاق نافذة الحجرة ساعة. أبي هنا نائم وملفوف بالكفن التيل المخطط وفوقه الكفن الأبيض وحوله كل تلك الوحشة، وعيونه مغلقة. أبي هنا لا يمكن أن يكون راقداً فقد كان لا يحتمل الرقاد الطويل. لا بد أنه جالس.. أجل إنه جالس.. جالس القرفصاء وكأنه يقرأ التحيات وقدمه الكبيرة مثنية تحته وأصبعه السبابة تتحرك وعيناه إلى أسفل وكأنه يصلي. ها هو قد ختم الصلاة.

وقلت: سلام عليكم.

ولم يرد. فقط نظر إليّ بعينيه الواسعتين ورأيت رقرقة الفرحة في عينيه، ولكنه لم يرد وكان حزيناً ويتمتم بختام الصلاة.

قلت له: أنا هنا يا أبي.. أنا حبيبك وقد عدت. لماذا لا تقول: أهلاً.. أهلاً..

لماذا لا تقول: اخص عليك.

وقلب كفيه حتى أصبح باطنهما الى أعلى ورفع وجهه الى السماء ودعا بشيء، ثم مسح بيديه على وجهه وتطلع إليّ، كان حزيناً ومتعباً ولم يتكلم.

فقلت: ألا تعرف أني أحبك؟

وأغمض عينيه، وشدد من إغلاق أجفانه وكأنما يقول نعم نعم.

قلت: وحبي لك لا يقدر؟!

وفتح عينيه وفيهما لمعة حزن.

فقلت: وأنت أحب إنسان إلينا جميعاً.

فعاد يغلق عينيه في ألم.

فقلت صارخاً: إذن لماذا تفعلها وتموت؟!

وفتح عينيه في دهشة وحدجني بنظرته القاسية الثابتة.

تلك النظرة التي كان يطالعني بها كلما ارتكبت خطأ عظيماً. وكنت أخاف من نظرته تلك وأنا صغير وأخافتني لحظتها كما لم أخف في حياتي. وخفضت صوتي حتى استحال الى همس وقلت: وحياة النبي الذي كنت تحبه، لماذا مت؟ لماذا تركتنا؟.

وكان أبي أسمر وله تجاعيد.. تجاعيد كبيرة طيبة، وكنا نحبها وطالما لثمناها ولم يتغير منظره في أعيننا طوال السنين، كنا نكبر ونتفرق ونعود لنجده أسمر ذا تجاعيد كبيرة طيبة.

وأردت أن أقبله في تلك اللحظة فقد أحسست فجأة أني مشتاق إليه وحياتي قضيتها مشتاقاً إليه. وكلما عدت من غيبتي ورأيته أقسم لنفسي أن لا بد سآخذ إجازة لأقضيها معه فقط ولأشبع منه، فقد كنت أخاف أن يموت قبل أن أشبع منه.. أردت أن أقبله واندفعت ناحيته لأفعل ولكنه رفع يده من فوق ركبته كمن لا يود أن يقاطع وهو يصلي، وتوقفت وقلت:

ـ كيف تموت قبل أن أشبع منك؟

ولمحت دمعة صغيرة كرأس الدبوس تفر من عينه، وتذكرت لحظتها فقط ساعة أن وضعوا النعش بجوار الحفرة ثم فردوا ملاءة كبيرة

فوقها وأزاحوا غطاء النعش، وبالراحة حملوه وقد أصبح صغيراً في الكفن الأبيض، ووسطه قد سقط بين أيدي الرجال ويده اليمنى حين انزلقت وأطلت من الكفن.. كانت هي يده بلا ريب، نفس اليد الحبيبة الضخمة ذات الشعر والكف التي طالما ملست على رؤوسنا وباركتنا، اليد التي كنا نقبلها ونتأملها ونحن نقبلها، اليد التي طالما لعبنا في أصابعها الكبيرة وأحببنا لونها وخطوطها وضخامتها.

وعدت أقول له: لماذا لم تقل لنا إنك ستموت؟ وانتظرت أن يجيب فلم يفعل.. فنظرت إليه فوجدته لا يزال على جلسته ولكن عينيه مغمضتان ووجهه أصفر شديد الشحوب لا يتحرك. وجدته كشجرتنا المقطوعة حين هوت على طولها في الفناء ومضى على قطعها أيام واصفرت أوراقها وذبلت وتعرت الأغصان.

وعدت الى بيتنا.

لا يزال برج الحمام في آخر الفناء أبيض وفيه خرابيش، وأوضة الفرن بابها مهبب أسود وظلام يشع داخلها، والأرض عليها عفش كثير، والبيت واسع جداً وخاو فيه إلا المغرب والصمت والهواء الساكن الذي لا يريم..

وفي نفس الحجرة التي كنا نجتمع فيها أصبحنا وحدنا وجلسنا.. إخوتي يرتدون ملابسهم الكاملة وتكشيرة الحزن تبدو غريبة على وجوههم الصغيرة الشابة، وأمي متعصبة بمنديل وفي أنفها وفمها وعينيها ألم واحمرار ودموع.

جلسنا صامتين واجمين، ومصباح الغاز نوره أحمر كئيب وعلى الجدران ظلال رؤوسنا.. ظلال واجمة داكنة كقلوبنا تبهت وتغمق

كلما كبرت ذبالة المصباح وصغرت، جلسنا ساكتين وكأننا ننتظر شيئاً ما، ننتظر أن يدق الباب ونذهب جميعاً لنفتح لأنه قد عاد.. ضاحكاً طربوشه إلى الوراء كما تعود أن يفعل، فاتحاً ذراعيه وصدره ليسعنا جميعاً بكل مشاكلنا ومتاعبنا الصغيرة. أو هو في الحمام لا بد وحالاً سيخرج.. ويتنحنح ويكح كحته التي حفظناها وألفناها، كحته التي لا نتصور بيتنا إلا بها. أو هو في الفناء حتماً يحدث جارنا ويصلنا صوته من بعيد، وما أجمل صوته حين كان يصلنا من بعيد ونعرف أن هذا صوت أبينا، نعرفه من ألف صوت ونحبه دون آلاف الأصوات ونفرح به، فمعناه أن أبانا قريب وأنه قادم، وأننا سنكون بعد قليل حوله وفي حضنه وعلى مقربة من عينيه وحديثه وشعر صدره.

ولكن شيئاً مما انتظرناه لم يحدث. لا دق الباب ولا سمعنا صوتاً، وأفظع ما في الأمر أننا كنا متأكدين أن الباب لن يدق وأننا لن نسمع أصواتاً.

والمصباح يكاد نوره يختنق وغازه يفرغ، وظلالنا تبهت على الجدران وتتداعى، وإحساس غريب بدأت أحس به وأدرك أنني كنت أعانيه ولا أشعر، إحساس أكاد أتذوقه بطرف لساني وأحس بقبضته حول صدري، إحساس بأنني حزين حزين.

وتطلعت في وجوه إخوتي.. وجوه مطرقة صامتة ذاهلة. وتطلعوا إليّ.

وفجأة وكأنما لسعنا خاطر واحد انفجرنا كلنا نبكي، فقد أحسسنا لحظتها فقط أن أبانا حقيقة مات وأنه انتهى من حياتنا إلى الأبد ولم يعد لنا أب. ما أبشع هذا! لم يعد لنا أب!.

تحويد العروسة

كون الشراقوة ـ بلدياتي ـ كرماء، مسألة لا نقض فيها ولا إبرام. أما أن يبلغ هذا الكرم حد التهور وحد «تحويد» العروسة فتلك مسألة أخرى كما يقولون. بل هي في الواقع عادة غريبة لم يبطل استعمالها في مديرية الشرقية إلا من سنتين تقريباً.

فمن المعروف أن البنت الريفية تتزوج في بلد غير بلدها يخرج أهلها في يوم الدخلة عن بكرة أبيهم لإيصالها الى بلد العريس. ونظراً لأن الأمن ـ أيام زمان طبعاً ـ لم يكن مستتباً في تلك المناطق الواسعة الشاسعة، فقد جرت العادة أن يخرج مع العروسة عدد كبير من أهل بلدها في أثناء الطريق، مكونين بموكبهم قافلة طويلة جداً على رأسها جمل العروسة الذي يقوده العريس في العادة، أو من ينوب عن العريس.

إلى هنا والأمر عادي يحدث مثله في كل مديريات القطر. أما الذي كان لا يحدث إلا في الشرقية وحدها فهو أن موكب العروسة كان حين يمر ببلد من البلاد أو بعزبة من العزب، يخرج أهل البلدة أو العزبة بأعيانها وشيوخها وشبابها ليعزموا العروسة وبلدياتها. ولكي

يثبتوا جدية العزومة كانوا يذبحون ويعلقون رأسها فوق نبوت أحدهم وينتظرون حتى يقترب الموكب، وحينئذ يتقدمون منه ويضعونه أمام الأمر الواقع قائلين:

ـ تفضلوا عشاكم جاهز والذبيحة ذبحت ومبيتكم الليلة عندنا. .

وطبعاً كان أهل العروسة يرفضون بشدة فالليلة ليلة الدخلة ولا وقت للعزائم أو مزاولة الكرم الشديد، ولكن العازمين لا يرضيهم هذا معتبرين أن الرفض إهانة خطيرة موجهة الى قدرتهم على استضافة العروسة وأهلها. ويشدد أهل البلدة في دعوتهم ويشدد أهل العروسة في رفضهم ويزداد كل طرف إصراراً. ويصل الأمر في النهاية الى حد الشتائم والتماسك بالأيدي. . ثم لا تلبث النبابيت أن ترتفع وتقوم خناقة كبيرة قد تسفر عن قتلى وجرحى، ولكنها لا بد أن تنتهي الى أحد أمرين: إما انتصار اهل العروسة ومواصلة طريقهم الى بلد العريس، وإما انتصار أهل البلدة واقتياد الموكب المهزوم واستضافته بالقوة. . .

وفي أغلب الأحيان كان أهل العروسة ينتصرون إذ الحمية كانت تأخذهم والمسألة بالنسبة إليهم مسألة كرامة وشرف ممكن الدفاع عنهما الى حد الموت. أما بالنسبة الى أهل البلدة فنادراً ما كانوا ينتصرون إذ المسألة بالنسبة إليهم مجرد إظهار لشدة كرمهم، وتلك قضية قد لا تدفع الإنسان الى التفريط في نفسه وإزهاق روحه. .

ظلت هذه العادة جارية قروناً طويلة حتى قضي عليها من وقت قريب. . وسبب زوالها أن إحدى بنات قرية كفر عزب كتب كتابها على

واحدة من بلدة أخرى بعيدة. وفي يوم الدخلة خرج أهل القرية عن بكرة أبيهم ليوصلوا العروس كالعادة.

وفي الطريق فوجئوا بعملاق أسود يخرج عليهم ومعه ثلة من أتباعه وقد رفع نبوتاً أطول من النخلة فوق رأسه، ووقف في وسط الطريق دون أن ينبس ببنت شفة. وما كاد أفراد الموكب يلمحون الرجل حتى بدأ اضطراب شديد يجتاح صفهم الطويل، ذلك لأن أهالي كفر عزب كان بينهم وبين الشجاعة عدم استلطاف قديم. كانت البلدة مكونة من عائلات كبيرة تفتتت. فتتها الفقر وقلة الأرض وتحولت إلى كفر مزدحم بآلاف الأنفس المتناحرة التي يأكل بعضها البعض ولا تبالي. كان أهل الكفر كلهم صغاراً في صغار، الملاك لا يمتلك الواحد فيهم أكثر من بضع قراريط كل أمله في الحياة أن يجعلها فداناً بأكمله، والتجار ـ إذا صحت التسمية ـ مجرد باعة سريحة يلفون البقج والأخراج على أكتافهم يوم السوق، وفي البلد أكثر من خمسين دكان بقالة لا يزيد ثمن البضاعة في أي منها على الخمسة جنيهات..

وهناك عشرات يحترفون صناعة القهوة والشاي، ورأس مال الواحد فيهم ليس أكثر من براد شاي وعشة آيلة للسقوط يسكنها القهوجي.. والفقهاء ومقرئي القرآن ومن يصنعون الطعمية ويقفون بها على أبواب الجوامع بعد الصلاة، والقفاصون والقصاصون وصغار اللصوص والحرامية.. كل هؤلاء متوفرون بالمئات والعشرات والحمد لله! إذا خلا منصب خفير تقدم له أكثر من مائة وبذلوا الوساطات والشفاعات، والذي يعمل منهم خولي دودة في موسم نقاوة القطن لا

بد أن أمه دعت له، ومع هذا الضيق الشديد في الرزق، بل يمكن أن يكون من أجل هذا الضيق الشديد في الرزق، فشكاوى بعضهم من بعض لا تنتهي، واللاغات التي تدعي الشروع في القتل والسرقة بإكراه وهتك العرض تنهال على المركز من كفر العزب باستمرار، والجدع هناك طبعاً هو من يكسب القرش الأزيد بلا أي اعتبار للطريقة التي جاء بها القرش. الرجل إذا نخنخ ووفر المليم شاطر، وشيخ الحصة إذا أخذ شلناً أو نص فرنك ليمضي على العرضحال شاطر، حتى العمدة شاطر. لأنه من التجارة في القطن (ثاني جمعة) اسماً، والمسروق من الحقول فعلاً، قد حاز نصاب العمودية.

وعلى هذا لم يكن غريباً إذا ذكرت لأحد من أهل كفر العزب شيئاً عن الجدعنة أو الشجاعة أن يلوي رقبته ويقول لك:

ـ ودي تسوى كام في يوم السوق يا حبيبي..؟

بل هم في الواقع لم يكلفوا خواطرهم، ولم يخرج المئات منهم لتوصيل العروسة في ذلك اليوم إلا وكل منهم يطمع في عشاء الفراخ الفاخر ذي البطاطس وأكوام اللحم المسلوق المغطاة بالأرغفة المخبوزة الطازجة، ولا تحسب الحلويات والفرجة المجانية، ثم من يدري؟ ألا يحتمل أن تفتح لأحدهم ليلة القدر ويظفر بسيجارة مكنة؟

ممكن إذن أن نتصور الاضطراب الشديد الذي اجتاح موكب العزابوة لدى ظهور المارد الأسود، وكيف علت همهمتهم وتقطع طابورهم الطويل وانخلعت الأفئدة وارتفعت الرؤوس تستكشف وتحاول أن تجد مخرجاً، وتتساءل:

ـ مين يتكلم يا ولاد مين؟

ذلك لأنه لم يكن للموكب زعيم أو رئيس، فالعزابوة يكرهون الزعامة لأن كلًّا منهم يريد أن يكون هو الزعيم، ولكن الزعامة هنا محفوفة بالمخاطرة ولهذا لا بد أن يتساءلوا ويتصايحوا:

ـ مين يتكلم يا ولاد مين؟؟.

ورشح بعضهم الشيخ رجب أبو شمعة لا لأنه كان يمتلك ثلاثة أفدنة بأكملها اشتراها سهماً سهماً ودبق ثمنها من حرمان نفسه وأولاده من لبن الجاموسة وبيعه، ولكن لأنه كان أكثرهم حكمة في موقف تعتبر الجرأة فيه نوعاً من الحمق وقلة الأدب.

ولم يقبل الشيخ رجب إلا بعد إلحاح.. بل كاد يصنع عين واعتدالًا.. أي أكثرهم خوفاً، ورجل كهذا تحمد زعامته في الحكمة ويعود وحده الى البلد، ولكن تحت وابل من الدعوات والألقاب والتضرعات قبل، وزعق في الموكب مخاطباً إياه من أوله إلى آخره طالباً السكوت التام. وحين تم له ما أراد لكز حمارته القصيرة ذات اللون البني الذي هو أقرب الى لون فئران الغيط منه الى لون الحمير، وتقدم ممتطياً صهوتها، غير أنه ما كاد يقترب من المارد الأسود وثلته حتى ترجل عنها احتراماً، وتقدم منهم قائلاً بلهجة معجونة بملق العزابوة الأصيل:

ـ دستوركم يا سيادنا.. سلامو عليكم.

ورفع إليه العملاق الأسود عينين يطق منهما الشرر وقال:

ـ لا سلام ولا كلام! حودوا على طول. .

وبلهجة أكثر ملقاً قال الشيخ رجب مدعياً البراءة التامة:

ـ على فين يا سيادتنا؟

ـ أنتم ضيوفنا الليلة. .

ـ ضيوف مين؟. .

ـ ضيوف السنديك بك. . احنا بتوعه وآني عنبر راجله. .

وحاول الشيخ رجب أن يتملص ويتخلص سائلاً الرجل عن رأس الذبيحة التي جرت العادة أن تكون معلقة فوق نبوته، مدعياً أن عدم وجودها يعطيهم الحق في رفض الدعوة. . ولكن الرجل أفهمه بطريقة لا تقبل النقاش أو الجدل أن الذبيحة ذبحت فعلاً وأنهم لا بد أن يعودوا الليلة مهما فعلوا وسواء بالقوة أو بالتي هي أحسن. . ويبدو أن كلامه هذا أثار بعض شبان العزابوة ولم تعجبهم طريقة الشيخ رجب، وأحبوا أن يظهروا شجاعتهم على الأقل أمام نساء بلدهم الموجودات في الموكب، فزمجروا وتصايحوا ورفعوا عصيهم الخيزران استعداداً للمعركة. ولكن الشيخ رجب رفع لهم يداً حاسمة غاضبة ولعن آباءهم جميعاً علامة الزعامة وأسكتهم، فقد كان يعرف حصة أهل بلده من الشجاعة، ويعلم نتيجة أية خناقة قد تنشب مع العزابوة، إذ ما تكاد الخناقة تبدأ حتى يخبط العزباوي من هؤلاء خبطتين فقط ليثبت وجوده ويقيد اسمه في سجل المتشاجرين، ولكن ما يكاد الضرب الحقيقي يشتغل وتصبح الحكاية جداً حتى يطلق ساقيه للريح، وعلى هذا قال للرجل الأسود:

ـ مختصر الكلام . . . انت عايز إيه يا عم؟

ـ تحودوا بالتي هي أحسن .

فقال الشيخ رجب وهو يلكز حمارته :

ـ بس كده؟ . . حاضر . . احنا ضيوفك الليلة يا سيدي ولا تزعل . . حود يا وله انت وهو.

ورفع عنبر العملاق الأسود حاجبيه علامة الدهشة وكأنما فجع بهذا التسليم المطلق بلا قيد ولا شرط . . وهو الذي كان يحلم بخناقة يتسلى ويفخر برواية تفاصيلها أياماً كثيرة ، ولا بد أنه عجب من هؤلاء القوم الذين لا يقيمون للكرامة وزناً، ولكنه على أية حال أمسك بمقود جمل العروسة ومضى ميمماً وجهه شطر العزبة ووراءه ما لا يقل عن خمسمائةمن أهالي كفر العزب ما بين راكب وراجل . . وواضع ثوبه في أسنانه وحامل بلغته تحت إبطه . . أو مفضل أن يمشي بجوار دابته عملاً بالمثل العزباوي المشهور:

ـ هين نفسك ولا تهين بهيمتك .

وأهلّ الموكب الضخم على عزبة السنديك . وخرج البيه بشخصه يتفرج على فرح (الفلاحين) هذا ، وإذا بالموكب ـ لدهشته الشديدة ـ يقف لدى سور حديقته ولا يتزحزح ، والأغرب من هذا أن عنبر خادمه كان يقود الموكب .

وقال عنبر للشيخ رجب :

ـ استنوا انتم هنا واوعوا حد يتحرك .

وتحرك هو داخلاً على سيده دخول طارق بن زياد بعد فتح الأندلس، قائلاً بصوت القائد الظافر:

ـ حودنا العروسة يا سيدي البيك.

ونظر إليه البيك نظره الى مخبول ولم يفهم، وأخيراً بدا عليه أنه تذكر وأن أباه كان قد حدثه عن شيء كهذا. ولكن تلك المسائل كانت في الزمان الغابر في أيامه الأولى وأيام أبيه وجده الأكبر. أيام العز، الأيام التي يسمع أنه كان لديهم فيها ألف وخمسمائة فدان وأربعة آلاف رأس من الغنم. أين هو الآن من تلك الأيام؟ الأرض راحت والعز راح ومنزل الضيوف تهدم والمحصول يرهن لعدة بنوك قبل جمعه وحصاده، ولم يبق من مظاهر المجد القديم إلا عنبر آخر ما تبقى من عبيد العائلة أيام أن كان للعائلة عبيد. وإذا بعنبر الأحمق هذا يحضر له ذلك الجيش من أهالي كفر العزب ليستضيفهم، جيش جائع متهالك كل واحد فيه لا بد قد أجاع نفسه لعشوة الفرح حتى غارت وجنتاه؟

وهكذا نزل البيه شتماً وسباً ولعناً في خادمه، وعنبر مذهول مدهوش من تصرف سيده فطالما حود عرائس له ولأبيه، وطالما فرحوا به وبانتصاراته وجازوه عليها خير الجزاء، وإذا بجزائه هذه المرة علقة؟ الظاهر أن الأسياد فسدوا هم الآخرين كما فسد الزمان وراحت السيادة مع العصر الذي ولى، وإلا فكيف يخاف البيك من تحويد العروسة وكيف لا يفخر؟

وظل البيه يضيق الخناق على خادمه حتى خيره بين أحد أمرين:

إما صرف هؤلاء الناس كما أحضرهم وإما قتله رمياً بالرصاص. ولم يجد عنبر بداً من اختيار الأولى، وعاد وقد تغيرت سحنته وخبا الشرر في عينيه وتدلدلت ملامحه وهو الذي سحب هذه المرة ناعماً للشيخ رجب ولف كفه في ملق كثير محاولاً أن يعتذر، ملقياً الذنب على نفسه ومقسماً بالله العظيم ثلاثاً أن سيده لم يكن له علم بما حدث.

ولكن سيده مين؟ اعتدل الشيخ رجب فوق حمارته وانجعص الى الوارء كما يفعل الأبطال المغاوير، واسترد الخمسمائة من أهالي كفر العزب أنفاسهم الهاربة ووقفوا وراءه ـ ربما لأول مرة في حياتهم ـ وقفة رجل واحد يؤيدونه ويحبذونه مصرين على أنهم ضيوف السنديك بيك تلك الليلة، ما في ذلك كلام أو سلام، وأن كرامتهم لا يمكن أن تسمح بأن يهانوا على تلك الصورة.. هي الحكاية إيه؟ لعب عيال؟.

وانقطع نفس عنبر وهو يجري رائحاً غادياً بين الشيخ رجب وبين البيك حاملاً رأي كل منهما إلى الآخر، مخفياً رأي كل منهما في الآخر آملاً أن تنجح المفاوضات. ولكن المفاوضات لم تنجح. ولما تأكد للبيك أنه ما لم يستضفهم فسيفضحونه في طول البلاد وعرضها وسيضحكون عليه طوب الأرض، قبل الضيافة وأمره إلى الله، وقضى ليلته حائراً واقفاً على أقدامه باحثاً عن الحفة وأطباق وطعام يسد به مئات الأفواه المفتوحة الجائعة.

وكان أول شيء فعله في الصباح أن استغنى عن خدمات عنبر الى الأبد، مفضلاً أن يتنازل عن آخر مظاهر العز ولا الحوجة للدواهي التي تأتي بها تلك المظاهر.

أما العزابوة فبعد أن شربوا قهوة الصباح ورشفوها بمزاج وأشعلوا السجائر أربعة وعشرين قيراطاً، توكلوا على الله وامتطوا ركائبهم واستأنفوا طريقهم الى بلد العريس، ودعواتهم تنهال على الشيخ رجب وحكمته، ومن كان منهم يشك في زعامته آمن وسلم وأصبح له أخلص المخلصين.. وزيادة في التكريم أخروا جمل العروسة وأصروا على أن يجعلوا الشيخ رجب وحمارته على رأس موكبهم.

وما كاد الموكب يبتعد عن عزبة السنديك قليلاً والضحكات والفرقعات الصاعدة من البطون الممتلئة ببلاش تتصاعد منه، حتى برز لهم عند الكوبري المتحرك جماعة من أهل الروضة:

ـ اقف عندك يا جدع انت وهو.. وقفوا.

وتقدم الشيخ رجب مصطنعاً البراءة يسأل، وما كادت كلمة «حودوا» تفلت من فم أكبرهم سناً حتى كان الشيخ رجب قد حود حمارته ناحية البلدةفعلاً، ويده تشير لبقية الركب أن يتبعوه.

ووقعت الروضة في حيص بيص إذ كان عليها لأول مرة أن تستضيف خمسمائة هي التي لا يتعدى أهلها المائتين، وقد حاولوا الاعتذار بقولهم إنهم لم يكونوا على الاستعداد ولكن الشيخ رجب كفاهم مئونة الخجل قائلاً :

ـ الموجود يا جماعة يسد.

* * *

وهكذا ظل ركب العزابوة وعلى رأسهم الشيخ رجب أبو شمعة،

تودعه بلدة لتستقبله بلدة أو عزبة أخرى حتى ولو كـان الذي يعتـرض الـطريق رجـلاً واحـداً، وحتى ولـو كـان قـد قـال كلمتـه على سبيل المجاملة والترحيب لا أكثر ولا أقل.

ولـم يصل الركب الى بلدة العـريس إلا بعد سبعـة أيام قضـاها العزابوة يأكلون ويشربون ويدخنون ويطعمون ركائبهم شعيراً وبرسيمـاً وفولاً.

ومن أيامها اضطر الشراقوة الى تخفيـف حدة كرمهم، فتابوا عن تحويد العرائس وحرموا اعتراض مواكبها.

حادثة شرف

أعتقد أنهم لا يزالون يسمون الحب هناك «العيب». ولا بد أنهم لا يزالون أيضاً يتحرجون عن ذكره علانية، ويتغامزون به وإنما تلمحه في النظرات التائهة الحيرى، وفي وجنات البنات حين تحمـر وتخضر وتنسدل عليها الأجفان.

والعزبة كأي عزبة، لم تكن كبيرة: بضـع عشرات من البيـوت المبنية بحيث تكون ظهورها الى الخارج وأبواب الدور تفتح كلها على حوش داخلي واسع، حيث الساحة الصغيرة التي يقيمون فيها الأفراح ويعلقون العجول المريضة إذا ذبحت لتباع بالأقة وبالكوم. والأحداث في العزبة قليلة ومعروفة.. النهار يبدأ قبل مشرق الشمس وينتهي بعد مغيبها، والمكان المفضل هو عتبة البوابة الكبيرة حيث الهواء البحري وحيث يستحب النوم ساعـة القيالـة ولعب (السيجة). الأحـداث قليلة ومعروفة.. بل تكاد تعرفها حتى قبل أن تقع، وتعـرف أن هذه البنت المفعوصة التي تلعب الحجلة ستكبـر بعد عـدد من السنين وسيصفـو لونها الملبد، ثم يخرطها خراط البنات وتتزوج.. بالتأكيـد واحداً من هؤلاء الصبية الذين يرتدون الجلابيب الممزقة على اللحم ويستحمون

في الترعة وينطون كالقرود المسلسلة من فوق الكوبري .

غير أنه أحياناً، تقع حوادث لا تكون معروفة ولا يمكن التنبؤ بوقوعها، مثل ذلك اليوم الذي ترددت فيه الصرخات في الغيط . . الصرخات الغامضة الغريبة التي ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحياناً فتدوي بطريقة مفاجئة ومرعبة ومستغيثة دون أن تعرف مصدرها، ولكنك لا بد تدرك منها أن شيئاً مهولاً قد وقع، ولا بد حينئذ أن تفيق فتجد نفسك تجري لتنجد أو على الأقل لتعرف الخبر.

غير أنه في تلك المرة لم يكن هناك ما يستدعي النجدة أو المساعدة، بل أكثر من هذا كان العائدون الى العزبة يجدون حرجاً كثيراً حيت تسألهم النساء عما حدث .

ماذا يقولون؟ أيقولون إنهم وجدوا فاطمة في «الذرة» مع غريب؟

ماذا يقولون وفاطمة ليست غريبة وغريب ليس غريباً . . فاطمة أخت فرج وغريب ابن عبدون، والحكاية ليست تائهة، فالعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة . . ولا يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة فقط ولكن كل واحد يعرف عن الآخر أدق دقائقه وأخص أموره، حتى النقود القليلة التي قد يكتنزها أحدهم يعرفون مكانها بالضبط وعددها والطريقة التي يمكن أن تسرق بها . . ولكن أحداً لا يسرق من أحد . هم إذا سرقوا يسرقون من محصول العزبة، وحتى هذه مجرد سرقات صغيرة لا تتعدى ملء عب قطن أو حجر كيزان درة، أو يساهي أحدهم خفير الزراعة وينضح مصرف أرز ويأخذ سمكه له وحده دون أن يورد نصفه للناظر كما جرت العادة .

وفاطمة معـروفة وكـل شيء عنها معـروف، ولم تكن أبداً ذات سيرة خبيثة أو سلوك معوج. كل ما في الأمر أنها حلوة. . أو على وجه أصح كانت أحلى بنت في العـزبة. وليس هـذا هو الـوجه الصـحيـح للمسألة أيضاً فإذا كانت الحلاوة تقاس في الأرياف بـالبياض ففـاطمة كانت سمراء. المسألة لها وجه آخر خاص بفاطمة وحـدها، فلم يكن في استطاعة أحد في العزبة أن يعرف ماذا في هذه البنت بالذات دوناً عن بقية البنات. خدودها صحيح كانت حمراء سمراء شديدة الاحمرار تظن معه أنها لا بد تفطر كل يوم بعسل نحل وتتعشى بفراخ وحمـام، ولكنـك تـدهش إذا عـرفت أنه احمـرار قد صنـع من صحـون المش والفلفل المخلل وعروق البصل والفجل والسمك الصغير المحروق في الفرن. وعيونها كانت سوداء غامقة السواد، ذاك السواد اللامع الذي لا تراه إلا مشعاً ومضيئاً ودائم الحركة لا يستقر. . العيون التي لا تحتمل أن تنظر إليها أو تنظر إليك لحظة. وحتى إذا قلنا إن شعرها كان أسود ناعماً، وثـوبها الحبـر الواسـع الذي تـرتديـه لا يفلح في إخفاء بـروز صدرها ونحول وسطها وامتلاء ساقيها، حتى إذا قلنا هذا قتلنا فاطمـة قتلاً. فآخـر ما كـان مهماً فيهـا هو جسـدها. أهم من هـذا كله كانت أنوثتها. . أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق، أنـوثة لا تـدري من أين تنبع وأين تكمن. ابتسامتها ابتسامة أنثى، لفتتها الى الخلف لفتة أنثى. الطريقة التي تخبط بها على كتف زميلتها، إطراقها وهي تدعو أحد المارة ليساعدها في رفع بلاص الماء على رأسها، طريقة قضمها للقمة وإمساكها للرغيف، القلة في يدها، الماء حين ينسكب في فمها

نصف المفتوح، الزاوية التي تميل بها الكرة، قرطتها الخضراء الكرومبية الوحيدة حين تتعصب بها معوجة قليلاً الى اليمين مبينة بعض شعرها المسبسب الأسود، غمازتاها حين تظهران فجأة وتختفيان فجأة وتحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغر، ضحكتها وكيف تبدأ ثم بقاياها حين تنتهي، صوتها المصنوع من أنثوية سائلة وكيف تخرجه بمقدار وكيف أحياناً الى قطرات. . كل قطرة كلمة أو نبرة. . نبرة أنثوية مصفاة تكفي وحدها لتروي ظمأ عشرات الرجال.

وكانت فاطمة تثير الرجال، أو على وجه الدقة تثير الرجولة في الرجال. . وكأنما خلقت لتثير الرجولة في الرجال، حتى الأطفال. كانت تثير فيهم الرجولة الكامنة فيهم فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة في تعرية أنفسهم أمامها، وكثيراً ما كان بعضهم يقدم على تنفيذ الرغبة فيرفع ذيل جلبابه ويتعمد المبالغة في رفعه. ولا يفلح ضرب أو زجر في نهيهم عن إتيان هذا الأمر فهم أنفسهم لا يدرون لماذا يعرون أنفسهم إذا رأوها. .

لذلك ما كان أشد محنة فرج! كان فرج أخاها وكان مزارعاً وحدانياً فقيراً لا يملك سوى بقرته، ولا يعطيه الناظر إلا ثلاثة فدادين ليزرعها. . ومحاولاته كل عام ليزيد حصته نصف فدان كانت تبوء بالفشل الذريع. ومع هذا كان فرج رجلاً في عز نعنعة رجولته يأكل في الطقة ثلاثة أرغفة إن وجدت، ويأتي على قلة الماء في نفس واحد، وسمانة رجله في حجم الفخذ، وكان حائراً منغص العيش والسبب أخته، فقد كانت تحيا معه ومع امرأته، وامرأته ذات الأنف الفاطس والوجه الأصفر كانت طيبة وإن لم تكن طيبتها تمنعها أحياناً من لفت

نظر فرج الى صدر أخته الذي تدعي أنها تتعمد هـزه حين تمشي، أو الى الكحل الذي لا يفارق عينيها، واللبان الذي توصي عليه كل ذاهب الى السوق. ولم يكن فرج في حاجة الى لفت النظر إذ هو يرى ويسمع ويفـور دمه كلمـا رأى أو سمع، ولم يكن يستطيع تأنيب فـاطمة على شيء. . كـانت ترتـدي نفس ما يـرتديـه البنات وتتكحـل كمـا يفعلن وتمضغ اللبان كمـا يمضغن، ولم يلمحها أحـد في موقف مـريب ولا ضبـطت مرة متلبسـة بخطأ، وحتى حين ادعت زوجتـه أن السبب في احمرار وجنتيها أنها تحكهما بالورق الأحمر الذي تصنع منه صنـاديق الدخان الفـرط، بلل عمامته يومها بلعابه وظل يـدعك وجنتي فـاطمة حتى كاد يدميهما ولم تحمر العمامة ولا حـدث لها شيء. ولم يفعـل شيئاً يومها أكثر من أن صوب إليها نظراته المحمومة المملوءة بـالشك وراح يعنفها ويزجرها وفاطمة لا تعرف سبباً لنظراته تلك. فهي تعرف العيب تماماً وطالما حـدثها فـرج عنه وعنفهـا. . وهي لا تفعل العيب وليس في نيتها أن تفعله بل هي تفضل الموت على فعله، كـل ما في الأمر أنها كانت تحس بالناس يدللونها ويحبونها فكانت تفعل كما يفعل أي محبوب. . تتصرف بحرية وبساطة ولا تعقيد. إذا أرادت أن تبتسم ابتسمت وإذا ابتسمت كـان هذا عن رغبـة حقيقية في الابتسـام، وإذا أرادت أن تضحك ضحكت وخرج ضحكهـا بريئـاً نابعـاً من القلب. وكـانت تعرف أن النـاس يحبون جمـالها فكـانت تحـرص على هـذا الجمال فلا تخرج من عتبة دارهم بوجه غيـر مغسول أو بشعـر مشعث منكوش، وإذا اشتغلت في الغيط لبست الجوارب التي تقترضها من أم

جورج زوجة الناظر والتي تصنعها على هيئة قفازات تقي بها يديها من الأفرع وحز الشوك والأغصان. وإذا تكلمت حرصت على أن يخرج كلامها جميلاً ليس فيه كلمة نابية أو تعبير قبيح. والناس جميعاً أحبابها وأصحابها، كلهم يحبونها وهي تحبهم كلهم، ويدللونها وتتدلل عليهم، ويريدونها غير عابسة فلا تعبس، ويريدونها ضاحكة فتضحك وكل أملها أن يضحكوا لضحكها ويسعدوا بابتسامتها ودلالها. فلماذا يعنفها أخوها ويزجرها؟ ولماذا هذه النظرات المشبعة بالسم منه؟

والحقيقة أن فرج لم يكن يدري لماذا.. كل ما في الأمر أنه مسؤول عن أخته وأنوثتها الصارخة، وكل عين تمتد الى أخته إنماتغور في لحمه هو وتدميه، وكل أمله أن تتزوج فاطمة وتنزاح بمسؤوليتها بعيداً عنه، بل بعيداً عن العزبة كلها. ولكن فاطمة لم تكن تتزوج فخطابها قليلون بل تكاد تكون بلا خطاب، فمن هو المجنون الذي يجرؤ على امتلاك كل تلك الأنوثة وحده؟ وإذا تزوج ماذا يفعل بها والناس في العزبة وما جاورها لا يتزوجون ليستمتعوا بالجمال ويقيموا حوله الأسوار، إذ هم أولاً لا يحيون لكي يستمتعوا بالحياة.. هم يحيون فقط لكي يبقوا أحياء، ويتزوجون لكي تعمل الزوجة وتنجب أولاداً يعملون. ولهذا ففاطمة باقية بلا خطاب.

والعزبة مليئة بالرجال والشباب، وفاطمة كأي بنت فيها تعمل كالرجال تماماً وتسرح الى الغيط وتروح مع الأذان، وهي ـ دوناً عن كل النساء والبنات ـ تثير الزوابع أينما حلت، ولهذا فإن قلب فرج مملوء بالخوف.. وخوفه يجعله يضحك إذ هو الذي يملأ العزبة

برجولته الفارعة وطيبته ضحكاً، وهو الذي يملؤها حياة.. يبرطع وراء الرجال ويهزر معهم رغماً عنهم ويعلمهم التنازل عن وقارهم الكاذب والنزول له في «الباط»، ويسابق الشبان في العوم، ويخطف القفف من فوق رؤوس النساء حتى أكثرهن تحفظاً ويجري ويضحك ولا تشكو النساء، وفي الأفراح يلبس جلبابه الأبيض ويلف على رأسه الحزام السكروتة ويحلق شعره وذقنه بالمكنة الزيرو ويرقص للعريس، وينقط للعروسة وللناظر وللخولي وأهل العزبة، ينقط بالفلوس التي باع بها قطناً سرقه من المخزن أو جوالاً اختلسه وهو في طريقه الى الشحن، ويصرف ويفنجر ويملأ العزبة صخباً وضجيجاً. والكل رجالاً ونساء وشباباً يحبونه ويعزونه وتعتمل أشياء داخل صدورهم وأشياء، فأخته تكاد تثير طوب الأرض فتنة وأنوثة والرغبات في صدورهم تكاد تتفجر، وفرج يأسرهم بطيبته وصداقته وضحكه، فإذا مرت فاطمة خفضوا البصر، وإذا لم يحتمل أحدهم وتأوه لكزه جاره.

ولذلك ظلت فاطمة كالفاكهة الناضجة المحرمة لا يقربها أحد ولا أحد يدع الآخر يقترب منها، والقلوب تذوب حسرة، وأعصاب الرجال وحتى العواجيز ترتجف رغبة كلما مرت، ولكن فرج دائماً هناك لا بد أن يتردد في أذنك صدى ضحكة عريضة تأتيك من بعيد وتذكرك أنه هناك وأنه عيب، وتعود حينئذ الى صوابك فتذهب لتخطف العصر أو تتمشى لتشرب شاياً عند الدكان.

واليوم ضبطوها في الدرة مع غريب.

الحقيقة أنها لم تضبط يومها فقط، ما أكثر ما ضبطت فاطمة في الدرة ووراء اسطبل الوسية وتحت ماكينة الدراس مع رجال، ولكنه ضبط مع إيقاف التنفيذ ـ فالأيام كانت تثبت أنها شائعات.. مجرد شائعات كان لا بد أن تنطلق وراء فاطمة إذا مرت كما تنطلق الحسرات. وسكان العزبة لم يكونوا أشراراً ولا حاقدين ـ كانوا في الواقع أناساً طيبين يحرص كل منهم على الآخر مثل حرصه على نفسه، حتى أوزهم كان طيباً لا خبث فيه تخرج جماعته من كل بيت في الصباح مكاكية مزغردة، وتتجمع قريباً من الجرن وتأخذ طريقها الى الترعة في قافلة ضخمة، ويظل الأوز يلعب ويستحم ويعلم أولاده العوم حتى تثوب الشمس الى المغيب فتأخذ مئات الأوزات طريقها الى العزبة، تدخل من البوابة ويتوجه كل أوز الى بيته من تلقاء نفسه، وحتى لو أخطأت أوزة غريرة طريقها وذهبت مع أوزة الجارة، فما أسرع ما تجد بابك تطرقه الجارة ومعها الأوزة الضالة حتى قبل أن تكتشف أنت أنها ضلت وضاعت.

وأمام فاطمة، أهل العزبة رعايا جمالها مدلهون بحبها، إذا كان الفرح حظيت باهتمام يفوق ما تحظى به العروسة. ولعل هذا كان السبب في خوفهم الشديد على فاطمة، كانوا خائفين عليها من العيب وكأنهم لا يصدقون أن أنثى جميلة مثلها ممكن أن توجد ولا ترتكب العيب. بل إنهم من كثرة خوفهم عليها حددوا الشخص الذي يمكنه أن يرتكب العيب مع فاطمة.. حددوا غريب بالذات، وغريب كان ابن عبدون، وعبدون مع أنه كبير في السن إلا أن أحداً لا يقول له يا

عم . . فقد كان رجلاً عصبي المزاج يدمن «المضغة» والقهوة السادة، وكلمة والثانية تجده طابقاً في خنـاقك. حتى النـاظر كـان يخاف منـه ومن خلقـه الضيق ويتجنب إثارتـه. وعمره مـا قال لأحـد كلمـة حلوة ولكن شـطارته كلهـا تظهـر إذا حلت بالعـزبة كـارثة مـا، حينئـذ يقف كغراب البين على الترعة وقد أمسك بذيل جلبابه من الخلف ويمضي يشتم ويسب ويبصق مضغته ويشبع أهل القرية لوماً وتأنيباً وكأنهم هم المسؤولـون عن وقوع الكـارثة. غيـر أنهم كانـوا لا يقيمون لعصبيتـه وسبابه وزناً فقد كانوا يعرفون أنـه من الداخـل أبيض، فقط طبعه هـو الذي يغلب.

أما ابنه غريب فرجـال العزبـة كانـوا لا يرتـاحون إليـه وكذلـك نساؤها، فقد كان ولـداً قليل الأدب فـارغ العين يربي قصـة من شعره ويظهرها مسبسبة من طاقيته الصـوف البيضاء. وسبب ضيق النـاس به أنـه كان يغـوي النساء، والأدهى من هـذا أنه كـان ينجح في الإيقـاع بهن . . وفي هذا لم يكن يحترم جاراً ولا زوجة خال. كان أسمر فاتح السمـرة وبالـرغم من قبح خلقـة أبيه كـان وسيماً لا تمـل العين رؤية ملامحه، وله طريقة لذيذة في نطق الكلام مع أنه كان قليـل الكلام. كان صوته يخرج غليظاً بريئاً فرحان وكأنما هو مراهق حديث البلوغ. ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف . . كان ولـداً حدقـاً معتداً بنفسه سريع الفهم فهلوياً نظيف الجلباب يعمل كالمكنـة طول النهـار ويغني المواويل، وعنده عدة شـاي ويعزم ويشـدد في العزومـة. فإذا جـاء الليل لا يحتمـل المبيت في دراهم ويؤثر النـوم فوق كـومـة تبن

الـوسية العـالية حيث يـدفن نفسـه، ويـظل يتلمس أفخـاذه وصـدره، ويحكي لأصدقائـه الذين يبيتـون معه. . يحكي لهم عن أمور النسـاء التي هم أجهـل الجهال بهـا والذي هـو فيها صـاحب الباع الـطويل. وكان جريئـاً لا يخجل وعينـه فارغـة. . أول ما ينـظر الى المرأة يبـدأ بالنظر الى سيقانها. ونظراته كانت تربك ففيها لمعة سخريـة دائمة أو لعلها ضحكة لم تنطلق. كانت نـظراته هكـذا رغماً عنـه وليس له يـد فيها، ولكن المرأة كانت تحس إذا نظر إليها هكذا أنـه يفهم ما يـدور بخلدها، فإذا كـان ما يـدور بخلدها عيبـاً وهذا هـو الحال في معـظم الأحيـان ارتبكت وخيل إليهـا أنه عـراهـا، وتحـاول حينئـذ أن تغـطي نفسها فترتبك أكثر، ومن كثـرة ارتباكهـا تقع ويكسبـه وقوعهـا اعتداداً أكثر، فتزداد لمعة الجرأة الساخرة في عينيه ويزداد عدد من يقعن له.

ولا بد أن غريب كان فيه شيء غريب، شيء لم يكن يوجد في بقية الرجال. لعله ذكورة زائدة أو لعله شيء آخر، فقـد كان يكفي أن ترى المرأة من نسـاء العزبـة قفاه أو (دكـة) سرواله وهو يعمـل حتى تشهق وكأنها رأت رجـلاً عاريـاً. . ولم يكن يبالي في وسـائله. . كل الـطرق الى المرأة كـانت عنده حـلالاً. في الفرح يحشـر نفسه بينهن فيجمدهن أمامه. . وفي ماكينة الطحين كل شطارتـه أن يحمل القفف للنسـاء ويدق لهن القـادوس. حتى المريضـة لم يكن يعتقها، ولـولا خوفه من بنـدقية أبـو جورج النـاظر لحـاول في الليل زيـارة الست أم جورج، وكان الناس إذا اشتكوا لعبـدون أبيه ثـار في وجوههم ولخبط خلقته وقال لهم بفظاظة:

ـ حــداكم إيـاه. آني متبــري منـه. اعملوا فيــه اللي تقـدروا تعملوه..

كـانوا في العـادة لا يستطيعـون أن يفعلوا شيئاً.. فغـريب وإن كان قصير القامة إلا أنه كان قوياً كفحل الوسية يستطيع أن يرفع ترس الساقية الحديد بيد واحدة ويقطم رقبة الرجل باليد الأخرى، كل هـذا وعيناه تلمعان نفس لمعتها الساخرة.

كان هو أكثر الذكور ذكورة، وكانت فاطمة أكثر الإنـاث أنوثـة، ولهذا كان من الطبيعي جداً أن تقرن الشائعـات بينهما. ومـع هذا مـا كان أبعد ما بينهما.. ففاطمة كانت تتجنبه لشهرته بقلة الأدب وفـراغ العين وكان هو يخافها عن بعـد، فهو وإن كـان ند لخـادمة النـاظر أو شفيعة الأرملة أم العيال، ففاطمة ليست واحدة منهن. إنها فـاطمة.. كل النساء كوم وهي كوم.

كـان أحيانـاً يزعـم للشبـان الغارقين حـوله في التبن أنهـا تحبـه وترسل له المراسيل، ولكنه كان أول الساخـطين على نفسه من أجـل مزاعمه تلك. كان يعمل في الغيط كالرهوان ويكتسح النساء بنظراتـه وذكورته فتخر له النساء.. وزينة بنات العزبـة في الأفراح والأسـواق، ولكن أمام فاطمة كان عاجزاً كل العجز، وفاطمة من ناحيته خائفة كل الخوف. حتى إذا قال لها العواف ودق قلبه آلاف الدقات وهو يقـولها كان ردها يأتي مضغوطاً لا عافية فيه، هي خائفة منه خوفها من العيب وهـو خائف منهـا خوفـه من العجز، والعـزبـة سـادرة في إقـرانـه بهـا وإقرانها به، وفرج سادر في ضحكه وذر صـداقته في العيـون، وسادر

في اكتساب محبة غريب حيث يكمن خوفه الأكبر، وكل هذا يجري من تحت الى تحت أما في الظاهر فالناس لبعضها والعزبة صغيرة والناس فيها عائلة واحدة كبيرة، وبيت عبدون ثالث بيت الى يمين بيت فرج، وحتى حوادث ضياع الأوز قليلة.

ولكنهم كانوا جميعاً يتوقعون دائماً أن يحدث شيء ما، شيء لا بد أن يحدث.. مثل أن يستيقظوا في منتصف ليلة على طلقة! أو تأتيهم من الغيطان صرخة تقول: ضبطوها في الدرة مع غريب.

* * *

وقد حدث..

والغريب أن أحداً لم يفاجأ بما حدث ولم يستنكره.. كلهم أخذوا الأمر على أنه شيء مسلم به، إن كان بالأمس لم يحدث فها هو اليوم قد حدث. حتى أطفال العزبة ـ وللأطفال مجتمعهم هم الآخرين وإشاعاتهم وآراؤهم الصغيرة في الناس الكبار ـ حتى هؤلاء أحسوا أن فاطمة قد ارتكبت أخيراً ذلك الشيء المحرم الذي طالما حذرهم منه الآباء والأمهات.. ارتكبت العيب.

وعلى هذا حين وجدوا فرج قادماً من الغيط من بعيد، ورأوا عمامته مخلوعة ورأسه عارياً لأول مرة وصديريه مفتوحاً وسرواله ملطخاً ببقع الطين بينما وجهه مصفر وشاربه يرتجف وعيناه في لون الدم.. حين رأوه قادماً من بعيد هكذا انزووا في ظل حائط الاسطبل وهم يكادون يحسون بفطرتهم هول الكارثة التي حاقت به. وحين

دلف من بـوابة العـزبة سـاروا وراءه عن بعد يتـابعونـه صـامتين حتى وجدوه يدخل داره وينهر ابنـه الذي كـان يخبط على صفيحة صـدئة، ثم وهـو يطلب من امـرأته في صـوت خطيـر لا يكاد يسمـع أن تأتيـه بـالجوزة، ثم وهـو يتناولهـا ويعب من دخانهـا عبـاً وينفث من صـدره سحباً كثيفة تصدر عن الفرن المبلل بالأحطاب.

وحـين بـدأ بـعض الـرجـال يتـسللون إلـى الـدار تشجـع الأطفال وتسللوا هم الآخرين، ولكنهم وقفوا قريبـاً من العتبة يـرمقون مـا يـدور في الـداخـل خـائفين. ولم يكن يـدور في الـداخـل شيء يخيف. . كـان فرج جـالساً أصفـر لا يتكلم يـرص كـراسي الـدخـان ويشرب. وكان الرجال حوله ساكتين لا يعرفـون ماذا يقـولون، وحتى إذا تململ أحدهم وأهاب به ضميره أن يقول شيئاً يخفف به من حـدة الهول فإن فرج كان يمد له غابة الجـوزة ليشرب ويسكت، فـالموقف ليس في حاجة إلى كلام. فأخيـراً جاء اليـوم الذي تـوقعه فـرج وظل طول عمره يتوقعه. . أخيراً حدث الشيء الذي كثيراً ما فكر فيه وغلى الدم في عروقه وهو يفكر فيه. كان كلما رأى جسد أختـه يتلوى في الثوب الأسود الواسع المهلهل، أو كلمـا رأى قطعـة من جسدهـا ظاهـرة من ثقب الثـوب، كلما رآهـا تضحك أو تتكلم أو حتى تـأكل كـان يحس بصدره يضيق فجأة ويختنق فيصوب إليها نظرات كالمسامير المحمية، أو يضحـك ضحكه الـواسع العـريض الذي لا بـد تلمح فيـه خـوفـه الـرهيب من شيء لا بد أن يحـدث. بل كثيـراً مـا حسبهـا بينـه وبين نفسه. . ترى ماذا يفعل لو حدث لا قدر الله أن. . . ؟

وكان شعره يقف كلما حسبها ويعود ينظر الى فاطمة نظرات تغور بها في سابع الأرض، وها هو الحادث قد حدث وأصبح عليه الآن أن يأخذ موقف الرجل الأخ، عليه الآن أن يقتلها ويقتل غريب. يقتل فاطمة أخته التي حملها وهو يعدي بها المصارف حين كانت صغيرة والتي قالت له أمه وهي تموت: وصيتك فاطمة يا فرج، ويقتل غريب.. الكلب الذي آواه وسقاه على حسابه واحتضنه، والذي طالما توقع أن يخونه وقد خانه..

أجل! الموقف ليس في حاجة الى كلام.. إنه في حاجة الى دم. كل ما في الأمر أنه لا بد من التثبت حتى لا تلتف خطيئتهما حول رقبته. إنه قادم على إضاعتهما وإضاعة نفسه وامرأته وأولاده فلا بد أولاً أن يتأكد، فليعب الدخان ويسكت ولينتظر قبل أن يمسك السكين. والقرار بارد لا رحمة فيه ولا أمل.. ففرج من أهل العزب وأهل العزب متهمون أنهم متساهلون في أخلاقهم عن أهل القرى، ولكنه سيريهم أن أهل العزب لهم هم الآخرين أصول وأنهم أعدى أعداء العيب..

أما فاطمة فسرعان ما هلت من بعيد على العزبة وحولها سرب من نسائها وبناتها في أثوابهن القديمة السوداء ورقعهن الملتفة حول رؤوسهن، مكونات كتلة غامقة من السواد لها عشرات الأذرع والرؤوس تتحرك صوب العزبة في تصميم خطير وتثير سحابة واطئة من الغبار.

وجرى الأطفال يستقبلون الموكب.. كانت فاطمة في الوسط

وكـان وجهها أبيض. لأول مـرة انقلبت سمـرتهـا الجميلة الى بيـاض شـاحب. ولم تكن تبدو فـاتنة كعـادتها، وكـانت تعقد رأسهـا بشالهـا الأسـود كالحـزانى ومـلامحهـا لا تتحـرك وكـأنمـا هي ميتـة أو حـالاً ستموت.

وحدثت ضجة لدى اقتراب الموكب من العزبـة وراحت النسوة يتناقشن في أصوات رفيعة حادة كمـا يتناقش الـرجال، والبعض يشيـر بتحويدها على بيت الخولي بينما الأخريات يتحدثن عن الأصول وعن أن مكانها الطبيعي هو بيت أخيهـا. وحدث الشـد والجذب والصـراع وأخيراً أدخلنها في بيت الخولي القائم في ركن العزبة، وبقي الأطفال في الخارج ينتظرون.

أما غريب فقد قالوا إنه طفش واختفى في المـزارع وإنه قـد لا يعود.

ولم يكن أحد في العزبة يدري ما يحدث بـالضبط.. كان جـو العزبة قد تعكر فجـأة ولم يعد يـرى في جوهـا العكر شيئـاً. الرجـال جميعاً كانوا صامتين، والنساء دعواتهن كانت تنهال على غريب ابتداء من يجيله ويحط عليـه الى طلبهن الملحّ من الله أن يختصـه بـداء لا يبرأ منه. ولكن حتى دعوات النساء الرفيعة هذه لم تستطع أن تحـرك قليلاً أو كثيراً من الوجوم الثقيل الذي حط على العزبة وكل من فيها، الوجوم الذي جعل كلابها تكف عن النباح.

وفي بيت الخولي كانت الحلقة مستحكمة حول فاطمـة والنساء ينهلن عليهـا بالأسئلة، وطبعـاً قبـل أن يسـألنهـا كن واثقـات أنهن لن يصدقن شيئاً مما تقول.

قالت إنها كانت ذاهبة تحمل الفطار الى أخيها فرج في الغيط، وحين مرت على القناية الكائنة في حقول الذرة خرج لها غريب على حين بغتة وحاول أن يمسك يدها ويجذبها فقاومت وصرخت. وتسكت فاطمة عن حديثها التائه وتستحثها النسوة على المضي، فتقول إن الناس جاءوا على صراخها وهرب غريب. ولكنهن لا يقتنعن ويطلبن المزيد فتقول لا مزيد. فيهززن رؤوسهن محاولات أن يترجمن حكاية اليد الممسوكة هذه بكل ما يتسع له خيالهن، بينما حمى لا ترحم قد ركبت كل واحدة فيهن لتعرف ما قد جرى وتتأكد. وكلما سكتت فاطمة. . وكلما شحب وجهها وبهت ازدادت حدة الحمى واشتدت. حتى الرجال الجالسون حول فرج بعيداً عن فاطمة وحلقتها كأنما أصيبوا هم الآخرين بنوع خفي من تلك الحمى تلمحه في كلمة خارجة من فم طيب تقول:

- صبركم بالله يا جماعة. . ما يمكن ما فيش حاجة حصلت.

* * *

وشيئاً فشيئاً بدأ الشيء الذي حاول الجميع كتمانه قدر طاقتهم يظهر وكأن سهم الله قد نفذ، الأذهان كلها كانت معبأة ومهيأة ومتوقعة كلهاأنيحدث ما حدث:إذا انفرد رجل أي رجل بفاطمة فعليه العوض فيها فما بالك والذي انفرد بها غريب؟ من يعمل هنا حساباً لفاطمة أو لرأيها والمقاومة التي قد تبديها؟ إذا انفردت بغريب انتهى كل شيء. والمهم الآن هو التأكد من أن كل شيء حقيقة قد انتهى. حتى فرج. وهو يقرأ ما يعتمل في ضمائر الناس الخفية كان هو الآخر يريد أن

يعرف النتيجة، لا يعرفها ولكن ليتأكد أن فاطمة حقيقة لم تعد أخته وأنه أصبح حراً يستطيع أن يفعل بها ما يشاء.

والنساء ـ ويالغرابة هذا ـ أكثر جرأة في هذه الأمور من الرجال، ولذلك ما أسرع ما قالوها لأنفسهن ولزوجة فرج التي كانت قد تركت الدار وذهبت تعدد على فاطمة وتبكي، ولعمتها. وحين قالوا لفاطمة نفسها غضب وجهها وبهت بشدة وارتجفت فتحات أنفها وصدرت عن عينيها دمعات قليلة، أقل من محتويات الليمونة إذا عصرتها وهي خضراء، وصرخت فيهن أن شيئاً مثل هذا لا يمكن أن يحدث، وأنه والمصحف الشريف لم يلمسها. فقلن لها:

ـ ما دام خايفة من الكشف يبقى لازم حصل حاجة.

ومرة واحدة امتلأت خدود فاطمة بدفقة دم ولم تستطع النطق، هي التي كانت تظن نفسها ويؤكد لها الناس أنها لا تعرف معنى الخجل.

ولو أن هذا حدث في قرية لحاول الأهل أن يستروا على ابنتهم.. ولكن الأمر يحدث في عزبة، الكل يعرف كل شيء عن الكل ولا داعي للإخفاء. وهكذا أصبح هم العزبة من صغيرها لكبيرها أن تعرف إن كانت فاطمة قد جرى لها ما لا بد أن كان سيجرى لها. وداخت فاطمة حتى أنهم رشوا على وجهها ماء وشمموها بصلة. داخت من هول المسألة ومن إحساسها بأنها متهمة بأعيب عيب وأن جميع أهل العزبة يناقشون أعز خصوصياتها هي الأنثى الملكة الحلوة،

يناقشونه عياناً وبياناً وعلى مرأى ومسمع من أخيها وأهلها، وكل هؤلاء الذين كانوا يحبونها وتحبهم ويدللونها وتتدلل عليهم.

وطلبت من حلقة النساء أن يرحمنها.

وسكتن جميعاً ورحن يرقبنها بعيون ذابلة كان قد غادرها الشك وامتلأت بيقين كالعيون.. ذابل وحزين.

وحينئذ قالت فاطمة بوجه جامد متحجر بينما دفقة الدم التي تصاعدت إلى وجهها تنسحب وتسقط إلى أقدامها قالت:

ـ أنا مستعدة.

وفي تلك اللحظة كان فرج قد داخ من كثرة شرب المعسل على الريق، وكان رأسه منكساً ويده تسند جبهته ولولا أنه رجل لحسب الناس أنه أرملة تبكي وتنتحب.

ولم يكن في العزبة من يفهم في هذه الأمور إلا صابحة الماشطة وهي لم تكن ماشطة محترفة. كانت تمتلك ماكينة خياطة قديمة تدار باليد وكانت تخيط أثواب النساء والرجال على حد سواء. وكانت متقدمة في السن ولكنها تبدو صغيرة ووجهها أبيض وشكلها طيب حنون كشكل أي أم، ولكنها حين تتكلم يفضح صوتها ما تخفيه ملامحها فتحس أنها امرأة مجربة عركت الحياة بنسائها ورجالها على حد سواء.. وحينئذ لا تطمئن إليها.

وحين أبدت فاطمة استعدادها كان مفروضاً أن يبعثن في طلب صابحة الماشطة ولكنهن ترددن. فهن يردن معرفة الحقيقة.. وصحيح أن صابحة تفهم في هذه الأمور وستعرف حتماً كل شيء ولكنها قد لا

تقول الحقيقة إذ هي متهمة في نظر الرجال والنساء وحتى الأطفال. فهي صحيح الخياطة الوحيدة في العزبة وهي التي تفصل للجميع أثوابهم، إلا أن مسألة وجودك في منزلها حتى ولو رآك الناس وأنت تقيس الجلباب مسألة لا يستريح لها كل من يراك، إذ من المعروف أن صابحة ليس لديها مانع من أن تصنع من نفسها وبيتها ستاراً قد يلتقي وراءه الرجل بالمرأة حيث هناك سبب وجيه لوجود كليهما معاً، ولكن أحداً لم ير بعينيه شيئاً. وقد يكون هذا صحيحاً وقد يكون مجرد إشاعات باطلة، ولكن الثابت أن صابحة فيها شك وممكن أن تعرف ولا تقول، وممكن أن تقول خلاف ما تعرف.

وقالت امرأة فرج:

- ما فيش إلا الست أم جورج.

ووافقت النساء في الحال.. فأم جورج هي الست الوحيدة في العزبة، وهي أيضاً الوحيدة المتعلمة التي تجيد القراءة والكتابة. ثم إنها من البندر ولا بد أن أهل البنادر يعرفون كل ما لا يعرف فيه أهل العزب والقرى والفلاحين.

وتدافع الأطفال حول الموكب ووراءه حين خرج من بيت الخولي في طريقه إلى بيت الناظر، ومضى الموكب يتعثر في حزنه وحماسه في طرقات العزبة المليئة بأكوام الأتربة وقش الأرز، والدنيا نهار والشمس قريبة من الأرض منكسة.. وفاطمة في الوسط لا يزال وجهها متحجراً وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها، كلما خطت خطوة أحست أنها تطؤه وتطأ معه كل خجلها

العذري وكل أحاسيسها الحلوة، أيام كانت طفلة وأيام كبرت وأيام كانت تغني في الأفراح وتحلم بأن يكون لها فرح وزفة وجلوة وليلة حنة حيث يترقب الجميع خروجها ترقبهم للملكة، واليوم هم يترقبون خروجها مئات العيون تنظر لها وتحملق فيها، مئات.. لا بل آلاف، الدنيا كلها عيون مفتوحة كالفناجيل لا تنظر إليها وإنما تنظر إلى أخص خصائصها بلا حياء وبوحشية، وتخترقه وتهتك شرفها ويسيل دمها ويقطر لدى كل خطوة تخطوها ولدى كل حجر تتعثر فيه وهي حافية عارية ذليلة لا يرحمها أحد.

وحاولت صاحبتها حكمت أن تجذب الشاش فوق وجهها وتغطيه، ولكن فاطمة أزاحت الشاش كاشفة وجهها. ما فائدة إخفاء الوجه وجسدها كله عريان؟

والموكب الحزين المتحمس ذو عشرات الأذرع والرءوس يمضي ووراءه ذيل من الأطفال والكلاب الجائعة، يمضي ويثير سحب غبار، ويشتت قوافل الأوز البيضاء، ويطير العصافير والحمام آخذاً طريقه إلى بيت الناظر.

* * *

في ذلك الوقت كان عم ضرغام خفير الجرن يجعجع ولا أحد يستمع إليه، فالناس قد تعودوا على جعجعته.. كان هو الصعيدي الوحيد في العزبة ومن يوم أن جاء وهو يخفر الجرن. وتعدى السبعين وهو لا يزال يخفره، رأسه ضخم أسود وملامحه غليظة دائمة التكشير وشاربه الأبيض طويل غزير كشوارب الكلاب وشعر رأسه أكرت أبيض، وعرقه يسيل على الدوام بطريقة تجعل وجهه الأسود

دائم اللمعان وكأنما يعرق زيتاً. وكان لا يتكلم إلا جعجعة لا يفهمها أحد وكأنها هبهبة كلب، ولا يجعجع إلا إذا اقترب أحد من الجرن حتى ولو بحسن نية، وقد عاش في العزبة ثلاثين عاماً لا يعرف أحداً ولا يأخذ على أحد. الكل يعرف اسمه وهو لا يعرف أي اسم، كل ما هنالك إذا كان الواحد منهم بعيداً عن الجرن فليس له شأن به، أما إذا اقترب أحد جعجع له حتى يبتعد.

ولم تنقطع جعجعة عم ضرغام فقد كان يجعجع لغريب. كان غريب قد عاد من هروبه واختبأ في «حلة» الذرة في الجرن ليرقب عن كثب ما يدور في العزبة ويتنسم أخبار فعلته الشنعاء ووجهه الأسمر قد أسود وطاقيته قد كبسها فوق رأسه بطريقة لا تظهر معها (قصته) وهو خائف جاد نادم متوجس وكأنما قد أفاق لنفسه بعد غفوة سنين، وأدرك أن قلة أدبه وفراغ عينه وغوايته للنساء كانت عيباً ما بعده عيب. ولمح فاطمة وموكبها وهو في طريقه إلى بيت الناظر وازداد وجهه سواداً، وبالغ في إخفاء نفسه داخل كومة الذرة الحطب وكف عن النظر. .

كان من فرط خوفه من فاطمة وبعدها في نظره قد ازدادت رغبته فيها، وكلما ازدادت رغبته ازداد بعدها عنه واستحالة وصوله إليها. ولم يكن يريد بها شراً ولم يكن يريد منها قليلاً أو كثيراً. كل مناه أن يقول لها العواف مرة فترد عليه بلهجة يحس معها أنها ترد عليه. . عليه هو غريب، ولكنها لم تكن تفعل، وكان يعزي نفسه بإيقاع نساء أكثر ومع هذا يزداد رغبة في أن ينال من فاطمة كلمة أو نظرة أو حتى لفتة تلقيها إليه عبر الكتف أو من تحت ثقل المقطف، ولم تكن تلك أول

مرة ينتظرها فيها غريب وهي في طريقها إلى غيط أخيها حاملة المشنة وفيها الإفطار تخب في ثوبها الأسود عايقة على رأسها وكأنها برنيطة، وريحها الحلو يهب على الغيط والشجر والخضرة والترع فيكاد يملأ الجو بعطر كعطر النسيم يوم شم النسيم. لم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها ويراها وهي لا تراه وهو خائف أن تراه، ولكنها كانت المرة الأولى التي يتمنى أن تراه فيها، المرة الأولى التي يتمنى أن يلتقي بها وكأن الأمر صدفة، ويفعل معها ذلك العيب الذي أرقه وأقض مضجعه فوق تبن الوسية، عيب أن تقول لبنت ليست أختك أو أمك: ازيك يا فاطمة. فترد عليك بخجل لا ترد به أمك أو أختك؟

ولكنها ما كادت تراه خارجاً من الذرة حتى تجمدت في مكانها وكأنها رأته عارياً. . كما ولدته أمه، وكأنها رأت العيب يخرج لها من الذرة. . العيب الذي كواها فرج بنظراته محذراً إياها منه، وإذا بالمشنة تسقط منها وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها، وإذا بها بالدنيا تنقلب وإذا به يطلق لساقيه الريح ويهيم على وجهه في الغطيان

* * *

وعلى عكس ما توقعت العزبة رسمت الست أم جورج علامة الصليب على صدرها وأبدت أسفها البالغ ورحبت بأن تفعل ما في وسعهاالكشف الحقيقة مقسمة بالمسيح الحي أن تجعل زوجها يحبس غريب في النقطة ويسلط عليه الضابط ليربطه في ذيل الحصان ويعلقه على عامود التليفون. كانت الست أم جورج معروفة بصلاحها وتقواها وأدبها حتى ان أحداً لم يكن يعرف اسمها الحقيقي. . وكانت ترغم زوجها أبو جورج الناظر على أن يصحبها للكنيسة في البندر

القريب صباح كل أحد رغم تذمره من هذا العمل، وهـو الذي يقضي مساء كل سبت يعب كـاسات العـرقي عند بنـايوتي البقـال في القريـة المجـاورة الذي أحـال بقالتـه إلى خمارة. وأم جـورج قصيرة بيضـاء شاحبة البياض شعرهـا مفلفل بـالشيب وفي منتصف ذقنها ثـلاث نقط موشومة. وكانت تعرف فاطمة وتسمع عنها معجبة بجمالها، بل كثيراً ما كانت ترسل في طلبها لتأتي كي تساعدها في عمل صواني البسكويت الذي يفطر به أبو جورج ولا يرضى سواه. بل أحياناً كانت ترسـل لها فقط كي تجاذبها أطـراف الحديث وتـأخذ من فمهـا الحلو كل أخبـار العـزبة النسـوية وهي المحـرم عليها أن تختلط بنسـاء العزبـة. ولولا فارق السن لأصبحت صديقتها الصدوقة.

وأفظع خجل هو الذي أحسته فاطمة وهي تدلف إلى بيت الناظر لا مطلوبة ولا مرغوبة، وإنما شرفها معروض على الست أم جورج.. الست التي كانت بالأمس فقط تقبلها في شفتيها بطريقة غريبة وتقـول لها إنه لولا الدين لخطبتها لأخيها الذي يعمل صرافاً في البحيرة.

تسمرت فاطمـة في مكانهـا على العتبة ولكنهن دفعنهـا دفعاً لا مجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها. وتولت أم جـورج طرد جـورج من البيت وإغلاق البـاب الخارجي وبـاب الحجـرة الـداخلي وشيش النـوافذ وزجاجها، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطري ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجـذب وتولت إحداهن تقييد يديها، وأمسكت امـرأتـان كل بساق من ساقيها، وامتدت أيد كثيرة.. أيد معروقة جافة.. حتى بقايا الملوخية التي عليها جافة،

وامتدت عشرات العيون الصادقة في بحثها عن الشرف والمحافظة عليه، امتدت كلها. . انغرزت وقلبت وتفحصت حتى وهي لا تدري علام تبحث. وأم جورج وقد تولاها ارتباك عظيم وكأنها المكشوف عليها لا الكاشفة،تنهر النسوة بلا فائدة وتطمئن فاطمة بلا فائدة أيضاً، والشد والجذب والصرخات المكتومة تدور في صمت وفي همس مروع، وسكون الترقب قد خيم على الحجرة وامتد منها إلى البيت ووصل الصمت إلى رءوس الرجال حول فرج، وإلى المتناثرين قريباً من الدوار وعند المكنة وفي الغيط، الذين كانوا يتابعون كل شيء يدور داخل منزل الناظر حتى دون أن يروه.

كل شيء هدأ وسكت ما عدا جعجعة عم ضرغام التي لم يكن يحفل بها إلا واحد فقط. . عبدون أبو غريب الذي كان قد أخذ طريقه إلى الجرن وقد رفع ذيل جلبابه من الخلف آملاً أن يتحدث إلى عم ضرغام لينفس عن نفسه ويلعن فاطمة وابنه وأهل العزبة لكائن ما حتى لو كان عم ضرغام.

وفجأة انطلقت زغرودة من الحجرة الداخلية ترددت على أثرها الزغاريد في المنزل ثم في الخارج، والألسنة تردد:

ـ سليمة إن شاء الله والشرف منصان.

ولحظتها فقط رفع فرج رأسه المنكس، ولأول مرة كان يجري فيها الدم، ولأول مرة نطق وقال:

ـ هاتوها.

وبعد لحظات ومع أن عم ضرغام قد كف عن جعجعته، إلا أنه ما كاد يكف حتى كانت العزبة تشهد أعظم ضجة قامت فيها، عند بئر الساقية القديمة العميق الذي يزيد عمقه عن أطوال ثلاثة رجال يقفون فوق رؤوس بعضهم. عند البئر كان عبدون يمسك ابنه غريب من زمارة رقبته ويحاول بكل قوته العجوزة أن يجذبه ليدفعه ويغرقه في البئر.. بينما عشرات الرجال يمنعونه ويحاولون تهدئة خواطره. وكان عبدون كلما جذب ابنه ووجد نفسه عاجزاً عن تحريكه من مكانه ازداد هياجه وغضبه وانصبت اللعنات من فمه كالحمم. وكل من كان يرى عبدون في موقفه ذاك كان لا بد أن يؤمن أنه حقيقة يريد إغراق غريب في البئر وأنه جاد في تنفيذ ما يريد. ولكن كان هناك شيء ما لعله في طريقة زعيقه، لعله في نوع الكلمات التي كانت ينتقيها ليشتم بها ابنه، كان هناك شيء ما لا بد تلمحه وتحس معه أنه في أعماق نفسه غير خجل من ابنه، بل أكثر من هذا ممكن أن يكون فخوراً أن ابنه هو الذكر وأنه هو المتهم بالفتك.

أما في بيت فرج فقد كانت هناك مذبحة.. كان فرج يضرب فاطمة بالتقصيرة التي يصحن بها اللبن، وكانت فاطمة تصرخ وزوجته تصرخ خوفاً عليه أن يقتلها ونساء الجيران يصرخن، والرجال كثيرون داخل البيت وخارجه يحاولون منعه بلا فائدة، وفرج كالوحش الهائج يريد حقيقة أن يخلص على أخته..

ولكن ربما في ضبط قوة الضربات التي ينهال بها على فاطمة، وربما في البريق الذي يملأ عينيه والذي لم يكن بريق غضب خالص أو فرحة خالصة، كنت تلمح شيئاً.. فصحيح أن فاطمة لم تخطىء

وشرفه منصان ولكنه لا بد أن يقوم بعمل ضخم كبير قاس يرد به على آلاف الخواطر التي لا بد قد دارت في الرؤوس وعلى كلام الناس، وكلام الناس كثير.

وطبعاً لم يغرق عبدون ابنه ولم يقتل فرج أخته. مالت الشمس للمغيب كما تعودت أن تميل، وعاد السارحون في تلك الغيطان يسحبون البهائم ويحملون عشاءها فوق الحمير، وبدأت الأدخنة ترتفع من أسطح البيوت الطين وشقوقها وهبت روائح التقلية والزيت المقدوح تفتح الأنفس للعشاء، وصلى الرجال المغرب، وانتهى صعود النساء وهبوطهن إلى السطوح، وفرغن من تبييت الدجاج وعلف البهائم. وما كاد العشاء يؤذن حتى كان الهدوء الهائل الخالد قد خيم على العزبة من جديد، وحتى كان كل ما يتعلق بما حدث قد نوقش وأعيد نقاشه حتى فرغت الجعاب وثقلت الرؤوس.. وبدأت ذبالات المصابيح تخفت وتتوارى، وبدأ النوم يزحف مع الظلام، وبدأت الأجساد تتمدد تعبة لا حراك بها.

وحين أصبحت فاطمة وحدها.. حين نام الجميع وبقيت هي محطمة مستيقظة بدأت تبكي. لم تكن تريد.. ولكن الدموع بدأت تسيل رغماً عنها صانعة قناتين لامعتين يصلان ما بين عينيها وأرض «البحراية» التي كان فرج قد حكم عليها أن تنام فيها بلا حصيرة أو غطاء، ثم بدأت تنشج وبدأ جسمها يهتز، بل بدأ قفص الفراخ الموضوع بجوارها يهتز ويهز الفرن والبيت والعزبة كلها ويكاد يوقظ النائمين. كانت تبكي بكاء من يتألم ألماً لا قبل له به، بكاء الذي

جرح جرحاً عميقاً وجاء الليل عليه فبدأ يحس بالألم. . الألم الكاوي الذي لا يرحم.

* * *

وحاول أولاد الحلال فيما تلا هذا من أيام أن يقنعوا فرج بقبول غريب عريساً لأخته، ولكن فرج رفض رفضاً مانعاً باتاً ملأهم باليأس.

أما غريب فقد كف حديثه عن فاطمة تماماً، بل كف من يـومها حديثه عن كل النساء وحلق قصتـه وأصبح يصلي، ولكنـه كان يضبط أحياناً وهو يحوم حول العزبة ويتوقف عند النافذة المفتوحـة على بيت فرج.

أما فاطمة فقد حبسها فرج في البيت ومنع خروجها وشغلها رغم حاجته الشديدة إلى يـوميتها. ولم يقلق فاطمة هذا في شيء. . كانت عازفة عن الدنيا لا تريد الخروج، والحيوية المتدفقة التي كانت تبرق في عينيها وخدودها ولفتاتها كأنها نضبت فجأة ولـم يبق لها أثر وتحولت إلى حيوان بليد كخروف الضحية لا تبتسم وتكاد لا تتحرك، وكانت إذا تحدثت خرج حديثها ذليلاً فقد كبرياءه وحلاوته والأنوثة التي تقطر منه.

ولكن هذا لم يدم طويلاً. . فلم تبق فـاطمة حبيسـة البيت إلى الأبد، ولم تطل صلاة غريب، ولا استغنى فرج عن برطعته وضحكه. إذ بعد أسواق كثيرة وأسواق كان كل ما حدث قد وضعه أهل العزبة في خزينة النسيان وأغلقوا عليه بالضبة والمفتاح، وكـان أولاد الحلال قـد

تكفلوا بمصالحة عبدون وابنه على فرج فأصبحوا يتحادثون ويتبادلون العمل ويتزاملون كالعادة. وربى غريب قصته وعاد يحدث أصحابه عن النساء فوق تبن الوسية، ولم يكن حديثه . . يخلو من مرارة إذ كانت فاطمة قد عادت إلى الخروج جميلة كما كانت، معووجة المنديل رافعة ذيل الثوب، تخطر إذا مشت وتدوِّخ إذا تلفتت وتعافي كل من يلقاها، إلا هو- لا عن عمد -ولكن كأنها لا تراه، وكأنما قد محي من الوجود. .

عادت فاطمة تنظر وتتحدث وتبتسم وتطير العقول وكل شيء فيها لم يتغير. ولكن الناس كانوا يعجبون. . فلا بد أن فاطمة قد اكتسبت شيئاً جديداً لم يكن لها، أو أنها لا بد فقدت شيئاً أصيلاً كان لها. . الشيء الذي كان يلون وقفتها ومشيتها وضحكتها، الشيء الذي يجعلها تبدو ملكاً للجميع تحب الجميع ويحبها الجميع. الشيء الذي يكسبها شفافية ونقاء والذي كان يجعلك تحس إذا ابتسمت أنها حقيقة تبتسم وإذا غضبت أنها حقيقة غاضبة، كانت قد فقدت براءتها وأصبحت تستطيع أن تنظر دون أن تنظر، وتضحك دون أن تريد، وتريد الشيء وتخفي رغبتها فيه.

بل أصبحت تستطيع إذا ما لمحها فرج خارجة ذات يوم من دار صابحة الماشطة وأخذها إلى بيته، وأغلق عليها باب القاعة وأمسكها من ضفائرها وشدد عليها وسألها عما كانت تفعله عند صابحة . . .

أصبحت تستطيع إذا ما حدث هذا أن تقول:

ـ كنت بقيس التوب. اوع كده.

وتجذب نفسها وضفـائرهـا من قبضته بعنف غـريب، وتقف في الركن تعيد النظام إلى شعرهـا وتواجهـه. . بعيون مشـرعة حلوة، لا تنخفض ولا تخجل.

سره الباتع

- ١ -

لم تكن علاقتي بالسلطان تتعدى مجرد نظرة غير محبةللاستطلاع ألقيها عليه كلما مررت به في ذهابي وإيابي، نظرة سريعة كأنما لأطمئن بها فقط على وجوده هناك فقد كان علامة رئيسية من علامات البلد، مثله مثل محطة السكة الحديد وسراية آل ناصف والبقعة المسكونة التي قتل فيها سيد إبراهيم.

ولكني ذات يوم اضطررت أن أشغل نفسي بالسلطان، فقد فزت يومها بأول نجاح في حياتي ونقلت من السنة الأولى الابتدائية، وفرحتي بالنجاح يومها كانت أكبر من كل فرحة أحسست بها لأي نجاح حدث لي بعد هذا، فرحة تمنيت معها أن أعود من المدرسة إلى بيتنا على جناح طائر لأزف الخبر إلى جدي الأكبر والد جدي، وكان عجوزاً جداً له ظهر شديد الانحناء وتجاعيد تبدو من كثرتها وتناسقها وكأنه ولد بها.

وما كاد جدي يسمع الخبر حتى قال لي في صوته الجاد:

- أوف النذر حالاً

وكنت قد نسيت حكايـة هذا النـذر تمامـاً. . فقد حـدث خلال العام أن انتابتني حالة يـأس وأنا أذاكـر واعتراني شبـه يقين أنني مهما فعلت فلن أنجح أبداً، وكدت أبكي ساعتهـا ولكني ذهبت إلى جدي وصنعت له قهوة زائدة السكر كما يحبها، وحملتهـا له خلسـة (إذ كان يحب القهوة، وكان جدي الأصغر ابنه يمنعه عن شربها فكان بيننا شبه اتفاق: أن أسرق له البن والسكر ونتنحي مكاناً قصياً نصنع القهوة فيه مقابل أن يحدثني هو بعد أن يزن رأسه عن (زمان وأيام زمان الحلوة) يومها حملت له الفنجانـل، وانتظرت إلى أن شـربه كله شفـطة شفطة ولحس كـل البن المترسب في القـاع، ثم سألتـه إن كـان يعتقـد أني سأنجح. . والشيء الغريب أني كنت متأكداً أن جدي الأكبر لا يعرف ما هي المدارس وما هو النجاح، ومع هذا فحين قال لي لحظتها إنني سأنجح بإذن الله أحسست أنني لا بد سأنجح وكدت أطير فرحاً. غير أنه اشترط لنجاحي يومهـا أن أنذر للسلطان حـامد نصف دستـة شمع أوقدها في ضريحه.

ولم يتركني إلا بعد أن نـذرت النذر أمـامه وأعـدته مـراراً حتى أطمأن إلى أنني لم أخطىء في قوله.

ولم تكن مشكلة أن أحصل على ثمن الشمع، فقد كنت ناجحاً وطلبات الناجح خاصة في يوم نجاحه لا تلقى معارضة تذكر. .

ولم أغفر لنفسي أن الشيطان يومها راودني حين ذهبت إلى الدكان، وفي الحقيقة لم يكن هو الشيـطان. . كان «البـرطمان» الـذي يحتوي

على كميـة هائلة من «الكراملة» ويـرقد على جـانب البنك هـو الـذي راودني .

وقسمت العرب عربين كما يقولـون، واشتريت بنصف مـا معي ثلاث شمعات وبالنصف الآخر «كراملة» .

وبينما كنت آخـذاً طـريقي إلى حـافـة «الجبـانـة» حيث مقـام السلطان، كنت لا أزال أؤنب نفسي . . بـل أحيـانـاً كنت أتصـور أن السلطان حـامد سينتقم للثـلاث شمعات التي اغتصبتها من نذره بـأن يزورني في المنام مثلاً، أو يصيبني بداء الصفرة .

ولست أدري أكان هذا هـو السبب في اضطرابي أم شيء آخـر كـان السبب، فقد بـدأت أحس باضـطراب شديـد حين أشرفت على الجبانة ورأيت مقـام السلطان حامـد من بعيد. وشيء غـريب هذا. . فآلاف المرات رأيت مقام السلطان حامد من بعيد دون أن أحفـل به، حتى لون الضريح لم أكن أعرفه، ولا كان يهمني من السلطان في قليل أو كثير، ولكني مع هذا كنت مضطرباً حتى فكرت أكثر من مرة في أن أولي الأدبار وأطلق ساقي للريـح عائـداً إلى بيتنا، خـاصة وأن مسـألة النذر هذه لم تكن قد دخلت إلى عقلي . وأنا متأكد أن السلطان هـذا ليس لـه أي علاقـة بنجاحي، وأنـه لم يساعـدني في الإنجليـزي ولا غششني في مسألة القسمة المطولة. والنذور والعفـاريت وشم البصل يـوم شم النسيم أشياء لم أكن أؤمن بهـا لا لأننـا كنـا قـد أخـذنـا في المدرسة أنها بدع ورجس من عمل الشيطان، ولكن لأن الناس كلهم يـأخذونهـا كالقضـايا المسلم بهـا، فكيف أفعل أنـا هذا؟ ومـا فائـدة تعليمي حينئذ وبدلتي؟

ورغم شدة اضطرابي فلم أرجع لا خوفاً من جدي ولكن خجلاً من نفسي وخوفاً من أن أبدو أمامها كالجبان، والظاهر أننا ونحن أطفال نخجل من الفرار أيضاً مثلما يفعل الكبار.

وهكذا ظللت أخاف وأتحدى الخوف وأتقدم تدفعني الرغبة في القيام بتجربة جديدة، حتى وصلت إلى مقام السلطان حامد. كان قائماً في ركن من الجبانة وبجواره طريق مقطوع لا يمر به أحد. وكانت أول مرة أرى فيها الضريح عن قرب، ولم يكن ضريحاً بالمعنى المفهوم... كان أهل بلدنا يسمونه المقام ولهم حق، فلم يكن يشبه من قريب أو بعيد أضرحة أولياء الله في القاهرة، وكنت قد زرتها مع أبي ورأيت روعتها وسجاجيدها السميكة الفاخرة وشبابيكها المذهبة ونجفها الكبير والرائحة الغريبة الغامضة التي تملأ جوها وتوحي بالرهبة والخشوع والإجلال. أما مقام السلطان فقد كان عبارة عن حجرة قديمة وكأنها مبنية منذ الأزل، ذهب الطلاء عن كل جدرانها وبقيت الحجارة الحمراء بارزة متآكلة كضلوع الميت العجوز. ولم يكن يميز المقام عن بقية المقابر إلا أنه مبني من الحجر، إذ ان معظمها مبني من الطين، والأغنياء وحدهم هم الذين يطلونها بالجير ويكتبون أسماء موتاهم عليها، يكتبها لهم عم محمد البنا بطلاء الزهرة وبخطه العاجز الركيك.

ثمت فرق آخر بين المقام وبين القبور، فدوناً عنها كانت هناك أشجار كافور طويلة قد زرعت حول المقام. ويبدو أنها زرعت أيضاً منذ الأزل فقد كانت طويلة طولاً لا حد له وجذوعها سميكة لا يستطيع

عملاق أن يحتضنها، وكانت مزروعة بنظام حتى بدت كالسور العالي المهيب.

وكان كل شيء يدعوني إلى أن أنتهي من مهمتي بسرعة وأعود.. فالعصر يضيق والظلال تمتد بشكل مخيف، وحقول القمح واسعة كبحر أبيض لا شاطىء له، والناس فيها مجرد نقط غامقة صغيرة لا تكاد ترى.

ودرت حول المقام. لم يكن له سوى باب كالح قديم ونافذة واحدة يتيمة كانت لا بد هي النافذة التي حدثني عنها جدي. وتقدمت منها، ولكن قبل أن أصل إليها فوجئت ببحيرات وأنهار من الشمع المتجمدة قد ملأت الأرض. كان الشمع الذي سال من النذور على مر الزمن قد ملأ حافة النافذة وسال على الجدار حتى غطى أحجاره العارية، ووصل إلى الأرض.

وأدركت أن آلافاً قبلي لا بد قد نذروا للسلطان حامد، ومن يدري ربما ملايين (والملايين في لغة الأطفال لا تعني دائماً ملايين).

وكدت أضحك على سذاجة أهل بلدنا الذين ذابت نقودهم واختلطت بالرمال.. لأجل ماذا؟ لأجل هذا السلطان الذي لا خادم له ولا مسجد ولا متستجيرون.. ولا حتى ضريح يوحي بالاحترام؟

كدت أعود وأحتفظ بالشمع لنلعب به أنا وأصحابي في الليل ونوقده ونسهر حوله، وكم يكون مسلياً وجميلاً! بل أنَّبت نفسي لأنني أضعت القرش في الشمع ولم أشتر به «كراملة» هو الآخر، وسمحت

لنفسي أن تصنع مثلما يصنع أهل بلدنا الجهلة. . الذين لا يقرؤون ولا يكتبون.

ولكني يومها احتفظت بشمعة واحدة فقط وأوقدت الاثنتين، لست أدري لم؟ ربما تنفيذاً لتعليمات جدي ليس إلا، وربما رغبة في تقليد أهل بلدنا. . فقط في تقليدهم، بل لماذا لا اعترف وأقول إنني بعد أن قرأت الفاتحة ودعوت لجدي ولوالدي، نذرت للسلطان إن أنا نجحت في العام التالي أن أوقد له دستة شمع بأكملها؟

ورغم أنني قلت لنفسي وأنا عائد أنني نذرت الدستة فقط لتفاؤلي بمسألة النذر، إلا أنني من يومها بدأ السلطان حامد هذا يشغل عليّ تفكيري بشكل ما

كان أحياناً يصعب عليّ ذلك الولي الفقير المدفون في تلك البقعة النائية الموحشة، وأحياناً كنت أفكر في المؤمنين به الفقراء مثله الذين يتمنون أمنياتهم الصغيرة الطيبة، ويرفعون بصرهم إلى السماء وينذرون للسلطان حامد ويحقق السلطان أمانيهم، فيسرعون إلى نافذته ويشعلون شمعاتهم، وليلة وراء ليلة تضيء نافذة السلطان حامد بشمعة. . أمنية صغيرة تحققت وقلب فقير رأى لحظة سعادة ولو لليلة، وأحياناً كنت أفكر في الكمية الهائلة من الشمع المتجمد بجوار المقام كيف لم يسرقها أحد، كيف لا والسلطان ليس له خادم يحرسه والطريق إليه خال من المارة، والناس في بلدنا لا يتركون طوبة تنفع ولا حجراً إلا قلقلوها وحملوها إلى بيوتهم؟

أحياناً كنت أفكر في تجريد عصابة من أصحابي للسطو على الشمع، وأحياناً كنت أخاف، وأحياناً كنت أسمع اسم السلطان.. لم أكن أسمعه كثيراً ولا مسبوقاً بتكبير أو محفوفاً بتقديس خطير، وإذا جاءت سيرته لا يتوقف الواحد من أهل بلدنا عن الكلام مثلاً ويقرأ له الفاتحة بخشوع، ينفض الواحد منهم بلغته وهو يستعد للقيام ويقول:

- معلش.. أهه كله من عضم النهار.. شي لله يا سلطان حامد شي لله.

أو تتراجع الولية من الولايا أمام مقطف السمك وتقول لعم علي الصياد:

- بكام؟

فيقول:

- بعشرة.

فتعود تقول:

- وللسلطان حامد بكام؟

فيخفض عم علي حينئذ وجهه ويغلق عينيه وكأنما غلب على أمره ويقول:

- عشان السلطان بتمنيه وعشانك انتي بتسعة.

أو يرفع الرجل جوال الطحين على رأس زوجته ويقول وهو ينتعه:

- إيدك يا سلطان.

وكنت أعرف أهل بلدنا جيداً. . كانت لا تخيفني منهم وجوههم المكشرة على الدوام ولا ذقونهم التي تشوك أو نظراتهم التي تظن أنها خالية من الرحمة والشفقة. كنت أعرفهم تماماً وأعرف أنهم لا يقولون ما يعتقدونه إلا بينهم وبين أنفسهم، أما أمام العمدة أو الموظفين يقولون كلاماً عالياً كثيراً ويحلفون الأيمان المرتفعة المغلظة. وإذا سألهم الغريب عن شيء قالوا عكس ما يضمرونه. هم لا يخرجون ما في أعماقهم إلا رغماً عنهم. . في كلماتهم المتناثرة، في همساتهم الخافتة وراء ظهور موظفي الحكومة، في حديث الرجل إلى زوجته بعد العشاء حين يركن بظهره إلى الحائط ويمدد ساقيه على طولهما ويقول:

ـ ليلة امبارح يا بت حلمت خير اللهم اجعله خير، إن السلطان حامد جاني وقال لي انت نايم للظهر ليه؟ قوم الشمس طلعت، قوم. .

ـ ٢ ـ

وتعودت أن أرثي لأهل بلدنا هؤلاء، كنت قد زرت السلطان ورأيت مقامه عن قرب، ولم أحس برهبة ما ولا أقشعر جسدي أو وقف شعري أو ظهرت لي كرامة من كراماته. أربعة جدران قديمة تكاد تنهار. . ماذا فيها حتى يستقر صاحبها في أعماق صدورهم وحتى يتحدثوا عنه كما لو كان كائناً حياً ضخماً يحيا في مكان ما؟ ماذا فيه حتى يتحدثوا عنه بلا تكليف هكذا كما يتحدث الجار إلى الجار؟ وكنت أعرف خطورة هذا الحديث فالفلاحون لا يرفعون الكلفة إلا بصعوبة شديدة، وإذا خاطبوك بلا ألقاب وتحدثوا إليك كما يتحدث الجار إلى الجار كان معنى هذا أن احترامهم لك يرتفع إلى مرتبة التقديس.

والحقيقة بدأت تنتابني الغيرة من السلطان حامد.. بدأت أحسده على تلك المكانة التي يحتلها في قلوب الناس مع أنه لم يكن يملك لهم حولاً ولا قوة. هذه الكمية من الحجارة القائمة عند حافة الجبانة كيف يكون لها كل هذا الاحترام والتقديس؟

وقلت لنفسي ذات يوم: ربما أكون مخطئاً.. وربما هناك شيء داخل المقام هو السبب في تلك المكانة. ولم أكن ـ من شدة استخفافي بأمر السلطان ـ قد اهتممت بإلقاء نظرة على الداخل من خلال النافذة حين كنت أوقد الشمع.. وأنبت نفسي كثيراً لأني لم أفعل، وقررت أن أذهب وأرى المقام من الداخل. وحين خطرت لي تلك الفكرة لم أتحمس لتنفيذها في الحال فلم تكن حكاية السلطان حامد كلها تهمني إلى تلك الدرجة، كانت مجرد أفكار تعن لي إذا جاءت سيرته وتشغلني قليلاً ثم تمضي وأعود أنا إلى ما كنت فيه.

غير أنني في صباح يوم الجمعة سمعت امرأة ماشية في الشارع تندب حظها وتكاد تولول وهي تقص لكل من تستقوفها من النساء قصة ابنها المريض، وتختم قصتها كل مرة بدستة شمع للسلطان إن هو طاب. وكدت أخرج لها وألعنها وأفهمها أن سلطانها حامد هذا لا علاقة له بمرض ابنها ولا بركة فيه ولا يملك حتى أن يمنع البلى عن مقامه. ولكني لم أفعل بل سألت نفسي بصراحة لماذا يضايقني شيء كهذا، وما الضرر في أن تنذر له نذراً؟ هل سيمنع نذرها الشفاء عن ابنها إن كان سيشفى؟ وأدركت أن حماسي كان فقط لأنها ذكرت اسم السلطان حامد ولم تذكر اسمي مثلاً، حماسي كان مبعثه هو تلك

لمكانة الهائلة التي كنت يوماً فيوماً أحس بالسلطان جامد يحتلهـا في قلوب أهل بلدنا. . كنت أخاف على نفسي منها، وأخاف أن يأتي اليوم الـذي أومن أنا الآخر بـه وأقـدسـه دون أن أعـرف سبب الإيمـان بـه وتقديسه.

وتأكيداً لاستخافي به قررت أن أذهب في الحال وأرى مقامه من الداخل وأرى السر المزعوم، وأشبع بعد هذا سخرية من السلطان وأهل بلدنا على حد سواء. .

ولكن لا أدري مـاذا حدث، فحين أصبحت قـريبـاً من المقـام ورأيت أنهار الشمع المجمد وبحيراتـه أحسست أني مقدم على شيء حرام، وكأنني سأعبث بشيء يخص أهل بلدنا أجمعين وهم غائبون. إحسـاس اقشعر لـه جسدي ولم أستـطع أن أتغلب عليـه وكـأنـك في اجتماع عام حافل وتهم أن تمزق علم المجتمعين، وعلى هذا وقفت في مكـاني متردداً وقـد أحسست لأول مرة أني في سبيلي إلى القيـام بعمل غير مشروع، وتلفت حولي مـراراً مع أني كنت متـأكداً من خلو المكان وأن أحداً لا يفكر في المجيء إليه خاصة في الصباح.

وخفت.

فقـد أدركت لحظتهـا فقط أن السلطان حامـد هذا مـارد كبيـر، والبركة في أهل بلدنا الذين جعلوه هذا المارد الكبير. فمـع أني كنت واقفاً في مكاني لا أستطيع الاقتراب من النافذة إلا أنني لم أكن أتصور أن المسألة ممكن أن تبلغ هذا الحد وأنني فعلاً لا أجرؤ على الـدنو. وربما الخوف هو الذي دفعني إلى النظر إلى مكان السلطان حامد من

جديد. . كان كل شيء كما هو في المـرة السابقـة. . الحجرة البـالية القدم والجدران البارزة الأحجار بغيـر طلاء، ولا شيء بـالمرة يخيف وكل ما أراه يدفع إلى الاستخفاف، وتقدمت من النـافذة متلصصـاً. . كـانت أعلى من قـامتي وكـان عليّ لأرى مـا في الـداخـل أن أتشبت بحديدها وأرفع نفسي.

وأمسكت بالحديد. . كان ناعماً زلقاً من آثار الشمع المتجمـد ومرة واحدة رفعت نفسي ثم في الحال هبطت وقلبي يدق. لم أكن قد رأيت شيئاً غير ظلام في ظلام ومع هذا خفت، فالظلام في النهار وفي داخل السلطان حامد شيء يخيف. .

وكنت لا أزال أمسـك بالحـديـد في انتـظار أن أجمـع أنفـاسي وألقي نـظرة أخرى، ولـم يكن لـديّ أية فكـرة عما يمكن أن أجده في الداخل، ربما المقام خال. . ربما لا شيء غير الظلام.

وبقـوة رفعت نفسي رفعـة عـاليـة ودرت بعيني دورات سـريعـة مـذعورة. . ووقف شعـري من الـرعب، ومن كثـرة رعبي لم أستـطع الهبوط وتجمدت يداي على حديد النافـذة بينما أغلقت عيني عن أن تـريا ورحت أصـرخ في فـزع وتـركت نفسي أسقط على الأرض وأنـا ألهث وأكاد أموت.

لقد رأيت السلطان حامد نفسه في الداخل. . كان ضخماً جداً أضخـم من الجمل وله رقبـة طويلة جـداً وبارزة من جسـده الضخم بـطريقة مخيفـة وتنتهي بكتلة خضراء كبيـرة تلمـع في الـظلام. كـان

السلطان بـاركاً في الداخل يتلمظ ويكـاد يمـد رقبتـه الـطويلة ويقضم رأسي.

ظللت مخفياً رأسي في حجري وعيناي مغلقتان وأنا لا أستطيع الجـري أو التفكير أو حتى قـراءة بسم الله الرحمن الـرحيم، وحـولي آلاف العفـاريت التي لم أومن بها قط. . وخـدام الفنـاجين وإبليس، وشقيقـاتي اللائي تحت الأرض وكـل ما ارتكبتـه من ذنـوب وكـل مـا سخرت به من معتقدات.

واعتقـدت أني حالاً سـأمـوت. . ولكني عجبت حين مـر وقت طويل ولم أمت، ثم ضحكت من نفسي لأني ظننت أني سأموت، ثم فتحت عيني ورأيت أشجار الكافور العاليـة والحقول الممتـدة البعيدة والناس الرائحين الغادين كنجوم النهار، وكل شيء غير خائف. . وكل شيء يسخر مني ومن خوفي.

والشيء الذي لم أكن أتصور مـطلقاً أن يحـدث وجدت نفسي أفكر فيه: لماذ لا ألقي على المقام نظرة أخرى؟

تطلعت إلى النافذة وترددت، ولـم ألبث أن وجدت دافعاً أقـوى مني يدفعني للإمسـاك بحديـدها من جـديد، ربمـا الهلع وربما حب الاستـطلاع وربما الاستخفـاف بأمـر السلطان. كنا جيـلاً معفرتـاً كما يقول عنا آباؤنا وأجدادنا، والمسائل الغامضة مثـل العفاريت وخـلافها مسائل تدور على ألسنتنا فقط ونتذكرها ساعـة الغرق، ولكنـا لا نؤمن بها في أعماق قلوبنا. وكان آباؤنا يقولون عنا هذا لأننا لم نكن نخاف

مما يخافونه، وحتى إذا خفنا كان خوفنا يدفعنا الى السخرية بالشيء الذي نخاف منه، كنا جيلاً معفرتاً كف عن لعب الكرة «العميو» بيده وأصبح يلعب الكرة بقدمه. ويمضي فوق قضبان السكة الحديد المحرمة دون خوف أن يظهر له القطار فجأة ويدهمه، وحتى إذا ظهر له القطار كان فقط ينتحي جانباً وقد جهز له في يده زلطة يقذفه بها إذا مر ثم يعود يجري فوق القضبان.

- ٣ -

وتبينت أني كنت على حق، فالذي كان باركاً في الداخل لم يكن هو السلطان حامد بل كان قبره، والرقبة الطويلة كانت رقبة القبر، والشيء الأخضر الذي يبرق كان عمامته.

بل أكثر من هذا كانت الكسوة الموضوعة على القبر كسوة قديمة باهتة لا تكاد تستطيع أن تتبينها من كثرة ما علاها من غبار. وكانت «القراضة» قد تولت نهش حروف الآيات القرآنية المكتوبة بالقماش فوقها، وكانت رائحة العطن تشيع من المكان، والظلام الرابض تحس أنه ليس ظلاماً ولكنه نور قديم من طول ما مكث مدفوناً تحول إلى ظلام.

وعدت أدراجي ومعي قطعة كبيرة من الشمع اقتلعتها من الأرض ونفضت عنها الرمال على أمل أن تصلح لشيء ما. ولكني حين عدت الى بيتنا احترت ماذا أصنع بها. صنعت منها كرة ثم قلة، ثم أفقت لنفسي فوجدتني أصنعها على هيئة قبر له رقبة طويلة وعمامة خضراء.

وأعجبني التمثال الذي صنعته للقبر الى درجة استخسرت معها أن أغيره أو ألقيه وأصبح كل همي أن أحتفظ به في مكان أمين، وظللت أفكر حتى وجدت أن أحسن مكان له هو طاقة من الطاقات التي تستعمل في برج الحمام.

وكنت أعجب لنفسي طوال اليوم وأستغرب لماذا لم أعد أفكر في السلطان حامد، ولماذا يرفض عقلي أن يخوض في مشكلته. كنت أحس به غريباً عن نفسي تماماً وكأنه لم يخطر لي أبداً وكأنني لا أعرفه ولا يهمني أن أفكر فيه. وأحياناً كان يدفعني العجب وأحاول أن أرغم نفسي على التفكير فيه فلا أستطيع.

وقلت لنفسي ربما أفكر غداً.

ولكن الغد جاء ولم أفكر فيه.

بل مضت مدة طويلة جداً، ربما عام وربما أعوام والسلطان حامد لا يخطر لي على بال.

أتأخذ عقولنا أحياناً كل هذا الوقت الطويل لكي تفكر في أمر هام؟.

لقد استيقظت ذات صباح وأنا أفكر في السلطان حامد وكنت أفكر فيه بطريقة أخرى.. فهل كان هذا السلطان واحداً من أهل بلدنا؟ ومن أي عائلة هو إن كان ومن هم أحفاده وذريته من بعده؟

ووجدتني أسأل كبار المعمرين في بلدنا هذا السؤال، وأجمعوا كلهم أن السلطان حامد بالتأكيد لا يمت بصلة الى أحد من بلدنا وربما يكون غريباً، ولكن أحداً على وجه الدقة لا يعلم.. كل ما

يعرفونه أن بلدنا والحمد لله لم ينشأ فيها ولي من أوليائه ولا بني لأحد من موتاهم مقام.

ولم يتصور أحد ممن سألتهم أية دهشة كانت إجابته تحدثها.

فإذا كان السلطان حامد غريباً فلماذا اختار بلدنا دون سواها ليدفن فيها؟ ثم بني له هذا المقام الحجري وكل قبور بلدنا من الطين؟.. ومن اشترى الكسوة؟ ومن صنع له تلك الرقبة الطويلة ووضع فوقها العمامة؟ ومن زرع هذا الكافور الطويل؟

أغرب شيء أن المعمرين في بلدنا كانوا يرون أسئلتي هذه ويسمعونها، وأحس أنهم يحسبونني مخبولاً لأنني أعجب من هذه الأشياء وكأنني أسأل عمن حفر البحر أو اختار اسم بلدنا أو حدد ميزان النقطة، لماذا أسألهم عن شيء كان موجوداً قبل أن يولدوا.. وشبوا فوجدوه قائماً.. ومن المحتمل أنه سيظل قائماً الى يوم الدين؟

وأنا بدوري كنت أعجب وأظنهم هم الخرفون المخبلون، إذ كيف لم يتبادر الى أذهانهم أبداً أن يعرفوا لماذا دفن السلطان حامد في بلدنا دون سواها، ولماذا يبنى له مقام؟

وكان النقاش بيننا يطول.. أنا بجلبابي الافرنجي ورأسي العاري ولساني الذي لا يقف عن الخوض في أي موضوع، وهم بلحاهم الطويلة ونظرهم القليل وعرفهم الذي يعرف حدوده ويعرف أين يقف ومتى يسير.. حتى جدي كم صنعت له فناجيل القهوة، وكم انتظرت حتى يزن رأسه وتعود الابتسامة الى وجهه، وما أكاد

أفتح فمي أسأل حتى يقول:

ـ قلت لـك ميت مـرة فكـر في اللي ينفعـك انت. . فكــر في كتبك. مالك انت ومال الحاجات دي؟

وإذا أحسست أني أوشــك أن أثيـر غضبــه أدعي أمامــه أني اقتنعت، ولكن لم أكن أقتنـع. . فـالأسئلة التي كــانت تـراودني عن السلطان حامد لم يكن يستـطيع عـاقل أن يسكت عنهـا، كائن ضخم عمــلاق مثله لـه في كــل بيت جـدار، وذكــره على ألسنـة النــاس باستمرار، ومكانته لا يـرقى إليها أكبـر واحد من الأحيـاء أو الأموات، ومع هذا لا يعرف عنه أحد شيئاً ولا يـريد أن يعـرف عنه؟ أليس هـذا أمراً محيراً يدفع الى الجنون، أو بالقليل يدفع الى الغضب؟

ومـاذا يدفـع الى الغضب أكثر من أن أسـأل واحـداً من شبـاب القرية أو رجالها مثلاً، وأضع أمامه تلك المشكلة المحيرة فيقول:

ـ أهه شي لله يا أهل الله.

وبدأت أضيق بالسلطان حامد وأضيق أكثـر بأهـل بلدنا، وكـأنه جمع ثروة من حرام لا حق له فيهـا، وكأنهم تنـازلوا لـه عن قروشهم ليجعلوه غنياً، هكذا بكل سذاجة وعبط.

وذات مرة سألت الشيخ شلتوت صاحب الكتاب فلم أظفـر منه بطائل، وكنت أعرف أني لن أظفر من وراء سؤاله بطائـل، فما سـألته مرة عن شيء إلا وصاغ إجابته بـطريقة لا تسمن ولا تغني من جـوع. سألته لم يحتل السلطان حامد تلك المكانة الضخمة عند الناس فقال لي:

ـ لأنه كان رجلاً تقياً ورعاً.

قلت: إذن أنت تعرفه؟ لا بد أنك سمعت عنه.. قل لي!.

فقال: كل ما أعرفه أنه كان لا بد صالحاً وإلا لما كان له مقام..

قلت: ولكن مقامه فقير قديم كمقام السيدة زينب أو الحسين..

قال: المسألة مش بضخامة المقام يا بني، المسألة بضخامة المقام عند الله.

فقلت: ماذا أفعل إذن لأعرف سر السلطان حامد..؟

قال: بالوصول.. بذكر الله.

ووجدتني أفكر فيما قاله طويلاً مع أن ما قاله لم يشف غليلي، بل وجدت نفسي أتردد كثيراً على كتابه ومناقشاتي معه لا تقربني قليلاً أو كثيراً من أمر السلطان..

وقلت لنفسي ربما كان صحيحاً ما يقوله، وربما سر السلطان حامد لا يفتح إلا لبعض الناس.. للصالحين، وربما لو ذكرت الله ووصلت أصل إلى مكان أرى منه السلطان وأرى أمره بوضوح. وبدأت أتردد على حلقة الذكر التي يقيمها الشيخ شلتوت في بيته كل ليلة اثنين ولم أهضم ذهابي إلى هناك أبداً، وكنت أذهب سراً حتى لا يراني أحد زملائي ويسخر مني.. كنا نجتمع عشرة رجال أو أكثر

أنـدس بينهم وهم يرمقـونني بترحيب كبيـر، إذ إن حلقتهم قد ضمت أخيراً أحد المتعلمين، والمتعلمون كان بينهم وبين الـدين ـ على حد قـول الشيخ شلتـوت ـ بحر من سم ودم. كنـا نجلس على الحصيـرة ونستغرق في التفكير في الله، ثم نذكره في سرنا، ثم نجهر بذكره ثم نتمايل لاسمـه، ثم يدفعنـا الحماس إلى الوقوف، ويمسـك لنا الشيـخ شلتوت المجلس وقد حمي، وأصـوات الرجـال الخشنة تتصـاعد من صدورهم في تهدج باك يجأر في طلب العفو والشجاعة والتوبـة، وقد اندمجت أنفاسهم المتلاحقة في صرخة مبحوحة واحدة منغمة تقول: الله. الله. الله.

ولكني انقطعت عن الذهاب فجأة فقد أدركت أن استغراقي في الـذكـر لا يمكن أن يـوصلني أبـداً إلى حـل للمشكلة، وعليّ أنـا أن أحلها بنفسي إذا أردت لها حلاً.

ثم إنني كنت قـد فطنت إلى شيء.. فقـد أدركت أن السلطان حـامد ليس وليـاً من أولياء الله فـالأوليـاء يسمـونهم مشـايـخ، فلمـاذا يسمونه هو السلطان؟.

ورحت أعجب كيف لم أفـطن إلى تلك الحقيقة الـبسيـطة الـواضحـة وضـوح الشمس من قبـل. صحيـح كيف لم أفـطن إليهـا ووقفت طويلاً أتأمل هذه النقطة وأعذر أهل بلدنـا الذين كنت أتهمهم بـالعبط لأنهم لم يحاولـوا أبداً أن يتسـاءلوا عن سـر السلطان حامـد. أحياناً يكون من الصعب بل المستحيل أن نفكر في أشيـاء تعودنـا ألا نفكر فيها وتعودنا أن نأخذها كما هي: فتعذيب الحيوانـات حرام أمـا

ذبحها حلال، والمرأة تطلق شعرها والرجل يحلق شعره، ولا تعامل الحافي بمثل ما تعامل به راكب العربة مع أن كليهما إنسان، وأن يبدأ الواحد في مراجعة إيمانه بالقضايا المسلم بها مسألة صعبة بل تكاد تكون مستحيلة.

واعتقدت أن لن يدلني على حل هذا اللغز إلا الأحمدي أفندي فهو يعرف كل شيء عن كل شيء، ولا بد أن يكون لديه تفسير لحكاية السلطان الذي له مقام مع أنه ليس من أولياء الله. كان الأحمدي أفندي أول من لبس البدلة والطربوش في بلدنا، وأول من ركب القطار وسافر الى القاهرة، وأول أفندي لم يعمل في الحكومة واشتغل رأساً في البنوك والشركات. وكان قد تعدى الثمانين وترك العمل نهائياً.. وأقام في البلد على حس أفدنته القليلة، وكنا كثيراً ما نصادفه سائراً في البلدة بقامة معتدلة لا اعوجاج فيها ولا انحناء. وقد استبدل بالبدلة جلباباً أبيض نظيفاً له جيب على الصدر، ولكنه لم يتنازل عن الطربوش ولا عن ساعته ذات الكتينة التي تمد من عروة الجلباب وتنتهي في جيب الصدر.

وكنا نحن الصبية والأولاد إذا صادفناه ماراً ننتحي جانباً تأدباً ولا نجرؤ على النظر في وجهه إلا من بعيد.. وجه قد اكتسى من طول ارتداء البدلة والطربوش ملامح جادة متزنة، وشارب دقيق معتنى بكل شعرة فيه، وفم مطبق لا ينفك، وأصداغ غائرة لا تسندها أسنان..

وكل شيء فيه جاد، كلامه جد وزعيقه جد وهزله جد أيضاً، ولم يكن يضحك إلا إذا تحدث مع العمدة.

وكانت جراة كبيرة مني أن أذهب وأسأله فلا يليق بمثلي أن يخاطب الأفندية كبار السن من أمثاله، تلك قضية أخرى مسلم بها في بلدنا.

وانحنى الأحمدي أفندي ليضع أذنه ذات السمع الذي بدأ يثقل بجوار فمي الذي كان يتكلم في تردد ولعثمة وخفوت.

وكلما ألقيت عليه السؤال قال:

ـ إيه؟ بتقول إيه؟

فأعيد السؤال..

وأخيراً أدركت أنه سمعني فقد اعتدل في وقفته وأمسك بعصاه ذات العقفة بعناية، وحدق فيَّ بعينيه الضيقتين الغامقتين اللتين لو كانتا عينيّ لما استطعت أن أرى بهما أبداً. واشتد ارتباكي.

ولم أنظر الى غير كتينة ساعته التي أدركت أنها بفرعين وأن بينهما حلية ذات بلورة خضراء..

حدّق فيَّ طويلاً حتى فكرت أن أتركه واقفاً في مكانه وأجري ولكنه قال:

ـ براوة عليك يا ولد! جدع اللي فكرت في دي.. أنت ابن مين يا شاطر؟

وازداد ارتبـاكي واضطرابي وأنـا أشرح لـه ابن من أنـا ومن أين جئت، وحينئذ قال:

ـ بتسأل السؤال ده ليه؟

قلت في تردد وهو يستعيد كلماتي كلمة.. كلمة:

ـ علشان أعرف هو سلطان والا ولي.

وقلب عصـاه فوضـع العقفة على الأرض وأمسكهـا من أسفلهـا وهو يقول:

ـ لا ولي ولا سلطان ولا ديـاولـو، اوع تصـدق الكـلام الفـارغ ده.. سلطان حـامد إيـه؟ أنا أعـرف السلطان حسين سلطان مصر الله يرحمه ويحسن إليه، أعرف السلطان عبد الحميد خليفـة المسلمين، أعرف السلطان الغوري أعظم سلطان في زمانه.. إنما سلطان حـامد دا إيه؟ دا حتى اسمه مـا ينفعش لواحـد سلطان... ده تلقاه صعلوك ولا كان ولي ولا خلافه. دا أنا اسمع انه كان بيدي عهود للنسوان في أوضة ضلمة، وكان ما يديش العهد إلا وهـو شارب قـزازة كان بيملي نصها سبرتـو ونصها خـل علشان يبقى طينـة مطينـة. إنما أنـا مبسوط منـك.. أنت في الابتدائيـة؟ أخدتم انجليـزي لغايـة فين؟ وبتاخـدوا أجرومية والا لأ؟ أنـا مبسوط منـك. انت باين عليـك ولد نبيـه. سلم على أبوك. قول له جدي الأحمـدي أفندي بيسلم عليـك.. ح تقول له جدي مين؟

ولم يتـركني الأحمـدي أفنـدي يـومهـا إلا بعـد أن سـألني في

العربي والانجليزي والأشيا والصحة وأثبت لي أن علمنا لا يساوي قلامة ظفر بالقياس الى العلوم أيام زمان. . وفي النهاية أوصاني أن أطرد من عقلي حكاية السلطان وإلا فإنه سوف يشكوني الى أبي حين يقابله.

ولم أطردها من عقلي بل كبرت وأصبحت مشكلة عويصة. هذا الإنسان الغريب الذي ليس ولياً من أولياء الله، لماذا خصه أهل بلدنا بهذا التكريم؟ ولماذا بني له مقام؟ وكيف احتل تلك المكانة الهائلة في صدور الناس دون أن يعرفوه؟

هل هو السلطان؟

وإذا كان سلطاناً فعلى أي شيء كان سلطاناً؟ ثم إن كلمة سلطان كلمة كبيرة تكاد تساوي كلمة الملك. . فكيف يدفن سلطان كهذا في بلدنا، بلدنا الصغير الذي لا يعرفه أحد؟ لماذا بلدنا بالذات، وكيف يكون مدفن السلطان متواضعاً الى هذا الحد؟

ـ ٥ ـ

وعلى الرغم من غرابة المشكلة وضخامتها فإني لأعجب لنفسي كيف كنت أحياناً أنساها. كنت إذا فكرت فيها فكرت فيها، وإذا نسيتها نسيتها، وإذا فكرت فيها آليت على نفسي ألا أفكر في غيرها ما حييت، وإذا نسيتها ذهبت عن بالي تماماً وكأني لم أعرفها قط.

وأول الأمر كانت حين تخطر لي ولا أجد لها جواباً شافياً كنت أختنق بالضيق وأحس أني أريد أن أقتل نفسي، ففي تلك السن لا

نحتمل أبداً أن يبقى السؤال إذا عنّ لنا بلا جـواب. ولكن الضيق إذا زاد عن حـده ينقلب الى ضده. وكـان ضيقي قـد زاد عن حـده حتى بدأت أنا الآخـر أفضل طـريقة أهـل بلدنا وأكـاد آخذ السلطان حـامد كـالقضية المسلم بها، ولا أهتم به أو بقضيتـه إلا كما يهتم أهـل بلدنا بها، ولا يكاد يخطر لي إلا إذا مررت على الجبانة مثلاً ولمحت مقامه رمادياً وحيداً بعيداً، أو إذا وقع في يدي قرش مكتوب عليه ضرب في عهد السلطان حسين، أو كان أحياناً يخطر لي فجأة وبـلا سبب وكأن عقولنا تجتـر أحيانـاً ما تختـزنه فتعيـده إلى وعينا في سـاعات لنكمـل فحصه وطحنه.

ولكن ذات يـوم عثرت على شيء مـذهـل غـريب زاد المشكلة تعقيداً. فقد كان لنا نحن تـلامذة بلدنـا فريق محتـرم لكرة القـدم.. فريق أول وفريق ثان ولم أكن في كليهما. كنت شغوفاً بـاللعبة ولكني كنت أفضل التفرج ومـراقبة الـلاعبين.. ولهذا كنت أرافق فـريقنا إذا ذهب ليبـاري فريق بلدة أخـرى. وكانت مبـاريـات رسميـة حقيقيـة، نرسل «باصة» مكتوبة وموقعاً عليها من رئيس الفريق ومـدربه، ويـأتي الـرد مكتوبـاً أيضاً وفيـه تحديـد اليوم والسـاعة والمكـان. وفي اليـوم المحدد (غالباً صباح الجمعـة) يخطط الملعب وبشتـرى اليوسفـاندي والبرتقال للهافتيم، وترسل الأحذيـة القديمـة منذ الصبـاح الباكـر الى الجزمجي ليصلحها، وتنفخ الكرة عند العجلاتي بقرش وتطلى بحبـة طماطم لكي تبدو جديدة، ونستعد للمباراة.

وفي يوم الجمعة ذاك كنا قد ذهلنا لنلاعب بلدة بينها وبين بلدنا

مشوار. وكالعادة كان المكـان الذي اختـاره فريقهـا للعب قريبـاً من الجبانة، فنادراً ما تجد في قرانا مكاناً فسيحاً مستـوياً يصلح للعب إلا ذلك المكان الذي يقع على حافة الجبانة والذي يستعمل كجـرن في أيام الدراس.

وشـات أحد لعيبتهم الكـرة شوتـة «بوز» أرسلتهـا عاليـة بعيـدة تخطت نطاق الملعب والجبـانة واستقـرت فوق بنـاية حجـرية صغيـرة كانت قريبة من المزارع. وفـوجئت بأحـد أفراد فـريقهم يشتم اللعيب الذي شات وهو يقول:

ـ دلوقتي مين ح يجيبها من فوق السلطان حامد؟

وتـركت تتبعي للمباراة نهـائياً. . ومـا كـاد يـأتي الهـافتيم حتى ذهبت أسأل أفراد الفريق الذي كنـا نلاعبـه. ومن كلماتهم المقتضبـة اللاهثة عرفت أن بلدهم فيها سلطان حامد آخر له مقام يشبه الى حـد كبير مقام السلطان حامد في بلدنا، وله أيضـاً نافـذة يسيل منهـا شمع أبيض متجمد ويصنع أنهاراً وبحوراً في الأرض، وهـو الآخر تنـذر له النذور ويستعان بيده وتخفض من أجله الأسعار، وسرعان ما اكتشفت خـلال مباريـات أخرى وأسئلة واستقصـاءات بلا مبـاريـات أن هنـاك سلاطين آخرين يكاد يكون لكل قرية في إقليمنا سلطانها الخاص.

وكـان هذا أكثـر من أن أستطيـع أن أفكـر فيـه أنـا وكـل بلدنـا مجتمعة.

وما قابلت إنساناً سواء كان من بلدنا أو من غيرها إلا وسألته. .

والشيء الـذي كاد يفقـدني عقلي أنهم جميعاً كـانوا يـأخـذون الأمـر بهدوء وبساطة ويستطيعـون النوم بعـد أسئلتي، بل ويتنـاولون الـطعام ويضحكون. . وكأن من الطبيعي أن يوجد لكل قـرية سلطان لـه اسم واحد هو حامد، سلطان خاص بمقام خـاص، سلطان لا يعرف أحـد كيف دفن ولا من بنى لــه المقـام، سلطان شيــطاني استيقـظوا ذات صباح فوجدوا مقامه منتصباً عند حافة جبانتهم ووجدوا مكانتـه سامقـة في أذهانهم. .

كل ما ظفرت به كان إجابات غامضة تزيـد من ثورتي وعجـزي وهياجي، فمن قائـل إن هذا حـدث من قديم الـزمان ولا أحـد يعرف سره، ومن قائل إنه سلطان يمت بصلة القـربى الى أبي زيد الهـلالي سلامة، ومن قائل إنه سلطان واحد حقيقي ولكنـه كتب في وصيته أن تصنع له مدافن في بلاد عدة يدفن في واحـد منها فلا يستطيـع أعداؤه أن يعثروا أبداً على جثته.

ومن قائل إن السبب في هذه اللخبطة كلها هي الحكومـة وهي وحدها المسؤولة.

من أي ملة هو ومن أي دين؟

الله وحده يعلم.

لماذا تحبونه وتقدسونه وتنذرون له النذور إذن؟

من يدري ربما كان ذلك لحكمة تخفى على البشر.

ونحل جسدي وبدأت ألوان كثيـرة تتابـع أمام عيني إذا وقفت،

وأحياناً كنت أكلم نفسي، ونظرت في المرآة يوماً فكدت لا أعرف نفسي.

وخفت ولعنت السلطان ولغزه واليوم الذي قدمت له فيه النذر. خفت أن أموت.. وأقسمت ألا أعود أفكر فيه. جعلني أبي أقسم أن أمنع نفسي من التفكير حتى ولا بعد أن أخذني أبي الى الحكيم وقال لي الرجل السمين الطيب وهو يمسك يدي الناحلة بكفه الطرية الثخينة الدافئة:

ـ مالك يا بني؟

وخفت أن يعتبرني مجنوناً إن أنا قلت له ويرسلني الى السراية الصفراء فقلت:

ـ ما فيش.

وفحصني فلم يجد شيئاً، ولكني انتهزت فرصة خروج أبي وخفت أن أجن إن أنا لم أقل له، فترددت وأنا أسأله إن كان يعرف حلاً لهذا اللغز، وسألني ما هو ذلك اللغز؟ وقلت له كل شيء وختمت كلامي بأن ما أمرضني هو أني لم أجد حلاً ولا تفسيراً.

وأطرق الرجل بوجهه السمين حتى تفرطح لغد الدهن المتهدل من عنقه، ثم رفع رأسه ولم ألمح في وجهه استخفافاً ولا تكذيباً. كل ما حدث أنه رفع لي يده وقال بوجه جاد:

ـ دول إيه يا بني؟

وحرك أصابعه فقلت:

ـ صوابعك.

ـ كم صباع؟

ـ خمسة!

ـ أنت متأكد، عدّ تاني.

ومع أني كنت متأكداً تماماً إلا أني عددتها فعلاً ووجدتها حقيقة خمساً، فابتسم الرجل وقال:

ـ طب أوجد لي حل للغز ده. اشمعنى الواحد له في كل يد خمس صوابع بس؟ ليه مايكونوش ثلاثة وليه مايكونوش ستة؟ اشمعنى خمسة بس؟ جاوبني.

ولم أستطع إجابته. وكان أبي قد حضر فشيعنا الى الباب وهو يضع يده ذات الأصابع الخمسة على كتفي ويقول لي:

ـ يا بني فيه حاجات كثير في الدنيا دي مالهاش تفسير، فاشمعنى نقيت حكاية السلطان حامد عشان تموت نفسك عشانها؟.. علشان تلقى لها حل لازم تفكر وعشان تفكر لازم تكون عايش وعشان تعيش لازم تاكل.. كل.

وظللت آكل حتى أبطلت التفكير وحتى نما جسدي وكبرت، وتركت مدارس ودخلت مدارس ونسيت كل شيء عن حكاية السلطان كعادتنا حين ننسى إذا كبرنا كل ما أرّق تفكيرنا ونحن صغار.

- ٦ -

بعد سنين كثيرة وسنين كنت في إجازة في البلدة ذات صيف، وعدت الى البيت بعد المغرب فوجدت رجلاً غريباً جالساً في وسط الدار يلتهم لقم العشاء بسرعة وتوحش.

ولم أستغرب لوجود الرجل فقد قلت إنه لا بد واحد من ضيوف جدي الغريبين، وكان جدي رغم مضي كل تلك المدة لا يزال عجوزاً كما هو ولا يزال يزاول هوايتيه المحببتين. . شرب القهوة الحلوة خلسة واستضافة الغرباء. وكانت هوايته الأخيرة هذه مبعثها حبه الشديد للحديث. . كانت لذته الكبرى أن يجد مستمعاً ليحكي له أو يجد حاكياً ليسمع له. وكان ساخطاً على بلدتنا التي لم يعد فيها أحد يحسن الكلام. وفي النهاية إن من يحسنون فن الحديث قد ماتوا خسارة وتاواهم التراب وتركوا جيلاً كالبهائم المكممة لا يجيدون الكلام وكأنه بفلوس. ولهذا كان جدي شغوفاً بكل غريب يهبط الى بلدنا، وكان نادراً ما يهبط إليها غريب.

وما كان أسعده حين يتلفت للسلام بعد صلاة العشاء في الجامع فيلمح بين صفوف المصلين غريباً، فعادة الغرباء إذا هبطوا القرى أن يذهبوا الى الجامع حيث فرص الاستضافة أكثر، وحيث يمكن المبيت إذا لم يجدوا المضياف الكريم. وكان جدي ما يكاد يلمح أحدهم حتى يسحبه من يده الى بيتنا، وكم من المشاكل كانت تنشب ولكن كان لا بد أن توقد النار في النهاية ويتعشى الضيف،

وتـوشـوش كنكـة القهـوة على مهلهـا في النـار، ويتكىء جـدي على مسندين ويخرج صندوق «المضغة» ويـروح يلوك أوراق الدخـان التي قضى ساعات كثيرة من اليوم يدقها في الهون ويضيف اليها التـوابل. ولا بد أن يحضر جدي للضيف كيفه ـ سجائر إذا كان يدخن ـ وجوزة إذا كان من كيفه المعسل ويبدأ بهذا الكلام.

وغريب أمر هؤلاء الناس الذين كانوا يفدون على بلدنا، إذ هم في العادة لم يكونوا يزورونها لقضاء عمـل معين. هم فئة عجيبـة من النـاس تلف القرى وتقضي في كـل قريـة ليلة ومعظمهم لا يجيـدون حرفة ما، أناس هائمون على وجوههم وهكذا أو كما يقولون سائـرون بلاد الله لخلق الله، بعضهم لصوص تابوا وبعضهم عمال من المدينـة عـاطلون وبعضهم عندسم لـوثـة وكثيـرون فـلاحـون أفلسـوا من كـار الفلاحة الشاق ولم يوفقوا الى عمل آخـر، ولكنهم يتفقون جميعـاً في أن لكـل منهم قصـة وقصـة في أغلب الأحيـان رهيبـة داميـة. أزواج عشقت زوجـاتهم عليهم وطـردتهم بعـد مـا جـردتهم من كـل مـا يمتلكون، أناس يقولون إنهم محكوم عليهم بأن يظلوا تائهين في بلاد الله هكـذا الى أن يحين أجلهم. وتسـأل عمن حكم فيقـولـون هـو، فتقول من هو؟ فيقولون: هو والسلام. أنـاس تلمح في عيـونهم نظرة حائرة تائهة غير مستقرة.. نظرة كلب ضال.. نـظرة من لا يعرف لـه بيتاً ولا أهلاً ولا أحـداً وراءه يهمه أمـره، نظرة من لا يعـرف الى أين المصير ولا يهمه أبداً إن كانت الشمس ستشرق مرة أخرى.

ولعلني ورثت تلك الهواية عن جدي، ولكن متعتي الكبرى أنـا

الآخـر كانت أن أربض بجـواره إذا جاء الغـريب ولا تستطيع قوة في الأرض أن تنتزعني من مكاني أو تمنعني من سماع حديث الغريب أو تأمل هيئته أو قراءة ما يدور في وجهه.

تلك الليلة أيضـاً جلست أحـدق في الغـريب الجديـد. كـان يرتدي جلباباً قديماً من العبك وعمامـة حمـراء فيها قـطعة سـوداء من الخلف، ولم يكن مظهره يدل على حيرة أو جنـون. عيناه فقط كـانتا مطبقتين على الـدوام لا يفتحهمـا إلا حين يتكلم حتى إذا مـا سكت أطبق أجفانه في الحال.

وكـانت لجدي طـريقـة سـاحـرة في بـدء الكـلام وفـك عقـدة اللسان..

فهـو يظل سـاكتاً حتى يتعشى الغـريب ويشرب شـايه أو قهـوته ويأخذ أنفاساً من الدخان، وغالباً مـا كان الـرجل يتكلم بعـد هذا من تلقاء نفسه دون حاجة الى سؤال. ومعـظم هؤلاء الغربـاء إذا تحدثـوا كانوا لا يبالغون ولا يكذبون وكأنهم يدركون أنها ليلة.. مجـرد ليلة، وأن المستمـع رفيق طـريق.. مجـرد رفيق طـريق. ومهمـا كـان في المبالغة والكـذب من روعة فـلا شك أن أروع شيء عنـد الإنسان أن يتاح له ذات مرة أن يقول الحقيقة دون أن يجر عليـه قولها مسؤولية أو متاعب.

قال الرجل إنه من الفيـوم وإنه ذاهب الى الشـام في حب الله، وإنه سائر على قدميه خمسين يوماً وأمامه مسيرة مائة يوم بإذن الله. ولم

يكن حديثه مسلياً. . كان يتكلم ثم يصمت ويغلق عينيه دون أن ينتهي الكلام.

وبدأ جدي يتثاءب، وكنت لا أستطيع الكلام فجدي كان قد نبه عليَّ ألف مرة ألا أفتح فمي إذا كان أحدهم يتكلم وأن عليَّ أن أجلس فقط وأستمع.

وكثيراً ما كان يؤدي الحديث الى سكوت. . ويطول السكوت والنار قد تحولت الى جمرات، والجمرات غطيت بطبقة رقيقة من الرماد، والليل ساكن ونقيق الضفادع يملأ الليل بنغمة منظمة عميقة كأنه شخير الأرض التي نامت وراحت في النوم.

وفي نوبة سكوت طويلة أطلقت السؤال الذي أرقني طويلاً فسألته:

ـ لماذا العمامة الحمراء ذات القطعة السوداء من الخلف؟

فقال:

ـ لبسنا كده.

ورأيت جدي يعتدل وينفض عن نفسه النعاس ويسأله باهتمام:

ـ أنت من أنهى طريقة وده لبس مين؟

وفتح الرجل عينيه وقال:

ـ احنا مش طريقة. . إحنا ولاد السلطان حامد مالناش طريقة. .

وبدت لي إجابته عادية جداً لا تستدعي حتى مجرد التعليق.

ولكني في اللحظة التالية كنت انتفض.

وجلست قرافيصي وأمسكت الرجل من يديه وأنا أستحلفه أن يروي لي كل شيء عن السلطان..

واستمع لي الرجل وهو يحدق ناحيتي بعينيه المغلقتين حتى خيل إليَّ من طول ما جلس أنه بلا حراك، ولكن بعد أن انتهيت رفع رأسه وواجهني..

كانت عيناه محمرتين ولكنه لم يكن يبكي وصرخ فيَّ فجأة:

ـ وتتهجم على السلطان بالشكل ده ليه؟

وأفهمته بخفوت أني لا أتهجم، أنا فقط أسأل.

وعاد يقول بغلظة وغضب:

ـ وانت مالك وماله ما تخليك في حالك وتسيب الناس في حالها.

وأجفلت..

وقال جدي:

ـ ما فيهاش حاجة يا سيدنا دا بيسأل.. هو السؤال حرام؟ قول له.

وفجأة أيضاً سكت الرجل وسقط رأسه على صدره وهو يقول بصوت باك وكأنه يؤنب نفسه:

ـ أيوه أقول له. . أقول لـه. . أقول لـه على حبيبي السلطان دا كان يابني راجل مبروك.

فقلت بانفعال:

ـ مبروك ازاي؟ له معجزات؟

فقال:

ـ مبروك. . ما تعرفش يعني إيه مبـروك؟ أمال أفنـدي إيه بقى؟ اللي شتت العدوين ما يبقاش مبروك؟ بقى اللي هزم الكفار ما يبقاش مبروك؟ أمال انت اللي مبروك؟

فقلت وأنا ألهث:

ـ مين العدوين دول؟

فصرخ فيَّ:

ـ مانتش عارف مين العدوين؟ حد مـا يعرفش العـدوين؟ دا أبو باع طويل ومدد واسع هو اللي هزمهم. يا بو مدد واسع شالله! يا أهل الله شالله! يا سلطان حامد يـا هازم الكفـرة مدد يـا حبيبي يا سلطان. مدد على طول الماداد ماداد.

وكان صوته قد ارتفع حتى قارب الأذان ومضى يقول وحنجرتـه الكبيرة تتلاعب هابطة صاعدة بارزة كالورم من رقبته الطويلة:

ـ ماداد يا سلطان يا بو مدد واسع. . ماداد على طول المـدد. . ماداد يابو مقامات عالية في مصر وسوهاج وأشمـون وكل البـر، الناس

لها مقام واحد وأنت ليك ألف. يا حبيبي مداد.

ولم نجرؤ على قطع الروحانية التي انتابته وكان واضحاً أنه لا يهلوس كما يفعل المجاذيب في الموالد، كان يبدو صادقاً ويبكي بكاء حقيقياً.

وحين هدأ واطمأننت الى أن هدوءه دائم عدت أسأله.. وأدهشني أنه راح يجيبني كالمغلوب على أمره وبصوت يحفل بالندم والتوبة، ولكن إجابته لم تشف غليلي وقال شيئاً كهذا:

ـ لما الغزاة هجموا على مصر قام لهم السلطان حامد وأصحابه، وقال لهم والله ما تدخلوا إلا على جثتي.

بصوا العدوين لقوه بجلابية استهتروا به، طلع له واحد منهم ورفع عليه سيفه شد منه السيف وتناه. جه العدو يزقه فحس أن الجبل يتحرك وهو لم يتحرك عن مطرحه قيراط. طلع له عشرة يزقوا فيه ما ينزق. بص قائدهم لقى رجليه غارزة في تراب البر ورأسه محصلة عند عنان السماء وبيقول: والله لو جبتوا قد جيشكم ده آلافات ما تقدر جيوش الدنيا كليتها تلحلحني عن تراب البر. فضلم يفكروا يعملوا إيه في غريمهم ده. نط عجوز منهم وقال لهم أنا لقيت الطريق يا رفاقة وعرفت أجيب داغه. قالوا ازاي قال دا جسمه طاهر ما يأثر فيه السيف طول ما هو طاهر ما ياخد السلاح فيه إلا لما يتنجس. قالوا ازاي قال أنا الكفيل أنا ح بول لكم على رجله أنجسها والشاطر اللي ورا بولي يضرب السيف. وقف العجوز النجس يبول

على رجله ومن وراه سيف غدار ضرب ضربة طير الرِّجل. قال لهم سلطاننا حامد وإيه يعني.. دي رجل راحت ولسه ليه رجل. ورجع خطوة. وبالطريقة هيَّاها قطعوا له إيد، ضحك لهم وقال: مالسّه ليَّ إيد، والله يا كفار يا عدوين لاوريكم ولم أخلي فيكم إيد. وفضل العجوز النجس يتبول والسيوف وراه تندب، وجسمه الطاهر في كل بلد إن دارت فيها الحرب يتقطع واللي غفل عنه العدوين إن كل حتة انقطعت كانت بتكبر وتبقى راجل يحارب الكفرة ويهجم على العدوين ويقول أنا ابن أبونا حامد.. أنا السلطان.. أنا اللي ح وريكم نجوم حمرا في عز الضهر. وقطعوه قطع ملايين وكل قطعة بقت راجل، ولما حصلوا راسه كانوا حصلوا الشام وكانوا ولاده بقم الآفات قاموا الى العدوين، وكل واحد يتلم على واحد ويشيله من فوق راسه ويرميه في قاع البحر.

ولما خلص العدوين واتنضف البر قال نحمدك يا رب وطلع منه سر الإله على طول».

ونام الرجل فجأة.

وجدت رأسه يسقط على صدره وشخيره يتصاعد بلا سابق إنذار.

ولم أكد أستعيد حكايته لأفكر فيها وأستعيد التاريخ لأخمن من يكون «العدوين» حتى وجدت رأس الرجل ذا العمامة الحمراء وصاحبه يقول وكأنه يتكلم وهو نائم:

ـ وحد الله.. سيبك.. يا باسط! اللي يزرع الجميل عمره ما يحصد غدر. والناس ما بتنساش.. قدم لهم السبت تلاقي ألف حد قدامك. وكله فدا السلطان. ماداد يا سلطان يا حبيبي على طول المدد ماداد...

ـ ٧ ـ

هناك طريقة مشهورة لجعل السلحفاة تتحرك باستمرار وذلك بأن نربط على ظهرها عصا طويلة نضع في نهايتها طعاماً تراه السلحفاة فتتحرك للوصول إليه وبالطبع لا تصل إليه أبداً، ولهذا تستمر تتحرك.

نحن مثل هذه السلحفاة لا بد لكي نتحرك أن يكون ثمة أمل في متناول أبصارنا نحاول الوصول إليه. ولكننا أحياناً لا نرى الأمل، تخفيه عنا أحداث الحياة فنتوقف، لا يائسين ولكن لكي نبحث عن الأمل. ولا بد للبحث عن الأمل أن يكون لدينا «أمل» قوي في العثور عليه. فترات البحث عن الأمل هذه يسميها الناس اليأس.. بل ويغالون ويضعون اليأس كشيء رأسه برأس الأمل سواء بسواء مع أن الحياة كما نرى أمل متصل، وحركتنا مستمرة إما لتحقيق الأمل أو العثور عليه؛ بل فترات البحث عن الأمل هذه التي يسمونها اليأس.. فترات يكون فيها الإنسان أشد تفاؤلاً وأكثر حركة من المؤمل.

والباحث عن الأمل أو اليأس كما يقولون أشد حرصاً على الأمل ممن عنده أمل.. والذي لا يملك القرش أكثر حرصاً عليه

ممن يملكه. بل إن المؤمل قد يضيع منه الأمل أما الباحث عن الأمل فإنه لا يفقد الأمل أبداً في العثور على الأمل. اليائس أشد تفاؤلاً من المؤمل ولو كان أقل تفاؤلاً لمات في الحال أو لانتحر.

وطول هذه السنين التي كنت آكل فيها وأسمن ـ وقد تركت قضية السلطان ـ كنت في الحقيقة لم أيأس من العثور لها على حل. كل ما حدث أنني كنت أتحرك يحدوني أمل ما، ولكن الحكيم الطيب حين أراني أصابعه وسألني ذلك السؤال ضاع من أمام عيني الأمل.. وضياع الأمل ليس بالأمر السهل، لا بد له دائماً من أسباب في غاية المنطق والمعقولية.

وحاول أن تناقش «يائساً» ما فسوف تجد ليأسه أسباباً في غاية القوة ولكنك سوف تجده أيضاً يبحث عن الأمل. وأن يعثر الإنسان على الأمل مرة أخرى مسألة أحياناً لا تحتاج الى منطق ومعقولية، ولنأخذ حالتي مثلاً.

لم يكن كلام الرجل المجذوب معقولاً ولا منطقياً وليس له وجاهة كلام الطبيب، ولكن كم هي غريبة أمور الدنيا.. فبلا مقدمات أو علامات وجدت أشياء مكتومة في صدري ومختزنة قد تراخت وانعكست، وحفلت نفسي باتساع وتفتح لا حد لهما. وأحسست أن الأمر لا يحتمل أكثر من أن أمد يدي وآتي بحل لمشكلة السلطان.

كان كل شيء ما قد حدث بعد ما استمعت طويلاً الى

تخريفات المجذوب. . شيء وكأنني كنت أشك في وجود الله مثلاً ويحيرني أمره ولا أستطيع أن أجزم بوجوده أو عدمه، وفجأة عثرت على تلسكوب غريب ممكن أن أنظر منه فأرى السماء وأتحقق من وجود الله.

ولم آخذ تخريفات المجذوب على أنها تخريفات. . أخذتها من زاوية أخرى فلا بد أن السلطان حامد هذا من نوع ما، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون. ولكن أية حياة هذه، وأي رجل هذا؟ وترى ماذا فعله حتى يحتل من نفوس الناس تلك المكانة الرهيبة وحتى يجن أناس ويجذبوا حباً فيه وتنسج حوله الخرافات والأساطير وتقام له مئات الأضرحة في مئات البلاد وتضيء كل ليلة بعشرات الشموع مئات الليالي، وربما لمئات السنين؟

وأمر آخر، فأن تعمل طيباً مسألة قد تخصك أنت وحدك، ولكن أن يقدر الناس أعمالك وبالتالي يقدروك مسألة أخرى. فالدنيا حافلة بالطيبين الذين عاشوا للناس وماتوا من أجلهم فلماذا لا يقدرون كلهم؟ لماذا يقدر البعض دون البعض، وعلى أي أساس إذن يختار ملايين الناس من أعمالك ما يستحق التقدير وما لا يستحق؟ ولماذا يصبح بعض الناس من معبودي الجماهير كما يقولون بينما لا يكونون هم أشرف الناس ولا أطيب الناس ولا أكثر حباً للناس وتضحية من أجلهم؟

ولم أكن أدري وأنا أقلب هذه الأسئلة كلها في رأسي أنني

ممكن أن أجد الإجابة عليها عند روجيه كليمان . .

كنت قد عدت الى القاهرة من الإجازة القصيرة وكلي تفتح لا لمسألة السلطان حامد وحدها، ولكن للحياة نفسها.

وكم أدركت خطئي لأني ظللت فترة طويلة من حياتي لا أفكر إلا فيها وحدها، فكما يقولون قد تجد ما تفكر فيه فيما لا تفكر فيه، وقد تجد ما لا تفكر فيه فيما تفكر فيه.

لا بد أن هذه الحكمة صحيحة الى حد ما، ولو الى الحد الذي يجعلني أؤمن أن لقائي بمدام أنترناسيونال، كان اسمها «جين». . ولم أعرف الى الآن جنسيتها فأحياناً كانت تقول انها هولندية والباسبور الذي معها كان من دوقية لوكسومبرج وتقول إن باريس هي محل إقامتها. وحين عرفتها كانت قادمة من جنوب إفريقيا في طريقها الى زوجها التشيكوسلوفاكي الذي يعمل مهندس مناجم في بولندا، وبالشرف إني لا أبالغ فهي نفسها لم تكن تجد غرابة في هذا. . كان تهز كتفيها ببساطة وتقول: أنا أنترناسيونال. أما كيف عرفتها فالمسألة في بساطة جنسيتها. الصدف المحضة دفعتني لأن أزور الاسماعيلية عقب الاعتداء على مصر، والصدف المحضة هي التي دفعتني لأن أقابل أحد أصدقائي الأطباء في مطعم اللوكاندة التي كنت أنزل فيها. والصدف المحضة هي التي دفعت صديقي هذا لأن تتولاه «نوبة شهامة» ويدعوني لأن أقيم معه في حجرته بمستشفى الاسماعيلية وكان يعمل طبيباً مقيماً. وأنا أحب جو المستشفيات

والملابس البيض الحسان، ورائحة اليزول إذا جاءت الى أنفي من بعيد وكانت لطيفة خفية.

وهناك عرفت مدام أنترناسيونال، كانت إحدى مرضى المستشفى وكانت موضوعة تحت الحراسة، فقد كانت أحد ركاب الباخرة «كارولينا» السويدية التي حجزها الاعتداء الغاشم في مياه القنال.

وكانت جين هذه ملحوسة لحسة منقطعة النظير. . فهي لم تكن مريضة ولكنها حاولت الانتحار في الباخرة وأنقذوها في أول لحظة، ولكنها ادعت أنهم جاءوا متأخرين بعدما سرى الأسبرين في جسمها وأن قلبها ما لم يعمل له «رسم» سيتوقف في الحال، وإذا عرفنا أن الباخرة لم يكن فيها جهاز رسم قلب كهربائي أدركنا أهداف مدام انترناسيونال. كان هدفها أن تهبط الى البر وتعيش في مصر، إذ كانت قد زارت تسعاً وثلاثين بلدة من بلاد العالم وكانت تريد أن تحكي لصديقاتها عما رأته في الأربعين.

وسألتها:

ـ ألست ذاهبة الى زوجك في بولندا؟

فقالت:

ـ لا، نحن نلتقي على الدوام في باريس فأنا لا أستطيع أن أحيا في غير باريس.

وقلت لها مرة:

ـ لم لا تفكرين في هدف لحياتك؟

فقالت: كيف أفعل هذا وهدفي في الحياة أن أحيا بلا تفكير؟ .

ولو لم تقل ذلك بطريقتها البادية الصنعة لحسبتها فيلسوفة أو من المفكرين. وكان صديقي الطبيب لا يكاد يستقر في الحجرة في أثناء الليل أو النهار خلال الأيام الثلاثة التي مكثتها في المستشفى. ما تكاد تمضي دقيقة حتى نسمع دقاً: الخواجاية عندها مغص يا دكتور.. ويذهب صديقي فلا يجد مغصاً ولا إسهالاً.. ولا يكاد يعود حتى يعود الدق من جديد: الخواجاية عندها احتباس في البول.

وكنت كثيراً ما أذهب معه ولم يكن صديقي ضيقاً بها، كانت شيئاً جديداً في حياة المستشفى الروتينية وحياته. وكثيراً ما جلسنا نتحدث، وكثيراً ما حملنا الحديث بعيداً الى أبعد من جدران المستشفى ومأساة الحرب. وأخطأت مرة وذكرت لها حكاية السلطان، وكأنها كانت تنتظر طول عمرها أن يقول لها أحد شيئاً كهذا. فإلى أن انتزعت من سرير المستشفى انتزاعاً الى الباخرة كانت لا تزال تسألني وتحلف وتدقق وتروع للتفاصيل وتقول:

ـ أوه.. يا سلام!.

ويا سلام هذه هي الكلمة الوحيدة التي تعلمتها في أثناء إقامتها بالمستشفى.

ولم تكتف بعنواني المكتوب الذي أعطيته لها، ولكنها ظلت ترده حتى حفظته عن ظهر قلب.

وودعتني وهي تقول:

ـ حتماً سأكتب لك.

ولكن لم أتوقع أبداً أن تفعل.

وعدت الى عملي، والى القاهرة والى الساعات اليومية الثابتة التي كنت أقضيها في دار الكتب.

كنت قد أمسكت بخيط ما، وكان ترددي على الدار هدفه التأكد منه، فبحثث عن أسماء جميع السلاطين الذين حكموا مصر أو حتى من قدموا إليها غازين أو زائرين، بل حتى أسماء سلاطين آل عثمان راجعتها كلها، ولم أجد ظلاً ولا إشارة واحدة لسلطان اسمه السلطان حامد.

وحتى هذا الخيط الواهن انقطع، وبهذا فقدت كل أثر للسلطان.

غير أن حماسي لم يفتر أو يقل.

يومان في الأسبوع كنت أذهب الى مكتبة الجامعة ومن هنالك الى قسم التاريخ في كلية الآداب، وأخطىء إذا قلت إن جهودي كانت تذهب عبثاً، إذ خلال شهور طويلة كنت قد تعلمت أشياء عن تاريخنا لم أكن أحلم بمعرفتها، وكنت قد خرجت بعدة صداقات ليس أقلها صداقة متينة كانت بيني وبين «علي بك» القزم الذي لا يكاد طوله يزيد على المتر والذي يبيع الكتب القديمة رائحاً غادياً بين

العتبة والأزهر. وكانت الحكاية قد تسربت مني الى أصدقائي والى معارفهم حتى كنت أحياناً أجد أناساً لا أعرفهم يبتسمون لي إذا قابلوني في مكان عام ويقولون:

هبه.. عملت إيه في حكاية السلطان؟

ونفس السؤال كنت أسمعه من شبان أهل بلدنا وطلبتها، وحتى الكهول. ومع أن الوضع قد انقلب وانتقلت من الطفل السائل الى الرجل المسؤول، إلا أن إجابتي كانت لا تكاد تختلف عن الإجابات التي كنت أجن لها وأنا صغير.

وما أكثر ما كان يصلني من أفكار واقتراحات، يضرب أحدهم كتفي بشدة ويقول:

ـ وجدت لك كتاباً يصلح.

ويأخذني آخر بالحضن ويقول:

ـ خلاص. عرفت حكاية السلطان.

ويحكي، وإذا به سلطان غير السلطان. وكنت أتوقع أي شيء إلا أن أفتح صندوق الخطابات مرة أخرى فأجد خطاباً راقداً في قاعه وعليه طابع بريد أجنبي.

كان الخطاب من مدام أنترناسيونال.

وما كدت أفتحه حتى تساقط منه شيء، ولكني شغلت عنه بقراءة الخطاب. ولم أكن أتوقع أن يكون لها مثل هذا الخط

الجميل، ولم لا أقول إني ما كدت أعرف أن الخطاب منها حتى وجدتها تلوح في خاطري وأحس أني حقيقة افتقدتها. أحياناً يبدو الشخص المتعب جذاباً من بعيد.

وعلى عكس طريقتها في الكلام كتلك الطريقة التي تظن معها أنها لا تتحدث ولكنها تمثل، كان أسلوبها في الكتابة رزيناً حتى كدت أظن أنها أصبحت أرملة. والأغرب من هذا كانت تتحدث عن السلطان!

قالت إنها منذ أن تحركت بها الباخرة وغادرت قنال السويس وهي لا تفكر إلا بمشكلة السلطان، وقد أحست ـ وبنص كلامها ـ لأول مرة أنها وجدت شيئاً يستحق أن تفكر فيه. ولأسخر منها ما شئت ولكنها فعلت والنتيجة مرفقة بالخطاب.

وتأملت ما سقط من يدي حين فتحت المظروف، فإذا به صفحات من كتاب مطبوع.

وعدت أكمل قراءة الخطاب الغريب: لا تسل كيف عثرت على هذه النتيجة، فمنذ عودتي الى باريس وأنا وصديقاتي لم نسترح لحظة واحدة، ولم يكن لنا هم طول الوقت إلا البحث في مشكلة السلطان. وكنت أريد أن أحدثك بالتفصيل عن الجهود الكبيرة التي بذلناها لولا أني أوثر أن أخبرك بأهم شيء. ففي الشهر الماضي صدر عن إحدى دور النشر هنا كتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة وهو عبارة عن مجموعة من الخطابات التي تلقاها المسيو جي دي روان من

صديقه روجيه كليمان. وروجيه كليمان كان أحد علماء الآثار الذين رافقوا حملة نابليون على مصر، ويقال إنه لم يعد وإنه استمصر وارتدى الملابس الوطنية وأقام هناك. وها أنذا أرسل لك مع خطابي هذا بعض صفحات منتزعة من الكتاب وهي تحتوي على الخطاب الأخير. ولعلمك أن الذي قام على تحقيق هذا الكتاب ومراجعته وتدوين الملاحظات عليه هو الدكتور س. مارتان عضو الأكاديمي فرانسيز. وبهذا تستطيع أن تطمئن تماماً الى سلامة كل ما ورد فيه. وأنا لا أعرف إذا كان ما جاء في الخطاب الذي أرسله العالم الفرنسي ما يكفي لحل لغز السلطان أم لا، ولكن لا أريد أن أمنعك من قراءة الشيء الذي انتظرته طويلاً وأظنك في شغف شديد للاطلاع عليه.

أرجوك.. اكتب حالاً وأخبرني بكل شيء.

عزيزتك

جين انترناسيونال

ملحوظة: هل عندكم حقيقة قرية اسمها «شطانوف»؟

وهل لا تزال موجودة الى اليوم؟ صفها إلى في خطابك أرجوك.

- ٨ -

والواقع أني لم أكن في شغف شديد لقراءة الصفحات.. كانت حالتي أقرب ما تكون الى الذهول. لم يكن ذهول الدهشة ولكنه كان ذهول الاطمئنان. فأنا لم أصارح أحداً برأيي هذا ولكني كنت كثيراً ما أفكر فيه. كنت أحياناً ينتابني خوف من نوع ما.. خوف

أن أكون قد ضخمت الموضوع أكثر مما هو في الواقع، خوف أن يثبت لي في النهاية أن السلطان حامد هذا ليس له لغز ولا مشكلة، وأنني أنا الذي صنعت اللغز وخلقت الإشكال، وممكن ألا يثبت أن هناك سراً وراءه ولا يحزنون.

ولو حدث هذا كنت أصبت حقيقة بالذهول.

لحظتها كنت أحس براحة غريبة.. راحة تمنعني عن الحركة وحتى عن محاولة معرفة الحل، وكأنه كان يكفيني أن أعرف وأتأكد أن هناك حقيقة سراً، راحة مضت تدفعني الى أن أفكر في أي شيء إلا التفكير في تصفح الأوراق.

وخطرت لي شطانوف.. لماذا لم أتذكر أن جدي الأكبر طالما حدثني عنها وطالما ذكرني أن لنا هناك أقرباء، وأن جدي الأعلى غادرها في أيام القحط واستقر في بلدنا؟ ولماذا لا يكون السلطان حامد قد أقام فترة في شطانوف في الزمن القديم، لماذا لا أكون من أحفاده؟

وقلت أرحم نفسي وأقرأ الخطاب.

ولكني وجدت الصفحات مكتوبة بالفرنسية وأن محصولي فيها ضعيف، ولذا أسرعت الى أحد الأصدقاء الضليعين فيها واشتركنا في ترجمته وهكذا كانت بدايته:

الخطاب رقم ١٠

هذا هو الخطاب الأخير في المجموعة وإن كان بعض الناس

يعتقدون أنه لم يكن الأخير، وأن الأستاذ كليمـان أرسل بعـده خطابـاً الى صديقه المسيود دي روان ولكن الصديق مزقه عقب قراءته لسبب لا يزال مجهولاً .

أما مصير روجيه كليمان بعد كتابته هذا الخطاب فليس معروفـاً على وجه الدقة . ومع أن بعض الثقات يؤكدون أنه عاد الى فرنسا في أخريات أيامه حيث وافاه الأجل فإنني شخصياً ضد هذا الرأي .

س . ماريشان

وها هو الخطاب . . .

القاهرة في ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١

عزيزي جي

لا زلت لا أعرف إن كان خطابي الأخير قد وصل إليك أم ضل الطريق إليك ، ولا أعلم إن كنت قد كتبت رداً عليه وفقد هو الآخر أم أنني لا أزال سيىء الظن بمصلحة بريدنا الموقرة .

على العموم وسواء ألقي خطابي هذا مصير سابقه أم وصل إليك سالماً فإنني أحس أني لا بد أن أكتب لك ، حتى ولو كنت متأكداً أنـه لن يصـل إليك ، فهنـاك أشياء كثيـرة تحـدث داخـل نفسي وأريـد أن أفضي بها لصديق ، فكما تعلم أنا لا أجرؤ على أن أهمس لأحد هنـا بمـا يـدور في خلدي . . أعلم أنـك ستسخـر مني كعــادتـك ، ولكن أرجوك حاول أن تفهمني فالناس هنا لا يريدون .

طلبت مني في خطابك الذي أرسلته منذ أكثر من ستة شهور أن

أحدثك عن مصر والمصريين، وذلك العشب الذي يحيا على ضفاف النيل.. ومشكلتي يا صديقي العزيز هي هذا الشعب.

إنني اعترف لك أنني لم أكن هكذا يوم جئت. أنا كما تعلم حياتي هي فرنسا وقد اشتركت في حمل جمهوريتنا على أكتافي. كنت وأنا أضع قدمي على أرض مصر أحس أني مقبل على بلاد افريقية مظلمة، أحمل لها شعلة الحضارة وأذيقها طعم الجمهورية التي تنهل منها بلادي. فإذا بي اليوم.. ماذا أقول؟ لقد شاهدت القوى الخارقة بعيني يا روان، لقد مسني سحرها ولكنك لن تفهم، لن أجد أحداً في العالم.. عالمكم يفهم ما أعني فلماذا أتعب يدي وقلمي؟

حسناً! سأصنع كما يصنع مرشدو الآثار وسأحدثك عن مصر، فأظن أن الحديث في هذا هو الذي يستهويك. المصريون يا صديقي ليسوا كما تقول.. فهم لا يرقصون حول النيران في الليل، وحريمهم أبعد ما يكون عن حريم ألف ليلة وليلة، وهم غير المماليك ـ وأظنك لا تعلم هذا ـ والمماليك انتهينا منهم أو من أمرهم في أولى جولاتنا معهم، جاءوا في صف طويل يرتدون الملابس الحريرية الهفهافة ويركبون الخيل المطهمة وخلف كل منهم عبد أسمر يجري. جاءونا كدون كيشوت شاهرين سيوفهم ويصرخون فينا أن نخرج لهم لتدور بيننا وبينهم الحرب ويبدأ النزال.

وكانت إجابة الجنرال (يقصد نابليون) عليهم حاسمة، فقد أطلق عليهم مدفعيته في الحال.

وطبعاً سقطوا يتخبطون ويصرخون ويلعنون نذالة الفرنسيين ويترحمون على زمن الشجاعة والإقدام.

وبعد معركة أو معركتين كنا قد انتهينا منهم كما قلت لك.

أما المصريون فبعضهم يسكن القاهرة والمدن، ومعظمهم يزرعون الأرض ويسكنون قرى سوداء مبنية بالتراب في الأرياف واسمهم الفلاحون.

وآه من هؤلاء يا جي!.

إذا رأيتهم عن قرب ورأيت وجوههم التي تبتسم لك في طيبة وسذاجة وأدركت خجلهم الفطري من الغريب، ربما يدفعك هذا الى الاستخفاف بهم وتعتقد أنك لو ضربت أحدهم على قفاه لما جرؤ على أن يرفع لك وجهه، ولتقبل الإهانة بكل سعادة وخشوع.

حذار أن تفعل شيئاً كهذا يا جي.

فقد حاول الجنرال وكليبر وبيلو ذلك وندموا.

لا أحد يستطيع أن يسبر غور هؤلاء الناس.. تلك القبيلة ذات الملامح المتشابهة التي هبطت ذات زمان بعيد الى وادي النيل وآلت على نفسها ألا تتحرك من مكانها أو تتفتت. والقبيلة التي تعلمت أن تحني رأسها لعاصفة الغزاة ثم تمضغهم على مهل. القبيلة التي تسكن وادياً مفتحاً من كل الجهات تستطيع بأي جيش صغير أن تغزوه. والمشكلة ليست في الغزو أبداً.. المشكلة ما يحدث بعد الغزو.

وأتحدى التاريخ أن يثبت أن غازياً دخل هذه البلاد واستطاع أن يغادرها سليماً . لديهم آلة عجيبة - هؤلاء الفلاحين - يستعملونها لطحن الحبوب، حجر كبير يدور فوق حجر كبير ويوضع الحب من فوق لسيماً ليخرج من بين الحجرين أنعم من الدقيق.

لقد وجدنا الأتراك هنا قد أصبحوا دقيقاً من أزمنة طويلة مضت، وكان المماليك في طريقهم الى نفس المصير. . لست أدري أين تكمن قوتهم ولا كيف تتم تلك العملية، ولكن المؤكد أنها تتم.

وقصة حامد لا أقول إنها توضح ما أريد ولكن فسرها إن كنت تستطيع، لقد جئت هذه البلاد عدواً ولن أخدع نفسي وأقول - مثلما يقولون كلهم هنا - إنني جئت لأحرر المصريين من المماليك. جئت عدواً يا صديقي . . جئنا كلنا عدواً قوياً مسلحاً بأحدث ما وصلت إليه أوروبا من مخترعات وآلات دمار. . جئنا غزاة قادرين فإذا بنا اليوم في ورطة، وإذا بمشكلتنا هي كيف ننتزع أرجلنا لننجو بأنفسنا من طمي هذا البلد وأناسه الذين نحس بأنفسنا نغوص فيهم ونختفي.

ولا أزعم أني سأحسن الحديث عنهم، فليس في استطاعتي أن أفعل شيئاً كهذا، سأحدثك فقط عن حامد. فمنذ شهور كثيرة وهو الموضوع المفضل للحديث بيننا حين نملك الحديث، ويكفي أن تعلم أن القيادة قد أصدرت أمراً غير مكتوب بمنع الحديث عنه.

وحامد هذا ليس زعيماً من زعماء المصريين بل إنه الى شهور قليلة لم يكن أحد يهتم بحامد هذا أو يقيم له وزناً، فقد كان أحد

فلاحي قرية شطانوف الواقعة بين فرعي النيل، وأظنك لا يمكن أن تعتقد أن اسم شطانوف هذا اسم فرنسي.. ولكنه كذلك. فالقرية كان اسمها في الأصل كفر شندي وكان بجوارها قلعة قديمة من قلاع المماليك. وحين غزونا الدلتا وطردنا المماليك هدمنا القلعة القديمة وبنينا أخرى جديدة بخامات محلية وأسميناها شاتو نيف (أي القلعة الجديدة)، وكذلك غيرنا اسم البلدة وسميناه باسم القلعة، ولا تحسبني أسخر حين أقول إن هذا كل ما صارت اليه رسالتنا تجاه بلاد إفريقيا المظلمة.. أن نغير اسماً باسم، ولكن الفلاحين غيروا فيما غيرنا بطريقتهم الخاصة، فأطلقوا على القرية اسم شطانوف بدلاً من شاتو نيف.

حامد كان من فلاحي هذه القرية الذين يزرعون الأرض ويصلون لله في الجامع، وظل هكذا الى أن جاءت قواتنا وعسكرت في القلعة الجديدة، وكانت القوات بقيادة الكولونيل بيلو الذي عانقته وأنت تودعني في مارسيليا، أتذكر! والقلعة كانت بالغة الأهمية إذ كانت نقطة ارتكازنا الرئيسية في الدلتا كلها، وكانت في الوقت نفسه قاعدة تخرج منها الدوريات لتفتيش المنطقة بانتظام.

وكانت سياسة بيلو منذ أن حل في القلعة أن نتجنب مضايقة الفلاحين أو التحرش بهم حفظاً لسلامة القاعدة، وليس لأننا أصدقاء المصريين كما كان يحاول الرجل الطيب أن يفهم الفلاحين، ليس هذا فقط بل كانت سياسة الجيش عامة أن يحاول التقرب من الوطنيين ويوطد علاقته بهم.

ولم نستفد من إقامة هذه العلاقات إذ كلما حاولنا أن نتقرب منهم ازدادوا نفوراً، وكلما حاولنا إفهامهم أننا أنقذناهم من ظلم المماليك، نظروا إلينا طويلاً وكادت نظراتهم تقول: جئتم لتنقذونا من المماليك، وجاء المماليك لإنقاذنا من الأتراك، وجاء الأتراك لانقاذنا من التتر، وجاء التترلإنقاذنا من الخليفة وجاء الخليفة لإنقاذنا من البطالسة، وجاء البطالسة لإنقاذنا من الإغريق.. لماذا تخصوننا بشهامتكم أيها السادة؟!

وما أقسى نظرات هؤلاء المصريين حين يوجهونها إلى عدو غريب! إنهم بينهم وبين أنفسهم يعاملون بعضهم كالديوك، طول النهار لا يتحدثون إلا شتائم، هناك أكثر من مائة لقب للأب تبدأ من المركوب وتمر بكل ما يلبس في الأقدام، وتغطي المملكة الحيوانية حتى الخنزير، وأي مكان في جسد الأم ممكن أن يصلح مادة للشتائم. شعب ثروة شتائمه لا تجدها عند أي شعب آخر، ولا يتكلمون إلا زعيقاً. ومع هذا فليجسر غريب ـ أي غريب ـ ويحاول أن يلمس أحدهم: ما إن يحدث هذا حتى تحدث المعجزة وإذا بهم يواجهونه وقد نسوا كل ما كان بينهم من شتائم وخلافات.

وكنا دائماً نحس بنظراتهم تكاد تلتهمنا، وما أقسى أن تعيش بين شعب لا يحاول أن يخفي عداوته. وهكذا ظلت الهوة تتسع حتى حدث عصيان القاهرة الذي حدثتك عنه، ومنذ ذلك الانفجار وأعصاب قواتنا في انهيار مستديم.

ورغم تعليمات بيلو وتنبيهاته اليومية فقد فَقَدَ أحد جنودنا

المعسكرين في شطانوف أعصابه ذات يوم وأطلق النار على فلاح كان يتتبعه بنظراته . . فقتله .

وأحدث هذا العمل أسوأ الأثر في القرية .

وذهب الفلاحون الغاضبون بزعامة شيخ البلد لمقابلة الكونيل بيلو. ولم ينتظر الرجل وذهب لمقابلتهم عند الباب وطلبوا منه أن يقتل القاتل أمامهم، فحاول بيلو أن يقنعهم أن القاتل سيحاكم وأنه سيلقى جزاءه، ولكنهم أصروا على أن يختار بين أمرين: إما أن يقتل القاتل أو يسلمه لهم لكي يقتصوا منه. ورفض بيلو كلا الأمرين وأمر الأهالي بالانصراف.

وصدعوا للأمر وانصرفوا . .

ولكن في اليوم التالي قتل أحد جنود القلعة وهو في طريق عودته إليها.

وذهب بيلو على رأس قوة كبيرة وقبض على شيخ البلد وأحضره الى القلعة، وطاف مناد في القرية يقول: ما لم يسلم القاتل نفسه قبل مغيب الشمس فإن شيخ البلد سيعدم رمياً بالرصاص.

وقبل مغيب الشمس توجه للقلعة أحد الفلاحين وقال إنه القاتل وطلب الإفراج عن الشيخ. وأخذ بيلو الموضوع كله ببساطة وقرر أن يشنق الفلاح بعد محاكمته على مرأى ومسمع من الفلاحين ليعتبر غيره بمصيره.

وكان هذا أسوأ قرار اتخذه بيلو في حياته.

ففي اليـوم التالي سيق المتهم الى سـاحـة القـريـة الـرئيسيـة، وجمع كل من وجد في القرية من أهلها وأوقفـوا في الساحـة ليشهدوا المحـاكمـة. . وتكـونت المحكمـة من بيلو رئيسـاً والمـاجـور لسـال والسيرجنت جان بروميرجر عضوين، وكـان هنالـك ممثل اتهـام، أما الـدفاع فـلا تدهش إذ قمت أنـا به. . ذلـك أنني كنت قد وصلت في ذلك اليوم بالذات لأقضي بضعـة أيام في ضيـافة بيلو، ولأدرس حيـاة الفلاحين عن كثب.

وكـل ما كنت قـد عرفتـه عن المتهم أن اسمـه حـامـد وأنـه لا يختلف عن بقية الفلاحين في المظهر أو الشكل، كل ما يميزه أنه كل طويل القامة طـويل الأنف واسـع العينين، إصبـع يـده اليسرى البنصـر مبتورة وعلى وجنتيه عصفورتان مـوشومتـان لتقويـة بصره كمـا قال لي الترجمان. . وطبعـاً لم أكن أريد أن أشتـرك في هذه المهـزلة، ولكن صديقي بيلو ألح عليّ لأؤدي هذا «الواجب» باعتباري الوحيد الموجود الذي حمل دكتوراه في القانون.

وطبعاً كانت مهزلة. . الفلاحون جالسون وواقفـون في الساحـة ينظرون لنا نـظرات كلغتهم لا نفهمها، والمحكمـة تتبادل التعليقـات الساخرة بصوت مرتفع، وثمة مترجم ركيك لا يجيد العربيـة ولا حتى الفرنسية.

وجـاء دوري لأدافـع عن المتهم، ولست أدري مـاذا كـان رأي بيلو في دفاعي الذي بدأته بـالحديث عن الثـورة الفرنسيـة وشعاراتهـا

المقدسة التي قامت من أجلها.. الحرية والإخاء والمساواة. كم كان مضحكاً أن أتفوه بها في ساحة شطانوف.. والحكم صادر ولا ينقصه سوى التنفيذ.

ولحسن الحظ ـ ولسوئه أيضاً ـ لم يتح لي أن أكمل مرافعتي.. فقد هجموا علينا.. لم نكن ندري من أين جاءوا ولكن امتلأت الساحة بتلك العصي اللعينة التي يسمونها النبابيت، وبالخناجر المتوحشة الرهيبة التي تصرخ لهكبر لهكبر. ولن أحدثك عن الرعب المجنون الذي انتابنا محكمة واتهاماً ودفاعاً وحراساً، فقد كنا لا نزال نعاني من فوبيا الفلاحين التي تكونت لدينا. فقد حدث بعد الاستيلاء على القاهرة أن أرسل نابليون جيشاً بقيادة مارتن ليحتل المنطقة الشرقية من الدلتا.. وخرج الجيش في الفجر، وما انتصف النهار حتى كانت قواته عائدة في حالة يرثى لها. الجنود يرتجفون وعيونهم تنطلق بالرعب المجنون وملابسهم في حالة تمزق كامل، وكل منهم يروي قصة مختلفة غريبة عن قوم متوحشين خرجوا عليهم مسلحين بالنبابيت والعصي والفؤوس والمناجل وكانوا يصرخون كأكلة لحوم البشر، وتخرج صرخاتهم كالرعد وهي تردد لهكبر لهكبر (ومعناها أن الإله أكبر من كل الأعداء) وجنوده كما تعلم هم صفوة الجيش الفرنسي المختارة، الصفوة التي فتح بها قائدنا العظيم نابليون النمسا وأسبانيا وبولندا وانتصر بها في سالزبورج وإيطاليا، الصفوة التي شتتت المماليك الشجعان الأقوياء في معركتين تصور هذه الصفوة المسلحة بالبنادق والمدافع تواجه قوة مسلحة بالعصي والمناجل فتفر مفزوعة

هالعة لا تملك حتى أن تطلق بنادقها أو تتجمع صفوفها (ولماذا أخفي عليك أن بعض جنودنا تبولوا على أنفسهم من شدة الرعب)؟ ولم يستطع أحد أن يفسر هذه الظاهرة أبداً، وهل هي راجعة لوحشية هجوم الفلاحين أو لأسباب أخرى غير معلومة.

وكان لهذه الحادثة نتائج رهيبة.. فقد كان لرجوع جنود مارتن بهذا الشكل الدرامي أسوأ الأثر على الروح المعنوية لجيشنا كله.

منذ ذلك التاريخ أصيب جنودنا بمرض الخوف من الفلاحين إلى درجة جعلت أحد أطباء الجيش يطلق على هذه الحالة(فلاحين فوبيا).

غير أن هذا المرض بدأ يزول تدريجياً حين تم لنا الاستيلاء على مصر، ورأينا الفلاحين عن قرب ولم نجدهم متوحشين ولا من أكلة لحوم البشر. وجدناهم حين عرفناهم طيبين جداً ومسالمين ويخجلون من الغرباء.. ولكنهم مطيعون. وأحيانا كنا نجدهم ساذجين حتى ليخيل للواحد منا أنه لو صفع أحدهم لما احتج ولما غضب. ولم نكن نستطيع أن نصدق أنهم هم الذين أفزعوا قوات مارتن حتى أحالوها إلى قطيع من الحيوانات المذعورة التي تبحث عن النجاة بأية طريقة.

ما كدنا نرى هذه العصي الرهيبة التي يسمونها النبابيت ونسمع لهكبر هذه حتى جرينا كلنا إلى القلعة لنحتمي بها. ولم تحدث في هذا اليوم خسائر.. كنا فقط قد خسرنا المتهم. إذ كانوا قد استطاعوا

في غمرة الارتباك الشديد الذي حدث أن يهربوه. وتـولى بيلو غضب جامح وجمع قواته في فناء القلعة وألقى عليهم خطاباً يفيض بالتـأنيب والتوبيخ، وقال لهم إننا سنخرج كلنا من القلعة ولن نعود حتى نكـون قد قبضنا على حامد هذا وعلى عشرة غيره..

وتركته هو يواصل جهوده المظفرة، أما أنا فقـد أخذت طـريقي عائداً إلى حفرياتي في منطقة الهرم. ولكن أخبار مـا حدث بعـد هذا كـانت تصلنا من القاهرة باستمرار ولم أعرفها وحدي.. كان الجميع يعرفونها.

فقـد خرج بيلو على رأس قـوة القلعة كلهـا وحاصـر شطانـوف وفتش المـزارع التي حولهـا وفتش كل البيـوت ولم يعثر على حـامد. فقبض على شيخ البلد وعلى عشرة من الأهالي، ونادى المنادي أيضاً بأنه ما لم يظهر حامـد فسيعدمهم.. ولكن الشمس غـابت ولم يظهـر حامد. وخاف بيلو إن هو أطلق النار على الفلاحين الأسـرى أن يزداد الشغب.. فأعطى أهالي شطانوف مهلة أخرى، ولما لم يظهـر حامـد غضب بيلو وأطلق النار على شيخ البلد واحتفظ بالباقين أحياء.

وكان لإعدام شيخ البلد دوي شديـد في شطانـوف والبلاد التي حولها، وسرت إشاعة تقول إن حامد الفلاح أقسم أنه سوف يقتل بيلو انتقاماً للشيخ.

ولكن بيلو لم يكن بالرجـل الذي يخيفـه التهديـد، فقد استمـر يخرج على رأس الدوريات التي تبحث عن حامد.. ولكنه خرج مرة

وعاد محمولاً على حصانه وجسده ممزق بالثقوب.

ولم ينم الجنرال ليلتها وأمر بتيسير القوات التي كانت تعسكر في شبراخيت إلى شطانوف، وعهد بالقيادة إلى الجنرال كليبر نفسه. وكانت مهمة القائد الجديد هي التنقيب في منطقة شطانوف وما حولها بحثاً عن حامد هذا، الفلاح ذي الإصبع البنصر المبتورة، والعصفورتين الموشومتين على وجنتيه.

ولم يكن الهدف من القبض على حامد هو إعدامه لرد اعتبار جيشنا فقط، ولكن كان الهدف هو القضاء عليه نفسه، إذ ان قتله لبيلو أكسبه شعبية هائلة في القرى المجاورة. وشعور الفلاحين لنا بإعتبارنا كفاراً وأجانب وأعداء قد بدأ يتبلور حول شخص حامد هذا، خاصة وقواتنا كانت لا تراعي المجاملة في الاستيلاء على الأطعمة وعلى الخيول بلا مقابل.

وضع كليبر خطة دقيقة حاصر بها منطقة وسط الدلتا كلها حتى أصبح وقوع حامد متوقعاً بين يوم وآخر. ولكننا يا صديقي كنا نواجه قوماً غريبين لا نعرفهم.. فقد وجد كليبر نفسه المحاصر وسط السحنات المتشابهة المتفاهمة التي لا يستطيع أن تعرف ما يدور خلف جبهاتها أبداً.

وكانت العلامة المميزة لحامد معروفة بالوشم على وجنته وإصبعه البنصر المبتورة فانظر ماذا حدث؟.

جميع حقول الذرة تركت بلا حصاد وانتزعت منها ثمراتها

وهي واقفة. ففي أرض مصر المستوية لا يمكن الاختفاء والاحتماء إلا في حقول الذرة، تلك الحقول التي يمكن أن يكون بينك وبين الشخص أمتار قليلة ولا تراه. وعرف كليبر عن طريق العيون الكثيرة التي يستخدمها أن كل قرية في الدلتا قد أعدت لحامد بيتاً وزوجة! وكانت الأنباء تجيء أن حامد سيكون في قرية كذا في يوم كذا. . وتهاجم القوة الفرنسية القرية وتحاصرها حصاراً لا تفر منه إبرة، ومع هذا تجد حامد ينزلق من بيت إلى بيت حتى يصل إلى حافة القرية ويبتلعه حقل ذرة قريب. وكان كل من يعثر عليه وعلى وجنتيه وشم العصفورتين أو إصبعه البنصر مقطوعة يقبض عليه فوراً. ولكن لوحظ أن عدد المقبوض عليهم يزداد بكثرة شديدة، وبعد البحث اتضح أن الفلاحين ـ لكي يخفوا حامد بعلاماته المميزة، رأوا أن يرسم أكبر عدد منهم وشم العصافير على وجناته ويقوم ببتر بنصره اليسرى حتى لا يصبح ممكناً أن تميز حامد من بينهم. وبعد أن كان وشم العصافير على الوجنات علاجاً لتقوية البصر أصبح عادة شعبية، وبتر الإصبع البنصر أصبح مجال تنافس بين رجال القرى وشبانها ومرتبة من مراتب الشجاعة والبطولة. وكان لا بد أن يحدث ما حدث يا صديقي، فشيئاً شيئاً بدأت عصابات صغيرة تتكون من مبتوري البناصر وواشمي العصافير وتهاجم وتقطع الطريق على قواتنا وتغتال أفرادها، وكان أفراد هذه العصابات يسمون أنفسهم أولاد حامد. . وأطلقوا على حامد اسم حامد الأكبر ثم سموه حامد السلطان (والسلطان هنا علامة للتبجيل الشديد). وبدأ اسم حامد يزعج كليبر

بشكـل رهيب كلما مـرت قواتنـا في قـريـة صـرخ وراءهـا الأطفـال: حـامد حـامد. وكـان المؤذنون الـذين يستدعـون النـاس للصـلاة في المساجد(أناس يقابلون أجراس الكنائس عندنا ولكن بدلاً من أن تدق يؤذن الشيـخ) كانـوا يقـولـون في آخـر الأذان. إنصـرني يـا رب على أعدائي فإني لـك حامـد. وكانت قـواتنا حين تمسكهم يقـولون: إننـا فقـط نـردد كـلام الله وكـلام القـرآن. وأصبحت عمليـة القبض على حـامد مستحيلة. . وعمليـة حصار وسط الـدلتا لا فـائدة منهـا. كـان الرجل قد ذاب في الأجساد الخشنة التي تبدو ساذجة، وأصبح المهم هـو ألا يقضى على شخص حامـد. . ولكن المهم هـو القضـاء على اسمه الذي أصبح كالتميمة والسحر، بل أصبح أخـطر من كل بنـادق جيشنا فقد كان الفلاحون يطلقونه على قواتنا أنى رأوهـا. واسم كهذا إذا اتفق قوم كهؤلاء على ترديده وإطلاقه على آذان قواتنا كل يوم وكل لحظة وبشكل مستمـر، يصبح أثـره أقوى من الـرصاص على معنـوية قواتنا، ولهذا فكثيراً ما كانوا يفقدون أعصـابهم ويبكون أو يقتلون من يكـون أمامهم من المصـريين. . وكلما قتـل واحد منهم قتلوا واحـداً منا.

وغزا اسم السلطان حامـد كل أنحـاء الدلتـا، ثم دخل القـاهرة وانتشـر بين أهلها إنتشـاراً جنونيـاً حتى أصبحـوا في حلقـات الـذكـر يقولون بدل يا سلطان حامد«مدديا سلطان» ثم غزا الاسم مصر العليـا وتكونت فرق أولاد السلطان حامد في كل مكان، وتلفت أعصـابنا يـا صديقي من هذا الاسم. كـان العمال الـذين أستخدمهم للحفـر كلما

تحدثوا لا يقولون إلا حامد، وأحياناً كانوا يتكلمـون بغيرهـا ولكني لا أشك لحظة في أنهم يقولون شيئاً آخر غير حامد حامد حامد.

ووصلنـا إلى مرحلة لم نعـد نحتمـل فيهـا سمـاع هـذا الاسم بـالمرة، وكم استسخفت إيمـانهم بحامـد هـذا.. كـانـوا في نـظري كالأطفال حين يمسكون شيئاً، وكلما حاولت أخذه ازدادوا استمساكـاً به.

ولكن مهما كان استخفافي بهم وبإيمانهم فقد كنت أعجب بهم بيني وبين نفسي. فتصور! كلمة واحدة مثل حامد حين تبنوها، كلمـة ـ مجرد كلمة ـ تحولت إلى قوة كبيـرة مخيفة يـا صديقي لمجـرد أنهم آمنوا بها. إنهم عجيبون هؤلاء الناس فإيمانهم ليس عن اعتقاد وتفكير ولكنه عن حب. يحبون الشيء إلى درجـة الإيمان وإن لـديهم طاقـة حب هـائلة يا صـديقي. إنهم من كثـرة حبهم لبعضهم(رغم الشتـائم التي حدثتك عنها) لديهم أنـواع غريبـة من القرابـات.. فمحمد ابن خالة عمر. وإذا جاءت سيـرة واحد أمـام أحدهم وقـال لك: إنـه من نسائبنا فلا تظن أنه أخو زوجته بل يمكن أن تكون كل القـرابة بينهمـا أن أحد بلدياتـه متزوج من بلدة الـرجل الآخـر. إنهم ليسوا شعبـاً.. إنهم كتلة. وكتلتهم كـانت قد التفت تمـامـاً حـول حـامـد حتى غـدا الجنرال ـ مهما يكن الجنرال ـ قزماً بجواره. وانظر ما حدث..

من شهور قلائل تلقت قواتنا خبراً رقصت له فرحاً. أسعد خبر جاءها منذ أن غزت مصر. فقد قتل حـامد! تصادف أن كـان أحد ضباطنا الذين حضروا محاكمته يمر بدوريتـه في السوق ولما رآه أطلق

عليه النار في الحال. ولولا أنه فر هو ودوريته في إبان الارتباك الشديد الذي عم السوق.. لكانت الجماهير قد أكلتهم بأظافرها وأسنانها.

ولن أحدثك عن الغضب الجامح الذي رج مصر من أقصاها لأقصاها.. ولا نتيجة هذا الغضب. ويكفي أن كانت إحدى نتائج مصرعة أن حرقت قلعة شطانوف بكل ما فيها، وثارت القاهرة للمرة الثانية، وأعلن المماليك استقلال الصعيد، وأصبح الوضع من الخطورة بمكان. وكثيراً ما رأيت في أحلامي أيامها أننا نذبح كلنا على قارعة الطريق.. كنا نحيا فوق قمة بركان نخاف أن يفتح فاه الضخم ويبتلعنا.

وما كادت قواتنا تتنفس الصعداء ـ رغم كل الاعتداءات التي حدثت ـ بعد مصرع حامد السلطان حتى جاءتنا أنباء لم نكن ننتظرها، فالفلاحون لم ينقلوا حامد من المكان الذي لقي فيه مصرعه أبداً. ظل في مكانه لا يمسه أحد، وفي ظرف ثلاثة أيام كانوا قد بنوا فوقه ضريحاً ذا قبة عالية.

والذي جن له كليبر أن الناس بدؤوا يفدون لزيارة الضريح في جموع لا يحصى لها عدد. تتوافد كل يوم وتلتقي حول الضريح كما تتجمع جيوش النمل حول كسرة الخبز. جن كليبر لأنه أدرك أن قتل السلطان حامد لم يغير شيئاً. كل ما حدث بعد أن كان حامد اسماً تتناقله الأفواه أن أصبح حقيقة لها مكان وفوقها قبة عالية. تصور حين يصبح الشخص بموته أكثر خطورة من كل ما كانه أثناء

حياته. وتصور الجماهير الغفيرة حين تأتي من أماكن بعيدة ساحقة البعد فقط لتزور ضريح ميت، حتى ولو كان قاتله أحد الفرنسيين؟.

ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة؟.. وهل لأنه قتل فرنسياً انتقاماً لمصرع زميله الفلاح يرفعونه إلى درجة كبيرة من التقديس؟.

أم لأنه تحرك في وقت كانت الناس في حاجة لأن ترى فيه واحداً يتحرك كي تنطلق من عقالها وتندفع في كل اتجاه؟.

قلت لأحد العمال الذين يعملون معي:

ـ هل تحب السلطان حامد؟

ـ أحسن من أولادي..

ـ هل أنت مستعد أن تموت من أجله؟

ـ لا أموت مرة واحدة، أموت مرات من أجله..

ـ لماذا..؟

ـ لماذا؟! هذه مسألة لا يصح فيها السؤال.

ـ هل تعرف عنه شيئاً؟.

ـ كل ما أعلمه أنني مستعد أن أفديه بروحي.

ـ من هو السلطان حامد يا محمد..؟

ـ يكفي أنه مات شهيداً..

ـ ولا شيء غير هذا..

ـ ولا شيء غير هذا..

لقد جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا. بمدافعنا، وموسيقانا النحاسية، ومطبعتنا، وتفاعلات كيميانا، ولكن أنى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل والحب والبقاء؟ أنى لنا بإيمان كهذا؟ أنى لنا بالقدرة على أن نكون أفراداً إذا أردنا، وكتلة واحدة حين نريد؟

ممكن أن نكون قد أدهشناهم بحضارتنا، ولكن صدقني لقد روعوني بحامدهم.

ومسكين جنرال كليبر.

فقد كانت أنباء زيارات الآلاف للضريح تقلقه وتجعله يكثر من ابتلاع سلفات المانيزيا، وكل ما فعله بقتل السلطان أن أوجد أمام المصريين شيئاً ملموساً يجتمعون حوله ويرددون اسمه في صيحات صاخبة تجلجل تحت قبة السماء.

وكان أولاد السلطان حامد قائمين بنشاطهم الحاد على قدم وساق، فكان الناس يقبلون لزيارة الضريح وهم لا يعرفون لماذا هم مقبلون، ويعودون وهم لا يعرفون كل شيء عن الحرب التي دارت بينه وبين الكفرة، وعن قتله غدراً ومصرعه، وعن الانتقام.

ولم ينتظر كليبر حتى ينفجر البركان.. فقد هاجم الضريح بكل قواته وهدمه وانتزع الجثة من مكانها ولم تكد تمضي على وفاتها أيام، وألقاها في النيل.

وما كاد يستقر في ثكناته حتى كانت الجثة قد استخرجت من الماء بطريقة غير معروفة، وحتى كان قد اختير لدفنها مكان قرب

الشاطىء، وحتى كان قد بدىء في بناء ضريح آخر فوقها. وفي أيام كانوا قد انتهوا من إقامة ضريح بدا أكثر ضخامة من الضريح الأول. وقبل أن يتم البناء كانت جماهير الفلاحين وسكان المدن عرفت مكانه وبدأت تفد بالآلاف المؤلفة إليه.

وقال كليبر لأركان حربه: إن عليهم أن يقضوا على هذه الخرافة قبل أن تقضي هي عليهم. وتشاوروا طويلاً فيما يفعلونه.. ولو لم يكن كليبر كاثوليكياً لوافق على حرق الجثة. ولكنهم وجدوا حلاً وسطاً في تقطيعها قطعاً صغيرة وذرها في أنحاء البلاد، وليبحث المصريون حينئذ عن إله آخر يؤمنون به. أو خرافة أخرى يتمسكون بها ويتشبثون.

وفي الليل وكان لا يمكنهم تنفيذ شيء كهذا إلا تحت جنح الظلام، تسلل الجيش الجمهوري إلى ضريح السلطان حامد وسرق الجثة وقطعها.. ووزعت على فرق مضت تبذرها في طول البلاد وعرضها. ونام كليبر ليلتها أعمق نوم.

ولكي أكمل لك القصة لا بد أن أضيف أن كليبر نام نومه العميق ذاك لليلة واحدة فقط، فقد بدأت الأنباء تترى بعد هذا بأن المصريين قد بدؤوا يقيمون ضريحاً فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان.

وبعد أن كانت مشكلة كليبر سلطان حامد واحد أصبح لديه الآن مئات السلاطين. كل سلطان منهم تفد إليه الآلاف المؤلفة من

الجمـوع وتلتف حولـه وتـرتـج السمـاء بـذكـر اسمـه، ويتخـذه أولاد السلطان مركزاً للنشاط.

وهل تلومني بعد هذا حين بدأ أمر السلطان حامـد يشغلني إلى درجة دفعتني أن أستبدل ثيابي الأوروبية بثياب وطنية، وأذهب لـزيارة واحـد من مئات الأضـرحة المقـامة لـه لأعرف سر هـذا التعلق بـه، وأعرف لم وقع اختيارهم عليه ليرفعوه إلى مصاف الآلهة.

لقـد فعلت ذلـك بـالأمس إذ كـان يـوم الخميس يـوم زيـارة الضـريح، يـوم يقبل الآلاف من أركـان الأرض البعيـدة وعليهم غبـار الحقـول ولفحة الشمس ليلتقـوا عند صـاحب المقام. ومـا أغرب مـا رأيت.. ازدحام هائل وكأنـه يوم الحشـر، ورجال كثيـرون في ثيابهم البيضـاء المتسخـة، ونسـاء كثيـرات في أرديتهن السـوداء، وأنـوار كثيـرة.. أنوار المشـاعل وأنـوار الشوارع وأنـوار لا تـدري مصـدرهـا وكـأنها تتـولد من زحمـة الناس، ودفـوف كثيـرة تضـرب فينخلع لهـا القلب، جبـاه يلمع فيهـا العرق، وعيـون غامضـة متـطلعـة، وأيـدي تلوح، وعشـرات الآلاف من الحنـاجـر تخـرج عشـرات الآلاف من النداءات المبحوحة المستغيثة الآمرة.. «يا سيدي حامد» كلمة واحدة مكونة من ملايين الكلمات الخارجة من الصـدور المتضاغـطة، كلمة كبيرة ضخمة تتجمع فوق الضريح كسحابة مقدسة من موسيقى ضوئية راجفة تهتز وتنبسط على فرع الدفوف.

وأدركت أن مـا تحت الضـريـح ليس هـو المهم، المهم هـو الأجسـاد الخشنة الغليـظة الملتفة حـول الضريـح، المهم هـو النـداء

الواحد الصادر من عشرات الآلاف من الأفواه الواسعة الجائعة، المهم هو الوجه الآخر للوحش الخرافي الذي خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده، المهم هو ما تفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط بأضواء المشاعل وأنوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الأجسام.

لقد وقفت مشدوهاً يا صديقي وكأني أرى هذا المزيج الهلامي المعلق بين الأرض والسماء، كأني أرى الإرادة المتجمعة، كأني أرى كل ما لدى الناس من حب وقد ضمته صرخة واحدة. كأن تلك الأجساد الخشنة الملوثة بالطين والتراب تفرز مادة أكثر سمواً من الأجساد الحية، أكثر سمواً من الحياة.. خلاصة الحياة.. جماع كل ما هو قادر فيها وقاهر.. وجماع كل ما لا يمكن مقاومته، القوة العليا الخارقة، سر الحياة.

وضريح حامد كان هو البؤرة التي تتجمع حولها الإرادات وتلتقي في بؤرة ترتكز الإرادة في الخلود وتسويها لتصبح اكسيراً سحرياً قادراً على تحقيق الخلود. ماذا أقول؟ لقد وقفت خاشعاً واجفاً أراقب الجموع وهي تفرز الإيمان وتشترك في خلقه لتعود تؤمن به، ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد فيصبح حين يلتقي بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب في كل قلب، تطهره وتقويه وتغذي فيه روح البقاء.

لقد أحسست يا صديقي أني أواجه القوى الخارقة. حقيقة

أحسست بهـذا. . أحسست به إلى درجـة كادت تـدفعني لأني أسجد لهـا وأطلب المغفـرة، أحسست بـالاكسيـر ينسكب في قلبي والنـور الموسيقي الراجف يملأ صدري ويمتزج بحناياي فأحس لأول مرة في حيـاتي بعظمـة الحياة وروعـة أن نكون بشـراً وآدميين نمتلك القـدرة المعجزة، قدرتنا على أن نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو أسمى من حياة كل منا.

لن تـدرك ما أعني يـا روان، محال أن تـدركه من غيـر أن تراه وتحسه، ومشكلتي أني رأيته وأحسسته.

أنـا أكتب لك خـطابي هـذا من حجـرة في القلعـة ومن خـلال النـافذة ألمـح جنودنـا يقـومـون بـطوابيـر الـصبـاح وينـظفـون البنـادق ويستمعون إلى الأوامر ويتسلمون الذخيرة الجديدة ويزيتون المدافع، وها هو البروجي يعزف نوبة الجنرال. وإني أرثي لجنودنـا وجنرالهم. ما فائدة البنادق والرصاص؟ ألكي تخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم؟ وما فائدة القتل في قوم يحبون قتلاهم وموتاهم؟ في قوم يخلقـون من الميت الـواحـد مئـات الأحيـاء ويخلقـون لكـل حي بعـد هـذا آلاف الأولاد؟

إني خائف يا روان. . منـذ الأمس وأنا أحس بقـوى لا قبل لي بها تجذبني إلى هذا الشعب وتهيب بي أن أعرف سره. وسوف أقـول لنفسي إنها محاولة للدراسة ولكن لا تصـدقني فأنـا لا أصدق نفسي. إني أقـاوم بعنف. إن ثقافتي وتـراثي وعقلي تمنعني أن أنجـذب إلى كتلهم حين تتجمـع ولكني لم أعـد نفسي، لقـد غيـرت ليلة الأمس

أشياء كثيرة داخلي. إني خائف أن تنتهي مقاومتي.. خائف أن أنسل اليوم أو غداً وأذهب إلى ضريح من مئات أضرحة السلطان حامد الفلاح المبتور البنصر الذي اشتركت في مهزلة محاكمته، خائف خوف الموت أن أفعل له مثلما كنت أفعل للعذراء في الكنيسة عندنا فأضيء له شمعة وأضعها بجوار شمعات الفلاحين الفقراء لتنير قبره.

وصحيح أن شمعتي لن تكون شيئاً بجوار ما يحظى به السلطان من تكريم وتقديس، فما هي سوى شمعة واحدة.. شمعة من مئات الشموع التي أضاءت وستظل تضيء مئات أضرحته مئات الليالي، ومن يدري ربما مئات السنين!.

ولكن لا تعجب إذا أقدمت على هذا اليوم أو غداً أو في مساء قريب، فإني أحس بنفسي سائراً بلا إرادة إلى هذا المصير. أحس بمقاومتي تتلاشى وتنتهي.

النجدة يا روان!







آخر الدنيا



لعبة البيت

شب سامح على أطراف أصابعه ونط ودق الجرس. وسمع صوتاً طويلاً ممدوداً يقول: مين؟ فاحتار وخاف وسكت.

وفتح الباب، ووقفت على عتبته سيدة ضخمة مهيبة ترتدي قميص نوم خفيفاً جداً، لونه أصفر باهت كقشر الليمون. ووجم سامح وكاد يجري، ولكنه تماسك وعرف أن التي فتحت هي أم فاتن، رغم وجهها الخالي من المساحيق..

وقبل أن يحدث أي شيء ابتسمت له السيدة ابتسامة كبيرة، وانحنت ناحيته وقالت:

- يه.. هو انت يا حبيبي؟!.. أنا رخرة قلت مين اللي بيضرب الجرس ده ومالوش خيال.. عايز ايه يا حبيبي؟ عايز الهون.. ماما بتعمل كفته؟.

ولم يجب سامح في الحال.. مد بصره من خلال وقفة الأم العريضة وقميصها الشفاف وما بقي من الباب في فراغ، محاولاً أن يرى فاتن.. ولكنه لم يجد لها أثراً، لا في الصالة ولا في الحجرة

القريبة المواربة للباب، ولا بجوار الراديو تعبث بمفاتيحه . .

وقال بجرأة منقطعة:

ـ عايز. .عايز فاتن تلعب معايا. .

وضحكت الأم، وانحنت وقبلته وقالت:

ـ كده؟. طيب حاضر يا حبيبي . .

وانبسط سامح، وانبسط أكثر حين التفتت إلى الخلف ونادت:

ـ فاتن. سيبي الغسيل أحسن تبلي هدومك. . وتعالي . . . تعالي علشان تلعبي مع ابن أم سامح . .

ثم التفتت إلى سامح قائلة:

ـ بس أوع تزعلها يا حبيبي . . لحسن مخليهاش تلعب معاك بعد كده أبداً . .

وقال سامح بحماس وعيون صغيرة ذكية تبرق:

ـ إن زعلتها ياتانت ما تخليهاش تلعب معايا تاني . .

فقالت أم فاتن وهي تتركه وتستدير:

ـ وما تنساش تسلم لي على مامتك وتقول لها ما بتزرناش ليه؟ .

ثم دخلت السيدة إلى الحمام وهي تهتز وتتدحرج . .

ووقف سامح يترقب ظهور فاتن ويتأمل الصالة، كان فيها طرابيزة سفرة مثل صالتهم، غير أن كراسيها قديمة موضوعة فوق الطرابيزة.

وكان هناك كـرسي غريب الشكـل مسنده عـالٍ جداً يحتـاج إلى سلم للصعود عليه، والكرسي ترقـد فوقـه قطة ذات ألـوان جميلة: ملفوفـة على نفسها ونعسانـة. وظهرت فـاتن فجأة وكـأنما خـرجت من تحت الأرض، ترتدي فستانها الأبيض القصير الذي يرتفع ذيله عن الركبة، وتوجهت إلى التسريحة الموضـوعة في الصـالة وانحشـرت بينها وبين الحـائط، ثم أخرجت سبتـاً صغيراً مثـل الأسبتة التي يبـاع فيهـا حب العزيز غير أنه مصنوع من البوص، وعلقت السبت في يـدها واتجهت إلى البـاب حيث يقف سامـح، وابتسم لهـا سـامـح وسـار في اتجـاه السلم، وتبعته فاتن.

وفي منتصف السلم قال لها فجأة:

ـ إن كنت جدعة امسكيني قبل ما اوصل باب شقتنا.

وجرى أمامها فوق الـدرجات، ولكنـه حين لم يسمعها تجـري خلفه توقف وقال:

ـ أخيه عليكي.. مش قادرة تجري ورايا يا خايبه..

فقالت وفي ملامحها ثبات وتأفف ورزانة:

ـ أنا محبش الجري ده..

وتضـايق سامـح قليلاً من تـأففها، ووقف ينتـظرهـا وهـو معلق بدرابزين السلـم ونصفه خارج عنه..

ودخلا الشقة من بابها المفتوح، وتأكـد سامـح أن أمه مشغـولة

في المطبخ إذ كانت لا ترحب أبداً بإحضاره فاتن ليلعب معها . . وعبر سامح الصالة وفاتن وراءه وعيناها لا تغادران السبت المعلق في يدها .

وأصبحا في الحجرة الداخلية ذات السرير الحديدي القديم والدولاب والكنبة .

وقال سامح وهو يهلل ويشير إلى ما تحت السرير :

ـ أهو ده بيتنا . . أهو ده بيتنا . . يالله بقى نعمل بيت . .

ورفع داير السرير الأبيض الذي يحيط به من كل الجهات ودخل تحت السرير ودخلت فاتن وراءه . . وبينما بقيت هي على رزانتها بدأ سامح يصنع زيطة كبيرة ويصرخ ويدور ويهلل ، ثم أخدها إلى ركن السرير الداخلي حيث صندوق الشاي القديم الذي يحتوي على كل ممتلكاته والعابه الخاصة . . مجموعة كبيرة من علب السجائر الفارغة ، وأغطية الكازوزة ، وأرجل كراسي مصنوعة بالمخرطة ، وعلب تونة وسالمون بمفاتيحها ، وقطع صغيرة كثيرة من أقمشة جديدة متعددة الألوان سرقها من درج ماكينة الخياطة ، وجر الصندوق وأخذ يستخرج محتوياته ويفرج فاتن عليها . . وبدأت الرزانة تغادر فاتن فجلست على الأرض وتربعت ، وأخذت تخرج من (سبتها) لعبها هي الأخرى وممتلكاتها وتفرجه عليها . .

وفي هذه المرة أيضاً أعجب سامح بالحلة الألومنيوم الصغيرة ، والوابور البريموس الصغير ، وطرابيزة المطبخ التي في حجم علبة

الكبريت، واستكثر على فاتن أن تكون هي مالكة هذه اللعب الجميلة كلها. . ثم انتابته الخفة والحماسة فقام وأخذ ثلاثة ألواح خشبية كانت ساقطة من «الملة» القديمة، ومضى يضعها على حدها ويقسم بها ما تحت السرير إلى أقسام وهو يقول:

ـ دي أوضة السفرة. . ودي أوضة النوم. . وده المطبخ. وبدأت فاتن تنقل أشياءها إلى المطبخ، ووضعت الطرابيزة في ركن ووضعت فوقها الوابور، ثم وضعت الحلة فوقه وقالت:

ـ احنا تأخرنا قوي. . نطبخ ايه النهارده؟!

فقال سامح في حماس:

ـ نطبخ رز. . يالله نطبخ رز. .

وما لبث أن غادر تحت السرير في الحال وجرى إلى المطبخ حيث ادعى لأمه أنه يبحث عن كرته المفقودة في الدولاب، وعاد وقبضته الصغيرة مضمومة وموضوعة في جيب بنطلونه، وحين أصبح تحت السرير فتحها ووضع محتوياتها من حبات الأرز القليلة في الحلة. .

وقالت فاتن وهي تتنهد:

ـ انت تروح الشغل وأنا أطبخ. .

فقال سامح:

ـ أروح الشغل ازاي؟

فقالت:

ـ مش انت تروح الشغل.. وانا أطبخ؟

فقال:

ـ اايه.. انتي عايزة تلعبي لوحدك.. يا نطبخ سوا سوا يا بلاش..

فقالت فاتن:

ـ لا يا سيدي.. هي الرجالة تطبخ؟.. انت تروح الشغل وانا أطبخ.. يا كده يا بلاش..

فقال سامح:

ـ دي بواخة منك دي.. عايزة تطبخي لوحدك وتقوليلي روح الشغل؟. والله مانا رايح..

واحتقن وجه فاتن غضباً وقالت:

ـ طب هه..

وأنزلت الحلة من فوق الوابور ووضعتها في السبت.

فقال سامح بغضب:

ـ هاتي الرز بتاعي.. هو بتاعك؟

فأخرجت فاتن الحلة.. وقلبتها على الأرض.. وقالت:

ـ رزك اهه. جك قرف.

ونشبت خناقة حادة. . وكل يحاول أن يحمع حوائجه، هذه لي وليست لك. . وشتمته ولعنت أباه، وغضب سامح ودفعها فسقطت منها العروسة. . وأخيراً جمعت فاتن أشياءها ووضعتها كلها في السبت الصغير، وعلقت السبت في يدها ورفعت داير السرير واختفت.

واغتاظ سامح كثيراً وهو يراقبها، وتمنى لو يلحقها قبل أن تغادر شقتهم ويضربها. . بنت مثلها صغيرة ومفعوصة تريد أن تمشي عليه كلمتها. دائماً تغيظه هكذا كلما لعب معها، وكل مرة يلعب معها فيها يصمم إلا يعود للعب معها. . في المرة القادمة سيضربها بالقلم لو فتحت فمها. . ولكن لا. . لن تكون هناك مرة قادمة. . لن يلعب معها أبداً حتى لو أحضرتها أمها ورجته أن يلعب معها. . بنت مفعوصة ذات سن أمامية مكسورة تغضب لأتفه سبب، وما أسرع ما تعلق سبتها في يدها وتتركه. . هي حرة، وحتى هو ليس في حاجة اليها ليلعب. . يستطيع أن يلعب وحده ولا الحوجة اليها. .

وهكذا بدأ سامح يحاول أن يلعب لعبة البيت وحده، فراح يقيم الحواجز الخشبية التي هدمتها الخناقة، ويكلم نفسه بصوت عال وكأنه يريد أن يقسم نفسه إلى قسمين أو شخصين يلعبان معاً، أحدهما يتكلم والآخر يسمع. ومضى يقول:

ـ ودي أوضة السفرة، وده المطبخ. . نطبخ ايه النهارده؟

وأجاب على نفسه:

ـ رز.

ولكنه غير رأيه بسرعة وقال:

ـ لأ.. فاصوليا..

وفكر أن يذهب ويسرق فاصوليا من المطبخ، ولكنه لم يجد لديه حماساً كافياً لتنفيذ الفكرة.. كان قد بدأ يدرك أنه يضحك على نفسه حين يقسم نفسه قسمين يلعبان مع بعضهما.. وبدأ يتبين أنه يلعب وحده فعلاً، وبدا حينئذ كل شيء ماسخاً وقبيحاً إلى درجة أنه لم يعد يصدق أن ما تحت السرير بيت كما كان منذ دقائق مضت.. بدأ يرى الألواح الخشبية مجرد ألواح، والدواية التي كان ينوي استعمالها حلة مجرد علبة ورنيش فارغة لم يعد ما تحت السرير بيتاً، ولا عادت الألواح الخشبية حجر نوم وجلوس وسفرة.

واغتاظ سامح .. فمن دقائق قليلة وحين كانت فاتن تلعب معه كان يعتقد فعلاً أن المطبخ مطبخ، والصالة صالة، وحجرة السفرة حجرة سفرة. لماذا حين ذهبت وأصبح وحده بدأ يرى كل شيء سخيفاً مختلفاً وكأن لعبة البيت لا تنفع إلا إذا لعبها مع الست فاتن؟

وفي غمرة غيظه غادر ما تحت السرير، بل غادر الحجرة كلها، ومضى يلف في الصالة يبحث لنفسه عن لعبة أخرى يتسلى بها.. وفي درج مكتب أبيه الأخير عثر على حنفية قديمة، استغرب كيف كانت موجودة طوال هذه المدة في ذلك المكان ولم يعثر عليها سوى اليوم. أخرج الحنفية ومضى يفتحها ويغلقها وينفخ فيها، ومضت في

ذهنـه فكرة: لمـاذا لا يستعملانهـا هو وفـاتن في لعبتهما فيـركبها في رجل السرير ويصنع لها حجرة صغيرة وتكون هي الحمـام؟ ألا يصبح حينئـذ كالبيـوت الحقيقية؟ ولكن. . لا. . إنـه لن يلعب أبـداً معهـا، حتى ولو جاءت من تلقاء نفسها وحاولت تلعب معـه. . سوف يقـول لها بكل احتقار:

ـ جايةهنا ليه يا باردة؟. روحي يالله على بيتكم. .

وطبعاً هي لابد قادمة عمـا قليل، فهي الأخـرى لن تجد أحـداً تلعب معه.

وانتـظر سامـح أن تأتي، ولكنهـا لم تأت، وتـذكر حينئـذٍ كيف كانت غلبانة وهي تنحني وترفع داير السرير والسبت معلق في يدها. . كانت غلبانة صحيح. لماذا لا يذهب ويصالحها؟ وذهب إلى الباب وفتحه، وتلفت هنا وهناك ولكن الطرقة كانت خالية وليس فيها أحد. .

وعاد مغمومـاً إلى الحجرة الـداخلية، واتجـه إلى السريـر ونظر من الفرجة الكائنة بين الداير الأبيض والمرتبة. . بدا ما تحت السرير واسعاً جداً وخراباً، والألـواح الخشبية ولعبـه وأشياؤه المبعثـرة شكلها كئيب، وليس هناك أبداً أي أثر لذلك العالم الصغير الذي كـان أحب اليه من كل عوالم الكبار وسيماته ومباهجه.

وترك الحجرة متضايقاً وظل يدور في الصالة. وفجـأة أحس أنه ضاق ببيتهم كله وأنه يـريد الخـروج منه والـذهاب إلى أي مكـان. . وهكذا وجد نفسه واقفاً في الطرقة خارج باب الشقة وحده، أمه تناديه

وهو يكذب ويقول إنه ذاهب ليلعب مع الأولاد في الحارة.

وفي الطرقة بدأ يفكر.. لابد أن فاتن ذهبت إلى أمها باكية، ولابد أن أمها أخذتها وأغلقت عليها الباب ولن تسمح لها أبداً باللعب معه مرة أخرى. إن أخوف ما يخافه لابد قد حدث. يا له من غبي سخيف! لماذا أغضبها؟ لماذا لم يقل لها: أنا رايح الشغل اهه، ويصل إلى باب الحجرة مثلاً ثم يعود ويقول لها: أنا رجعت م الشغل اهه. لماذا عاندها؟ وماذا يصنع الآن؟

وهبط درجات السلم تائهاً، محتاراً، متردداً بين أن يهبط ويحاول أن يجد طفلاً من أولاد الحارة يلعب معه اسخف لعب، فهو لا يريد إلا أن يلعب مع فاتن لعبة البيت بالذات، وفاتن ذهبت إلى أمها ولن تعود أبداً، أو أن يصعد ويدعي لأمه أنه سخن ومريض. وحتى لم يجد في نفسه أي رغبة أو حماس لكي يهبط أو يصعد أو يتحرك من مكانه أو أي شيء. كل ما أصبح يتمناه من قلبه وهو يهبط درجة ويتوقف درجات أن تزل قدمه رغماً عنه فيسقط ويتدحرج على السلم ويظل رأسه يتخبط بين الدرجات، وكل خبطة تجرحه وتسيل دماءه.

وحين وصل في هبوطه إلى باب شقة أم فاتن كان الباب مغلقاً ومسدوداً وكأن أصحابه سافروا أو عزلوا.. القى نظرة واحدة على الباب ولكنها جعلته يحس بالرغبة في البكاء، ويسرع بالهبوط.

وقبل أن ينتهي السلم عند آخر بسطة، توقف حزيناً حائراً،

وكأن شيئاً ثميناً جداً قد ضاع منه، وأخرج رأسه من درابزين السلم وتركه يتدلى في يأس من حديد الدرابزين. . ومضى يجلس على الأرض ويفرد ساقيه بلا أي اهتمام بملابسه أو بما يلحقها، ثم يقف فجأة وقد قرر أن يكمل الهبوط ولكنه يجد نفسه قد عاد للجلوس وإدلاء رأسه من حديد الدرابزين. وكلما تذكر أنه لولا عناده لكانت فاتن لا تزال تلعب معه، وكلما تصور أنه قد حرم اللعب معها إلى الأبد، تمنى لو مرض فعلاً أو مات أو أصبح يتيماً من غير أب أو أم.

ولم يصدق عينيه أول الأمر، ولكنه كان حقيقة هناك ـ على آخر درجة في السلم ـ سبت فاتن الصغير نائماً على جنبه والحلة الألومنيوم ساقطة منه. وهبط السلالم الباقية قفزاً، وتدحرج وعاد يقفز، وعلى آخر درجة وجد فاتن هناك. . هي بعينها جالسة ورأسها بين يديها، وكانت تبكي ودموعها تسيل، وسبتها الصغير راقد بجوارها والحلة قد تبعثرت منه.

وأحاطها سامح بذراعيه واحتضنها وراح يطبطب عليها بيديه الصغيرتين، ويقبلها في وجهها وشعرها ويقول لها وكأنه يخاطب طفلة أصغر منه بكثير ويصالحها، وهو فرحان لأنها لم تذهب لأمها ولا اشتكت: معلش معلش معلش. .

وجذبها برفق لينهضها، ونهضت معه بغير حماس ودموعها لا تزال تتساقط. . دموع حقيقية. وأعاد الحلة إلى السبت وعلقه في يدها، ومضى يصعد بها السلم وذراعه حولها، وهي مستكينة اليه لا تزال تدمع وجسدها ينتفض، ولكنها لا تقاومه ولا تتوقف عن الصعود.

الشيخ شيخة

بلاد الله واسعة وكثيرة، وكل بلدة فيها ما يكفيها . . كبار وصغار، وصبيان واناث، أناس وعائلات، ومسلمون وأقباط، وملك واسع تنظمة قوانين وتقض مضاجعه قوانين، وأحياناً يخرج للقاعدة شاذ، كالحال في بلدنا الذي ينفرد دون بلاد الله بهذا الكائن الحي الذي يحيا فيه، والذي لا يمكن وضعه مع أناس بلدنا وخلقها، ولا يمكن وضعه كذلك مع حيواناتها. وأيضاً ليس هو الحلقة المفقودة بينهما . . كائن قائم بذاته لا اسم له، أحياناً ينادونه بالشيخ محمد وأحياناً بالشيخة فاطمة، ولكنها أحيان وللسهولة ليس إلا، فالحقيقة أنه ظل بلا اسم ولا أب ولا أم، ولا أحد يعرف من أين جاء ولا من الورثة ذلك الجسد المتين البنيان . . أما أن له ملامح بشرية فقد كانت له ملامح، كانت له عينان وأذنان وأنف ويمشي على ساقين . . ولكن المشكلة أن ملامحه تلك كانت تتخذ أوضاعاً غير بشرية بالمرة، فرقبته مثلاً تميل على أحد كتفيه في وضع أفقي كالنبات حين تدوسه القدم في صغره فينمو زاحفاً على الأرض يحاذيها، وعيناه دائماً عين منهما نصف مغلقة، وعين مطبقة . ولم

يحدث مرة أن ضيق هذه أو وسع تلك. . وذراعـاه تسقطان من كتفيـه بطريقة تحس معها أنهما لا عـلاقة لهمـا ببقية جسـده، كأنهمـا ذراعا جلباب مغسول ومعلق ليجف.

وبشعـر رأسه القصيـر الكثيف الخشن كـالفـرشـاة تبـدأ مشكلة تستـرعي الانتباه. . فليس فيـه علامـات أنوثـة، وهـو أيضـاً يخلو من علامات الـرجولـة، وجسده ضخم ربـع في سمك الحـائط ومتانتـه، ولكن وجهـه لا يحمل أثـراً للحيـة أو شـارب. وكـان من الممكن أن يفصل صوته في نوعـه ويضمه إلى دنيـا النساء أو الـرجال، ولـولا أنه كـان لا يتكلم ولا يتحـرك إلا إذا أوذي أو تـألم، وحينئـذٍ يخـرج منـه فحيح رفيع لا تستطيع أن تعرف إن كان فحيح أنثى أم ذكر، أو حتى فحيح آدمي أصلاً. .

وكـان نـادر المشي، وإذا مشى سـار في خـطوات ضيقـة جـداً وكأنه مقيد. وهوايتـه الكبرى أن يقف. . يـظل واقفاً بجـوارك أو أمام دكانك أو في حوش بيتك كالمذنب بلا ذنب، ساعات وساعـات دون أن يخـطر بباله أن يتحـرك، ولا أحـد يعرف كيف يـأكـل أو من أين، فالطعام إذا قدم اليه رفضه. . والبعض يؤكد أنه يقتات بالحشائش من الغيـطان، وأن طعامـه المفضل هـو البرسيم، وأنـه إذا شرب يشـرب كالمواشي من الترعة. ولكنها أقوال، مجـرد أقوال، ولـم تبلغ الجـرأة بأحد أن يزعم أنها رؤية عين.

وكائن كهذا لو وجد في أي مكان آخر لـرأى الناس فيـه ظاهـرة جديرة بالدراسة والأبحاث، أو على الأقـل ينشر صـورته في الجـرائد

والقيام معه بتحقيقات.. ولكن أهل بلدنا لم يكونوا يرون فيه كائناً شاذاً أبداً، كل ما في الأمر أنه كائن مختلف. وما دام يحيا بينهم لا يؤذي أحداً ولا يجلب شراً لأحد، فلا اعتراض لأحد على حياته ـ وحرام أن يعترضه أحد، أو يحملق فيه انسان، أو يسخر من وقوفه أو اعوجاج رقبته ساخر، فهكذا أراد الخالق. وإذا أراد الخالق فلا مناص من ارادته.. وليس على العبد أن يعترض على نظامه حتى إذا شذ النظام.. وكم شذ النظام حتى ليبدو الكون بلا نظام وكم من مجذوب مهفوف ومشوه ومجنون.. والكل يحيا ولابد أن يحيا الكل، ويضمهم ذلك الموكب الرهيب البطيء السائر بهم نحو النهاية حيث لا نهاية، كل ما في الأمر أن أهل البلد كانوا يعاملون الشيخ شيخة بنوع خاص من الرهبة، ليست فيها تلك القدسية الممزوجة بالسخرية التي ينظرون بها إلى المجاذيب والأولياء، وليست فيها تلك الشفقة الممزوجة بالاشمئزاز التي ينظرون بها إلى المشوهين والمرضى. ربما رهبة النظر إلى شيء مخالف شاذ، يكشف بشذوذه عن كنه النظام الهائل الذي يلف الكون والناس، رهبة من النظام أكثر منها رهبة من مخالفة النظام، كان إذا جاء على قوم جالسين تحاشوا النظر اليه وتعمدوا ألا يجعلوه يحس أنهم شعروا بوجوده. وقد يلقي عليه واحد أو اثنان نظرات عجلى مستطلعة، ولكن العيون لا تلبث أن ترتد، والألسنة لا تلبث أن تستمر فيما كانت فيه من حديث، بصرف النظر عن وقفته غير بعيد عنهم، وثبوته في مكانه ثبوت جذع نبت من الأرض فجأة.. وإذا جذب وقوفه الذي يطول انتباه الأطفال والتفوا

حـوله يتـأملونه بـلا رهبـة أو خشيـة من معصيـة الاعتـراض، نهـرهم الكبار، وتطوع واحـد بالجـري وراءهم حتى يغيبهم في شقوق البلدة وحواريها . . والـويل لهم إذا فكـر أحدهـم في معـاكسته أو نغـره بعود قطن ليجعله يصدر ذلك الفحيح الغامض الرفيع .

وسنين طويلة قضاها الشيخ شيخـة في بلدنا على هـذه الحال، والناس قد أحلوه من كل واجبات الانسان والحيوان والنبات وتركوا له كل حقوقها . إذا شاء وقف كالنبات وتسمر، وإذا شاء فح كالحيـوان، وإذا شاء تحرك من تلقاء نفسه كانسان وإلى أي مكان يريد، لا يزجره أحد، ولا يعترض طريقه أحد. ويدخـل أي بيت ويظل قـابعاً في أي ركن فيه ما شاء من الوقت، دون أن يضايق وجوده أهل البيت أو حتى يحسوا له وجوداً وكأنه يصبح إذا حل . . جزءاً من المكان أو الزمان أو الأثير. تتعرى النساء أمامه وكذلك يفعل الرجال، وتتحدث العائـلات عن أخص شئـونها في حضـرتـه، وينـام الـرجـل مـع زوجتـه أو غيـر زوجته، وتدبر أمامه المكائد وتكتب البلاغات، ويقول الهامس اللآخر حين يـريد أن يـطمئنه كي يفتـح له صـدره: قول يـا أخي قول. . مـا تخافش. . هو فيه إلا أنا وأنت والشيخ شيخة. . قول.

***

كل ما في الأمـر أنه هنـاك بين كل بضـع سنين وأخرى تنـطلق اشـاعة، خـافتة واهنـة لا تكاد تصـل إلى الألسنة حتى تـذوب فوقهـا وتتبدد. . مرة يقولون إن ثمة علاقة مريبة تربـطه بنعسة العـرجه، فهي

كثيراً ما تشاهد وهي تبحث بعينيها في الليل عنه، وأحياناً تسأل عنه، وكثيراً ما رؤيت خارجة من الخرابة القريبة من الجامع حيث كان يقضي معظم لياليه. وهي لابد تعاشره.. في اشاعة، وفي اشاعة أخرى يقولون إنه ابنها، وإنه جاء هكذا لأنها حملت به سفاحاً من أب فاسد الدم من رجال البندر، حيث كانت تذهب نعسة لتبيع الجبنة واللبن وأحمال الحطب في الفجر.. ويتردد الناس ألف مرة في تصديق أيهما، فنعسة تكاد بطلوع الروح تحسب على جنس النساء، فهي صلبة العود كالرجال، جافة الأخذ والرد متينة البنيان، تدخل العركة وتعور الرجال، وتخرج سليمة لم يصب جلبابها تقطيع. مات عنها زوجها وهي صغيرة فتحزمت بحزام الكادحين واشتغلت، وتقلبت في الكثير من الأعمال التي يزاولها النساء، ولكن طبعها كان إلى الرجال أقرب، وهو الذي حال بينها وبين الزواج، وهو الذي جعلها تستقر آخر الأمر في عملها الذي رشحتها له عضلاتها القوية وعظامها العريضة.. حمالة أحطاب وتبن وطحين وكل ما لا يستطيع وما لا يليق بالرجال أن يحملوه. وكل عدة شغلها (حواية) صنعتها من أثواب بالية وخاطتها حتى أصبحت كالكعكة، وإذا وضعتها فوق رأسها تستطيع أن تحمل بها حمل جمل ولا تكل، وتمضي بحملها ثابتة الخطوة مختالة ترج الأرض، وتحدف عياقة بساقها فيرن خلخالها الذي لم تفرط فيه.. ربما ليظل العلامة الوحيدة على أنوثتها، تلك التي تلتهم الأحمال الوعرة والعمل الشاق علاماتها واحدة وراء الأخرى.. وعيبها الوحيد أنها كانت إذا مشت فاضية بغير أحمال لا تعرف كيف تمشي، وتنط كالجرادة ، وتتذبذب خطواتها

بين هزات الأنثى ودغرية الذكر، ومن هنا سموها بالعرجة، سماها الرجل غيرة، وسمتها النساء استنكاراً، وسماها الكل ظلماً، أمن في مثل خشونتها يعاشر الشيخ شيخة؟ أو حتى يتصور أحد أنها كانت أماً لابن ذات يوم حتى لو كان الابن هو هذا المخلوق؟.

ولكنهم يؤكدون ويقولون إنها بعد ولادته أخفته في نفس الخرابة التي يأوي اليها في كبره، وظلت ترضعه خفية وترعاه بعيداً عن الأنظار، ولم يخرج منها إلا وهو كبير بأسنان!

وفي عام يكثر الحديث عن ميوعة النساء وفسادهن، ويبلغ الأمر بالبعض أن يدعي أن بعض الجائعات والقاطنات في أطراف البلدة لا يجدن ما يشبعهن فيلجأن إلى الشيخ شيخة وهن ضامنات صمته المطبق ولسانه الذي لن ينطلق.

ومرة سرت قصة تقول إن الشيخ شيخة ليس ابن رجل كبقية الآدميين ولكنه ابن قرد، وإن إحدى نساء بلدنا اللاتي أعياهن البحث عن الخلف لجأت إلى غجرية فوصفت لها «صوفة» تستعملها. واستعملتها ولحظها السيء كان فيها نطفة قرد جعلتها تحمل وتلد الشيخ شيخة، وتفزع منه ساعة ولادته فتعطيه للغجرية وتعطيها نقوداً ثمناً لسكوتها ولكفالتها له، وتأخذ الغجرية المولود وتلف به في بلاد الله، ثم تعود به وقد كبر فتتركه عند حافة البلدة وتمضي..

وفي العام التالي تسري قصة أخرى ضاحكة لتؤكد العكس. ولتهمس أن الشيخ شيخة ما هو إلا ابن عبده البيطار الذي يقص شعر

الحمير ويقلم حوافرها ويركب لها «الحدوات» الحديد، والذي يشاع ـ والعهدة على الرواة ـ أنه من عشاق أناثها، وبالذات حمارة الشيخ البليدي المأذون، وأن الشيخ البليدي هو الذي تخلص من المولود مخافة أن تلصق التهمة به، أو على الأقل بابنه الذي كانوا يشيعون أنه مصاب بنفس الداء.

أقاويل وقصص واشاعات هشة وخافتة ومتباعدة، ولكنها لا تنقطع وكأنما يؤكد بها الناس إصرارهم على محاولة تفسير هذا اللغز الحي، فلابد لوجوده بينهم من تفسير وسبب إذ لابد لكل شيء من سبب، حتى الشيء غير المعقول لابد لوجوده من سبب معقول، ولكنها اشاعات وحكايات لا تفسر ولا توضح.. وبعضها يقال للترويح هن النفس لا غير..

وكان من الممكن أن يظل الشيخ شيخة يحيا في بلدنا يمثل شخصية الحاضر الغائب والراكب الماشي والكائن غير الكائن، لولا أنه ذات ليلة من عام مضى جاء ولد من أولاد العبايدة يجري من ناحية الجامع ويلهث، وما كاد يجد الجمع الذي يسهر عند زقاق الطاحونة حتى انهار يجلس بينهم ويرتجف ويغمى عليه.. مالك يا ولد جرى ايه؟

قال بتهتهة العبايدة وحشرجتهم:

ـ انتم بالكم ايه!

قالوا:

ـ ايــه؟

قال :

ـ دا اتبن الشيخ شيخة بيسمع وبيتكلم زي البربند . .

ـ ازاي يا ولد؟مش معقول . .دا من رابع المستحيل . .عرفت ازاي؟

والولد يقسم برحمة أبيه أنه كان فائتاً من ناحيـة الخرابـة فسمع اثنان يتكلمان بصوت منخفض ما لبث أن ارتفع ، فاقترب وإذا به يجد الشيخ شيخة يكلم العـرجة ، كـلام مضبوط مثـل كـلام النـاس ، ولم يصدق نفسه ، فاقترب أكثر ، ولكن نعسة كشت فيه فجرى وجاء يلهث ويرتجف ويروي الحكاية . .

***

وطبعاً لم يصدقه واحد من الجالسين ولا حتى من الذين سـرى لهم الخبر ، كلهمم أجمعوا على أن كلام الولد تخريف في تخريف ، وأنه لابد قد أرعبته الخرابة فتصـور ما تصـور ، أو من الجائـز جداً أن المتحـدثين كانـامن الجان . . فهـو احتمال أقـرب كثيـراً من أن يكـون الشيخ شيخة يتحدث أو يتكلـم أو يعقل الكلام . وهل من المعقول أن يخدعوا فيه كل هذه السنين الطوال؟ ثم مـا فائـدة أن يخدعهم ومـاذا يستفيد ولأي شيء يعذب نفسـه ويقف بالسـاعات وينـام كالحيـوانات ويحيا كالديدان؟

ولكن رغم قوة الحجج واستنكار الناس لصحـة أي حرف ممـا قاله الولد ، فرغماً عنهم وبدون قصد راحت نظرتهم إلى الشيخ شيخة

كلما رأوه أو تسمر قريباً من أحد مجالسهم. . راحت نـظرتهم تختلط بتساؤل شاك بمجرد احتمال، ولو كان احتمـالاً غير معقـول: ماذا لـو كان كلام الولد صحيحاً وكان الشيخ طول عمـره يرى ويسمـع ويعقل كل ما دار ويدور أمامه؟

مـا ان يطرق التسـاؤل الـرؤوس حتى تنتفض رافضـة مستشبعـة فمصيبة كبرى بل فاجعة الفواجـع لو صـح القول. . هـذه السنين التي قضـاها يعـامل معـاملة الكائن المكـاني الذي لا يـرى ولا يسمـع ولا يعقل، جعلته يرى من كل قاطن في القريـة أحوالاً وأسـراراً لم تطلع عليهـا عين بشر. كـل انسان في البلدة يحيـا كالسفينـة جزء منـه فوق الماء ظاهـر للعيان وجـزء تحت الماء لا يـراه أحد، وحتى لـو شاهـد أقوياء الأبصار ما قرب منه إلى السـطح فمن المحال أن يـروا الأجزاء الخـافيـة العميقـة التي لا يمكن أن تصلهـا يـد أو عين أو أذن. . لا تصلهـا إلا إذا أخرجهـا صاحبهـا فهو وحـده العليم بهـا. . وإذا كـان الانسـان كائنـاً له أسـرار، ومن خواصـه كانسـان أن يخفي في نفسـه أجزاء ويحكم إخفاءها، فكذلك من خواصه الأزلية أنـه يخفيها رغمـاً عن نفسـه وتحت مقاومتـه، ويضـطر بـين كـل حـين وحـين لـلإذعـان فيخرجها ويظهرها ويتفحصها ربمـا بعد فـوات سنين، ولكن لا بـد أن يخرجها لنفسه مثلاً إذا كتبها، أو لأقرب النـاس إليه أو أحيـاناً أبعـدهم منـه. . ولكن لا بد أن يتـوسم فيه القـدرة على حفظ سـره. . والشيخ شيخة كان يمثل هذا الدور في أحيان لبعض الناس، وفي أغلب الأحيان رأى ما لم يره أحد وسمع مـا لم يسمعه أحـد بحكم أنه لم يكن أحـداً، كان كالحيوان المستأنس. . كقطط البيوت مثلاً وكلابها وما أمنع ما رأت

قطط البيوت وكلابها. وآه تكلمت قطط البيوت وكلابها! ربما لما استطاع أحد العيش، فهو لكي يعيش كفرد يضطر لإحاطة نفسه بجلباب وملابس تحفظ جسده وأسراره، ولكي يعيش كفرد في مجموعة يضطر لإحاطة بعض نفسه بأسوار.. ويسمى هذا البعض أسراره، ففيها كيانه وفيها مفاتيحه نواياه الداخلية التي تفرقه عن الآخرين وتحفظ استقلاله.. والعائلة المكونة من أفراد تضطر لإحاطة نفسها ببيت ذي جدران بالغة السمك، فيكون لها هي الأخرى كيانها وذاتها واستقلالها.. والبلدة تضطر هي الأخرى لإحاطة نفسها بسور مفترض وحدود وجنسية وكلمة بلدي وبلدياتي لتحفظ كيانها من الضياع والذوبان.

كارثة كبرى لو صح الخبر، أو حتى لو كانت هناك شبهة في صحته، فقد لا يعد هذا هدماً لكل الجدران الداخلية التي تحيطهم وتقسمهم، ولكنه على الأقل فرجة صنعت في كل جدار. فرجة من الممكن أن ينتقل منها للغير كل ما يحويه الداخل، فيقوم حينئذ يوم الفوضى الذي هو أفظع وأبشع من يوم القيامة.

بدأوا يرمقون الشيخ شيخة إذن بنظرات مرعوبة حيرى تطوف حوله وحمى الشك تعشيها، والشيخ شيخة على ما هو عليه.. رقبته مثنية وجلبابه الأزرق ممزق متسخ إذا وقف ظل واقفاً، وإذا جلس لا يتحرك، وعينه على ربع إغماضها لم تتغير والأخرى على إغلاقها، وملامحه مثلما رأوها دائماً صلبة متجمدة لا تنفك، وواضح جداً أنها ما انفكت طول عمرها. حتى والشك يدفعهم للدوار حوله واستيقافه

ومخاطبته وتوجيه الأسئلة اليه لا تصدر عنه حركة ولا بارقة انفعال لمحها أحد تطفو على سطح هذه الكتلة المدكوكة من اللحم والعظم والشحم.

وكان أن بدأت الزوابع التي هاجت للخبر تهدأ وتؤوب إلى رضا واقتناع، والرعب الذي اكتسح كلاً منهم حين أدرك أنه من الممكن جداً أن تكون فرجة صغيرة قد صنعت في حائطه، وامتدت منها عين واعية وعرفت كل ما بداخله. هذا الرعب بدأ يتحول إلى اطمئنان وما صاحبه من شك يتجمد على هيئة يقين..

***

وكاد يصبح لما حدث نفس المصير الذي كانت تلقاه الشائعات لولا حادث آخر وقع. وهذه المرة لم يردده خائف أو ولد، ولكن رجالاً كباراً شهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم وكانوا يقسمون على ما يقولون.. ففي ظليلة السعدني التي تحتل بطن الجسر ويصنع للوافدين عليها القهوة والشاي ويرص المعسل، كان الحديث يدور يوم السوق عن الحادثة التي رواها ابن العبايدة، وكان الشيخ شيخة واقفاً في الشمس فوق الجسر لا يتزحزح من مكانه، وعرق كثير يكسوه، حين جاءت بالطبع سيرة نعسة العرجة وانبرى أكثر من واحد يغمزها ويلمزها ويروي الهواجس على أنها وقائع وأخبار، حتى دفعت المزايدة الدائرة أحدهم لأن يقسم أنها راودته ذات يوم عن نفسه، وهنا فوجىء الجميع بصرخة، أو على الأصح شيء

كالصرخة، فلم تكن صرخة تلك التي سمعوها، ولا استغاثة، ولا عويلاً، وإنما انفجار كالهدير أو كالجمل حين يضرب بالقلة، ثم آهة، ثم الأهم من هذا كله كلمة سمعها البعض «أعوذ بالله» وبعض آخر «منك لله»، وأقسم هؤلاء وهؤلاء، ولكن الشيء المؤكد أنهم جميعاً سمعوا كلاماً بشرياً يتصاعد قربهم، وحين تلفتوا رأوا الشيخ شيخة يترك مكانه تحت الشمس ويتحرك بأسرع مما اعتاد، ولا يلبث أن يختفي في حقل الأذرة القريب ولا يظهر.

ورغم كل ما دار وكل ما أجمع عليه الحاضرون واتفقوا، فبعد يوم أو يومين كانت تلح على بعضهم كفرادي وتضيق الخناق وتستحلفه فيقول: الحقيقة ما أقدرش أحلف.. الله أعلم.. إنما إن ما كانش هوح يكون مين؟. الجسر؟

وياما أقسمت أيمان ورميت طلاقات وهاجت البلدة بالجدل، وقسم كبير يؤكد أنهم خدعوا في الشيخ شيخة أكبر خديعة وأنه ظل سنين يمثل عليهم دور الأصم الأبكم ليعرف أحوالهم وأسرارهم ويسرق مخبآتهم، وقسم كبير آخر أهون عنده أن يصدق أن الجسر قد نطق وتكلم من أن يصدق أن الشيخ شيخة هو الذي فعل.. ولكن هذا الجدل والخلاف كان يجري على أسطح الألسنة فقط، ففي أعماق الكل كان خوف حاد قد بدأ يتراكم، وكلما راجع أحدهم نفسه ليتذكر ما قاله في حضرة الشيخ شيخة وما فعله، ووجد أن ما قاله كثير وما فعله أكثر، انقلب خوفه إلى هوس ورعب، وازداد قلباً للبلدة رأساً على عقب باحثاً عنه محاولاً أن يراه. إذ ربما تعيد رؤيته، مجرد

رؤيته الطمأنينة إلى نفسه، ويصبح كل ما قيل ويقال كذباً في كذب وكابوساً رهيباً مزعجاً غمر البلدة ومن فيها. .

غير أن الشيخ شيخة رغم كثرة الباحثين عنه لم يعثر له أحد على أثر، مما كان له أسوأ الوقع. . إذ تراه أين ذهب؟ وإلى من يحكي الآن ويعدد؟

ولكن اختفاءه على أية حال لم يطل، فبعد أيام قليلة وجدوه عائداً من البندر، وأغرب شيء أن نعسة كانت تسحبه من يده، وما كاد الخبر ينتشر حتى كانت البلدة كلها بكبارها وصغارها، وبالأخص نسائها اللاتي كن يبدين هالعات يرتجفن من الغضب والذعر، ويكون بقعة كبيرة سوداء في الدائرة الآدمية المحكمة التي ضربت حول نعسة والشيخ شيخة ومضت أعينها تمتد اليهما وتتفحصهما بحدة وشراهة. . ولم يكن شيء قد تغير في الشيخ شيخة. . شواله الأزرق على حاله، وشعره على قصره، كل ما في الأمر أن رقبته المثنية كانت قد بدأت تعتدل، والأمر المحير كانت هذه الضحكات التي تصدر عنه كلما سأله أحدهم سؤالاً أو وجه اليه كلمة، ضحكة غريبة تبدو كما لو كان يتكلمها ولا يضحكها.

أما نعسة فقد ظلت ساكتة لفترة، ثم وكأنها ضاقت فجأة، انفجرت تسألهم عن سر تجمعهم وتشتمهم وتلعن آباءهم جميعاً من أكبر كبير لأصغر صغير. . يا غجر يا لمامة عايزين ايه؟. . ابني واللا مش ابني مالكم ومالنا؟. . أخرس واللا بيتكلم عايزين منه ايه؟. كان عيان وداويته يا ناس ايه الجناية في كده؟. وحتى لو ماكانش عيان،

لو كان سليم وسمع وشاف. .يعني ح يكون شاف ايه وسمع ايه؟. ما الحال من بعضه. . واللي بيقول في حق الناس كلام بطال بيتقال عليه كلام بطال. . واللي بيخبي العيب عن جاره ح يلاقي جاره بيخبي عنه نفس العيب. . ح يكون شاف ايه وسمع ايه. . أوع كده أنت وهو لحسن وحياة مقصوصي ده اللي ح اطوله منكم ح اطبق زمارة رقبته ماني سيباها إلا بطلوع الروح.

***

استمع الناس لكلام نعسة مذهولين حيارى لا يعرفون بماذا يردون. . يرون حماستها التي انبثقت فجأة وأسقطت عنها كل خجل وحجاب، واستعدت معها لأن تعترف مثلاً أن الشيخ شيخة ابنها وتذكر لو لزم الأمر اسم أبيه، وتصك آذانهم الحمم الخارجة من فمها، ولا يملكون ازاء ما تقول تصرفاً أو حلاً.

وكان لابد أن ينفض الجمع، ويجيء الغد وبعد الغد. . ويبدأ الشيخ شيخة يخرج وحده ويجوب البلدة، ويقف موقفته المشهورة لدى جماعاتها الجالسة أو المنتحية ركناً، ولكن الحديث كان يكف نوعاً ما لمقدمه. وإذا استؤنف وبدأ متحدث ما يتكلم، وتطلع أثناء كلامه ناحية الشيخ شيخة، وفاجأة الشيخ بالضحكة الجديدة التي عاد بها، ولدت الضحكة في عقل الرجل كل الظنون وتلعثم وأجبر مرغماً على السكوت. . إذن من يدري؟ ربما يضحك الشيخ شيخة منه لكيلة القمح التي لطشها أمامه من الجرن يوم التخزين، بينما هو جالس الآن يتحدث عن السرقة واللصوص. وربما يضحك لعلمه

بسر نقطة الدم التي لا تزال عالقة بذيل جلبابه، وقد كان يومها واقفاً في نفس المكان. وربما هو يضحك منه لأنه بالأمس فقط كان في مجلس آخر وكان الشيخ شيخة هناك، وكان يتحدث بكلام غير الكلام.

حين جاء الغد وبعد الغد.. بدأ الناس يدركون أكثر وأكثر أن المحظور قد وقع، وأن ضحكة الشيخ شيخة هي الكوة التي فتحت في كل جدار، وأن محتويات مخازنهم الخفية السرية في خطر، وأنهم أمام الشيخ شيخة عرايا من كل ما يسترهم ويحفظ لهم الشخصية والكرامة والكيان.. وأنهم أبداً لا يستطيعون أن يحيوا في بلدة واحدة معه، مع انسان يعرف عنهم كل شيء.. ويواجههم بضحكته الغريبة البشعة أنى يكونون!

***

وكان لا بد أن يصحو الناس مذعورين ذات صباح على صراخ مدو صادر عن قلب يعوي ويتمزق ويقول:

ـ يا بني يا حبيبي..

وتسرع الأرجل هالعة إلى مصدر الصوت فيجدونه ينبعث من الخرابة، ويجدون نعسة صاحبته، ويفاجأون بها تقذفهم بوابل من الطوب والأحجار، وتبكي بحرقة وتلعنهم وتقول انه كان طول عمره أصم أبكم، وان الويل لهم منها، بينما الشيخ شيخة ممدد أمامها غارقاً في دمه ورأسه محطم بحجر..

«١» الأحرار

وقعت هـذه الحادثـة في مكتب احدى الشـركـات الكـائنـة في شارع سليمان، واحدة من الشركات ذات الأبواب الزجاجية المصنفرة والمكاتب الصاج الايديال والسعاة الذين يرتدون بدلاً رمادية ويضعون على جوانب صدورهم لافتات نحاسية دقيقة الحجم.

في الصباح، وفي الساعة الثامنة تماماً، الموظفـون جميعاً على مكاتبهم، والسعاة على الأبواب، والسكون مستتب مطبق رغم حفيف الأوراق وتكتكـة الآلات الكاتبـة والحاسبـة. بعد قليـل كـانت دوامـة العمل قد بدأت تدور، والأبواب الموصدة كثر فتحها واغلاقهـا، وبدأ الموظفون يتجرؤون على الصمت وينطقون، و الجو بدأ يحفل بدخان السجائر ورائحتها، غير أن هـذا كله كان يـدور أيضاً خـارج حدود لا يتعداها.

وفجأة، وفي حوالى التاسعة بدأت تصل إلى الآذان ضجـة غير عـاديـة صـادرة من حجـرة السيـد عبـد اللطيف سـالم رئيس قسم السكرتارية. وأن تسمع ضجة في حجرة السيد عبد اللطيف أمر عادي جداً، ولكن غير العـادي أن تحدث هـذه الضجة قبـل الحاديـة عشرة

صباحاً . فالريس عبد اللطيف كان مريضاً بنوع غريب من الربو، وكانت أنفاسه ـ وبالتالي خلقه ـ لا تبدأ تضيق قبل الحادية عشرة بأي حال من الأحوال. لهذا كان لابد أن في الأمر سراً وليس خلف أبواب الشركة أسرار، فالسر الذي وراء الباب يعرفه الساعي الواقف أمام الباب، ومن ساع إلى ساع ينتقل السر حتى يصبح بعد ثوان قليلة خبراً. ولهذا سرعان ما عرف الجميع أن الريس عبد اللطيف يزعق لأحمد رشوان، وعلى هذا أصبح العجب مضاعفاً . . زعيق الريس قبل الحادية عشرة، والزعيق لأحمد رشوان الذي لم يسبق لأحد وخاصة الريس عبد اللطيف أن زعق له أو احتك به، فقد كان أحمد هذا شاباً مؤدباً جداً، بل ممكن أن يعد أكثر موظفي العالم أدباً . . وأدبه مقرون بمراعاة تامة للأصول وما يصح وما لا يصح . وكلمات مثل: من فضل سيادتك، وتسمح لي ولا مؤاخذة، وأشكرك شكراً جزيلاً (باللغة العربية الفصحى)؛ كلمات مثل تلك يستعملها أحمد آلاف المرات في اليوم الواحد، ثم انه لم يكن جميلاً ولا وسيماً لتكون لديه مركبات الوسيمين الجميلين مثل افتعال الحركات للفت نظر السيدات والآنسات من موظفات الشركة، أو المحافظة الزائدة على هندامه والعناية به. كان كما يقال دوغري وجد، ولكنك لأمر ما لا تستطيع كلما رأيته جاداً وقوراً أن تمنع نفسك من أن تسخر من جده ووقاره، ربما لأن له أنفاً طويلاً بارزاً مقوساً ومدبباً من أسفل وكأنه رأس خطاف، ربما لملابسه التي يحرص على اختيارها كلاسيكية جداً فيفصل الجاكتة طويلة وحشمة، والبنطلونات يجعلها

واسعة وقورة. وليس معنى هذا أن أحمد جاد طوال الوقت فهو أحياناً يهزر معك ويضحك، ويستمع إلى النكات الخارجة التي يلقيها زملاؤه، وقد يقرص الواحد منهم في جنبه، ولكنه يفعل هذا خلسة وكأنما يفعله من وراء نفسه الجادة الوقورة. ثم إنه شهم إذا كان معه نقود سلفك، واطمئن فإنه لن يقترض منك أبداً فهو في مسائل النقود حريص على أن يحيا في حدود دخله لا يتعداه بأي حال من الأحوال، وفوق هذا فهو لا يدخن ولا تعرف إن كان يرتاد السينمات أو لا يرتادها، ولكنه على أي حال فخور جداً بكونه خريج كليةالتجارة جامعة القاهرة. صحيح هو يعمل «تايبست» في الشركة، ولكن هذا لا يمنعه من الوعي الدائم بأنه أحسن من زملائه كتاب الآلات الكاتبة الذي لا تتعدى مؤهلات الواحد منهم حدود التجارة المتوسطة أو التوجيهية.

والشغل عند أحمد شغل، والرئيس رئيس، والزميل زميل. أما الزميلات فليس له بهن علاقة، إذ هو ضد أن تعمل المرأة إلا مدرسة أو ممرضة. ولا يزال إلى الآن يعتز برأيه هذا، وبأنه أبداه من عشر سنوات حين كان لا يزال طالباً لمندوب احدى المجلات الجامعية حين جاءه يسأل عن رأيه في التعليم المشترك.. يومها ظل قرابة الساعتين يمليه رأيه باللغة الفصحى وهو يتابع ما يكتبه الطالب المحرر ويصحح له أخطاءه الاملائية والهجائية والنحوية، ويؤكد له أن المرأة مملكتها البيت إذا خرجت منه فلابد أن تضل الطريق. لهذا لابد أن أحمد قد وجد نفسه في محنة حين عين بالشركة وعينت معه

زميلات له يؤدين نفس عمله. اكتفى حينذاك بأن أزاحهم من خاطره تماماً وكأنهن غير موجودات.

وبالتأكيد كانت هذه هي المرة الأولى التي يزعق له فيها الريس عبد اللطيف،فلابد أن سبب الزعيق مثير للغاية. ولهذا سرعان ما اكتشف بعض الموظفين أن هناك أوراقاً مستعجلة يجب امضاؤها من الريس في الحال، وما أسرع ما كان باب الريس يفتح للداخل والخارج، الداخل يكاد يكون حب الاستطلاع يقفز من عينيه، والخارج يضع يده في فمه يكاد يموت من الضحك. ذلك لأن سبب الزعيق كان أغرب سبب ممكن أن يخطر على البال، بل كان لا يمكن أبداً أن يخطر على البال.

الداخل كان يجد أحمد واقفاً مزرراً جاكتته، أنفه معقوف صارم جداً ورأسه منخفض في أدب وابتسامة لا معنى لها لا تبرح وجهه، والريس عبد اللطيف خلف مكتبه الكبير ذي السطح الزجاجي يداه تدفعان المكتب وكأنما تريدان قلبه على أحمد رشوان، وزعيق كثير يخرج من فمه ووجهه وعينين وحتى من صلعته الخفيفة.. يوزع قليلاً منه إلى اليسار، وقليلاً آخر إلى اليمين، والأغلبية العظمى يصبها على أحمد:

ـ قلنا ميت مرة الصورة لازم تنكتب زي الأصل تمام بالحرف الواحد بلا زيادة أو نقصان، قلنا ميت مرة كدة.

قالها الريس فعلاً أكثر من مائة مرة، وفي كل مرة يسكت منتظراً إجابة أحمد، حتى إذا ما هم أحمد بأن يجيب قاطعه الريس ومضى

يلقنه المحاضرة التي يجيدها تماماً عن العمل في الشركة وأصوله وقواعده.

وأنهى الريس محاضرته قائلاً:

ـ اتفضل. خد الجواب واكتبه بالضبط زي الأصل يا حضرة.. اتفضل يالله..

وخرجت كلمة من فم أحمد، ربما تكون قد خرجت قبل هذا ولكنها كانت المرة الأولى التي يسمعها فيها الريس.

قال أحمد رشوان:

ـ اسمح لي.. لأ.. مش ح اكتبه إلا كده.

وتحجرت عينا الريس وقال:

ـ أسمح لك ايه؟!

فقال أحمد:

ـ اسمح لي سيادتك مش ح اكتبه.

فقال الريس بصوت منخفض كصوت الزناد حين يجذب استعداداً لاطلاق النار:

ـ ليه بقى يا حضرة؟

والواقع أن أحمد تململ للسؤال.. فهو بالتأكيد كان قد جهز نفسه له، ولكنه وجد حرجاً كثيراً وكأنه متأكد تماماً مما ينطقه وهو يقول:

ـ لأني انسان يا أستاذ عبد اللطيف. أنا مش آلة كاتبة.

ـ ايه؟ أنت انسان مش آلة كاتبة؟! يعني ايه ده يا حضرة؟!

قالها الريس وملامحه تتسع فجأة كما ضاقت فجأة، وهو يمسك شفته السفلى باصبعين ويجذبهما إلى أمام ويحدق في أحمد..

وأول ما خيل للريس أن الجدع قد جن ولم يكن هذا في رأيه شيئاً مستغرباً، فقد كان لا يطمئن أبداً إلى أدب أحمد هذا الزائد عن الحد ومحافظته المبالغ فيها على الأصول، والجنون يمكن أن يكون نهاية طبيعية لإنسان كهذا.

وكأنما قرأ أحمد أفكار رئيسه فقد ابتسم ابتسامة اعتذار كبيرة، وكأن الذي سيقوله عيب ما بعده عيب وقال:

ـ ماتبصليش سيادتك على أني مجنون. أنا مش مجنون.. أنا انسان ولازم يكون فيه فرق بيني وبين الآله الكاتبة.. أنا.. أنا..

وإلى هنا انتهت حصيلة أحمد من الكلمات فقد كانت مهمته شاقة ومزدوجة، كان عليه أن يصوغ ما يدور في فكره إلى كلمات، ثم كان عليه أن يعيد صياغة هذه فيجعلها مؤدبة أصولية تصلح لكي يخاطب بها رئيسه. وإذا كانت المهمة الثانية سهلة فالمهمة الأولى أكثر صعوبة، إذ كيف يصوغ أحمد رشوان ما عن له بالأمس من أفكار، وكيف يشرح للريس عبد اللطيف العصبي الضيق الخلق كل ما حدث بالضبط، خاصة إذا كان لم يحدث شيء يذكر. كل ما

حدث أن نوبة أرق حادة انتابته في الليلة الماضية. . كان راقداً في فراشه غير المريح، وكاد ينام لولا أن أطار النوم من عينيه برغوث خبيث، صمم أحمد على أن يعثر عليه حياً وصمم البرغوث على أن يحاوره ولا يجعله يظفر به، كلما كاد يطبق عليه أصبح وكأنه فص ملح وذاب. وأخيراً غطس البرغوث ولم يظهر، ولكنه ترك أحمد يعاني من ذلك الاحساس المقلق، الاحساس بنهشات خفية وزحف أقدام دقيقة غير مرئية، ذلك الاحساس الذي يدفع الانسان إلى التأرجح بين الشك واليقين في وجود تلك الكائنات. وفجأة وبدون سابق انذار خطر لأحمد رشوان ذلك الخاطر الذي كاد يجعله يقفز من الفراش، فقد اكتشف أنه ليس كاتباً على الآلة الكاتبة كما يظن نفسه ويظنه الناس، ولكنه هو نفسه آلة كاتبة. . كيف جاء الخاطر في ذهنه؟ لا أحد يدري. وكيف استطاع ذهن أحمد رشوان الأصولجي أن يجمع تلك المفارقة أو المتشابهة التي بدت غريبة كل الغرابة؟ لا أحد يدري أيضاً. . المهم أن الفكرة استحوذت عليه تمام حتى أنسته النوم والفراش وزحف الكائنات غير المرئية، ودون أن يستطيع أن يكبح جماح خياله وجد نفسه يوغل في التفكير ويوغل. . ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة؟ هو صحيح خريج جامعة ومحترم ولكنه في عمله لا فرق بينه وبين الآلة الكاتبة التي يكتب عليها. . هو له أصابع وهي أيضاً لها أصابع. وهو يقرأ الأصل وتستحيل الكلمات خلاله إلى ضغطات، والمكنة تستحيل الضغطات خلالها إلى كلمات. وإذا كان هو يأمر المكنة بأصابعه أن تكتب، فالشركة تأمره بأصبع واحدة منها

أن يكتب. وإذا كانت المكنة لا تستطيع أن تغير ما يأمرها به إذا ضغط على حرف الميم فلابد أن تكتب ميماً، فهو أيضاً لا يستطيع أن يغير إذا قالوا له اكتب كذا فلابد أن يكتب كذا، أجل، ما الفرق بينه وبين الآلة الكاتبة؟ الواقع لا شيء، بل الحقيقة لا شيء مطلقاً.

وأول الأمر ضحك أحمد كثيراً، ضحك بلا وعي، ولم يكف عن الضحك إلا بعد أن فطن لنفسه فوجد أنه يضحك ضحكاً غريباً ماسخاً في الشقة المظلمة الخاوية «فأحمد رشوان كان قد تعدى الثلاثين ومع هذا كان لا يزال أعزب». . وآلاف الخواطر كهذه تعن لآلاف الناس آلاف المرات في اليوم الواحد، ولكنها لا تعلق بأذهانهم كثيراً. إنها كآلاف الأشياء التي تبرق في أرض الشارع المشمس يعبر بها الناس ولا يحفل ببريقها أي منهم، ولكن بريق أحدها قد يجذب أنظار عابر سبيل ليتوقف عنده مثلاً ويحدق فيه، بل ممكن أن ينحني ويتناوله ويتفحصه، وفي أغلب الأحيان يعود ليلقى به وهو يضحك من نفسه ومن البريق الزائف الذي شغله.

وكان ممكناً أن يحدث هذا لأحمد رشوان فيلقي بالخاطر من وراء ظهره ويعود إلى متابعة أفكاره أو محاولة النوم، ولكن ربما لفراشه غير المريح، وربما لأنه كان في حاجة ماسة إلى ما يشغله عن احساسه بالكائنات غير المرئية التي تقاسمه فراشه، ربما لهذا تلكأ عن الخاطر قليلاً. . وويل لأي منا إذا تلكأ عند خاطر فقد يغير التلكؤ مجرى حياته. ربما تتلكأ عند كلمة قالتها فتاة وأعجبتك طريقة نطقها لها فإذا بك بعد شهور زوج لهذه الفتاة، والتلكؤ عند واجهة

مكتبة قد يوقع في يدك كتاباً يغير شخصيتك تماماً. ونيوتن المشهور لم يفعل أكثر من أنه تلكأ ذات يوم أمام تفاحة سقطت من تلقاء نفسها على الشجرة.

أحمد رشوان هو الآخر تلكأ عند الخاطر ومضى يقلبه على وجوهه، أحياناً يحسب الأمر هزلاً في هزل إذ أمن المعقول تنعدم الفروق تماماً بينه وبين الآلة الكاتبة؟ ولكنه حين يحاول أن يجد فارقاً أساسياً ولا يستطيع يدخل الأمر في طور الجد، ويبدأ يخاف أن يكون التشابه حقيقة. بل بلغ به الوضع حد أنه كان أحياناً يحدق في أصابع يديه ويلعبها معاً في الظلام ثم يوقفها جميعاً ويلعب كلاً منها على حدة، وأحياناً يشيح بيده وكأنما يقول: غير معقول هذا.. غير معقول..

بل عنت له خواطر مضحكة للغاية، لم لا يكون الأمر عكس ما يتصور، وتكون الماكينة الكونتيننتال التي يكتب عليها أفضل منه؟ فهي على الأقل ضامنة بقاءها في الشركة مدى الحياة وهو غير ضامن بقاءه ولو ليوم واحد. وحتى المنضدة التي تستقر عليها منضدة أنيقة صنعت خصيصاً من أجلها وكلفت الشركة ما لا يقل عن العشرة جنيهات، بينما مقره هو عبارة عن كرسي ملقلق الساق اشترته الشركة في مزاد ووقف عليها ببضعة قروش.

وعشرات الأفكار المضحكة للغاية.

وكأنما كان طوال المدة التي قضاها يفكر ويسرح، كان يدخر

لنفسه خط رجعة مؤكداً، وكان ضامناً مائة في المائة أنه يملك الدليل القاطع على أن ثمة فرقاً كبيراً بينه وبين الآلة الكاتبة. فقط كان يحتفظ بالدليل ليفاجىء به أفكاره في الوقت المناسب. . وأخيراً لم يجد بداً وأخرج الدليل وقال لنفسه: الفرق بيننا أنها آلة جامدة صماء بكماء لا تستطيع التصرف وحدها أبداً، أما أنا فأنا ملك. . أنا انسان أستطيع أن أفكر وأتصرف بمطلق ارادتي .

قال هذا لنفسه وهو يسحب الغطاء فوقه وكأنما يكيل الضربة القاضية وينهي المعركة التي دارت وطالت في خياله .

ولكنه ما كاد يسحب الغطاء حتى دق شيء. . ومن كثرة تفكيره في المكنة خيل اليه أنها بالتأكيد هي التي تدق، بل ذراع واحدة فقط من عشرات أذرعها هي التي تدق باستمرار وكأنما علقت وتكتب: لا لا لا لا .

وبسرعة ثمانين كلمة في الدقيقة ـ وهي السرعة التي طالما حلم أحمد أن يكتب بها ـ مضت أذرع الآله ترتفع وتنخفض وتتداخل في الظلام وتكتب وترد عليه في تكتكة منتظمة: انت واهم. . من قال أنك تملك حق التصرف. أنت مثلي تماماً وحريتك في التصرف كحريتي والدليل موجود. الخطاب المشهود الذ كنت تكتبه لشركة الأسمنت ووجدت أن كلمة «شؤون» مكتوبة خطأ والهمزة موضوعة فوق الواو، وذهبت إلى الريس عبد اللطيف فرحاً تريه الخطأ وظننت أنه سيكافئك لفطنتك ونباهتك. أتذكر نظراته التي التهمك بها وهو يقول:

ـ اسمع يا حضـرة. أنت هنا مش على كيفـك يا حضـرة. اللي مكتـوب قدامـك انقله زي ما هـو يـا حضـرة. غلط مش غلط ملكش دعوة يا حضرة. ايه ح تعـدل ع الشركـة. الشركـة عايـزة الهمزة على الـواو تبقى الواو يـا حضرة. عـايزاهـا طـايـرة في الهـوا تبقى طـايـرة في الهـوا، فـاهم يـا حضـرة؟ اتفضـل على شغلك واعـرف مـركـزك كـويس. انت هنا كاتب يعني تكتب، يعني تفعـل مـا تؤمـر بـه. انت عارف المكنة؟ انت زي المكنة.. فاهم يا حضرة؟

الريس عبد اللطيف ذوالصدر المقفـع إذن هو الـذي أوحى اليه بـالخاطـر، وظل الخـاطر كـالقنبلة الزمنيـة في عقله حتى فجره الأرق اللعين في تلك الليلة الليلاء..

في نفس الوقت الذي اكتشف فيـه أحمد رشـوان السبب كانت أشياء كثيرة أخرى قد حدثت داخل عقله، وحدثت كلها معاً وبسرعـة مذهلة. فأولاً كان قد آمن ايماناً لا شك فيه أنه في نظر الشركة مكنـة لا أكثـر ولا أقل، وأن الـريس عبد اللطيف على حق، والمكنـة على حق وهو وحده المخطىء الواهم الذي كان يظن نفسه شيئـاً آخر غيـر هذا، شيئاً اسمه الانسان. وفي لحظة خاطفة تصور أحمد نفسه بـأنفه الذي يعتد به كثيراً، بالكتب التي كان يقرؤها أثناء دراسته ويتيـه على زملائه بقراءتها وإدراك حقائق عن الكون والحياة لا يدركونها، بكفاحه الرهيب من أجل الشهادة، بالشهادة، بحياته وكل أحلامه ، بكل هذا مجرد مكنة، آلة، حتى أقل من الآلة التي يكتب عليها!

للحظة خاطفة تصور أحمد هذا، ولكنها كانت كافية لأن تمـلأه

بالغضب. وغضب أحمد رشوان لأمثال هذه الأشياء.. غضب يعرفه عنه كل أصدقائه وزملائه. إذاً كانت المسألة مسألة مبدأ وحق ركبه الغضب وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة. حدث مرة في أثناء امتحان المحاسبة أن وقف أستاذ المادة في وسط خيمة الامتحان ولبخ في حق الطلبة واتهمهم بأنهم سفلة وأوغاد (إذ كان الطلبة قد أحدثوا ضجة بعد توزيع الأسئلة لصعوبتها)، فما كان من رشوان إلا أن ترك الاجابة وانتصب واقفاً يحتج على الأستاذ. وغضب الأستاذ وأصر على طرد رشوان من اللجنة وتقديمه لمجلس تأديب، ولكنه تحت إلحاح المدرسين زملائه اكتفى بأن قال إنه على استعداد للصفح عنه لو اعتذر عن تصرفه علناً أمام الطلبة، ورفض رشوان رفضاً باتاً أن يعتذر وفضل أن يغادر اللجنة ويرسب في المحاسبة على أن يهين كرامته.

كان لا يمكن أن يمر خاطر كهذا على أحمد رشوان مرور الكرام إذن، فالأصول أنه انسان، وخلافاً لكل الأصول أن يكون مجرد مكنة. وعليه أن يثبت لنفسه وللناس أنه انسان وأن ثمة فرقاً كبيراً بينه وبين المكنة، عليه أن يثبت هذا أو يهلك دونه.

***

وفي صباح اليوم التالي كان أحمد رشوان يأخذ طريقه إلى مقر الشركة في شارع سليمان وكأنه في طريقه إلى ساحة معركة أو لجنة امتحان. كان قد سهر كثيراً، وكان عصبياً وعلى وجهه تصميم خطير.

لم يكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يفعله ولكنه كان مصمماً على أن يثبت لنفسه على الأقل أنه إنسان، انسان حقيقي، وليس مجرد آلة كاتبة.

دخل المبنى وألقى تحيات الصباح وتلقى التحيات، وبوجه غير صبوح صبح على الريس عبد اللطيف وتناول منه (الشغل) بلا ذيول شكر طويلة كما تعود أن يفعل.

وذهب إلى الحجرة التي يعمل فيها هو وزملاؤه. كان أكثرهم قد سبقوه وبين حفيف التحيات ونكات الصباح الخفيفة الطائرة جلس. وبينما كان يرفع الغطاء عن المكنة لم يستطع أن يمنع نفسه من القاء نظرة متشككة عليها، ومط شفتيه حتى التصقت شفته العليا بأرنبة أنفه المدببة، وذلك أنه وجدها فعلاً كتلة من حديد.. حديد في حديد يلمع.. وحديد مطفأ. وبرودة وسكون ولا حياة. مكنة صماء بكماء ذلك أمر لا شك فيه.

وقبل أن يبدأ في كتابة الخطاب الأول قرأ الأصل بإمعان.. وحين قارب على الانتهاء تهلل وجهه وابتسم، ذلك لأنه عثر على الشيء الذي كان يريد العثور عليه، فقرب نهاية الخطاب وجد في الأصل تعبيراً يقول:

«وحينئذ نكون أحراراً في التصرف بمقتضى ما تخوله لنا كافة حقوقنا كشركة مساهمة».

عند كلمة «أحرار» توقف أحمد رشوان. وهو نفسه لا يدري

لماذا اختارها بالذات وجعلها ضالته المنشـودة وصمم على أن يحذف منهـا الألف ويكتبها «أحـرار» فقط. ربما لأنـه وجد مـوسيقاهـا هكذا تنسجم أكثـر مع بقيـة الجملة، وربما لأسبـاب أخـرى لا يعلمهـا إلا الله .

مضى يكتب الخـطاب بحمـاس وهـو يحس بنشـوة لأنـه يكتب شيئاً أراده هو ويملك التصرف فيه، يكتب وهو يرمق في شمـاتة أذرع المكنة وحروفها وهي ترتفـع وتنخفض في طاعـة بكماء عميـاء، وهو الـذي حين جاءت كلمـة الأحرار راح يكتبهـا على مهل وكـأنـه يتلذذ بطعم كتابتها، ورمق الألف في الأصل ثم ازور عنهـا شامخـاً بأنفـه، وتابع الكتابة وكأنه يعزف على مفاتيح بيانو أو ثقوب ناي .

وكان أسرع خطاب كتبه بعد أن التحق بالشـركة، بـل وقبل أن يبدأ في غيره ذهب به إلى مكتب الريس ومعـه الأصل والصـورة وفي صدره حماس مستبشر دافق .

والذي حدث أن الريس عبد اللطيـف ما كاد يلقي نظرة سريعـة على الخطاب حتى أدركت عينه الخبيرة على الفور أن الأحرار مكتوبة بلا ألف، فنظر إلى أحمد رشوان طويلاً وكأنه يريد تجميده وقال:

ـ هي في الأصل أحراراً واللا أحرار يا حضرة؟ .

ـ أحراراً .

ـ يعني بألف؟

ـ أيوه بألف .

ـ يعني شفتها؟

ـ شفتها يا ريس.

ـ طيب أمال يا حضرة ما كتبتهاش ليه؟.. روح يا حضرة اكتبها وهات الجواب تاني..

فقال أحمد رشوان بكل ثبات واطمئنان:

ـ مش ح اكتبها يا سيد..

والواقع أنه قال هذا وكادت تنتابه نوبة خوف، فالدهشة الشديدة المذهلة التي ارتسمت على وجه الريس عبد اللطيف كانت شيئاً يخيف، إذ كيف يعصي مرؤوس رئيسه هكذا في وضح النهار وعيني عينك وفي مسألة لا تحتمل النقاش؟!

دهش الريس عبد اللطيف وذهل ولم ينطق في الحال، وخلال ذلك الصمت كان أحمد رشوان في حالة أخد ورد مع نفسه، ذلك أنه في قرارة نفسه لم يكن شديد الايمان بما هو مقدم عليه. إن هي إلا نوبة حماس عنت له اثر خاطر حاد في الليل وكان لابد لها أن تثمر عملاً ما. وقام أحمد بهذا العمل، وكان على استعداد للتراجع بل لم يكن يعتقد أن المسألة ممكن أن تأخذ كثيراً من الشد والجذب.

وأخيراً تلكم الريس وقال:

ـ بتقول ايه يا حضرة؟

وفي أدب جم عاد أحمد يقول: أنا رأيي يا أستاذ عبد اللطيف

أنها تنكتب من غير ألف تكون أحسن.

ـ رأيك؟!

خرجت الكلمة كالرصاصة من فم الرجل، اعقبها بسرب دافق من القذائف.

ـ رأيك ده تلفه في ورقة وتبلعه على ريق النوم. رأيك ده تقوله لصاحبك وانتوع القهوة. رأيك هناك عند بابا وماما إنما هنا مفيش رأيك. هنا شركة ليها أوامر وقوانين. هنا تمشي تروح تكتب الألف ورجلك فوق رقبتك، ولولا عارف انك طيب كنت بهدلتك صحيح.. اتفضل يا حضرة..

وانتاب أحمد غضب وقال:

ـ أنا أحتج يا سيد عبد اللطيف على الإهانات دي..

ـ أنت مش تحتج، وديني لاخصم لك يوم كمان.. اتفضل روح اكتبها..

وهكذا وجد أحمد نفسه في قلب المعركة.. معركة للدفاع عن كرامته كإنسان.. لم يكن يعتقد أن الأمر ممكن أن يتطور إلى هذا الحد، وطبعاً كان واثقاً أن مسألة الخصم هذه تهديد ليس إلا والمشكلة ممكن أن تحل بإضافة ألف إلى الأحرار واعتذار لبق وينتهي كل شيء. ولكن كان أسهل عليه أن يقطعوا رقبته قبل أن يفعل شيئاً كهذا، فأهم شيء في نظره كان هو الثبات، فالمسألة لم

تعـد أحراراً بـألف أو بغير ألف، المسـألة كـرامته وشـرفـه، فلم يكن يعتقد أنه سيهان على تلك الصورة ويعـامل كمـا لو كـان آلة كـاتبة لا تحس ولا تغضب. .

كل هذا وصوت الريس يعلو أكثر وأكثر، وعناد أحمد يـزداد. . الريس يقسم أنه لن يتركه إلا إذا كتبها ورجله فوق رقبته، وأحمد يقسم أنه لن يكتبها ولو خرج له أبوه من التربة وأمره بكتابتها. والصراع قـد وصل قمته، والمسألة التي بدأها أحمد وهو غير مؤمن تماماً بها كانت قد تبلورت إلى درجه أنه لو قبل إضافة ألف لـلأحرار فمعنى هـذا أنه تنازل طائعاً مختاراً عن كرامته ورجـولته وشـرفه، وإذا كـان الناس في الصعيـد وفي كل مكـان يقتلون دفاعـاً عن كـرامتهم ورجـولتهم أفـلا يستطيع هو الصمود مهما كانت النتائج؟

وطبعاً لم يقف الزملاء مكتوفي الأيدي. . حاولوا تهدئـة الريس بلا فائدة، وحاولوا حمل أحمد على الإذعان بلا فائدة. بل كان يقابل هدهداتهم ورجواتهم باشمئـزاز، إذ هم في نظره أكلة عيش منـافقون مداهنون لا يقدرون قيمة هذه الأشياء والمواقف، يلتقطون الخبـز من بين أقـدام الرؤسـاء بعد أن يلعقـوا تلك الأقدام. فليمت قتيـلاً ولكنه أبداً لن يكتب ألفاً للأحرار.

والعجيب أن قليلاً من زملائه الموظفين والكتبة هم الذين كانوا يضحـكـون بينهم وبين أنفسهم على المشكلة القائمـة، أما الغـالبيـة العـظمى فقد أخـذت الأمر على أنـه مشكلة من واجبهم حلها بـرجاء

هذا وممالأة ذاك أو حتى باقتراح حل وسط، إذ اقترح أحدهم أن يقوم هو بكتابة ألف الأحرار حسماً للنزاع، وقوبل اقتراحه برفض هائل من الريس وباستنكار حاسم من أحمد رشوان . .

وسرعان ما ضاق صدر الريس عبد اللطيف فهدر في جميع من بمكتبه يأمرهم بالخروج مقسماً بالله العظيم ثلاثاً أن سيكون جزاؤه على تلك الفعلة هو الرفت العاجل . . اليوم بلا أي تأخير. قال هذا وهو يعتصر قبضتيه ويصر على أسنانه ويجهز نفسه لكتابة مذكرة مستعجلة جداً لمدير عام الشركة يطلب فيها فصل أحمد رشوان فوراً إذ الجريمة في نظره أخطر جريمة . . عصيان واعتصاب، وإذا لم تعالج الأمور بحزم وبتر ممكن أن تسري عدواها إلى بقية الموظفين .

أما أحمد فقد أخذه الزملاء إلى حجرتهم وأحضروا له فنجان قهوة رفض أن يشربه، وظلوا يتحايلون عليه يحذرونه من العقاب ويقسمون له أن المشكلة الآن حلها بسيط وأن الريس عبد اللطيف عصبي صحيح ولكنه ابن حلال، فأقل اعتذار يرضيه . .

ولكن أحمد ظل يهز لهم رأسه باستمرار، بل كان حريصاً على أن تظل الابتسامة طوال الوقت فوق ملامحه حتى لا يعتقد زملاؤه أنه مهزوز مع أنه كان مهزوزاً . . كان قد صمم تصميماً نهائياً خطيراً على عدم التراجع، فقد كان يدرك أنه لو تراجع فلن يحترم نفسه بعدها، هو الذي يعتبر أن ميزته الوحيدة أنه يحترم نفسه . . بل سر حرصه على الأدب الجم في معاملة الناس أنه يريدهم أن يعاملوه بأدب، فإذا

فقد احترامه لنفسه فأي قيمة تبقى له كإنسان؟ .

وسرى الخبر طبعاً في أنحاء المكتب. . وتلقفته الأفواه ضاحكة وساخرة ومعقبة، حتى أصبح الخبر نكتة تروى، وصار الموظفون الكائنون في الأجنحة البعيدة يتسابقون إلى حجرة أحمد رشوان ليتفرجوا على زميلهم العجيب الغريب الذي رفض أن يكتُب ألف الأحرار، معتقدين أنه لابد قد أصيب بلوثة، يحدقون في ملامحه ويشاهدون كيف يتكلم وبأي ردود يجيب ليعرفوا مدى اصابته. . وكانوا يعودون إلى مكاتبهم وقد انقسموا على أنفسهم، بعضهم يؤكد أنه مجنون وبعضهم يؤكد أنه لابد تعبان شوية وآخرون يصرون على أن المسألة كلها لا تعدو أنه ابتلع ليلة الأمس قطعة حشيش لا يزال مفعولها سارياً في جسده، ويؤكدون قائلين:

ـ دامن شكله باين عليه حشاش. .

***

وعن طريق الريس عبد اللطيف وصل الأمر إلى المدير العام، والظاهر أنه لم يكن لديه ما يشغله أو أنه وجد المشكلة غريبة ومضحكة في الوقت نفسه وأراد أن يتفرج على الموظف الأعجوبة هذا الذي رفض أن يكتب ألف الأحرار، الظاهر هذا لأنه بناء على المذكرة التي قدمها السيد عبد اللطيف كان باستطاعته أن يمضي قرار الفصل في الحال أو يخفض العقاب إلى خصم وانذار مثلاً. .

وأن يطلب المدير العام موظفاً صغيراً معناه في العادة كارثة سوف تحل بالموظف أقلها أن يوقف أو يفصل أو يتهم في تبديد، وهكذا مضى أحمد يتلقى كلمات التعزية والتشجيع وهو يخطو إلى مكتب المدير العام بخطوات راعى أن تكون منتظمة ومتماسكة ووقورة. .

وكانت أول مرة يدخل فيها أحمد مكتب المدير العام، وخيل إليه حين أصبح في الداخل أنه لم ير في حياته مكاناً فيه كل تلك الفخامة والأناقة والروعة، حتى النتيجة المعلقة على الحائط مطلية بماء الذهب. وكل شيء في الحجرة مدير عام. المقاعد والستائر والهواء المكيف اللذيذ الذي يكاد يصيب الداخل بقشعريرة جنسية، والسكون التام المطبق الذي تحس فيه بدقات ساعة يدك عالية قبيحة بلدية. .

وما كاد أحمد يستجمع شعاعات نفسه الطائرة ويلتقط أنفاسه ويبدأ يبحث عن المدير العام في تلك الصالة الفخمة الواسعة حتى فوجىء بصوت نحيف يقول له:

ـ قرب يا شاطر. .

وتقدم أحمد بضع خطوات أخرى حتى بدأ يتبين ذلك الرجل النحيف جداً القابع وراء المكتب لا يظهر منه غير رأس دقيق كرأس الفأر، وبينما أحمد حائر ماذا يفعل أو يقول. جاءه الصوت مرة أخرى:

ـ ايه الحكاية؟ فيه ايه؟ مش عايز تكتب ألف الأحرار ليه يا شاطر؟

ووجد أحمد نفسه باندفاع ولا ارادة:

ـ عشان أنا انسان يا سيادة المدير..

وضحك المدير وقهقه.. ضحك كثيراً جداً وظل كرسيه يدور به وهو يضحك ويعلو حتى كاد يصبح فوق المكتب. وعرق أحمد وتلجلج وأحس أنه قال كلمة سخيفة لا معنى لها إذ ما أدرى المدير العام بكل ما دار في عقله من خواطر؟ وبدأ يبتلع ريقه وأفكاره بسرعة ليبلل حلقه الجاف وعقله ويستطيع أن يتكلم، وتكلم.. وشرح للمدير كل ما عن له من خواطر. وكلما رأى الرجل يستمع كان يحس أنه رجل طيب جداً على عكس ما يتصوره الناس عن مديري العموم.

وحين انتهى فوجىء بالمدير العام يقهقه ويدور في كرسيه والكرسي يهبط به حتى كاد يصبح تحت المكتب.. واعتمد المدير رأسه على كفيه وقال:

ـ أمال انت فاكر ايه ياسمك ايه؟ دا مش انت بس اللي مكنة.. انت مكنة وعبد اللطيف رئيسك مكنة وأنا مكنة وكلنا مكن. مش أنا المدير العام أهه؟ رئيسي عضو مجلس الادارة المنتدب افرض قال لي اشترى ألف سهم من أسهم الشركة، أقدر أشتري ٩٩٩؟ لازم اشتري ألف، وإذا عملت كده أترفد وإلا لأ؟ طبعاً أترفد. يبقى أنا في الحالة دي ايه؟ انطق. أبقى ايه؟

وقال أحمد بصوت لم يصل أبداً إلى أذن المدير: تبقى سيادتك مكنة.

فقال المدير وهو يستدير في كرسيه ويولي أحمد رشوان ظهره والمشكلة بالنسبة اليه قد انتهت:

- روح أحسن اعتذر لرئيسك. وأنا ح اكتفي بخصم يوم واحد من مرتبك. اتفضل! كلنا مكن يا مغفل. . كلما مكن.

وانتظر المدير قليلاً ليترك لأحمد فرصة الانسحاب، وبعد لحظة استدار مرة أخرى وإذا به يفاجأ بأحمد رشوان لا يزال واقفاً، بل فوجىء أكثر حين وجد أنه قد انتظر اللحظة التي يواجهه فيها ليقول:

- بس أنا انسان يا سيادة المدير. . أنا انسان.

- إنسان في عينك قليل الأدب ما تختشيش. ده جزا اللي يعاملكم بشفقة؟ غور من وشي ياللا غور.

- يا سيادة المدير أنا بكالوريوس تجارة، أنا مش. .

- غور من وشي.

وقبل أن يفتح أحمد فاه مرة أخرى كان الباب قد فتح ودخل الساعي وجذبه من يده برفق وأخرجه وأغلق الباب.

ولكنه ما كاد يصبح في الطرقة حتى كان جرس المدير يدق، وحتى كان قد استدعي مرة أخرى للمثول في مكتبه.

ودخل أحمد بوجه شاحب كوجوه المنومين مغناطيسياً وكأنما هو مدفوع للمضي في الطريق الذي صمم عليه بقوى خفية أكبر منه.

والمدير العـام أيضاً كان متجهماً صارماً وكأنما قد نبتت له فجأة أنياب أظافر.

وخير أحمد بين الموافقة على كتـابة الألف فـوراً وخصم ثلاثـة أيام من مرتبه، أو فصله نهائياً من الشركة.

وما كاد أحمد يفتح فـاه ويقول: أنـا.. حتى كانت يـد المديـر على الزر وحتى كان السيد عبد اللطيف داخل الحجرة وكأنما انشقت عنه الأرض. وكلمة واحدة قالها المدير لعبد اللطيف:

ـ ارفدوه.

ثم لم يلبث أن أردف:.

ـ دلوقت حالاً..

***

ورفدوه.

سلمه عبد الطيف الأمر الاداري بفصله وطالبه بتسليم العهـدة، ونصحه مدير المستخدمين بأن يرفع قضية على الشركة لعل وعسى.

والتف الزملاء حول أحمد حين عاد إلى الحجرة ليسلم مـاكينته الكـونتننتال وهي كـل عهدتـه. كان في وجـوههم أسى كثيـر ورثـاء، ولكنـه كـان في قـرارة نفسـه يـرثي لهم هم. كـان يحس أنــه وحـده الانسان وأنهم هم من فراشهم إلى مديرهم العام مجرد ماكينات كاتبة وحاسبة وكانسة ومفتشة..

وبينما كان أحمد يعبث بأحرف المكنة ليتأكد من سلامتها، دق صدفة على حرف الألف ولكنه فوجىء بأن ذراعها لا ترتفع، ودق مرة أخرى ولم ترتفع الذراع.

واعتقد زملاءه أنه لابد قد جن حقيقة حين انطلق إلى حجرة الريس عبد اللطيف وهو يصرخ بطريقة مختلفة تماماً عن طريقته المؤدبة وبانفجار:

ـ الحق يا ريس.. اتفضل آهي الماكنة رافضة تكتب الألف. هيه! ارفدوها بقى هيه رخرة يا ريس.. أرفدوها.

فقال الريس عبد اللطيف وهو يكح:

ـ المكن يابني لما بيرفض الكتابة ما بيترفدش، بيصلح.. ابقوا ودوها الورشة وصلحوها.

***

وغادر أحمد مبنى الشركة وأصبح في الشارع، ولكنه بعد قليل لم يعد يعرف في أي الشوارع يمشي فقد ظل يسير كالمفيق من حادث، كالحالم؛ كالمصدوم، يسير بلا وعي وبلا هدف أو وجهة. وأخيراً وجد نفسه مرة أخرى في شارع سليمان قريباً من لافتة الشركة ومبناها. ولم يستطع أن يمنع خاطراً صبيانياً خطر له وجعله يقرأ اللافته وكأنه يراها ويتأملها لأول مرة. وفقط حين كاد ينتهي من قراءتها أدرك أنه قد رفد اليوم وأنه فقد عمله وأن عليه أن يستعد لأيام

وربما سنوات عجاف، وأن سبب رفده أغرب سبب. اصراره على أنه إنسان.

ومرة أخرى نظر حوله.. الشارع يموج بالناس والعربات والدراجات والناس تسابق العربات والدراجات تسابق الناس وهو ماش ـ لا يسابق دراجة ولا تسبقه عربة، بلا هدف ولا وجهه. وفجأة أحس بشيء حار يندلع في حلقه، شيء جعله يقف في وسط الشارع ولا يشعر بنفسه إلا وهو يصرخ ويقول:

ـ أنا إنسان.

والتفتت رؤوس المارة مندهشة ناحيته، وأطلت من العربات وجوه، والقيت علية نظرات كثيرة مستغربة. وقال واحد:

ـ الناس باين عليها اجننت!

وضحك طفل وزأر كلاكس يأمر أحمد بإخلاء الطريق.

ولم يستغرق هذا كله إلا لحظة خاطفة، ثم لم تلبث الحركة أن عادت في الشارع إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يحدث.

أحمد المجلس البلدي

أنى تـذهب كنت تجد أحمـد العقلة. . نجـاراً تلقـاه، حـلاقـاً تلقاه، تاجراً في مخلفات الجيش تلقاه. ثم هو بعـد هذا يجيـد شغل الآلاتيـة، وكي الناس للشفـاء من الأمراض، وجس البهـائم العشـر، والقيام بأعمـال الأبونيـه وتعهدات فـرق المزيكـا والرقص، وإصـلاح الكلوبات والبوابير في الأفراح، وحتى في «تلتيم الموتى» تلقاه.

ومع هذا كله فقد كان بساق واحدة.

أو على وجه الدقة بساقين: ساق خلقها الله وساق صنعها بنفسه على هيئة عكاز عظيم الشأن تفنن في مسحه وتنعيمه وتزويقه، وحفـر الحمام والعصافير والنساء الممسكات بسيوف عليه.

وإذا كـانت ساقـه التي خلقها الله وسـواها تمشي في أمـان الله وبصوت غير مسموع، فساقه التي خلقها هو لها دبيب معـروف وفي أي مكان من البلد يمكن أن تسمعه. . على الترعة، وعند المحطة، وفي القهوة، وفوق أسطح البيوت، وأحياناً في كل الأماكن مجتمعة. ساق يستطيع أن يعدي بها المصارف، ويقفز بهـا من فوق أكيـاس القطن،

وينزل بها في «الباط» لشباب البلد ويغلبهم، ويدخل معهم في مسابقات جري على السكة االزراعية. . والغريب أنه يفوز. .

وأحمد العقلة لا تستطيع أن تحدد له سناً أو هيئة أو حرفة حتى ولا قامة. . إذا أردته قصيراً وجدته، طويلاً وجدته، أحياناً تبدو لك عينه اليسرى عوراء عن بعد وسليمة عن قرب، وتبدو اليمنى أحياناً كذلك، وله كتف أعلى من كتف، ووجه لا يريك اياه، وإنما إذا حادثته ظل كالحمار الذي تحاوره ذبابة يخفضه ويعليه، وينظر إلى جانب أو آخر كأنما يلهيك عن رؤية وجهه، ربما لعلمه أنه لا يخضع خضوعاً حرفياً لمقاييس الجمال المتعارف عليها. .

إذا ضحك لا يضحك، وإذا حزن لا يحزن، وإذا تكلم تهته. وهو كثير الأسفار كثير الغياب، كثير المشاريع والتقاليع، يبدأ عملاً من الأعمال أو حرفة من الحرف وينجح فيها، حتى إذا ما بلغ قمة النجاح تركها فجأة وبلا مقدمات إلى غيرها. قيل مرة انه لو حافظ على ما كسبه لأصبح من ذوي الأطيان، ويطير هو دائماً وراء القائل مهدداً اياه بعكازه، لاعناً أباه وأبا الأطيان.

تجده يوماً في البلد ويوماً في القاهرة ويوماً في العريش ويوماً جالساً على قهوة بلدي في السلوم يروي لعربي بعقال حادثاً غريباً وقع له في عنيبة على الحدود بين مصر والسودان، ومقسماً بالله العظيم وبرحمة أبيه أنه حدث. .

وإذا سافر سافر بالاكسبريس فهو لا يطيق بطء القشاش، وإذا

ركبه ركبه في الدرجة الأولى العليـا أي فوق سـطح القطار، وإذا أراد أن يهبط لا يهبط كبقيـة خلق الله في المـحـطات، بـل يهـبط بيـن محـطتين والاكسبريس مارق بأقصى سرعة.

وكل شيء فيه يتحرك، ودائم التحرك.. يده تتحرك لتقص شعر واحـد بطريقـة مدهشـة للغايـة، أو تمتد إلى كيس خفي وتخـرج منـه ولاعة غريبة الشكل صنعها بنفسه لتفـرجك عليهـا، أو تقبض على يد أخرى وتضغط عليها وتكاد تكسرها للهزل ليس إلا.

ولسانه دائم التحرك، يعدل حكاية رواها أحدهم ويكذبه فيها، أو يلقي اليك بخبر يذهلك، أو يخرجـه لبنت حلوة يتصادف مـرورها أمام الدكان.

وإذا حلق أحياناً لا يطلب من بعض زبائنه أجراً، وأحيـاناً يـطير وراء الزبون من هؤلاء مطالباً بأجره مهدداً بضربة عظمى من عكازه.. وممكن أن تدخل دكـانه فتجـد نفسك وكـأنك في متحف، فـالدكـان عشة من البوص أقـامها بنفسـه وطلاهـا بنفسه وبيضهـا بنفسه، ونقش أسفلها وأعلاها بنفسه أيضاً. واللمبة الغاز من صنع يده، بل هو أيضاً صانع البرنيطة التي تحجب ضوءها عن السقف.. وهو الذي دندشها بالرسوم والنقوش والآيات القرآنية.. ولابد أن يفتـح لك صنـدوقاً من داخـل الصناديق ويخـرج لك مـاكينـة حـلاقـة جـديـدة تلمـع ويقسم بالإيمان المغلظة أنه أرسل في طلبها من ألمانيـا وأنها جـاءت بإسمـه رأساً. ولا تدهش إذا عثرت في ركن من أركان الدكان على تلسكوب أو

ميكروسكوب «يستعمل عدساته لإشعال السجاير من ضوء الشمس» أو مدفع مترليوز من مخلفات الجيش.

ثم قد تجد نموذجاً مصغراً لطنبور اخترعه أحمد العقلة، يديره أمامك ويفرجك عليه قطعة قطعة معدداً مزاياه التي تتلخص في أنه ينقل كمية أكبر من الماء ويمنع الفلاح من الاصابة «بالهاريسيا».. وتتفرج عليه، ولا تجد فيه أي شيء ممكن أن يميزه عن الطنبور العادي المستعمل فعلاً، وتقول لأحمد هذا فيبتسم دون أن يبتسم، ويقول لك: اتـه.. اتـه.. اتـه.. اش اش فهمك ف ف الاختراعات.. ومع هذا فلو أعجبك الطنبور أو الميكروسكوب أو حتى ماكينة الحلاقة الواردة رأساً من ألمانيا، فلا تنزعج إذا ناولها أحمد لك وأقسم بالله العظيم أنها: ما ماما هي عادت تابعاه..

غير أن أهم شيء في أحمد العقلة أنه لم يكن يطيق رؤية الأعوج ولا يصلحه. إذا رأى أن الكوبري الذي يصل ما بين البلدة والمحطة مهدد بالانهيار، فسرعان ما تجده قد خلع جلبابه وأدار عكازه كالسيف الطائح في كل اتجاه، وأحضر أخشاباً وأسمنتاً وحجراً لا تدري من أين، وأصلح الكوبري. وإذا وجد كومة تراب تسد الطريق وتعاكس مرور العربات الداخلة إلى البلدة والخارجة منها، فستجده حالاً قد استعار فأساً من دار قريبة، ونزل في التل خبطاً وعزقاً حتى سواه. «كيف يستعمل الفأس وهو يرتكز على عكاز؟ مسألة أخرى». وإذا خربت طلمبة الجامع يضيق بمحاولات عم باز القاتلة البطء لجمع ثمن اصلاحها من المصلين، وستجده حتماً هو

الـذي لا يصلي ويتخلص بمهارة من المحـاولات التي تبـذل لحمله على الصلاة، ستجده قابعاً بجوارها يدق «قلبها» ثم يستمع، وأحيانـاً لا تفعل محاولاته أكثر من أن تزيد فسادها فساداً ولكنه في أحيان يظل يقاوح حتى يصلحها.

إذا احتجت طعماً لتصطاد السمك دلك على أحسن مكان تجد فيه الطعم، بل في أغلب الأحيان يستأذن منك دقيقة ثم يعود وفي يده كرة الطين المملوءة بالطعم. وإذا قلت إن نفسـك في الذرة المشـوية مثلاً، فثق أنه لن يهدأ حتى يسرق لك ملء حجـره ويشعل راكيـة نار ويشويها. وكل سعادته حينئذ أن يجلس يـراقبك وأنت تلتهم الكيـزان في نشوة، ووجهه قد احمر وسال منه العرق من كثرة مـا هفهف على النار ونفخ وقلب الكيزان، وإذا عزمت عليه أشاح بوجهه خجـلاً وقال لك بسعادة حقيقية: بل بل بل بالهنا والش ش ش فا. بالهنا والشفا.

وفي أي فرح لابد ستجد عكازه يرتفع وينخفض ويـزق وينزق، راقصاً مرة، حاملاً العريس على كتفه مـرة أخرى. وهـو الذي ينصب الدولاب والسرير، ثم هو الذي يعشي الناس، ويزكيه الجميـع ليقف على حلة اللحم المسلوق، وتلك علامة الثقة المطلقـة في أمانتـه.. وفي أغلب الأحيـان ينتهي الفـرح دون أن يتعشى. وقــد يسكت عن تضحيتـه هذه أيـاماً، ولكن سيرة الفرح لابـد ستأتي ذات يـوم فيفلت لسانه رغماً عنه ويقول: ود ود وديني ليلتها ما ما ما تعشيت..

وأحمد العقلة له مع ساقـه قصة مشهـورة بدأت في ذلـك اليوم

الذي جاء فيه مفتش الصحة للكشف على أحد المتوفين في البلدة، وانتظره أحمد حتى خرج وارتبك كثيراً وهو يحاول مواجهته والحديث اليه، فقد كان به ضعف من ناحية الأطباء، ويكن لهم بالذات احتراماً لا مزيد عليه، ربما من يوم أن بتر أحدهم ساقه. . سأله أحمد عن حقيقة الاشاعات التي يسمعها وتقول إن مستشفى القصر العيني يركب لمبتوري الساق أرجلاً صناعية مجانية، وأحس الناس من سؤاله أن الموضوع الذي كانوا قد نسوه تماماً لم ينسه أحمد للحظة واحدة. وأكد له الطبيب صحة الاشاعة ولكنه قال له كلاماً يثبط أقوى العزائم، فقد قال إن عمل ساق صناعية مسألة في حاجة لجهود كبيرة واقامة ووساطات لا قبل لأحمد بها ومن رأيه أن يريح نفسه ويوفر جهوده، ولم يفعل أحمد شيئاً أكثر من أنه ظل يهز رأسه ويقول: ك ك ك كتر خيرك. . كتر خيرك. . وانسحب من أمام الناس الذين التفوا حوله وحول الطبيب والاشفاق يجتاحهم وكأنهم قد أدركوا في تلك اللحظة فقط أنه ذو عاهة وأنه يستحق الرثاء، هو الذي كانوا يعاملونه باستمرار على أنه ند لهم فقط، ولكن على أنه جبار وقوي لا يستعصي عليه شيء.

وتلفتت البلدة ذات صباح فلم تجد أحمد، وقيل إنه سافر، وقيل إنه سيغيب.

وفعلاً غاب أحمد أطول مدة غابها، حتى بدأت سيرته تطرق الأحاديث، وتكاد مصمصات الشفاه تحدد له مصيراً تعساً مجهولاً. ولكن مصير مين؟ ذات عصر وجدوا أحمد نازلاً من القطار ماشياً على

رصيف المحطة كما يمشي الناس، بساقين، وجلابية بيضاء جديدة، وكادت البلدة كلها تجتمع بشملها حوله تستمع لقصته التي كان يرويها بكلماته التي يخرجها تحت ضغط كغطيان زجاجات الكازوزة، وتتفرج عليه بعد أن جاء من مصر وعلى ساقة الجديدة الصلبة كالحديد التي لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعرفها من ساقة الأخرى. ومن تلقاء نفسه كان أحمد يردد الحكاية وهو فرحان. سافر طبعاً في أول قطار بأبونيهة الدائم فوق السطح، وذهب إلى القصر العيني وسأل وقطع تذكرة، وعرف اسم الطبيب الذي عنده الكشف، بل ذكر للناس أسماء جميع أطباء القصر العيني ورتبهم مضيفاً اليهم ألقاباً خاصة من عنده.. وسأله الدكاترة أين بترت ساقه؟ وبعشرة قروش أثبت لهم أنه عمل العملية في القصر العيني نفسه.. وقالوا له شهادات من الشئون الاجتماعية أحضر لهم شهادات، تعهدات جاء بالتعهدات، عفاريت زرق أحضر لهم العفاريت الزرق. وأخيراً وجدوا أن الطريقة الوحيدة للتخلص من الحاحه واصراره ومناكفاته أن يصنعوا له الساق، فبدأوا يتخذون اجراءات صنعها ولكنهم أنذوره أنها ستأخذ وقتاً طويلاً، ربما شهراً وربما أكثر، فقال لهم: على مهلكم قوي.. معاكم لحد سنة واتنين، وظل وراءهم حتى عملوها.. وها هي ذي. ولكن السامعين كانوا يتركون قصة الساق وتشغلهم أسئلة أخرى.. كيف وأين استطاع أحمد أن يقيم كل تلك المدة وهو الوحيد الساق في البلدة الكبيرة التي يتوه فيها الناس؟ فيقول أحمد ببساطة إنه كان ينفق على نفسه من متاجرته في

الـزجاجـات الفـارغـة التي كـان يبيعهـا للمتـرددين على المستشفى، وأحياناً كان يسرح بصندوق ببس أو برطمان هندي.

ويبقى سؤال آخر أين كان يقيم ويبيت؟

وتأتي اجابته:

ـ ف ف ف القصر ياولاد..

فيدهش الناس ويسألونه:

ـ داخلية يعني؟!

فيجيب وهو ضيق بغبائهم وبالسؤال:

ـ لا لا لا لا.. داخلية ايه! ع ع ع الباب.

***

وبـدأ أحمد يحيـا في البلدة مستمتعاً بسـاقه الأنيقـة الجديـدة. واضطر لشراء حذاء لقدمـه الأخرى فـالساق الصنـاعية مجهـزة بحذاء وجـورب.. وحين أصبح من ذوي الأحـذيـة وجـد أن من المحتم أن يتخلى عن كثيـر من الأعمال التي يقـوم بها.. لا جـري، ولا هزار، ولا طلوع نخل أو نزول ترعة، وهمه كله أصبح المحافظة على الساق الجديدة وإبقاء حذائها نظيفـاً، وإبقاء جلبـابه أكثـر نظافـة ليتلاءم مـع نـظافـة الحـذاء.. فـلا نــوم على الأرض، ولا حـلاقــة إلا للزبـائن النظيفين، بل حتى هؤلاء الزبائن أصبح عليه أن يحلق لهم فـوق كرسي

إذ لـم يعـد بوسعـه أن يتربـع خلف الـزبـون أو أمـامـه على الأرض. والسهم الأهوج المندفع الذي كأنه تضاءل وهبطت سرعته حتى أصبح يمشي كـالناس العـاديين وربما أبـطأ، محافـظة على سـاقـه وتمسكـاً بالوقار الذي تفرضه عليه، وحتى السفر أصبح المركز القريب هو آخر حدوده. وإذا سافر يركب كبقية المسافرين بتذكرة، وصعود على مهل وهبوط باتزان وأدب. . وأفكار غريبة أصبحت تتنـاثر من فمـه لزبـائنه الذين قل عددهم ومعارفه الذين قلت تحيتـه لهم وتحيتهم له، أفكـار بنعـل ورباط وحمـالات، أفكار عن فـانلات حمـراء بأكمـام لابد من اقتنـاءها، ومحفـظة تحفظ قـروشـه من الضيـاع، وبـدلاً من الفنجـرة والصـرف على الأصحـاب والشـاي الـذي يعبـه طـول النهـار بغيـر حساب، لماذا لا يحاسب ويوفر ويبدأ في مفـاوضة الحـاج محمد على امتـلاك الأمتـار القليلة التي يقـوم عليهـا الـدكـان؟ وبـدل الشحـططة والمبيت كل ليلة في مكان، لماذا لا يبدأ يستقر ويبحث له عن زوجـة كبقية خلق الله وقد زالت العـاهة ولم يعـد يخشى أن تنظر امـرأته إلى غيره من الرجال؟ أفكار ومشاريع تكفلت بتعكير باله الرائق ومـزاجه، وتحويل ضحكاته العالية وقهقهاته إلى نوبات غضب وزعيق، والـطلمبة تخرب ويأتي عم باز يستعرضه يرجوه فيخجل ويقـول: حاضـر يا عم بـاز. ولا يـذهب ويكسـل ثم يقـول لنفسـه أ اشمعنى أنـا يعني اللي أصلحها؟ مانا زي زي الناس. ومـا دام الناس يصلون ولا يصلحـون الطلمبة أو يرفعون الأكوام من طريق العربات، فليبدأ هو يصلي وليبدأ يفعل مثلما يفعـل الناس. والنـاس تأكـل وتلبس وتتزوج ويحيط كـل

منهم نفسه بما يحميه من ضربات الزمان، فلماذا يشذ هو ويبعثر جهوده وما لديه دون خوف من ضربات الزمان؟

بل المضحك أنه كان لا يغضب أبداً إذا عايره أحد بساقه المقطوعة أو أشار إلى عاهته على سبيل المزاح. كان يضحك ولا يحس أبداً أنه عوير أو أهين. من يوم أن ركب الساق وأقل اشارة اليه أو اليها تجرحه، حتى أصبح أشد ما يؤلمه أن يكون جالساً محترماً في مكان ويمد أحدهم يده خلسة ليتحسس ساقه، وكثيراً ما يتحسس السليمة فيشتعل أحمد غضباً ويثور حتى صار له في كل يوم خناقة وضرب وتحقيق.

***

وفي يوم وجدته البلدة عائداً من غيبة فوق سطح القطار، ولم يهبط إلا بعد أن تحرك القطار. هبط هائجاً كالزوبعة يجري ويضحك ويطير وراء الناس كالمجنون، حتى بدأ البعض يتساءل إن كان قد فقد عقله حقيقة. ولكنه لم يكن قد فقد عقله، كان قد فقد ساقه الصناعية واستبدلها بعكاز من المشمش أيضاً وقد أضاف اليه تحسينات. . وكان سعيداً جداً وكأنما أفرج عنه بعد سجن أو خرج براءه من اتهام، يتطلع إلى البلد والناس وكأنه يراهم من جديد، وكأنه المسجون حين تفك عنه القيود. وانهالت عليه الألسنة تسأله عن ساقه وأين ذهبت؟ وقال أحمد يومها حكاية وعدل فيها ثم عاد ونفاها وروى حكاية أخرى، وإلى الآن لا يزال يروي عن ساقه في

كل مرة قصة مختلفة. مرة يقول إنه كان جالساً على قهوة في المنصورة واضعاً ساقاً فوق ساق، وكانت الساق الصناعية هي العليا.. استرعت انتباه واحد من الأفندية المحترمين الجالسين وسأله عنها وفصلها له بخمسة جنيهات ليشتريها لأخيه المبتور الساق، ومن هنا لهنا أوصل سعرها إلى عشرة، ووجد أحمد الثمن معقولاً، ووجدها فرصة فخلعها وقال: خذها مبروكة عليك!

ومرة يقول إن أولاد الحرام نشلوا الساق وهو نائم بها في منتزه في طنطا، وأنه حين ذهب إلى القسم ليشكو للضابط نشل ساقه ظنه الضابط مجنوناً وكاد يحيله إلى مستشفى المجاذيب..

ومرة يقول إن له صاحباً كان يعمل سواقاً في بلاد فوق وحدثت له حادثة بترت ساقه فيها واستعمل العكاز، ولكنه حين أراد أن يتزوج قصده ليستأجر منه الساق ليتواجه بها أمام العروسة وأهلها، ولكن أحمد رفض أن يؤجرها له وقال: إذا كان سلف معلشي.. إنما ايجار لأ..

وهكذا أخذها الصاحب على سبيل القرض وبلا رهن، ولكنه بعد الفرح استحلاها وطمع عليها ولم يردها إلى يومنا هذا..

أكثر من قصة يرويها أحمد عن فقد ساقه، وينهيها دائماً بضحكة عالية مدوية وبقوله: في داهية.. دا دا كأن الواحد كانت رجله مقطوعة.

ثم يترك السامعين مبهورين ويجري وراء واحـد سبه أو خـطف طاقيته أو ساهاه واستولى على الحقيبة الخشبيـة التي يحمل فيهـا عدة الحلاقة، يندفع عكازه كالقذيفة الموجهة طـائراً في الهـواء، ثم يتبعه بجسده في قفزات هائلة سريعة ترج الأرض.

شيء يجنن!

لست في حل من ذكر اسم المدينة التي يوجد فيها ذلك السجين العمومي، فالقصة لم تصبح بعد حكاية ولا تزال في حكم الخبر الذي يتناقله النزلاء وموظفو السجن وأقارب هؤلاء وأولئك. وعلى أية حال فالسجون العمومية ليست كثيرة والحمد لله، بالكاد يوجد منها سجن في عاصمة كل مديرية مخصص للمحكوم عليهم بالحبس أو السجن من المديرية نفسها وما يحيط بها من مراكز أو محافظات.

والبداية مثل فرنسي يقول فتش عن المرأة، ولكننا لن نجد امرأة واحدة في ذلك السجن العمومي فهو من النوع المخصص للرجال، والأنثى الوحيدة المسموح لها بالتجول في أنحاء السجن ليست امرأة ولكنها كلبة، أو على وجه التخصيص كلبة المأمور. وللمأمور في أي سجن عمومي منزل مقام داخل السجن لا تستطيع أن تفرقه عن بقية بناياته من الخارج ولكنه قطعاً فاخر المنظر من الداخل، ويحتل في العادة مكاناً قريباً من المدخل، وله باب خاص ولكنه محوط بالسور الرهيب الذي يحيط بالسجن من كل جانب.

ورغم أن «ريتـا» (وهـو اسم الكلبـة) كـانت تتمتـع في السجن بحرية تحسد عليها، إلا أنها ظلت سيئة الحظ لفتـرة طويلة، لا لأنهـا الحيوان الوحيد الذي يحيا في مكان كل ما فيه من البشر ولكن لسبب آخر، فكونها في بيت المأمور داخل السجن كان يمنعها منعاً باتـاً من الاختـلاط ببني جنسهـا من الكـلاب في الخـارج، وبـالـذكـور منهم خاصة. والظاهر أن المسكينة بعدما تعلقت بأهداب الصبر فترة طويلة لم تعـد في النهـايـة تستـطيـع، وبـدأت تفقـد السيـطرة على نفسهـا وأعصابها، وساءت أخلاقها، وأصبحت مصدراً لشكوى لا تنقطع من السيدة الشابة زوجة المأمور التي كانت تصغره بخمسة عشر عاماً على الأقل. مرة تهاجم النملية وتبعثر محتوياتها وتدلق صفيحة السمن على الأرز، ومـرة ترفض الـطعام ويـظل لعابهـا يسيـل بـلا سبب واضـح، وليالي بطولها تمضيها في عواء غريب كأنها قـد انقلبت ذئبة، وأحيـاناً تضبط في حالة استكافة غير لائقة لمـداعبة أحـد المساجين، وأخيـراً ذلـك اليـوم الـذي هبهبت فيـه بشـدة في وجـه الـولـد الصغيـر حتى اصفـر من الهلع، وحتى اقترح المسجـون العجـوز الـذي يخـدم في البيت أن (يـرشوا) لـه في المكـان الـذي روع فيـه. في ذلـك اليـوم بالذات أصرت الزوجة الشابة على أن يختار المأمور بين أحد أمرين: إمـا أن يتخلص من الكلبة بـالتي هي أحسن، وإما أن تتـرك له البيت والسجن بأسره. والمأمور مع أنه كان رجلاً شديد التدين أسمر البشرة سميناً ذا لغد و (شامة) دائرية في حجم القرش تحتل وجنتـه اليمنى، إلا أنه كان شديد التعلق بريتا ربما لأنها من النوع الأصيل الـذي كان

يعتز المرحوم والده بتربيته (ووالده كان هو الآخر مأمور سجون، وتعلم هواية تربية الكلاب من رئيسه الانجليزي أيام كان الانجليز هم الرؤساء في كل شيء حتى في السجون) شديد التعلق بها إلى درجة كانت تدفعه لمناقشات بالغة العمق مع واعظ السجن حول نجاسة الكلاب وأين تكمن بالذات نجاستها، مناقشات كادت تدفعه لإيثار مذهب الإمام مالك على أبي حنيفة الذي يتبعه، لأنه سمع أنه مذهب في بعض الروايات يبيح تربية الكلاب إذا كانت للحراسة. . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه كان أيضاً شديد التعلق بزوجته الشابة، ولا يمكنه بأي حال أن يفرط فيها. كل ما حدث أنه رأى أن المشكلة لا تستدعي أياً من الحلين، وحلها واحد لا غير. . أن يعقدوا الكلبة على كلب. وكان باستطاعة ريتا أن تحصل على عشرات الكلاب الذكور بحركة واحدة من ذيلها فقط لو فتحوا لها باب السجن وتركوها تجرب حظها بالخارج، ولكن المأمور كان لا يمكن أن يسمح لها بهذا العبث لخوفه أن يتلوث نسلها من ناحية، ولأنه كان يتمنى لو استطاعت ريتا أن تنجب ذكراً من أب أصيل حتى يستعيض بابنها عنها، إذ كان وجودها وهي الأنثى داخل السجن الرجالي الذي تتجول فيه كما يحلو لها قد بدأ يقلقه ويحس أنه وضع لا يمكن أن يرتاح اليه مأمور حمش مثله.

كان على ريتا إذن أن تبقى رهينة المحبسين (سجنها وحرمانها) حتى يقدر لها أن تظفر بكلب يعطيها نسلاً أصيلاً معروف النسب.

وشاء حظها الحسن ألا تبقى هكذا طويلاً، فقد كان بالسجن

موظف محكوم عليه في اختلاس اسمه فوزي واسمه المشهور به في السجن فوزي بك، وكان يعامل معاملة حرف ألف ويمضي طول النهار يتنقل بين مكاتب الموظفين بقامته الفارعة النحيفة وبدلة السجن التي فصلها له ترزي ونظارته السميكة، ووجهه المسحوب الطويل طولاً لا حد له حتى يكاد الناظر إليه يعتقد أنه إذا ابتسم لا بد أن يبتسم بالطول. وكانت عائلة فوزي بك هذا تأتي لزيارته زيارة خاصة مرة كل أسبوع تتم عادة في غرفة المأمور الذي كان ولوعاً بحضورها وبالاشتراك في أحاديثها ولو كانت عائلية أو خاصة، وبانتهاز الفرصة كلما سنحت الفرصة لقرص ابنة فوزي بك الكبيرة ذات الستة عشر عاماً في خدها، وخدها كان يشبه التفاحة شكلاً، ومن المؤكد أنه كان يشبهها طعماً. في زيارة من تلك الزيارات جاء كلب ضخم من نوع (الوولف) مع العائلة، ومن لحظة أن وقع نظر المأمور عليه أدرك أن ريتا قد حلت مشكلتها وأنه عثر لها أخيراً على فارسها. وبالمناسبة كان الكلب اسمه فارس، وإذا كانت الكلاب تقاس بما فيها من كلوبة فقد كان من الواضح أن فارس يتمتع بقدر وافر منها. وما كاد المأمور يعرض الأمر على فوزي بك حتى أنه لم يوافق فقط، ولكنه أخذ يكيل للمأمور عبارات الثناء المنمقة على (بالغ عطفه) (وعظم تواضعه) وتنازله بإسناد هذا الشرف إلى كلبه المتواضع. .

وهكذا بعد الزيارة أخذوا «فارس» إلى مخزن الملابس والمهمات ليحتجزوه حتى يحضروا ريتا. وكان المخزن حافلاً بأكوام الملابس الجديدة والمستعملة والكهنة، ولا بد أن الكلب أخذ يسلي نفسه بالقفز

فوقها والتطلع من نوافذ المخزن العالية، إذ بعد قليل سمعه النزلاء والحراس ينبح نباحاً شديداً ويحاول دفع رأسه بين حديد النوافذ ليغادر المخزن. ولا يعرف أحد للآن على وجه الدقة ماذا رآه الكلب بالضبط وأثاره، فالمخزن كان يطل من جهته الخلفية على فناء السجن الداخلي حيث كان المسجونون حرف ب في حالة (طابور) أي في حالة فسحة. ربما مشهد المئات منهم ببدلهم الزرقاء ذات السراويل التي تقصر أحياناً فلا تكاد تصل إلى الركبة وتطول أحياناً حتى تجرجر على الأرض، والتي يبدون فيها على هيئة بشعة تكاد بشاعتها تبعث على الضحك، أو ربما تكون (الزيارة من خلال السلك) تلك التي يقف فيها مئات الأهالي في ناحية وعشرات المساجين في ناحية أخرى ويحشد كل منهم طاقته في صوته ليصرخ ويشتاق ويسلم لتصبح الزيارة مظاهرة مجنونة حافلة بالأيدي المشوحة والاستغاثات والدموع، ربما هو مشهد الخارجين للمحاكمة الجالسين القرفصاء ببدلهم القذرة على الأرض في تشابه لاتكاد تميز فيه شخصاً عن شخص ولا بدلة عن تراب، ربما هو الجو العام للسجن الذي يطبع كل شيء بطابع غريب مرير ويبدو فيه المساجين آلافاً من البقع الزرقاء والبيضاء المنتشرة كالجراد البشري مرصوصة على الأرض تقطع الطوب، متعلقة بالحيطان تطليها وخالعة ملابسها تسلك المجاري وسائرة اثنين اثنين وبين كل اثنين جردل فيه ما فيه من ماء أو «يمك» أو قاذورات. أو لابد أن التي أثارت «فارس» هي القضبان.. في كل مكان قضبان وكل شيء بينك وبينه قضبان..

بعض الناس قالوا إن الذي أفقد الكلب صوابه كان منظر أرغفة عيش السجن. وقال آخرون بل هو احساسه أن الباب أغلق عليه وأصبح أسير الجدران. المهم أن الكلب ظل نباحه يرتفع ولا يترك فرجة في المكان إلا وجرب فيها نفسه وجسمه حتى زرق من خلال فتحة التهوية في المخزن، وقفز المسافة الكائنة بينه وبين دور تسعة، ومنه إلى سور المسجد، إلى الخلاء. وحدث هذا قبل أن ينتبه أحد، بل دون أن ينتبه أحد . . فالحقيقة أنهم لم يكتشفوا هربه إلا حين ذهبوا يفتحون باب المخزن وقد أحضروا ريتا.

هاج المأمور طبعاً، وكادت الشامة اللاصقة بوجنته تقفز غضباً وتخترق عين السجان الذي ذهب يبلغه بما حدث. وأسرع فوزي بك يعتذر عن تصرف كلبه ويعد بإنزال العقاب به وتوصية الأسرة بحرمانه من الطعام. وظل طوال الأسبوع كلما قابل المأمور يعتذر، حتى حان موعد الزيارة التالية، وجاء الكلب مع العائلة، ونبه المأمور زيادة في الاحتياط بأن يحجز الكلب في احدى الزنازين الانفرادية التي يوضع فيها كبار المجرمين إذا عصوا أو أذنبوا، وخصص لحراسته أرذل سجان في العنبر. ولتسهيل المهمة أكثر وضعت ريتا في الزنزانة هي الأخرى حتى لا يضيع الوقت في البحث عنها. وأخذ فارس بعد الزيارة من صحبة العائلة إلى الزنزانة حيث أدخل فيها بخدعة وأغلقوا عليه الباب، ووقف السجان يراقبه من خلال (العين) الموجودة في الضلفة. وما كاد الباب يغلق على الكلب، ويدرك أنه أصبح سجين جدران أربعة حتى راح يهبهب دون أن يعير ريتا أقل

انتباه وكأنه لا يراها، ثم تحولت هبهبته إلى عواء، وما لبث السعار أن انتابه فمضى يقفز ويجري في اتجاه النافذة وينشب أظافره في الضلفة ويخربش الحائط، بينما علا نباحه حتى كاد يصم الآذان. وكلما أوغل في محاولاته انكمشت ريتا على نفسها وانكمشت واضعة ذيلها بين فخذيها محتلة من ركن الحجرة القصي أصغر مساحة يمكنها أن تحتلها، تاركة بقيتها لهذا البركان الهائج. ظل الشاويش يراقبه منتظراً أن يعقل ويهدأ بلا فائدة، كلما كان الوقت يمتد كان سعاره يزداد والزبد الذي حول فمه يتكاثر. وجرى الشاويش بالأخبار إلى المأمور، وسبه المأمور قائلاً إنه هائج لأنه لابد جائع، وأمره بأن يقدم اليه ثلاث قطع كبيرة من اللحمة التي يأكل منها المساجين، وعاد الشاويش مهرولاً لينفذ الأمر غير أنه ما كاد يفتح الباب ليلقي اللحم حتى فوجىء بقفزة هائلة من الكلب وثب فيها على أكتافه وألقاه أرضاً وبقفزة أخرى كان قد أصبح خارج العنبر، وبثالثة كان قد أصبح خارج السجن ومضى يجري ويجري مبتعداً لا يلوي على شيء.

ولم تكن السقطة وحدها هي كل الجزاء الذي حل بالشاويش، فقد أقسم له المأمور بشارب أبيه أنه لن ينساها له، وأنه سينتهز أول فرصة وينقله إلى سجن الواحات. بل شمل غضب المأمور فوزي بك نفسه، واستمع الرجل للتأنيب وهو صاغر، وحاول أن يعتذر فرفض اعتذاره، ولم يسمح له المأمور بفرصة إلا أن يرسل في طلب الكلب فوراً وإلا كان ما كان.

وأرسل أحد السجانة إلى منزل عائلة الرجل ليحضر الكلب

المارق. ولكنه عاد يقول إن الكلب لم يعـد بعد، وإن العـائلة تقضي وقتـاً عصيباً في انتـظار عودتـه. وأرجعه المـأمور اليهم ليخبـرهم بـأن عليهم احضـار الكلب متى عاد، وفي أي سـاعـة يعـود ولـو كـان في منتصف الليل. ولم يعد الكلب للعائلة إلا بعد انقضاء يومين يبدو أنه ظل تائهـاً فيهما في المـدينة، وخضـوعاً لـلأوامر أحضـروه وكانـوا قد استعدوا له هذه المرة، فأمر المأمور بإدخاله حين حضوره مع ريتا في الفنـاء الداخلي لسجن التـأديب، وهو فنـاء تحيطه الـزنـازين من كـل جانب، وسقفه مصنوع من القضبان، وبـابه من حـديد وقضبـان أيضاً ولا يمكن أن يهرب منه أبداً. وكان على الكلب أن يبقى مـع ريتا في هذا الفناء حتى يتم كل شيء على أن يقدم لهما الطعـام والماء خـلال المسافات الكائنة بين القضبـان ثلاثـة عساكـر بالبنـادق، على رأسهم شاويش التأديب المعروف بقسوته وجرأته.

وتم كل شيء تماماً وفق ما أراد المأمور، ولكن الكلب بدا كأنه فقـد عقله نهائيـاً هذه المـرة، فقد قضى يـوماً بـطولـه ينبـح ولا يكف عن النباح، وفي الليل لم يدع أحـداً يغمض جفنه لا في فنـاء السجن ولا في بيت المأمور، وقرب الفجر أحس الديدبـان بحركـة في سقف فنـاء التأديب، وقبـل أن يصرخ ويقـول (م اللي هناك) كان الكلب قـد أرغم جسـده على المروق بقـوة جبارة من خـلال المسـافـة الصغيـرة الكائنة بين حديدتين، وفي ومضة كان يقفـز من سقف إلى سقف إلى خارج السجن.

ولم يعـد لمنزل العـائلة لا ليلتها ولا مـا تلاهـا من أيام وليـال، وبحثـوا عنه في كـل مكان فلم يجـدوه أبداً، كـان بلا ريب قـد غادر المدينة كلها إلى غير رجعة.

آخر الدنيا . .

حين ذهبت شمس الشتاء الصغيرة وجاءت الشمس الكبيرة وهبت نسمات الحر تؤذن بقرب الامتحان . . كان أهم ما يشغل باله هو ضياع تلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف ذات اللمعة الهادئة الوقورة والنعومة الخشنة التي يبعث ملمسها الفرحة والأمان .

وحين رجوعه إلى البيت وقد ضعضعته رحلة العودة وملأت جسده النحيف الأصفر بالعرق الصغير الأبيض ، مد يده في جيب البنطلون وحين لم تلمسها كذب أصابعه وعاد يمدها ، وكلما أكدت الأصابع أنها غير موجودة ازداد تكذيباً لها . . ولم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش جيوب البنطلون كلها والجاكتة والجلباب ومكان وقوفه ، وكل بقعة من أرض الغرفة المظلمة التي لا يأتيها النور إلا من كوة صغيرة قرب السقف . . لم يبدأ الخوف الأكبر ينتابه إلا حين فتش الحجرة وما فيها بحرص وإمعان وكأنما يفتش كفه . . ولم يجدها .

حينئذ فقط كانطلاق الاستغاثة في ريف ساكن ، كالخبر القاصم للظهر . . كالمصيبة المفاجئة ، أدرك أنها ضاعت ولم تعد في حوزته . . ووجد نفسه ينهار على الأرض نصف خالع لملابسه ، وهو

لا يعرف شيئاً ولا يفكر في شيء ولا مايجب عليه أن يفعل، وكأن عقله قد ضاع منه أيضاً. . وطالت الجلسة وامتدت وهو يحس بها وكأنها لم تبدأ وكأنها جريمة أن يتحرك. . لم يبدأ يتحرك إلا حينما بدأ صوت رفيع يعلو داخله ويقوى ويؤكد له أنها أبداً لم تضع وأنها لابد موجودة في مكان ما، وماعليه إلا أن يجد المكان ليجدها، هنا فقط تحرك وأكمل خلع بذلته وأكمل ارتداء جلبابه وعاد يفتش الحجرة ومحتوياتها من جديد، ثم خرج إلى فناء الدار الواسع غير المنتظم، وصعد إلى السطح، وبعود من الحطب عسعس فيما أمام البيت من تراب، بل الكناسة أيضاً فرزها بالعود وبعينيه وبكل قدرته على التمييز. . ولكن بحثه في كل تلك الأمكنة كان نوعاً من أداء الواجب. . لم يكن قد فقد شيئاً قبل الآن. . فلم يكن أبداً قد امتلك شيئاً. . ولهذا فهو لم يجرب أيضاً أن يبحث عن شيء، ولا أحس أبداً بهذا المزيج الغريب من الأفكار التي تفزعه، ويطردها فتعود أقوى فيكاد يبكي مخافة أن يكون ما يحدث له هو الجنون الذي يرسلون من أجله الناس إلى السراية الصفراء. .

لا يهم الآن أين هو أو ماذا يفعل، ولا إن كان قد قدر له أن يظل حياً إلى يومنا هذا فربما عاش واغتنى وبنى لنفسه قصراً وأحس بأهمية أشياء كثيرة، ولكنه أبداً لا يمكن أن يكون قد أحس بمثل الأهمية التي أحسها يوماً ما لتلك القطعة الفضية المسدسة الأحرف. . ليس لأنها أول نقود أعطاها له أبوه. . فأبوه كان دائماً يعطيه أشياء كلما جاء لزيارتهم. . والحقيقة أنه لم يكن يأتي كثيراً. .

كل بضعة شهور مرة. . يفاجأ حين يعود من المدرسة بصوته الحبيب يأتيه من وراء الباب قبل أن يفتح له الباب. .أو يكون الليل قد استتب وسكنت الأصوات كلها ثم مر قطار آخر الليل بصفيره الحزين النعسان. . ومرت بعده دقائق، وإذا بالقبضة تدق على الباب، وبالصوت أحب صوت يقول: افتحوا أنا فلان. . ولهذا فما مرة كان يعود فيها من المدرسة ويطرق الباب، وما من مرة يفوت فيها آخر قطار إلا ويستجمع نفسه استعداداً للمفاجأة، واستعداداً لما قد يعقبها من خيبة الأمل. .

وإذا جاء أبوه أخذه تحت ابطه واحتضنه وقبله قبلة سريعة في خده، ودس يده في جيبه وأخرج له شيئاً: حبة كراملة. . قلم رصاص جديد غير مبري، وأحياناً يدس يده ولا يخرج شيئاً ويحس بأبيه محرجاً فيفتعل سبباً ويختفي لينقذه من الاحراج. . وفي كل مرة يأتي يظن أنه قد استحوذ عليه أخيراً وأنه لن يفلت منه أبداً، وفي كل مرة يحدث ما يؤلمه فيعود من المدرسة أو من الخارج ليجد أن أباه قد ساهاه وذهب. يدور في أنحاء البيت ويصعد إلى السطح ويجري إلى الجامع يفتش صفوف المصلين الراكعين أو الواقفين. . أو حتى الساجدين الذين قد اختفت كل معالمهم ولم تبق لأيهم سوى قدم واحدة واقفة تسند الجسد، وبلمحة واحدة يلقيها على الأقدام كان يدرك أن أياً منها ليست قدم أبيه. .

ويلهث حينئذ إلى المحطة لعله في مكان ما في البلدة لم يسافر بعد ولابد سيأتي لركوب القطار، وتمر القطارات ذاهبة وآتية ولا

يظهر له أثر، حتى إذا مر قطار الرابعة تملكه اليأس الكامل وجازف بنفسه ومر من أمام «الراس» في طريقه إلى البيت يكاد يبكي.. وأحياناً يبكي ويحس أن البكاء لا يعبر أبداً عن ضيقه، وأن الحل الوحيد أن يساهيه القطار ويظل يدهمه ويدفعه حتى يوصله إلى بعيد.. أبعد بعيد.. آخر الدنيا.

ويصل البيت وتسأله الجدة أين كان. فيتخابث هو ويسألها أين أبي؟.. فتجيبه بتلك الكلمة التي يحس بها كزلطة السكة الحديد حين تدق الرأس: سافر. لكم كره السفر وتمناه فهو الذي يأخذ أباه منه وهو أيضاً الكفيل بأن يذهب به إليه.. وكأنما تتذكر الجدة.. إذ لابد أن تعنفه على شيء حدث في أثناء زيارة أبيه.. ثوب متسخ، أو شحوب زائد عن الحد، أو كلمة شكوى تفوه بها، وبيد جافة معروقة تأخذ أنفه بين اصبعيها لتمسحه وتعلمه النظافة، وإن تململ ثبتته في مكانه بقرصة أذن، وإن قال: «يا اما» لكزته قائلة : اسكت يا ابن النجسة.. ويحس بالخجل الشديد كأنها عرته أمام الناس، ومع أنه يعلم تماماً أن جدته فظة المخارج فقط، وأن كلامها مع الجميع شتائم..

ويحين العشاء.. والعشاء دائماً خضار من الغيط مسلوق أو أرز بالتقلية، والطبلية تزدحم بأيد كبيرة خشنة، وحتى النساء اللاتي يخجلن في حضرة الرجال لا يخجلن ساعة الطعام، ويروح الكل يأكل في نهم، والأيدي تتسابق بلقم كالفئوس تفرغ الغموس في ومضة، ويده صغيرة كيد القطة يمدها خلسة ويدعي الأكل، خائفاً

أن يدرك أحد أن الطعام لا يعجبه وأنه دلوعة وأنه طفل، فالجميع كبار يعاملونه كالكبير، ولا يمكن أن يجعلهم يتصورون أنه صغير، ولا تكون به حاجة للادعاء فلا أحد يفطن اليه والكل مشغول عنه، والقطط وحدها هي التي تهرب من القبضات الساحقة الزاجرة وتستهيفه وتتكاثر عليه، تمد يدها قبل يده فإن حاول سبقها زجرته وماءت في وجهه وأخافته.

. . وفي أحيان يضيق بالعشاء ويروح يتصور عشاء آخر مع عائلته الحقيقية وأخوته الصغار والكبار، فلابد أن له أخوة ولابد أنهم يتناولون الآن طعاماً أحسن وأبوه يأخذهم تحت ذراعيه ويهدهد عليهم، وأمهم ـ أمه ـ تدللهم وتطعمهم. . لابد هذا رغم كل ما تقوله الجدة وتقسم عليه، رغم تأكيدها بأنه لا أخوة له ولا أم. انه شيطاني. . مرة انتابه العناد وظل يبكي ويطالب الجدة أن تدعه يذهب إلى أخوته وأمه، وحين لم يفلح فيه زجر أخذته الجدة في حضنها وقبلته وقالت له وهو يرى الدموع في عينيها إن أمه سرقها حرامي ذات ليلة من أبيه، وأن لا فائدة من بكائه أو إصراره إذ لا أحد يعرف مكانها أو أين تقيم، وأنها هي أمه الحقيقية التي سيعيش معها إلى الأبد. . ليذهب كالشطار إلى المدرسة ويتعلم ويصبح غنياً وأفندياً كالبهوات. وحين حاول المحاولة الأخيرة وطلب أن يذهب إلى مدرسة من المدارس القريبة من أبيه، ضمته جدته وهي تخبره أن لا مكان له عند أبيه، إذ هو يعمل هناك بعيداً جداً بينهم وبينه أسفار وأسفار. .

ـ عند آخر الدنيا يا جدتي؟

ـ تماماً هناك يا بني.. مكانك معي هنا لتكون قريباً من المدرسة.

ورغم هذا فلم تكن المسافة بين بيت جدته والمدرسة تقل عن الأربعة كيلو مترات، يصحو لها من الفجر.. توقظه العمة أو زوجة العم التي يكون عليها الدور في جلب الماء من الترعة، وتصب عليه من أبريق فخار ذي ماء مرصرص يوقف شعره ويدمي فروة رأسه، ويظل لا عمل له طوال الطريق إلا النفخ في يده، ويجري حتى لا يتأخر والطريق مضبب نصف مظلم وطويل لا نهاية لطوله، ويقطعه وحيداً فزملاؤه لا يصحون في هذا الوقت المبكر، ومع هذا يسبقونه إلى المدرسة وقد أركبهم آباؤهم ركائب أو قطعوا لهم تذاكر بتعريفة في أول قطار. ودائماً يصل والطابور واقف، ولابد له كل يوم من خيزرانات أربع أو خمس.. للتأخر أو لقذارة الحذاء أو لعدم الحلاقة.. وبأيد صغيرة ورمها البرد وخدرها الضرب، وبأذن حمراء بالزمهرير وما تيسر من القرصات، وببدلة جرباء كالحة وركب مسلوخة وشبه حذاء، يدخل الفصل منكس الرأس، وربما لهذا كان يطلع الأول.. دائماً الأول، ودائماً هو أكثر التلاميذ انتباهاً.. ربما لكيلا ينتبه إلى نفسه ويخجل. في فسحة الغداء فقط يعود رأسه ينكس، حين يترك غيره يذهب إلى المطعم أو الكانتين ويذهب هو ليبحث هناك عند آخر السور على منديل الغداء الذي طبقوا له فيه الرغيف على قطعة الجبنة، والذي كان يخفيه بجوار السور ويتكفل لونه الذي لا

يختلف عن لون الأرض بحفظه من الضياع. وما أعمق الراحة التي كان يحسها حين يدق آخر جرس، إذ معناه أن تبدأ رحلة العودة.. نفس الطريق الذي قطعه لاهثاً مذعوراً يعود منه الهويني وبالهويني يحلم ما يشاء من الأحلام، وقد لا يحلم أبداً ويظل طول الطريق سعيداً يكاد يطير، فقط لإحساسه أنه هنا يستطيع أن يختار أي حلم ويحلم به.. وأي هدف ويحققه، هنا يستطيع أن يعثر على أمه ويستحوز إلى الأبد على أبيه، ويسافر إلى آخر الدنيا ويجد الكنز وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين.

وفي نفس طريق العودة هذا فقد كنزه الحقيقي، القطعة ذات القرشين التي أعطاها له أبوه في زيارته الأخيرة.. وقبل أن يغيب غيبته التي طالت وأسالت دموع جدته مراراً، ويسمع الهمسات أنه لن يعود إلى البلدة مرة أخرى.. أشياء لم يكن يحفل بها فالهاتف الذي في نفسه يؤكد له أنهم جميعاً يكذبون عليه فمن المستحيل أن يتركه أبوه هكذا ولا يعود إليه. بل هو لا يعرف تماماً لماذا أبطل التفكير في أبيه ووضع همه في القطعة ذات القرشين... صحيح كان يدرك أنها نقود ولكنه يدرك بالسمع، فهو لم يشتر شيئاً ولم يبع ولا امتلك قرشاً أو مليماً في حياته ووضعه في محفظة أو كيس، بل لم يكن قد امتلك أبداً شيئاً لنفسه. .البدلة والكراريس والأقلام كانت أشياء يعطونها له ليذهب إلى المدرسة، والأشياء التي كان يعثر عليها أحياناً ويحفظها ويصنع لها صندوقاً ويضعها فيه كان يدرك من أعماقه أنها بغير قيمة

ويستغرب حرصه على إبقائها عنده واعتنائه بهـا، فهو لا يتحمس لهـا إلا حين تضيع أو يكتشف ذات مرة أن جدته تخلصت منها.

القطعة ذات القرشين أو «أم أربعة» كما كانت الجـدة تسميها، كانت شيئاً آخر. لأول مرة في حياته أحس أنه أصبح مـالك شيء ذي قيمة عظمى! إنها ليست نكلة أو ربع قرش أو تعريفه أو غير هذا من القطع التي كانوا يسمحون لـه بإمسـاكها في يـده أو التفرج عليهـا.. إنها قرشان بحالهما، في قطعة من الفضة، الفضة التي يسمع النـاس يتكلمـون عنهـا بـاحتـرام لا يعـادل إلا احتـرامهم للذهب. أيـام أن أعطاها له أبوه لم يكن قد أحس بأهميتها، كان مشغولاً كالعادة بخوفه من أن يسافر وبالضيق الذي ينتابه حين يسـافر والأقـاويل التي أعقبت سفره، حين بدأ يفطن إليها وإلى أنها ملك خالص لـه لا يشاركـه فيه أحد كاد ينسى أباه والدنيا وكل ما في حياته.

وظلت معه طوال الشتـاء.. إذا عاد من المـدرسة كـان يضعها في كيس صغير خيطه بنفسه لأجلها ويحكم وضع الكيس في جيبه.. كلمـا خرج من البيت تحسسهـا.. كلما جـاء عليه الـدور في لـعبـة ـ ضربونـا ـ اطمأن لـوجودهـا. ولا ينام إلا إذا ملس عليهـا ويستعجل اليقظة ويصحو فـرحاً لأنـه من جديـد سيضغطهـا بين أصبعيه ويقلبهـا ويستمتع مرة أخرى بلمس خشونتها. إذا ارتدى البدلة نقلها إلى جيب البنـطلون، وقبـل أن يخلعــه يكـون أول مــا يفعله أن يعيـدهــا إلى الجلباب. وأغرب شيء أنها وهي معه ويتحسسهـا طوال الـطريق كان يحس بـالدنيـا دافئة وبخـطواته أسـرع، وحتى إذا نالـه على التـأخيـر

ضربات وتورمت يداه فقبل أن يدخل الفصل كان يناضل لكي تستطيع أصابعه التي فقدت حركتهاوإحساسها أن تطبق عليها، وحين تنقل إليه الأصابع حجمها مبالغاً فيه ومضاعفاً وملمسها مخالفاً مغايراً وكأنما تورمت هي الأخرى. وفقدت الإحساس ونالت خيزرانات، حين يحدث هذا في التو كان يذهب الألم عن يديه والمهانة عن نفسه، وفي الفصل إذا استعصت عليه الإجابة استنجد بها، وإذا خانته الذاكرة وأخطأ وأحس بالمذلة تعزى بأنها على الأقل معه في متناول يده. وتركزت أحلامه في طريق العودة حولها. . أحياناً يتصور أن أناساً يعرضون عليه مائة جنيه ليأخذوها، ورغم إدراكه أن الجنيهات المائة مبلغ لاحد لضخامته فإنه كان إذا وصل في أحلامه إلى مرحلة التنفيذ لا تطاوعه نفسه فيرفض، ويرفض حتى مبلغاً أكبر. . ويقول الناس عنه إنه مجنون ويسألونه كيف لايقايض عليها بمائة جنيه وأكثر فيعجز هو عن تقديم السبب، إذ هو نفسه لا يستطيع أن يعرف لماذا يجبها كل هذا الحب ويفضلها على مال الدنيا كلها، وحتى على مصباح علاء الدين!

وحين يستعرض في الطريق مخازي اليوم، ودائماً كانت له كل يوم مخاز، ويتذكر نظرة مدرس الجغرافيا «الملظلظ» السمين ذي الحذاء البني الذي لم تر عيناه شيئاً في مثل لونه النبي الجميل ولمعته التي تخطف البصر، ونعله الثخين السميك المحلى حين يتصل بالجلد بعدد لا نهاية له من الخطوط الدقيقة القصيرة المتوازية ـ أعظم ما كان يتمناه في حياته أن يرتدي حذاء بمثل تلك اللمعة والنظافة ـ

حين يتذكر نظرته إليه النظرة التي كلها اشمئزاز وكأنه ينظر إلى دودة أو بصقة - وكلامه عنه وعن أبيه، وبصيغة الجمع، وعن أبيه بالذات وفقره وفقرهم وكأنهم مصابون بداء منفر تتقزز له النفس اسمه الفقر - حين يتذكر ضرب التلامذة الكبار له وقذفهم الحبر على بدلته، وجاره ابن عامل تليفون هندسة الري الذي ترك له التختة وحده وذهب إلى تختة أخرى هامساً في أذن جيرانه بأنه لم يعد يطيق رائحة البصل والمش التي تفوح منه، حين يطارده لقب «أبو ضب» الذي أطلقوه عليه ظلماً حتى آمن به وبدأ يفكر في وسيلة لانتزاع أسنانه - حين يستعرض ويضم نفسه على نفسه وكأنما يريد أن يخفي نفسه عن نفسه، لا يبدأ ينسى ويعود يحلم ويسعد إلا حين يتذكرها ويدس يده كالملهوف ويطمئن عليها.

وفي ذلك اليوم حين خلع البدلة وعرف أنها ضاعت، وظل ما تبقى من اليوم منحنياً يبحث أو نائماً على بطنه يخترق الظلام بأنظاره ويتأمل، وأوى أخيراً إلى مضجعه بين الأجساد الكثيرة التي تحفل بها وبنفسها وشخيرها الغرفة، كان كل ما يشغل باله قبل أن تغمض جفونه أنه - بعد - لم يجدها. وحين استيقظ ومد يده مرة واحدة إلى الكيس عن بعد وتلمس جميع أطرافه، استعد لصرخة فرحة وأطبق يده مرة واحدة على الكيس ولكن يده لم تطبق إلا على الهواء وكان الكيس كالأمس لا يزال فارغاً، تورم قلبه وتمدد يحتل كل صدره ويكاد يوقف أنفاسه عن التردد. ما فائدة الصباح الباكر أو المدرسة أو أن يكون الأول ويصبح كالبهوات إذا لم يجدها؟.

ومضت أيام كثيرة. . خميس وجمعة وراء خميس وجمعة، وما فعله في اليوم الأول كان يفعل بعضه في الأيام الأخرى فيعيد تفتيش الدرج أحياناً أو يتأمل البقعة التي يقف فيها حارساً لمرمى فريق الكرة الزلط، أو يعيد تقسيم الحوش إلى مربعات جديدة يتفحصها اصبعاً اصبعاً. مضت أيام وعاد يضحك ويحزن ويلعب (ضربونا)، ويعاني من خشونة الجدة وخيزرانات المدرسين ولكنه كان وكأن شخصاً آخر هو الذي عاد يفعل كل هذا، شخصاً لا يفرح ولا يحزن ولا يجد في الألم ألماً ولا في أحلام العودة سعادة، أما شخصية هو فقد ظل دائماً معها وكأنها كانت تمتلكه وحين ذهبت أخذته وأخذت انتباهه وكل احساسه. كلما فتح فمه ونطق شيئاً، كلما كف عن الحديث وسهم، كلما أحسن أنه يريد أن يفكر، كلما بدأ يضحك، كلما صادفته سعادة صغيرة. . حبة طماطم أو برتقالة أو استيكة يكافئه بها مدرس الحساب على معضلة، كلما أحس بالعضة وأدرك مفجوعاً أنها ضاعت وإنه لا يزال لم يعثر لها أثر، وهنا ومن جماع نفسه وبكل ما يمتلك من عناد وتصميم كان يهتف ويكاد يصرخ ويسمع الناس أنها لم تضع، أبداً لم تضع، فلا بد أنها موجودة في مكان ما من الدنيا تنتظر منه أن يعثر على المكان فيعثر عليها.

وفي يوم وقد مضى الشتاء وبدأت الدنيا تحفل بالشمس الكبيرة والحر ورائحة الامتحان، كان عائداً ما كاد يخلع الجاكتة ويلقيها ويلتقط أنفاسه من رحلة العودة حتى تذكر ـ هكذا ـ وكأن يداً لا يعرفها امتدت ووضعت الفكرة في رأسه ثم تلاشت، تذكر أنه في

اليوم الذي فقدها فيه تماماً كانت نفسه قد زينت لـه أن يحصل على بضـع كيـزان من التين الشـوكي المـزروع فـوق جسـر السكـة الحديد، وأنـه لأول مرة خـالف نصيحة أبيـه الذي كـان يوصيـه على الـدوام بـألا يصعـد إلى الجسـر أبـداً، وأن يمشي على النـاحيـة المحـاذية للخليـج من السكة الـزراعيـة بحيث إذا ميلت عليـه سيـارة قادمة يصبح بإمكـانه أن يخـوض في الخليج الضحـل، يومهـا خالف النصيحـة وصعـد إلى الجسـر وزاغ بصـره بين الكيـزان النـاضجـة الصفراء كالكهرمان وبين جلبـاب عم علي الأسود الذي يشتري التين من المصلحة ويحرسه ويبيعه. لا بـد أنه في خضم خـوفه واضـطرابه ومحاولته أن يحـاذر الشوك وأن يفـك ملابسـه بطريقـة يدعي بهـا لعم علي أنه يقضي حاجته فيما لو ظهر له فجـأة، لا بد أنهـا سقطت منـه في ذلك المكان ولا بد أنه لم يع وهو في حالته تلك بسقوطها.

ورغم أن الأمر كان مجرد فكرة بعيـدة الاحتمال، أبعـد منها أن تكون قد ظلت في مكانها تنتظره طوال تلك الأسابيع هي الجـديدة أو تكـاد، ذات اللمعة رغم هـذا، إلا أن الفرحـة التي اجتاحتـه أغـرقت بفيضـانها أي تـردد أو شك، فـرحة حقيقيـة جعلته يـدرك أنه لم يكن يفرح، وحين انطلق يجري بالقميص والبنطلون قافزاً فوق جـدته التي كـانت تجلس على عتبة الغـرفة تلضم عقـود «الباميـة الناشفـة» أحس أيضـاً أنـه لأول مـرة يجـري أو يمشي أو يتحـرك، أو يهمـه الجـري والتحرك. ودون أن يعي كان قـد حدد لنفسـه ما يجب عمله، فـالتين الشوكي مزروع بطول الأربعة كيلو مترات التي يستغرقها الجسر، وهو

لا يعرف في أي بقعة بالذات قام بمغامرته. . ولهذا فسيمسك الجسر من الأول من محطة البندر إلى أن يجد البقعة. ولم يلتقط وعيه بنفسه ولم يبدأ ينظر إلى الشيء المحدد إلا حينما أصبح وكأنما بسرعة البرق عند محطة البندر. ونظر إلى الجسر الطويل واستعذب النظر ففي مكانه منه سيجدها، ولا يهم الطول فكلما طال البحث امتدت النشوة، وأيضاً لا يهم أنه للمرة الثانية يخالف نصيحة الأب وتحذيره بأن القطار لو فعل سيقطعه قطعاً قطعاً. . أكبر قطعة منها في حجم القرشين. . فهو للمرة الأخيرة يخالفها ولا خطر هناك، فالساعة بالكاد قد بلغت الثالثة وباقي على القطار القادم. . قطار الرابعة ساعة، والأمر لن يأخذ دقائق.

* * *

وقدما قدما فوق الفلنكات الخشبية مضى يتحرك ويتوقف ويجول بعينيه خلال الزلط الكثير، عشرات الزلطات ومئاتها وآلافها، ثم ينحني ويتفحص جذور التين وأوراقه الجافة ثم يعود للسير، ولكنه كان يدقق ويتفحص لأداء الواجب ليس إلا، فقد كان يعتمد على انفعال ما سينتابه حين يصبح عند البقعة التي قام فيها بمغامرته، إذ رغم أن تينها لا يختلف عن غيره في طول الجسر، وزلطها لا يختلف عن الزلط، إلا أنه متأكد أنه لو رأى ألواح التين وأوراقه وشجرته التي أخذ منها في الحال سيعرفها. وهكذا مضى يزحف قدما قدما ينظر أداء للواجب، ويتأمل الأوراق والبقع منتظراً أن تحدث له الاختلاجة التي يترقبها، وحين لا تحدث يتقدم خطوة أخرى فرحان فقط لأنه

أخيـراً يعود للبحث عنهـا، سعيد بتضييق الخنـاق عليهـا، يـود لـو لم يحدث صوتاً حتى لا تحس به وتفر.

وترك السيمافور خلفه وعدى الكوبـري، وبدأت أعصـابه تتـوتر وكأنها تستعد للاختلاجة الكبرى، وأصبح يـدقق إلى الدرجـة التي لا يرفع عينيه عن الزلط إلا حين يبدأ الزلط يسبح أمام عينيه ويدور، ولا يترك شجرة التين إلا حين يحس بأشواك أوراقهـا تكاد تلمس عينيـه، وفجأة اختلج جسده وتوالت دقات قلبه وعرق وأحس بـروحه تنسحب إلى أسفـل وعاد يـدير عينيـه في البقعة ويـزداد جسده اختـلاجاً ودقـاً وعرقاً. بالضبط. . هي البقعة! بقايا الكيزان التي انتزعها والورقة التي قسمها نصفين للا سبب معين. كـان مفروضـاً أن يبدأ بفحص الـزلط والـرمل والتـراب وينحني ويدقق ولكنـه لم يفعل شيئـاً من هـذا فقـد وجدها، هكذا دون أن يبحث عنها، لفت نظره بريقها الفضي الوقـور ينبعث من فوق حجر أبيض وكأنما وضعت هنـاك بفعل فـاعل أو ظـل يحرسها ملاك، تمـاماً كما هي بالعضة الصغيرة في حافتها، بملمسها، بالرجفة التي تعتريه حين يتحسس خشونتها الناعمة.

ظل زمناً طويلاً واقفاً في مكانه لا يفكر ولا يـرى ولا يسمع ولا يعـرف مـاذا يجب عليـه أن يفعـل، وكـان أول مـا تحـرك فيـه يـده، وتحركت لتزيد قبضته عليها، وخاف عليها من عنف القبضة فخففها، ثم سـار ووجد نفسـه يتوقف بـلا سبب، وما كـان يتوقف بـرهـة حتى أحس بفرحة حلوة طـاغية وأدرك أنـه وجدهـا، حقيقة وجـدها. وراح يقذفها بحرص لتعود تختلط بـالزلط وينقض عليهـا، وتستميت قبضته

ليعود يفتحها ويقذفها ويفرح حين يجدها. ولكنه لم يلبث أن عدل عن إضاعتها، فقد خاف أن تساهيه كأبيه تذهب ويفتش ولا يجدها. خاف إلى درجة كاد يعتصر نفسه ويبكي، فهو خلاص لم يعد يريد أن يساهيه شيء ويذهب ويأخذ روحه معه، إلى درجة أصبح حلمه كله أن يستمر في هذه اللحظة إلى الأبد، فهو لم يعد يريد شيئاً، لا أب ولا مدرسة ولا جدة ولا حتى يوم آخر يستيقظ من أجله وينام في آخره.. لم يعد يريد إلا أن يظل يحس أنها عادت إليه وأنه عاد إليها وأنها ستبقى معه وسيبقى معها دون أن يقطع هذا البقاء حادث أو ضياع.

وأنى له أن يدرك وهو على هذه الحال أن الثالثة كانت قد فاتت من زمن والرابعة حلت، وقطارها جاء وقام من محطة البندر، وتعدى السيمافور وأنه في تلك اللحظة بالذات خلفه يصفر له صفيراً متقطعاً مستغيثاً يأمره به أن يبتعد.

الستارة . .

كلما رأيت ستارة مسدلة فوق شباك، أو «بيشـة» تغطي وجهـاً، أو مشربية تحجب شرفة تذكرت بهيج. وكلما تـذكرتـه وجدت نفسي أضحـك بصـوت عـال لا لشيء في شخصيتـه أو سلوكـه يستحق الضحك ولكن لأنه كان زوجاً من النوع المحترم، النوع الذي تجـده لا بـد خريـج جامعـة أو صاحب منصب ولـديـه مجمـوعـة هـائلة من «الكـرافتات» والـذي لا بد تجـد مشكلته الكبـرى أنـه يخـاف خـوف الموت أن يأتي عليه يوم يصبح فيه آخر من يعلم.

وتسأل بهيج عن سبب لهذا الرعب المقيم فلا تجد. . الحقيقة تجد أسباباً أوجه. كانت كفيلة بمنع هـذا الخوف عنـه، فهو مثلاً قد تـزوج عن حب وزوجتـه جميلة وديعـة وتحبـه إلى أقصى حـد، حـد يكلفها أحياناً أن تبكي إذا سافـر وتبكي إذا عاد وتبكي إذا استشعـرت انصرافه عنها وتبكي إذا أقبل عليها، وليس معنى هذا أنها مصدر نكد فـالبكاء لـدى النساء ليس دائمـاً علامـة حزن، هـو سلاح لا أكثـر. . السـلاح الـذي لا يخيب. أكثـر من هـذا سنسن (وهـو اسم التـدليـل لسنـاء) تملك قدرة عجيبـة على ارضائـه فتعـرف متى تضحكـه ومتى

تضحك عليه، وبنفس الرشاقة التي تختار بها ألوان فساتينها تختار أيضاً أنواع خصامها وأوقاتها، ولديها نبوغ خاص في تحديد أوقات الصلح، ودبلوماسيتها هائلة في املاء شروطه وقدرتها ساحرة في إحالة جلسة الصلح إلى لجنة تعويضات مهمة الزوج فيها أن يبالغ في التقدير، ومهمتها هي أن تناشده الرأفة بميزانيتهم والاقتصاد، وكفاية خمسة جنيه للشنطة.. هو أنا مجنونة اشتريها بستة.. بالاختصار هي زوجة حنون مطيعة مخلصة وإن كان هذا لا يمنعها أن تتحول أحياناً إلى نمرة مفترسة إذا امتدح زائرة مثلاً، أو تطلب الطلاق في الحال إن تأخر ساعة، فهي أحيان ليس إلا يسود بعدها الصفاء..

ترى لماذا إذن هذا الخوف المقيم من يوم تخونه فيه؟ لماذا الخوف من الإعصار والبحر هادىء أزرق وجميل؟ الحقيقة لا نستطيع أن نحدد سبباً واضحاً، فهو يثق فيها أي نعم، وفي حبها له أي نعم، ولكن شيئاً ما كان لا يجعله على تمام الثقة في قدرتها على حماية نفسها من ذئاب المجتمع وكلابه. شيء ما كان يفرض عليه أن يقوم هو بهذه الحماية، نفس الشيء الذي يفرض عليه مثلاً أن يحمل عنها حقيبة الملابس أو يجلسها في مقعد الأوتوبيس ليقف هو. شيء ربما السبب فيه أنها هي نفسها تطلبه وتنتظره وتعامله على أنه رجلها وحارسها وراعيها، وتشعره باستمرار أن لولاه ما كان باستطاعتها أن تحيا معززة مصونة الشرف والكرامة.. هو شبه الاتفاق الذي يرى أن المجتمع كله من حوله قد تواضع عليه وأخذه مأخذ الحقائق الثابتة.. اتفاق أن المرأة بمفردها غير قادرة على حماية نفسها بنفسها وأنها

ارتضت أن تكون المهمة للرجل، بل حتى ولو لم ترتض لما اطمأن الرجل على قدرتها على حماية نفسها ولبقي يؤدي دور الحارس اليقظ الأمين.

وبهيج رجل مجرب لم يتزوج إلا بعد أن عرك الحياة برجالها ونسائها وخرج من تجاربه وقد فقد الثقة في هؤلاء وأولئك، ثقته أن هناك قيماً قد تحول بين أي رجل وأي امرأة وأن لا وسيلة للحيلولة بينهما إلا بالقوة، القوة بأشكالها المختلفة. تعلم وقرأ وسافر وجال وآمن بالمساواة وديمقراطية الأجناس والأنواع واستقلال المرأة وحقها في العمل واختيار المهنة والزواج، حدث له هذا كله دون أن يؤثر في قليل أو كثير على القواعد التي درج عليها والتجارب التي ترسبت فيه. وأصبحت جزءاً من كيانه وجعلته بعد الزواج لا يملك إلا أن يصنع كما يصنع الأزواج وإلا أن يصبح خوفه الأكبر يوماً يأتي عليه ويكون فيه آخر من يعلم.. ولهذا ظل في كل لحظة من حياته الزوجية يعمل لهذا اليوم ألف حساب وهو مؤمن ألا سبيل لمنعه إلا بمجهود خارق يقول به ليدفع عن زوجته المهالك والمزالق، ولعلمه أنها قد تأتي على أهون سبب فقد كان يستعمل كل ذكائه وحداقته وخبرته لشم الخطر ليتلافى أهون الأسباب. إذا أراد دخول السينما اختار مقعدين يجاور أحدهما الممر لتجلس فيه سنسن وليجلس هو بجوارها حائلاً بينها وبين الرجال، وإذا سافر أرهق ميزانيته وظل يطوف القطار حتى يعثر على ديوان خال تماماً أو على الأقل ركابه من العجائز أو النساء، وفي أي ازدحام تجده خلفها مباشرة يكاد لولا الحياء يطوقها بجسده

كله ويدفع الناس عنها وكـأنها من زجـاج، وإذا انتقل من مسكن إلى آخر ظل أياماً يدرس موقع المسكن الجديد ويتأكد من متانة معلوماتـه عن الجيـران، أو على الأقل هـذا هو مـا فعله حين انتقل إلى منـزلـه الجديد بإحدى العمارات الحديثة الكائنـة في أول مصر الجـديدة من ناحية روكسي.

* * *

ولقد ظلت الحياة تمضي به وبسنسن إلى اليوم الذي عزلت فيه الشقـة التي تقابلهم من العمـارة المواجهـة والتي كانت تقـطنها أرملة جافة نحيلة وأولادها الستة. يومها وطوال الأيام التي ظلت فيهـا الشقة خالية كانت أمنيته الخفية أن يبتسم الزمن له أخيراً وتقطن الشقة شـابة حسنـاء، أرملة كانت أو غيـر أرملة، أمنية لم يكن يـرى فيها بهيـج ما يتنافى أبداً مع الاخلاص الـزوجي إذ هو في الحقيقـة مثل الأزواج لا يتـرك شاردة ولا واردة ولا مـارة في الشـارع إلا ويسلط أنـظاره عليهـا تعاينها، وتهم بها أحيانـاً، وإن كانت الـظروف مواتيـة فلا مـانع لـديه اطـلاقاً، إذ لا يعقـل ولا يمكن لشيء تافـه عابـر صغير كهـذا أن يؤثر على حبه لزوجته أو تعلقه بها.

ولكن الظروف لم تكن هذه المرة مواتية، ونوافذ الشقة المقابلة تفتحت يوماً ورأى بهيـج بعيني رأسه شـاباً يـطل منها، شـاباً لا أحـد معه، لا طفل ولا زوجـة أو أم. . وكان واضحـاً من نظراتـه الجريئـة وطريقة تطلعه إلى الناحية المقابلة وإلى المارة في الشارع أنهـا طريقـة

الحر الذي لا يخشى على نفسه مغبة نظرة ولا يحمل فوق كاهله مسؤولية ولا يعمل حساباً لإنسان ووراءه كل مهمته أن يناقشه الحساب. كانت نظرات وتطلعات فرس بري غير مروض ذكرت بهيج نفسه بأيام ما قبل الزواج، ذكرته لا ليتحسر وإنما ليحس بهم مفاجىء بدأ يركبه.. الشاب واضح تماماً أنه أعزب وها هو ذا قد سكن امامهم لا يفصلهم عنه سوى الشارع. وبهيج كان أعزب يوماً ويعلم أنه والعزاب جميعاً لا يتركون حولهم أو أمامهم طوبة من طوب الأرض إلا وأشبعوها فحصاً ولمساً لعله يثبت في النهاية أنها طوبة مؤنثة، وهو واثق طبعاً من نفسه ومن أن سنسن أشرف نساء الأرض، ولكن من قال إن أسلم أصحاء الأرض لا يمرض خاصة إذا ظل صباح مساء معرضاً للميكروب؟ لا ضمان هناك لأي شيء فأي شيء ممكن أن يحدث، فالمسألة ليست جلسة في أوتوبيس أو رفقة سفر.. المسألة إقامة دائمة وسكن.

أغلق بهيج باب البلكونة في ذلك اليوم وهو يفكر، وظل يفكر حتى بعد اغلاقها.. وإلى صباح اليوم التالي حين فتحها بنفسه ووجد بلكونة الجار مفتوحة هي الأخرى ووجده يغني وصوته القبيح يأتيه عبر الشارع عالياً.. أعزب... متحدياً.

* * *

وبدأ الجار الأعزب الجديد يصبح مشكلة، وبكثرة تفكير بهيج فيها بدأت تتشعب وتتعمق وتضاف إلى مشاكل حياته الرئيسية، خاصة

حين كـان يعود وقبـل أن يدخـل البيت يسرح ببصـره إلى أعلى ليجد بلكونة الشاب مفتوحة وبلكونتهم أيضاً مفتوحة أو مواربـة، ولا يفصل الاثنتين سوى الشارع العريض.

وبدأ بهيج يفكر في حل حاسم للمشكلة.. وأضناه التفكير فقد كان في موقف لا يستطيع معـه أن ينتقل من البيت ويعـزل، وليس هو السلطان لكي يجبـر القاطن الجـديد على التعـزيـل. وهـو يـريـد أن يحمي زوجته من الخطر الوافد في سرية تـامة وهـدوء ودون أن تشعر أنه لا يثق فيها أو يحميها.

ورغم هذا كله فقد كان مصراً على أن يجد الحل.

وقد وجده.

وعلى العشاء المقتبس بحذافيره من ركن المرأة، والـذي كانت تفوح منه رائحة الاقتباس وطعمه الماسخ، بدأ بهيج يسوق المقدمات ويتحـدث عن الحريـات المنزليـة الأربـع. قـال إنـه بـدأ يـدرك أنهم محـرومون في بيتهم من حـرية الحـركـة والعـري والحفـاء وارتكـاب الحماقات، وكيف أن المنزل لا يعد متعة أو بيتاً بمعنى الكلمة إلا إذا توفرت له هذه الأركان وإلا لكان السجن أرحم. وهـو قد أدرك أيضـاً بعد طول بحث أن سبب إهدار حريـاتهم تلك يرجـع إلى عامل واحد لا غيـر، هـو البلكـونـة التي تفتـح على الصـالـة وتتـوسط البيت وتجـرحه وتجعله نهبـاً لأنـظار الجيـران القـاطنين عبـر الشـارع. وأن الـطريقة الـوحيـدة لكي يصبـح بيتهم بيتـاً هي أن يقيمـوا فـوق سـور البلكونة ستـاراً عاليـاً، أعلى من قامتـه، يحجب كل مـا يدور داخـل

البيت عن الأنظار، وحين تبلورت المقدمة الطويلة في هذا الاقتراح بدأت الزوجة تسخفه وتعيب عليه أن يريد أن يخنقها ويمنع عنها الشمس والهواء، وكل هذا لأنه لا يثق فيها ولا يثق في نفسه، إلى آخر المحاضرة التي تعودت أن تلقيها عليه وتسخف بها أي اقتراح من اقتراحاته ربما لمجرد كونها اقتراحاته.

ولكنه لم ييأس.. استجمع كل ذكائه وقدرته على الإقناع ليدحض مزاعمها وليثبت لها أن ليس في الأمر شك فيها أو في الجيران، وأنه لا يريد سوى حقه في الاستمتاع ببيته وحجب الأنظار المستطلعة عنه. وأيضاً لم تبدأ الزوجة توافق إلا بعد أن تعهد بشراء طقم كراسي إيديال للبلكونة، ومضى يغذي أحلامها عن الجلسات المرتقبة وليالي القمر وأشجار الياسمين التي لا بد سيزرعونها.

ولم يأت الغد إلا ليجد بهيج قد اتفق مع المنجد والنجار، ولم يمض يوم آخر إلا وكانت الستارة معلقة عريضة تغطي البلكونة من جهاتها الثلاث، وترتفع فوق قامة الرجل.

واعتقد بهيج يومها أن دوره في حل المشكلة والمحافظة على بيته وزوجته قد أداه على خير ما يرام، ويحق له بعد هذا أن ينام ملء جفونه ويمدد رجليه ويشخر.

* * *

والحقيقة أيضاً أن دوره هو انتهى أو كاد، ليبدأ دور الستارة،

فقد أصبح همه الشاغل كلما عاد إلى البيت أو خرج منه أن ينظر إليها ويرى إن كانت مقفلة أو مفتوحة، وحين نبـه على سنسن مرة ومـرتين أن تراعي اقفالها باستمرار ولم تفعل عناداً منها لا أكثر، قرر أن يكون حمشـاً ويفرض رأيه. وهكذا فوجئت به سنسن في اليوم التالي وهـو في طريقه إلى المكتب، فوجئت به يصـرخ فيها بلهجـة غريبـة باتـرة حاسمة أن لا تفتح الستارة أبـداً لأي سبب كان، وأن عليهـا أن تقبل أمره هذا بـلا نقاش. . وغيـر مهم المناقشة الشكليـة التي تلت كلامـه والتي لم يتزحزح فيهـا عن رأيه في أن من حقـه كزوج أن يصـدر أية أوامر يراها دون أن يكون مطالباً بتفسيرها، والتي لم تتزحزح فيها هي عن رأيها في أن لها الحق كل الحق أن تمتنع عن تنفيذ أي أمر صادر منه أو من غيره ولا تكون مقتنعة به، المهم أن تمسك كل منهما برأيه جعل الموقف يتوتر وجعل بهيج يفقد السيطرة على هدوئه وأعصـابه، وجعله في نوبة غضب ينفجـر لها بـأن السبب الحقيقي لعمله الستارة هو الشاب الأعزب الذي احتل الشقة المقابلة ونظراته التي ضبطه وهو يـوجهها بصفـاقة وقلة أدب إلى بلكونتهم، ورغبتـه في أن يحفظ لبيته حرمته ويحميها من وقاحة جار مثله. وساعتها اتضـح أن الزوجـة هي آخر من تعلم بأخبار الجيران العـزاب، فقد بـدا واضحاً أن سنسن لا تعلم شيئـاً عن تعـزيــل الأرملة العجـوز، ولا عــرفت أبـداً بمجيء الأعزب، ولا طرق لها الموضوع بالاً.

- طيب. . أدي انتي دلوقت عرفتي.

- لا. . إذا كان كده يبقى خلاص. . أمرك يمشي.

ومشى أمره وأصبحت الستارة كحائط لا يتزحزح، كل ما في الأمر أن البلكونة قد تغير مركزها في البيت، وبدلاً من المكان غير المطروق الذي كانته والذي لم تكن سنسن تجسر على الظهور فيها إلا وهي بملابس الخروج أو بأكثر ملابس البيت حشمة، ولا تظهر فيها إلا وهي مضطرة، وإذا وقفت فيها نظرت إلى الشقق المقابلة والمجاورة بأدب وحساب حتى ينظر إليها أصحابها بأدب وحساب، بدلاً من هذا أصبحت البلكونة تحت حماية الستارة مكان سنسن المختار للجلوس تقضي فيه أي وقت تشاء بأية ملابس ترتديها وتقوم بأي عمل تراه. بل شيئاً فشيئاً بدأت سنسن تفطن إلى مزايا للستارة كانت خافية عليها أهمها بلا جدال ما يدور في شققهم ومطابخهم وحجرات جلوسهم ونومهم دون أن يكون باستطاعتهم هم أن يروها، فالستارة تحجبها عنهم وتتيح لها أن ترى ولا ترى، وهكذا بدأت نظراتها تفقد طابع النظر من خلال بلكونة مفتوحة وتتخذ طابع النظر من خلال الشقوق. وبعد أن كانت البلكونة تجعلها تعامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوها به وتجعل لعينيها دور المراقبة لغيرها ولنفسها، أصبحت مهمة عينيها أن تراقب الغير فقط وتتجسس عليه وتكشف أسراره وخباياه وهي ضامنة أن أسرارها في حصن حصين. ونفس التحول بعد بضعة أيام انتقل لتفكيرها فأصبح اهتمامها بما لديها، وأصبح الوقت الذي تقضيه تتفرج على ما يحدث داخل الشقق الأخرى أكثر بكثير من الوقت الذي تقضيه ترعى فيه شؤون شقتها.

وكذلك كان لا بد أن يواتيها الخاطر ولو مرة ويجعلهـا تفكر في رؤية هذا الجار الجديـد الذي كلمهـا زوجها عنـه، وترى كيف تـطل الوقاحة من نظراته كما قال الزوج.

* * *

والمدهش أن الجار الأعزب لم يكن وقحاً أو قليل الأدب، كان في الحقيقة مشغولاً جداً فقد كان يعمل في الصباح في شركة ويدرس بعـد الظهـر في كلية ويقضي سـاعتين كـل ليلة يصحـح المـلازم في مطبعة. شاب من قراء سيـر العصاميين المؤمن بـأن في استطاعتـه أن يصبح مثل روكفلر وعبود. الغارق في أحلامه هـذه بطريقـة لم يخطر على باله مرة أن يقف في بلكونته ويتطلع إلى بنات الجيران فضلاً أن يحـاول معـاكسـة أحـد. وقـد كـان من الممكن أن يـظل غـارقـاً في مشغولياته وأحلامه تلك لو لم ير هذا الستار الذي صنعه السيد بهيج، فقد لفت نظره أن تنفرد تلك البلكونة المقابلة وحـدها دون غيـرها من بلكونات البيت وغيره من البيوت بهذه الستارة التي كـان واضحاً أنهـا أقيمت حديثاً وأنها مسدلة باستمرار ولا تفتح أبـداً. وهكذا منـذ اليوم الأول الذي لاحظ وجودها فوق سور البلكونة، وهذه البلكونة بـالذات بدأت تلقي منه عناية خاصة ربما لغرابة الظاهـرة، وربما لأن منـظرها هيج كوامن خياله وجعله يمضي يحلم ويتصور نساء ألف ليلة وليلة أو

فتياتها اللائي لا بد أقيمت ستارة كثيفة كهذه لتحميهن من العيون.

وربما لو كان قد رأى السيدة سنسن بكاملها وهي في الشارع أو في بلكونة مكشوفة لما استرعت انتباهه أو توقفت عندها نظراته، ولكان قد عاملها مثل العشرات غيرها من السيدات والفتيات اللاتي يراهن في نوافذهن وشرفاتهن ويتركهن جميعاً ليوجه انتباهه كله إلى الستارة المسدلة وإلى الحورية الرائعة الجمال التي لا بد تكمن خلفها، والتي لا بد أن يأتي يوم تظهر فيه أو على الأقل يبدو منها وجه أو ذراع.

بل لم لا نقول أن الستارة وما تحجبه كانت وراء تركه لعمله في المطبعة ورفعه حرارة النقاش الذي دار بينه وبين صاحبها إلى درجة أخرى والاستغناء عن خدماته؟ وعدم ضيقه البتة بما حدث بل فرحته به، إذ سيتاح له منذ اليوم أن يقضي ساعتين أخريين يتطلع فيهما إلى البلكونة ذات الستارة المسدلة، ويخمن ويحس بالحرمان ويهيج الاحساس أحلامه.

وبالتأكيد إذن كان لا بد أن يأتي اليوم الذي يدرك فيه وقلبه تتعانف دقاته، أن قماش الستارة يختلج اختلاجة أنثوية بلا شك وأنه ويا للهول بعد قليل انفرج فرجة صغيرة رفيعة ولكنها كانت كافية لأن يتأكد أنها فعلاً أنثى، وأن عينها ووجنتها التي اطلعت وتلصصت أجمل وأروع عين ووجنة رآهما في حياته.

حقيقة كان ذلك اليوم بالذات هو اليوم الذي قررت فيه سنسن

أن تتفرج على الجار الأعزب الوقح ، ويبدو أن محاولتها البحث عن وقاحته قد امتصتها إلى درجة لم تفطن معها أنه لمحها من خلال قماش الستارة ورآها .

والواقع أنها لم تفاجأ كثيراً فقد وجدته كما وصفه زوجها تماماً . . وبالفعل كانت نظراته تحفل بالوقاحة وقلة الأدب، وبالفعل لم يحول ابصاره عن البلكونة طيلة الوقت الذي ظلت تراقبه فيه . أدركت حينئذ أن زوجها كان على حق في إقامته للستارة، فلولاها ما استطاعت أن تحمي نفسها من وقاحته ونظراته . .

وانسحبت يومها من البلكونة وقد عاهدت نفسها أن تتجاهل وجود العازب وشقته وبلكونته .

ولكن الشاب لم ينسحب . . وقف مسمراً في بلكونته إلى ساعة متأخرة من الليل علها تظهر. وخيل إليه في الصباح أنه أخيراً أحب، ومن يدري قد تكون هي الأخرى أحبته . وهكذا قضى الجزء الأكبر من اليوم التالي ولا عمل له إلا التحديق في الستارة علها تختلج مرة أخرى وتنفرج . وكلما كان الهواء يداعب قماشها ويحركه كان الدم يسخن في عروقه ويعتقد أنها هي ، ويركز بصره كله عله يستطيع أن يتبينها .

وفي نفس ذلك اليوم التالي لم يكن وحده الذي يحدق في الستارة المختلجة ، كان بهيج الزوج عائداً من عمله يلقي ببصره كما تعود ناحية الستارة ليطمئن عليها أولاً ، ثم يعود ليختلس نظرة خاطفة

إلى بلكونة الجار ليطمئن على خلوها منه.

وفي ذلك اليوم حين وجد بهيج القماش يتحرك لم يعلق على حركته أهمية، ولكنه حين وجد الأعزب واقفاً في البلكونة قد صوب نظراته المحمومة إلى الستارة المختلجة عاد ينظر بسرعة إلى حيث كان ينظر ويدوي أعنف دق قلبه وأيقن بلا أدنى جدال أن الستارة لا تختلج عبثاً وأن وراءها عينين تنظران وجسداً. . وراءها سنسن.

وفي لمح البصر كان قد أصبح في الشقة ولم يخل عليه أنه وجدها في المطبخ فلا بد أنها لمحته وفرت، وفي لمح البصر كان قد أطبق عليها طالباً منها أن تعترف. وحين حاولت الكلام أجابها بصفعة قوية من يده الأخرى أعقبها بأخرى مدوية من اليسرى. وامعاناً جرها إلى البلكونة وأزاح الستارة بغل ليريها الشريك الآخر واقفاً لا يزال يحدق. . الشريك الذي ما إن أزيحت الستار ورأى المشهد حتى اختفى في التو وذاب برعونة، وبكل جبن المذنب المتلبس.

وكانت الصفعتان إشارة البدء لعاصفة من تلك العواصف التي كثيراً ما تجتاح حياة الأزواج والزوجات تقتلع الضعيف منها وتهدد القوي، فقد تبعها كلام صارخ محموم عن شرفه وطعنات حادة قاتلة إلى شرفها، ونعوت بشعة ويمين طلاق ألقي. والزوجة تحاول الدفاع والاستشهاد بالخادمة، ويصرخ قائلاً إنه رأى الستارة بعينه تهتز، فتستنجد قائلة ربما الهواء فيعود يهم بصفعها أو ركلها وهو يقرنها بالهوى وبنات الهوى.

عاصفة قذفت بالزوجة تلك الليلة إلى بيت أبيها وقذفت به إلى الخمارة.. وهطلت آخر الليل دموع. وفي اليوم التالي تدخل الأهل والأصدقاء وبدأ الزوج يراجع نفسه قليلاً، وبعد أن كان رافضاً البتة أن يصغي أو يناقش بدأ يخفض رأسه ويستمع ويلمح حرقة الصدق في كلام كان الزوج في حاجة إليه، فحتى بعد أن رأى بعينيه كان أهون عنده أن يشك في عينيه ولا يشك فيها، فحياتهما معاً وعشرتهما واندماجهما بطريقة كادا معها أن يصبحا جسداً واحداً، بطريقة يعرف كل منهما عن الآخر أكثر مما يعرف الآخر عن نفسه، ويثق بالآخر أكثر مما يثق بنفسه.. هذا كله فوق التجربة التي قام بها وسطاء الخير وأعادوا تمثيل ما حدث أمام الزوج ونفخوا في الستارة لتختلج، وراقبها الزوج من أسفل ليعرف إن كانت اختلاجاتها تشبه اختلاجة الأمس، وليثوب إلى نفسه حينئذ ويطلب الصفح وتنتهي العاصفة نهاية لا يتوقعها أحد فوق فراشهما وهو يحتضنها ويقبل عينيها الدامعتين، وتصل حرارة الحب بينهما حد أن ينسيا تماماً ما حدث وسبب الحكاية، ويستمتعا باللحظة والسهرة وكأنها أول لقاء، وفي أحيان تصل العواطف بينهما حد معاودة الاعتذار. بل تأكيداً لندمه وتوبته وامعاناً في ثقته بها يعلن لها أنه خلاص قرر أن تفتح الستارة باستمرار، وحين تأبى هي يقسم هو ويلحف في القسم ويؤكد لها أنها بعد تلك اللحظة حرة في أن تدخل وتخرج وتغلق البلكونة أو تفتحها وتقف فيها أو تتطلع منها على أية هيئة وبأية ملابس ولأي وقت تشاء.

وبينما كان الدفء يشع من فراشهما كان الجار الأعزب في

فـراشه يـرتجف من البرد ومن بعض مـا تيسر من تـأنيب الضمير ومن خوف كثير على نفسه وحياته، وكان يتوج هذا كله بقـرار صارم أن لا يقف بعد هذا في بلكـونته أبـداً، ولا يتطلع إلى جـارة أو غير جـارة، وأن ينهمك مرة أخرى في مشاغله.

* * *

وجاء الصباح التالي لتعود الحياة سيرتها وقد تغيـر شكلها قليـلاً فـالستارة في بلكـونة بهيج قد فتحت على آخـرها وبلكـونة الأعـزب مغلقـة وكأنمـا دقت فيها مسـامير. ومـع هـذا فلم تـظهـر سنسن في البلكونة ولا حتى وجدت لديهـا حماسـاً لأن تفعل شيئـاً آخر بـالمرة. كان ما حدث لا يزال سـاري المفعول في نفسهـا تأبى أن تصـدق أنه حدث، وإذا صدقته غامت عيناه بالدموع.

وحتى بعد أن مضت أيام وزالت كل آثار العاصفة ظلت سنسن غيـر شديـدة الحماس لكـل هذه الحـريات التي أصبحت تملكهـا.. تقف في البلكـونة فـلا تحتمل الـوقوف، تجـوب الشـارع وواجهـات العمـارات المقابلة بعيـون قد انـطفأ فيهـا البريق، أي متعـة للبلكونـة الواضحة المكشوفة بعد متعة اختلاس النظر من الشقوق؟ وبأي نفس تقبل المتعة وهي قد عاشت التهمة وذلها ونالت العقاب؟ الحقيقة كل ما كان يشغل بالها إذا وقفت في البلكونـة أن تواتيهـا الفرصـة لتدافـع هي عن نفسهـا وشرفهـا أمام الأعـزب الشاب، الشـرف الذي أهـدره زوجها وهو يدافع عنـه. كانت تـريد أن تلقي عليـه درساً وتـريه أنهـا

ليست كما ظن هو أو ظن زوجها. ولكن الفرصة لم تكن تواتيها ففي كل مرة تجد بلكونته مغلقة وتجده غير موجود.

ولكن مهما طال الزمن فلا بد أن سيأتي اليوم الذي يوجد فيه. غير أنه حين جاء وخرجت هي إلى البلكونة ووجدته واقفاً أمامها عبر الشارع دق قلبها بالانفعال. وللمرة المائة استعادت ما كانت قد انتوته، فهي ستظل ساكتة إلى أن يبدأ يتطلع إليها حينئذ سوف تواجهه بقسوة وتبصق في وجهه أو تقذفه بما في يدها ثم تدخل وتصفق وراءها الباب، ولكنها ظلت واقفة أكثر من ساعة دون أن يتطلع إليها أو يبدو أن في نيته أن يتطلع إليها. وكان من المستحيل عليها أن تقبل الهزيمة حتى لو أدى بها الأمر لمحاولة جذب انتباهه ورفع صوتها تطلب من الخادمة أن تحضر لها شيئاً، وحتى حين ضغطت على نفسها وفعلت لم يبد عليه أي اهتمام، أكثر من هذا بعد قليل وجدته ينسحب إلى الداخل ويمد يده ويغلق الشيش.

وكان عسيراً عليها أن تصادفه واقفاً في البلكونة خلال الأيام التي تلت، ولكنها في كل مرة عثرت عليه كانت تحاول أن تفعل كل شيء وأي شيء فقط لترفع بصره الذي ألصقه بأرض الشارع وأبى أن يرفعه. ولم تفعل محاولاتها المتعددة أكثر من أنها أنستها الهدف منها والدرس الذي كان في نيتها أن تلقيه عليه والحقد الذي تكنه له في قلبها، وأصبح همها كله ومنتهى أملها أن تنجح فقط في رفع بصره من فوق أرض الشارع، وكأنها إذا نجحت ونظر إليها تكون قد تم الانتقام واستعادت مكانتها وشرفها المثلوم.

ولو كان أحد قد أخبرها أنها ستضطرب كل هذا الاضطراب وستلهث ويجف لعابها ويتوقف قلبها عن النبض، لو كان أحد قد أخبرها أن هذا كله سيحدث لها حين تفاجأ ذات مرة وقبل أن تحاول شيئاً أنه قد رفع بصره إليها وثبت عينيه في عينيها لما صدقته بل ولما صدقت أبداً أنها لم تستطع أن تحتمل نظراته لثوان، وأنها هي التي انسحبت من البلكونة هذه المرة ترتجف وهي لا تملك قدرة على صفق باب أو فتح فم. كل ما حدث أنها استطاعت قبل أن تختفي أن ترسم بالكاد شيئاً فوق ملامحها يعبر عن الغضب.

وربما لو لم ترسم هذا الشيء.. ربما لو ظلت واقفة وكأنها لم تلحظه أو نالها اضطراب، ربما لو لم ترد أن تؤنبه وتعلمه الخلق الحسن، ربما لو حدث شيء من هذا لما قضى الشاب ذلك الوقت الطويل يفكر فيها، ولما شجعه ما حدث منها على المضي في التفكير وتدبير الخطط لما بعد التفكير.

أما هي فقد ظلت وقتاً طويلاً أيضاً تفكر وتستنكر اضطرابها وتستعذبه، وتنتوي العودة إلى البلكونة وتعدل عن نيتها، والإحساس العام الذي يتملكها أنها غير غاضبة على الشاب وأنها أصبحت ليس لديها مانع حتى أن يعود يوجه إليها نظراته.

وفوجىء بهيج عاد ذات يوم فوجد الستارة تنسدل وتحجب الشرفة وما فيها، واستغرب.. وسأل الزوجة فإذا بها تقول إن الستارة لازمة لحمايتها من نظرات الجيران المتطفلين، وإن لكل بيت حرمته

والستارة تحفظ الحرمة، وحاول أن يناقشها بنفس حججها القديمة ويتحدث عن الشمس والهواء ولكنها أفحمته حين قالت إنها كانت مخطئة في اعتقادها وإنها أخيراً اقتنعت برأيه.

* * *

واستمرت الستارة بعد هذا تؤدي عملها مع اختلاف بسيط، إذ كانت تستخدم لتحول بين بهيج وبين رؤية الشاب الأعزب إذا كان موجوداً في البيت، ولتحول بينه وبين رؤية الواقفة تحتمي بها لتستطيع أن ترى الشاب ويراها دون أن يلحظهما أحد وبالذات بهيج. وفي أحيان كان يتطلع بهيج من الشارع لسطمئن على أن الستارة مغلقة ومسدلة، ودائماً كان يجدها كذلك، وإذا تصادف ووجدها تختلج كان حينئذ يهز رأسه ويبتسم ويقول: الهوا.. لا بد أنه الهواء.. لعنة الله عليه..

الغريب . .

من كان يظن أن «الشوربجي» ذا الشعر الأصفر المجعد والوجه الخواجاتي الأحمر والملامح الجذابة الحادة له مثل هذه القصة المذهلة مع قتال القتلة وقاطع الطريق وسلطان الليل؟ أنا نفسي قبل أن يحكي لي كان من المستحيل أن أصدق أن الشوربجي زميل ثانوي العتيد الذي علمني ركوب العجل وكتابة القصص جعلني أدمن قراءة روايات الجيب . . لم أكن أعتقد للحظة أن في حياته جانباً بأكمله لا أعرفه ، وكان مقدراً ألا أعرفه لو لا تلك المصادفة التي جمعتني به . . والمصادفة وحدها هي التي كانت تجمعني به . فعلى الرغم من أننا نعمل في نفس المدينة ، في القاهرة ، الا أنني لم أكن ألقاه ألا صدفة ، وفي كل مرة تأخذ العناوين ونضرب المواعيد ونحن نعرف سلفاً أننا لن نستعملها وإننا لن نلتقي إلا كما تعودنا اللقاء صدفة . . وأنا أعرف عن الشوربجي أشياء كثيرة ، أعرف بلدهم ، ورأيت أباه مرة ، وأعرف ولعه بالنساء وضيقه الشديد بأننا على الرغم من أننا كبرنا وغادرنا ثانوي إلا أننا لا نزال نسميه باسم جده كما تعودنا أن نسميه ، فاسمه في الحقيقة كان ولا يزال طبعاً عبد الرحمن صالح الشوربجي ، ولكننا في ثانوي نضيق بالأسماء الأولى

المتشابهة، وهكذا عرفناه بالشوربجي، وعلى الرغم من ضيقه بالتسمية ظللنا نعرفه هكذا إلى اليوم، إلى حد أنني كنت أستغرب حين تناديه زوجته أمامي بعبد الرحمن. أعرف عنه أشياء كثيرة ولكني لم أكن أعتقد أبداً أن في حياته أناساً كالغريب أبو محمد وعم خليل وحياة الليل وسفك الدماء، هو الرائع الأدب الذى تخدش خجله الكلمة الخارجة حتى بعدما صار رجلاً كبيرا وخلف ابناء، ولكنها الصدفة كما قلت، وربما الليلة والموضوع الذى طرقناه موضوع السفاح، والشوربجى ليس محدثًا لبقًا ولا راوية ممتازًا، وعلى الرغم من أنه علمنى كتابة القصص ولكنه يتحدث أجمل بكثير مما يكتب..

لا أعرف ماذا دعا الشوربجي ليكشف لي عن هذا الجزء من نفسه في تلك الليلة.. فربما الموضوع كما قلت، وربما الجلسة، وربما الساعة الواحدة والنصف التي بدأنا الحديث فيها، وربما قصته نفسها، أو لعل السبب هو تلك اللذة الواضحة التي كنت أراه مستمتعاً بها وهو يغوص في نفسه ويحفر ويستخرج أشياء، وكأنما يكتشف وجودها لأول مرة، ربما هذا هو ما جعله ينساق ويقضي الليلة كلها يتحدث وأقضيها وأنا أنصت.. وأرتجف أحياناً، ولكني أستمر أنصت بشغف وبلا انقطاع.

- ١ -

تصور أنني جاءت على فترات في حياتي كان حلمي الوحيد فيها أن أقتل إنساناً أي إنسان، أقتله هكذا بلا سبب وبلا رغبة إلا

رغبة القتل في حـد ذاتها. . ولا تنهـك نفسك وتحـاول أن تبحث في طبك أو في كل علوم النفس الحديثة عن تفسيـر لهذه الـرغبة فـأنا لم أكن مريضاً أو شاذاً أو أعاني من مأساة عائلية، كنت تلميذاً عادياً جداً بالكاد تعديت الرابعة عشرة من عمري، وكنت أعتبر رغبتي هذه رغبة طبيعية جداً لا شذوذ فيها ولا انحراف وأنها لا تعن لي فقط ولكنها لا بـد موجـودة عند كـل الناس، ولا بـد قد استبـدت بهم يـوماً خـاصـة وهم يضعـون أقدامهم على عتبـة الرجـولة ـ أن يقـوموا بعمـل خـارق يحسون بعد القيام به أنهم قـد أصبحوا رجـالاً. . بعضهم يترك البيت مثـلاً ويحـاول البحث عن عمـل يتقـاضى عليـه أجـراً مثلمـا يفعـل الرجال الكبار ومثلما يفعل أبوه، وبعضهم يبدأ يسهر في الخارج ويعـود متأخراً ويصطدم بأهله ويقول لهم بأعلى صوته: «أنـا حر أسهـر على كيفي. . أنـا راجل»، وبعضهم يبـدأ بحمـل بنـدقيـة أبيـه على كتفـه وإطلاق النار فإذا اعترض أبوه على تصرفه هدد بقتل نفسه أو بقتل من يعتـرض طريقـه «يقصد أبـاه»، وبعضهم يحلم بـامتـلاك مسـدس. . وكلهـا رغبات طبيعيـة الهدف منهـا أن يثبت كل لنفسـه أنه قـد أصبح رجلاً، ويثبت لها بطريقة الرجال الخشنة.

كل الخلاف بيني وبين من كانوا في سني أني غـاليت قليلاً في رغبتي وأردت أن أدخـل عالم الـرجال بـأن أقتل أحـدهم، وهي على العموم كانت رغبة دفينة لا أجـرؤ على إظهارهـا حتى لنفسي، ولكني أحس بـوجودهـا وأسعى إلى تحقيقهـا وكـأنمـا من وراء نفسي، ومن ورائهـا لأني كنت أخاف ألا أكتفي بقتـل رجل واحـد وأن أنسـاق في

هذا الطريق . . ولكني كنت أطمئن نفسي وأقول إن هذا لن يحدث.

وأدلل لنفسي على هذا بأن أستعرض ما كنت أفعله مع القطط وأنا صغير، إذ كنت وأنا طفل أخافها جداً، أخاف شواربها الطويلة وتكشيرتها ومخالبها البشعة، وكنت أرنو إلى اليوم الذي أكبر فيه وأستطيع أخافتها وأنتقم لكل ما سببته لي من رعب . . وارتبط الكبر في نفسي بقدرتي على إخافة القطط والكف عن الخوف منها ولهذا لم أكف عن مطاردتها أبداً، وهدفي أن أنجح ذات يوم في حصارها وإرعابها وإمتاع نفسي بمشهدها وهي خائفة مني . . وكم طاردت من قطط، وكم نجحت في اغلاق الأبواب والنوافذ لمنعها من الهرب، ولكني دائماً كنت أفشل في حصارها وتهرب. مرة واحدة فقط نجحت في حبس قطة في إحدى حجرات بيتنا. كانت قطة الجيران وكنا نكرههم وكنت قد اعتزمت في ذلك اليوم لا تخويفها فقط والاكتفاء بسعادتي لرؤيتها خائفة، ولكن على تمويتها أيضاً.

ظللت أجري وراءها حتى دخلت حجرة المخزن وكل نوافذها وفتحاتها محكمة الاغلاق، فدخلت وراءها مسلحاً بعامود حديد من عمدان نافذة قديمة، وأغلقت الباب واستمتعت أيما استمتاع بالورطة الكبرى التي حلت بالقطة، تقفز من الأرض إلى السقف ومن السقف إلى الأرض وتبحث في هلع عن مخرج وتصرخ صرخات مرعوبة متصلة وكل ما فيها قد وقف يرتجف ويرتعش، والباب من ورائي محكم الاغلاق وأنا أتقدم ناحيتها بخطى بطيئة والعامود الحديدي مرفوع فوق كتفي ومستعد لأخبطها به الخبطة الواحدة القاتلة . .

مضيت أتقـدم ببطء وأنا أنعم بحالة الرعب المميت التي تملكتها، وأستعيد كل ما قاسيته في صغري من رعب وأسعد بنفسي وبكبري وبهذا الانتقام الضخم الذي أتيح لي أن أقوم به.. وفجأة توقفت في مكاني، فالقطة كانت قد أدركت بعد مجهود هائل مريع أن لا مخرج لها من الحجرة وأنها هالكة لا محالة.. ولا أعرف إن كانت فعلاً قد أدركت هذا ولكني لا أزال أذكر صرختها الأخيرة والركن المظلم الذي كنت قد أجبرتها على الانزواء فيه، ثم كيف كفت عن صراخها العالي المذعور واستدارت لي تواجهني لأول مرة منذ أن بدأت مطاردتي لها، تواجهني بل وبدأت تمزق الأرض بمخالبها وتتقدم نحوي.. و.. أعوذ بالله، نظرتها.. عيناها بالذات.. لن أنسى ما حييت الرعب.. أقصى درجات الرعب، حدقتاها مفتوحتان على الآخر وأنيابها مكشوفة كلها حتى آخر الفك، وهي تتقدم وقد بلغ رعبها درجة كنت متأكداً معها أنها ستقفز حالاً وتنشب أنيابها وأظافرها وشاربها والرعب المطل من عينيها.. ستنشب هذا كله في وجهي وتمزق لحمي وتفقأ عيني وتلتهم زوري.

ونظرة واحدة فقط هي التي ألقيتها عليها، وهي التي سمرتني في مكاني أنظر إلى رعبها اليائس المجنون وتتفكك أوصالي.. ولا أدري كيف أنقذت نفسي في آخر لحظة وفررت من الحجرة وأنا أجري خائفاً مرتعشاً لا ألوي على شيء، أبحث عن أمي لأحتضنها وأرتعش وأخفي وجهي وعيني في صدرها وأتمنى لو استطعت أن أختفي بكلي داخلها!!

* * *

ربما مغالاتي في إثبات رجولتي بقتل رجل سببها هذه المغـالاة التي دعتني لأن أثبت أني تركت الطفولة وكبرت، بتحولي من خـائف من القطط إلى مخوف لها. تلك العادة التي تركتها تماماً بعدما حدث لي مع القطة المـرعوبـة في المخزن، ولـو كنت أعلم أن رغبتي هذه الثانية لإثبات رجولتي ستقودني لموقف أكثر رعباً وأشد بشاعة لترددت قليـلاً وأنـا أركب رأسي وأصمم وأبيت النيـة في صـدري وأتكتمهـا وأسعى حثيثاً حثيثاً لتحقيقها!!.

أمـا لماذا عن طـريق القتل بـالـذات فقـد تقـول انهـا استمـرار لنزعتي وأنا صغير، ولكن الواقع غير هذا فالقتل في حد ذاتـه لم يكن هو ما يجـذبني.. القتلة هم الذين كـانوا يجـذبونني.. هؤلاء النـاس الـذين يسمونهم في مـديـريتنـا أولاد الليـل، هؤلاء الـذين يحكمـون مملكة الليل ويقتلون من يعتـرض سبيلهم فيه.. في تلك السن كنت شديد الإعجـاب بأولاد الليـل هؤلاء إلى درجة أني في أحـلامي لكي أصبـح رجـلاً كنت لا أريـد ألا أن أصبـح واحـداً من الـذين يقشعـر لذكرهم العـاديون القـانعون بلقمهم وحيـاتهم.. كانت الـرجولـة في رأيي مرتبطة بأعمال غير عادية وبرجال غير عاديين، كانت الرجولة في رأيي هي رجولة أولاد الليل.. كنت أريد إذا أصبحت رجلاً أن أصبح واحداً من الذين يقشعر لذكرهم الرجال في بلدنا؟!..

بالاختصار كنت أريد أن أصبح بطلاً باعتبار أن الرجـولة لا بـد أن تكون بطولـة، ومثلي الأعلى كان أولاد الليـل.. ولهذا كنت دائم التتبع لتحركاتهم وأتفه ما يحدث لهم تماماً كما يتتبع شبان هذه الأيام

أبطال السينما ويتحرقون شوقاً إلى أخباهم.. وكان حلمي الدائم أن أتعرف بهم أو بأي منهم وأن يصاحبني ويعلمني حرفة أولاد الليل ويجعلني أقتل، وأصبح في النهاية رجلاً..

كنت في الرابعة عشرة كما قلت، نحيفاً شاحب الوجه هادىء الملامح عمري ما تشاجرت أو اشتبكت أو شتمت أحداً، حتى كان أبي وأمي وكل الناس يقولون عني إني طيب وابن حلال.. ولم يكونوا يعرفون أبداً أن في صدري بركاناً يريد الانفجار، وأن في رأسي أحلاماً وعالماً غامضاً غريباً مختلفاً تماماً عن العالم الباهت الراكد الذي كنت أحيا فيه، عالم آخر فيه شجاعة وجدعنة ومخاطرة وصدام.. عالم لا بد أنه لا يوجد إلا في الليل ولا يسمح بدخوله والحياة فيه إلا لرجل بطل.. لابن ليل!!

- ٢ -

ولم أترك طريقاً أسلكه ليوصلني لأولاد الليل إلا طرقته.. كنت أضيق بصحبة لذاتي من تلامذة البلدة وطلبتها وأجوب الغرز والقهاوي بحثاً عن أخبار سرقة أو جريمة، أو أملاً في العثور على رجل شاف أو رأى وجالس يحكي.. وكان منقذي الدائم هو عم خليل.. كان عم خليل يعمل خفير طماطم في عزبة قريبة مجاورة وكان عجوزاً تخطى الخمسين، ولكنه قضى شبابه كله وجزءاً من رجولته لصاً كبيراً وابن ليل، وربما من أجل هذا السبب اختاره صاحب العزبة وعينه خفيراً على المائة فدان..

كنت آخذ له باكو المعسل والسكر والشاي ، والشاي بالذات فقد كان كييف شاي ، يضع الأوقية كلها في التلقيمة الواحدة ويعمل الشاي من ثلاثة أدوار، الأول سادة، والثاني بخدشة سكر، ولا يسمح لي بأن أشرب إلا من الدور الثالث الحلو. . وكنت أجد في صحبة عم خليل متعة كبرى. . فقد كان إذا تسلطن من الشاي والدخان بدأ يحكي عن مغامراته وعن كبار اللصوص الذين عرفهم وعن البهائم التي سرقوها والجدران التي نقبوها والمنازل التي دخلوها، وكنت أحب منه عدم مبالغته في ذكر بطولاته الشخصية وتمجيد أدواره، كان دائماً يلعب لأي عصابة يعمل معها دور المراقب أو المشاهد الذي يحمي ظهر المهاجمين ويحذرهم. . وكان خليل هو الآخر يجد في صحبتي متعة، فهو وحيد عجوز تعدى الخمسين يقبع طول الليل والنهار في ذلك العش الذي صنعه لنفسه على رأس المائة فدان المزروعة طماطم، وكان أعور يغطي نصف وجهه بمنديل محلاوي متسخ بطريقة لا يبدو معها أنه يخفي عوره، وكان يحب الكلام ويحب أن يحكي عما فعله في الزمن الخالي. . وكان يجد فيّ خير مستمع، وكان يقضي الساعات يحكي ولا يمل، ساعات يلتهب فيها خيالي البكر وأجد نفسي بقوى أكبر مني مدفوعاً لا لكي أسمع فقط ولكن لكي أعمل وأنضم إلى عصابة مثلاً وأشاهدهم وهم يشتبكون. . وكنت حينئذ أسأله إن كان يعرف أحداً من أولاد الليل المعاصرين الذين كنا نسمع نتفاً متفرقة عن حوادثهم، كان حينئذ يقول باشمئزاز يكشف عن فكه الأسفل الأثرم ويهز بيده علامة اليأس ويقول:

ـ أولا دليل إيه دول؟. دول عيال.. أولاد الليل كانوا زمان.. إنما دلوقتي.. يا شيخ.. دول شوية عيال..

وكنت أصدق عم خليل، إذ من الحكايات التي كنت أسمعها. كان واضحاً أن عالم البطولات والأمجاد قد ولى بعد أيامه وعصاباته. وكنت أتحسر حقيقة ويملؤني الضيق لأني لم أوجد قبل وجودي بأعوام وفاتني هذا الزمن القديم الحافل..

شخص واحد فقط كنت إذا سألت عم خليل عنه لا يشيح بيده أو يشمئز وإنما يتولاه وجوم ويقوم:

ـ آه.. الغريب أبو محمد.. دا ماله ده؟.. أهو ده اللي فاضل من أيام زمان.

ذلك أن الغريب أبو محمد كانت شهرته كابن ليل مدوخ بوليس قد بدأت تعم الآفاق.. وكان من غير الجيل الذي يتحدث عنه عم خليل، ولكني حتى وأنا في هذه السن كنت أستطيع أن أدرك بوضوح أن عم خليل لا يستطيع أن ينكر على الغريب مكانته ولكنه يفسر جدعنته ورجولته بادعاء أنه الجزء الباقي من الماضي الغابر!

وحين كنت أطلب من عم خليل وألح في الطلب أن يجعلني أرى الغريب أبو محمد ولو مرة واحدة، كان يتنصل ويعتذر ويبدو عليه أنه أفاق من حالة التفتح الوجداني الذي كان سادراً فيه ويقول:

ـ مالك أنت يا بني ومال الناس دول؟.. يكفيك شرهم..

فلا يفزعني رده وأستنكر أن يكون هو نفس الشخص الذي كان

من هنيهة يشيد بأولاد الليل وحياتهم وأشخاصهم وأنه هو نفسه كان منهم، فيعود ويقول في صوته الخائف خوف الموت من العودة.. إن الله قد رضي عنه.. وإنه تاب وإن هذا كان زمان وأيام زمان.. أما الآن فإنه يصلي والحمد لله يصوم رمضان. والحقيقة أنه لم يكن يصلي أو يصوم وكنت أرى بعيني رجالاً يأتون إليه ليخفوا عنده أشياء ويعودون بعد أيام يستردونها. وأراهم وهم يغمزونه، وأراه وهو يعود إليّ وفيه اضطراب ويقول:

ـ آه.. أيوه.. احنا كنا بنقول في إيه..

ويبدأ يتحدث فإذا بها نفس الحكاية التي قالها لي مرة، وأصبر قليلاً علها تكون مختلفة وإذا بها هي بنفس تفاصيلها، فأقول له هذا فينتقل إلى مغامرة أخرى لا جديد فيها فهي أيضاً قد سمعتها. ومع أني كنت قد اكتشفت أنه لم يعد لديه شيء جديد إلا أني لم أكف عن التردد عليه في عشته التي كان يسميها (الطيارة) ويراقب منها بعين واحدة كليلة عليها سحابة فدادين الطماطم الشاسعة.. لم أكف لأني في قرارة نفسي كنت عن طريقة أريد أن أعثر على الغريب، وكنت أعرف أنه خيطي الوحيد الذي لا أعرف سواه، وكنت أطمع أن يحدث هذا يوماً ما مهما كثرت الأيام، وكانت الإجازة الصيفية تنقرض وأيامها تسرع، وشغفي يزداد وأملي يكاد ينفد.

ولم أكن أتصور أن الإجازة لن تنقضي إلا وقد عرفت الغريب، وعرفته بطريقة لم أكن أيضاً أتصورها..

- ٣ -

كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها وروميل في العلمين، والناس يتحدثون عن الحاج محمد هتلر وإشهار اسلامه وبقدومه المتوقع ليخلصنا من الانجليز. أما عالم الليل في مركزنا فقد كان مشغولاً بأمر آخر لا يمت بصلة إلى هتلر أو روميل. أيامها كان ثمة أمر عسكري قد صدر بترحيل المجرمين المشبوهين إلى معتقل الطور، ونشط كل مأمور مركز ونشط كل عمدة ونشط الحاقدون ومحترفو كتابة العرائض، وفي كل بضعة أيام يتكون فوج من المجرمين فعلاً، والأبرياء الذين اغتنوا والأبرياء الذين زج بهم نكاية وزوراً، فوج يربط في سلاسل من حديد وكلابشات ويرحل إلى الطور. أما مركزنا فقد رزقه الله بمأمور كان قريباً لأحد رجال السراي الذين تتحدث عنهم الصحف، ولهذا رأى أن يفسر الأمر العسكري بطريقته الخاصة، وبدلاً من أن يتعب نفسه في عمليات الترحيل ومكاتباته واستماراته كان يتولى ترحيل المشتبه في أمرهم ليس إلى الطور ولكن إلى العالم الآخر، وبطريقة بسيطة للغاية لا سلاسل فيها أو كلابشات. كان إذا أفلح في القبض على أحدهم وجيء به إلى المركز لا يدخله السجن، وإنما يبقيه معه في حجرته يحدثه ويؤانسه ويقدم له الشاي والمزاج، ثم إذا هب الليل يدعوه إلى نزهة معه في (البوكسفورد) وهناك على حافة البحيرة أو أحد المصارف الكئيبة المؤدية إليها يوقف العربة، وينزل هو ويدعو ضيفه

للنزول، وبعدة طلقات ينتهي من أمره ثم يدفعه إلى البحيرة ولتظهر جثته بعد هذا أو لا تظهر، فلا أحد شاف ولا أحد درى، والحكومة أبداً غير حريصة على حياة المجرمين والمشتبه في أمرهم، ولا يمكن أن يثبت أي تحقيق يجري طرف مسؤولية عليه أو على أحد.

وبعدد هائل من هذه ـ الفسح ـ التي أصبحت بعد هذا معروفة ومشهورة، استطاع المأمور الهمام أن يتخلص من عدد لا بأس به من المجرمين السابقين والحاليين والمشتبه في سوابقهم أو لوائحهم، حتى أصبحت سيرة المأمور كقاتل أكثر سرياناً على الألسن من سيرة أي ابن ليل عتيد، وكان يصله ما يقوله الناس وكان يضحك ضحكاً يسمع من شباك مكتبة في المركز ويجلجل ربما كان يجد هو الآخر لذة في الخروج على القانون تفوق لذة تطبيقه.. المهم أنه كان في أحاديثه الخاصة ومجالسه وبين مرؤوسيه لا يكف عن ترديد أن كل ما حدث لا يعد شيئاً. وأن الفسحة الحقيقية التي لن يهدأ حتى يحققها هي فسحته مع الغريب أبو محمد عميد أولاد الليل في المركز بل في المديرية وربما في كل وجه بحري، ولم يكن راضياً أبداً عن مجهود مباحث المركز وعساكره ومخبريه.. في كل يوم كان يعقد لهم طابور توبيخ وتأنيب وتقريع، والعجيب أنهم كانوا يقولون إنه في طوابيره تلك يستعمل ألفاظاً لا يمكن أن يستعملها جامعو أعقاب السجائر رغم أنه كما يقولون أيضاً يستمد نفوذه من صلته بالسراي والملك عن طريق قريبه هذا ذي المنصب الكبير.. ورغم الألفاظ والطوابير والتوبيخ فقد ظل الغريب مختفياً لا يقبض عليه، حتى حين وصل

الأمر إلى حد التحدي السافر وأصبح المأمور ينفق من ماله الخاص ـ وربما ليس بالضبط من ماله الخاص ـ ويرصد المكافآت ويؤجر العيون ويلعب من بعيد على شلبي الذي كان معروفاً أنه ساعد الغريب الأيمن ويغريه ـ ويبدو أن هذا السلاح نجح، فقد فوجىء أهالي المركز ذات يوم بأن الغريب محبوس في المركز ينتظر مصيره المعلوم المحتوم، وأن القبض تم بالاتفاق مع شلبي، وأن شلبي قد قبض.

والمفاجأة التي لم يكن أي من أهل المركز وقراه يتوقعها هي تلك التي جاءت مع غروب الشمس، حين قالوا إن الغريب قد هرب في عز النهار، وإن الدنيا قامت وراءه ولم تقعد بعد، وإن وقعة من يخفيه أو لا يبلغ عنه أسود من شعر رأسه.

تلك كانت المفاجأة التي لم يفق منها أحد في المركز أو قراه والتي ظلت حديث الناس أياماً، والتي أصبح موقف الناس بعدها كموقف المتفرجين على عسكر وحرامية، ولكنها لعبة خطرة يشاهدونها ويتحدثون عنها في السر وبأصوات منخفضة، وينهر الجار جاره أو الصديق صديقه إذا رفع صوته وتحدث مذكراً إياه بالمخبرين الذين أطلقهم المأمور يتجسسون ويعدون الأنفاس ويتسلمون غبار الغريب.

حتى نحن شلة الطلبة والتلامذة الذين كنا نسهر على حائط الكوبري الأسمنت الناعم في ذلك المساء نتسامر ونتحدث عن المطاردة الخطرة ونحن مطمئنون تماماً أن لا مخبر بيننا أو بوليس. كنا

نتحدث في خوف وهمس ويستغرقنا الحديث تماماً حتى ننسى أنفسنا ولا نصحو إلا على تحذير صادر من أحدنا يقول. . إن لليل آذاناً وإن من المستحسن أن نسد أفواهنا ونسكت.

وكنا نصمت ويبدأ خوفنا يطغي، فالدنيا كلها كانت قد عرفت أن الغريب لم يبارح المركز أو قراه زيادة في تحديه للمأمور، وأنه يستعمل الأذرة الصيفي بعيدانها الطويلة وتشابكها الذي يخفي الفيل لو أراد. . وكان حديثنا عن الغريب خطراً من الناحيتين، كنا نخاف المأمور وعيونه من ناحية، والغريب من ناحية أخرى، إذ من يضمن أننا إذا تحدثنا لن تفلت من أحدنا كلمة. . كلمة قد يشيد فيها بالغريب فيغضب علينا المأمور ورجاله وآه من غضبهم! أو قد نشيد فيها بالمأمور فيغضب علينا الغريب وآه من غضبه هو الآخر وسكينه التي كانوا يقولون إنه يربطها حول سمانة رجله!. . بل أكثر من هذا كانت جلستنا نفسها نوعاً من التهور سننال عليه بالتأكيد علقاً وتأنيباً، فأهلنا وأهل البلاد كلها يحيون في حالة رعب من اللحظة التي عرف فيها أن الغريب قد هرب وأنه يختفي في حقول الأذرة وأنه يظهر بالليل أحياناً ليغتصب الطعام والنقود. . وكان رعبهم هو الآخر مزدوجاً، وكأن كلاً منهم كان يتصور أن المأمور سيوجه إليه تهمة التستر على غريب هكذا لله في لله ودون حتى أن يراه. ولهذا كانت قرى مركزنا تشطب من المغرب والبهائم تروح قبل ذهاب الشمس، وتصبح الحقول والشوارع صحراء ليلية جرداء لا حياة فيها ولا حس، ليس فيها سوى دوريات رهيبة مسلحة ومصفحة تجوب ظلام الليل

وصحراءه بحثاً عن الذئب المختفي في مكان ما منه.

ولأن كل هذا كان يدور في خواطرنا بسرعة إذا صمتنا فصمتنا كان لا يطول.. في الحال نجد أحدنا قد بدأ يتحدث والآخرين قد بدأوا يشاركونه، وإذا بالحديث يعود رغماً عنا سيرته الأولى ويعود كل منا يسأل الآخرين بينما هو في الحقيقة يسأل نفسه: ماذا يفعل الواحد منهم لو لقيه الغريب وهو في طريق عودته إلى بيته؟ وعاصفة خوف هي التي كانت تجتاحنا لدى إلقاء السؤال. خوف مبالغ فيه، إذ الواقع أن هاتفاً خفياً في قرارة كل منا كان يتمنى لو حدث هذا، ولكن يتمنى ماذا؟ كان مليون هاتف آخر يتصايحون فوراً في جوفه ويقتلون ذلك الهاتف الخافت، وبسرعة تتحرك دوافع الجبن لتأخذ من الشجاعة كل سماتها وأرديتها وتحتل المقام الأول. وتجعل من دوافع الشجاعة حيثيات تهور وجنون وقلة عقل.. !

وفي تلك الليلة حين تكاثر الخوف حتى فض سامرنا ومجلسنا، نفس الخوف الذي كان يبقيه ويمنعنا من الحركة،وقام البعض يتشبث بزملائه ويحتمي بهم ويطلب منهم أن يوصلوه، وقام آخرون يختارون أسلم الطرق وأقربها إلى البيوت، وحين قمت بدوري لم أكن أعرف ولا كان حتى باستطاعتي لو أردت أن أتخيل أن الصدف اختارتني ليلتها ليخرج عليّ الغريب من بين عيدان الذرة، ويجفف الدماء من عروقي بمثل ما حدث.. !!

- ٤ -

من الصعب عليّ جداً أن أحدد إن كنت لم أستشعر أبداً أني سألقاه، ولكنها لم تكن حاسة سادسة أو إشارة من المجهول. . كان شعوراً عاماً غمرني وجعلني لا أعتقد أن هناك فارقاً كبيراً بين أن ألقاه أو لا ألقاه. .

كان عليّ لكي أصل إلى بيتنا أن أمشي على جسر الترعة مع بقية رفاقي ثم نفترق، حيث يستمرون هم في سيرهم إلى البلدة وأنحرف أنا في طريق ضيق يدور حول طرف البلدة وتحده المساكن من ناحية والأرض المزروعة من ناحية أخرى. . والعجيب أن الخوف انتابني فقط وأنا معهم. . أما حين أصبحت وحدي فقد تلاشى الخوف فجأة، ومع هذا لم أعد إلى حالتي الأولى، اضطراب عظيم وجدته يعصف بي وكأن الخوف قد وصل إلى أن أصبح فوق متناول حواسي ووعيي وانقلب إلى حذر عظيم واستعداد جنوني للدفاع عن النفس، وحساسية مطلقة لأخفت الأصوات، والتهاب الخيال إلى درجة يرى فيها أي بياض في الليل جلباباً وأي سواد شبحاً وأي حركة طعنة. . وكان لم يبق على انتهاء حقل الأذرة الصيفي الذي كنت أسير بحذائه إلا بضعة أمتار بعدها أمر بأرض القمح المنخفضة حيث الاحتمالات أقل والأمان أكثر. . والأذرة في الليل لها وشوشة تحدثها أوراقها الطويلة الحادة كالموسى الخشنة كالمنشار، خاصة حين يفاجئك حدها في جبهتك أو يلسعك وهو يصك يدك. . وأنا

خائف أن أبطىء، وكل ثانية تمر قد تحدث فيها الكارثة، وجاءني شيء من خلف ظهري كالهبهبة حسبتها أول الأمر هبهبة كلب، ولكنها كانت كلمة.. «وله».. وبسرعة الومض خطر لي أنها بالتأكيد ليست هبهبة ولكنها كلمة.. أمر من إنسان. وخطوت خطوة ثانية. وجاءت هذه المرة واضحة أخرست وشوشة الذرة وأصمتت صراصير الليل وأزيزه..

ـ وله..

نفذت إليّ آمرة سريعة، فيها دعوة أحسست بعدها بصمم دافىء وكأن أحدهم صب ماء ساخناً في فتحات أذني.. ولم أعد أسمع ولا أتحرك أو أتنفس أو أفكر.. وفي عقلي شيء واحد يدق ولا يتغير:

ـ لقد حدث.. لقد حدث.. لقد حدث!

لحظة واحدة هي التي استغرقها كل ما دار ولكنها من اللحظات التي يجلس الإنسان بعدها ساعات ليستطيع أن يلم بكل ما حدث فيها ويرتبه ويجعله يخضع للمنطق والمعقول.. لماذا لم أجر وقد كان باستطاعتي أن أفعل؟. لماذا انكتم الصوت في حلقي الجاف ولم أصرخ؟. لماذا لم أكن أريد أن أجري أو أصرخ أو حتى أتنفس؟. لماذا التفت فجأة إلى الخلف في حركة مذعورة وقلت بتلك الحشرجة المرتفعة التي ملأت صوتي المراهق برنين أصوات الرجال وخشونته:

ـ أيوه.. عايزا إيه؟

ـ ما تخافش يا شاطر . .

هل معقول هذا؟ . وهل يخضع الخوف أحياناً لـلأمر، أو لأمـر قادم من شخص معين بحيث إذا جاءك وجدت نفسك فعلاً قد كففت فـوراً عن الخـوف؟ ولكن إذا لم يكن هـذا صحيحـاً فبـأي شيء استطعت أن أدفع هذا الخوف وأجعـل ما أصـابني من خوف يتـلاشى وكـأنه ذاب؟ . جسـدي فقط هـو الـذي تـولتـه رعشـة . . رعشـة بـلا خـوف . . وكأن الخـوف قد غـادر رأسي وصدري إلى الأبـد . وركب أطـرافي وأرعشها بـطريقة جعلت همي كله يصبـح أن أوقف ارتجافي الـظاهر هـذا وأستجمع إرادتي كلهـا لآمـر بهـا أطـرافي أن تكف عن خوفها . . بـلا جدوى، بـل بالعكس كلمـا أمرتهـا كانت تـزداد خوفـاً وارتعـاشاً . . والحقيقـة المائلـة رأسي لحظتهـا أني لا يجب أن يظهـر عليّ علامة خـوف واحدة حتى لـو كانت ارتعـاشة، ووجـدت السؤال ينطلق مني بلا تفكيـر إلا أن أوقف أسنانـاً تصطك وركبـاً تهتز . . بـلا تفكير إلا أن تمر اللحظة الحاضـرة، فقط تمر وبـأي ثمن، إذ لأمر مـا كنت أعتقد أنها لو مرت بسلام فسأملك أمر نفسي بعدها وسأنجح في التصرف . .

ـ من أنت؟

شخطة خرجت مني ولا شخطة المأمور . . أو الغريب نفسه إذا صـادف شحاذاً أو متسـولاً . . وبسرعـة وقبل أن تصـطك أسناني مـرة أخرى أعقبتها :

ـ أنت مين؟

وجاء الصوت الذي لم أكن إلى ذلك الوقت قد عـرفت من أين يجيء وهل يأتي من أمامي أو من خلفي . . أو حتى يخرج من بـاطن الأرض:

- إني غريب . .

وانـطلقت مرة أخـرى وكأنني مسـدس الخـائف حين لا يصبح همه إلا أن يطلق الرصاص . . ولا يكف إلا بعد أن يفرغ رصـاصه . . انـطلقت لأقول: أنت غـريب وإلا الغريب؟ . . ولكن شيئـاً غـريـزيـاً أوقف الجملة الطلقة في حلقي وجعلني أقول:

- أنت الـ . . وبتقـول «وله» ليـه؟ . . ما تقـول سلام عليكم يـا أخي . . ما تقول سلام عليكم . .

قلتهـا وانتهت طلقاتي وسكت. وسكت الصـوت الآخر. انتهى بعدها صمم أذني وعـاد إليها أزيـز الليل . . وبـدأت أنفاسي تتـلاحق وتعمق، ورحت أفكـر في أن أطلق ساقي للريـح وأجـري وأستغيث، ولكن شيئـاً كامنـاً في نفسي ظل يـردد لي أنني لن أفعل شيئـاً كهذا، وأن ليس باستطاعتي أن أتحرك من مكاني خطوة حتى لو أردت . .

وطـال الصمت أو ربما طـال في نـظري . . وخيـل إليّ أن كـل شيء قـد انتهى . . وأن صـاحب الصـوت لا بـد قـد ذهب، ولكن أبـداً . . احسـاس غمـرني وجعلني أحس أني أراقب، وأن عينين لا أراهمـا تـدرسـاني خلجـة خلجـة، وأن أمري وصغـر سني لا بـد سينكشفـان حالاً . . وستحين لحـظتي القـاضيـة. ويـا لـه من شعـور

أفـزعني وأنا واقف عـاري الرأس مخلوع الصنـدل، تحت سماء بـدأ قمرها الجامد يختنق ويذوي وظلامها الكامل يطبق، والشعاعات غيـر المـرئية تخـرج لا بـد من مكـان داخـل هـذه الشجيـرات المتكـاثفـة لتتفحصني على مهـل وبتمعن. . أنـا المتجمـد في مكـاني لا بقـوة الرعب فقد ذهب الـرعب، ولكن بقوة مـا بعد الـرعب، بقوة الشعـور الذي يجمد الفأر في مكانـه حين تنغلق عليه المصيـدة، بحيث حتى لو فتحت له بابها لما استطاع أن يهرب منها. .

ومن الـظلام المخفف بـظلام العيـدان سمعت ضحكـة. . بالضبط لم تكن ضحكة ممكن أن يقـاس نوعهـا وطولهـا. . كانت إذا قيست بـالضحك الحقيقي حسبتهـا حبة من مسبحـة. . أو قـطرة من ماء. أو عينة من ثوب قماش. . وآخر ما كنت أتوقعه من نفسي هو أن أغضب لسمـاعها. . غضبت، بـل أكثر من هـذا أحسست أني أكـظم غيظي، ولكني سكت. .

ـ أنت ابن مين يا شاطر. . ؟

وكـاد غضبي يتحـول إلى حـركـة وقـول لـدى سمـاعي السؤال وخـاصة لـدى كلمة «شـاطر»، ولكني لا أعـرف لمـاذا هدأت للسؤال وحل الاطمئنان في قلبي. . وقلت:

ـ أنا ابن فلان. .

ـ أبوك رجل طيب. .

والحقيقة لم أسمع بقية إجابته. . فقد وجدت العيدان تشخشخ

وتتأرجح ثم يبرز على أثر الكلام من بينها امرأة قصيرة القامة ترتدي ثوباً أسود وطرحة سوداء وبرقعاً ذا قصبة ذهبية لمعت بشحوب تحت شعاع القمر الأصفر . .

- ٥ -

من الممكن أن يعتقد البعض أنه كان حرياً بزيه هذا أن يبعث في نفسي السخرية والاستهانة بصاحبه، ولكن العكس بالضبط هو ما حدث . . فقد أحسست فعلاً بشعري يقف وقشعريرة ملتهبة تغمر فروة رأسي وأنا أرى الغريب قتال القتلة ومدوخ المديرية يرتدي ثوب النساء الأسود ويضع مثلهن البرقع . . وأن يظهر لنا العفريت كعفريت شيء يخيف، أما أن يظهر في صورة «عرسة» فشيء لا بد أن يبعث على الرعب المميت . .

وخطا الغريب بضع خطوات ناحيتي وهاتف الجري عند كل خطوة يعلو نداؤه وترجع رأسي صداه، ولكنه فجأة جلس وقال: أقعد . . وفي الحال قعدت، وإن كنت قد افتعلت البطء والتؤدة وأنا أجلس . . كانت حافة «القيد» الذي تروى منه الأرض والذي جلس ا عليه لأتهيىء مكاناً لجلسة مريحة، ولكن مشكلتي لم تكن في الجلسة. مشكلتي كانت فيما يريده الغريب مني، هو يريد الناس لقتلهم مثلاً أو ليعورهم أو ليأخذ منهم نقوداً، فماذا يريد مني وهو لم يقتلني، ولا يعقل أن يكون معي نقود، ويطلب مني أن أجلس!

جلست في صمت، وهممت أن أتكلم ولكني أمرت بالسكوت. أمرني ذلك الكائن الغريزي الذي يتولى أمرنا وحكمنا في أوقات كتلك، أوقات لا نعرف فيها نوايا وأهداف من نكون معهم.. خاصة إذا كانوا من زملاء الليل أو أمثال الغريب.

لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيته.. كنت قد لمحته وحدقت فيه، وكنت أعرف أنه أمام عيني وبجواري ولكني لم أكن قد رأيته.. السياج الرهيب الذي كان يحيط به.. الذين قتلهم والذين طاردهم والذين طاردوه، والحكومة التي يعاندها والحكومة التي تريده، وتاريخ طويل من القصص والروايات والأحاديث منسوجة وملونة ومحبوكة كانت تحيط به من كل جانب، ولا أستطيع معها أن أراه حتى وهو في ملابس النساء تلك، بل لم تفعل ملابسه أكثر من أنها أضافت للسياج الوهمي سياجاً حقيقياً، وتفاعل السياجان ليجعلاني أحس به موجوداً وغير موجود هو الجالس بجواري ويكلمني ولا يمكن أن يكون هذا شخصه أو الكلام كلامه.. أمعقول هذا؟ الغريب هو الجالس على حافة القيد يحادثني؟ كان يخيل لي في لحظة أن من أراه في تلك الثياب السوداء ليس سوى ظل لعملاق رهيب لا يزال كامناً في الأذرة، وفي أحيان يخيل إليّ أن الثوب خال من الداخل وأن الغريب ما هو إلا نقطة زئبقية داخلية لا يمكن إمساكها أو القبض عليها..

وأخرج علبة الدخان من جيبه أو هكذا تمنيت، فأي حركة منه كانت ترعشني وتجعلني أنتفض مترقباً غرزة السكين المربوطة على

فخذه في صدري، وقال:

ـ تاخد سيجارة؟

قلت:

ـ كتر خيرك . .

قال:

ـ خد . .

قلت، وأيامها كنت أدخن خلسة سيجارة أو سيجارتين في اليوم . . قلت متصنعاً الأدب:

ـ ما بشربش . .

هز رأسه في سخرية وقال:

ـ بتشرب . . خد . .

وادعيت كأنما براعته قد كشفتني فقلت:

ـ علشان خاطرك حاخدها . .

مد لي السيجارة وأشعل عود الكبريت من علبة ذات ستين عوداً «ماركة الخيال» ومد العود ناحيتي قائلاً:

ـ ولع . .

وآليت على نفسي ألا أشعل سيجارتي قبله وأقسمت، ولم يفعل قسمي أكثر من أنه أطفأ العود وقرب رأسه ذات البرقع الذي كان قد رفعه ليشعل اللفافة مني، وأشعل الكبريت مرة أخرى، ولأمنع انطفاءه رقبت رأسي، وليمنع انطفاءه قرب رأسه، وانفجرت الشعلة تضيء ما بيننا، وتضيء ـ أعوذ بالله أعوذ بالله ـ وجهه، وكأنما أضاءت

وجه جنية عيونها مخططة بالطول، وكأنما أضاءت وجه نعجة شيطانية مجنونة ترتدي برقعاً . .

سقطة السيجارة من فمي هي فقط التي عرفتني أن فمي مفتوح وأني خائف جداً، وكأن كل ما فات من خوف لم يكن سوى التثاؤب الذي يسبق المرض. أما وأنا أحدق في وجهه فهو الخوف، المرض، الحمى الباردة التي تهد الجسد وتضعضع العظام، الحمى التي ترجفني، حمى الخوف التي أدركها بوعي محسوسة ملموسة.

ورغم هذا ما أعجب قدرتنا! ما أعجبنا نحن بني الإنسان! لو كنت حيواناً . . وأحسست بمثل ما أحسست لفقدت السيطرة على نفسي ولظللت أجري وأركض رعباً حتى لقيت حتفي، ولكنني في اللحظات التالية كنت بقدرة الخوف الخارقة قد ملكت السيطرة على نفسي تماماً، جلست بجواره أيضاً أدخن السيجارة العربي «الملكونيان» التي عزم عليّ بها، وأدوخ . . فقد كنت حديث العهد بالتدخين وبابتلاع الدخان، وأرد على أسئلته بثبات أو بمحاولات جادة يائسة الثبات غالباً ما كانت تنجح، وغالباً ما كانت أجاباتي تخرج مفهومة معقولة تكاد تبدو طبيعية . . سألني عن دارنا وأين هي من جلستنا، وسألني أين كنت ومع من وماذا قلت لهم وماذا قالوا لي وماذا يقول الناس عنه . . ولم يفتني وأنا في حالتي التي أتأرجح فيها بين «الهي والهوى» تلك أن ألاحظ غبطته الساذجة لكل كبيرة وصغيرة قلتها له نقلاً عن الناس بل وألفتها أيضاً، وما أيسر التأليف عليّ وأنا أحاول أن أرضيه وأجعل أقوالي كمرآة مكبرة يرى فيها حجمه مضاعفاً

وبطولاته أطول من المآذن وسعف النخيل.

وأنا آخذ آخر أنفاس سيجارتي كانت المشكلة لا تزال تلسعني ولا أزال أريد أن أقول له كم حاولت أن أراه وألقاه، وأشهد عم خليل و«طيارته» غير بعيدة على أقوالي، وأتردد لا لشيء إلا لخوفي من أن يفسر رغبتي في رؤيته تفسيراً يجلب غضبه، وأخشى ما كنت أخشاه لحظلتها أن أقول كلمة أو أقدم على حركة تثير غضبه بل كان يخيل لي أحياناً أنه سيغضب فجأة من تلقاء نفسه كالمجاذيب وأهل الله.. وكأن أخلاف أهل الليل قريبة الشبه جداً من أخلاق أهل الله. ولكنني نسيت المشكلة تماماً بل نسيت نفسي والمكان والزمان في طرفي الكماشة اللذين أطبقا على بلبلة أذني وأنا أدفن بقايا السيجارة في طين القيد.

- ٦ -

أصابع لا يمكن أن تكون أصابع.. لا بد أن عظامها من الداخل كانت حديداً، والجلد فوقها قد جف من زمان وتحجز. خيل إليّ أن جسدي كله يحمر للقرصة، ومع هذا فقد كنت أحس بالأصابع الكماشة لا تقصد بها الجد والأذى بقدر ما تريد التنبيه المغلف بهزل.. وصوت يأتيني من وراء البرقع الذي أعيد كقناع الديك الرومي إلى مكانه:

- وبتشرب سجاير ليه؟.. مش عيب؟

ولم أتأوه.. خوفاً، وربما حسبها جدعنة ولكنها كانت والله

خوفاً، وحتى سكوني بعد هذا وهو يسألني هل أصلي مثل أبي المشهور بصلاحه . . ثم نطقى حين ازدادت الضغطة وقولي :

ـ لاه . .

وتزداد القرصة ويجيئني السؤال كلفحة النار الهادئة :

ـ ليه؟

فأقول :

ـ ح أصلي . . ح اصلي . .

وحينئذ أحس بجسدي يبرد وينتعش ويعود إلى الحياة إذ الكماشة كانت قد تركت أذني ، ولكني ما كدت أتنفس حتى دوت خبطة أو خبطتان على ظهري كدق الساطور على جسد الذبيحة المنفوخ، والغريب لعنة الله عليه يقول:

ـ لا والله . . أنت واد جدع . . يحميك لأبوك . . لولا أنك جدع لغرزتك زرع بصل في القيد ده . . قف . .

ماذا أفعل؟ وقفت . . قرب هنا . . قربت . . هات ودانك . . أذني التي كنت لا أزال أحس بها حمراء كالجمر المضيء في ظلمة الليل هي نفسها التي قربتها، وهي نفسها التي سمعته . . سمعت قحة الغريب أبو محمد وهو يقول:

ـ آني جعان يا ولد . .

أقسم أن صدري لم ينشرح لكلمة سمعتها من إنسان بمثل ما شرحت صدري تلك الكلمة وأزالت كل ما تراكم فيه ليلتها من

اضطراب ورعب وارتجاف وهوس . . واستقرت في أعمق أعماقه وراحت تدوي، دوياً غريباً حبيباً، نداء . . النداء الذي تتجمع له النخوة والحب والرغبة العارمة في التضحية، وأسهلها التضحية بالنفس وبكل هذا، وبكل ما حدث فيّ وما انداح من صدري قلت في شبه هتاف:

ـ تحب تاكل إيه؟

ـ أي حاجة . . وإن كنت تقدر هات لي صندوق دخان وحجر بطارية وقلة ميه . .

واستدرت لأجري ولكنني لم أتحرك، فيده المهولة كانت قد أمسكت بذيل جلبابي . . وعدت أواجهه فوجدته يرفع البرقع ويقول:

ـ كلام رجاله؟!

وجمت . . فقد أحسست أنه يهينني، وربما القمر الساقط على وجهي الشاحب اللاهث قد انبأه هو الآخر أني أكاد أبكي تأثراً، فترك الذيل ولكنني لم أتحرك . . ظللت واقفاً، وأيضاً لا أستطيع أن أتكلم . . كنت أريد أن أقول له أشياء كثيرة جداً، ولكني لم أكن أعرف كيف أقولها، ربما لأني لم أكن أعرف بالضبط هذه الأشياء الكثيرة التي أريد قولها، وربما لأني لدى كلمته هذه بدأت أفقد الحماس الدافق الذي أشاعه طلبه في صدري وبدأت أفكر في أن أذهب وأوقظ أبي والخفراء والعمدة ونمسكه .

وقفت حتى قال:

ـ روح . . ياللا . .

قلت له:

ـ مش خايف مني؟

قال بهدوء آمر هامس ينفذ إلى النخاع:

ـ روح..

وبخطوات مضطربة مضيت أتخبط في الطريق إلى بيتنا القريب..

ـ ٧ ـ

قطع الشوربجي كلامه مرة ليقول:

ـ من كان يصدق أنني سأعود إليه بعدما نفذت بجلدي منه، ومن كان باستطاعته أن يصدق أن علاقة طويلة ستنشأ بيني وبين الغريب، علاقة أصبح فيها محل ثقته حتى ليأتمنني على زوجته الحلوة الصغيرة «وردة» أحلى وأجمل وأنضج من رأت عيناي؟

لا بد أن الإنسان هو الذي يتمتع وحده بتلك الخاصية المجنونة خاصية أن يرى الخطر ماثلاً أمام عينه أحياناً فلا يهرب منه كما تفعل الكائنات، ولكنه بكل طيش يواجهه ويسمي هذا شجاعة ويفخر بها.. لا بد، وإلا لما كانت هناك قوة في الوجود تستطيع أن تعيدني إلى حيث يختفي الغريب محملاً بكل ما استطعت العثور عليه في

بيتنا من طعام، وبقلة الماء المخصصة لأبي والتي كان لا يجرؤ أحد من أهل البيت على لمسها. .

* * *

تلك كانت قصة لقائي بالغريب لأول مرة والذي حدث أنها لم تكن الأخيرة، فلقد ظللت أياماً كثيرة أقابل الغريب وأحمل له الطعام والماء وكل المطالب الصغيرة التي يحتاجها اختفاؤه الكامل، ولم تكن المهمة سهلة فالطعام في القرى لا يباع أو يشتري، وكان لا بد من التحايل الكثير لإحضاره من بيتنا واختلاق الحجج للتزود ببعضه من بيوت أهلي وأقاربي. وكان الغريب أول الأمر يعاملني بحرص شديد فما ذهبت له مرة بالطعام ووجدته في المكان المتفق عليه، كنت أجد مكان الانتظار دائماً خالياً فأقف، وأظل أتأرجح بالشك والخوف حتى يخرج عليّ من حيث لا أدري وبعد أن يكون قد اطمأن إلى أني بمفردي. . وكنا لا نلتقي إلا ليلاً في تلك الفترة الكائنة بين المغرب والعشاء. . ورغم سني الصغيرة وغرابة هذه العلاقة فلم يطلب مني الغريب أبداً أن أبقي ما يحدث بيننا سراً ولكني أنا كنت على استعداد لأن أموت قبل أن أطلع عليه أحداً. . وما أروع تلك الأيام القليلة التي عشتها أميناً على سر الغريب وصلته الوحيدة بالحياة. . كنت أحس طوالها أني أخيراً وبطريقة لم تخطر لي على بال قد استطعت أن أدخل ذلك العالم الذي عشت أحلم بالحياة فيه، وما أروع المرات التي شاطرته فيها الطعام أو التي طالت جلستنا فيها ودار الحديث. . حديث كنت أقوم

أنا بأغلبه تاركاً للغريب مهمة تشجيعي على المضي فيه أو قطع حبل استماعه بسؤال، وما أتفه ما كانت تبدو لي أحداث حياتي الكبيرة وأنا أحدثه عنها. . ما أتفه ما كانت تبدو خلافاتي مع الناس وخناقاتي واشتباكاتي وأنا أقولها للرجل الذي يقتل الناس لأي هفوة، وأحياناً بلا هفوة. .

وقد اقتضاني الأمر لقاءات كثيرة. . وأحاديث ممتدة لأستطيع أن أراه رأي العين وأتعرف على ملامحه. كان أول ما يجذب انتباهك حين تراه شارب أسود كث بدأت تظهر له شعرات ناصعة البياض يمتد بعرض وجهه، وتحس به يبتلع ملامحه كلها ويستولي على عينيك ولا يدع لك اهتماماً آخر توجهه إلى أنفه الحاد الرفيع الذي ينتهي فجأة وكأنما بمطب عند شاربه، ولا عينيه الضيقتين اللتين تآكلت بعض رموشها واحمرت، وكان أعجب ما فيه يداه إذ كانتا صلبتين صغيرتين أصغر حجماً من يدي أنا وأقصر أصابع، وحتى «بلغته» كانت صغيرة تحس أنها فصلت لصبي أو أنها بلغة فتاة. . ومرة لاحظت أنه بالكاد يلاحقني في الطول إن لم أكن أنا أطول منه بقليل، وأنه حين ينهي ضحكه بشخشخة صوتية اعتادها ربما ليضفي نوعاً من الخشونة على ضحكه.

بعد ليال كنت قد أخذت عليه إلى درجة أني سألته مرة سؤالاً لا يوجهه إلا «عيل» مثلي ـ على حد رأيه ـ أو مجنون. سألته لماذا هو قتال؟ ولماذا لا يحيا كالناس الذي خلقهم الله وسواهم؟ وماذا دفعه في الطريق؟ ضحك للسؤال وشخشخت ضحكته وقال:

ـ الله يقطعك يا شيخ . . وأنت قد السؤال ده؟ طب اسأل حاجه تانيه.

ولكني وبطريقة صبيانية، وكأنما أتدلل على أبي ألححت عليه أن يجيب. . حينئذ فقط وبعد إلحاح سهم وشردت نظرته حتى خفت أن يكون مشغولاً بتتبع مصدر ما للصوت، إذ ما كان أرهف أذنيه لأقل الأصوات وأضألها! ثم قال:

ـ الحق الحق مش عارف، إنما اللي أقدر أقول لك عليه إني كنت كل مرة يا قاتل يا مقتول.

قلت مبهوراً وقد خيل إليّ أنه بدأ بعظمة لسانه يفتح لي أسرار عالم الليل الرهيب:

ـ ازاي؟ قاتل يا مقتول إزاي؟

ـ يعني يا كنت أقتل يا أتقتل، فكنت باقتل.

قلت وأنا أمد انبهاري وأطيله لأشعره به:

ـ كل مرة كده؟

ـ كل مرة كده. .

ـ حتى أول مرة. .

هنا سكت وعاد يسهم ثم قال:

ـ لا . . هي المرة الأولانية هي اللي صعبة. . كنت زارع عند واحد. . كلني، طالبته مرة واثنين وتلاتة وسقت عليه الناس مارضيش، قالوا لي بلغ فيه بلغت، حطوني أنا في المركز وضربوني. . وأنا في السجن صممت إني أقتله. ويوم ما طلعت تمام بعت العجلة

واشتريت بندقية وطخيته قدام باب بيته. حققم معايا وانحبست انما ما ثبتشى عليا، أهله راحوا أجروا واحد يقتلني وياخد بتاره. أستناه لما يقتلني؟ قتلته قبل ما يقتلني، وعليها يا سي عبد الرحمن.

قلت أقاطعه:

- يعني.. الـ.. الراجل ده.. ما. ما. ما زعلتش لما قتلته مثلاً يعني؟

- زعلت أمال ما زعلتش. قعدت شهر ما أدقش زاد ولا ميه وعييت، ما خلصنيش م العيا إلا أما عرفت أن أهله مأجرين على واحد يقتلني.

وسكت سكوتاً مفاجئاً جعل الاضطراب يدب في نفسي، والتفت إليّ مرة واحدة وقال بصوت عال رفيع:

- وأنت بتسأل عن كده ليه؟

فقلت له برهبة وصوت متهدج بالخطورة:

- أصلي عايز أقتل واحد.

ضحك وضحك حتى دمعت عيناه، ثم قال وهو لا يزال يضحك:

- تقتل واحد مين؟ قل لي عليه وأنا أقتله لك.

قلت له:

- مش واحد محدد، أي واحد.

قال بدهشة:

ـ أي واحد . . إزاي يعني أي واحد؟

قلت :

ـ أي واحد كده .

وكانت في الحقيقة مهمة صعبة أن أشرح له ما أريد، وأخبره بالتفصيل عن تلك الرغبة الخفية التي تراودني والتي جعلتني ألازم عم خليل وأتمنى أن ألقاه هو، والتي ما جرؤت أن أصرح بها لأحد سواه. نظر إليّ بركن عينه نظرة اكتشفت معها أنه حين ينظر بركن عينه يحول، وقال :

ـ بتتكلم جد؟

وقلت وكلي صدق ومن أعماق قلبي :

ـ والله بتكلم جد. أمال أنا بكلمك ليه؟

ـ بتكلمني ليه؟

ـ عشان أنت اللي ح تعلمني أقتل أزاي .

ضحك حتى كاد ينفجر، وقال وهو يخبط على كتفي :

ـ مش عيب يا أستاذ الكلام ده؟ أعلمك القتل إزاي، هو كوتشينة يا فندي؟

وأحسست أني أهنت خاصة لكلمة أفندي وهو ينطقها بطريقة ممدودة الحروف. مع إني لأمر ما كنت أعتقد أنه هو الوحيد الذي لن يسخر من رغبتي هذه لو حدث وقلتها له، بله أن يضحك عليّ وعليها كأي عابر سبيل أو زميل من زملاء الدراسة. أحسست أني أهنت،

ولم أشأ مجادلته مخافة أن يأخذها هزلاً ويضيع حلم حياة بأكملها. . وسكت.

وسكت هو الآخر، ثم وجدته بعد فترة يطبطب على كتفي وكأنما يصالحني ويقول:

ـ وإذا كان نفسك يا سيدي تقتل بخليك تقتل، المسألة بسيطة.

قلت وقد عاودني الأمل:

ـ والنبي؟

قال:

ـ بس على شرط ح أكلفك بمأمورية تقدر تعملها؟

ـ واعمل أبوها كمان.

ـ ٨ ـ

وحتى تلك اللحظة لم أكن قد نظرت للغريب أبداً باعتبار أنه إنسان مثلنا ممكن أن تكون له زوجة أو يكون من عائلة وله والدان، وقطعاً لم يدر بخلدي أن تكون له مثلاً زوجتان ومن يدري ربما أكثر. المشكلة أنه لم يترك لي وقتاً للتأمل أو الاندهاش، عليّ الفور مضى يحدثني عن تفاصيل المهمة التي تنتظرني والتي كان علي فيها أن أوصل للزوجة الأولى ورقة بخمسة جنيهات وأن آتي له بالثانية. . والأولى كانت في بلده القريب من بلدنا سمراء كالحدأة جافة رفيعة

كعود السنط الجاف، وأولادها على الأقل أكثر من عشرة وكلهم لهم نفس سمرتها وعودها الجاف. وطلعت عيني وهي تسألني عن كل كبيرة وصغيرة من أمر الغريب وتستريب، وتعود وتلح لتتأكد حتى تشهدت حين انتهت المهمة وأفرجت عني.

أما مهمتي الثانية فكانت لوردة أحدث زوجاته التي لم أكن أتخيل أنها على هذا القدر المذهل من الأنوثة والليونة والجمال. لم أكن قد ذهبت أبداً إلى العزبة التي وصفها لي الغريب ولكني كنت أعرف أنها تقع في منتصف المسافة بين كيلو ١٤ وبين محطة الطلمبات التي ترفع مياه المصرف الكبير إلى مستوى ماء البحيرة.. واخترت أن أذهب في شيخوخة العصر حتى أعود بها والدنيا ظلام، وكنت مضطرباً خائفاً أتحاشى الناس وأتصور أنهم يعرفون وجهتي ويعرفون حتى (الأمارة) التي زودني بها الغريب لتؤمن (وردة) أني قادم من عنده.. ويا لها من أمارة، أمارة ما طلبت منه أن يأتي لها بقلم حواجب أسود، أمارة لم أستسغها أبداً ولا هضمت أن ينطقها الغريب بلسانه ويشغل نفسه بها إلى درجة أن يتذكرها.

حين وصلت كانت العزبة لا تزال خالية إلا من النساء العجائز والأطفال، وقوبلت بعاصفة نباح هائلة من كلاب كثيرة هزيلة يكاد يقتلها الجوع وظلت تطاردني حتى كدت أعود لولا الفلاحة الضخمة الملوثة الملابس بالطين والتي ظهرت في الوقت المناسب لتحول بينها وبيني.

ثم تقودني لبيت «وردة» وتتطوع من تلقاء نفسها بتعليـل زيارتي فتسألني :

ـ أنت يا خويا من قرايبها بتوع المحطة؟

وكانت تقصد بالمحطة البندر حيث السكة الحـديد وحيث درج النـاس على تسميته بـالمحطة. وهي أيضـاً التي دقت البـاب بيـدهـا الملوثة ونادت على وردة وطلبت منها أن تفتح «للضيوف». . وأجابهـا من الداخل صوت حافل بزغاريد أنثـوية رقيقـة لكنها بندراويـة راقيـة حلوة. . صوت بدا غريباً غير متوقع في ذلك المكـان النائي المـوغل في بعده عن كل مـا يمت إلى الرقي والحـلاوة بصلة. . وفتح البـاب ولومضة خاطفة لمحت أجمل وجه وقعت عليه عيناي، وجه أبيض يكاد من بياضه أن يصبح شفافاً ومن وسامة تقاطيعـه أن يتحول إلى صـورة من الصور التي نراها على علب الحلوى والملبس. وكان واضحاً أنها انتهت تـواً من استحمامهـا فشعرهـا كـان قـد صفف نصفـه ولا تـزال قطرات الماء تتساقط من نصفه الآخر. . ومضة رأيتهـا بعدهـا تختفي بحركة غريزيـة وراء الباب ثم تعـود للظهور وقـد وضعت فوق رأسهـا جلباباً أخفى الشعر وحاول فـاشلاً أن يخفي الـوجه. ولم يتـح لي أن أرى أكثر فقد أسقطت رأسي في الحال فوق صدري خجـلاً ولم أرفع عيني عن الأرض، وكـدت آمـر أذني ألا تسمـع خـاصـة حين خـرج صوت «وردة» مملوءاً بزغـاريده الخـافتة الـداخلية يـرحب بي ويطلب مني أن أتفضل، مع أنها لم تكن قد عرفت بعد من أنا ولماذا جئت.

ووجدت نفسي أزداد خجلاً وتعثراً وأنا أشرح لها أقل الكلمات

وأسرعها سبب مجيئي، وتحمر أذناي وتسخنان وأنا أذكر لها الأمـارة. ولم يغير ما قلته شيئاً من تـرحيبهـا أو لهجتهـا فمضت بنفس الـروح تـرحب بي وتـطلب مني أن أدخـل وأجلس. وحين تـرددت وجـدتهـا تجذبني إلى الداخل بيد بضة لا تزال مبتلة بالماء وتقول:

ـ خش يـا حبيبي.. دا بيتـك.. اتفضـل اسم الله عليـك اسم النبي حارسك.

ولم تترك يدي إلا حين أصبحت في حجـرة داخلية كـالمندرة، وإلا حين أمالت بيـدهـا الأخـرى «حصيـرة» زاهيـة النقـوش وفـرشتهـا ووضعت فوقها مسندين وأصرت على أن أجلس على أحدهما وأستند إلى الآخر.

ولم أكـد أبدأ ألتقط أنفـاسي حتى كانت عـدة الشـاي أمـامنـا والشـاي نفسه قـد انتهى اعداده، وحتى كـانت تناولني الكـوب بنفس يدها التي بدت حمراء من كثرة بياضها ونعومتها، ثم تسألني عن رأيي فيه وتقول إنها راعت أن تجعله خفيفاً ليكون «شاي أفندية» يليق بي.

ومـع رشفات الشـاي الأولى بـدأت أفيق، فحتى ذلـك الـوقت كانت مشغوليتها الشديدة في إكرامي والترحيب بي لم تدع لي فـرصة أحدثها فيهـا عن سبب مجيئي بالتفصيـل، أو حتى أذكر لهـا شيئاً عن كنه علاقتي بزوجها الغريب. وكلما طال الوقت يـزداد اهتمامهـا بي، وكلما زاد اهتمامها ازددت خجلاً واضطراباً حتى بدأت أفكر في وضع الشاي جانباً وتهيئة نفسي لإعـادة الرسـالة عليهـا ولكني فوجئت بهـا

تقترب مني كثيراً وتقول:

ـ أنت مكسوف ليه يا حبيبي.. هو ده مش زي بيتكم والـلا احنا مش قد المقام؟ ما تنكسفش يا خويا اسم النبي حارسك وحاميك..

وأعقبت كلماتها الأخيرة بهدهدة حنونة عليّ، هدهدة كادت تأخذني معها تحت إبطها..

وكان لا بد أن ينتهي خجلي ولو للحظة وأرفع بصري إليها، إلى تلك التي تعاملني كصبي صغير أو طالب بينما هي لا تكبرني إلا بأعوام أقل من أن تعد، وحتى لو كانت أكبر مني بكثير فهي امرأة وأنا شاب غلظ صوتي وبرزت حنجرتي، ثم إنها ليست صغيرة فقط ولكنها حلوة بطريقة لا يتصورها العقل، بيضاء جميلة ملفوفة في فستانها الحرير المحبوك وكل ما فيها ناضج فائر يكاد يمزق الفستان. وحتى لو كان لها جسد رجل فيكفي ما في عينيها من سواد جميل يشع رغبات مجنونة تكاد تنطق وتصيح.. ولا تجد في هذا كله حرجاً من الطبطبة عليّ وأخذي تحت إبطها وإدارة وجهي ناحيتها كلما حاولت أن أغض الطرف أو أستدير، بل لا تجد حرجاً في أن تعزم عليّ بالدخان والمعسل وأي مكيف أريد. وأحياناً كثيرة تملس على شعري وتقول:

ـ الله.. شعرك أصفر وحلو زي شعر الانجليز.. اسم النبي حارسك يا خويا وصاينك.

وتقـول أخويـا بطريقـة يقشعر لهـا الجسد بـطريقة لا تمت إلى الأخوة بصلة.

وظللت طـوال الوقت منبهـراً ممـا أراه وأسمعـه ومن احسـاسي الدائم أنها مع كل ما تفعله زوجة الغريب ذلك الجبـار الرابض ينتـظر عـودتنا وعلى فخـذه الأيسر سكين. ويبلغ انبهـاري قمته حين تتعمـد بين كل حين وحين أن تخبط على كتفي خبطة دلال وتأنيب وتقول:

ـ اطلع من دول.. دا زمـانك مقـطع السمكـة وديلهـا، حـاكم البنـات تموت في شعـرك ده.. يحميك يـا خـويـا لشبـابـك اسم الله عليـك.. أنت مش ح تبات هنـا إن شاء الله؟ والله مـا سيبـك تـروح لوحدك أبداً.

ويتولاني الضيق العظيم، ضيق الموفد في مهمة الذي يكتشف أنه هو الذي أصبح موضع الاهتمام وأن كل الـرسالـة التي يحملها لم يعد لها أهمية بالمرة وسط ازدحام الاكـرام الهائـل والأسئلة المتواليـة عنـه وعن شخصه ونفسـه والطبـطبة والأحضـان التي ظاهـرها عـطف خالص والتي يدوخ التفكير في باطنها.

ويبلغ الضيق بي أن أقوم أحياناً منتفضاً وكـأنني سأهم بـالجري فتحيطني بذراعيها فوراً، وأحياناً تمس شعـري بقبلة يقف لها شعـري وتسألني في دلال عما يدفعني للعجلة، وبأصبعها المكهربـة تتحسس وجهي وذقني وشاربي المخضر. ويزداد ضيقي وأنا أعامـل كاللعبـة التي لا رأى لها ولا اعتبار، وآمر نفسي أن تظل صـورة الغريب مـاثلة أمام

عيني لا تختفي لحظة تحول بيني وبين هذه المرأة البندراوية التي لا يوقفها خجل أو يمنع يدها حياء. امرأة تبدو كالمحرومة التي ما رأت في حياتها رجلاً.. تراه ماذا يفعل معها؟ ومن الواضح أنها لا تخافه أبداً ولا تعمل له حساباً قط...

وربما الضيق والاستنكار وغرابة الموقف هي التي دفعتني دفعاً لأن أجد نفسي أحس فجأة باحتقار هائل لوردة برغم جمالها الهائل وشخصيتها الطاغية المكتسحة.

الغريب بعيد عنها، والرجال يخافونها خوف الموت ولم يبق لها في منفاها البعيد عن الرجال إلا تلك الصدفة التي ساقتني إليها، من تحسبني تلك المرأة الداعرة؟ ومن تحسب نفسها؟

هكذا بدفعة بغض قوية خلصت نفسي منها وحدجتها بنظرات خلت من كل ما يخجل أو يربك، وأعدت عليها الرسالة كلمة كلمة وطلبت منها أن تصحبني. وكأنما صدمها تغيري فقد وجدت الاضطراب يملأ عينيها فجأة ويدفعها للحركة بلا هدف داخل محجريهما. ولكن ذلك لم يستمر إلا لهنيهة فقد وجدت بريقاً ما يعود يشع من نظراتها، ولم أحتج لذكاء كثير لأدرك أنها فسرت نفوري على أنه فشل لأنوثتها معي وأنها لكي تنجح عليها أن تعيد سن أسلحتها وتمضي في المعركة. وهكذا جذبني، وهذه المرة كانت أحضانها مكشوفة وإن حرصت على أن تسبقها بقولها:

ـ اسم الله عليك اسم النبي حارسك.

ووجدت نفسي أنا الآخر أبادلها البغض والنفور بطريقة مكشوفة ويغادر الخجل نظراتي ليغرق نظرتها هي، حتي ليدفعها لأن تقول:

ـ هو أنا مش عاجباك يا حبيبي؟

وإلى هنا وجدت نفسي أصرخ وأقول لها:

ـ أنا مالي ومالك؟.. أنا باعتني عم الغريب.. جايه والا مش جايه؟

ويبدو أنها قرأت في عيني أن الضيق قد بلغ بي منتهاه ولكنها لم تنسحب من الموقف فوراً، ظلت تحادثني وكأنما لتختبر احساسي الأخير تجاهها ولتزيل الجفوة التي حدثت، وفي النهاية قالت إن عليّ أن أعود للغريب وأخبره أنها لن تستطيع الذهاب إليه. أما لماذا فقد أبت أن تجيب وطلبت مني أن أبلغه ما قالته فقط وبلا أي تعليق، وبعد فترة قالت:

ـ وإذا كان عايز هو يشوفني.. خليه ييجي..

وكانت تقول هذا وكلانا مدرك أنه مستحيل، فمجيئه إليها خطر أكيد.

وحين لم أجد فائدة اندفعت خارجاً، ولكنها أمسكتني واستبقتني إلى أن حشت جيبي بفطيرة لفتها في غلاف مجلة وأصرت عليّ أن آخذها. ولا أدري لماذا حين أخرجتها في منتصف الطريق وأنا عائد وحاولت أن أقضم منها قضمة جزعت نفسي ووجدتني

أقذفها بكل قوتي في المصرف، وأتخيل المشهد الحافل الذي سيدور بيني وبين الغريب.

- ٩ -

وكان لقائي معه حزيناً لا أدري لم. كنت أحس من ناحيتي أني فشلت في مهمة كلفني بها وأن علاقتي البسيطة الواضحة به قد حدث فيها شيء عقد من بساطتها، الغريب الذي ما رأيته إلا كبطل يرى لا يمكن أن يربطه بأرضنا أو بحياتنا رابط فجأة اكتشفت أنه زوج، وزوج لوردة وأي وردة! اكتشاف جعلني أحس بالخجل.. وكأنه كان من واجبي ألا أعرف وكأنني ضبطته في موقف شائن أو لحظة ضعف.

أما الغريب فكل ما فعله حين رآني أنه قال:

- هيه.. ما جاتش؟

ولأول مرة في علاقتي به أدرك أني لكي أجيبه عليّ أن أكذب وكذبت. وحاولت أن أجد لها عذراً وأبرر ولكنه هز رأسه وقال:

- طيب.. هيه.. حصل خير.. وحد شافك لما رحت؟

ومن توهانه عرفت أنه يريد أن يغير الموضوع ليس إلا. وضايقني أنه لم يثر ولم يغضب وينشب أظافره في عنقي أو قام من فوره إلى العزبة وانتزعها من مرقدها ونقلها. حتى حين حاولت أنا أن أعود إلى الموضوع وأستنكر موقفها استنكاراً خفياً لم يظهر عليه الضيق وراح يسألني عنها وعن صحتهاوماذا كانت تفعله بالضبط حين

وصلت. أسئلة كـان يبذل الجهـد لكي تبدو طبيعيـة كـأسئلة أي زوج غائب عن زوجته البعيدة. . ومع هذا فكل سؤال من أسئلته كان ينبت العـرق البارد تحت إبـطي مخافـة أن يكتشف الكذب في إجـابـاتي، وكنت لا أبـدأ التنفس بحريـة وأرتاح إلا حين يهـز رأسـه وينتقـل إلى سؤال آخر.

ولكني لا زلت أذكـر رأسه هـذا ذا الخمسين عاماً حين ارتفـع فجأة من فوق صدره وارتفعت معه عينـان أخفى ظلام الليـل ضيقهما وتفاصيلهما وجعلهما تبدوان كما لو كانتا مجرد دائرتين مظلمتين على جانبي أنفه. . لا زلت أذكر ارتفاعة رأسه والـوضع الـذي اتخذه وهـو يصب على صمتـه، وكيف طـال الصمت حتى بـدأت أقلق وأحـاول يائساً أن أخترق نظارة الظلام الغامقة الموضوعة فوق عينيه لأفتش عما يريده مني، حين قال فجأة:

ـ اسمع يا فندي.

ومنعتني الـرهبة عن أن استحثـه أو أفتح فمي أو حتى أمـوء في إصغاء.

كان القمر يطل علينا من بعيد من فوق أشجار الظلام والكـافور المحيـطة بغيظ الميامنـة، وكـان مكسـوراً كـأحـد «متـارد» اللبن التي يضعونها تبركاً بعد كسرها فوق قبر سيدي أبو لفان، وشعاعاته الشاحبة محمرة كضوء لمبة الجاز حين توضع في الفانوس ويمنع عنها الهواء، وكان رأس الغريب يـواجهني كبيراً بـالنسبة لحجمـه ثابتـاً واجماً كـأن

صاحبه قد مات، ومن خلال فم لا يكاد ينفرج جاءني صوته:

ـ أنت بتكذب عليّ يا فندي؟

ومت. . أقسم أني أحسست وكأني أسقط من حافة الدنيا إلى هاوية الآخرة، السقطة توقف القلب وتشل العقل وتجمد الأطراف ويدفع رعبها جلودنا لأن تفرز فزعها على هيئة عرق صغير ينبت. . عرق الرعب. وحاولت التشبث بالهواء وقلت:

ـ ليه؟

ومرة أخرى جاءني صوته وكأنه صوت الظلام إذا تكلم الظلام:

ـ بتكذب عليّ ليه يا أفندي؟

وابتلعت ريقي بصوت حاولت كتمه، وقبل أن أبتلعه مرة أخرى قال:

ـ أنت عملت حاجه مع وردة؟

ويبدو أنه لمحني أعتدل في مكاني ملسوعاً فوجدته يستطرد معدلاً السؤال:

ـ والا هي لعبت عليك يا أفندي؟

وفي جزء من الثانية كنت قد وطنت نفسي على أن أنهار أمامه وأقول له كل شيء، وإذا نفذت بجلدي أقطع صلتي به وبوردة وبتلك المشاكل التي لست نداً لها والتي ورطت نفسي فيها بصبيانية قد تضيع حياتي. ولكني في الجزء التالي من الثانية كدت أفقد وعيي

بتأثير دفقة الحياة القوية التي عادت إليّ مع أغرب وآخر ما كنت أتوقعه . . ضحكة عالية ضخمة صدرت عن الغريب وبددت عن الليل ظلامه وانتزعت عقلي من مكانه، ضحكة . . ويد قصيرة قوية امتدت تطبطب على كتفي، وصوت آخر كصوت النور إذا تكلم النور يأتيني من ملامح بدأت تتحرك وتنفعل وتعود إليها الحياة :

ـ أنت خفت يا أفندي؟ . . الله يجازي شيطانك . . قول لي بقى . . وردة عملت معاك إيه؟

* * *

وأنى لي أن أعرف أن الغريب يعرف عن زوجته الجديدة وردة كل شيء، وأنها نقاوة عينه التي أخذها على عيوبها وأنه رآها تغني في الأفراح مع الفرقة الموسيقية فأعجبته وعشقها وتزوجها بما يشبه القوة، وأنه يضعها في العزبة النائية كالطائر في قفص مفتوح يتحدى الرجال بها ويتحداها وتتحداه، وأن العلاقة بينهما ـ على رأي عم خليل الذي شرح لي كل شيء ـ كالعلاقة بين الجني المارد والمرأة في ألف ليلة يضعها في قمقم مفتاحه معه، وتحتفظ هي بصرة فيها خواتم من خانته معهم رغم كل قمقمه وأقفاله وجبروته . غير أن وردة لم يكن لديها صرة خواتم، وواضح أن الغريب أقوى أثراً من الجني المارد وأكثر حباً، فهو يقتر على نفسه وزوجاته وأولاده ويصرف عليها ويعفيها من أن تخلص له أو تتصرف بشرف، ويقول لها :

ـ إذا استطعت أن تفعلي شيئاً فحلال لك أن تفعليه .

وربما يقول هذا عجزاً، وليبرر لنفسه خطأها إذا أخطأت، ونار الشك تأكل قلبه وعذابه لا ينتهي، والسؤال المضني يلح عليه: «تراها استطاعت وأخطأت أم لا تزال عاجزة؟».

ولا يزال اسمه المرعب يحول بينها وبين الخطيئة.. وكلما ازداد شكه فيها وازداد شكاً في نفسه اندفع يثبت لنفسه وللناس أنه قادر جبار، واندفع يضرب ويبطش ويبسط نفوذه على الجيرة وجير الجيرة ويجعل من اسمه ـ من الغريب ـ القمقم الرهيب الذي يحول بينها وبين الرجال ويحول بين الرجال وبينها. من أين لي أن أعرف أن الغريب اختارني بالذات ليرسلني لوردة لا لشيء إلا لأكون كالطعم الحي يمتحن به حالتها ويتحداها بي، وليريها أنه وهو بعيد قادر على أن يشل ارادتي أنا ويضحك عليها بي؟ ومن أين لي أن أعرف أن وردة كانت تعلم أني آجلاً أو عاجلاً سأنهار وأحكي للغريب كل شيء، وأنها فعلت كل ما فعلته معي وهي متأكدة أن الغريب سيعرفه؟. فعلته تحدياً ورداً على تحديه؟ أنى لي أن أعرف أني كنت كالرسالة الحية المتنقلة التي أرسلها الغريب يسألها فيها عن أحوالها ومبلغ خضوعها له، وأنها أرسلت اليه الرد مكتوباً على نفس الرسالة ـ عليّ أنا ـ ردها المعتاد المملوء بتحديه وثورتها عليه؟ أنى لي أن أعرف أن الغريب اختارني بالذات ليثبت لوردة أن نفوذه عليّ أشد أثراً من كل أنوثتها وجمالها، وأنها أرادت بما فعلته أن تثبت العكس؟

أنى لي أن أعرف هذا كله؟

***

أمـا ليلتها فكـل ما فعله الغـريب وأنا أحكي لـه ما حـدث أنـه استمـع إليّ وهـو يضحـك، ضحكـات لا شخشخـة في آخـرهـا كضجحكات صبي مراهق سعيد بنفسه ورجولته.

وسألني حين انتهيت بقليل من الجد:

ـ طيب يا فندي دي لـو كانت مـراتك وعملت كـده كنت تعمل فيها ايه:

قلت بغضب حقيقي:

ـ كنت قتلتها من زمان.

فقال:

ـ كدهه.. هو القتل بالساهل كده؟

قلت بدهشة:

ـ بالنسبة لك على الأقل لازم يكون حاجة سهلة.

فقال وهو يعود يخفض رأسه:

ـ قتل الناس حاجة وقتل مراتـك حاجـة تانيـة.. مين عارف.. بيتهيأ لي أن كل واحد تلاقيه بيفكر ساعات يقتل مراتـه.. بس العيب انه ما بيرسيش على رأي.. ساعة تقول خلاص معدش فيها أمل يالله ادبحها.. وساعة تقول يا واد يمكن تصلح.. وتفضل متـردد بين كده وكده لغاية آخر يوم من عمرك.. لو كان الواحد بيرسي على رأي كان كل واحد زمانه قتل مراته من زمان..

ولم أفهم ما يريـده بالضبط، كـل ما فهمتـه أنه يـريد مـراوغتي وأنها ليست طريقته، وأني لأول مرة أراه يتساهل في أمـر خاص بـه، فقلت:

ـ كان بيتهيأ لي انك مش كده.

فقال بنصف ارتفاعة من رأسه، وبصوت حائر بين الجد والهزل: ـ

ـ بكره تكبر، وتعرف، وتقدر. .

وعـاد رأسه إلى الانخفـاض، وأحسست به هـذه المرة مـدلدلاً ورقبتـه كـالعلم الحـائـر المنكس، وكــدت أشفق عليـه وأضيق بـــه وبـالجلسـة وأقــوم واقفـاً لأروح، لــولا أنـه فجــأة شب من جلسته كالملسوع وكأنما استطالت أذناه وارتفعتا إلى فوق كـأذني كلب أحس بالخطر، ثم وجدته يقول في صوت يلهث بغير جري:

ـ خد توبك في سنانك وطير. . وأوع تبطل جري إلا امـا تحصل الدار.

ـ ١٠ ـ

وبينما كنت أقضي ليلة محمومة أتقلب فيها على لذع اضطراب غير مرئي أتساءل عما دعـاه لأن يأمـرني بالجـري، وأحيانـاً أعود إلى الحـديث الـذي دار بيننـا وأحـاول أن أوفق بين صـورة الغـريب كمـا تصــورته والغـريب كما وجـدته، الغـريب القادر والغـريب العـاجـز، الغريب الذي يخيف الدنيا والغريب الذي لا تخافه وردة أولى النـاس منه بالخوف، بينما كنت في هـذا كان الغـريب يقضي ليلة من أتعس

لياليه كما علمت في اليوم التالي. . فقد كان إحساسه مضبوطـاً، وكانت داورية مكبرة على رأسها المأمور بنفسه قـد خرجت للبحث عنـه وفي حقول الأذرة بالذات، ولو طال كلامنا قليلاً ،أو لو كان سمعه أقل حدة لأطبقوا علينا.

وفي الليلة التالية ذهبت إلى الغـريب ومعي البطيخـة التي كان قد ذكر أن نفسـه فيها وشققتهـا لتبرد وجلست أنتـظر، وطال انتـظاري دون أن يـظهر. وأخيـراً قنعت من الغنيمـة بـالتهـام مـا استـطعتـه من البطيخة ودفن الباقي في الأرض، ثم عدت وأنا حائـر أأفرح لانقـطاع الخيط الذي كان يربطني به أم أحزن. كـانت معرفتي بـه على الرغم من قصـرها قـد أشبعت قليلاً من نهمي لمعـرفته، ولكنهـا ـ وهذا هـو المهم ـ لم تكن قد حققت الشيء الوحيد الذي أردتهـا أن تحققه، إذ لم يعلمني الغريب القتل كما حلمت بل كـدت أؤمن أنه هـو نفسه لا يعرف كيف يقتل.

وانقضت أيام قليلة، ربما يومان ربما ثلاثة قبل أن أصحـو ذات ليلة على طلقة مكتومة صكت الحائط المجـاور لفراشي. انتبهت من نومي تماماً وأصخت السمع هنيهة وإذا بطلقة واضحة ثانية تـأتي على هيئة حصاة صغيـرة تأكـدت أنها قـد قذفت عن عمـد لتصيب نافـذتي دون سواها وتناديني. وتساءلت من تراه يكون فالغريب لا يعـرف بيتنا على وجه التحديـد، وحتى إن عرفـه فكيف يعرف حجـرتي والنافـذة التي أنام بجوارها. اعتدلت برأس أفرغه الاضـطراب الشديـد من كل محتوياته فغدا كالصندوق الفاضي الذي يـرن لأقل حـركة أو خـاطر،

وفتحت النافذة باحتراس، ومن شبه الظلام المخيم خارج البيت سمعت كلمة آمرة هامسة واحدة:

ـ انزل.

ثم أعقبتها أخرى:

ـ وهات الطلياني.

كلمات لمع في الظلام فحيحها كنصل صوني حاد ثم اختفى، وكاد كل شيء في الخارج يعود إلى السكون المظلم الذي كانه لولا أني لمحت أكثر البقعات سكوناً وظلاماً تتحرك وتتشكل على هيئة شبح، ثم تمشي آخذة طريقها إلى الغيطان.

والواقع طغت فرحتي على كل شيء. على اضطرابي وإشفاقي أن يكون ما حدث قد أيقظ أحداً من أهل بيتنا، خاصة أبي ذلك الذي يستيقظ لأقل همسة. وكانت الفرحة لا تزال تعصف بي وأنا أتحسس طريقي إلى العشة الكائنة أسفل برج الحمام حيث أخفيت المدفع الايطالي الصغير الذي أعطانيه الغريب. كنت خلال الأيام القليلة التي انقطعت فيها صلتي بالغريب قد بدأت أعود إلى حياتي التافهة الخالية من الأسرار والليل والأحداث، وما أعظم ما بدا الفارق.. وما أكثر ما جبت الأذرة لعل الخيط يعود مرة أخرى ويصلني به، وها هو ذا قد عاد بنفسه وبصورة ألهبت خيالي..

طغت فرحتي على كل شيء، وفي غمضة عين كنت أقف أمامه حيث تعودنا أن نلتقي، ألهث وأحدثه عن البطيخة وأناوله

المدفع وأضع الظروف أمامه في الخزانة الفارغة كما علمني . . وحين سيطرت على انفعالاتي وبدأت أنظر اليه أدركت مشدوهاً أني أمام غريب آخر، أمام انسان قد انعدمت كلماته ولم نفسه وتجمعت شخصيته في بذرة ارادية واحدة، وكان في سحنته شيء لم أره من قبل . . حماس ربما جنون، روح جديدة تلبسته، شيء أسكت ثرثرتي مرة واحدة فأرغمني على أن آخذ دور الجندي الذي ينتظر أوامر قائده ويدرك أنها أوامر خطيرة بالتأكيد لها ما بعدها .

وبالفعل صح ما توقعته، فقد وجدته بلهجة حامية سريعة وخطيرة :

ـ تروح والا تيجي معايا؟؟

قلت بسرعة :

ـ آجي معاك . . بس على فين؟؟

ـ ما تسألش . . يمكن نقتل . . يمكن ننقتل . . تيجي معايا؟ .

قال هذا ودون أن ينتظر إجابتي فرق بيديه عيدان الأذرة ونفذ بجسده القصير بينها .

وكنت بعد ثانية تردد أتبعه .

- ١١ -

ولم أحاول مرة أن أجره للحديث أو أسأله، كان يبدو كالمقاد إلى هدف قوي بعيد يجذبه ويعيشه ولا يدع له وقتاً للكلام أو

الوقوف، ويتخطى بي كباري ويلف حول خلجان ويزحف على يديه في بطون أحواض وكأنما هو لا يراني أو يسمعني أو يحس أصلاً بوجودي. في الأحيان النادرة التي تكلم فيها كان يقول:

ـ ايه.. هيه.. بتقول ايه؟؟

فاذا حاولت استيضاحه أجابني بغمغمة أدرك معها أنه مستغرق في تفكير من العبث أن أحاول استخراجه منه. كان الليل هائلاً كبيراً كخيمة مأتم كللت بالسواد حداداً على وفاة النهار، وليس فيها سوى أنوار قمر شاحب ونجوم أضيئت لتهدي المعزين. وكانت الغيطان واسعة ممتدة أوسع من غيطان النهار.. نترك حقول القمح المحصود لندخل حقول الأذرة ونخرم وسط أقطان ونرقب خيالاتنا المعتمة في الأرض الغارقة بالماء تنتظر زراعة الأرز. أرض كثيرة شاسعة وممتدة، كل شبر منها مزروع ومعتنى به وعرق من أجله هؤلاء الغلابى الراقدون في بيوتهم وكأنما ناموا من الحزن، يتقلبون في انتظار أن يأتي النهار ويغترفهم بقبضته ثم بكل عزمه يبذرهم ليفرش بهم وجه الأرض فيقلبوا سوادها خضرة وخرابها عماراً وطميها خبزاً.. إلى أن يجيء الليل وبمنجله يحصدهم وبأسراره وخفاياه يخزنهم في صوامعهم الآدمية المصنوعة هي الأخرى من الطين. ما كان أبعدنا عن أولئك الذين يبذرهم النهار ويحصدهم الليل وتنبتهم الأرض ليعودوا ينبتونها، ما كان أبعدنا عنهم وهم نائمون، بعيدين ينعمون بطاعتهم الشاملة للكون وأرضه ونهاره وليله، ما كان أبعدنا ونحن نخترق عالمهم وجهدهم في استخدامه

وتجميله، الغريب أمامي قصير صغير اليد قوي الذراع. . الذي ناضل حتى أفلت من قبضة النهار ومنجل الليل، ويريد أن يخضع الكون لنواميسه وليكون له على الناس سلطان الكون ونواميسه فيخشونه كما يخشون الله والآخرة وبرد طوبة، وأنا وراءه أتأمل حجمه الصغير حتى المدفع المعلق في كتفه، وأتأمل حجم الليل الكبير وأجده أحياناً أضأل كثيراً من أن يملك زمام الليل ويصبح سلطانه.

ولكننا لم نكن وحدنا. . كان يحدث أن أسمع الغريب يغمغم بخفوت ثم يقول:

ـ دستوركم يا رجالة.

وأتفرس حينئذ فيما حولي وبالكاد ألاحظ رجلين أو بضعة رجال قد انتحوا من الليل ركناً تحت كوبري أو في مدار ساقية، لا تدري لأي شيء هم جالسون ينتظرون، ولا لأي هدف يتحدثون في صمت ويتشاورون، ولا ما الذي جعلهم يتركون هم الآخرين مضاجعهم ويسهرون في تلك البقع المخفية ورغم هذا الليل الشامل البهيم؟ ولكني كنت أهز رأسي وأقشعر وأقول هم أولاد الليل الحريصون على تقاليد الليل حرص الغريب، والذين حين يحييهم تحيته تلك يأمنون ويؤمنونه، وكأنما القى عليهم كلمة السر ويردون عليه قائلين:

ـ دستورك معاك.

وفيهم أيضاً كرم الفلاحين فما أكثر ما كانوا يردفون:

ـ اتفضل.

وما أكثر ما كنت أفرح وأنتشي حين يلحظون وجودي ويقولون:

- دستوركم معاكم، اتفضلوا يا رجالة.

شيئاً فشيئاً وبعد توغل طويل في الليل وغوض أكثر في ظلامه ولقاء لأبنائه بدأت أرى الغريب بعين جديدة، بدأت أراه بعين الليل الذي نحن فيه فأحس أنه مع الليل أكثر انسجاماً وكأن كلاً منهما جزء متمم للآخر.. حتى ليستحيل على المرء أن يتصور الليل بغير الغريب والغرباء زملائه، أو يتصور الغرباء بلا ليل يحجبهم ويسترهم ويحيون في كنفه.. هؤلاء الهاربون من أبوة النهار الواضحة إلى أبوة الليل الخفية، هؤلاء الذين يجذبهم الليل بكل وضوحه وقانونيته،

يراهم ويرى ألفتهم مع الليل وترويضهم لوحوشه يخيل اليه أنه من ستحيل أن ينتهي أمرهم حتى ولو ملأ العمران كل الأرض، سيظل ؎ أولاد ليل ما دام هناك ليل وما دام لليل سحره وجاذبيته التي لا تقـ م، فما ذنبهم؟ الليل هو الذي يجذبهم ويخلقهم وينتزعهم مز لنهار وسيظل الليل يخلقهم ما وجد هناك ليل وما ظل الماء يخلق الـ لك والصحراء تخلق الرعاة والغربة تخلق الحنين. منذ الأزل كان ـاك الغرباء وإلى الأزل سيظلون. ومنذ الأزل وأشـد العقاب ينز بهم ويهلكهم ورغم العقاب يعودون يوجدون. فكما فقد الليل غريباً ـذب من أهل النهار آخر.. ربما لكي تظل الدائرة تدور ولكي يظل هناك أهل ليل وأهل نهار، ولكي يظل أهل النهار هم الكثرة وأهل الليل قلة، أو حتى ربما لنظل من أهل الليل أو النهار عن طواعية واخـ .

حين أوقفني الغـريب بـذراعـه وواجهتـه وراح يتفـرس فيّ.
تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يمنع رجلاً كهذا أن يقتلني والبقعة نائية، ولن يشهد فعلته أحد سوى الليل الذي لا يرى ولا يسمع ولا يفتن؟ والحجة موجودة - حكاية وردة - بل حتى بلا حجة، ما الذي يمنعه من قتلي إلا أنه يعرفني؟ آلان بيني وبينه صلة هي التي تجعلني أحس بالأمان؟ من يدري؟ ربما لو عرف الناس بعضهم بعضاً معرفة وثيقة ما جرؤ أحد على قتل أحد.. ما خاف أحد من أحد. كنت أفكر في هذا حين سألني الغريب بصوت أجش قد خشنه الصمت الطويل وبله الندى:

- انت خايف؟

قلت على الفور:

- لا.

قال:

- مستعد لأي حاجة؟

قلت على الفور أيضاً:

- أي حاجة ايه.

ولم يجب.. تأملني مرة أخرى وقال:

- شايف النار دي؟

ولم أكن قد رأيت ناراً ولكني حين تلفت وجدت قبضة بعيدة كالجمرة تحسبها عين ذئب وحيد العين.

- عارف مين هناك؟

ـ مين؟

ـ شلبي .

ـ شلبي مين؟ .

ـ صاحبي وحبيبي ـ أنا جاي أقابله أصلي ما شفتوش من زمان ونفسي هفتني عليه .

وشرح لي الغريب المطلوب مني . قال إنه يريد أن يخيف شلبي والرجل الجالس معه أمام النار يشويان الأذرة وتملأ رائحتها الجو . كان عليّ أن آخذ المدفع معي وأمشي باحتراس حتى أصل منهما ثم أخرج عليهما فجأة وأقول :

ـ بتعمل ايه يابن الكلب انت وهوه؟ . .

وعليّ أن أطمئن فسرعان ما سيظهر هو ونضحك جميعاً على ما حدث ونجلس معهم نشوي الذرة ونأكلها . .

وفي الحقيقة ظل قلبي يخفق وكأنني ذاهب إلى حتفي والمدفع يرتجف في يدي حتى اضطررت لإمساكه بيديّ الاثنتين وأضغطه في كتفي ، وببطء شديد رحت أتقدم ، وخيل إليّ أن وقتاً طويلاً قد مضى قبل أن تصبح المسافة بيني وبينهما كافية لأن أراهما وأرى وجهيهما . كانا اثنين أحدهما شاب وسيم يرتدي طاقية صوف معوجة في عياقة على رأسه ، والآخر كان واضحاً أنه خفير نظامي فقد كانت بندقيته راقدة بطولها على ساقيه المتربعتين ، وهو مشغول بالهف على النار وتقليب الكيزان ، بينما الأول جالس وقد أحاط ساقيه بيديه وعلى وجهه علامات تفكير .

ولولا خوفي من الغريب لضربت فوقهما طلقة في الهواء، فقد كان المدفع معبأ في يدي يغري بالإطلاق.. وإطلاق الرصاص من بعيد أسهل بكثير من أن أواجههما.

ظللت أتردد وأرتجف حتى رأيت شبح الغريب يطل من باب الحظيرة خلفهما.. وحينئذ فقط ـ وكأنما أصدر لي أمراً غير مسموع، وجدت نفسي أنطلق كالثور الهائج أصرخ وأدوب بأقدامي وأخترق المسافة الكائنة بيني وبينهما في قفزات واسعة ألقتني في لمحة البصر أمامهما لا يفصلني عنهما إلا النار المحمرة الخافتة، والمدفع في يدي أصوبه بحماس بالغ مضحك.. ولكن الحيلة نجحت بأكثر مما توقعت فقد ارتدا إلى الخلف في جزع حقيقي، بل اندفع الخفير يصرخ وكأنما فقد عقله.. غير أن هذا كله استغرق.. لم يستغرق في الحقيقة أي زمن وكأنه لم يحدث بالمرة.. إذ في نفس الوقت تقريباً كان شيء آخر يحدث.. أفظع وأبشع شيء شاهدته أو سأشاهده في حياتي..

والكارثة التي لا خلاص منها أني شاهدته بعيني هاتين.. رأيته ولم يكن أمامي إلا أن أراه.. إلى هذه اللحظة بإمكاني أن أتذكر الغريب وهو يتقدم ليصبح خلفهما مباشرة، وبإمكاني أيضاً أن أتذكر يديه حين ارتفعتا عالياً فوق رأسه، ولكني لا أذكر أبداً أني رأيتهما تهويان. كل ما أذكره هو ذلك الصوت الذي لم أسمعه قبلاً والذي لا يشبه أي صوت من أصوات الوجود الأخرى، صوت كصوت كسر البيضة بالبيضة إذا كانت البيضة في حجم الرأس.. كصوت الحديد

المحمي حين يطش إذا وضع في الماء.. ما أذكره هو.. طس.. وإذا بالشاب العايق يقوم نصف قومة ولكنه لا يعود للجلوس، ترتفع ساق من ساقيه في الهواء ثم تبدأ تهبط على دفعات متقاربة وكأنها عقرب ساعة نطاط، وكذلك راح رأسه يهبط.. ولكنه لم يكن نفس رأسه، كان قد تحول إلى كتلة وقسم إلى قسمين بينهما شيء لامع أسود تنخلع قلوب أكثر الرجال شجاعة إذا عرف أنها بلطة قدغورت في الرأس ووصلت خلال إحدى العينين إلى الوجنة..

- ١٢ -

لم تستغرق العملية كلها سوى ثوان ولكنها أخذت من عمري سنين أستعيدها وأتأملها وفي كل مرة تخاطبني نفس الأحاسيس وأرتجف تحت وقع القشعريرة نفسها وأدوخ كما لو كنت أنا الذي شطرت البلطة رأسه..

ترى، أية قوة خفية تجعلنا نتألم إذا رأينا الغير يتألم؟ ونكاد نموت إذا رأيناه يموت؟ الشاب لم أكن أعرفه أو لي به صلة، ومع هذا فقد ظل مصرعه يطاردني ويعذبني.. وكأني أنا القتيل، بل كان يصل عذابي إلى درجة أكبر.. وكأني أنا القاتل!

وإذا كنت قد روعت مرة لما حدث للشاب ليلتها فروعي كان أكبر للدقائق القليلة التي أعقبت موته، وبالذات لرؤية وجه الغريب.. وجهه حين انتزع البلطة من مكانها الموغل في عمقه

وبشاعته ووقف يلهث ويستند اليها. . ويقلب نـظره بيني وبين الخفير الذي كان قد تمدد على الأرض لا نعرف إن كان اغماء أو رعباً أمـاته وأوقف قلبـه. . يا لـه من وجه! . . ويـا لبصابيص النـار حين أضاءتـه وجسدت خلجاتـه وجعلت قشعريـرتي تتحول إلى رجفـة مسموعـة لا يمكن ايقافها. .

عيناه. . عيناه الضيقتـان ما رأيتهمـا أبداً بهـذا الاتساع، بـل ما اعتقدت أبداً أن أي عين بشرية يمكن أن تتسع وتستدير وتصل إلى ما وصلت اليه عين الغريب. . لـو كان الغـريب هو المقتـول لما أوصـل الرعب عينيه إلى هذه الدرجة من الاتساع، ولما حدث لوجهه كل ما كان يعانيه من شحـوب. . وكأنمـا الضربـة التي فلق بها رأس الـرجل قـد فتحت باباً سرياً لـه منه مـارد أو جني ووقف قبالته يمسك هـو الآخر بلطة ويهم بتصويبها إلى أم رأسه. . لابد أنه كان يرى فعلاً شيئاً كهذا وإلا لماذا كان يسيطر عليه كل ما كان مرتسماً في عينيه ونظراته الزائغة من رعب؟. ولابد أنه كان في تلك اللحظة بالذات فاقد الإحساس بنفسه وبما يفعله، فقد كان يدير رأسه وينقل البلطة من مكان لمكـان ويلف ويدور ويفعل هذا بحركة شيطانية سريعـة ما عهـدتها فيـه وليست من خصائصه، وكأنه قد أصبح غريباً آخر غير الغريب الذي صـاحبني في رحلة الليل، أقسم أنه كان غريبـاً آخر. . غـريباً لم أستبعـد أن يرشق بلطتـه في رأسي بـلا سبب، أو يـرفعهـا ثم يهـوي بهـا على الخفيـر الممـدد فيقسمه نصفين. . كـان واضحاً أن بـاستطاعتـه أن يفعـل أي شيء وهـو في حالتـه تلك التي لا يـدري فيهـا بمـا يفعله، بـل كـان

واضحاً أنه وصل إلى درجة لا يمكن ايقافه عندها وإنما عليه أن يستمر يبطش ويقتل ويكسر الرؤوس، وكأنما ليدافع عن نفسه ضد هذا الشيء الخارق المهول الذي كان منتصباً أمامه يخيفه ويرعبه ويفقده من الرعب والخوف عقله..

وباستطاعتي أن أقول إنني والخفير قد نفذنا من تحت بلطته ليلتها بمعجزة. لقد كاد يدفعني وعيي لأن أضغط على زناد المدفع كما علمني ولا أتركه حتى يفرغ في جسده كل رصاصه.. كنا أربعة كائنات حية تسيطر عليها أقصى درجات الرعب.. رعب القاتل لا يقل عن رعب القتيل.. ورعب الخفير الفاقد الوعي من الرعب لا يقل عن رعب الغريب.. ورعب القاتل المحترف لا يقل عن رعب الصبي الخام المغامر، وكلنا في حالة دفاع عن النفس.. أنا مستميت على المدفع والغريب مستميت على البلطة.. مستميت في البحث كالمجنون عن الشبح الذي يرعبه.. والخفير متشبث بإغمائه يحتمي به ولا يريد أن يفيق، ولو خير القتيل نفسه لاستمات على ميتته مفضلاً ألف مرة أن يموت مرة ولا يعود للحياة ليواجه ميتة البلطة مرة أخرى.. وحتى النار الموقدة كانت تقاوم الفناء بإحراق كيزان الأذرة وشيها.. والكيزان تقاوم النار ويدفعها الرعب عن المصير المحتوم لأن تئز وتشكشك وتفرقع حباتها أحياناً وكأنها تستصرخ النار بآخر رمق وتطلب النجدة.. رعب كامل من الموت وتشبث كامل بالدفاع عن النفس في وسط ليل قد اشتدت ظلمته في محاولة أخيرة للوقوف أمام النهار الطالع، والشاهد الوحيد المحايد قمر أفطس الأنف مخنوق

كالمشفق علينا مما نخوضه. . كالحزين على المصير.

حتى بدأنا نشم رائحة لحم آدمي مشوي تختلط برائحة الذرة المشوية وتملأ المكان. .

***

وفجأة، بدأنا نتحرك. .

وبدأت الحركة بضربة من قدم الغريب أعادت الخفير إلى صوابه وأوقفته. . وتعاون الرجلان على حمل القتيل وإطفاء النار التي كانت قد بدأت تسري في لحم ذراعيه وملابسه. . وحملت أنا المدفع والبلطة وسارا أمامي بحملهما. . ولم نذهب بعيداً فبعد بضعة أمتار وصلنا إلى ساقية مهجورة. . واحدة من تلك السواقي التي كانت تستعمل لاستخراج الماء من جوف الأرض حين يشح ماء النيل والتي بطل استعمالها من زمن ونبتت حولها الحشائش وأصبح ماؤها آسناً له لون الزيت المعدني ورائحته لتبدأ تدخل في حوزة الليل وأبنائه، تؤخذ عندها المواعيد وتخفى في مياهها المسروقات، وحتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أنها تستخدم أيضاً كمقبرة لمن لا يستحب أن تحويهم المقابر. . مقبرة تلقى فيها الجثة بعد ربطها بحجر. . وتتكفل مياهها بالتهام لحمها وعظامها وما ترتديه في أيام!

وعدنا في موكب صامت، أنا في المقدمة والخفير وسطنا والغريب في المؤخرة. . وقد انتقلت اليه البلطة والمدفع. وسرعان ما

اختفى الخفير بعد أن تبادل معه الغريب همسات وأكملنا السير وحدنا . .

وظللنا فترة لا نتحدث، وكان الغريب أول من نطق، وبدأ كلامه بنبرة عادية وبلهجة حاول فيها أن يعتذر عن اضطراره لإشراكي في تلك اللعبة الخطرة، فقد كان لابد له من قتل شلبي . . ولم يكن أمامه من يستعين به سواي . .

وبكلمات أخرى قليلة حكى لي قصته مع شلبي الذي لم يكن مجرد مساعد له أو عضو في عصابته ولكنه كان صديقه وأخلص خلصائه، صداقة بدأت بخناقة في سوق الأربعاء . . واستمرت عشر سنوات، ووصلت إلى حد أن سلم له الغريب نفسه واسمه وماله وهو مؤمن أنه يسلمها لصديق . . صديق لم يشك في اخلاصه حتى ذلك اليوم الذي واعده فيه على اللقاء عند نفس الساقية التي تركناه فيها من هنيهة . والتي وجد نفسه بعدها محاصراً بخمسين بندقية ميري وبمسدس الضابط فوق رأسه، لم يداخله الشك ساعتها بل حتى لم يشك حين أخذوه هو في «البوكس» وتركوا شلبي . . أنى له أن يعرف أن الحسد كان يأكل قلبه طوال هذه السنين، وأنه ظل يدبر الخلاص منه ليستولي على العصابة، وعلى ما هو أهم من العصابة . . على وردة . . وأنه هو الذي اتصل بالمأمور ودبر معه الخطة؟ .

لم يكن الغريب يحكيها كحكاية . . كان كأنما ينزف أو يتألم . . وفي أحيان كان يسكت ثم يقول فجأة وهو يطحن أسنانه بأسنانه : دا الطاقية اللي كان لابسها ليلة الساقية طاقيتي، اشتريتها

باتنين جنيه من واحد عرباوي وعجبته فحلفت أن يأخذها . .

ويضحك فجأة ويقول :

ـ انت عايز الحق . . الحق مش هو اللي غلطان . أني الغلطان . . بقى عايز في صنعة اللي بيشتغلوا لصوص وقتالين قتلة تتوجد خلصانية والا صداقة؟ كفيش كلام من ده . . في الليل كل واحد ونفسه . . واللي يسلم دقنه لغيره ما يلومشي على اللي يصح له .

ثم يلتفت اليّ مرة ويحكي لي كيف دبر مقتل شلبي بنفس الطريقة التي دبر بها شلبي تسليمه . . وفي نفس المكان تقريباً . . وبنفس السلاح . . الصداقة والاخلاص . . فالخفير خفير العزبة التي فيها وردة ، وقد اندفع شلبي لصداقته والإغداق عليه ليتركه يحوم حول وردة ويدبر معه أمر خطفها . تلك الليلة بالذات كانت موعد الاختطاف ، وكان شلبي والخفير جالسين ينتظران مقدم رجلين آخرين من العصابة ومعهما المطايا لتنفيذ الخطة . والشيء الذي لم يعرفه شلبي أبداً أن الخفير باع سره للغريب . . والشيء الذي لم يعرفه الخفير أبداً أن الأمر سيحسم بالبلطة . .

وبينما الغريب يتكلم وأنا مندمج أسمع كلامه كان خاطر يلح عليّ إلحاح الناموسة : ترى ماذا يقول أبي الذي لا يفوته الفرض لو تكشف له الغيب للحظة وعرف ما أفعله ساعتها ، وما شاهدته ، والرجل الذي أسير خلفه ، وبحديثه أغوص في ذلك العالم الشاذ

الغريب وألم بتفاصيل أتفهها يخلع القلب ويوقف الشعر؟ . .

وربما إلحاح الخاطر هو الذي شغلني عن أن أدرك أننا كنا طوال الوقت قريبين من عزبة وردة وأننا قد أصبحنا على أبوابها.

وربما هو أيضاً الذي صرف أنظاري عن الغريب بحيث لم أفطن إليه إلا وقد جلس وجذبني من جلبابي وقال:

ـ بص كده مش ده دم؟

وحين أمعنت النظر كانت يده بالفعل تقطر دماً، وكلما تحسس فخذه وأخرجها تكاثر الدم، وحين عراها ظهر الجرح.. جرح بشع متهتك وكأن شيطاناً مسعوراً قد نهش فخذه.

إحدى ضربات البلطة لابد قد أفلتت وأصابته وهو يخلص على شلبي . .

- ١٣ -

وعولج الجرح طبعاً. . قام بعلاجه الدكتور معروف الذي أخذ الطب بالممارسة. . والذي كان يعمل حلاق صحة اسماً. . بينما شهرته كطبيب ملء الأسماع، حتى كانوا يقولون إن يده النحيفة المعروقة التي تشبه في ليونتها ورقتها أيدي النساء أنجع من أيدي عشرات الأطباء الحقيقيين.

. . وقصة علاجه نفسها ودوري فيه قصة طويلة تصلح وحدها

رواية، يكفي أن أقول إنها تمت تحت الكوبـري المتحرك حيث كـان الغريب قد قـرر أن يقيم إلى أن تشفى ساقـه. . ولـم أكن أتصـور أن تحت الكوبري سيكون بهذا الأمان والاتساع. . وأن بـإمكان الانسـان أن يعيش شهـوراً تحته دون أن يـدرك المار فـوق الكوبـري من أمـره شيئاً. . لم أكن أعتقد أن الأمر سينقلب إلى متعة وتجربة جديدة مثيرة يحياها الانسان وهو منحن كأنه يحمل الكوبـري فوق كتفيـه، ويحس بمشاعر غريبة والماء يجري بجـواره وتحت هذا الارتفـاع المنخفض، والأصوات ترن في مزيج من صدى الأرض والحديد ورخامة الماء. . أيام كثيرة قضيتها أحيا مع الغريب تحت الكوبري وقد انقطعت صلتي بالعالم وبدنياي وعائلتي، وكأن لم تكن لي في يـوم من الأيـام حيـاة أخرى غير تلك. . انقطعت هكذا من تلقـاء نفسها. . ودون أي قـرار مني أو نية. . وقد أصبح شفاء الغريب هو كل ما أحفـل له وأحيـا من أجله. . ومـا أعمق الصلة التي نشأت بيني وبينـه في تلك الفترة وأنـا أراه عن قرب ضعيفاً قـوياً، عمـلاقاً ومتـألماً، نـادر الكلام وصـاحب حكمة. . ما أكثر ما في صدره من أسرار وما أقل ما يفضفض بها! . .

ولكني لا أزال أذكـر من حـادثــة عـلاجـه لحـظة لا يمكن أن أنسـاها، تلك التي كـان يتهيأ فيهـا الدكتـور معروف لإعـطائـه حقنـة المخـدر الموضعي حين بـدأ وجه الغـريب يشحب أمام عيني وعـرقه ينبت وعيناه تتسعان ونظراته تروغ. .

تساءلت لحظتها لم كل هذا؟ حسبته أول الأمـر من مضاعفـات الجرح. . ولكن معروف حين نسأله:

ـ انت خايف والا ايه؟ ونفى الغريب بسرعة وبشدة أدركت ما لم أكن على استعداد لتصديقه أبداً. أن الغريب الهائل المهول بكل هيلمانه وجبروته خائف كأي طفل من الحقنة، أكثر من هذا حين هم معروف بغرز الابرة في جلده وجدته يستمهله ثم يشخط فيه ويأمره أن ينتظر حتى يلتقط أنفاسه، ثم يستسلم أخيراً ليعود يتراجع وينسحب إلى الخلف حتى يوقف حائط الكوبري انسحابه، ويستعمل معروف الإرغام حينئذ فيمسك بجلده بقوة ويغرز فيه الابرة.. ويا لها من لحظة روعت فيها بالغريب وقد انقلب شخصاً آخر، مجنوناً ربما، أو قطة تعاني من أقصى درجات الرعب على استعداد لأن تنقض وتغرز أنيابها وتنهش.. لحظة أعادت إلى ذاكرتي ما حدث للغريب عقب مصرع شلبي فعيناه فعلاً كانتا قد اتسعتا بطريقة غير بشرية، ونظراته قد أصبحت حمماً، والاصفرار لوّنه ولم يترك حتى أظافره وكأنه يرى مارداً هائلاً يهم بالانقضاض عليه والفتك به.. لحظة بلغ من بشاعتها أن الغريب حين انتفض مستديراً لمعروف عقب انتهاء الحقنة.. استدار بطريقة شيطانية مرعوبة حتى خلت أنه يستدير ليطبق على رقبة الرجل ولا يتركه إلا جثة هامدة.. لحظة طالت وامتدت وارتسم خيالها على الماء المتموج الجاري قريباً منا كلوحة خالدة مهتزة للانسان حين تقلبه أقصى درجات الرعب إلى وحش غاضب مخيف..

***

وفي ساعة راحة من الألم ناقشته في أمر وردة.. كان احتكاكي

بهـا قد ازداد في الفتـرة الأخيرة وازداد معـه اشمئزازي منهـا حتى بدأ يتحول إلى اشمئزاز منه. . كنت أشكو له منها فيهـز رأسه هـزة من لا يبالي ولا يهمه الأمـر. . ولم أكن أستطيـع أن أهضم أن يصـر رجـل مجرب خبير مثله على الاستحواز على امرأة مثلها لا تليق به ولا تقيم لسطوته حسـاباً. . كـان راقـداً ينش الـذبـاب عن وجهـه بمنشـة من الخـوص صنعتهـا لـه فـأغلق عينيـه، وأحسست أنـه خجـلان مني ومكسـوف ولا يجد مـا يقولـه ليبرر مـوقفـه. . ومـاذا يقـول؟. . ومن الواضح أنها لا تقيم لعلاقتهـا به وزنـاً ولا تحفل بـطلباتـه ورسائله. . والمـرة الوحيدة التي زارته فيها تحت الكوبـري كانت بـإلحاح شـديد مني ولأجل خاطري أنا. . وبثمن آه لـو عرفـه الغريب. . أغلق عينيـه طويلاً ثم فتحهما في النهاية ليقول لي انه خلاص قد انتهى من أمرها إلى قرار وانه سيـطلقها ويـدعها تـذهب لحال سبيلهـا. . . ولكني من الطريقة التي قال بها «قراره» عرفت أنه قد يكون مخلص النية فعـلاً. ولكن قراره هذا سيظل كلاماً في كلام ومع إيقاف التنفيذ. .

لمـاذا يصـر إنسـان كـالغـريب صـاحب السـطوة والنفـوذ على الاحتفـاظ بإنسـانة كـوردة؟ أهـو الحب كمـا يقـولـون؟ أم لكي تـظل كالشاهد الحي على عجز نفوذه وعلى أنه هو الآخر له حدوده مثل أي إنسان؟

القرار في الواقع جاء من ناحيتها هي حين ذهبت اليها في اليوم التالي فلم أجدهـا، وقال أهـل العزبـة أنها أخـذت ملابسهـا وكل مـا يخصها وذهبت، إلى أين؟ لا أحد يعرف.

وبحماس الصبية نقلت له النبأ غير عابىء بما قد يحدثه فيه، ولم أعتقد للحظة أن سيكون للنبأ مثل هذا الوقع، وأني بعد ساعات سأجد في عيون الغريب آخر ما يتصوره العقل. . دموعاً حقيقية.

المهم. . كان الجرح قد قارب على الشفاء ورائحته بدأت تحتمل، والغريب تمالك نفسه بعض الشيء وأصبح في استطاعته أن يتسلى في النهار بالسنارة واصطياد السمك حين ظللت أدبر في نفسي أمراً طول اليوم وأنتظر حلول الليل لأواجهه به. كنت قد ألقيت نظرة تأمل على حياتي فوجدت أني فعلت كمن رقص على السلم فلا هو صعد أو هبط، ولا هو أصبح ابن ليل أو عاد إلى دنيا النهار. بكل تهور تركت حياتي وأهلي وانضممت للغريب أجري وراء أحلامي فماذا فعلت بنفسي أكثر من أني بددت حياتي الواقعة، وبددت كذلك أحلامي، ولم يعد لي سوى دور الخادم أو الصبي؟ كنت قد وصلت إلى قرار ورحت أنتظر على مضض اللحظة التي أعلنه فيها.

وأخيراً جداً وبعد لأي جاء الليل ولم يكد العشاء يولي والليل تتدعم أركانه حتى طلبت من الغريب أن يسمعني. وأدرك بذكائه الفطري أني أعاني من أمر لا يحتمل فاستمع لي وطال اصغاؤه وتركني افضفض وسألني في النهاية عما أريد. وببساطة قلت له ما أريد. قلت له اني أريد منه أن يكون أميناً معي وأن ينفذ وعده ويحقق لي الأمنية التي دفعتني لترك حياتي ووضع نفسي تحت أمره، استمع لي أيضاً ثم سألني ـ وكأنه لا يعرف ـ ما أريده بالضبط. فقلت:

ـ ما انت عارف.. عايز اقتل..

ـ ما تقتل..

ـ ما اعرفش إلا ما تعلمني..

ـ القتل مش عايز علام. اللي عايز يقتل بيقتل..

هنا بدأت ألمح أنه سيعود إلى مراوغتي فاعتدلت أكثر، وبلهجة جادة أعني كل حرف فيها رحت أعيد قولي وأطلب منه أن يساعدني على تحقيق أملي لأحسم موقفي وأنضم نهائياً له وأصبح ابن ليل بحق وحقيق. وإلا فمعنى هذا أنه يستصغر شأني ويضحك عليّ ويستبقيني لأقوم على خدمته..

وعض شفلته السفلى تألماً وأغلق عينيه ثم عاد يفتحهما ويقول:

ـ طيب.. عايز تبقى واد ابن ليل يعني وتعمل حاجة ما يقدرش عليها أولاد الليل؟.. اقتلني.. أنا بقولك جد.. أحسن ما المأمور يقتلني.. وإني خلاص زي ما قال سعد باشا اني انتهيت.. اقتلني ويبقى اسمك اللي قتلت الغريب..

ولولا أني أحسست أنه لا يهزل وإنما يتكلم جاداً لترث وتركته في الحال، ولم لا أقول إني فكرت في اقتراحه للحظة؟

ولكني هززت رأسي هزة يائس.. وسكت مغيظاً لا أعرف ماذا أقول.

أما هو فقد ابتسم وطبطب على كتفي بغير خشونة، وكأنه

يطبطب عليّ بيد وردة وقال:

ـ طيب.. ما تزعلش.. ح نخليك تقتل زي ما انت عايز وتاخد الشهادة يا سيدي.. المدفع أهه.. وأول واحد بيجي ع الكوبري سوا من الناحيادي أو الناحيادي.. اقتله.

وانتفضت واقفاً من الفرحة انتفاضة خبطت رأسي في «كمرة» الكوبري الحديدية وكادت تفقدني الوعي، وهتفت والألم يعصف بي:

ـ بتتكلم جد؟

قال:

ـ ما دام بتتكلم على الجد فالحكاية معدش فيها هزار.. اني مبسوط منك لأنك أفندي كده ومتعلم وبتفهم كأنك ابني.. يمكن كان نفسي اني ابقى زيك واللا يبقى ابني زيك إنما ما دام انت عايز تبقى زيي أنا ومش عاجبك تبقى تلميذ، فخلاص معدش هزار.. يا ح تقتل أول واحد يفوت.. يا ح اقتلك أنا.. وده مش كلام أفندية.

ـ ١٤ ـ

وهكذا تركنا مجلسنا تحت الكوبري وزحفنا حتى بلغنا الحائط الذي يمتد من درابزينه، والمدفع الايطالي في يدي وكلانا قابع في وضع استعداد، وعيوننا تخترق الظلمة إذ كان القمر لم يطلع بعد لنلمح أول القادمين. وبهمس وبلهجة جديدة على أذني تماماً قال الغريب:

ـ لما تشوفه انس نفسك خالص وبص له هوه. . وما تنشنش إلا أما يقرب. . عند الشجرة اللي هناك دي. . وساعة التنشين اكتم نفسك خالص وخللي النيشان على وسط صدره. . ولما تضبط النيشان اضرب على طول. . اوع تتردد لحسن يقتلك هو. . لازم تعمل حساب انه مسلح وأنك إن ما أصبتوش ح يصيبك هو. . يا قاتل يا مقتول. . واذا خفت فكر ان بينك وبينه حاجة. . فكر ان ده اللي قتل أبوك حتى إن ما كانش أبوك مات. . فكر تمام كده وآمن بحق وحقيق انه هو اللي قتله. . واذا ما وقعش بعد الأولانية. . التانية على طول. . والتالتة. . وحتى لو وقع غير النيشان واضرب في المليان.

ولأول مرة في حياتي أجد نفسي أستمع لدرس يلقى عليّ وأنا متفتح كلياً لتلقيه، وآذاني تسمع وأصابعي تفهم وأنفاسي تعي ما يجب عليها أن تفعله، وروعة ما سيحدث قد طغت عليّ واكتسحتني. . وروعة ما يحدث تغرقني بنشوتها، فهاأنذا أخيراً جداً أتلقى أسرار أولاد الليل، وأتلقاها عن جدارة، فلولا ثقة الغريب فيّ وفي قدراتي لما رضي أن أصبح تلميذه، الغريب الرابض بجواري وقد بدأت تطرق صوته وحركاته ملامح الغريب الآخر، ملامح الغريب حين يقتل أو يهجم أو يقدم على أمر خطير. أما الشيء الذي لمحته وجعل العرق البارد ينبع من جسدي كله ورقبتي ويملأ بسريانه الملموس قناة ظهري، الشيء الذي رأيته وقلب نشوتي إلى رعب بارد لا رحمة فيه ولا هوادة، فهو البلطة التي لمحت الغريب يطبق عليها بيمينه ويخفيها عني بثيابه، البلطة التي أطاحت برأس شلبي

والتي تستعد قطعاً للإحاطة برأسي إذا فشلت فيما أنا مقدم عليه.

فجأة أحسست وكأني كنت أحيا طول الوقت بأحلامي في واد وجسدي في واد آخر، وأنه قد آن الآوان.. أتت اللحظة لكي أنقل جسدي وكياني لأرض أحلامي، وأن نحلم شيء وأن ننقل أجسادنا إلى أحلامنا شيء آخر، فما بالك إذا أصبحت حياتنا نفسها تتوقف على هذه الخطوة؟..

وقال الغريب:

ـ خد..

كانت سيجارة ملفوفة وكنت أرفض أن أدخن أمامه، ولكني أخذتها بيد ثابتة وأشعلتها ومضينا ندخن تدخين ند لند.. وأجبر نفسي على اعتقاد أنه تدخين ند لند..

وقال الغريب:

ـ بعد الحكاية ما تتم.. نمشي من هنا.

ثم صمت برهة وواجهني بعينين فيهما لمعة وقال:

ـ يمكن حظنا يبقى كويس ويطلع متريش.. على العموم بعد ما اتخلص عليه تروح ومعاك المدفع تفتشه وتجيب أي حاجة تلقاها وتمشي.. وأوعى تتلخبط ويقع منك انت حاجة وانت بتفتشه.

وهززت رأسي أطلب منه أن يطمئن..

ومر الوقت بطيئاً ونحن نمد أبصارنا بأكثر مما نستطيع علنا

نلمح ذلك القادم المجهول. .

وطال انتظارنا وأعصابي تزداد توتراً مع كل دقيقة منه حتى لم أعد في النهاية أستطيع، وهممت أن أقف أو أنفجر أو أصرخ لأخفف ما بي من بخار مضغوط، ولكني قبل أن أفعل وجدت يده الصغيرة تمتد إلى ذراعي وتضغط عليها، ووجدته يقول:

ـ الصبر. . طول بالك أمال. . قلت لك انس روحك خالص. . انت لما بيعلموك ركوب العجل بيقولوا لك ايه؟ مش بيقولوا بص لقدامك، بص لبعيد؟ . . وانت اياك تبص لروحك. . تضيع. . . خللي همك في اللي جاي. .

وكأن كلماته تحفل بالسحر فقد وجدت الضغط يخف، ووجدتني أهدأ وأعود أنظر أمامي. .

وطلع القمر ومضى نوره الأول الذي يشبه نور الشروق، وبدأت شعاعاته تبيض وقرصه الناقص يصعد قدماً في السماء حتى كاد يتوسطها، وكأنه «كلوب» علق من سقف الدنيا وكأنه شمس الليل أشرقت، فقد وجدنا ليل الليل يغيب ونهار الليل يحل والظلمة الكاملة تستحيل إلى نور غير كامل، والطريق الزراعي المؤدي إلى الكوبري، والطريق الممتد منه والزرع القريب والأشجار البعيدة. . وجدتها كلها تظهر نصف ظهور وتتضح نصف اتضاح. .

وطال تأملنا لكل ما حولنا ولكل ما حل بالكون من تغيير،

وكذلك طال ترقبنا لنلمح وسط هذا السكون الشامل حـركة. . مجـرد حركة. .

وأول ما حدث أن دق قلبي دفعة دقـات متتابعة سـريعة أعقبهـا خفوت وصمت وكأن لم يعد يصدر عنه صوت، وأعقب هـذا مباشـرة صوت بعيد ساحق في بعده. ولكنه كان يغني. .

وعاد قلبي يطلق دقاته من جديد.

وخيـل إليّ أني انتظرت عـاماً كـاملاً حتى ظهـر في أفق النهـار القمري صاحب الصوت. بدا أول الأمر كنقطة بيضاء ساكنة ثم بياض متحـرك، ثم كائن نصفـه الأعلى أبيض والأسفل أسـود، ثم ظهر أنـه رجل يمتطي دابة ويغني.

انتـظرت أن يتكلم الغريب ولكن لم يصـدر عنـه شيء، حتى خلت أنه ما رأى أو سمع.

وأيضـاً ما تكلم الغـريب أو نطق. . عينـاه وكأنهمـا ضـمتـا إلى الرجل المتحرك بخيط ويده لا تـزال مستميتة على البلطة. ولا ينـطق حتى حين التفت اليه طالباً النجدة. . طالباً كلمة.

وعدت أنظر إلى الرجل من خـلال العرق المملح الـذي يسيل من جبهتي إلى عيني ويلسعهـا. ومسحت العـرق، وسـددت فـوهـة المدفع ليصبح الرجل و «ذبابة» الفوهـة وشق جهاز التنشين على خط مستقيم واحـد، وفي نيتي ألا أبدأ في إحكـام التنشين والتسديـد على منتصف الصدر تماماً إلا حين يصير الرجل القادم بحذاء الشجرة.

ومن أجل هذا مضيت اتابع حركة الدابة بحركة يسيرة من الفوهة. . ورغماً عني رحت أتابع الموال الذي يغنيه الرجل. . لم يكن صوته جميلاً أو يصلح للغناء. . ولكنه كان عالياً وقوياً وكان يقول «يا ليل» وكأنما يستحلف الليل ويرجوه أن يمنع عنه شروره. ويا «عين» فأتصور أنه يبكي ويرثي نفسه وكأن مسعاه لدى الليل فشل. وكان الموال يتحدث عن بستان حبيبه وما فيه من مشمش ورمان ونرجس، وكيف أنه سيدخله ويقطف من كل أثماره. . وبدأت أرى أن بينه وبين الدابة شيئاً. . كان «زكيبة» لابد أنها ملأى بالطحين ولابد أنه تأخر في «المكنة»، وكأن الغريب لا يزال صامتاً صمتاً لم أر مثله ولا يمكن أن يستطيعه بشر، صمتاً بلغ من عمقه وصدقه أنه جعلني أحس وكأنه غير موجود معي بالمرة، وكأنني أواجه الموقف وحدي. الرجل المجهول أمامي والمدفع في يدي ولا شيء سوى الليل معنا. ورغماً عني أحسست وكأن شيئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري، فقد أحسست أن باستطاعتي أن أتصرف بمطلق ارادتي وأني حر لا يحد من حريتي وجود الغريب أو بلطته. لأول مرة بدأت أشعر أني غير خائف أو مرغم. . وكلما اختلست النظر إلى الغريب ووجدته ساكناً سكون الموتى ازداد ايماناً بأني لا شريك لي فيما أفعله. وأني سيد الموقف والمدفع معي والمفاجأة معي والليل هو الآخر معي. . لأول مرة أنفض عن نفسي رداء التلمذة وعقيليتهاوأحس أني ابن ليل حقيقي وأني قادر.

وبكل تلك الثقة التي غزتني عدت أنظر إلى هدفي. كان

الرجل قد اقترب حتى لم يعد بينه وبين الشجرة المعهودة سوى أمتار، وكان صوته واضحاً وألفاظ مواله ومعانيه منتظمة. وربما الغناء الذي بدأه وهو خائف قد عمل عمله.. وجعله يحس بالونس والطمأنينة.. فغناؤه كان قد بدأ يحفل بالنشوة وكأنه يغني للغناء ذاته، ويقول يا ليل مسبحاً بأبنوسية الليل وجلاله، ويا عين متحسراً على العين التي نامت وحرمت نفسها من جماله..

وكان عليّ أن أقتل هذا الرجل المنتشي بمواله وغنائه بعد أقل من دقيقة زمن. ففوهة المدفع تتحرك معه، وعند الشجرة تماماً سأحكم التصويب وأطلق الرصاصة.

وأقول كان عليّ أن «أقتله» فقط لمجرد القول. فالقتل ساعتها لم يعد له في نظري أي هالة أو بشاعة. كان قد أصبح شيئاً عملياً بحتاً. شيئاً لن يكلفني أكثر من مجرد كتم أنفاسي والتنشين وحركة صغيرة من سبابتي اليمنى أجذب بها الزناد.

واقترب الرجل كثيراً حتى لم يعد بينه وبين الشجرة سوى قصبة.

وكتمت أنفاسي، وبكل ما أملك من قوة حاولت أن أحمل يدي برصاص الدنيا كله حتى تكف عن ارتجافتها الرقيقة ويظل الخط الواصل من منتصف الصدر إلى جهاز التنشين قائماً ومستقيماً.. وفي ثانية تصورت أن أبي قتل في نفس الليلة وأن هذا الرجل قتله وقادم لتوه من هناك ولابد من قتله.. حركة واحدة من الزناد وينتهي كل

شيء فأدخل عـالم الليل من أرحب أبـوابه . . حـركة واحـدة، ضغطة صغيرة.

ولا أعرف ما حدث بعد هذا على وجه الدقة . .

كل ما أذكره هو ضـوء القمر، وجلبـاب الرجـل الأبيض الزاهي البياض، ومواله الذي بـدا جميلاً يكـاد من جمالـه يوقف الـطير على أشجارها تستمع، والشعور بـالأمان والـونس الذي كـان مسيطراً عليـه والـذي ظـل مسيــطراً عليـه حتى وهــو يحـاذي الشجـرة ويبـدأ في تجاوزها . . ربما لو كـان قد خـاف، ربما لـو كف عن غنائـه أو شعر بالخطر، ربما لو كنت قد آمنت ايماناً كاملاً أنه قتل أبي ، ربما لو كان حـدث شيء خارج عن ارادتي وارادتـه، شيء خدش سيـاج التحريم الذي يحيطه ويتحرك معه ويتكفل بشل أي إنسان حولـه عن أن يلحق بـه أذى، ربما لـو كان قـد حدث شيء من هـذا لتغيـر كـل شيء . . ولتغير مجرى حياته نفسه، اذ لا أستطيع إلى الآن أن أعرف لمـاذا لـم يتحرك اصبعي تلك الحركـة الصغيـرة الهينـة ويضغط على الزنـاد، وما سر هذا النداء الذي تصاعد من أعماقي ، من أعمق أعماقي ، من أقدامي وجوفي وأصابع يدي وقمم شعري . . نداء لـم أسمعه قبلاً ولم أكن أتصـور وجوده ولم أعمـل له حسـاباً ولا اعتقـدت أنني ـ في آخر لحظة ـ سيتصدى لي هاتف من داخل نفسي يقول لي : حرام . . كلمة نتداولهـا ونقولها للغير ببساطة، ويقبلها الغير أو يـرفضها ببساطة أيضاً . أما أن أقولها أنا لنفسي وفي لحظة كتلك فهو ما حيرني وما جعلني إلى الآن أحتار، وما أنبت العرق الغزيـر من كل مكـان في جسدي ، ومـا

جعله بحوراً في باطن يدي وباطن سبـابتي بالـذات. . تلك التي كان عليها أن تقوم بالعمل الحاسم في المهمة، عرق عزيز لزج كـاد ينزلق معه المدفع من قبضتي ويجعل سبابتي تنزلق على الـزناد كلما أرادات أن تضغط، وهـو أيضاً لابـد سبب انـزلاق ارادتي كلما استجمعتهـا وقلت: الآن لأرد بهـا على النداء المتصاعـد من داخلي يقـول: حرام حرام! نداء ألعنه وأتساءل عن مصدره وأستنكر أن تـذيب كلمة كهـذه كل طاقتي على الارادة، ويصـل مـا تحـدثـه من شلل إلى آخر عقلة في اصبعي. .

نـداء أدركت قرب النهـاية مصـدره. . كان الـرجل مصـدره. . كلمـا رأيته مـطمئناً يغني ويـرفع عقيـرتـه وكـأنمـا الـوجـود كله ملكـه أحسست أنه لا يضمر شـراً، ولا يتوقـع شراً. وكلمـا سمعت كلماتـه وتعـرفت عليهـا ووجـدت لهـا معـاني، وكلمـا رأيت جلبـابـه الأبيض وعمامته، والدقيق الذي طحنه، أحسست أن المسافـة بيننا تتـلاشى، وأنـه يغني لي مثلاً أو يحييني وأنـه انسـان، وأنـه حـرام. . حـرام. . حـرام. . كل غنـائه وخبـطاته بـالعصا على ظهـر دابته وهـزات أرجله ورنات حنجرتـه، دون أن يقصد هـو أو يعي كانت تصلني على هيئـة نداء أمر واحد يقول حرام حرام. بل تكاثرت النداءات في النهـاية إذ إن أي شيء كان يفعله كانسـان كان يـطلق نداء حتى جلستـه الآدمية المنتصبـة فوق الـدابة كـانت تطلق نـداء. . تكاثـرت النـداءات حتى وجدتها في النهاية تصنع حوله سياجـاً لا يمكن اختراقـه، وكأنـه أينما يتحـرك تتحرك معـه دائرة حـرام واسعة لابـد أنهـا احتـوتني وشلتني،

والتي بلغ من تأثيرها أنه حين أصبح قاب قوسين أو أدنى من الكوبري ورآنا وألقى السلام، وجدت المدفع ينزلق من قبضتي ويسقط، ووجدتني أقول:

ـ سلام ورحمة الله . .

وحين حاذانا . وقال معتذراً عن مروره علينا راكباً:

ـ دستوركم يا رجالة . .

وتصاعد من جانبي صوت كنت قد نسيته تماماً يقول:

ـ دستورك معك . . أتفضل . .

بدأت أتذكر على وجه التحديد المصير الذي ينتظرني . . والعجيب أني فعلت هذا بلا خوف وبلا مبالاة تامة . . كنت على استعداد لمقاومة الغريب إن هو حاول قتل الرجل وإنجاز ما فشلت في إنجازه، مقاومته حتى ولو اقتضى الأمر أن أفقد حياتي .

ـ ١٥ ـ

ولكن الغريب لم يقتلني، وأيضاً لم يحاول قتل الرجل . وبدأت أتكلم وأحاول أن أشرح ما بدر مني أو على وجه أصح ما لم يبدر مني ، ولكنه وضع يده على كتفي وقال:

ـ مفيش داعي . . البلطة دي كنت مجهزها ليك صحيح . .

وسألته لماذا اذن لم يستعملها؟ وفوجئت به يقول إنه كان ينوي

استعمالها حقيقة لو كنت قد أطلقت النار على الرجل وصرعته. . إجابة أذهلتني وجعلتني أستمع للكلمات التي قالها بانتباه عظيم، ولكنه على أي حال لم يتكلم كثيراً. . قال ما معناه أنه هو الغارق إلى أذنيه في عالم الجريمة والقتل كان لا يمكن أن يسمح لي بأن أتردى فيه حتى لو أردت، فلو كنت قد فعلتها لما كنت قد كففت أبداً عن فعلها ولأصبحت مثله، ولعشت الحياة المؤلمة الرهيبة التي يحياها، ولاضطررت دفاعاً عن حياتي لأن أجتث أعماراً وأيتم أولاداً وأملأ الأرض بشروري وآثامي، أتعذب وأعذب الناس، وأعاديهم إلى درجة الموت ويعادونني إلى درجة البغض، لأصبحت في النهاية ابن ليل غادر خؤون كشلبي. . إذا تعاملت بشرف فقدت حياتي، وإذا لم أشك في كل الناس حتى أخلص الناس. . ضعت.

ـ واخص على العيشة اللي لا تأمن فيها الناس ولا الناس يأمنوا لك. . ولا تصدق حد ولا حد يصدقك، ولا تخلص لحد ولا حد يخلص لك. . الموت أهون منها. . والمصيبة أنك فيها ما تقدرش تقتل روحك، تقتل كل الناس ولا تقتل روحك. . وعلشان كده كنت ح الحقك وارحمك وأخلص عليك، يا ريت ألاقي أنا حد يرحمني ويغلبني ويخلص عليّ.

وسكت برهة يتأمل القمر. . ثم قال وكأنما يحدث نفسه:

ـ وعلى أقل تقدير لو كنت قتلته كنت ح أعرف انك ما عدتش تنفع الواحد يأمن لك. . النفر لما بيقتل بيصبح زي الديبة ماعندهاش

مانع تاكل ولادها، بينسعر زي ما يكون عقر كلب مسعور ويبقى مالوش شغلة إلا أنه يعض ويفضل يعض حتى صاحبه وصديقه.. وعلى أقل تقدير كنت ح اتبلغ عني.

وسكت مرة أخرى وتناول مني المدفع وراح يتفحصه.. ثم استطرد:

ـ الظاهر اني لازم أفوق.. إني ح أوديك في داهية معاية.. إني عذبتك قوي.. وطول المدة دي كنت باتمنى أني أغمض وأفتح الاقيني أبوك وألاقيني راجل طيب وألاقيك ابني.. إنما الظاهر أبوك الحقيقي أولى بك.. أصلب حيلك..

كنت سادراً في إصغائي حين فاجأتني كلماته الأخيرة، فقد قالها بلهجة مغايرة تماماً وبصوت حاسم باتر لا تشوبه ذرة تردد أو رحمة.. وحدقت فيه بعيون واسعة مدهوشة وبملامح صارمة جامدة قاسية لا تضطرب.. عاد يقول:

ـ فز قوم.. وما تبطلش جري إلا حدى بيتكم.

ودوى انفجار رهيب وفوق كتفي تماماً مرت لفحة هواء ساخن مضغوط كادت تقتلع أذني، وأفقت على نفسي وأنا أجري.. ودوى انفجار بعيد آخر، وفوق رأسي مرت كتلة الرصاص تغلي وتبطش وتثقب الهواء.. ولكني وحتى وأنا مستمر في انطلاقي جرؤت على القاء نظرة ـ كنت أعرف أنها الأخيرة ـ على الغريب.. وربما كان خداع بصر، ولكني شعرت وكأني أنا الثابت وكأنه هو الذي يجري

٥١٧

ويتحرك.. بملامح بدت طاعنة في الكبر، وبأكتاف تنوء بما حملت، وبقـامة قصيـرة مضت تغوص مـع الليل وتختفي في أعمـاقه، وتنضم إلى كتله السوداء المتراجعة أمام كاشفات الفجر وشعاعاته.




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





أليس كذلك



الكنز

عبد العال مخبر بوليس طويل أسمر، وعلى ظهر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

عبد العال مخبر، ومع هذا فله عيلة وزوجة أحياناً تناكفه وأحياناً ترضى عنه، وأحياناً يحلف عليها يمين الطلاق، ونادراً ما يقع اليمين.

ولعبد العال ماهية عشرة جنيهات بما فيها كل ما ناله وما لم ينله من علاوات.

وعبد العال سعيد جداً بحكاية المخبر. إذا ركب الأتوبيس وجاء الكمساري قال: «بوليس». وأحس بأهميته وهو يقول بوليس، والناس يرمقونه ويضربون له بعيونهم السلام.

وعبد العال مثل كل الناس يحلم بالمستقبل. وهو لا يحلم حلماً عادياً مثل أن يصبح ضابطاً أو مساعد حكمدار.. هو في الحقيقة يحلم أن يكون وزيراً للداخلية. يا سلام! يصحى الواحد ويلاقي نفسه وزيرا له عربة وله حاجب ويقف على باب منزله عسكري على الأقل بشريطين. بسيطة! وليست على الله ببعيدة، فالذي خلق الأرض والسماوات من العدم، ألا يمكنه أن يخلق من

العسكري وزيرا؟ ثم لماذا لا يخلق منه وزيرا وهو دوناً عن رفاقه يجيد القراءة والكتابة، ويرطن أحيانا بألفاظ انجليزية، ويلتهم الصحف ويعرف كوريا، ويستطيع أن ينطق اسم همر شولد صحيحاً.

وعبد العال من مدة كان معه تحقيق وسين وجيم. فقد اشترك مرة في ضبط واقعة واستلم هو المضبوطات وأمضى بذلك. وبعد أيام جردت الأحراز فوجدوا حرزا ناقصا. وجاؤوا بعبد العال وسألوه وأنكر. وألحوا في السؤال وأغلظوا وتلجلج. وشك فيه الضابط وهدده بالتفتيش. ورأى عبد العال من عينيه أنه ينوي حقا تفتيشه، وحينئذ مد يده في جيبه وأخرج منها الحرز المفقود.

وكان الحرز هو الدليل المادي في القضية، فقد كان شيكا مزورا.. شيكا بمبلغ مائة ألف جنيه أتقن تزويره.

واستغرب الضابط.. وفتح محضرا وراح يسأل. وتوقف عند السين التي تقول: لماذا احتفظت بالشيك المزور معك؟ ولم يستطع عبد العال أن يدلي بسبب واضح.

وهمهم وغمغم وقال كلاما فارغا كثيرا لم يقنع الضابط، ولم يقتنع به هو.

وفي آخر النهار عاد عبد العال من القسم منهوكا محطم القوى. عاد وقد خصم من مرتبه نصفه، ونقل من المباحث وأنذر بالفصل.

عاد وهو حزين ساخط، ومع ذلك كانت في أعماقه طراوة رضا وسعادة.. فلا أحد قد فطن الى أنه كان قد احتفظ بالشيك المزور

ليستخرج له صورة فوتوغرافية طبق الأصل، صورة كلفته كثيرا ودفع فيها خمسة عشر قرشا.

ومضى اليوم، ومضت وراءه أيام، وذهب حزن عبد العال وسخطه، ولكن بقيت صورة الشيك المزور.

وللآن لا تزال أسعد لحظات عبد العال هي تلك التي يهرب فيها من زحمة الناس ويختلي بنفسه، ويطمئن إلى أن أحداً لا يلحظه أو يراه، ثم يخرج حافظة نقوده بعناية، ويستخرج من جيب مخصوص منها صورة الشيك ،ويحس بالرعد في أذنيه والتنميل في أطرافه وهو يرى شعار البنك والحروف المطبوعة، ثم وهو يقرأ الجملة الخالدة ويلمس عليها بأصابعه:

ادفعوا لحامل هذا مبلغ ألف جنيه مصري لا غير.

ويستمر يحدق في الشيك حتى تهجمع الزوابع التي في جوفه، ثم يطويه بعناية ويعيده الى جيبه الخاص في المحفظة ويتنهد، وكأنما قد انتهى من اعتراف أو صلاة، ثم يعود هو في بطء الى الناس وزحمتهم، يعود كما كان عسكريا طويلا وأسمر، وعلى ظهر يده اليمنى سمكة فمها مفتوح، وذيلها مشقوق، وعلى عينها نقطة.

الحالة الرابعة

انتهى العشاء وهب الدكتور مازن كي يقوم بنوبتجيته في الاستقبال. كان عشاء بيت الامتياز سخيفاً في ذلك المساء كعادته كل مساء كان مكونا من بطاطس مفروض أنها محمرة، ولم تكن لا محمرة ولا مسلوقة ولا شيء من هذا القبيل، انما كتل لزجة متراصة من مادة البطاطس يفصلها زيت رخيص. . ثم أرز باللبن، أو بطاطس باللبن، أو حجارة وحصى و«زلط» باللبن، كله ماشي وكله لا يقيم أود مخلوق. كان العشاء محنة يضطر اليها الأطباء الذين لا يملكون سوى مرتباتهم، وحتى لا يملكونها كلها فجزء غير قليل منها يذهب الى عائلاتهم التي رأت المر كي تنفق عليهم وتجعلهم في نهاية الأمر أطباء«قد الدنيا». أما الدكتور مازن فلم يكن يحفل بالعشاء أو بالغداء أو حتى بطعام بيت الامتياز كله. كان أبوه أحد كبار الأطباء في وزارة الصحة، ومن صغره وهو يذهب الى المدرسة في عربة ويعود في عربة. وحين كان في كلية الطب لم يره زملاؤه الطلبة أبدا الا ثمة شيء جديد قد أضيف اليه، قد يكون جاكتة وقد يكون في أحلك الأحوال منديل صدر جديد. وكان العمل بالنسبة للدكتور مازن شيئا

مهماً حقا. اليوم الذي يأخذ نوبتجيته فيه كان يسبقه اعداد أيما إعداد. فلا بد أن يتفق مع اثنين من زملائه«الغلابة» على أن يأتوه ليسلوه في وحدة نوبتجيته. ويختارهم مازن بعناية، فأحدهم لا بد يجيد رواية النكت ويخلق من التفاهة فكاهة، والآخر لا بد أن يكون عليما ببواطن الأمور يحدثه حديث العارف عن الأسرار الرهيبة التي تدور داخل جدران المستشفى، وعن الزملاء الأطباء وعلاقاتهم الخفية مع الممرضات والحكيمات، وعن الفضائح. ثم لا بد أيضا من اعداد للعشاء.. فقبل الثامنة يرسل عبد الغني فراش بيت الامتياز الى جروبي أو الاكسلسيور ومعه قائمة معدة ومنتقاه بعناية لعدد كبير من الساندويتشات. ثم لا بد آخر الأمر من احضار عدد من المجلات المصورة الأمريكية والفرنسية، تحتوي على عدد من الوجوه والأجساد الجميلة يكفي للتفرج عليها ليلة بأكملها. كان لا بد من اعداد هذا كله في يوم النوبتجية حتى لا يحس مازن بأي سأم أو ملل، ومع كل هذه الاحتياطات، ولو فرض ووقع المحال وأحس بشيء من الملل والسأم فهناك التليفون، وهناك ثلاث فتيات وامرأة متزوجة تملك أجمل صدر في جاردن سيتي، مستعدات أن يقضين معه الليلة في كلام ودردشة وفكاهات.

هبط الدكتور مازن الى الممر الطويل، وكل شيء على أتم ما يرام.. البالطو أبيض ونظيف ومكوي، والبنطلون الأبيض حده كحد السيف، والسماعة معلقة في صدره يلمع معدنها، والحمام الدافىء الذي أخذه بعد إغفاءة الظهر يخدر وجهه ويجعل من خلاياه دوامات

صغيـرة تدور بهـا السعادة. كـل شيء حتى شكله كان قـد ألقى نظرة طويلة على نفسه في مرآة التسريحة الحكومية الحادة في بيت الامتياز واطمأن ـ كعادته ـ الى الصورة التي سيكـون عليها حين يـراه الناس. جسـده طويـل رياضي لا انبعـاج فيـه، وسنـواتـه لم تتعـد الخـامسـة والعشرين، ووجهه أبيض حليق نـاعم جميل، والشعـر موزع تـوزيعاً أنيقاً على رأسه. . أربعة أخماسه تتموج إلى اليمين، والخمس الباقي يستكين إلى اليسار ولا تنفر منها شعرة واحدة.

كان الممر طويلا قد حل الفساد في بعض مصابيحـه فانـطفأت تنتظر الاستمارات ومصلحة المباني لاستبـدالها، وكـان النور يتسـرب الى الممر من الأقسام التي على يمينه وعلى يساره فيضيء الممر بنور شاعري رقيق. وكان البالطو الأبيض يحف حفيفا خافتا كلمـا اصطدم بساقيه الطويلتين السائرتين، والكولونيا تدفع ببرودة ذات رائحة جميلة الى ذقنه، وكان جيب البنطلون على صغره يضيق ببـاقي الورقـة ذات العشرة الجنيهات، والـدنيا في نـظره لحن جميل كـأنغام الكمـان في رقصة شهر زاد.

وكان يلقي التحيات ذات اليمين وذات اليسار، تحيات المسـاء كان يلقيها من أنفه إلى تلميذات الأقسام الساهـرات، وكان دقيقـاً في القاء تحياته فهو يعرف أنه جميل وغني ومن عائلة، وأن التلميذات لا بد يحلمن به وبابتسامـة منه، ولكنـه أعرف النـاس بالبيئـة التي ينشأن فيهـا، ويقبلن منهـا الى المستشفى تـدفعهن الحـاجـة لأكـل العيش والعمل وإهدار سيرتهن على الألسنة والأفواه. ولهذا لم يفكر أبدا في

مصاحبة احداهن أو حتى في التحدث معها. كان حديثه مع الواحدة منهن لا يستغرق لحظات وكله«حديث عمل» لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة. ولكنه لم يكن يحب أن يبدو متكبرا في نظر الناس، وكان عليه أن يحييهن.. ولكنها لا بد أن تكون تحية مضبوطة لا تغري بالألفة ولا تهبط بمستواه ولا ترتفع بمستواهن.

مضى في الممر المظلم الحالم يلقي بتحيات المساء بإيماءاته، ويحس أن الناس كلهم لا بد في مثل دقته ونشاطه، وأن الوجود لا يستحق ملليجراماً واحداً من التعاسة، والحياة لو أخذت هكذا سهلة بسيطة بلا احقاد أو تعقد لما أصبح للناس في الدنيا مشاكل.

ووصل الى قسم الاستقبال.. كان زبائنه كثيرين في تلك الليلة، وكانوا ينتظرونه لا بد من قبل أن تغرب الشمس. وعلى الرغم من كل شيء فالدكتور مازن كان يحب نوبة المساء.. كانت بالنسبة اليه فترة مستحبة لاتتملكه فيها عصبية النهار، ولا يقاسي من كثرة المرضى الذين يقفون أمامه في طابور لا أول له ولا آخر، ويقبلون إلى المستشفى مع الفجر.

وتصاعدت الهمهمات من الجمع الصغير لمقدمه، ولم يكن قد تمعن فيهم أو حتى ألقى إليهم تحية المساء. اكتفى بالتفاتة سريعة يعرف بها كم عددهم، وكان واضحا أنهم أكثر من العدد الذي وجده في النوبة السابقة وأحس لهذا بنوع من الزهو. وحين وقف أكثرهم

وأفسحوا له الطريق ودلف من بينهم تحفه التحيات والدعوات من الجانبين ملأه يقين بأهميته، ودون وعي أمسك بوق السماعة بأصابعه وازداد احساسا بضرورته، وشخط في التمورجية العجوز فقد وجد مقبض الباب لا يلمع وبقايا بصاق عالقة بالحائط. . وأسرعت المرأة بأعوامها الخمسين تجري ويطرقع قبقابها على البلاط، وتزيل البقايا وتلعن المرضى وقذارتهم.

ودخل الدكتور مازن الى غرفة الكشف، وكعادته أمر التمورجية بالوقوف على الباب والحيلولة دون دخول أحد الا لبناء على أمره وطلبه.

وانبعج الكرسي وهو يحتويه، وأمر بفنجان قهوة ـ سكر شوية ـ وأكد على التمورجية وتوعدها إذا لم تأت القهوة «سكر شوية». . ومضى يقلب صفحات مجلة«ومن» ويتوقف لدى كل صفحة.

وأخيرا جاء الفرج حين دق الجرس، وأشار للمرأة برأسه دون أن ينطق حرفا.

ودخلت الحالة الأولى تجأر. وقبل أن تنطق كان قد عرف كل شيء، وكتب في التذكرة حقنة تداوي المغص كان يعرف أنها غير موجودة وأنها نفذت من الأجزخانة ولا زال طلبها من الوزارة جاريا. . وكان يعرف عن ظهر قلب ألفاظ المحاورة التي سوف تدور بعد قليل بينه وبين المريض حين يعود اليه خالي الوفاض من الدواء، والتي يعلم أيضا أنها تنتهي في العادة بطرد المريض وإدخال آخر.

ودخلت الحالة الثانية والثالثة.

وكان لا يزال مستغرقا في المجلة يتحقق في صورة ممثلة فرنسية ترتدي(مايوه) مصنوع من جلد رأس فهد، وبه ثقوب مكان العينين والفم، والثقوب تظهر أجزاء من جسدها ويخفي الجلد أجزاء، وهو منفعل يحاول أن يشغل خياله ليجد ما وراء الجلد أو يخمنه، كان كذلك حتى دخلت الحالة الرابعة.

ولم يتنبه ولم يعد من الوديان التي كان يمرح فيها خياله، ثمة سؤال صغير مضى يشغله.. ترى أهي حالة مغص أو تسمم؟ وكالعادة مضى يسأل دون أن يعنى بسماع الجواب.. اسمك ايه؟ وعاوزه ايه؟ وبيوجعك ايه؟.

ولم يعتدل الا حين خبط عسكري كان واقفا أمام مكتبه.. خبط قدميه في سلام عظيم، وقدم له أوراقا كثيرة يحتويها دبوس واحد.

ومر الدكتور مازن على الأوراق مرور الكرام.. اشارات ومكاتبات مكتوبة بسماجة لا طريف فيها ولا جديد.. ولم يقرأ منها ولا فهم حرفا.

وتطوع العسكري بالشرح، وقال ان الحالة التي يستصحبها امرأة مراقبة ليس لها منزل تراقب فيه، ولذلك تقضي الليل في القسم، وقد أبلغت الليلة أنها مريضة و..

ولم يدعه يكمل هذه السخافات، أشار اليه أن يصمت وتطلع

الى المـرأة بحب استطلاع حقيقي . لم يكن في حيـاته قـد رأى امرأة مسجونة أو حتى مراقبة، وكان يعتقد أن الـواحدة منهن لا بـد مجرمـة طويلة عريضة تفوح منها القوة وينضج جلدها شراسة، ولها عين وقحة لا يطفئها الرصاص، وأخرى فيها دهاء الثعالب وسم الأفاعي .

ودهش! فأمامه وعلى الأرض المصنوعة من بلاط كانت تجلس المرأة وقد ضمت أجزاءها الناحلة، ووضعت رأسها بين ركبتيها، بينما راحت عيناها الخابيتان تطلان اليه في وهن القطة الجائعة المتعبة .

وأصيب بخيبة أمل . . كانت المرأة دودة صغيرة قد التفت حول نفسها لا قوة فيها ولا جبروت. ولا شراسة فيهـا ولا غدر، ولا يصـدر من عينيها الا استسلام ذليل .

وهز الدكتور مازن كتفيه بعدم اكتراث وقد فشل في اقناع نفسـه بـإجرام الـدودة التي أمـامـه. وارتسم على شفتيـه الاحتقـار. وبنفس الاحتقار هز لها رأسه، وأشار لها بيـده أن ترقـد وهو يحس في قـراره نفسه باشمئزاز مفاجىء .

وحدق برهـة في جسدهـا الأصفر الشـاحب، وفي بطنهـا الذي يتموج الجلد المشوه فوقه، وفي يديها الموضوعتين تحت رأسهـا وقد أغلقت عينيهـا وكأنهـا في سبات عميق، وكثـر اللعاب في فمـه وهـو يطيل تحديقه .

ولـو كان في النهـار لما حفـل بـالكشف عليهـا، ولكنـه الليـل ومزاجه المعتدل، وهكذا أخذ يستمع الى أنفاسها ويعد نبضات قلبهـا

وهو حريص كل الحرص على لم معطفه حتى لا يلامسها أو يحف بثيابها . .

وسألها في فتور وهو يأمرها بإدارة فمها بعيدا عنه، لماذا سجنوها؟

وكان وهو يسألها يعرف أنها ستنكر وتصر على براءتها وعلى أنها مظلومة مضطهدة، كلهم مجرمون كذابون يقتلون القتيل ويمشون في جنازته، ولكن المرأة قالت في هدوء قالت في هدوء غريب:

ـ مسجونة بحشيش.

وخلع الدكتور مازن السماعة عن أذنه كمن لسعه معدنها، وعبر جسدها بنظرة واحدة، وتطلع اليها، ثم عاد الى كشفه وهو مضطرب يكاد يخاف.

وقال لها:

ـ كحي! . .

فكحت، وانهجي! . . فنهجت، وصرخ فيها أن تتنفس بعمق ففعلت.

وانتهى الكشف.

وحين كانت الممرضة تصب فوق يده الكحول ليطهرها، مع أن يده لم تكن قد لامست المرأة ولا علقت بملابسها، وكان يفرك يديه

ضيقا بهؤلاء الناس الحمقى الذين لا يجدون الا الاجـرام وسيلة لقتل أنفسهم.

وقال لها في تشف وكأنه يعاقبها، ويحس بالارتياح وهو يعاقبها:

ـ انتي عيانة؟

فقالت وهي ترتدي ملابسها وتتثاءب الكلمات:

ـ بإيه يا بيه؟

وضايقته الطريقة التي سألته بها. ان هؤلاء الناس لا يحسـون. ان كلمة المرض كلمـة مرعبـة تبعث القشعريـرة في الأوصال، فكيف بها تتلقاها دون أن تتحرك لها ساكن؟ ضايقته الطريقة فقال:

ـ انت عندك سل.

قالها وهو مقدر أنها ستشعل النار في رماد تلك المـرأة فتنتفض وتصـرخ، وتتـوب عن لهجتهـا المتثـائبـة وتبكي وتلطم وجههـا على الأقل، ولكنها أجابت وكأنها تحلم وتريد اغاظته:

ـ طب مانا عارفه.

وهم برش الكحول في وجهها وعينيها، ولكن هـدوءهـا أعـداه وتراخت يده القابضة على الزجاجـة وتراخت معهـا أعصابـه، وجلس على الكرسي وأشعل سيجارة، وبدأ ينظر الى المرأة من جـديد. انـه بالتأكيد ليس أمام حالة أخرى ليكش فيها وترتعد خوفا وهلعا. انه أمام مريضة من نوع جديد لا يفلح معها تهويشه. ثم إنها مريضة بالسل..

ومع أنه طبيب الا أن خوفه من السل ومرضاه كان لا يقل عن خوف غيره من الناس. وقال لها في لهجة رقيقة نوعا:

ـ وعرفت ازاي؟

وبانت لها سنة صفراء تلمح في فمها وابتسمت، أجل ابتسمت، وجهها الأصفر كالكهرمان تداخلت فيه أجزاء وتقلصت أجزاء وأفلح في رسم ابتسامة، وقالت انه ليس أول طبيب يراها، والمرض له قصة فهو قد داهمها في السجن في الأيام الأولى من سجنها..

وعبثت أصابعه بالسيجارة وضغط عليها بعصبية، وكانت سحب الدخان قد حملها الهواء بعيدا فبدت المرأة واقفة أمامه نصف مستندة الى الحائط، وكلامها ينساب في هدوء غريب محير، وملامحها لا تنفعل لكلامها كأنما هي تتحدث عن كارثة أصابت انسانة أخرى.

وتحت وقع حديثها المنخفض اللين ترعرعت رغبته في معرفة حكايتها. لم يكن هذا طبعه فهو لم يتعود أبدا أن يأخذ ويعطي مع أحد من مرضاه، ولكنه لم يستطع المقاومة ونسي نفسه والمرضى المنتظرين، وسألها في طفولة أن تحكي قصتها.

ولم تعتدل أو تتنحنح أو تصطنع التذكر، انما وهي نائمة صاحية، والكلمات تجهضها شفتاها فتخرج ميتة لا حرارة فيها ولا انفعال مضت تقول:

ـ يا خويا ولا حكاية ولا حاجة.. أنا أصلي م الفيوم.. وأوعى

ألاقي نفسي شايله الشاي مع أبويا في الموقف.. ولما مات المرحوم بقيت أعمل أنا الشاي.. وحبني جدع سواق.. وحبلت.. وسقطتني مرات أبويا.. ولما ضاقت الفيوم في وشي جيت مصر.. مصر أم الدنيا. هىء.. هىء.. هىء.. جيت مع سواق.. ومن سواق لسواق اتبدل على الموقف لحد ما اتلميت على واد نشال بقى ياخد عليّ فلوس.. وعلمني الصنعة.. أهه قلمك البالكر أهه.. حسيت بحاجة.. هيء.. هيء.. والنبي نفسي أبوس شفايفك الحلوين الحمر دول.. يوه.. ما اطولشي عليك خدني الواد في قمته وتحبست مرة.. وطلعت وراقبوني وتفتكر سكت؟ بقيت أنشل برضك.. وتاجرت في الحشيش كمان.. وبقيت أكسب ومعلمة قد الدنيا. وليا رجاله.. ومشيت مع العسكري اللي كان بيراقبني واتمسكت أنا وهوه.. وآدي انت شايف أهي عيشة.. اللي يحب النبي يزق.

كانت تتكلم كمن يحلم، غير حافلة بمن يسمع كلامها أو مقيمة وزناً للطبيب وسماعته ومعطفه، ولا حتى ملقية بأي اعتناء إلى العسكري الواقف بجانبها منتصباً كماسورة العادم. وكما بدأت في هدوء انتهى كلامها في خفوت حتى سكتت.

وطوال الحكاية كان وجه الطبيب كشاشة العرض تتغير عليها الألوان وتتبدل. كان يسمع أشياءخطيرة تقال هكذا بسهولة، وكان وجهه يحمر ويصفر كالعذراء حين تمتد اليها يد جريئة وتعبث بأقدس

ممتلكـاتها وقيمتهـا. وكانت المـرأة تعتـرف بكـل شيء دون حيـاء أو خجل كأنها أستاذة تحاضر في علم النفس.

ورغم كل ما اعتراه وأذهله فقد كان عليه أن يقول شيئا يبـدد به الانتظار الصامت الـذي ساد الحجـرة، فسألهـا وهو يقهقـه ولا يدري لماذا يسأل أو لماذا يقهقه:

ـ وانت.. مالكيش أهل.. مالكيش أهل؟

فقالت وهي تريح رأسها على الحائط:

ـ ليّ..

ـ ايه؟

ـ بنت.

وعاد يسأل وهو لا يدري لماذا يسأل:

ـ ليه.. انت أجوزتي.. والا..

فقاطعته وهي تسبل عينيها:

ـ وح تفـرق ايه لمـا تكـون بنت العسكـري ولا المعلم.. أهم الاتنين أزفت من بعض.

ومضى في أسئلة التي كان يلقيها من وراء عقله:

ـ والبنت فين دلوقت؟

ولمح أولى دلائل الحياة في بريق لمع من عينيها وهي تقول:

ـ في المدرسة . .

ـ ايه؟

ـ بتروح المدرسه . . وبتطلع الأولى . . دي بت شاطره قوي تعجبك . .

ـ وبتصرفي عليها منين؟

ـ ربك ما ينساش عبيده .

وسألها وقد انتابه بعض الضيق:

ـ ومودياها المدرسة ليه؟ . . انت ناقصه؟

وازداد البريق في عينيها الخابيتين وهي تقول:

ـ عايزاها تطلع دكتوره .

وأعقبت اجابتها بسرب من الضحكات الخليعة الميتة .

وتمتم في سره: جتك نيله .

وفي نفس الوقت عثر على السبب الذي من أجله كان يردد أسئلته التي بدت له سخيفة لا معنى لها ولا ليس وراءها طائل . كان عقله حتى تلك اللحظة يضرب أخماساً في أسداد ويفكر فيما يفعله من أجلها فهو لا يستطيع إدخالها المستشفى فليست هناك أسرة

خالية، ولا يستطيع رفع الرقابة عنها فليست له السلطة، وليس لها بيت . .

وقلب الأوراق التي أمامه بيد غير مستقرة، وتمتم وكأنما يحدث نفسه :

ـ طب وح اعملك ايه بس؟

وفوجىء بصوتها الهادىء يخترق حيرته كاليد الجريئة العابثة ويقول :

ـ لا تعمل لي ولا أعمل لك . . اديني الاجازة وخلاص .

وحملق فيها وكأنه يرى شبحا من الأشباح . وبدا له كأن المرأة مارد سيبتلعه، وأحس بضيق وتبدلت لهجته فجأة وأظلمت ملامحه وقال :

ـ طب اخرسي انت .

وأمسك بالقلم وحركه في الهواء مرات قبل أن يكتب الجملة التي لا يملك غيرها :

«حضرت وعمل لها اللازم، وتحتاج لإجازة من المراقبة قدرها عشرة أيام» .

وخطت ناحيته متمايلة في ضعف، والتقطت البقية الباقية من سيجارته الثالثة التي كانت ترقد على الأرض، وأخذت نفسا ثم أخرجت دخانا كثيرا عاليا، ورنت منها ضحكة خافتة وهي تقول :

ـ مش برضه عشرة أيام يا دكتور؟

وكان أمامه رد واحد . . أن يصفعها، ولكنه خجل فليس هناك سبب واحد معقول يتيح له صفعها، وسكت . . وقالت وهي تأتي على الأنفاس الأخيرة من السيجارة :

ـ والنبي لطلع فاطمة دكتورة حلوة زيك كده . . والنبي . .

وكادت تسترسل لولا النظرات النارية التي تفجرت من عينيه، فقالت :

ـ سبتك بعافية بقى .

وفي هدوء بطيء ذهبت الى الركن وأخذت منه صرة ملابسها، وخرجت منحنية على نفسها وبقايا السيجارة تحرق أصابعها الجافة وذرات الدخان تشيعها .

وخبط العسكري الذي يحرسها قدميه في سلام صاحب، وأخذ الأوراق ومضى .

وجلس الدكتور مازن صامتاً وقد توقف تفكيره، وثمة غيظ يخنقه واحساس بالخوف . . خوف ميت بليد يزحف عليه من حيث لا يدري ولا يعلم . وتحسس بلا وعي سماعته وزرر البالطو ثم خبط المكتب فجأة بقبضة يده حتى قفز قلمه وسقط على الأرض وانقصفت سنه .

وجاءت التمورجية العجوز على الخبطة، ولم يكد يراها حتى

انفجر وراح يعيد توبيخها لقذارة المقبض والبصاق العـالق بالحـائط. ولـم يكتفـ بهذا بل أقسم أنه سيكتب مذكرة للمدير لخصم ثلاثـة أيام من مرتبها.

المحفظة

من الساعة الثامنة وسامي يجلس على ذلك الكرسي الصغير في ركن الحجرة، وأمامه المنضدة والكتب والواجبات والجداول، وأمامه فوق هاته جميعاً المشكلة الكبيرة الضخمة التي كان قد حدد ليلتها بالذات ليحلها.

انه لم يعد يستطيع فليست هذه أول أو ثاني مرة. له شهر وهو يتفق مع صلاح وعبد المنعم على الذهاب إلى السينما، وفي كل مرة.. غداً أجل غداً. خلاص يا سامي، خلاص يا صلاح، الساعة ثلاثة أمام شباك التذاكر.. الساعة ثلاثة. ثم يأتي الغد ولا يذهب. لا يستطيع الحصول على الشلن ولا يستطيع حتى أن يري صديقيه وجهه ليبدي لهم عذره. وهذه المرة من أسبوع وهو يحاول. ان «المصروف» الذي يتناوله بين كل آن لا يكفي، والمطلوب خمسة قروش. قال لأبيه انه يريد كراسة وقال مرة ورق أشغال، ولم يحصل على ثمن لهذا أو لذاك. حاول مع أمه بلا فائدة. كلما ألحف عليها رفعت كفيها إلى السماء وطلبت من الله أن «يسبك» ما معها من نقود على عينيها إن كان معها نقود.

ما هي حكاية هؤلاء الناس؟ انه ما طلب منهم أبداً نقوداً وأعطوه. دائما والله ما معنا. وأبوه.. أبوه بطوله وعرضه وكرشه الودود وأصابعه الغليظة. أبوه كله لا يتورع عن القسم أمامه بأغلظ الأيمان

أن ليس معـه ولا«خردة». وهـل هذا معقـول؟ أمعقول أن أبـاه مفلس تماما كما يحاول أن يفهمه؟ أبدا! غيـر معقول بـالمرة. انـه قادر على كـل شيء. انه يستـطيع أن يفعـل أي شيء، فقط لو أراد. أليس هـو الذي أدخله المدرسة بعدمـا دخل الأولاد كلهم ورفضت أوراقـه هو؟ أليس هـو الذي أقسم يـومها أن لا بـد من دخولـه في اليـوم التـالي، وغـاب عن المنزل طيلة مـا بعد الـظهر وأدخله في اليـوم التالي؟ انـه يستطيع أن يفعـل المستجيل. مـرضت أخته.. كـانت أمه تقـول انها ستموت وكانت تبكي وكان سامي يبكي. وكان أبوه هو الوحيـد الذي لم يبك والذي قـال انها لن تمـوت، وهو الـذي أخذهـا الى الحكيم واشترى الدواء، ولم تمت سامية. أبوه هذا القادر على كل شيء قال له أمس وأول أمس واليوم أيضا انه مفلس. حدثه سـامي عن اتفاقـاته السـابقة مـع صلاح وعبـد المنعم واتفاقـه ذاك، وضحك أبـوه الطيب وقـال: خليـك لأول الشهـر. وأكثـر من الـطلب وأكثـر أبـوه من القسم.. والله ما معي يا بني. وهل هذا معقول؟ بيتهم كله اذن ليس فيـه شلن؟. انهـم يضحكون عليـه. انهم يـظنـونـه طفـلا صغيـراً من السهـل خداعـه. إنهم لا يعنيهم أبداً ذهـابه إلى السينمـا ولا يقدرون قيمته لأنهم لم يجربوها ولـم يذهبوا إليهـا. إن المسألـة بالنسبـة إليهم ليست خـطيرة. إنهـا ليست كمرض سـامية. ويعتقـدون انـه غـر أبله يكفي أن يقسموا أمامه لكي يصدقهم؟!

لقـد أحكم التدبيـر وكل لحـظة معدة اعـدادا دقيقا في رأسـه. سيحصل على هذا الشلن بأسهل ممـا كنوا يتصـورون. أيعتقد هؤلاء النـاس أنه لا يعـرف محفظة أبيـه ومكانهـا وضخامتهـا وما تحتـويـه؟

أحسبوه مغفلا الى هذا الحد؟

الساعة العاشرة. أبوه وأمه واخوته كلهم نائمون في الحجرة الثانية. انه لا يخاف من أحد سوى أبيه. أمه لا تستيقظ أبدا في الليل. أبوه هو الذي توقظه كل حركة مهما بلغت تفاهتها. عليه أن ينتظر قليلا حتى يطمئن الى انهم جميعا قد استغرقوا في النوم إلى آذانهم.

وأراد أن يقضي الوقت في حل مسألة الحساب الباقية من الواجب، ولم يستطع. كان «ثمن الشراء» يقفز أمامه ويصبح «ثمن البيع». وكان يضع «العلامة العشرية» على يمين الرقم فإذا بها تساهيه وتتسلل وتصبح على يساره. ونفض يده من المسألة وراح يتأمل كالتائه محتويات الحجرة التي يذاكر فيها هو وأخته، والتي يأكلون فيها أيضاً ويستقبلون الضيوف وتناله الصفعات أحياناً.

وانتبه الى نفسه على صوت يأتي من الخارج، وأصاخ أذنيه. كان بيتهم كالقبر لا يسمع فيه خرير الماء القليل الذي يتسرب من الحنفية، وسرسعة الصراصير في المطبخ. وكان الحي بأكمله ساكنا سكونا أبديا لا يقطعه سوى ذلك الصوت.. صوت وحيد متهدج كأنما يعزي الناس على خيبتهم.

وأدرك سامي بعدما تسمع قليلا انه صوت المذيع يقول نشرة الأخبار.

ودق قلبه.

لقد حانت الساعة.

وغادر مكانه على أطراف أصابعه. واحتار أيطفيء نور الحجرة أم يبقيه؟ يبقيه. انه خائف والنور يونسه. وتوقف في الصالة الصغيرة التي تفصل حجرتي شقتهم. أبوه يشخر.. عظيم!

وتقدم من باب حجرة النوم وأدار«الأكرة». الباب يزيق كلما فتح. عليه اذن ان يفتحه مللي بمللي. ها هو قد أصبح في الداخل. الظلام ثقيل، انه لا يرى شيئا المرة. ماذا حدث لعينيه؟ شعاع واحد يتسرب من الباب الموارب. أبوه يشخر. أخته تقرض مثل الفأرة على أسنانها كعادتها حين تنام. انه يرتعش. لماذا يدق قلبه هكذا؟ اذا لم يهدأ سيوقظ أباه بدقه الملعون. ولماذا كل هذا العرق؟ تقدم يا ولد.. تقدم!

وتقدم سامي أكثر في منتهى الحذر. السرير الذي يرقد فيه والداه وأخته على يمينه، أخوه الصغير يرقد على«الملة» التي يشاركه فيها. الدولاب بعد خطوات قليلة على يساره. عليه أن يزحف بقدميه حتى لا يسهو ويصطدم بأخيه النائم ويصرخ وتكون الكارثة. كف عن الدق أيها القلب اللعين. شخر يا أبي شخر. ارفع من صوتك هذا الذي طالما أرق نومي.

وحدث أن توقف فجأة عن الشخير. وتوقف قلب سامي هو الآخر..

ولكن أباه عاد وجذب نفسا عميقا مصحوبا بشخير أعمق..

نعم . . هكذا . . هكذا . . يا أبي . . أرجوك . .

ملمس الدولاب الناعم كالحرير أصبح يحسه . ها هي قبضته المكسورة، عليه ليفتحه أن يمسك المقبض بقوة، ويرفع «الضلفة» الى أعلى قليلا ثم يجذبها بسرعة، هكذا جرب أن يفتحها في النهار دون أن تحدث صوتا . .

وفتح الدولاب . .

وأصبحت الملابس المعلقة داخله في متناول يده. كان لديهم شماعتان . . أمه قد أخذت شماعة بأكملها لملابسها وقاسمت أباه في الأخرى. ولم يكن عسيرا عليه أن يفرق بين الشماعتين فملمس بدلة أبيه الخشنة واضح، والرائحة التي تنفثها البدلة واضحة أيضاً، إنها رائحة أبيه . . . انه يعرفها فطالما شمها وهو يعانقه . . وطالما شمها في «جاكتته» القديمة التي يرتديها وهو يذاكر حتى لا يبرد.

بحث في أول جيب صادفه. ليس فيه سوى المنديل مكورا وأشياء في قاعه تستقر كحبات الرمل . . ولم يجد في الجيب الآخر شيئا . .

وكان سامي يتوقع هذا . . اذ ليس من المعقول أن يضع أبوه نقودا في جيوبه الخارجية، النقود في المحفظة . . في الجيب الداخلي . . ورغم هذا بحث ـ من قبيل الاحتياط ـ في الجيب الصغير الذي توضع فيه «الفكة». كان خاويا تماما . . ليس هذا فقط بل لم يجد له قاعا أبداً!! . .

وأحس بشيء من الرهبة وهو يدخل يده في الجيب الداخلي. ودق قلبه بعنف حين عثرت أصابعه على المحفظة.. وحين استخرجها من الجيب أحس بشيء داخل نفسه يشتمه ويلعنه، وأجفل.. ولكن المحفظة كانت قد أصبحت في يده.. وكانت ثقيلة سميكة.. لها رائحة خاصة مقبضة..

وارتبك..

كانت الخطة التي وضعها منذ الأمس تنتهي بحصوله على المحفظة.. ثم.. ثم ماذا يفعل؟

وفي سرعة كان قد ادرك انه من المستحسن أن يأخذها الى الحجرة الأخرى ويأخذ منها القروش الخمسة، يأخذها من «الفكة».. فأبوه قطعا يعرف عدد النقود الورق أما«الفكة» فإنه لا يعرف عددها، ولن يلحظ غياب خمسة قروش منها..

وتسلل خارجا. وتقلبت أمه وغمغمت وهو يمرق بين ضلفتي الباب، ولكن الموقف كان قد دبغ اعصابه فلم تعد تهزه أصوات أو غمغمات.. وما كاد يصبح في الحجرة الأخرى حتى أغلق الباب وجر الكنبة ووضعها خلفه وجهز حكاية يقولها لأبيه اذا صحا وضبطه محكما اغلاق الباب على ذلك الصورة..

وجلس أخيراً على نفس الكرسي الذي دبر عليه الخطة ووضع المحفظة أمامه. كانت شيئاً ضخماً كبيراً في حجم الكتاب المجلد وكأنها محفظة بنك.. وكانت من النوع القديم الأجرب الكالح. وكان يعرف أن أباه يضع الفكة في جيبها الرئيسي الطويل، وفتحها

بسرعة ومد يده داخلها ولم يجد شيئاً. وقلبها وظل يرجها وسقط منه شيئان: نص فرنك ممسوح معضوض لا بد أنه كان لازقاً في طياتها. . والشيء الآخر كان غريباً عجيباً. . «زلطة» سوداء صغيرة مفلطحة شكلها لذيذ. . ماذا يفعل أبوه بتلك الزلطة؟ ولماذا يحافظ عليها ويضعها هكذا في أعماق المخفظة؟. . أفيها سر؟. . وهل يتقي بها العفاريت؟. . أو يستعين بها على جلب النقود إلى المحفظة؟. .

ولم يلبث أن ترك الزلطة وأمسك بالقرشين. . قرشان؟. . كل ما معه من فكة لا يتعدى«النص فرنك». . وليته نص فرنك صالح للاستعمال، انه يشك كثيرا من إمكان تداوله.

ما هذه المصائب؟. . كل ما توقعه يصفى على قرشين؟!

وأخرج سامي كل ما في باقي جيوب المحفظة من أوراق وتفحصها جميعا بنظرة واحدة سريعة. ولمح من خلال الكومة التي أصبحت أمامه عشرة قروش تكاد تزهق روحها من كثرة ما تراكم فوقها. . وكان من المستحيل أن يصدق أنها كل ما في المحفظة من نقود. لا بد ان البقية يحتويها ظرف من تلك الظروف اذ كثيراً ما رأى أباه يضع فيها الأوراق الخضراء والصفراء. .

ومضى يفتح الظروف ويستخرج محتوياتها. كانت رغبته العارمة في العثور على الشلن هي التي تدفعه أول الأمر الى فض المظاريف والبحث بينها، ولكن بعد لحظات غلبه حب الاستطلاع على أمره. كانت تلك أول مرة يتاح له فيها أن يطلع على مكنون

محفظة أبيه وعلى ما فيها من أوراق لا بد أنها مهمة جدا، لها أهمية غير عادية والا لما احتفظ بها داخل تلك الحوصلة الجلدية. كثيرا ما رأى المحفظة وهي خارجة داخلة إلى جيب أبيه، وهي مفتوحة ومطوية، وهي في مكانها المعتاد، ثم وهي ترقد تحت«المخدة» أحيانا. . كثيرا ما ألحت عليه الخواطر والهواجس تخمن ما تحتويه وتدفعه اليها دفعا. . ومحتوياتها كلها أمامه الآن، فأية فرصة ذهبية جاءته من السماء!!. .

لم يكن يفهم ما يقرؤه تماما، ولكنه كان مسرورا قلقا، ذلك النوع الغريب من القلق البهيج الذي يعتري الانسان كلما أتيحت له معرفة سر من الأسرار بطريقة محرمة. .

وجد خطابا من خاله. . يتكلم فيه عن ميراث. . وعن مبلغ. . ويسلم فيه عليه. . ترى لماذا لم يبلغه أبوه السلام؟. . ثم ما تلك الأوراق الصدئة المهرية التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟. . ان حبرها من نوع أسود قديم لم يره أبدا، وخطها حلو، وهذا الشيء المرسوم عليه مئذنة وقبة. . قد صار زواج فاطمة بنت عبد الله. . من تكون ؟ أتكون أمه. . لا بد. . ولا بد. . أن يكون ابراهيم منصور أباه. . وهذه الورقة الحمراء؟. . ادارة الغاز والكهرباء؟. . نرجو عند الرد ذكر رقم ٢٨٤. . ايه ده؟. . واذا مش عارف ايه سنقطع التيار. ما هو ذلك التيار الذي سيقطعونه وبأي شيء سيقطعونه؟. . وهذا الظرف المكتوب عليه: قطعة من كسوة الكعبة الشريفة هدية من العبد الفقير الى الله تعالى الحاج مبارك محمد حسن، قطعة القماش

السـوداء هذه التي في الـظرف من الكعبة؟! يـاه!! ان رائحتها صعبـة . . أمســك ذاك أم عنبــر؟ . . هي السبب اذن في تـلك الــرائحــة المقبضة التي تنبعث من المحفظة؟ . .

وكـان ممكنا أن يـظل سامي مستغـرقـا في نشـوة الاضـطراب الخفي تلك، ولكنه وفي خضم ما كان فيه وعت أذنـه صوت السـلام والراديو يذيعه وختم به برامج السهرة . .

وفي الحـال عـاد الى نفسـه مضعضـع الحـواس وكـأنمـا ضبط متلبسا . . وأصبح همه في اللحظة التالية أن يعيد الأوراق كلها الى ما كـانت عليه، بنفس تـرتيبهـا ونـظامهـا حتى تبـدو وكـأن لم يمسسهـا بشـر. وفي الحق كانت مهمة صعبـة ولكنها انتهت. وبقيت العشـرة قروش راقدة أمامه على المنضدة منطوية على نفسها كالخرقة الباليـة . لم يرجعها الى المحفظة وكذلك لم يدسهـا في جيبه. وكـان عليه أن يقـرر أمـرا من الاثنين ولم يكن القـرار سهـلا . اذا أخــذهـا لا بــد ستنكشف السـرقة، واذا تـركها فقـد آخـر أمـل في الـوفـاء بـالميعـاد والذهاب الى السينما.

والعجيب أنه لم يفكر في واحد من الأمرين، كان قد أفـاق من النشوة التي أتخم بها حب استطلاعه وامتلأت نفسه بالحنق الشديـد. كيف لا يعثـر الا على عشرة قـروش مهـرأة . . ونص فـرنـك مـاسـح معضوض؟ . . هذا الأب الضخم الطيب الذي يصنـع المعجزات ولا يقف أمام مقدرته شيء . . كيف لا يكون معه سوى مبلغ تافه كذاك؟ . .

هـذه خديعـة هذا ضحـك من نوع آخـر عليه. لمـاذا لم يعمل حسابه؟ لماذا لم يكن في المحفظة مبلغ كبير كما تـوقع؟ أين صـرف النقود؟ اين الماهية؟

وامتدت يده الغاضبة ودست العشـرة القروش في جيبه. سوف يذهب الى السينما بخمسة ويصرف الخمسة الأخرى. يـأكل«بغـاشة» و«جيـلاتي» كما يـأكل كـل الأولاد، وليكن بعد ذلـك ما يكـون. وهو ماله؟ وما ذنبه اذا كانوا يرسلونه الى المدرسة ولا يعـطونه نقـودا، واذا سـألهم ضحكوا عليـه وأقسمـوا أن ليس معهم، واذا فتشهم لم يجـد سوى ورقة صغيرة بالية.

وحتى وهـو في طريقـه الى حجـرة النـوم ليعيد المحفـظة الى الجيب الداخلي، كانت خطواته لا تزال تحفل بـالاستنكار والغضب. وحين فتح الباب وجد كل شيء كمـا كان، أبـوه يشخر وأختـه تقرض أسنانها والظلام مخيم.

ولم يأخذ حذره هذه المرة ويقفل البـاب وراءه، اذ لم يعد يهمه وهو في قمة الغيظ ما يحدث. ودلف وراءه من الباب المفتوح شعـاع باهت من النور أضاء الحجرة قليلا وسقط على وجه أبيه.

وألقى عليه سامي نظرة وكأنما ليصب عليه جـام غضبه. ولكنـه تسمر في مكانه وظل يحدق فيه كـالأبله. كـانت رأس أبيـه منزلقـة من فوق «المخدة» ومثنية على كتفه، وكانت عارية وقد سقطت عنها الطاقية التي يـرتـديهـا وهـو نـائم، وكـان شعـره خفيفاً مشـوشـاً تلمـع من

تحت صلعته، وكان فكه مدلى وفمه مفتوحا والشخير يتصاعد منه في غير انتظام. وسامي دائما كان يرى أباه في النهار ضاحكا أو مبتئسا، راضيا أو ساخطا، ولكن ملامحه على أية حال كانت دائما فيها قوة وصحة وحياة تجعل أباه يبدو كالأسد الأليف الذي يوحي مرآه بالثقة، ولحظتها ورأسه منزلقة وفمه مفتوح وشعره مهدل مشوش وملامحه متراخية مستسلمة، لحظتها رآه طيبا جدا.. وغلبانا جدا.. ليس هذا فقط.. بل ان محفظته الكبيرة الضخمة ليس فيها كلها سوى قروش عشرة، وزلطة، ونص فرنك..

ظل سامي واقفا في مكانه يحدق في أبيه وكأنه يراه لأول مرة. كان من كثرة ما تعود رؤيته قد ألفه وألف أن ينظر اليه كأبيه، واذا به الآن يراه وكأنه ليس أباه، وكأنه قد أصبح انسانا مستقلا عنه، رجلا آخر، غريبا.. طيبا.. غلبانا.. منفصلا عنه تماما.. له جسد ورأس وساق قد انكشف عنها ثوبه وبدت ضامرة مليئة بالشعر..

وأحس بألم حاد ينتشر في نفسه وشيء يريد خنقه، ثم أحس برغبة عارمة في البكاء، ثم أحس أنه يود أن يلقي كل ما بنفسه ويندفع الى الرجل الغلبان أمامه يعانقه ويضمه بشدة ويقبله، ويقبل فمه المفتوح الطيب ذاك وذقنه النابتة الخشنة وعيونه المغلقة في استسلام.

ولم يكف أبوه طوال الوقت عن الشخير. يستريح وجهه لحظة، ثم تخرج الأصوات من أنفه وفمه.. أصوات ممدودة غلبانة هي الأخرى.. تكاد تقسم وتقول: والله ما معي ولا أمتلك..

لم يضحك عليه أبوه اذن ويخدعه، وهو ليس كما ظن سامي قادرا على كل شيء.. انه نائم.. مستسلم.. وطيب.. ولم يكن يخدعه..

وتململ الأب واضطرب شخيره.

وتحرك سامي والأحزان تملؤه. وأغلق الباب. وأخرج القروش العشرة من جيبه ودسها بغير حماس في المحفظة ثم اسقطها في الجيب الذي كانت فيه..

وبعدما أطفأ النور في الحجرة الأخرى رقد بجوار أخيه على «الملة».

وكان يحب تلك الفترة التي يرقد فيها وينتظر النوم، اذ كان يحلم فيها بالقلم الأحمر الذي رآه في المكتبة والخمسين من خمسين في الانجليزي أو يفكر في الحيلة الجديدة التي عليه أن يبتكرها ليحصل على قرش في الصباح.

ولكن أفكاره طوال الوقت لم تغادر الرجل الراقد غير بعيد عنه فوق السرير، وثمة احساس كبير يملؤه وكأنه كان يستند الى جدار واذا بالجدار ينهار من خلفه ويتركه مستندا الى الفراغ.

وكلما استعاد مشهد ملامحه ومحفظته أحس وهواتف خفية تنبثق في صدره وتهيب به أن يفعل شيئا.. لا بد أن يملأ محفظته بالنقود.. بمئات الجنيهات.. لا بد أن يجلب له كنزا.. لا بد أن يشتغل.. يعمل أي شيء.. وعلى الأقل يقبض عشرة جنيهات في الشهر يعطيها لأبيه قائلا: خذ ولا تزعل.. قم وانهض وغط ساقك،

واستعد ملامح الأسد. قم يا أبي.. ثم أنا لم أعد طفلا. أنا والله رجل. رجل كبير يا أبي لا تخف عليّ سأحميك ولن أطلب منك نقودا. ولن أحتال عليك لأحصل على القروش. وحياتك يا أبي لن أفعل هذا.

وتقلب أخوه وزأم كمن يحلم، ثم علا صوته، وغمغم.. عاوز أشرب.. هه.. عاوز أشرب.

وكثيرا ما يسمع أخاه يغمغم ويطلب الماء في الليل فيظل ساكنا على مضض ولا يتحرك حتى توقظ الضجة أباه فيقوم ويسقيه..

ولكنه ما كاد يسمعه هذه المرة حتى هدهد عليه وهو يقول:

ـ حاضر.

ثم قام في حماس زائد، وملأ له الكوب، وعاد به، وحده، في الظلام.

وقبل أن يغلق عينيه، اعتدل كمن تذكر شيئا، ومد يديه وراح يحبك الغطاء حول أخيه، كما يفعل أبوه تماما، وتأكد أن قدميه ملفوفتان في(البطانية)، ورأسه معدول فوق المخدة.

ثم أخذه في حضنه.

ونام.

الناس

كان في بلدنا «طرفة»، لم تكن كبيـرة ولا عاليـة أو ذات سيقان وفـروع، كانت ضئيلة الحجم قصيـرة قميئة ورقهـا كورق العبـل رفيع وأسطواني، ولونها أخضر قاتم، ولا تعرف ربيعاً أو خريفـاً فهي تورق على الدوام، ولا تعرف ضعفاً ولا قوة فهي لا تنمو ولا تصغر ولم يـزد حجمها أو ينقص طوال أجيال.

ولا يدري أحد كيف نبتت تلك الشجرة في بلدنا، اذ ان شجـر الـطرف نادر الـوجود في الأرض الـطمي فهـو لا ينمـو الا في منـاطق المستنقعات. وكذلك لا يدري أحد لماذا اختارت ناحيتنا بالذات.

كل ما نعلمه أن أهل بلدنا اعتقدوا فيها ونظرا لواحدانيتهـا حف بها نوع من التقـديس، وآمن الناس أن لا بـد وراء وجودهـا سر بـاتع وكبير.

ومنذ أجيال وأهل بلدنا لا يتبركون بها فقط ولكنهم يستخدمونها كـدواء لأمـراض العيـون. مـا من كـائن وجعتـه عينـه الا ووصف لـه أحدهم ورق الطرفة.. تذهب بعد الفجر الى الشجـرة وتنتظر الى أن يهبط الندى، ثم تأخذ عدة عقل من أوراقها وتكسرها فيسيل منها لزج

تقطر في العين الموجوعة منه قطرتان لا ثالث لهما. وبإذن واحد أحد يحـل الشفاء.

وأغرب ما في الأمر أن الشفاء كان يحل فعلا. صحيح أنـه في أحيان كثيرة لم يكن يحل الشفاء. . أحيـانا كـان يتضاعف المـرض، وأحيـانا نـادرة كان يحـل العمى أو العـور، ولكن النـاس لم يكـونـوا يعزون بالفشل الى ورق الطرفة بقدر ما يعزونـه الى نجاسـة المريض مثلا أو أحد من أهله، أو أن المرض قد زاد واستمكن، أو انك لا بد قد أخطأت ولم تنتظر حتى يهبط الندى.

ووعينا نحن فوجدنا شجرة الطرفة من معالم بلدنـا الأزلية تحف بهـا القداسـة وتكتنفها الأسـرار، فكنا نخـاف منها ونـرهبها ونتخيلهـا بقامتها القصيرة وورقها الرفيع المسنون كعجوز شمطاء تقطع الـطريق إلى الترعة، أو كأنها خالتنا أم الغول.

وشببنا فوجدنا اعتقاد أهل بلدنا فيها لا يتزلزل أو يصيبـه وهن. غزا الطب الريف وافتتحت في البنادر عيادات رمد ومستشفيات، وهم مصرون على تلك الشجرة فخورون بها، يحمـدون الله على وجودهـا في بلدنـا دون سواهـا ويكنون لهـا أعمق التقديـر حتى ليكاد الـواحد منهم يقرأ الفاتحة اذا ما مر عليها.

والعجيب أن الاعتقـاد فيهـا كـان شـامـلا. الكـل يؤمن بهـا. . الكبير والصغير، والفقير وصاحب القرشين، بل امتد هذا الايمان الى ما جاورنا من قرى، وأصبـح من المناظـر المألـوفة في بلدنـا أن ترى

أناسا جالسين بعد الفجر حول شجرة الطرفة، ينتظرون في صمت وفي رهبة هبوط الندى.

وأصبحنا تلامذة وتعلمنا، وعرفنا التاريخ والجغرافيا والهندسة والطب وقانون الغازات لبويل.

وبدأنا نكفر بشجرة الطرفة.

وكان أكثرنا حماسا ابن الصراف الطالب بكلية الزراعة الذي لم يكفه الكفر والإلحاد بالطرفة، بل راح يضيق بأهل بلدنا أنفسهم سخافتهم وعقولهم الجامدة الضيقة التي تحجرت على الايمان بشجرة لا حول لها ولا قوة.

ثم أصبحنا كلنا نجاهر بهذا الكفر، وما لبث ضيقنا وسخطنا أن تحول الى حركة ودعوة، وجاء اليوم الذي أعلنا فيه الجهاد وقسمنا أنفسنا.. فريق يخطب في المساجد ويقول: يا أهالي الطرفة تعمى كل ذي عينين. وفريق يلف على الناس والمصاطب ويقول: يا اخواننا الحكومة فتحت مستشفيات عليكم بها ودعوا الطرفة. وفريق وقف بجوار الشجرة يستقبل كل من جاء ويشرح له ويحاول أن يثنيه عن عزمه. وكان الناس ينظرون الينا ونحن نفتح أفواهنا ونخرج منها كلاما سريعا كثيرا، ويهزون رءوسهم ويقولون لبعضهم البعض: كلام حلو يا أخي.. كلام مضبوط.

واعتبرنا أن المسألة قد انتهت وأن عيون الناس قد سلمت على أيدينا وأننا نستحق على مجهوداتنا تماثيل شكر وآيات تكريم. ولكننا

بعــد مضي أيـام اكتشفنــا أن النـاس لم تكف عن استعمــال أوراق الـطرفة، ولا حتى اختفى الجـالسون تحت الشجـرة ينتـظرون هبـوط الندى.

وقلنا الى الجهاد من جديد.

وظللنا أياما كثيرة نكلم الناس ونناقشهم ونضـرب لهم الأمثال، فيهزون رءوسهم ويوافقون بل يغالي بعضهم في لوم نفسه ويقول:

ـ لا مؤاخذة يا فندي انت وهوه، أصلنا جهلة والجاهل أعمى، والعتب على النظر.

ولا نتركهم حتى يبدو عليهم الاقتناع الصادق الأكيـد.. وما أن يمرض منهم مريض حتى تكـون أوراق الطرقـة هي أول دواء يوصف وأول ما يستعمل.

وظللنا أعواما كثيرة نحاول ونيأس ونفشــل. وكالعـادة لم يستمر جهادنا كثيرا وما لبثنا أن نفضنا أيدينا من الأمر، وقد بـدا أن ليس ثمة قوة تستطيع زلزلة ايمان الناس بالطرفة.

ولكن ابن الصـراف وكان نحيفـا عصبيـا عنيـدا، وان كـان قـد اصابه اليأس كما أصابنا الا انه لم يسلم بالهزيمة، وظل الأمر يشغـل باله ويكاد لا يفكر في غيره.

وذات يوم عنت له فكـرة، فأخـذ أوراقا من الـطرفة وذهب الى

أستاذ في كليته وحكى له الحكاية، وطلب منه تحليل الأوراق.

وفوجئنا حين أثبت التحليل أن في الورق نسبة من كبريتات النحاس التي تصنع منها القطرة.

وأشعنا الخبر في البلدة، أشعناه ونحن نصفق ونهلل وكأننا اكتشفنا كنزا كان مجهولا.. وقلنا للناس:

ـ لا ضير عليكم من استعمال الطرفة، ففي أوراقها قطرة.

وهز الناس رءوسهم بلا حماس وغمغموا:

ـ جالكو كلامنا؟

كل ما حدث انه حين مرت اعوام كثيرة، وعدنا الى بلدنا موظفين وخبراء ومحترمين، وجدنا أن شجرة الطرفة لم يعد لها ذلك التقديس القديم، وأنها هزيلة شاحبة لم يعد حولها منتظرون ولا تخيف كما تخيف أم الغول.

ووجدنا الناس قد كفوا عن استعمال أوراقها في علاج العيون، وحين كنا نسألهم عن السبب ونحن مذهولون، كانوا يهزون رءوسهم ويقولون:

ـ سيبك يا شيخ.. القطرة برضك أنضف..

الوجه الآخر

كان الواحـد منا اذا عثـر على «نص فرنـك» وهو صغيـر طار من الفرحة. وحين كبرنا أصبح ما يفـرحنا أن نعثـر على انسان، أو كلمـة طيبة. . !

والحركة كما يقولون بركة، وأن تقص شعرك كل مرة عند نفس الحـلاق شيء ممل حقـا. . ولم أكن أستقـر عنـد أحـدهم، ولم أكن أطمع أن أدخل صالونا ذات صدفـة فأجـد صاحبـه انسانـا كالأسـطى زكي. كـان كل همي اذا دخلت عنـد الحلاق أن أعـد نفسي لعمليـة التعذيب القادمة. وقص الشعر عملية تعذيب يؤديها الانسان كالواجب الثقيـل المفروض، اذ مـا معنى أن يجلس الـواحـد نصف سـاعـة أو أكثـر، ورأسـه مثني على وضـع معين، وعـروق رقبتـه متصلبـة تكـاد تنقطع، وكل هذا ليقص شعره بضعة مللمترات، أو ليبدو وجهه أكثـر وسامة. . !

كـان الأسطى زكي الـذي أسلمته رأسي رجـلا غريبـا، فصوتـه رفيـع كأصـوات النساء، ووجهـه أحمر كـوجوه الأتـراك، وهو قصيـر سريع الحركة كمخلوقـات والت ديزني، وفي عينيـه ذكاء. والأعجب

من هذا سيجار توسكانيللي لا يغادر فمه مطفأ ولا مشتعلا وكأنما ولد به. إذا أشعله يفعل هذا بثلاثة عيدان كبريت، ويكتم الدخان المتصاعد منه أنفاسي. . دخان ثقيل قابض كأنه مصنوع من ذرات رصاص. واذا انطفأ تركه بين شفتيه، وكلما نطق يتلاعب السيجار الى اسفل وأعلى وكأنما أصبح جزءا من تقاطيعه. وكان أكثر شعر رأسه أبيض منكوشا كشعر المذهولين، وهناك وجوه لا تحس بملامحها، وكنت تحس أن في وجهه أنفا. ولم يكن يرتدي البالطو الذي تعود الحلاقون ارتداءه. كان يرتدي قميصا وبنطلونا. . القميص من قماش لا يستعمل للقمصان ذو خطوط غامقة كثيرة وليس له ياقة، ومفتوح عند العنق يظهر بقعة من صدره فيها شعر كثيف أبيض، والبنطلون حائر في وسطه لا يعرف على أي جزء من كرشه المقوس الأملس يستقر. وهو كالمكوك لا يهدأ، في نفس الوقت الذي يقص فيه شعري كان مشتبكا في ثلاث مناقشات مع زملاء ثلاثة له، واحد دخل معه قافية حول البامية والقرون، والآخر يحدثه عن طريقة مبتكرة لعلاج المرارة، والثالث يضحك معه على الاثنين. وينثني فجأة ويهمس في أذني بتعليق أو كلمة ترحيب، ويسألني ان كنت في حاجة لجريدة. ولا ينتظر جوابي ويرتفع صوته باحثا عن«الاثنين» ولا يجدها ويشتم الصبي، ويجد أن«آخر ساعة» قد طارت، ويعود إليّ بالأهرام وعلى وجهه ابتسامة خجولة آسفة تكاد من برودتها تطفىء«ولعة سيجارة».

والمقص بين اصبعيه لا يكف عن الطقطقة به لحظة، وكأنه حاو

يقوم باستعراض أمام الناس ويريهم معجزة.

ويبدو أنه كان مشهورا واسمه تتقاذفه الأفواه كالكرة الشراب، والداخل والخارج والزبون والزميل والجميع يعاملونه كما لو كان لعبة طيبة لطيفة مهما سخرت منها فلن تعقب، واللعبة تغري باللعب، وهكذا لم يكن احد يدعه على حال، ولم يكن يبدو عليه الضيق بأمثال تلك المداعبات بل لعله كان مسرورا. كنت الوحيد المغيظ فرقبتي هي المثنية، والعبث كله على حساب رأسي وأعصابي، والرجل كان باديا انه تعدى الخمسين ولا يستطيع الانسان أن ينهره بسهولة.

وبلغ بي الضيق منتهاه، ومن كثرة ضيقي أمرت الصبي الواقف ينش عليّ الذباب أن يكف، فأن يحس الانسان بالعذاب لأنه يقضي نصف ساعة وهو جالس أمر قد يحتمل، أما أن يقضي صبي صغير في العاشرة من عمره اليوم بطوله واقفا في مكانه لا يتحرك، ولا يفعل سوى نش الذباب عن وجه الزبائن وكأنه آلة، فأمر لا يحتمل.

والظاهر أن الأسطى زكي لم ينتبه الى أني السبب في توقف النش، فقد نهر الصبي وأمره بمضاعفة جهوده في طرد الذباب. ولم يكن هناك الا ذبابتان، واحدة لا تتحرك من فوق المرآة، والأخرى تحوم حولنا، اذا نفث الأسطى زكي دخانه فرت واذا كف عادت.

وانتهزت الفرصة وانفجرت أطلب من الصبي أن يكف، وأقول للأسطى زكي:

ـ هذا تعذيب وقلة انسانية . . (الخ . . الخ) .

وابتسم ردا على غيظي وقال :

ـ أمال . . أمال . . ينش . . لازم . . !

وعـدت أردد له مـا قلته ، وعـاد يقول وهـو حائـر بين الضحـك والابتسام :

ـ أبدا . . أبدا . . إلا دي . . دا لازم يقف كده . . لازم كده .

ـ ليه؟ . .

ـ أمال . . أمال . . عشان يتعلم . . ينش ويتعلم . . لازم كده . . لازم يقف هنا عشان يشوفني وأنا بشتغل ويتعلم . . إلا دي . .

والى حد ما كاد رأيه يقنعني ، ولكن الصبي على أي الحـالات كان يتعذب ، ورد على قولي بقوله :

ـ آه . . عـذاب . . معـاك عـذاب . . انمـا . . اصـول الكـار . . يتعلم ازاي أمال؟ . . سيدنـا أيوب كـان صياد . . وسيـدنا عيسى كـان نجار . . أنا اتعلمت كده . . كلنا كده . . أصول . . الواحد لازم يكون لـه صنعة يـأكل منهـا عيش . . إلا دي . . اللقمـه اللي من غيـر تعب فكـرك يبقى لها طعم . . إلا دي . . كـارنا كـده . . مش بالسـاهل . ح يتعلم ازاي؟ إلا كده . . نش يا ولد نش . . نش يا جنس كلب . . نش إلا دي . .

فقلت وأنا لا ازال ممتعضا :

ـ طيب . . ينش ينش . . لكن ضروري الشتيمة يعني؟

فأغرق في الضحك وقال :

ـ ضروري . . ضروري قوي . . يتعلم ازاي إلا بالشتيمة؟ . . دا جاي هنا غصب عنه . . فكرك هو عايز يتعلم الحلاقـة؟ . . إلا دي . . أبـدا . . دا عايـز يجري ويتنـطط زي التـلامـذة . . يتعلم ازاي الا اذا خاف؟ . . يخاف يتعلم . . وهي دي شتيمه؟ . . أنا وأنا قده كان ابويـا الله يرحمه يتلعن في تربته الف مرة في اليوم . . كنت أزعل . . أنا مـا اغلطشي . . وكده اتعلمت . . هي دي شتيمة؟ . . احنا كلامنا كده . . أصل لا مؤاخذة الصنعه الباردة كلامها بارد . . كلامنا كده . . ح نعمل ايه؟ يا واد حوش الدبانه دي . . الله . . انت عـايزهـا تدخـل بقي؟ . . يعني لازم أوسخ يعني . . إلا دي . .

وفـطنت وهو في منتصف كـلامه الى شيء . . فهـو لم يكن قد سألني رأيي في الطريقة التي أفضلها لقص الشعر، وعادة الحـلاق أن يـأخذ رأي الـزبون . هـو لم يكن يلمح رأسي أمـامه حتى انهـال عليه قصـا وتوضيبـا دون ان يحفل بسؤالي ، فقـاطعتـه ولا يـزال غيـظي لم يتبدد :

ـ تسمح؟ . . والله أنا عايز التدريجه . .

فقاطعني هو قائلا :

ـ عـارف. . عارف. . سيـادتك بتحب تكـون متوسـطه. . مش كده؟ . . إلا دي . .

ودهشت قليلا وقلت:

ـ ايش عرفك. . ؟

فقال وهو يرفع عينيه عن رأسي ويعتدل وقد فتحت يده المقص وأخذ يطقطق على الفاضي. . والمشط في اليـد الأخرى، والسيجـار في منتصف المسافة:

ـ عرفت ازاي ازاي؟ . . انا بعرف كده. . المسأله نظر. . نظرة واحدة للزبون اعرف هو عايز ايه. . إلا دي . . نظرة واحدة. . عرفت ازاي؟ كده؟ . . بالفلهوة. . أمال الواحد بقاله اربعين سنة في الكار ده ازاي؟ . . بنلعب. . إلا دي . .

ثم عـاد الى العمل، وقصـر قامتـه القصيرة وركـز انتباهـه على نقطة لا بد كانت استراتيجية جداً من رقبتي، وراح يعمل فيها بـطرف المقص بكل دقة وحنكة، وعينه مزرورة ونار السيجار قد اقتربت جدا من أذني حتى لتكاد تلسعها، وأكمل من خلال فمه المضموم:

ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال: اعمل لدنيـاك. . واعمل. . يعني اعملوا. . مش تهـزروا. . لازم الواحـد يتفهم النـاس. . شفت ازاي؟ . . أهو حضرتك مش متزوج مثـلا. . لا مؤاخذة أنـا بس يعني

حبيت أوري سيادتك.. ح تقولي ليه؟.. كده.. بالفلهوة.. ح تقولي عرفتها ازاي؟.. أقول لك ما اعرفشي.. كل واحد بيبان عليه.. المتزوج بيبان عليه، والعازب يبان عليه، وكذلك الفقير.

وانقلب سخطي عليه الى سخرية، ونحن لا نترك فرصة للتنكيت الا انتهزناها، فقلت:

ـ ايه.. انت بتقرا لي قفايا والا ايه؟

ولم يضحك، وحسبت السبب ان النكتة لم تعجبه لأني أنا شخصيا حين اعدت النظر فيها وجدتها نص نص، حسبت هذا لولا انه قال:

ـ بالظبط.. بالضبط كده.. أهي دي الفلهوة بقى..

وخربت بيته في سري.. وتركت عملية الحلاقة كلية والتفت الى هذا المخلوق القصير ذي الوجه الأحمر، ان لحسته قد زادت عن حدها كثيرا.. وقلت له وأنا أهز رأسي كمنٍ يهزه الى مخرف كبير:

ـ يعني سيادتك بقى بتقرا القفوات؟

فقال:

ـ لا.. مش قوي كده.. يعني.. إلا دي.. هي القفوات لا مؤاخذة فناچين والا كوتشينه.. الحكاية بالويم يعني..

فسألته ضاحكا:

ـ هيه.. طيب.. وايه تاني في قفايا؟

فابتسم في تواضع وقال:

ـ يو هوه.. حاجات كتير.. مثلا.. يعني سيادتك مثلا عليك اعصابك.. يعني لا مؤاخذة عصبي شويه.. ومع كده ابن حلال يتكتم..

وخربت بيته مرة أخرى في سري، فقد كان ما قال صحيحا بعض الشيء.

وهنا التفت للصبي وقال:

ـ المراية يا ولد..

وحين عاد الولد بالمرآة تناولها منه بعد ان شتمه لتلكؤه، ومسحها أولا بالفوطة، ثم أمسكها في وضع يسمح لي بأن أرى قفاي. وحركها وهو يقول:

ـ شوف سيادتك بقى.. تعجبك التدريجه.. كويسه.. كويس كده؟..

كان يقول هذا بصوت جاد وملامح متأملة وهو يتطلع الى رقبتي ويرقب نتيجة عمله، كما لو يتأمل الفنان لوحة انتهى منها..

ورحت بدوري أحدق في المرآة وأحاول أن أستشف ما في رقبتي من شذوذ أو بروز يكون قد اوحى للأسطى زكي بما قاله، ولكني لم أجد شيئا، وعبرت له عما يجول بخاطري فابتسم ابتسامة الحاوي العجوز، وقال وهو يضبط المرآة التي خلفي:

ـ بص سيادتك.. بص كويس.. شايف ايه؟.. رقبه.. مش كده؟.. وشعر.. الناس بتسميهم قفا.. انا بسميهم وش.. أنا عندي القفا وش بس من الناحية التانية.. بني آدم زي السكين بوشين فليه نسمي الناحيا دي وش والناحية دي قفا؟.. هنا وش وهنا وش..

وسكت فجأة وسهم وهامت عيناه، ثم نطق بصوت مضموم خيل إليّ انه يخرج من سيجاره الأسود:

ـ أما حتة وزن!

ورأيت طرف المرآة يطالعني بجزء من الحتة، كان نصف امرأة ماشية في الشارع طويلة سمراء وممتلئة ملتهبة، وكما هام فجأة عاد فجأة، وكان أول ما فعله أن شتم الصبي وأمره بنش الذباب، وكان الصبي ينش فعلاً ولا حاجة به إلى أمر أو سباب ثم استطرد:

ـ ليه ما ينفعش وش؟.. أنا وجهات نظري كده.. أنا بشوف ده واشوف ده.. طول النهار وشي في قفا الزبون.. بشوف فيه كل حاجة كأنه وش.

وكان يتحدث طوال الوقت بصوت سريع منخفض وكأنه يخاف أن يسمعه أحد غيري، ولكنه خفض صوته أكثر على حين بغتة وهمس في أذني:

ـ وبيني وبينك الوش الوراني ده أحسن من القدماني.

ولم استطع أن أعلق أو أسأل أو أوقفه لحظة. كان كاللعبة التي ملىء زمبلكها وانطلقت تتحرك وأصبح لا يمكن وقفها حتى

تفـرغ شحنتها، واستمـر يقول بصـوتـه الخـافت المتلصص الحـافـل بالحماس وكأنه نبي يبشر برسالته في السر:

ـ القدماني دهه حتى باظ . . بقى بترينه ما عدش ينفع . . اتعلم الحركات . . بقى يمثل وباظ . . الـواحد يبقى قلبـه شايـل الهم ووشه بيضحك . . ويبقى وشه بيقـول لأ وهو من داخليتـه بيقول أهين . . إلا دي . . شوف يا أستاذ . . على قد ما تقدر قـول على الوش القـدماني دهـه . . دهه . . الله يلعنـه . . لا مؤاخذه مـا أقصدكش . . بـاردون . . الرك كله على القفا . . هو الوش المظبوط . . النضيف قفاه نضيف . . والعيـان قفاه عيـان . . والغنى قفاه ملظلظ . . هـو ده الوش اللي بحق وحقيق . . هنا هه . . كل حاجة هنا هه . !

وقاطعه صوت جاءنا من بعيد، كـان صوت زميـل له يسـأله عن البودرة، وحين هب الأسطى زكي من استغراقه في الكـلام معي ورآه زميله وهو في موقفه ذاك الضاحك وقال وهو يخاطبني :

ـ أظن قـاعد يقـولك عن القفـا يـا بيـه . . دا أصله دوشجي . . خللي بالك منه . . دا اسمه الأسطى قفا . .

وامتـلأ الصالـون بالضحـك والقرقعـات، واحمر وجـه الأسطى زكي قليلا وبدا عليه حزن سريع، ولكنه التفت لزميله وقال:

ـ قفا قفا يـا سي أنور إلا دي . . قفـاك يملا حله . . قفـاك يملا حله .

ومرة أخرى دوى الضحك وانصرفت عنـه الأنظار فـانقض على

أذني من جديد.. ويبدو اننا لا نتأثر بمعنى الكلام فقط ولكن أيضا بالطريقة التي يقال بها. وأول الأمر كان زكي يضحك ويصبغ الهزل كلامه، ثم بدأ يتكلم وكأنما ليذهلني بما يقول. ثم تطرقت إلى صورته رزانة ووقار، وبعد أن كنت أسمع له ساخراً تطرقت الرزانة إلى سمعي أنا الآخر وبدأت أنصت:

ـ بيضحكوا.. والله بيضحكوا على أرواحهم.. داحنا في نومه والله.. دول بيضحكوا على بعض.. الراجل يبقى مزوق من قدام وقفاه زي الطين.. يبقى ده لا مؤاخذة راجل مش نضيف وعايز يقول للناس انه نضيف.. بيضحك على الناس.. كل الناس بتضحك على الناس.. تعرف سيادتك بيقولوا عليّ ملحوس ليه؟. عشان وشي زي قفايا.. تسمح؟

وخلع رأس الكرسي بسرعة وطلى وجهي بالرغوة، وسن الموسى ووضع السيجار جانبا بناء على طلبي، وبينما الموسى يعمل ويزحف فوق ذقني بخفة ومهارة، مضى هو يقول:

ـ أهو احنا كده يا ولاد العرب.. ثم تعالى هنا.. تعرف ان الناس ليهم طبايع غريبة، قلت لي ازاي؟ كل واحد يخلي وشه القدماني مختلف عن الباقيين، وكل واحد عايز وشه الوراني يخليه على قد ما يقدر زي الباقيين. ده يربي شنب قد كده، وده يخليه دوجلاس صغير، وده دوجلاس كبير وده يدوبك خط، وده يقول والنبي تخلي القصة طويلة، وده يقول خليها انجليزي وحياتك. كل واحد عايز وش لوحده. انما تيجي للقفا.. اللي رقبته قصيرة يقول

خللي التدريجة عاليه واللي طويلة يقول خليها واطية. ليه؟ علشان ما يبقاش مختلف عن بقية الناس.. عشان يبقى طبيعي.. اتأمل يا استاذ في أحوال الخلق.. التلميذ ولا مؤاخذة عايز يبقى وشه زي وش البيه، والصنايعي عايز يبقى وشه زي وش التلامذه، والفلاح عايز يبقى زي الأفندي، وكلهم عايزين قفواتهم تبقى زي بعض. بص للزباين والناس اللي ماشيين في الشارع. بص لهم كويس تلاقي لهم مليون وش وقفا واحد بس.. قفا واحد بس.

حكمته! ربنا حط في كل واحد عقل وقال له امشي.. قوم شوف.. إلا دي.. يقولوا عليّ ملحوس، يقولوا حلاق، يقولوا اللي يقولوه.. انما والله العظيم تلاتة بالله العظيم الناس بتضحك على نفسها.. كل واحد بيضحك على نفسه، وكلهم ليهم قفا واحد. قول لي يا أستاذ، بذمتك قول لي.. ما دام قفاهم واحد ليه عايزين وجوههم مختلفين؟

فسألته وأنا في تفكير عميق:

ـ تفتكر ليه؟

فهز كتفيه وقال:

ـ والله ما اعرف.. كله مش داخل مخي. أنا يا عم كلهم عندي واحد وحياتك.. ما فيش حد أزيد من التاني. كلهم عندي قفوات. نش يا ولد نش.. نش جك وجع ينشك.

وكان قد انتهى من ذقني وأعمل يده وأصابعه في شعري

وسواه، ومضى يداعب الشعرات القليلة الناشزة ويحاول إخمادها.

وقلت وأنا أغادر الكرسي:

ـ يا أسطى زكي.

ـ نعم...

ـ نعم...

ـ نفسي تقول لي ايه اللي طلعت بيه من ده كله؟

ولم يجبني. كان قد لاحظ بضع شعرات في رقبتي أخطأتها ماكينته فرجاني ان أعود الى الجلوس، وانطلق بخطواته الكثيرة السريعة وهو يدفع هذا ويشاكس ذاك، وعاد ومعه ماكينة صغيرة.

وما ان بدأ يعمل حتى نتشت الماكينة الشعر بدل أن تقطعه، وسبب لي هذا ألما فقلت: أخ.. وما كدت أقولها حتى أغرق في الضحك، ضحك خاطف قصير، والتفت أرى ما يضحكه ولم أجد شيئا، وسألته فقال وهو ينفض الشعر عن ملابسي:

ـ بضحك ليه؟ أصلي هف عليّ الضحك ـ ما هي حاجة تضحك. انت مش بتسألني طلعت بإيه من الحكاية دي كلها؟

ولا حاجة وشرفك عندي.. ولا حاجة.. كل اللي طلعت بيه ان المكنة دي بقالها خمس سنين بتنتش، وحلقت بيها لييجي عشرة آلاف واحد وكل زبون كان لما توجعه النتشه يقول أخ.. كلهم.. زي انت ما قلت. نعيما! شرفتنا.. ما اعطلكش.. نش يا ولد نش!

داوود

لم يناقش أحد الفتوى التي تطوعت بها «الداية»، وكيف يناقشها أحد؟ العائلة كلها تلهفت شهورا واستعدت للحدث الضخم أيما استعداد. الأب ما كاد يرى المولود الجديد حتى أحس وكأن قلبه قد اختفى ـ برضاه ـ من صدره، وأصبح له صراخ وأنين، وانتفض حياة جديدة لفتها الداية في اللفائف، وكان ابنه الأول. والأم. . أم الولد ظلت تئن وتتلوى وهي حامل، وتلعن الحمل و«سنينه»، وتصرخ صراخ المستغيث من الحمل بالميلاد ساعة الميلاد، ولكن ما كادت تنفصل عنها«حتة اللحمة» وتراها في لونها الأبيض المشرب بحمرة، وتكشف لها الداية عورتها فتبلغ قمة السعادة بالولد، ثم يصرخ هذا الولد ويستغيث، وتعطيه ثديها وتحس بنغمشة حبيبة تسري في جسدها، والولد النونو العفريت يطبق بشفتيه الصغيرتين اللذيذتين على لحمها ويمتص منها اللبن في مهارة ودهاء، وكأنه تعلم الرضاعة خفية وهو لا يزال في بطنها. ما كاد هذا كله يحدث حتى انقلب الصراخ والألم الى محبة دافقة مفاجئة تغمر كيانها كلما مص الولد ثديها، أو أخذته في حضنها، أو رفض اللفائف بساقه الملظلظة

القصيرة التي لا تكاد تتعدى أصبع اليد . .

أجل . . كيف يجرؤ أحد على مناقشة الداية في فتواها، وقد دخلت تصيح على الأم بعد ان مضى على ولادتها يوم . وما كادت تجلس وتخرج علبة السجائر، وتشعل سيجارة وتأخذ نفسا وتبتلعه وتنفثه حتى قالت:

ـ بس أنا خايفه عليكي يا أم سمير(اذ كانت قطعة اللحم قد تحولت في يوم وليلة الى سمير) . .

وأحست الأم بنغمشة حبيبة من نوع آخر تسري في نفسها، نغمشة فرح واحساس بالمسئولية، تماما كتلك التي أحستها يوم أن اكتشفت لأول مرة وهي لا تزال بنتا انها أصبحت أنثى . ولهذا قالت في صوت واهن لم يكفها وهنه ولكنها أضافت اليه وهناً آخر دائما تتصنعه الوالدات:

ـ كفى الله الشر يا اختي . . ليه؟

فأجابت الداية وهي تنفخ نفس الدخان في ولعة السيجارة فتحمر الولعة كما يفعل عتاة المدخنين الرجال:

ـ بقى تبقي اسم النبي حارسك والدة . . وتخلي القطة قاعدة معاكي في بيت؟ . انتي مش عارفه ادلعدي يا اختي انها ولدت هيه رخره؟ .

ـ ولدت؟ !

ـ أي والنبي يـا اختي . . لقيتها راقـده . . اسم النبي اسم النبي حارسك في وش العدو.

ـ والنبي آدي حد علمي . .

وأنـا يا ختي داخله من البـاب وألقاهـا راقدة رقـدة الندامـة في سبت الغسيل بتاعكو. . لأ يا ختي . . لازم تشوفولكم طـريقة . . انتي عايزة ولادها البعيدة، البعيدة عن البيت وصحابه، تكبسك؟ .

ـ يا نهار اسود . . طيب ادلعدي يا ختي يا تفسريش .

ـ دي مجربه من ايام حوا وآدم يا أم سمير(وكأنها بسـلامتها هي التي أشرفت على وضع أمنا حواء) . . الله يعـافيها بـالعافيـه بقى بنت أخت ألفت هـانم عملتها . . وبعيـد بعيد عن البيت وصحـابه جـرالها اللي ما يجرى لعدو ولا لحبيب . .

تم هـذا الحـديث في الصبـاح، وفي الـظهـر جـاء الأب من الخارج وقد قام بكل الاجراءات الواجبة التي يتخذها الوالد في أمثال هذه الحالات، فاقترض مبلغا محترمـا فك بـه ضائقتـه باسم الكـارثة التي حـدثت، وقام بـإبلاغ الخبـر الى كل الأهـل والأصدقـاء. وكـاد يوقف الناس في الشارع ويخبرهم انه رزق والحمد لله بمـولود ذكـر، وكذلك حصل على إجازة من عمله استطاع بها أن ينهي بعض المشاغل التي تراكمت عليه، وما كاد يضع قدمـه في الحجرة حتى فـوجىء بيا سيـدي أولاد القطة لا يمكن تقعـد في البيت، لماذا يـا ستي؟ الدايـة قالت كيت وكيت. يا ستي كله تخريـف في تخريف. انا مالي! لا بـد

من إبعاد أولاد القطة حالاً. يا ستي ماليش دعوة. . أنا كوم وهم كـوم يا أنا يا هم. حاضر يا ستي أمري إلى الله. .

وقبـل أن يختفي الأب لتنفيـذ المهمـة عن لـه أن يحيي القـادم الجديد، فاقترب منه وأخذ يزغزغه باصبعه الكبير الخشن ويقـول وهو يلعب حواجبه ويقوم بأنفه وفمه وعينيه بحركات بهلوانية:

ـ سما الله عليكي. . سما الله عليكي. . زقـزق زقزق. . سمـا الله عليها. . توتو توتو توتو. . عوعو عوعو. .

وكـانت الأم تراقبـه في ضيق وكأنـه ينتزع منهـا شيئا يخصهـا، ولكن مـاذا تقول؟ هـو الأب على كل حـال. ولكنها حين وجـدت ان ابنهـا بدلا من ان يضحـك أو يبتسم فتح فمـه الصغير وضم سـاعديـه وانبعث منـه صـراخ لا ينبعث عن بـالغين، دفعت يد الأب في عنف وضمت الولد اليها وأخرجت«حلمتها» بحركة تلقائيـة، وفرضتهـا على فم الصغير فرضا وهي تقول:

ـ امشي يا بعبع. . تعالى يا حبيبي. . تعالى يا ضنايا. . تعـالى يا حتة من كبدة قلب أمك يا خويا. .

ولدهشة الأب سكت الولد قليل الأدب، بل اندفع يتلوى جذلا كالدودة الصغيرة وهو يمص الثدي بصوت مسموع. .

وخرج الأب من الحجرة كالبعبع المكسور الخاطر. .

* * *

وبحث عن القـطة كثيراً إذ لم يكن يـدري أين سبت الغسيـل، بـل هو بصـراحة لم يكن يـدري في أعقاب ذلـك الميـلاد وجهـه من قفاه. وكان لا يمكن أن يجدها لولا المواء الخـافت الذي جـاء فدلـه على السبت والقطة. ووجد الماكرة راقدة في تلافيف المربس ووقف يـراقبها من عـل. كـانت نـائمـة على جنبهـا تكـاد تبـدو بلونهـا البني المـطعم بالأسـود كفستان مكـور من فساتين امـرأتـه، وكـانت تصنـع برقدتها قوساً يكسوه من الداخل شعر بطنها الأبيض النظيف، ويحفـل التجـويف الذي يصنعـه القوس بثـلاث قـطط صغـار. كـانـوا صغاراً جداً.. حلوين وكأنهم لعب أطفال مصنوعة من قطط حية.

وكـان من الممكن ألا يقف الأب هكذا طـويـلاً يـراقب القـطة وأولادها، ولكنه لم يـدر السر الـذي جعله يقف جامـداً هكذا يـراقب هـذه الكتلة الحية المكـومة في جـانب من السبت. كان أولاد القـطة يتناوبون الرضاعة ولا يكفون عن الحركة. ويدفع الواحد منهم الآخـر بـرأس مغمض ليـأخـذ نـوبتجيتـه على الثـدي الصغيـر، حتى إذا مـا اكتشفت أن أخاه قد شطب عليه انتقل إلى ثدي آخر وأعمل فيـه فمه الأحمر الدقيق..

وكانت الأم متكئة على مـا يجاورهـا من ملابس تـراقب الأولاد بعيـون وسنانـة نصف مفتوحـة، وشواربهـا مهدلـة على جـانبي فمهـا غبـطة، وكان يبـدو انها في قمـة السعادة. وكـانت أحيـانـا تبقى على وضعهـا ذاك، وأحيـانـا تنقـل رأسهـا فقط دون جـذعهـا وتـدفنـه بين أولادها، فيصبح وكأنه قطة رابعة هو الآخر، وأحيـانا تلعقهم بلسـانها

النظيف، وأحيانا تدفع الواحد منهم عن ثديها في رفق لتعطي الفرصة لآخر..

كان الرجل واقفا فوق رأسها في وضع لا تراه فيه. واقفا وقد ذهب عنه التحفز الذي جاء به، وتراخت ذاكرته وذكرياته وتعددت ألوان القطة في عينيه وتاهت. لم تكن القطة هكذا يوم جاءت. كانت شاحبة عجفاء يوم جاءت! لقد استيقظوا يومها فوجدوا في المطبخ كارثة.. كانت امرأته قد أبقت حلة الطبيخ مكشوفة بعد أن غلتها حتى لا تحمض، واذا بهم يفاجأون بحدثين خطيرين.. اختفاء قطع اللحم التي كانت في الحلة كلها، ومواء قطة في الشقة.

ويومها أمسكت امرأته فردة القبقاب وظلت مدة طويلة تحكم النيشان ثم قذفت بالفردة.. ولولا أن القطة تحركت في الوقت المناسب لكانت قد أصبحت في ذمة التاريخ.. ذي الذمة الواسعة. وظلت بعد هذا تتحرك وتزوغ بطريقة لولبية من كل الفرد والمداسات وقطع الأخشاب والزجاجات وأيدي المقشات، وأثبتت بهذا أن القطط ليس لها سبعة ارواح، وإنما لها روح واحدة طويلة مصنوعة من مطاط يلين ولكنه لا ينقطع.

والمثل يقول: ما محبة الا بعد عداوة. وهكذا وحين لم تفلح الزوجة في اصابة القطة أو اجلائها عن الشقة التي وجدت فيها كل تلك الكمية من اللحم، سلمت امرها لله واتخذت الاحتياطات اللازمة لتأمين الطعام. ثم ما لبث أن أدركت أن صراصير المنزل

تتناقص باستمرار، وأن الفأر المرعب الذي كان يطلع ويبصبص لها بذنبه قد اختفى، وحينئذ ادركت أن لون القطة جميل وشعرها ناعم، واذا شبعت أصبحت لطيفة مؤدبة بنت حلال دمها زي الشربات. وحينئذ، وحينئذ فقط أنعمت عليها الزوجة باسمها وصارت معها مثل اللبن على العسل. أنيسة عيب، أنيسة اطلعي بره، أنيسة عمى في عينيك. بل انها أحيانا كانت تشكو لها متاعبها وتأخذ رأيها في كثير من المشاكل. والحقيقة أن أنيسة أثبتت في كثير من الأحيان أن لها نظراً بعيداً، على الأقل أبعد من نظر الزوج..

والذي حدث أن أنيسة شحمت ولحمت وصارت حلوة على مر الأيام، ولا بد أن جودة طعامهم كانت هي السبب، ومع مقدم الدفء والربيع بدأت أنيسة تكثر من حك نفسها في الزوج وأحيانا في الزوجة وتكثر من الأزيز والسرحان. ثم جاء اليوم الذي بدأت فيه تموء مواء غريبا عجيبا يكاد ينطق ويقول: داوود.. داوود..

ان الرجل يذكر هذه الآونة تماما.. فامرأته هي الأخرى لم يرها أجمل ولا أروع مما رآها في تلك الأيام.. كانت خدودها الشاحبة قد أصبح فيها خوخ وتفاح، وعيونها امتلأت بأشياء وأشياء، وهي كلها قد حدث فيها حادث غيرها وحلاها وجعل منها سنيورة جديدة في نظره. ولكن العجيب انه بالقدر الذي احلوت به ملامحها فسدت طباعها.. المشاحنات أصبحت لا تنقطع، وثمة غيرة جديدة طرأت عليها لم يكن يدري من أين جاءت، وكان يأتيها المرض الشهري قبل ذلك وهو لا يكاد يحس به، فاذا به أصبح لا يجيئها الا

وهي راقدة تتلوى وتتأوه. فاذا أفاقت من المـرض ظلت تذكـره، واذا غاب عنها ذكره اختلقت شجارا، وخاصمته وتبغددت وهي تصالحـه، وأكثـرت من شروط الصلح. ثم حكـاية وجـع ظهرهـا الـذي كـان لا يلازمها الا في أوقات معينة، ولا يحلو لها الشكوى منه الا في الليل، في عز الليل وهو نائم، تظل تشكو بصوت مسموع وتتبـاكى من الألم حتى يستيقظ، فـاذا تناوم جـذبت من فوقـه الغطاء لتسنـد به ظهـرهـا الموجوع.

بالضبط انه يذكر تلك الأيام التي بدأ فيها مواء القطة وعواؤها، اذ طالما صحا من نومه على داوووود وهي تجلجل في سكـون الليل. وكانت امرأته تصحو هي الأخرى اذا لم تكن صاحية، ويتأملان النداء ويلعنانه كثيرا ثم يناقشانه في خجـل، ويتفقان على انهـا لعوب تجـأر في طلب الذكر، ويدلفان أخيرا الى سجال أكثر امتاعـا يهيجه العـواء الأنثوي الذي لا ينقطع..

ومـا أكثر مـا جره العـواء من متاعب، اذ استجـاب لـه ـ لسـوء الحظ أكثر من ذكر. وكـانوا ـ لسـوء الحظ أيضا ـ كثيـرا ما يقبلون في وقت واحـد وتقوم المعـارك.. معارك حـادة لا رحـمة فيهـا ولا هـوادة كثيرا ما أفسدت ضجتها النقـاش الآخر الـذي كان يـدور بين الرجـل وامرأته..

والأدهى من ذلـك أن المعركـة وصلت ذات يـوم الى الحجـرة

التي ينامان فيهـا، ووصلت في لحظة حـاسمة من لحـظات النقاش. وكف الـزوج عن الجـدل في الحـال وراح يشخط ويهـدر في القـطة وصاحبيها. واكتفى بالشخط من بعيد لبعيـد فالقـطان كانـا غريبين لم يرهما قبل ذلك وفي عيونهما شر مستطير، وكان الـواحد منهمـا يزعق في الآخر فيقابل الآخر زعيقه بزمجرة لا تقل عنهـا قسوة، يعني حـالة يستحسن فيها الابتعاد قدر الطاقـة عن أرض المعركـة. وكانت أنيسـة واقفة ترقب العراك بعينين فيهما تهافت وحور. . وكلما آذنت المعركة بـالانتهاء ارتفـع صوتهـا الأخنف داووود. . داووود. وتستعـر نيـران المعركة من جديد. والغريب انها كانت، مثل المعارك التي تنشب بين المصريين. . كل قط واقف بعيدا عن الآخر يرعد فيه ويلعن سنسفيل أجداده، ويحاول اخافته وإرسـاء الرعب في قلبـه ليتراجـع فيظفـر هو دون اراقة قطـرة دم، والطيب أحسن! ولكن حدث أن تطور أحدهمـا على الآخر. وهذا الذي تطور كان يبدو أصغر من الآخر سنا فاقتـرب من العجوز وقذفه بصرخة مرعبـة، ولم يتراجـع العجوز وكـأنما أدرك بحكمته ان المسألة تهويش لا أكثر ولا أقل. وحينئذ فقد صغير السن والخبرة أعصابه ورفع كفه الأمامية وأهوى بها على وجه غريمه هكـذا بسرعة متهورة غاضبة. وما كـان من العجوز إلا أن كف عن الصـراخ في الحال وحدق في ضاربه برهة، ثم ألقى عليه نظرة احتقـار هائلة، واستدار في عظمة نمر وغادر الحجر وكاد يصفق الباب خلفه.

وتحركت أنيسة، واقتربت من المنتصر وحكت كتفها في كتفه قائلة

بصوت خافت آثم: داوووود. وغمغم القط في وقار الفائز كأنما يقول لها: صبرك بالله يا وليه أما القط نفسي.

وكان الزوج في وحدته البعيدة مع امرأته، كلما شهد معركة كتلك يحمد الله على ان امرأته انسانة تزوجها بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، وحجزها لنفسه بقسيمة. وليست قطة كان عليه الفوز بها ان يصارع الذكور الآخرين ويموت قلبه من الرعب في كل مرة، وقد تناله صفعات الجيل الجديد.

ومع كر الأيام جاء اليوم الذي عاد فيه السلام الى البيت، فانقطعت أرجل الذكور وانقطع مواء أنيسة وانقطع الوجع الظهري والخلافات المزعومة، وكذلك انقطع المرض الشهري وحملت زوجته.

وابتسم الرجل والتاريخ يوقفه عند تلك الأيام، لعله اعتقد لحظتها أن أنيسة وداوودها كانا السبب في سمير أو على الأقل عجلا بقدومه. فبعدما انتفخ بطن انيسة، وبدأت زوجته تتوحم وتطلب النادر.. ثم وضعت أنيسة أربعة قطط جميلة احتكرت امرأته تفريقها على أقاربها، ثم بدأت أنيسة تعوي مرة أخرى، وانتفخ بطنها وها هي ذي تلد للمرة الثانية، وتجيء هذه المرة قبل ولادة سمير بأيام.

وفي النهاية كان لا بد أن يمد يده ويتناول القطط الصغار وينفذ المهمة.

وحدث فعلا أن مدها ، ولكنه جذبها بسرعة وقد أصابته لسعة

طويلة حادة فوق ظهر يده تفجر على أثرها الدم. وبهت الرجل كمن طعن. ونظر الى انيسة نظرة المروع المستنكر. كان هذا آخر ما يتوقعه منها بها اليفة أنيسة..

وما أن مرت الصدمة حتى امتلأ قلبه بغضب جامح، وكأنما استنكر على القطة ان تخدعه بذلك الهدوء المزيف ثم تنشب أظافرها فيه. وانشب عينيه فيها وكلها غضب.. وكان فى عينيه خوف أيضا، فأنيسة كانت قد انتفضت واقفة ووقفت كل شعرة في فروتها، وانتصبت شواربها المتهدلة، واكتسى وجهها تعبيرا بشعا مخيفا.

وليس هذا كل شيء، فافظع ما في الأمر كانت عيونها.. أجل عيونها، فقد خيل اليه ان وجهها يحفل لا بزوج من العينين المتنمرتين الواسعتى الحدقات، وانما بعشرات من العيون كلها مفتوحة على آخرها وكلها تبرق وتلمع وتتملظ ولا تبشر بأي خير.

واسقط في يده.

كانت القطط الصغيرة قد اندست بطريقة ما تحت بطن أمها وكفت عن الرضاعة، وانكمشت على نفسها وكأنها استشعرت الخطر. وكان الوصول إليها دونه تلك الأم المخيفة ذات الآلاف فن المخالب والعيون والأسنان.

ولم ينشب الرجل عينيه فيها طويلا، لا عن فروغ بال وانما عن خوف. ان التحفز ولو كان من قطة يخيف. خوف حقيقي أصابه من العينين.. هاتان البليتان الصغيرتان الخضراوان كانتا قد التهبتا

وانـطلقت منهما شعـاعات لا تـرى وانما تـرسـل الـرعـدة في أشجـع الرجال.

دلدل الرجل ناظريه ولم يملك الا أن يبتسم، فقـد واتته ـ دون ان يدري ـ صورة أنيسة الحائرة على نفسها الـطرية كـالخرقـة المبتلة وهي تجأر في استغاثة خنفاء قـائلة.. داوود.. داووود.. أجل.. شتان بينها ساعتذاك وبينها الآن!

واستأنف الهجوم. ولكنه ما لبث ان تـراجع حـالا اذ ما كـادت تراه يقترب حتى قالت: نو! ولم تـك ناواً عـادية ابـدا، خيل اليـه ان جسمهـا كله قد استحـال الى صفارة انـذار اطلقت ناواً حـادة راجفـة حـامية تقشعـر لهولهـا الأبدان. وفي نفس الـوقت اندفـع الى وجههـا سيال لافح من الانفعالات اخرج حمما من عينيها، وكهرب شواربها، وأبرز اسنانها فبدا فمها كفوهة حية ضخمة من نوع الكوبرا.

ودق قلب الرجل.

دق مرات من الخوف.

ومرات أخرى حين تذكر ان عليه الا يخاف.

وجمد قلبه.

واشمعنى هوه يعني؟

ان له حنجرة هو الآخر.

وأطلق من حنجرته صوتا عاليا.

امشي !

وزأرت أنيسة .

واختلطت ناو ناو وامشي . هو يشخط وهي تزأر وكلاهما ثابت في مكانه لا يريم .

وأعمل الرجل عقله .

وهكذا جاءت المقشة . . ومدها على قدر ما استطاع ودفعها في وجه انيسة . وتراجعت القطة الى الوراء وهي تزأر زئيرا متصلا ترتعش له طبلة اذن الأصم .

ولكنها لم تغادر السبت أبدا .

وكان لا بد مما ليس منه بد . . ورفع الرجل المقشة وأهوى بها . وقفزت أنيسة جانبا فلم تصبها الضربة ولكنها انقضت على رأس المقشة وضبعت فيها بأظافرها . وما كاد يحاول إعادة الكرة حتى كانت اسبق منه ، وحتى بادرته قافزة ناحيته صارخة صرخة متوحشة لا تمت أبدا الى أنيسة ولا الى القطط أجمعين .

وبلا وعي قفز هو الآخر متراجعا ، قفز بشكل لا يمت اليه ولا الى الجنس البشري كله ، اذ في قفزتين اثنتين كان قد عبر الصالة وفتح باب الحجرة التي ترقد فيها زوجته واستقر بجوار فراشها يلهث .

ـ خير كفى الله الشر .

وكان لها كل الحق ، فقميصه مفتوح وعرقه يسيل ونظراته

زائغة والشحوب قد غمر وجهه.

وحاول أن يرد، ولكنه كف عن المحاولة اذ ماذا يقول؟

كل ما قاله كان«ولا حاجة». . قالها وهو يعود خارجا باحتراس شديد ويتفقد الصالة ليطمئن، ويطمئن، فأنيسة كانت قد عادت إلى السبت وأمسكت بواحد من أولادها بين أنيابها.

أه . . تريد بلا ريب أن تحمل أولادها وتهاجر الى مخبأ آخر. ولكن حيلك يا ست أنيسة.

كانت المقشة في مكان بعيد عن خط النار، فتناولها من جديد ولجأ الى الحيلة فرفعها وأهوى بها، وحين قفزت أنيسة بعيدا عن السبت مد المقشة وظل يجذبه وهي واقفة في مكانها تصرخ حتى أصبح في متناول يده. . وحينئذ تناول القطط الثلاثة واحتواهم بين كفيه. .

وكان يتوقع مثلا أن تقفز عليه وتشبعه خربشة وعضا، أو تنهش وجهه وتدمي عينيه، وكان قد جهز نفسه لكل ذلك.

ولكنها ظلت واقفة في مكانها بنفس تحفزها تصرخ وتنكمش على نفسها وتنقبض، وتكاد لا تدري ماذا تفعل.

ووقف الرجل أيضا لا يدري ماذا يفعل.

كان خائفا ان يتحرك فتتحرك وتنقض.

وتحرك ببطء أول الأمر.

ولم تغادر أنيسة مكانها حتى حين وصل الى الباب وخرج.

ماذا حدث؟

ألا تدري الغبية أنه قد أخذ أولادها؟

أم أنها خافت؟

أو هي تدافع عنهم فقط اذا كانوا في حوزتها تحسهم بشعراتها، وتلمسهم بلسانها، حتى اذا ما صاروا في حوزة الغير أصبحت المسألة اعقد من ان تستطيع حلها؟

وهل هي تستطيع الدفاع فقط ولكنها لا تستطيع الأخذ عنوة أو الاغتصاب؟

وهل الدفاع هو الغريزة الأصيلة، والاغتصاب هو التفكير الشاذ الذي يحتاج الى تدبير وتفكير وغدر؟

قد تكون اسئلة مثل تلك قد دارت في عقل الرجل وهو يغادر البيت، وقد لا تكون قد خطرت له بالمرة. في تلك الأثناء كان يستمتع بلذة الانتصار فقط.. وحين لاحت له مشكلة التخلص من القطط وهو سكران بخمرة النصر ومغرور، وجد حلها امرا سهلا فما عليه سوى القائهم في اية حارة.

وأسكت الانتصار غروره وحين هدأ قليلا وأذهب عنه خمر الغرور بعض الجوع للثقة في نفسه، جاءته الانسانية. وقرر أن يهبهم

لبعض جيرانه. قد تكون حلولا مثل تلك قد دارت في عقل الرجل وهو يغادر المنزل.

* * *

- خلاص يا ستي ولا تحملي هم.

ولم يفت الزوجة وهي تبتسم له شاكرة أن تتأوه وتشكو من الألم والوهن.

ولم يفته وهو يروي لها تفاصيل المعركة أن يبالغ.. قليلا أول الأمر، ولما لم يجد لدى الزوجة مانعا ساق فيها وفتح باب المبالغة على مصراعيه..

وظنا ان المتاعب قد انتهت عند هذا الحد.

ولكنهما قضيا أتعس ليلة.

جدران البيت ظلت تردد نداء واحدا لا ينقطع.. ناو.. ناو.. ناو..

كان الصوت غاضبا أول الأمر، قصيرا رفيعا كالسكين الحادة حين تقطع في الجسد.

وكلما امتد الظلام والسكون كان الصوت هو الآخر يمتد ويطول.. ناو.. ناو.. ناو.

ولم يعد الرجل يحتمل. اقتحم الصالة خارجا ورمى أنيسة التي كانت تروح وتجيء ولا تكف عن النونوة لحظة.. رماها بفردة

الحذاء، ولم تحاول هي ان تتجنب القذيفة فأصابتها وأوقعتها، وقامت واستأنفت غدوها ورواحها ولم تسكت، بل أضيفت الى النـاو نغمة جعلتها تبدو أكثر حزنا ووقعها يبدو أكثر مرارة، كما لو كانت السكين التي تقطع في الجسد قد تلمت حافتها فأصبح صوتها بطيئا قاسيا له أزيز وأنين.

وبدأ الصوت يتغير ويتبدل.. ويصيح آي. آي منفردة وآي متصلة طويلة تكاد تنطق مخارجها وتتجسد حروفها.. آهات حقيقية كأنها متصاعدة من صدر آدمي ممزق.

ولم يكن في استطاعة الرجل ان يفعل شيئا. الحذاء ورماها به، وصوته قد بح من الكش فيها ومطاردتها. كان عليه فقط ان يستلقي على الكنبة ويستمع الى امتعاضات امرأته وتعليقاتها على نباح القطة..

وقالت له الزوجة بغتة في الظلام.

ـ أبو سمير.

ـ مالك؟!

ـ أنا خايفه.

ـ ليه يا ستي؟

ـ القطة.. دي بتبكي زي البني آدمين.

فقال ليفحمها:

ـ شورتك .

فأجابت :

ـ امال يعني عايز الولد يموت . . عـايزني انكبس . . آه يـا ميلة بختي !

وانطلقت تئن وتتوجـع ، ثم سكتت طويـلا حتى خيل اليـه انها نامت ولكنها قالت فجأة :

ـ أبو سمير .

ـ مالك ؟

ـ تروح تجيب لها أولادها .

فأجاب الرجل في غيظ :

ـ انتي عايزه الولد يموت . ثم أجيبهم ازاي دلوقتي ؟

وحـل سكـون آخـر ختمتـه الـزوجـة بمفاجأة ، اذ راحت تنهنـه وتبكي . وأصبحت القـطة تئن في الخـارج وتـعـوي ، وهي تـبكـي وتستجيب وتعدد .

* * *

وفي الصباح كان العواء قد خبا ، ووجدوهـا ملفوفـة على نفسها في الصالة نائمة على البلاط الرطب . وقدموا لهـا الطعـام فلم تتحرك لها شعرة . واشتروا لها نصف رطل من اللبن لأول مرة فلم تعره أنيسة

أي التفات. بقيت مغلقة عينيها لا ترى ولا تحس، تزوم وتئز وتحيا في سكوت ذاهل آخر.

ومضت ايام..

تحـركت أنيسـة وطلبت الـطعـام بنفسهـا، وعـادت تصـطاد الصراصير وتغتالهم. ثم بدأت صداقة غريبة بينهـا وبين الرضيـع. لا يدري أحد كيف اكتشفته، فقط لاحظت الأم انها تفضل النوم بجواره في الليـل، فاذا أصبـح الصباح داعبتـه.. أحيانـا تضع بـوزهـا فـوق قدمه، وأحيانا تفتح فمها وتكـاد تقضم اصبعه الكبيـر(كده وكده). ثم تقوس ظهرها وتلعب ذيلها وتحك شعرهـا في وجهه. وكـان الرضيـع يصرخ أول الأمر ويستغيث، وكانت الأم تصرخ هي الأخرى مخافة ان يقتل هذا العبث(بطريقة ما) ابنها. ولكن الرضيع وأمه أدركا أخيـرا ان الأمر لا يتعدى حدود المداعبات البريئة..

ولـم يستمر الوضع هكذا فقـد مرض الـطفل. وحـاولت الدايـة عـلاجه والـداية لا تكتفي بتـوليـد الأطفـال وانمـا هي تعـالجهم بعـد مولدهم وترعاهم، وتطاهرهم حين يكبرون، ثم تخطب لهم وتزوجهم اذا شبوا، وأحيانا هي التي(تلتمهم) وتغلق عيونهم اذا واتـاهم الأجل المحتـوم. حاولت الـداية عـلاجه ولم ينفـع عـلاجهـا، وزادت شـدة المـرض. وفي طابـور الأمهات المنتـظرات أمـام شبـاك التـذاكـر في مستشفى(رعاية الطفل) مات الطفل.

وانقلبت الشقـة الى مـأتم، وجـاء المعـزون أقـارب وأصـدقـاء

وعمات وخالات وأشكالا وألوانا. ولبست الأم السواد وتعصبت بمنديل.

وجلس الأب بعد ان فرت من عينيه بعض الدموع.. جلس في وقار يتلقى التعازي ويحكي قصة المرض والوفاة ألف مرة، ويستمع إلى الدنيا على دي الحال، وشد حيلك، وقالوا يا جحا عد موج البحر، قال الجيات أكثر من الرايحات، ويا اخي انت شباب شم نفسك، وهات لنا عشره.

وخرب المرض بيت الرجل، وجاء المعزون فقضوا على ما تبقى فيه من بن وسكر وملاليم.

وبعد ان انصرف الجميع جاء الزوج ليرقد بجوار زوجته على السرير وقد انتهى عهد الكنبة، وبكت الزوجة وشهقت من اجل هذا المجيء. وحين جاءت أنيسة كالعادة تتلصص لترقد بجوار الطفل تشبثت بها الأم وظلت تعوي وتبكي وتتساقط دموعها على أنيسة التي أخذت هي الأخرى تنونو نونوات خافتات.

وهدهد الزوج.. وغالت الأم.. ثم كفت. ودار حديث، الأم تقول ان ابنها مات من الكبسة. فقد مكث أولاد أنيسة يوما بطوله بعد الميلاد تمت اثنائه عملية الكبس وطار الولد. والأب يقول.. أبدا، السبب مستشفيات الحكومة والاهمال. لو كان عندنا فلوس كنا رحنا لحكيم متخصص في الأطفال، السبب الفقر، الله يلعن أبو الفقر.

وجادلت الزوجة وبكت. وحينئذ قال الزوج.. قسمة ونصيب

هو المكتوب. الأعمار بيد الله.

وغالت الأم وجادلت، فقال الأب وقد تروحن.. هو الحي الباقي، هو المعز المذل القادر، الأطفال لهم الجنة ونحن لنا الجحيم. أجسامنا قد صنعت من المعاصي. لنا النار والعذاب ولهم الجنات والخلد. ليتنا متنا ونحن أطفال! ليتنا متنا وكنا ترابا!

وفي الصباح كان الأب جوعان، ولو كان الود وده لأكل. ولكن الأم رفضت أن تلمس الطعام حين ألح عليها، ولم يتناول هو الآخر الافطار اذ لا يصح أن يبدو أقل منها حزنا.

وحين عاد في الظهر كانت تبكي، وفي العصر تثاءبت ونامت، وفي المغرب كان عندها صداع.

* * *

ومرت أيام وأكلت الأم، ولكن الحياة لم تعد كما كانت. ظل البيت يسوده الوجوم وتهب عليه نوبات نواح ذكرى الولد في الحديث العابر.

وكان الشتاء قد مضى وبدأ الدفء يحل. وفوجىء الأب ذات ليلة بصوت أنيسة يلعلع في ظلام الشقة.. داوووود.. داوووود..

واستمر العواء أياما.

وبعد وفاة الولد كانت الأم تشكو من الصداع الذي ينتابها بين الحين والحين.

ثم بـدأ الصـداع يـزحف الى أسفـل ويصيب الـرقبـة وفقـرات الصدر، وما كـادت الزوجـة تمد يـدها ذات ليلة وتجـذب الغطاء من فوقه لتسند به الظهر الذي بدأ الوجع ينتـابه، حتى تنبـه الرجـل تمامـا وصحا ولم ينم.

وهكـذا لم تستمر مـطالبات الـزوجة بـالفستان الحـرير للصيف طويلا، ولا المناكفات أو المهاترات، اذ سـرعان مـا جاء اليـوم الذي عـاد فيه الهـدوء الى البيت فانقـطعت أرجل الـذكور، وانقـطع عـواء أنيسة، وانقطع الوجع الظهري والمطالبات التي لا تنتهي.

وكذلك انقطع المرض الشهري..

مارش الغروب

كانت الصاجات تخرج صاخبة زاعقة وعلى دفعات كهدير الديك الرومي، وكنت تستطيع أن تسمعها من بعيد حتى اذا ما وصلت الى كوبرى شبرا البلد عثرت على مصدرها.. على بائع العرقسوس.

كان الرجل مسنا كمعظم بائعي العرقسوس ويرتدي زيهم التقليدي.. فوطة حمراء قديمة نظيفة لفها حول وسطه، وفانلة بمبة بأكمام، ولا شيء غير هذا يستر الجسد خلا السروال الطويل الذي يترك الساقين عاريتين.

وكان للبائع لحية طويلة ولكنه لم يكن سنيا، كان واضحا انه يطلق لحيته كنوع من عياقة الكبار، أو لإحاطة نفسه برهبة مصطنعة، أو على أقل تقدير ليوفر ثمن حلاقتها كل يوم كل يوم.

كان واقفا في وسط الكوبري تماما وهو وإبريقه يكادان يسدان الطريق، فالابريق كان ضخما قديما وكأنه هو الآخر عجوز مقعد كتب على البائع أن يحمله فوق صدره مدى الحياة، وكانت له بوز رفيعة

ممتدة وملتوية عند آخرها وكأنها يـد العجوز التي عـوجها الشلل حين تمتد لتستجدي .

وكانت يدا الرجل مـدلاتين خلفه ويـده اليمنى لا تكف عن دق الصاجات، ويخرج صوتها له ضجة وصراخ. وكان يدق على دفعـات كل دفعة دقتين متتاليتين ثم يصمت برهة، ويعود الى الـدق ويقول«يـا منعنش» وكان ينطق منعنش بلهجة لا نعنشة فيها ولا حماس، فالدنيـا كـانت شتاء، والشمس غـابت من هنيهة، والكـون يعبق بذلـك الجو المـريض الـذي يتبـع مغـرب الشمس ويسبق حلول الـظلام. وكـان الناس يمضون فوق الكوبرى صامتين مسـرعين. . في اسراعهم كـآبة يوم يموت، وبرودة شتاء.

كـان الناس يمضـون ولا أحـد يلتفت الى البـائـع أو تسترعيـه دقاته، فالدنيا شتاء، ومن يشرب عرقسوسا في الشتـاء؟! . . من يفكر حتى في فتح فمه أو التلكؤ لأخذ شفطة؟!

ورغم هذا استمرت الصاجات تعمل وتهدر بزعيقها المتـوالي، وكلما حدق البائع في الكون ورأى الناس يختفون من حوله ويتسربون وكـأنما تبتلعهم مخـابيء سريـة. . وكلما رأى الجـرح المدمم الـذي أحدثته الشمس الغائبة في السماء حين اخترقتها الى عالم الـظلام. . كلما رأى هذا قصرت المسافة بين الدقات وأصبح صوتها أعلى وأكثر حـدة، وانطلقت حنجـرته تعضـد الدقـات وتقول يـا منعنش، تقولهـا حنجرتها متقلصة مثنية على نفسها وكأنما انحنت تستخلص «منعنش»

وهي عاصية في قاع حنجرته لا تريد أن تخرج، فالابريق كان لا يزال راقداً فوق صدره كالمصيبة الثقيلة، ولا يزال ممتلئاً وكل ما باعه منذ الصباح كان لم يتعد بضعة قراريط لا توقد مصباحاً ولا تغمس لقمة.

والدقائق تمضي بسرعة، والوقت يتسرب تسرب الناس كأنما أصابه البرد هو الآخر.

وتدق الصاجات عالية صاخبة هستيرية تريد أن تتحدى وتستوقف الأسماع، والظلام يتكاثر وتصبح له دنيا كبيرة، وبرد السماء يطبق على الأرض، والناس يصغرون ويصغرون، وكل شيء تصبغه رمادية زرقاء ويبرد ويصبح لا حياة فيه. وتزأر الحنجرة يا منعنش، وتخرج منعنش حادة تكمل صخب الدقات، وبين كل آن وآن يقول: يا كريم سترك. ويمد الكاف وكأنه يصنع منها حبلا رفيعا يمده فوق الكوبرى ليوقف الناس، ويتبعها بسترك مقتضبة خارجة من الصدر وكأنما يسترضي الناس بعد هديره ويصالحهم بها.

والناس رائحة غادية، ميتانة، سقعانة، ناشفة، وجوههم شاحبة فيها غضون، وعيونهم ذابلة فيها شتاء، ولا يريد أحد ـ رغم وجوده في وسط الكوبرى ـ أن يلقي عليه نظرة.

وأطلق الرجل يا منعنش وأتبعها بيا كريم سترك، أطلقهما عاليتين صاخبتين مدويتين كاستغاثات أخيرة لسفينة تغرق.

وأيضا لم يلتفت أحد.

والـوقت يمضي، والمارة يقلون، والسمـاء تـزداد إطبـاقـاً على الأرض، وعالم الظلام يكبر ويكبر، والجـرح الذي في السمـاء يلتئم وتذهب حمرته وشفقه، والناس يتحولون من كائنات الى أشباح.

وبـدأت دقات الصـاجات تنخفض، ولـم يعـد الرجـل يقول يـا منعنش، كان فقط يردد يا كريم سترك. وكان يقول يا كريم متضرعـا، يقولها لكل شيء حولـه، للأرض والسمـاء وعربـات النقل والكـارو، وحتى لصاحب الغرزة الجالس هو الآخر يرتعش ويستعد للرحيل.

وكـان ما في صـوته من ضـراعة ينتقـل الى نحاس الصـاجـات فتخرج الدقات متتابعـة نغم، وعلى دفعات، ولكن فيهـا بحة، وكـأنه يـريد أن يـرجو النـاس فقط أن ينظروا اليـه.. فقط ينـظرون اليـه ولا يشتـرون. لماذا يـزورون عنه ويشيحـون بوجـوههم يتهربـون وكـأنهم يفرون من واجب ثقيل؟ ماذا عليهم لو فقط يلتفتون؟

ولم تفلح الدقات ولا أفلح النداء في جلب نظرة.

وهنا كست وجه العجوز تكشيرة طيبة فيها يأس، وتهدل حاجباه فوق عينيه في عتـاب صامت. وكـانت يداه لا تـزالان مدلاتين خلفـه ولكن الـدقـات همـدت حـدتهـا وتبـاعـدت وأصبحت كـدقـات قلب المشـرف على الموت، تسكت طـويلا ثم تبـرق فجأة وكـأنهـا تقـاوم الفنـاء. وبين الحُين والحين يلقي الـرجـل نـظرة على القـراريط التي بـاعهـا وآلاف القـراريط التي لم يبعهـا، ثم يتمتم من بين شفتين ترتجفان بالبرد: يا كريم سترك.

وظل الرجل واقفا هكذا وكأنما ينتظر شيئا ما، معجزة تحدث وتفرغ الابريق وتملأ جيبه. ثم خفت القدم، وخطا الكوبرى عله يرزق. ولم يرزق، ووقف على جانب يحدق في الأرض والسماء والأضواء البعيدة والقريبة. . ولا شيء يحدث ولا معجزة تهبط.

وهبط عليه يأس كامل فارتفع حاجباه المتهدلان، ومضت التكشيرة الى غير رجعة، وانبسطت ملامحه، وبدأت الدقات المتباعدة تتقارب وتتآلف، ولكنها اتخذت طابعا غريبا. . فلم يكن لها ضجة الهدير المتتالي الذي يشبه صراخ الأوزة المذعورة. تآلفت الدقات وصنعت نغمة أخرى. . نغمة خافتة راقصة حزينة. ظل الرجل يدق بيديه دون وعي، وتخرج النغمة دون وعي أيضا، وتخرج هامسة تتستر بالظلام ولا أحد يسمعها، حتى فطن الرجل إلى ما تحدثه أصابعه فأنصت برهة وابتسم، ورفع حاجبيه وكأنما أعجبته النغمة وجاءته على الوجع فأوغل فيها، ومضى يضبطها ويحسنها وهو الخبير بدق الصاجات حتى استحالت الى همسات فيها بحة تخلع القلب وترهف الأنفاس. وأطربته النغمة الى الدرجة التي راح يهز رأسه هزات خفيفة وقورة على وقعها، ثم ما لبثت الاهتزاز أن وصل الى شعيرات ذقنه فأخذت تتأود وتتراقص.

وقف طويلا يرمق الناس والدنيا بلا مبالاة تامة، ويده اليمنى تهمس بالنحاس الى النحاس، والطرب قد وصل الى الابريق وبوزه فأخذ يرتعش هو الآخر ويتمايل، ولا أحد يسمع سواه، وهو منتش

لأن أحـدا لا يسمع سـواه ولا أحد يلتفت اليـه، والنغم يخرج حنـونـا دامعا حلوا في سكون المساء.

ظل واقفاً إلى أن أحاله الظلام المتكاثر إلى شبح من الأشباح.

ثم بدأ الرجل يتحرك مروحا في اتجاه شبرا البلد.

تحرك بطيئا يائسا مثنيا الى الـوراء، ويداه خلفـه. والصاجـات تـدق وهو يتحـرك على وقع نغمتهـا الهامسـة، كل خـطوة بهمسـة.. همسة موجوعة ثكلى، وكـل خطوة بـدقة.. دقـة ناعمـة فيها شجن. ويـذوب شبحه في الليـل حتى يختفي تمامـا، ولا تعـود الأذن تسمـع سوى همس النحاس الى النحاس وهو ينخفض ويشف وينخفض.

والدنيا كبيرة كبيرة، والظلام كثير كثير.

ليلة صيف

العشـاء ولى، والتبن بارد وكـومته عـالية، والـدنيا ليـل. . ليـل مفضض، فهناك قمر عليه سحابـات كمناديـل الحبايب البيض تعـافيه بالعافية، وتمضي وبلدتنا راقدة، قريبة منا، كقنفـذ له أشـواك وأحزان وأشجار. وكنا نحن جالسين نتحدث ـ لا نفعـل كالكبـار ونخوض في متاعب النهار ـ كنـا نتحدث عن أنفسنـا. . كنا قـد بدأنـا نحس بشيء جارف عارم يتدفق في أجسامنا ويغيرها، ونحس بالتغييـر يحدث كـل يوم وكان ذلك يسعدنا ويدهشنا، ونردد ونحن فرحانين: احنا بلغنا. .

كنا لا نخوض في حديث المتاعب مع كثرة متاعبنا في النهـار، كنا نشقى كالرجال تمـاما، بـل في العادة أكثـر من الرجـال، فالكبـار دائمـا كسالى يعشقـون الظل ويتـركون لنـا الشمس، يرجـوننا أحيـانـا وأحيـانا أخـرى يأمـرون، ونحن في كلتا الحـالتين سعداء، فـالعمـل رجولة ونحن ظامئون الى الرجولة، وأن نكلف به معناه أننا قد أصبحنا كبـارا يعتمد علينـا وأننا شبـاب، وأن لنا غـدا لا بد قـريبا نتـزوج فيه ونخش ويكـون لنا زفـة وليلة حنة. كنـا نعمل طـوال اليـوم كـالنحـل النشيط، ونـأكل كثيـرا. . نأكـل كـل مـا نعثـر عليـه في الغيط أو في

البيت، وأمهاتنا سعيدات يدركن بغريزتهن أننـا نكبر وأننـا في الطريق الى النضج، فيدسسن لنا قطع الجبن والبيض واللحم من وراء آبـائنا واخوتنا وكـأننا بط يزغطنه أو أوز. وكـانت أجسامنـا تستجيب وتشتعل وتنفض عنها صفرة طفولة طالت، وشحوب السنين العجـاف وما فيهـا من قصر، وتنمو. . تنمو بسرعة وكأنما تعوض في أيام كل ما فاتها من سنين. وكـانت وجوهنـا هي الأخرى تتغيـر، وتستديـر، وتـأخـذ لـون الأرض الخصبـة ذات الطمي، وتمتلىء سيقـاننا، وتبـرز حنـاجـرنـا، وتغلظ منا الأصوات.

كنا جالسين فوق كومـة التبن نغمغم ونحكي ونتحدث، والليـل يقشعر بأصواتنا وبما فيها من رجولة وافدة جديـدة، وأجسامنـا تنتفض بقوى لا تجعلنا نستقر، ولا تجعلنا نحلم كما يفعل الصغار، أو نكبتها في حكمة كما يكبت الكبار.

كنا نجلس، وفي الحقيقة لم نكن نجلس، كنا ندفن أنفسنا في كومة التبن وكأنما نود أن تلمسنا الدنيا ونلمسهـا، ويضغط التبن علينا فنستعذب ضغطاته. .

وكنا نتحدث. . كنـا نفرغ تلك الحمى المتـأججة في كـلامنا، وكنا نختار مجلسنا بعيدا عن البلدة وبعيـدا عن الناس، وكـأننا نحس بما يدور في خلدنا ونعتبره شيئاً قبيحاً لا يصـح، فنختار للخـوض فيه مكاناً بعيداً. .

ولـم يكن حديثنا مـرتبا ولا منمقـا. . كان يبـدأ دون أن نعرف،

ونستمر فيه ساعات ونحن لا ندري عن أي شيء نحكي. كنا نتكلم والليل وحده يسمعنا، بل لولاه ما تكلمنا. كنا نحب أن يشهد الليل حديثنا، بل نكاد ونحن نتكلم نوجه إليه حديثنا. ونحب الليل.. نحبه وكأننا نرى في سواده وهدوئه وحنانه امرأة جميلة ذات نسمات ودم خفيف وسمرة أبنوسية تهيج كامن أعماقنا. ونكره النهار.. نكرهه وكأنه رجل خشن غليظ القلب والقول لا يرحمنا ولا يسمح لألسنتنا أن تدور.

كان الحديث يبدأ بالطول، كل منا يحاول أن يثبت للآخر أنه أطول منه. وتقوم بيننا المراهنات، ويدعي الخاسر ان في أعلى فخده ورما وألما ويريه للباقين، فيطمنه الباقون فالورم معناه طول جديد وعليه ألا يحزن. ثم ندلف الى الأحلام ونتفنن في رواية كيف حدثت، ثم نقارن بين الأصوات، ويمد كل منا يده ويتحسس حنجرته ويرى مقدار ما حدث فيها من بروز.

ثم يحوم الحديث حول النساء. وكانت نساء بلدنا كبيوتها سودا لا أرداف لهن ولا صدور أو شرفات. كن كالرجال أو هن أقرب.. كانت نساء البيوت البيضاء هن من يملأن علينا الحديث. وفي القرى بيوت سوداء كثيرة، وقليل من البيوت لها طلاء أبيض. ولا بد في كل بيت أبيض امرأة حلوة سهلة، والا لماذا خلقت دون النساء حلوة؟

وكان التبن يضج بحديثنا، ونهيج أحيانا ونقذف بعضنا بأحفنته ونثير العواصف، وينطلق منا من يعوي كالذئاب ويقول:

ـ روحوا يا ولادا

ويخرسه الباقون لئلا يعثر علينا أحد ونحن لا نريد أن يطردنا من مجلسنا خفير أو كبير، اذ إننا نتفرق بعدها الى بيوتنا ويرقد الواحد منا فوق ظهر فرن، أو في(بحراية)، ويكظم وحدته وحيرته وضيقه بالعفاريت التي تكهرب جسده وتحرمه النوم. هنا فقط ـ ونحن جماعة ـ يخيل الينا أن العفاريت تسكن، وأننا حين نتحدث نرتاح، والحديث عذب حلو يا هوه، نريده ونطلبه وليس لنا سواه..

وما كان لجماعتنا قيمة بغير محمد. كان أكبر منا وحائرا مثلنا، ولكنه كان أكثر منا خبرة. كان قد خرج من بلدنا وذهب الى البندر ويعمل فيه وله قصص ومغامرات. وكانت له بالنساء معرفة، وما من أحد فينا كان قد اطلع على النساء. كنا نراهن من بعيد ونخشاهن، ونتمناهن ويتملكنا خجل قاتل اذا انفرنا بهن. وكان محمد عزاءنا يقص علينا مغامراته بالتفاصيل ونرتشف ما يقوله رشفا. وكنا نحبه.. ونحب شاربه الخفيف الحديث، وكان في استطاعته أن يربي شعره فآباؤنا كانت تجتث شعورنا أولا بأول ولا حق لنا بعد نمرة تلاته. وكان لمحمد(قصة) صفراء يطليها أحيانا بالفازلين الذي يشحته من ناظر المحطة، وان لم يجد فبالزبدة، وكانت بقية رأسه قصيرة الشعر. وكان يحلو له أن يلبس الطاقية الصوف ويرجعها الى الخلف فتظهر(قصته) ناعمة لامعة مسبسبة، ويحسب الرائي ان شعره كله لا بد ناعما لامعا مسبسبا. وكان بشفته العليا شق يجعل الانسان يعتقد أنه شرس ويكرهه، ولكنه لم يكن شرسا. كان يضحك كثيرا، ولا يغضب منا، ويطير وراءنا اذا ضحكنا عليه. وكان قمحيا لم تسوده

شمس الغيطان. كان يزرع، وذهب الى البندر مرة، وما أن تذوق عيشه وطعميته حتى أقسم الا يعود الى المحراث أبدا. وكان يخيل الينا ونحن جالسون معه أنه ليس من بلدنا، وأنه واحد من سكان المدينة المتنورين اللئام الناصحين الذين نرهبنم ونخشى أذاهم.

وكان جريئا.. كنا نخاف الحرام جدا ولكنه طمأننا، وعلمنا كيف نملأ حجورنا بالتراب وندخل به منازلنا، ثم نرمي التراب ونملأ حجورنا بالغلة أو الأذرة أو القطن ونخرج فلا يشك فينا أحد.

وكان هو الذي يتولى بيع ما نجلبه، ويختصر من الثمن برضانا، ونشتري بالباقي حلاوة طحينية ويوسف أفندي وعصي خيزران نتقمع بها في الأسواق.

في تلك الليلة جلسنا، حفنة من أولاد بلدنا أرجلهم خشنة مشققة لا يزال يطمسها طين جاف، وملابسهم مهرأة، ووجوههم لا تكاد تعرف فيها الشعر الأصفر من الشعر الأسود من سمرة الجلد، وروائح العشاء تتصاعد من أفواههم.. بصل ومش وفلفل مخلل وسردين وكرات، والهدوء تام من حولنا، والقمح يغمرنا من كل جانب.. قمح واقف تموج به الغيطان ويتلون بحركة الريح وشعاعات القمر كما يتلون حرام من القطيفة البنية، وقمح محصود ومكوم في أكوام صغيرة متباعدة لها صفوف كصفوف مصلين راكعين في العراء يطلبون الرحمة، وقمح يدرس، وقمح مدروس ومدرى، وأكوام تبن وقصلية، ونورج واقف كجمل بارك وعليه (شبرية) عروس، ورائحة المحصول الجديد تملأ الجو وتختلط برائحة التراب بلله الندى،

ورائحة عشائنا وعرقنا الذي كان قد أصابه التحول هو الآخر وأصبحت له نكهة ذكرية خاصة.

وفي مثل تلك الليالي يحلو حديث محمد. كان صوته لا يتأرجح مثل أصواتنا، كانت رنة الرجولة فيه قد استقرت، وكانت طريقته في الرواية توقف الشعر، وبلاد كثيرة يحدثنا عنها.. بلاد قريبة رآها بعضنا وبلاد بعيدة ما رأيناها ولا نعتقد أن محمد هو الآخر رآها، بلاد لها أسماء غريبة ترن في آذاننا رنينا ولها في خواطرنا ألوان وأشكال وأفندية وسكك حديد.

كنا نبقي حديث محمد للآخر. نستهلك أولا كل ما يمكننا قوله عن بلدنا ونسائها، ونعيد ما قلناه، ويقص كل منا كيف نظرت له فلانة وكيف وقف يتبصص على علانة.

ثم نحلى بحديث محمد.

وعرفنا في تلك الليلة من بدايات حديثه أنه يود أن يحكي قصة المرأة العرباوية التي عرفها في السوق. فقاطعناه وصنعنا ضجة، كان قد بدأ يغالطنا ويحكي لنا أشياء رواها من قبل. وكنا نريد شيئا لم نسمعه اذ لم تعد تنطلي علينا مراوغاته. وكان محمد أحيانا يروغ ويحرن ونتذلل اليه ونستحلفه ونعده بالقمح والذرة والبيض، ولكنه في ليال كان يحرن تماما ولا ندري لسكوته سببا.

وقال لنا محمد وعيونه تبرق:

ـ اسمعوا يا ولاد؟

قلنا:

ـ ايه؟

قال:

ـ أقول لكم على حاجة حصلت لي بس أوعوا تجيبوا سيرة لحد.

قلنا:

ـ مش ح نجيب سيرة لحد.

قال:

ـ تحلفوا على الربعة الشريفة؟

قلنا:

ـ وحياة الربعة الشريفة.

قال:

ـ والبخاري؟

ولم نكن نعرف ما هو البخاري، كان لا ريب شيئا أعتى من المصحف.

فقلنا:

ـ وحياة البخاري.

قال:

ـ واللي يرجع في كلامه؟

قلنا:

ـ يبقى مرة.

قال:

ـ مرة وبس؟

قلنا:

ـ وابن ستين في سبعين.

قال:

ـ وحياة الشمسة الحرة؟

قلنا:

ـ وحياة الشمسة الحرة.

قال:

ـ كنت مرة رايح المنصورة في طلب.

قلنا:

ـ انت كداب. . انت عمرك رحت المنصورة؟. .

قال:

ـ وحياة المصحف الشريف رحت.

وصدقنا ولم نملك أنفسنا ووحوحنا. الحكاية ستحدث في المنصورة؟ والمنصورة كانت لا تبعد عن بلدنا كثيرا. كان القليل منا هو الذي رآها وهو صغير، وكلنا سمعنا عنها، وكلها أسماع محمومة براقة تغشي وتذهل.

وكانت في نظرنا لا بد شيئا كبيرا كالجنة، وفيها خواجات لا يحصى لهم عدد، وبنات كاللبن الحليب، ونساء أفرنج لهن ملايات لف حريرية تلمع وتلعلط، وقصب براقعهن لا بد صغير دقيق مثل عقلة الاصبع. وأنوفهن لا بد كحبة الفول، وأجسامهن لا بد مصنوعة من لحم طري وليس فيها عظام، وانما هي كالملبن تجذبه فينجذب معك وتلحسه فيسيل لعابك من حلاوته، والرجال هناك طريين لا يشبعون نساءهم، والنساء يمضغن اللبان فيطرقع في أفواههن الحلوة الضيقة، ويطلبن الرجال.. رجال مثلنا فلاحين خناشير كفحول الجاموس.

وقلنا لمحمد مبهورين:

ـ وبعدين؟

ومضى محمد يحكي.. قال انه نزل من القطار وقضى طلبه، وبقيت لديه ساعات على موعد القطار التالي فاشترى رغيفا خاصا وأكله ومضى يتفسح في شارع المحطة. وكان الشارع ممتلئا ببيوت كبيرة لها بلكونات، وكانت الدنيا في العصر الضيق وكانت البلكونات

ممتلئة بالستـات، ستات لـو وزعن على رجال بلدنـا لناب كـل واحد طورة وفردة خربة. ومر ببلكونة كانت واحدة واقفة فيهـا ترتـدي(روبا) أحمر.

واستخرجنا أنفسنا من التبن وسألناه ما هو الروب الأحمر؟ فقال انه شيء كالعباءة. وتشككنا في صحة كلامه فقد كنا نسمع له كالقضاة نتأرجح بين التصديق والتكذيب. كنا نخاف دائما أن يكون مـا يقولـه مجرد حكايـة يخترعهـا ليضحك بهـا علينا، ولهـذا كان الشـك يغلبنا ونرجح في الغالب كفة الاتهام.

ومضى محمد يروي ويقول انه مر من تحت البلكونـة فابتسمت له المرأة.

وتلاصقنا حوله وارتجفنا.

وظن انهـا تبتسم لواحـد غيره، ولكن الشـارع كـان خـاليـا من الرجال وليس هناك أحد غيره. ونظر اليها فعادت تبتسم.

وأمسكنا بجلبابه وتشبثنا نستأنيه ولـم نعد نصدق أو نكـذب، كنا نود أن نسمع، وقلنا له:

ـ حاسب. أوعى تسيب حاجة.

فقال:

ـ مش ح أسيب حاجة. هي ابتسمت تاني يا ولاد وأنا قلبي دق وجنوني طارت، وقلت في سري دي فرصة جتلك من السما يـا واد.

عملت اني مش واخد بالي وبصيت لها تاني فضحكت، فقلت في سري ما ينفعش الا واحد زبيب.

وسألناه:

ـ اشمعنى الزبيب يعني؟

قال:

ـ يعني كونياك يا ولاد.

قلنا:

ـ وايه الكونياك؟

قال:

ـ خمرة.

وخفنا. محمد يشرب الخمرة؟.. النسوان معلهشي.. انما الخمرة.. أعوذ بالله! المقصود. تغتفر لمحمد.

ـ وبعدين يا محمد؟

ـ مشيت، لقيت واحد خواجه فاتح. قلت يا خواجة، قال نعم. قلت اديني زبيب زحلاوي والمزه خيار.

قلنا:

ـ ايه المزه دي يا محمد؟

قال:

ـ خيار.

وخفنا أن نعيد السؤال.. كنا نستعجل ما بعد ذلك وما هو أهم.

ـ شربت الزبيب يا ولاد دمي غلي وطلعت الخمره على قلبي بقى زي الحديد. قول اجل الاطمئنان رقعت واحد تاني ورجعت على شارع المحطه.

وسألناه:

ـ وفت تاني؟

قال:

ـ فت.

قلنا:

ـ ضحكت لك؟

قال:

ـ ضحكت ضحكة ترد الروح يا ولاد. مره حلوه زي الكمتري ولابسه.. كانت لابسه ايه يا محمد؟ لابسه قبقاب مشغول وجسمها باين كله من الروب وبتضحك. بصيت لها وضحكت. ضحكت تاني.

قلنا:

ـ اشمعنى ضحكت لك تاني يا محمد؟

قال:

ـ يا ولاد كنت لابس الحته الزفره وكان عندي طاقية وبر جمل وجزمه لميع وكوفية حرير على كتفي، وشباب في عز نعنعة شبابه. غمزت لها بعيني فراحت داخله جوه، وطلعت لابسه روب تاني.. روب سواكبيس أخضر.. رحت وجيت من قدام البيت فشاورت لي وقالت بإيدها اطلع. اطلع يا ولاد؟

فقلنا بعزم ما فينا:

ـ اطلع يا محمد..

فقال:

ـ طلعت والواحد متاخد. اني غريب وده بيت وداخل على حرمة. افرض حد مسكني والا حاجه أقول ايه؟ افرض لها أهل. المقصود لولا الاتنين الزبيب يا رجاله لما كانوا يقطعوا رقبتي ما كنت أعتب بيتها أبدا.

وسألنا:

ـ ودخلت؟..

فقال:

ـ صبركم عليّ شويه. ضربت الجرس يا ولاد؟

قلنا:

ـ ضربته ازاي؟

قال:

ـ الجرس كان له زر.

قلنا:

ـ والأجراس بأزرار؟

قال:

ـ أيوه يا فلاحين اتمدنوا الأجراس بأزرار. فتحت لي الباب وقالت اتفضل. وطلع صوتها يا ولاد زي السكر المعقود زي حب النعناع.

وقلنا:

ـ ودخلت.. ادخل.

قال:

ـ الله! ما تحكوا انتم أحسن. ح تسكتوا واللا لا

قلنا:

ـ ح نسكت.

قال:

ـ وقفت على الباب خايف. سندت على الباب وقالت لي ما تخافش جوزي مسافر. قلت يا واد هي موتة والا اتنين. قلت لروحي تدخل يا وله.

قلنا له:

ـ ادخل يا محمد يخرب بيتك.

قال:

ـ دخلت وقعدت في أوضة الجلوس. كراسي مدهبه يا ولاد. ومرايات بنور الحيطان ولعاليب وشخاليل في كل ركن من الأركان. وبعد شويه بصيت لقيتها داخله عليّ بفستان كحلي بياكل من جسمها أكل. وكانت جايبه معاها ازازه وكاسين. قالت لي: اسمك ايه يا شاطر؟ قلت لها: خدامك محمد. قالت: دانت سيدي.. تسلم لشبابك. تحب تقعد على الكرسي يا سي محمد ولا تخليها على البساط أحمدي.

قلنا:

ـ أقعد على الكرسي يا عبيط.

قال:

ـ لا، قلت انا مش واخد على قعدة الكراسي يمكن أدوخ. وقلت لها: اسم الكريمة ايه؟ قالت لي: فيفي. قلت لها: وانت فيفي صحيح. قالت لي: انت بتشرب يا سي محمد؟ قلت: اشرب تاني يا ولاد؟

قلنا:

ـ اشرب يا أخي.

قال:

ـ وقعدنا نشرب يا ولاد. واحد في التاني في التالت أنا اتخدرت والأوضة لفت بي. قالت لي: انت اتاخدت؟ قلت أبدا. قالت أجبلك حاجه تفوقك؟ فانكسفت أقول هاتي.

قلنا:

ـ يا خايب تنكسف ليه؟ وجابت لك؟

قال:

ـ جابت لي؟ دانا بصيت لقيتها داخله عليّ بصينية أكل.

قلنا:

ـ فيها ايه؟

قال:

ـ ديك رومي يا ولاد محشي من جوه حمام، وبطاطس ولحمه ضاني.

قلنا:

ـ يخرب بيتك يا محمد. وأكلت؟

قال:

ـ أنا بقيت داري عن روحي. أهو فضلت تطعمني..

قلنا:

ـ مش عيب؟

قال:

ـ عيب ايه يا ولاد؟ مـا عيب الا العيب. أني كنت بقيت ألسطه قوي وعلى الآخر. فمديت ايدي عليها.

قلنا:

ـ من غير ما تغسل؟

قال:

ـ يا باي! غسلت. انتوح تطهقوني.

ورجوناه الا يطهق وما كان في حاجة الى رجاء، كـان يبدو هـو الآخر منسجما لا يستطيع أن يوقفه شيء. ومضى يقـول مديت ايـدي عليها يا ولاد تقولوش عجميه.

قلنا:

ـ وشها كان أبيض؟

قال:

ـ أبيض من القطن المندوف.

قلنا:

ـ وشعرها كان ازاي يا وله، كان أسود؟

قال:

ـ ومحصل لغاية ركبتها.

قلنا:

ـ قول والنبي قول بس أوعى تفوت حاجه.

قال:

ـ كان جسمها ناعم نعومية يا ولاد، أنعم من بذر الخروع. قلت لها أنا في عرضك.. أنا خلاص. قالت طيب تعالى. وخدتني على السرير ونزلت الناموسية.. ناموسية بمبى والنبي. ومدت ايدها طفت النور.

قلنا:

ـ حاسب على مهلك قوي.

قال:

ـ وبعدين لقيت الناموسية بتبرق يا ولاد. أنا قلت القيامه قامت: أتريها ولعت نور تاني في الناموسيه، واتبن كان في سقفها لمض صغيره حمرا وخضرا وزرقا وصفرا. وبصيت لقيتها قدامي يا ولاد حاجه تهبل.. حته منها لون والتانيه لون كأنها جنيه.

قلنا:

ـ وبعدين؟

قال:

ـ وبس يا ولاد، وشفت معاها ليله ولا ألف ليله . .

فعدنا نقول:

ـ أبدا ما ينفعشي . وبعدين في عرضك؟ وبعدين؟

قال:

ـ ولا قبلين.

قلنا:

ـ يا أخي ما تقول، يا أخي ارحم، وحياة رحمة أبوك وبعدين؟

وجاد علينا بالقليل ولم يشف غليلنا أبدا. وتركنا ولعة كالنار الموقدة. وبدلا من أن يهدئنا حديثه زادنا اشتعالا . وقال واحد منا:

ـ سيبوكو منه يا ولاد. ده مش كله فتش.

وقال آخر:

ـ طيب تحلف إن ده حصل

وأقسم محمد وازددنا ثورة ولم نصدق.

وأقسم بتربة أمه. وقلنا:

ـ كداب انت بتضحك علينا.

فقال:

ـ أبدا والله هذا ما حصل.

قلنا:

ـ كداب .

قال :

ـ يا ولاد أنا عمري ما كدبت عليكم .

قلنا :

ـ انت كداب .

قال :

ـ انتم أحرار.

فقلنا

ـ يعني لو رحنا المنصورة تودينا البيت؟

قال :

ـ أوديكم .

ـ تودينا؟

ـ أوديكم .

وانتفض واحد وقال :

ـ ما تيجي نروح المنصورة يا ولاد .

وهللنا . . قال كل واحد كلمة . وصدرت عنا أصوات وتعانق أكثرنا . كانت عقولنا كالقاعة الضخمة الفارغة أقل الأصوات يحدث فيها أعظم الرنين . وهجنا هياجا شديدا حتى اتنين منا أمسكا

بمحمد، واحد من رأسه والآخر من ساقيه وظلا يؤرجحانه بينهما حتى ألقياه على التبن. وصرخ واحد وقال:

- يا رازق الفرخة وديكها.

ثم اندفع الى النورج يجره ويدور به فوق(رمية) القمح المعدة للدراس. والنورج ثقيل جداً لا تكاد تستطيع البهيمة سحبه.

وقال واحد:

- ولاد. . ولاد. . اسمعوا يا ولاد. ولاد اسمعوا يا ولاد.

وظل يصرخ حتى سمعنا. فقال:

- تيجوا نروح المنصورة؟

وعاد الهياج بحماس أكثر، وتعالت سحب التبن فملأ عيوننا وأجسامنا وعفرنا ترابه.

وكنا قد غادرنا الكومة وأصبحنا في وسط الجرن، وكل منا مشغول بشيء أو مشتبك مع الثاني في مصارعة، والشاطر من يوقع الآخر.

وقال محمد:

- تيجوا نلعب يا ولاد ضربونا لما عمونا.

وهجنا من جديد ووجدنا أنفسنا نزعق ونقول:

- عايزين نروح المنصورة.

ووجدنا لها نغمة فعدنا نغنيها. . عايزين نروح المنصورة.

وتصاعد صوت يقول:

ـ الدنيا ليل يا ولاد.

ورددنا عليه جميعا:

ـ عايزين نروح المنصوره.

وهرش واحد وقال:

ـ حدانا عزيق بكره. . .

فقلنا:

ـ يا محني ديل العصفوره، عايزين نروح المنصورة.

* * *

وأفقنا لأنفسنا فوجدنا أننا قد قطعنا شوطا كبيرا. كنا قد غادرنا بلدنا وحدودها وغيطانها وأصبحنا نمشي في طريق زراعي يقطع زمامات بلدة أخرى. ولحظتها فقط بدأنا نعي أننا مقدمون على شيء، وأننا ذاهبون فعلا الى المنصورة. وكان سبب يقظتنا أننا شممنا رائحة الأرض الغريبة. في بلدنا كنا نحس بالألفة لكل شيء ونتصرف بحرية ولا نخاف. كل نخلة كنا نعرفها ولا بد طلعناها وأكلنا منها بلحا وجمعنا من تحتها رطبا. كل غيط طرقناه ورأيناه في طفولتنا وصبانا. كل بيت نعرفه ونعرف أهله كما نعرف أهلنا. والشجرة أي شجرة نعرف فروعها بالفرع الواحد. وكل منا يستطيع وهو مغمض

العينين أن يفـرق بين تـراب بلدنـا وأي تـراب آخـر. ولم نفق الا لإحساسنا أننا قد غادرنا أرضنا وأصبحنا في بلاد الناس.

وانتـابنا خـوف حقيقي حين أيقن كل منـا أن الدنيـا ظلام وأنـه يسلك طريقا لا يعرف له نهاية، وانه لم يعد في بلده ولا يستـطيع أي منا أن يصرح بما يدور في خاطره، كانت جماعتنا تتحرك وكـانت لها رهبة وكـأنهـا أصبحت عمـلاقـا كبيـرا لـه عشـرات الأذرع والأيـدي والرءوس، حتى بدا ما يفكر كل منا فيه صغيرا تافها يخيفه هو وحده. وأصبح هم كل منا حينئذ أن يلتصق بالآخرين أكثر حتى يذوب خـوفه ويختفي في جسد ذلك العمـلاق الكبير. وبعـد أن كنا متنـاثرين على الطريق تقاربنا وتشابهت خطانا، بل وتشابكت أيـدينا، وتـولانا وجـوم وسكوت ونحن نستغرب من سيرنا المندفع الـذي لا يتحكم فيه عقـل ولا يتوقف. كان في صدورنا هدير لا يرحم والمنصورة تجذبنا، كلمة ولكنها أصبحت تعني بالنسبة الينا شيئـا كالحيـاة أو أغلى من الحياة، تيار عارم كان ينبع من صدورنا ويقودنا ويدفعنا رغما عنا.

ولـم يعد يسمع سوى وقع خـطواتنا على الـطريق، وقع هـامس خافت كأننا قافلة جمال. فقد كنا حفاة ومن كان يرتدي في قدمه شيئا خلعه ووضعه تحت ابـطه، وكنا نلهث، ووجـوهنا تلمـع، وغبار قليل يثـور، والليل من حـولنا كبيـر أكبر من أي شيء في الـدنيـا، وأسـود ومخيف ومليء بـالهمهمات والأسـرار، والـزرع كثيـر محيط كـالبحـر المالح الذي ليس له بر، والنبات واقف ميت تحركه النسمات فيتحرك معهـا حركـة ميتة بـطيئة، وأصـوات سواقي تـأتي من بعيد كـأصـوات

الناثحات النـادبات في الجنـائز حـزينة على الـزرع الميت، وطلقات بنادق متباعدة لا يعرف من ضـاربها وأين يضـربها والى من تصـوب، وديكة تصيح قبل الأوان، ونباح كلاب يأتي من بلاد مجهولـة، وهواء واسع يحف بأرض واسعة فتهمهم الأرض وتقشعر الرياح، وهمسـات الظلام تنبثق في أماكن غيـر مرئيـة.. همسات خفيـة لئيمة لا تنقـطع كأنها تصدر عن حيتان هائلة لا ترى تسبح في بحر الظلام وتتقلب.

ومد واحد يده وزغزغ الذي في جانبه، وانزعج الآخر انزعاجـا عظيما وقفز في الهواء وصرخ، وضحكنا.. لم نضحك ضحكا عـاديا متنا من الضحك. ورحنـا نزغـزغ بعضنا ونمـوت وتتقطع أنفـاسنا من الشهقات.

وقال واحد لمحمد وهو يلكزه:

ـ ورجليها يا محمد.. زي رجلينا كده؟

فقال محمد:

ـ هي رجليكو دي رجلين.. دي قحوفة نخل.

وعاد السائل يسأل:

ـ أمال رجليها ازاي؟

فقال محمد:

ـ زي الجمار.

ـ زي رجلين صفيه الغازيه يا وله؟

ـ صفية مين يا حمار؟ دي ولا تيجي في ضافر رجلها الصغير.

ـ وبطنها يا محمد. . داقه عليها سمكه؟

ـ سمكة ايه يا جدع؟ . . ايه شغل الفلح ده؟ . .

ـ أمال داقه ايه؟

ـ ولا حاجه. . هي دي بطن يندق عليهـا. . دي زي العجين يا وله.

ـ وكانت حاطة أحمر وأبيض يا محمد.

ـ والله ما خدتش بالي.

ـ ما خدتش بالك ازاي. ودي حاجة تتنسي؟

ـ كانت حاطة.

ـ وبتتكلم بندراوي ولا فلاحي يا محمد؟

ـ بندراوي مكشكش يا وله.

وهصنـا، وطـرنـا وراء بعضنـا، واختفينـا من بعض في الاذرة الصيفي وقد أصبحت المرأة شديدة الوضوح في ذهن كل منا، حلوة، تماما كما يريدها الواحد منا، ملموسة، وكأنها أمامه وكأنه قضى معها ليالي كثيرة.

ومضينا ونحن نتدافع ونتجاذب ونسـرع، وضحكنا، وتحـدثنا، وقهقهنا ونحن نستمع الى تخميناتنا عن المسافة الباقية على المنصورة

واحـد يقول ألف ألف متـر وآخر يقـول أربـع محـطات. وتشعبت بنـا التخمينات.

وتنبهنا فجأة فلم نجد محمد بيننا.

وكـأنمـا انـدكت سكين في قلب كـل منـا. ودون أن نتعقـل أو نتشاور انطلقنا نجري في كل اتجاه لنمسك به. كـان قد زال عنـا كل شك في صدقه وتأصل ما قاله في مخيلة كل منا وحفرت تفاصيله في عقـولنا حفـرا، وأصبحت المرأة ذات الـروب الأحمـر والازازة ليست مجرد امرأة أخرى من اللاتي تعـود محمد أن يحكي عنهن، أصبحت امرأة كل منـا، يكفي أن يصل الى المنصـورة ويريـه محمد بيتها ذي البلكونة الحديدية، ونطلع واحدا وراء الآخر حتى تمـوت من السعادة وتسر، ويمكن تعطي كل منا جنيهـا، فالـواحد منـا ولد، ولـد عترة لا يعادله أولاد المنصورة كلها وشربين، واذا بالخنزير يساهينا ويهرب.

كنـا ونحن نجري نصـدر الأوامـر لبعضنـا. . روح انت نـاحيـة التـابوت، دور تـاني بر السكـة الحديـد، اطلع انت على الكوبـري. وبهذا تفرقنا في شبكة واسعة لا يستطيع كائن من كان أن يهرب منها. وكـان الواحـد منا لا يملك منـع نفسه من التفكيـر: ماذا لـو لم نجـد محمـد؟ هل نعـود الى بلدنا بـأيدي وراء ـ وأيـدي من أمام؟ وكـانت إجـابتنا جميعـا: ان لا. . لا. . لن نعـود. يكفي أن نصـل فقط الى المنصـورة اذ لا بد ان نعثـر هنـاك على بغيتنـا، لا بـد أننـا واجـدون عشرات من نساء افرنج بملايات لف، نساء كاللبن يؤكلن أكلا. نساء

حلوين يا وله، أحلى من العسل النحل والقشطة. وسمعنا صرخة تأتي من بعيد:

- أهه يا ولاد.. محمد أهه يا ولاد.. لقيته.

وكالريح المندفعة العاتية اتجهنا الى الصرخة، ووجدنا محمد قد دفع صاحب الصوت دفعة وجرى، وجرينا وراءه وتبلور كل ما نطلبه من الله في الامساك به، ولم يكن عسيرا أن نقبض عليه. ولم يسكت.. مضى يتفلفص ويضربنا وكانت ضرباته غريبة جامدة قوية كضربات الرجال، وتفادينا الضربات وتحملنا الى ان كتفناه وأحطناه كما تحيط جماعة نمل صغيرة بكسرة خبز، وحاول المقاومة وفشل، وحاول وفشل، وأحس أننا أقوى منه فاستسلم. وخلع واحد جلبابه وربطنا به ذراعيه. وقال بلهجة وقحة جافة:

- انتم عايزين ايه دلوقت؟

قلنا:

- عايزين تورينا بيت المره.

فقال:

- مش موريكم.

قلنا:

- غصب عنك ح تورينا.

قال:

ـ بالعافية؟

قلنا:

ـ بالعافيه

قال:

ـ ح اوريكم يا نسوان.

قلنا:

ـ ابقى ورينا.

قال:

ـ بالعافيه يعني.

قلنا:

ـ بالعافيه.. ياللا.

وعترس في الأرض فجررناه بالقوة، ومشى معنا والغيظ يخنقه.
ثم تمتم وقال:

ـ المنصوره بعيدة يا ولاد وح نتوه.

قلنا:

ـ ملكشي دعوة.

قال:

ـ ذنبكم على جنبكم.

قلنا:

ـ على جنبنا.

ومشينا صامتين وقد تكهرب الجو. ولكن الصمت لم يدم طويلا. تكلمنا وقلنا نغني. ولم نكن نحفظ أية أغنيات، البنات وحدهن هن من يحفظن الأغاني ولهن في هذا باع ومقدرة، كنا لا نحفظ الا مطلع موال: أقوم من النوم أقول يا رب عدلها. غناه واحد فخرج صوته قبيحا فأسكتناه، ومضى كل منا يغنيه كما يحلو له.

وهللنا مرة هللولة كبيرة، وتضارينا وتعانقا وعفرنا بعضنا بعضا بالتراب، وخلع واحد جلبابه ورماه، ثم عاد وارتداه، وتبادلنا حدف الطوب فقد بدت في الأفق أضواء صغيرة منتشرة كعيون الجراد حين تلمع في النور.

كانت اضواء المنصورة.

كانت المسافة بيننا وبين الأضواء تبدو قصيرة جدا، مشوار صغير ونصبح في قلب المنصورة. ولكنا ظللنا نجري ونرغم محمد على الجري حتى لهثنا.. وبدأنا نمشي، ومشينا حتى لم يعد في استطاعتنا المشي، ومع هذا لم تقترب الأضواء الا مسافة قليلة وكأننا كلما اقتربنا غارت في الظلام وابتعدت.

وقال محمد:

ـ يا ولاد نرجع .

فانفجر فيه :

ـ اخرس .

وقلنا :

ـ مدوا يا جماعة الوقت اتأخر .

واستجمعنا كل ما تبقى لنا من عافية وواصلنا المسير .

وفجأة لعلعت في الظلام قهقهة عالية ، والتفتنا فوجدنا محمد هو الذي يضحك . ولما رآنا قد استدرنا اليه مضى يفتعل الضحك افتعالا وينثني ويقوم ويضحك وهو يقول الجملة التي نقولها في بلدنا كثيراً حين يفلح واحد في خداع الآخرين وسبك الكذب عليهم ، ويتطوع آخر الأمر بكشف نفسه :

ـ هيه . . ضحكت عليكم . . هيه . . يا هبل ضحكت عليكم .

فسألناه :

ـ ضحكت علينا ازاي؟

قال :

ـ وأنتوا صدقتوا؟

قلنا :

ـ ايه . .

قال :

ـ داني كنت بضحك عليكم.

ـ تضحك علينا ازاي؟

ـ علشان أنتو هبل.

ـ يعني مش شفت المرة في المنصورة

ـ ولا عمري رحت المنصورة.

ـ أنت كداب.

ـ والنبي يا ولاد عمري ما شفت المنصورة بعيني.

ـ أنت ابن(. . . .).

ـ أنتو اللي عبطا.

وهلّ علينا صمت ثقيل، رحنا في أثنائه نتلفت الى أضواء المنصيورة وقد أصبحت قريبة نكاد نمد أيدينا فنقطفها، والحق اننا ما كنا نرى فيها أضواء ومدينة. . كانت المنصورة كلها قد استحالت في نظرنا الى امرأة مثل العجمية، تطل من بلكونة، ولها روب ولها ابتسامة، وتدعونا. ومضينا نتلفت الى الأضواء ونعود الى محمد لنجده واقفا مائعا يصطنع الضحك ويسخر منا.

وقال واحد:

ـ دا بيضحك علينا يا ولاد. . هو مش عايز يورينا المره. . دا بيضحك علينا يا ولاد. . هو مش عايزنا نروح.

وتنبهنا. صحيح أنه يضحك علينا. وشخط محمد وقال:

ـ بضحك عليكو ايه يا حلاليف؟

فصرخنا فيه نلعنه ونقسم أننا لن نتركـه حتى يرينـا بيت المرأة. فعـاد يقهقه ويتهمنـا بالعبط وانـا مهابيـل. وعدنـا نقسم أننـا لن ندعه يخدعنا ويحتفظ لنفسه بالمرأة من دوننا. وأمرناه أن يـواصل المسيـر. ورفض أن يسير. فجررنـاه. فرفـع ساقـه ورفص واحداً منـا في بطنـه وهـاج فينا. وانفجـرنا وجمعنـا كل مـا فينا من غيظ وانقضضنـا عليه وأوقعنـاه وانـدفعنـا نكيـل لـه الصفعـات واللكمــات، وراح يضـرب بالروسية وينطحنا ويدفعنا بسيقانه، وتكاثرنا عليه حتى ربطنا ساقيه معاً بقميص، وجرى واحد إلى الخليج وأحضر مـلء يديـه طيناً وطلى بـه وجه محمد وملأ فمه وبصق عليـه. وحاول محمـد أن يصرخ فكتمنـا أنفـاسه وسكت، وخفنـا أن يموت، فـرخرخنـا أيدينـا وتنفس، وقـال واحد:

ـ نجره الى الغيط ونكويه بالنار.

فقلنا كلنا:

ـ نكويه.

وجررناه الى الغيط وبحثنا عن كبريت ولم نجد. فقلنا:

ـ نصنع شرارة بزناد من الزلط.

وبحثنا عن الزلط وعثرنا عليه فوق السكة الحديد وقلنا:

ـ يلزمنا مسمار أو حديدة.

وهمنـا نبحث عن حديـده ولم نجد الا صفيحـة. وبـرك واحـد

على صدره وأجرى الصفيحة على ساقه وقال:

ـ ح تقول على بيت المره فين والا نموتك؟

ولم يعترف فأخذنا ننشب أظافرنا في جسده ونقرضه ونعضه ونطلب منه أن يدلنا على البيت.

وأدركنا آخر الأمر ان لا فائدة، وأنه كذاب.

فجننا أكثر. وانهلنا عليه ضربا من جديد، وحز ماسك الصفيحة في ساقه وقال له:

ـ طب قول أنا مره.

ولعن محمد آباءنا جميعا ورفسنا.

وقال واحد:

ـ لا ينفع الا الكي.

ورحنا نتبادل الزناد والزلط ونحاول أن نحدث الشرر، وفي كل منا جزء صغير معجب بمحمد لأنه لم يقل انه امرأة وجزء كبير حانق على اللئيم الذي خدعنا.

وحدثت الشرارة واحمرت قطعة القطن وهللنا، ونفخنا فيها واشتعلت النار وملأتنا دهشة فقد كان لونها شاحبا جدا. ونفخنا فيها وشحب لونها أكثر وأكثر. وعدنا ننفخ بلا فائدة.

وتبينا ان النار ليست وحدها الشاحبة كان كل شيء يشحب

ويصفر، ثم بدأت النار والأشياء من حولنا تبيض، ثم صفر شيء في آذاننا كالاستغاثة وأدركنا مروعين أن حادثا جللا قد وقع ـ ومضى كل منا ينظر في وجوه الآخرين ويستعجب ويفيق. كانت وجوهنا معفرة كلها خدوش، وأجسادنا يكسوها التراب، وذباب، ذباب كثير لزج لا يهدأ ولا يكف عن الطنين.

ومن أين جاءنا ذلك الألم؟ وماذا يقول أهلنا؟ سيضربوننا بالتأكيد ويشنقوننا، وآه من شتائمهم. كلها ألفاظ حامية تجرحنا وتصيب رجولتنا الصغيرة الحساسة في الصميم. كان على بعضنا أن يقوم في الفجر وكان لا بد من تعليق توابيت وتتريب زرائب. وكنا لم ننم.. لم ننم أبدا وعيوننا حمر، هل مرضت؟ وهه طلعت الشمس أيضا في بلدنا؟ وأشكالنا مالها فيها ذهول واجرام وتوبة؟ مالها فيها(قشف) و(قوب)، وحفر غائرة وحب شباب ونقاط سود؟ لماذا نحس الآن فقط أننا غلابة فقراء، وان بيوتنا ليس فيها سوى صيحات كلاب وجعير آباء وأمهات ودخان المواقد الخانق؟

وروعنا، ونسينا كل شيء ومضينا نتحسس أجسامنا وملابسنا ونرى مدى ما أصابها من تمزيق، ونرى أنفسنا في وضوح بشع شديد نخاف معه أن نرى أنفسنا.

وكان محمد راقدا جلبابه ممزق وجسده ممدد كالخرقة البالية والذباب يعف عليه بكثرة، والجروح تشوه جلده ودماء متجمدة فوق أنفه وعلى جانب فمه وتملأ الشق الذي في شفته، نائما مستسلما

كالذبيحة الفاطسة، كالمرأة بعد ليلة حافلة.

وفككنا عنه الأربطة بلا حماس، وتألم وأحسسنا بألمه يحز في قلوبنا ويجرحها.

ووجدنا أنفسنا بعد حين هائمين على وجوهنا ـ عائدين إلى بلدنا من نفس الطريق ـ تدفعنا قوة قاهرة، عائدين نعرج ونتساند ونئن ونفكر في النهار. النهار الذي داهمنا بغتة وخلق أمامنا الأرض وحملنا بهموم الدنيا. النهار الحار الجاف الخشن الذي كنا نراه رؤى العين منتصباً أمامنا كرجل عملاق قامته أعلى من قامة الشمس، ولا رحمة في قلبه ولا خرقة فوق جسده وفي يده هراوة ضخمة، منتصباً هكذا ينتظرنا ويتوعدنا وتقدح عيناه بالشرر، ونحن متجهون إليه خائفون خاشعون عالمون تماماً أننا لن ننفد من يده.

أليس كذلك

لن يضيرك أن تعرف اسمي. حقاً اسمي هـ. ك. تيموشلاي!

هندي أي نعم، من الهند. أرجو عفوك! أسمي متعب لكنه هندي مائة في المائة. متعب؟! تيمو يعني شيء كالجوهرة.. نعم شيء كالجوهرة. هذا الترام ذاهب إلى الأهرام؟؟! حسن، حسن جداً، نفس الطريق؟ وتجيد الانجليزية؟! حسن. حسن جداً جداً. أستطيع أن أعبر عن نفسي الآن. لا، لست ذاهباً لمشاهدة الأهرام. أنا لم أشاهدها لا هي ولا المتحف وليس لديّ وقت لمشاهدتها.

غريب هذا الكلام؟ كل الأجانب يأتون فقط من أجل رؤية الأشياء القديمة هذه؟ أتظن أن مصر القديمة هي التي أغرتني بالمجيء الى مصر؟؟ أبدا! أتعلم شيئا؟ أنا جئت لأرى مصر الموجودة.. مصر التي في الشارع وليست تلك الموضوعة خلف ألواح الزجاج.

أنا أعرف مصر، نحن في الهند نسمع عنها كثيرا، ولكنكم اليوم حديث العالم. ألا تعرف هذا؟ كل العالم ايجيبت ايجيبت. أتعلم أين أنا ذاهب الآن؟ أنا ذاهب لوداع صديق. أتدري من؟

فتاة. . فتاة كباريه! أرجوك لا تسيء فهمي. نحن أصدقاء جدا. وأنـا سأرحل غدا. جئت لأقول لهـا وداعا. فقط لأقـول لها وداعـا. أتعلم أين رأيتهـا؟ في نفس الكبـاريـه الـذي أنــا ذاهب اليـه الآن. أرجــو عفوك. . أنا رجل صريح، وأحب الناس أن يتحـدثوا معي بصـراحة، بصراحة. لقد حدث فيّ شيء مـا منذ أن وضعت قـدمي في بلدكم. أتعلم ما اسمها، اسم الفتاة؟ باهيا. اسم جميل؟ أليس كذلك؟ يا له من اسم! باهيا! مجرد نطقه يملأ صدرك بالـراحة. عـرفتها من ثـلاثة أيام. أنا هنا من اسبوع. تصور سوء حـظي. . فقط من اسبوع. كنت داخـلا الكباريـه لأتفرج. كنت أريـد أن أرى كل مكـان فيه نـاس في مصر. وأنا غادرت بلدي لأتفرج على الناس. في الهند أنـا عضو في البـرلمان. . أجـل عضو في البـرلمان. ولكني هنـا لست الا متفرجـا فقط. أيدهشك أني عضو في البرلمان وأنا صغير السن هكذا؟ ولكني لست صغير السن. هل أبدو حقا في العشرين؟ كما ترى. . أنا قصير ولا لحيـة لي ولا شـارب، ولكن أتعلم أني في السـابعـة والثـلاثين؟ سـأبلغها في أكتـوبر ١٩ أكتـوبـر، ولي ولـد ـ ابني ـ يبـدو إذا مشيت بجـواره أكبـر مني سنـا. اسمـه لال. . لال تيمـو شـلاي. لال يعني صغيـر. ابني هو تيمـو شلاي الصغيـر، وأنا شـلاي الكبير. أفهمت؟ ومع ذلك فتيمو شلاي الكبير أصغر من تيمو شلاي الصغير. نهرو؟

ومن في الهنـد لا يحب نهـرو؟ بيني وبينـــك بعضهم لا يحبـه ولكني أحبــه. أنا مثله اشتراكي. . اشتراكي على طريقتنا.

أنا مثلا علمت نفسي. ان أبي لم يعلمني، وأنا أعلم لال تيمو شلاي ابني، ومع هـذا يقول عني أحيـانا اني يميني متـطرف.. أكثر يمينيـة من أتلى، وأحتفظ بها سـرا. أحيـانـا يكـون على حق. أرجـو عفـوك. أنا أتكلم كثيـرا؟ أأنا ثـرثار؟ ولكن أتعلم شيئـا؟ أنا أحب أن أتكلم كثيـرا، وأحب أن يكلمني النـاس كثيـرا، اذ بـالكـلام نصبـح أصدقاء، وبهذه الطريقـة نجحت في مصادقـة عدد كبيـر منكم. هذه الفتاة.. ذهبت الى الكباريه وجلست على مائدة. الكباريـه قريب من الهرم. وأنت تعرف فتيات الكباريهات.

انهن مثل الكباريهات متشابهات في كل أنحاء العالم. وجـدت فتـاة قريبـة من مائـدتي. وطبعا تعـرف فتيات الكباريهات. عملهن أن يجلسن مـع الرواد مقـابل مشـروب.. مشـروب دائمـا بـاهظ الثمن. دائمـا أنت مضطر للدفـع، وثمن مشروب كهـذا كثير عليّ. فـأنا وان كنت عضوا في البرلمان الهندي وهو مركز مهما كان ذا صبغة رسميـة الا أني لست غنيا. أنا رجل فقير، ومع هذا فالناس يحبونني جدا في حيدر اباد. حيدر اباد هي ولايتي. لا بـد أن تأتي يـوما وتـلقي نـظرة على الهند وترى حيدر اباد. ولا بـد ان تتصل بي حين تـأتي. لا بد! أنا كما ترى عضو في البرلمان.. يعني أشغل مركـزا رسميا وأستـطيع أن أريك أشياء لن تراها وحدك. أنا متأكد أنـك ستحب بلدي. هناك نحن نحاول أن نبني، ولهذا فليست لدينا خلافات كثيرة. اذا اختلف الناس قل لهم ابنوا شيئاً وحينئـذ لا بد أن يتفقـوا. أتعلم شيئاً؟ يجب أن يتزاور الناس لا ليعـرفوا بـلاد غيرهم فقط، ولكن ليعـرفوا بـلادهم

هم. هنا أحس بالهند أكثر، وحين تأتي أنت ستحس بمصر أكثر، ترامكم بطيء مثل ترامنا، ولكنه سيسرع، سنسرع به أكثر؟ اليس كذلك؟ وحتى هذا الجو الحار يجعلني أحس كأني في بيتي. أتعلم ما حدث؟ أنا سعيد جدا بالقدوم الى هنا. أتعرف لماذا؟ لقد وجدت كل شيء هنا يستيقظ وينمو. حتى نيلكم يفيق ويحاول أن يختزن ماءه المبعثر. أتعلم لماذا نحن فقراء؟ لأننا نائمون. ابني يقول هذا عن هذا يمينية ولكنها حقيقة. في بلدي حيث عملت فلاحاً لفترة طويلة كنت أحب جدا أن أرى الزرع. . الزرع الصغير الأخضر وسيقانه النامية تدفع عن نفسها التربة وتبدو فوق سطح الأرض. أحب جدا أن أرى العجل الصغير وهو لا يستطيع الوقوف على سيقانه ساعة ولادته، ثم حين يستطيع بعد هذا الوقوف والجري، ثم وهو يكبر ويكثر شحمه. وأنا أحب أن أرى الشمس وهي تشرق. . لا بد أن منظر الشمس وهي تشرق في مصر رائع. أتعلم ما هو أجمل شيء في الدنيا؟ الحياة. أتعلم ما هي الحياة؟ النمو.

أرجو عفوك! لقد استرسلت. كنت أود جدا كما أخبرتك أن أتحدث مع الفتاة، ولم يكن معي من النقود ما يكفي الا للضروريات. أحيانا تحس بحاجتك لمحادثة انسان ما. ألا تحس ذلك أحيانا؟ ولم يكن معي من النقود. . فأشرت لها وابتسمت فجاءت وهي تبتسم. أتعلم شيئا؟ انكم شعب الوف. منذ أربعة أيام كنت ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة، ولم يكن معي كبريت وأنا أدخن كثيرا كما ترى. وكلما قالت لي زوجتي هذا أدخن أكثر.

انت تعرف. . عناد. زوجتي بنت عمي، تزوجنا ونحن لم نبلغ العشرين، وكنت أيامها لا أدخن. وبالمناسبة لم تعجبني سجائركم المصريةرغم شهرتها العالمية. مسألة مزاج. أليس كذلك؟ هل تعتقد ان التدخين يسبب السرطان حقيقة؟ من ناحيتي لا أعتقد هذا. أتعلم شيئا؟ يبدو أن كلامي أكثر من اللازم حقا. كنت أقول اني كنت فجأة ماشيا في الشارع ومعي سيجارة غير مشتعلة.

وفجأة، أتعلم ما حدث؟ وجدت شخصا يتوقف أمامي ويخرج من جيبه علبة كبريت ويشعل السيجارة. تصورا! دون ان أسأله! ان هذا لا يحدث في أي بلد من بلاد العالم. أتعلم شيئا؟ انكم أول شعب أراه يحب أن يعطي حتى ولو لم يأخذ. كل الناس تعطي وتأخذ. انتم دائما على استعداد للعطاء. . هذه هي قمة الانسانية. هذا هو ما كنت أبحث عنه طول عمري. ما ديني؟ أتعلم شيئا؟ في كل مكان يسألونني ما ديني. حين كنت صغيرا كنت أعبد البقرة. ولكنني الآن أعبد الصداقة. أتعلم شيئا؟ ولي صلواتي أيضا. أنا أحس وأنا أتحدث معك أن بذور صداقتنا تنبت. ذاك ما أعنيه. عبادتي أن أزرع بذور الصداقة وأنميها.

أنا أحس الآن أني أصلي! اكسب صديقا تخسر عدوا! أليس كذلك؟ تعلم شيئا؟ لقد أعجبني الرجل الذي أشعل سيجارتي وتكلمت معه. كان يعرف فقط نعم ولا بالانجليزية. (ييس) و(نو) فقط. . وكان رائعاً. رائعاً أن تراه وهو يحاول أن يرحب بي ويبثني عواطفه بجمل انجليزية مكونة فقط من نعم ولا، ولكنه ينطقها بطريقة

تجعل للكلمتين آلاف المعاني، وتناولت معه الغداء. دعاني.

أتريد نصيحة؟.. لا ترفض الدعوة أبدا. كل دعوة تقبلها لا بد ستخرج منها بأصدقاء. أتعلم شيئاً؟ إن سكان العالم أكثر من العداوات التي فيه. هذه حقيقة أقسم لك. أكلت يومها طعاما مصريا حقيقيا. أجل طماطيه. أوه! نعم نعم طاميه. لا لا. طعمية. نعم نعم. لقد قضوا معي وقتا طويلا يلقنونني كيف أنطقها. وكان غداء جميلا، تصورا!.. أحببت جدا بيت الرجل وأولاده، مصريون سمر صغار لا تملك إلا أن تحبهم. وزوجته وشبحها يظهر ويختفي من بعيد، وخجلها الشرقي يمنعها من الجلوس معنا، وهي تنادي على زوجها بصوت خافت حتى لا أنتبه أنها تطلب شيئاً أو أنهم ينقصهم شيء. وضحكات الرجل، أتعرف؟ ضحككم عجيب يغري بالضحك كرائحة الشواء التي تغري بالتهام الطعام. وتصور! رأيت الرجل وهو يعمل. وهو يعمل رفا، ابرته صغيرة هكذا ولكنه يعمل بها في حذق شديد، كم كان هذا كله رائعا. أتعلم شيئا؟ لقد جئت مصر لأتفرج على شعبها وأراه حين أصبح حديث العالم، ولكني اكتشفت شيئا آخر. انظر ما حدث. تأتي لترى شيئا واذا بك تجد شيئا آخر. جئت أتفرج عليه فاذا بي أحبه. كم كنت غبيا! قضيت أربعة أسابيع بعد انتهاء المؤتمر في كلام فارغ.. كنت أتفرج على بلاد لا تهمني في شيء. كان يجب أن آتي الى هنا مباشرة، هنا قلب العالم. هل أبالغ؟ أنا لا أبالغ. هنا قلب العالم. أتعلم ما سوف أقوله حين أعود الى الهند؟ سأقول الحقيقة. أتعرف ما هي الحقيقة؟

انني غبي. كـان يجب أن آتي الى هنـا مبـاشـرة، وليس هـذا كـل شيء.. قابلت كونستـابل ـ أنت تعـرف؟ ـ كونستـابل الـذي اذا رقى يصبح ضابطا. من اللحظة الأولى صرنا أصـدقاء عـظاما. أعـطاني صورته انظر! أين ذهبت؟ ها هي ذي، يبـدو كالهنـود؟ آه! كنت أقول هـذا.. أتعلم شيئا؟ كـان ينطق الانجليـزية مثلي. هـل لاحظت أني أنـطق أل(ال) وال (دي) في فرقعـة مكتومـة؟.. كل الهنـود ينطقـون الانجليزية هكذا، ينطقونها بلكنـة أردية، كـانوا يقـولون لي هـذا في وارسو. أجل! وارسو في بولندا.. أجل بولندا. كنت هناك في مؤتمر لدراسة مشـاكل الشبـاب. أنا وان كنت لا أعتبـر نفسي شابـاً إلا أنني مهتم جـدا بدراسـة مشاكـل الشباب. أتعلم لمـاذا؟ لأني أهتم دائمـا باليوم الذي سيجيء. والشباب. هم الأيام الآتية. تعـرف شيئا آخـر؟ لقـد وجدت أن مشـاكل الشبـاب في وارسـو هي نفس مشـاكلهم في دلهي!! قابلني هناك شاب صغير يناقشني في الموقف العالمي تمامـا كما يناقشني لال تيمـو شلاي ابني.. نفس المنـطق ونفس الحجج، ولكنه طبعا لم يقل اني يميني متطرف. سـأكتب كتابـا عن انطبـاعاتي حين أعـود.. أجـل! كتـابـا من حـوالي ٣٠٠ صفحـة من الحجم المتوسط وغلافه بالألوان. عفوك! صديقي الكونستابل لقد أعجبت به جدا. أتعرف انه دعاني لـزيارة قـريته؟ انهـا قريبـة جدا من القـاهرة، تأخذ الأتـوبيس الأصفر وبعـد ١٥ دقيقة تكـون هناك. لقـد ذهلت.. أتعلم شيئـا؟ لم أكن أتوقـع هذا فتصـورا لكـأنني عـدت الى قـريتي تاتورا في حيدر اباد. أعجب شيء أني اكتشفت أن فقركم يشبه فقرنا

تمام، تصور الوقت الذي أضعته أتفرج على بلاد لا أعرفها.

أنا هنا لا أتفرج.. أنا أتغير. أتغير كل دقيقة. أنتم تستيقظون والحوادث تجري بسرعة.. كل دقيقة يحدث شيء. أن تصبح بلادنا بلادنا ليس بالأمر السهل يا صديقي، ليس بالأمر السهل. تصور تأميم القناة. كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لا يحتملها الموقف في العالم، ولا يحتملها شعبكم نفسه. ولكن انظر ما حدث.. حين أصبحت هنا بينكم تغير رأيي. وتصور! فتاة كباريه التي حدثتك عنها تكلمت معها في تأميم القناة، نعم تكلمت معها. أعجب شيء وجدتها متتبعة كل ما يحدث. أنتم شعب رائع! تصور اسمها باهيا، قلت هذا من قبل. يبدو أني أكرر نفسي.. هذه كارثة. فتاة سمراء طويلة واسعة العيون حواجبها مزججة كما تفعل نساؤنا في الهند. تكلمت معها كثيراً.. أنت تعرف أني أحب أن أتكلم مع الناس كثيراً. وتصور! لقد حسبتني أيضاً في العشرين. كل من يراني يحسبني في العشرين ولست أدري لماذا؟ كانت تتكلم معي بالانجليزية ولكنها كانت تخطيء باستمرار. سألتها كيف تعلمتها؟ أنا لا أخجل من توجيه الأسئلة، أنت تعلم. أن تدعي الجهل خير من أن تدعي العلم.. أليس كذلك؟ سألتها كيف تعلمتها؟ أتعرف شيئا؟ لقد اكتشفت أننا تعلمنا الانجليزية من نفس المصدر. تصور أين أنا وأين هي وتعلمناها من نفس المصدر. هي من البحارة والضباط الانجليز في الاسكندرية، وأنا من عملي في الجيش الانجليزي في الهند. اشتغلت معهم طوال الحرب. كانوا يدفعون جيدا ولكن

العمـل كان شـاقا. تصـور هذا. الانجليـز علموا المصـريين والهنـود الانجليزية، أرادوا هزيمتنا بتعليمنا لغتهم فاستعملنا لغتهم في التفاهم بيننـا. أليس هذا أروع؟ أو تعـرف شيئا آخـر؟ لقد تحـدثت معها في مشاكلها فأنا كمـا ترى مهتم بمشـاكل الشبـاب، وهي لا تزال شـابة. ومن ليلتهـا أصبحنا أصـدقاء كبـارا. وبيني وبينك بـاهيا هـذه جريئـة جـدا. . سـألتني أسئلة كثيـرة حتى خجلت أنـا الـرجـل. تصـور أنـا خجلت. كانت تبدو شريرة جدا. . أي انسان يراها لا بد يخاف. أنـا خفت، ولكن أتعلم شيئا؟ قلبها كان من الداخـل أبيض مثل السـاري الأبيض. أخ، يا لي من ثرثار. تصور أنا بدأت أتكلم معك لأقول لك أغرب ما حدث لي مع بـاهيا، ولكني طـول الوقت كنت أتحـدث في أشياء أخرى. . انه أغرب ما حدث لي في مصـر كلها، واذا بي أشط وأنسى. انه شيء مذهل يا صديقي لن تصدقه ولكنه حدث. . حدث لي مـع بـاهيـا. أتعلم لمـاذا قبلت الجلوس معي دون أن أطلب لهـا المشروب الباهظ؟ حدث الأمر هكذا. . حين اقتربت مني قلت لها يا فتاتي الطيبة أنا لست سـائحا. أنـا رجل فقيـر وأود أن أتحدث معـك قليـلا. هل أستـطيع أن أفعـل هذا دون أن أطلب لـك شيئـا؟ قـالت مستحيل، أنت تعرف أن هذا ضروري. قلت لها اني أحب أن أتكلم معك. أنا هندي من الهند وجئت أزور مصـر، وأحب جدا أن أعـرف النـاس وأتحدث معهم ولكن ليس معي الا مـا يكفي السفر. صحيـح أنا عضو في البرلمان ولكني رجل فقير. هل هذه جريمة؟

وانظر ما حدث. . قالت:

ـ انت هندي؟

قلت:

ـ نعم.

قالت:

ـ كيف حالك؟

وسلمت عليّ فسألتها:

ـ لم هذا الترحيب المفاجىء؟

فقالت:

ـ لأني أحب الهنود. أتعلم لماذا؟ لأنهم يقفون بجوارنا ضد الانجليز. أرأيت هذا؟

سألتني:

ـ اذا حاربنا الانجليز هل تحارب معنا؟

قلت لها يا فتاتي الطيبة. أنا مستعد أن أفقد رأسي من أجلك. ليس من أجلك أنت بالذات ولكن من أجل شعبك.

طبعا ليس من أجلها بالذات فأنت تعرف أني رجل متزوج ولي ابن يبدو أكبر مني سنا.

قالت:

ـ صحيح تحارب معنا؟ قل الحقيقة تحارب معنا؟

قلت:

ـ انني وشعبي كله مستعـدون أن نفنى ونحن نـدافـع عنـك. أقصد ليس عنك أنت بالذات وانما عن شعبك.

وكنت أقولها وأنا مؤمن بما أقـول ايمانـا عميقا. ولكن انـظر ما حدث؟ هللت فرحا وتحمست جدا. وأنـا أحب الناس اذا تحمسـوا، انهم لا يكذبون حينئـذ هكذا كـان يقول أبي. تحمست جـدا وشدت على يـدي بقوة جعلتني أهتـز كلي. أنت تـرى أنـا صغيـر جـدا ومن السهل أن أهتز. شدت على يدي وقالت:

ـ أجبشيان هند سوا سوا.

أتعـرف شيئا؟ لم أكن أعـرف معنى سوا سـوا ولكني أحسستها لأن قلبي ارتعش وهي تنطقها. أجل بشرفي دق قلبي هكـذا دب دب كـاللحظة التي يـرى فيها العـريس عروسـه. انفعلت جدا.. تصـورا! الشرق شرقنا، الأرض الواسعة ذات الشمس والفقراء الطيبين الأقوياء بلادنا العـزيزة. الصيحـة وصلت الكباريـه، وباهيـا الطويلة السمـراء الواسعة العيون ذات الأسئلة الجريئـة والوجـه الشريـر، باهيـا تأثـرت جدا، ايد سمـراء من الخارج ومن الـداخل بيضـاء بيضاء. وتصـورا! أتدرك هذا؟ حين فقط تصافحنا بأيدينا صار لنـا عشرون اصبعـاً. نعم عشرون أصبعاً متزاحمة.. أصبع أسمر بجـوار أصبع أسمـر. الطويلة ذات الـوجه الشـرير بـاهيا، أتعلم شيئـاً؟ لقـد كـدت أفقـد وعيي من الفرحة. وقلت لها:

ـ انظري هنا يا فتاتي الطيبة، أنـا لست من رواد الكباريهـات، أنـا رجـل متـزوج ولي ابن يبـدو اذا مشيت بجـواره أكبـر مني سنـا، وأشغـل مركـزا رسميا في بلادي ولكن سوف أتشـرف حقيقة اذا قبلت صداقتي.

وكنت أعنيهـا أجل تشرفني. أتعلم شيئا؟ من لحـظتهـا صـرنـا أصـدقاء. أتعلم شيئـا آخر؟ لقـد ظللت أردد لها اسمي خمس دقـائق دون أن تلتقط منه حرفا. نعم اسمي أرجو ألا تكـون نسيته. لا، ليس كيمـورانجو. لا، تيمـو. تيمو شـلاي. هـ. ك تيمو شـلاي، أنت تعلم؟ لقد أخبرتك تيمو يعني شيء كالجوهـرة. اسم متعب.. أليس كذلك، ولكنه هندي مائة في المائة.

المستحيل

حدثت الضجة المعهودة خارج الحجرة، وتعالت أصوات وضحكات وتشنجت حنجرة ثم دخل المجنون ومعه مرافقوه.

وإن يرى الانسان مجنونا في الشارع مرة شيئا قد يكون مثيرا، أما أن يكون عمله هو الكشف على المجانين وإدخالهم مستشفى الأمراض العقلية فشيء يجعله يفقد حب استطلاعه، ويصبح الأمر بالنسبة اليه مسرحية مكررة لا جديد فيها ولا طريف.

ولهذا فحين دخل المجنون الجديد لم ألق اليه بالاً كثيرا. كنت قد تعودت رؤيتهم ومعاملتهم، ولم يعد جنونهم أو شذوذهم يزعجني أو يثير عجبي. وكان المريض الجديد هو الآخر داخلا مواصلا كلاما لا يعلم سوى الله متى بدأ:

ـ اسمك ايه؟

ودون أن يغير طريقة كلامه أو النغمة التي يتكلم، مضى يقول:

ـ يسرقوني ليه؟ أنا عملت فيهم ايه؟ اسمي محمد شحاته علي، والمجرم صالح الشهاوي نتش مني أربع صفايح سمنة.

ورحت أجيب الايجار من السكان فزعوا عليَّه بالسكاكين عايزين يدوني نكلة في الشهر ايجار الشقة. هو انا شحات؟ أنا راجل صاحب عمارات ثلاثة في شبرا السمك وأربعة في أبو الريش و. .

ونظرت إليه. .

السحنة واحدة لا تكاد تتغير. . سحنة ضامرة وأشداق مشفوطة وذقن لا بد نابتة وشعرها نام بجنون هو الآخر، تكاد الشعرة تلتوي عند نهايتها وتنقض على جارتها وتعضها، وملابس مهما اختلف لونها مهرأة وممزقة ومربوطة أحيانا بحبال.

لم يكن أكثر ولا أقل من مجرد مجنون فقير آخر.

وكل من كنت أراهم كانوا مجانين فقراء. . وكم هو عسير على النفس أن ترى غيرك مجنونا، أن ترى الانسان ذلك الكائن الحي الذكي الذي تشير له فيفهمك، وتقول النكتة فيضحك، وتصادقه فيحبك، ويؤمن فيضحي بحياته في سبيل ايمانه، وتريه الشيء فيتعلم. . أن ترى ذلك الانسان وقد تحول الى كتلة بشعة من اللحم والملابس الممزقة والتصرفات الشاذة والصرخات، كتلة لا تعي ولا تحس ولا تستجيب ولا تملك حتى أن تسقي نفسها الماء.

كان العسكري الذي يصاحبه قد وقف على يمينه وقريبه الذي جاء معه بجانبه وعلى يساره، والمجنون بينهما قصير أقصر منهما، وشعره أسود وأكرت ومهوش، والمجنون وملامحه شائخة، ولكن ليس في رأسه شعرة بيضاء واحدة. وكان حافيا ومع هذا يرتدي طربوشا قديما لا زر له ولا هيكل.

ومنـذ أن دخل ووقف لم يغيـر وضعه أبـدا، فيداه مضمـومتـان أمامه أحداهما قـابضة على الأخـرى تكاد تخنقهـا، ورأسه ينـظر الى الأرض بزاوية، وعيناه مصوبتـان الى قدميـه، وكان بـاديا أنـه لا يرى حتى قـدميـه وانمـا يختـرق ببصـره الأرض الـواقف عليهـا ومـا وراء الأرض، ويهيم في شيء بعيد مجهول. وكذلك لم يتوقف عن الكلام وكان يبدو انه لا ينوي التوقف أبدا، وصوته يخرج لا حماس فيـه ولا حرارة، ولا يرفعهولا يخفضه مهما تغير ما يقول كأنه شـريط مسجل لا يتوقف دورانه، واذا سئل لا ينتظر ليعرف السؤال ولكنه يواصل كـلامه ويخرج عن الموضوع الذي يتكلم فيه قليلا ليجيب، ثم يعود بسرعـة الى شريطه المسجل الذي لا يتـوقف، وحين عدت أستمـع اليه كـان يقول:

ـ يمضوني على عقد البيع أونطه؟ كنت اتهبلت أنـا عشان أبيـع تلات عمارات بتـلاتة صـاغ ونص فرنـك شركـة؟ أطلب منهم الأجرة يضربوني ويـدوني نكلة، والبواب عـايز ألف جنيـه في الشهر وشـركة الميه ليها عداد..

مرة أخرى حديث عن العمارات والثروات الموهومة التي كـون الناس أجمعين عصابات لاغتصابها.

وأعدت السؤال:

ـ بتقول اسمك ايه؟

ومرة أخرى سكت. ونـظر إليّ نظرة لامعـة فيها بـريق مخيف،

ثم غاد يكمل حديثه ذا النغمة الواحدة وكأنما كان سكوته خللا أصاب الشريط للحظة ثم عاد إلى الدوران.

وكانت نظرات الجنون في عيون المرضى تخيفني أول الأمر، اذ فيها ذلك الوميض المفاجىء المريع وكأن عقولهم تحترق داخل رءوسهم، وعيونهم تنفث شرر الحريق. نظرات تجعل الانسان يخاف من الجنون. ونادرا ما يخاف الانسان من انسان ولكن نظرة واحدة من تلك النظرات كفيلة بأن تجعله يخاف.. وأفظع خوف هو خوف الإنسان من الإنسان. وأول الأمر أعاملهم مثل غيري من الناس باحتراس الخائف، ولهذا كانوا دائما يرتكبون حماقات فيحاول أحدهم أن يعضني مثلا، أو يبصق على وجوه الواقفين حوله، أوتنتابه لوثة ويهم بإلقاء نفسه من الشرفة. وكان هذا يزيد من احتراسي وخوفي فقد كنت أحس على الدوام أني أمام آلة خطرة لا ضابط لها ولا رابط، كالبندقية المعبأة التي قد تنطلق من نفسها في أية لحظة وتقتل. وبمضي الوقت رأيت منهم مئات، وبمضي الوقت ألفت تلك النظرات والألفة تزيل الخوف، وحارس الأسد لا يخاف من الأسد، وهكذا فقدت حيطتي وأصبحت أعاملهم وكأني لا أعامل مجانين، فأفك عنهم القيود وأعطي الواحد سيجارة وأدعه يشعلها بنفسه ويدخنها، ولا أضحك من غرابة ما يقول، وأعجب شيء أنه ما من أحد منهم عاملته بألفة وحاول ايذائي. وأيقنت آخر الأمر أن النظرات النارية التي يطلقها المجنون من عينيه وتخيف ليست في الحقيقة سوى نظرات خائف، نظرات رعب من العالم والناس يبلغ حد

الجنون. انه يؤذي غيره لخوفه من أن يؤذيه غيره، ويتوحش لاعتقاده أن الناس قد تحولوا الى وحوش. . والواقع اننا كثيرا ما نتحول الى وحوش. اننا اذا رأينا شذوذا في تصرفات انسان لا نغفر له ونعامله بقسوة وكأنا نعاقبه على شذوذه، وبهذا تصبح تصرفاتنا شاذة في نظره ويزيد حينئذ شذوذه، وقد يكون الأمر في مبدئه حبة فنصنع منها قبة، ويكون التصرف الشاذ بسيطا فنقلبه الى جنون مطبق، ونصف المجانين مجانين لأنهم مرضى، والنصف الآخر لأننا أرغمناهم على الجنون.

ولم أكن في حاجة الى فحص كثير لكي أدرك أن الرجل الواقف أمامي تنطبق عليه كما تقول اللائحة، أحكام المادة كذا من قانون الأمراض العقلية.

ولكن كان لا بد من بضعة أسئلة أخرى تعذبني وأنا ألقيها وأسمع الاجابة عنها، فالانسان منا اذا وقع نظره على عين أعور أو أعمى أو ساق مبتورة اقشعر وأحس بألم ممزوج بالخجل وكف عن النظر، فما بالك حين يحادث الانسان شخصا ذا عاهات متعددة ليس باستطاعته أن يرى أو يسمع أو يفكر، وإذا كان من المؤلم أن تقول للمشلول إجرِ، فمن المؤلم أكثر أن تسأل فاقد العقل وتطلب منه أن يجيبك ويفكر، ومع هذا كان لا بد أن أسأله، فقلت له كالعادة:

ـ عارف النهارده ايه؟

وبنفس الهمهمة المستمرة التي لا تنقطع مضى يقول:

ـ شافوني داخل مسكوا في خناقي، النهارده أول الشهر وبقى لهم ثلاثة أشهر ما دفعوش الإيجار، والمحضر ساكن في البيت والثلاث عمارات يتباعوا والبيع لازم يحصل النهاردة.

وهززت رأسي لا أدري ما أقوله، والرجل ذو الطربوش المزعزع فوق رأسه واللحم الجاف الشاحب الظاهر من خرقه يتحدث عن العمارات وبيعها، وقريبه واقف ينظر بمرارة وقلق وتحت ابطه لفة لا بد فيها طعام رفض المريض أكله، ووراء وجودهما أمامي لا بد قصة.. قصة طويلة حافلة، فأن يجن واحد في العائلة مأساة، واذا كانت العائلة فقيرة فالمأساة أفظع اذ لا بد قبل أن تعترف السلطات بصحة الخلل الذي طرأ على قوى الشخص العقلية، أن يرتكب حادثة أو أكثر ويحاول قتل نفسه على الأقل مرة، ويصبح وجوده(خطرا على أرواح الأهالي وممتلكاتهم). بعد هذا وليس بأي حال قبله، يصبح في استطاعة أهله أن يقدموا بلاغا الى القسم والقسم يتحرى، وبعد أن يتم التحري يرسل عسكري، ويعود الأهل اذا كانوا محظوظين آخر النهار الى الحارة أو الزقاق ومعهم عسكري ويؤخذ المريض الى القسم عنوة ويضرب زفة، وهناك يفتح محضر وسين وجيم، ثم يرسل المريض بخطاب وفضيحة الى مفتش الصحة. واذا كان حظ المريض من نار ظهر الخلل واضحا أمام مفتش الصحة، فاذا اقتنع بمرضه أحاله الى القسم مرة أخرى، والى أن تأتي عربة المستشفى يوضع المريض في السجن على انفراد ومكتفا لا يستطيع حراكا، ولا تأتي العربة في العادة الا بعد يوم أو يومين أو اذا آن الأوان، واذا جاءت ظلت ترفعه وتهبده، ، والتومرجية

في المستشفى يرفعونـه ويهبدونـه حتى تصعد البقيـة الباقيـة من عقله الى بارئها.

لا بد أن يحدث كل هذا قبل أن يصبح من حق المريض بعقله ان يستلقي فوق سرير المستشفى الكالح.

ولا بد أن كل هذا قد جـرى ويجري لمحمـد شحاتـة.. على الواقف يتحدث أمامي حديث خالي البال عن العمارات وأصحابها.

وإذا كان الفقر في حد ذاته يهد كرامة الإنسان وآدميته فما بالك إذا جن الفقير؟

قلت له لأسهل الأمر عليه:

- لأ يا عم محمد النهارده الأربع، ويبقى بكره ايه؟

ودون ان يغير طريقته قال:

- ان شـاء الله بكـره السبت، بكـره سـوق السبت أبيعهم في السوق بالمزاد العلني، واللي ما يشتري يتفرج والفرجة بقـرش واللي حاضر.

وكنت أعتقد قبلا أن الجنون حالة كالموت يتساوى فيهـا الناس اذا فقدوا عقولهم ويصبح كل مجنون نسخة من الآخـر، واذا بي أجد أن الأمـر غيـر هـذا بـالمـرة. فهم ليسـوا قـطيعـا واحـدا من فـاقـدي العقـول.. كل منهم كـائن مستقـل بـذاتـه وقصتـه ومسلكـه الغـريب الخـاص به، حتى الكـلام لكل طـريقته المعينـة التي لا يحيـد عنهـا والدائرة التي يدور حولها كلامه لها نصف قـطرها الخـاص به والـذي قد يكون عمـارة، وقد يكـون عصابـة، وقد يكـون غضبه من أهـل أو

حبيب.

كانت حالة الرجل واضحة.. وكان ممكنا أن أكتفي بالأسئلة القليلة التي وجهتها وأملأ خانات الاستمارة وانتهي من(الحالة)، ولكننا أحيانا تخطر لنا خواطر فتقودنا الى اكتشاف آفاق لم نكن نستطيع الوصول اليها بالتدبير والتمعن والتفكير، والخاطر الذي خطر لي لم يكن من قبيل الصدفة اذ لم أكن أنظر الى المريض على أنه مجرد(حالة) أخرى، كانت مشكلة العقل البشري تحيرني وتجبرني على التفكير. هذا العقل.. هذا الجهاز المذهل الكامن في تجويف الرأس المزدحم بالأفكار والحوادث والغرائز والمشاعر والذكريات.. هذا الساحر الصغير القادر على أن يحيل الحجر إلى ماس والخاطر إلى اختراع والغريزة الدنيا إلى غريزة سامية عليا، تلك البوصلة الرائعة في دقتها التي تحدد الشرف وتقيس المعقول، وتربط ألف فكرة بألف فكرة، وتخرج بنتيجة وتصنع من النتائج أحكاماً وقوانين، هذه المعجزة التي تحل أعقد الطلاسم وتتذكر أدق التفاصيل وتحس وتفرق بين الأحاسيس، هذه المساحة المتناهية الصغر التي تخلق وتضع الخطط العميقة، وتبتكر ملايين الكلمات والتعبيرات وتحوي كل هذا وتحفظه، هذا العقل الذي يحتوي الدنيا كلها بما عليها ولا يضيق، ترى ماذا يحدث له حين يختل وتشب فيه النار؟ ما هو الأصيل الذي يبقى، وماذا فيه يستحيل إلى دخان؟ وعم محمد شحاتة علي الواقف أمامي لم يغير وقفته، ترى ماذا طار من عقله وماذا لا يزال كامناً مقدساً في أخاديد تفكيره؟!.

والمسألة نسبيـة لا ضابط لهـا ولا رابط، فقد لا يكـون بعضهم يعرف اليوم الذي هو فيه ولكنه يرفض أن تتعرى أجـزاء جسمه، وقـد لا يعرف اسمه ولكنه يخنقك اذا شتمته.

وكنت أحب ذلك الحوار الـذي يدور بيني وبين المريض، فاذا كان الانسان العادي له عقل بالـغ التعقيد فـالمجنون بسيط والمشكلة التي تحيره واحدة ويقول ما يريده على الفور وبصراحة، وتستطيـع أن تقرأ تفكيره بسهولة وتعرف ما احترق في عقله وما لا يزال سليما.

وسألته:

ـ ايه اللي مضايقك يا عم محمد؟..

وكان لا يزال على نفس وضعه، لم يرفع بصره مرة وينظر حوله وسيال حديثـه مستمر وكـأنه يتحـدث الى كائنـات أخرى لا نـراها ولا تتبرم بحديثـه، يتحدث وكـأن لا زمان هنـاك ولا مكان، ولا يهمـه إن كـان هناك زمـان أو انسان أو مكـان، والبقية البـاقية في رأسـه تطحن الكلمات والجمل فتخرج كالدقيق الناعم المستمر لا انفعال فيهـا ولا ادراك. وحين سألته كان لا يزال ماضياً في قوله:

ـ سلطوا عليّ نسـوانهم بالشبـاشب هانـوني.. تعبـوني قـوي. سكـان متعبين وبيـدفعـوا في الشقـة نكلة ايجـار قـديم، ولازم أبيــع العمارات حالا قبل ما يهدوهم.. الجدع ده سلط عليّ مـراته قلعتني الهدوم في الليل وسرقت المحفظة..

وتدخل قريبه الذي كان واقفاً:

ـ ما تصدقوش والله العظيم ما حد عمل فيه حاجة.

وتطلعت اليه.. سحنة ضامرة أخرى، ولحية نامية، وملابس مهلهلة لا تكاد تفترق عن ملابس المجنون حتى كدت أسأله هو الآخر عن اسمه واليوم الذي نحن فيه، وربما لو كنت سألته لما كان قد عرف. وتلك ظاهرة غريبة فلا بد أن يكون مع المجنون قريب، ولا بد بطريقة أو بأخرى أن يخرم المريض على أقربائه ويتهمهم أي اتهام، والأغرب من هذا أن القريب لا بد يدافع عن نفسه بحرارة، وكأن الاتهام صادر عن عاقل أو كأنه صحيح.

وأشرت للقريب أن يسكت ولكنه لم يفعل، بل مضى يدلل ويروي على مسامعي كل ما قام به المريض من أفعال خارقة وكأنما ليثبت لي أنه حقا مجنون وكلامه فارغ، وبينما هو يتكلم بحرارة كان المريض يقول:

ـ كلهم حرامية ما تصدقوش دول كدابين. بيقول كده عشان يوديني في داهيه وياخد هو حق العمّارات.. قال لي امضي على بياض عايز ينهبني. دول على ذمتي تلات عمارات يسووا ١٥٠ قرش وأبيعهم بنص فرنك؟ حرام أنا يتيم.

وقاطعته وسألته:

ـ انت عارف ده مين؟

ودون أن ينظر اليه استمر:

ـ يتيم، أمي ماتت السنة اللي فاتت وده حرامي ابن حراميه.

وكادت تفر دمعة من عين قريبه وهو يقول:

ـ أنا حرامي يا محمد؟ الله يسامحك يا محمد يا بن أمي وأبويا، تقول عليّ حرامي يا محمد وأنا أخوك؟!

وسألت المريض:

ـ عارف بلدكو اسمها ايه يا عم محمد.

ـ عايزين ياكلونا بالحيا.. بلدنا بلد الفقر والعنطزة هناك ع الترعه وعندها محطه وسبيل. والعمارات ٤ في باب الحديد و ٣ في ستنا نفيسة وعقد البيع جاهز على الامضا، ومش ممكن أقل من خمسة صاغ الواحدة.

وسألته:

ـ انت متجوز يا عم؟

واستمر:

ـ ويجيني المشتري لحد عندي.. كتفوني امبارح وحطوني في شوال وقالوا تجوز أمك يا تتنازل عن العمارات.

وتدخل قريبه:

ـ عيب كله الا أمك يا محمد.

ثم التفت إليّ وأكمل:

ـ ده مجوز ومخلف رجاله وسيبينه كده، وأنا اللي بصرف عليه وحياة الحسين.

وعدت أسأله:

ـ لك أولاد صحيح يا عم محمد؟

واستمر يهمهم

ـ أتنازل ازاي؟ ما اتنازلش. . أنا مليش أولاد، أنا لي عمارات بس، ولازم ابيع النهارده واقبض التلاته صاغ كاش! . .

وأخرجت الاستمارة من درج المكتب استعدادا لملئها.

وفي العادة كنت اذا وصلت الى هذا الحد وتأكدت من المرض، تنتابني موجة من اليأس فأهاود المريض على عقله وأمزح معه وأحدثه بأي كلام قد يخطر لي على بال، وكأني أعتذر له سرا لأني سأثبت في الاستمارة حالا انه مجنون.

ومع عم محمد أيضا قلت:

ـ انت عايز تبيع العمارات صحيح؟

فأجاب على طريقته:

ـ منهم لله عايز أبيعهم كلك على بعضك بيعه وشروه بالوقه، وأنا أصلي . .

قلت:

ـ تبيعهم للعسكري ده؟

فاستمر:

ـ وأنا أصلي أبيع . .

ـ تبيعهم لأخوك أحسن؟

ـ وأنا أصلي أبيع . .

ـ والا تبيعهم لي وتكرمني؟

ـ وأنا أصلي أبيع .

ـ أقول لك يا شيخ . . بيعهم للانجليز واخلص .

ـ وأنا أصلي أبيع، لا الانجليز . . لا انجليز . . ما انجليز من رابع المستحيل . .

وفوجئت برفضه فسألته وأنا أستغرب :

ـ ليه اشمعنى الانجليز لأ؟

وعاد الشريط يدور:

ـ لأ لأ كده الله الله ع الجد أبيع لربنا حتى والكمبيالات جاهزة والمستندات تحت الطلب واللي ما يشتري يتفرج، والانجليز لأ .

التمرين الأول

كان عجيبا هذا الاحساس المفاجىء الذي أصاب طلبة(ثالثة رابع) وجعلهم يستمرون في أداء التمرينات الرياضية بعد انتهاء الحصة، وأيضا أثناء الفسحة التي بين الحصتين ثم يأخذون خمس دقائق أخرى من الحصة التالية.

كان هذا عجيبا، اذ طوال أيام الدراسة كانت أمنية كل منهم أن يصحو من نومه فيجد المدرسة قد نسفها طوربيد أوابتلعها بركان.

كانوا، كغيرهم من الطلبة، يكرهون المدرسة كرها لا يعرفون له سببا، ويبدأ ذلك الكره مع بدء كل يوم، بل قبل أن يبدأ اليوم. فالطالب لا يستيقظ من نومه الا مقروصا أو معضوضا أو مطروحا أرضا، ثم يدفع الى المدرسة دفعا، ودائما في وداعه شيء.. دعوة عليه، شتمة، أو فردة شبشب. وينسل الى الشارع ويظل يجري ويجري ملتصقا بعامود ترام أو مهرولا فوق رصيف، والشتاء بارد والصبح أبرد.. أبرد من الحصص الاضافية، والرعب يملأ قلبه مخافة أن يصل متأخرا ويجد باب المدرسة مغلقا ويضيع اليوم، ويقيد غائبا ويروح في داهية.

وما يكاد يصل الى المدرسة ويجدها قد امتلأت بالأشباح المقرورة من أمثاله التي تبحث عن الشمس، فالشمس ليست مثلهم تلميذة في مدرسة. انها لا تصحو ولا تضيء صباح الشتاء الا في العاشرة أو ما بعدها. ما يكاد يصل وما تكاد المدرسة تفتح ذراعيها وتضم تلك المجموعة الضخمة من الفتيان، وما تكاد جدرانها تهب من رقادها الطويل الوحيد وتشارك الطلبة مرحهم وتردد لهم أصوات زعيقهم وضحكاتهم، ويتلمظ حصى الفناء منتشيا وهو يستقبل الأقدام الصغيرة الشابة ويلثمها وقد طال شوقه اليها.. وما تكاد الأشجار تهفهف بأوراقها وتشقشق سعيدة بجري الطلبة حولها وجذب شعورها وأغصانها.. ولا تتألم حتى حين يحفرون أسمائهم عليها، ما يكاد الطلبة يحسون انهم كائنات حية لها أماني ورغبات وأحلام وأحاديث، ما يكاد هذا يحدث حتى يدق الجرس.. تنم. تنم. تنم.

وفي الحال تهمد الحركة وتخرس الألسنة وتتجمد الرغبات، اذ ما يكاد الجرس يدق حتى يغلق الباب.. باب لا بد ضخم متين كأبواب السجون. وما يكاد الباب يغلق حتى يفطن الطلبة الى وجود السور.. سور لا بد عال هو الآخر ومزود بالأسلاك الشائكة ان أمكن..

ومع دقة أخرى من الجرس يزحفون صوب مكان الطابور مطاطئي الرؤوس وقد تضاءلت أمانيهم وانكمشت، وأصبح الواحد منهم مجرد تختة أو دواية أو قلم بسط رخيص عليه أن يكتب ويكتب ولا ينقصف سنه أبدا.

تلك التمتمات الثلاث تعني أن اليوم الدراسي قد ابتدأ، وويلهم من اليوم الدراسي حين يبتدىء! حتى الجرس الذي يبدأ به اليوم جرس كالح قديم عليه صدأ أزرق، وله بلبلة أضخم من حجمه واقفة في وسطه كما تقف اللقمة في الزور. حتى صوت الدقات يخرج وفيه من الأنين أضعاف ما فيه من رنين، أنين يعلوه الصدأ هو الآخر.. صدأ أزرق كالح كئيب.

حتى الفراش الذي يدق الجرس لا بد أن يكون عجوزا خطير الملامح، ولا بد أن يكون له شارب كث يخيف، ولا بد أنه يحس أنه نابليون زمانه أو اسرافيل عصره وأوانه، ولا بد له ساعة.. أخطر من أية ساعة في الدنيا هي التي تحرك عقاربها المدرسة كلها، ولهذا لا بد لها من مخلاة سوداء صغيرة يضعها فيها مبالغة في الحرص عليها، ولا بد أن تجده واقفا تحت الجرس ينتظر ممسكا بالساعة محدقا فيها، حريصا عليها في يده كل الحرص وكأنها قنبلة زمنية اذا حركها ستنفجر. وقبل أن يحين الحين يقبض على سلسلة الجرس.. سلسلة لا بد قديمة أو موصولة بدوبارة، ثم تأتي اللحظة فيجذب السلسلة، يجذبها بتؤدة وتقل وكأنه يفرغ الحكمة العليا في تمتماته الثلاث..

وأول ما يسمع بعد الجرس من الأصوات هو:

ـ اخرس.. بطل كلام.

وبهذا الأمر تقطع كل صلة للطلبة بأنفسهم ويخرسون، ويبدأ

المدرسون الذين يفتشون على الطابور في الكلام، ويخرج كلامهم طازجا على الصبح ومنتقيا بعناية بحيث لا تندس بينه أبدا كلمة حلوة، يفرغون فيه كل ضيقهم باليوم الذي أصبحوا فيه مدرسين، وبالمهنة الصعبة التي اختاروها لأكل العيش، وينتقمون من مشاكل الكادر والأمس وشتائم الحماة ومرض الطفل وارتفاع أسعار الصوف..

ثم يظهر الناظر..

يطل على الطابور الصامت بوجه لا صباح فيه ولا خير.. يحدق في الطلبة فيموت الطلبة، وفي المدرسين فينكمش المدرسون، وفي الصمت فيقشعر الصمت..

ولا بد أن تكون لدى الناظر مفاجأة لا بد لها من مقدمة شتائم طويلة، ثم حديث عن النظام مثلا، وكيف أنك لكي تدخل الجنة.. اذا أردت دخول الجنة فعليك أن تبدأ السير في الطابور بالساق اليمنى، وأن تسير اثنين اثنين، وكيف أنه.لكي تحل مسألة الجبر لا بد أن ترتب ملابسك بنفسك في دولابك الخاص، وكأن لدى كل طالب ملابسه الخاصة بل دولابه الخاص.

أو يتحدث عن الطالب الذي ضبط وهو يسرق البيض من المطعم، وأحيانا لا يكتفي بالحديث فيخرج الطالب نفسه ليريه للجميع، ويجعل منه أمثولة وعبرة.

أو ينبه تنبيهاً صارماً قاطعاً أن كل من لم يدفع المصاريف عليه بمغادرة الطابور، ومن ثم المدرسة كلها في الحال.

ووجهه طوال حديث الصباح جامدا عابس. والطلبة واقفون الدقائق الطوال كالخشب الخائفة المسنذة لا يعرفون سببا لذلك الرعب المفاجىء، ولا سرا للعبوس الشديد في وجه الناظر، هل مات له قريب؟ غير معقول هذا، فهو كل يوم عابس وليس معقولا أن يموت له كل يوم قريب، عسى أن يموت له كل يوم قريب!

ثم يدور الطابور الى اليمين أخيرا والى اليسار، وكل يبتلع ريقه ويتحسس رقبته ويتنفس الصعداء.. فقد نفذ هذه المرة ولم يكن الطالب الذي سرق البيض، ولم يخطىء ويبدأ المشي بالساق اليسرى، ولكن تراه كيف ينفذ في المرات القادمة؟.

ومن خلال ممرات كئيبة طويلة متشابهة يدلفون الى الفصول.. فصول مكررة حيطانها طويلة هيفاء عالية، ولونها تصر الوزارة على اختياره حشمة لينظر الناظر اليه ويرسي في قلبه الوقار.

وما تكاد الحياة تدب في الفصل وتتحرك التخت والمقاعد ويذهب عنها الروماتيزم الذي يصيب مفاصلها كل ليل، حتى يقبل المدرس فجأة، لا بد أن يقبل المدرس فجأة ـ وكأنه ضابط مباحث في طريقه الى ضبط واقعة ـ لعله يسعد ويحس بالسلطة حين يحدث ظهوره المفاجىء سكوتا مفاجئا، يقبل ولا ينفرج وجهه مخافة أن تضيع الهيبة.

ـ قيام!

واذا بالفصل كله يتلكأ ويقوم، ولا يدري لماذا يقوم.

ويحدق المدرس طويلا في تلاميذه وكأنهم يحرزون مواد ممنوعة وهو يفتشهم بعينيه تفتيشا دقيقا. فاذا عثر على الهفوة كان بها، والا فإنه يقول:

- جلوس!

يقولها قرفانا وكأنه يمن عليهم بفضل من عنده.

وتتوالى الحصص ويتوالى المدرسون وكل منهم كالجهاز المعبأ الذي يفرغ شحنته بمقدار، اذ هو الآخر ليس أكثر من موظف حكومة له عمل يؤديه ثم يمضي. وكل ما يسمعه الطلبة أوامر تترى، وأشياء غريبة تخرق أسماعهم وتتفجر كالصواريخ في عقولهم. سمّع يا ولد ما قاله الكميت في وصف ناقته. اذكر ثلاثين شرطاً من شروط الصلح في معاهدة واق الواق، وإذا نسيت شرطاً فبعصاية ما اسم البلاد التي تزرع الشوفان؟ (والمدرس نفسه لا يعرف ما هو الشوفان). تخيل انك على خط عرض ٢٣ وتريد أن تسافر إلى خط طول ٨٥ بطريق البر فأي الطرق تسلك؟ أعرب أبيت اللعن، ما هي حالة الطوارىء التي يصح فيها رفع المستثني بإلا؟ تكلم على لسان طائرة تريد أن تفاخر السيارة وتتيه عليها فماذا تقول؟.

ومع توالي الحصص وتنوع الدروس تتنوع الشتائم وتتنوع كذلك لغتها، فهناك شتائم فرنسية رقيقة، وشتائم نحوية فصحى، وشتائم كيمياثية مركبة ومخلوطة، وأقل ما فيها؛ نزل ايدك يا ولد. وشك في الحيط يا أحمق. اطلع بره يا صعلوك. التفت يا لوح. حل المسألة يا أغبى مخاليق الله. وأحيانا يفيض الكيل ولا يعود ثمة بد

من المواجهة السافرة فتنطلق الكلمات: مـا تنحرق انت وهـوه. اتنيل يـا شيـخ. اتلهي. انتم تنفعـوا انتم؟ انتم بـلاوي. انتم رمم. انتم جايين هنا ليه. انتم مالكم ومال المدارس؟ روحوا لموا سبارس.

حتى الكراريس، كانت هي الأخرى تشاطر الناظـر والمدرسين وجلدتهـا مملوءة بالأوامـر والنواهي. لا تبلع الـطعام. لا تمضـغ. لا تستنشق الهـواء. لا تمش. لا تجلس. لا تتحدث. عليـك بـالحلم. عليك بالطاعة. عليك بإمساك نفسك ساعة الغضب.

ورغم هذا النظام الصارم، ورغم أن المدرسـة كانت على حـد قول الناظر تمشي كالسـاعة، ونسبـة الحضور أعلى النسب، وأحـذية الطلبة كلها تلمع، والحوش الواسع خال تماما من الأوراق.

ورغم أن الأولاد ـ على حـد قول قـول أولياء الأمـور ـ كانـوا لا يلعبون، ويذاكرون، اذ هم واقفون لهم بالمرصاد. ما تكاد المدرسـة تتـركهم حتى يتسلمهم الأولياء، والـويل للتلميـذ اذا تأخـر بـره أو لم يقض الساعات منكبا على كتبه يتلو ويذاكر. رغم هـذا الا ان الطلبـة كانوا لا ينجحون، ويفشلون بالمئات والعشرات، ويقـابلون الدراسـة باستهتار، وينـامون في الحصص، وإن واتـاهم الأرق أقامـوا حفلات تـرفيه، وتبـادلوا القـرصات والـزغدات والضـرب على القفا، وكتـابـة الخـطابات المملوءة بـالشتائم، وتكـوين العصابـات وشرب السجـائر وسب المدرسين، ومزاولة العادات في السر والعلن.

وكان الطلبة أيضا ورغم كل شيء يتساءلون هم الآخرون لمـاذا

يـرسبون؟ ولمـاذا يكرهـون المدرسـة؟ ولماذا يعـاكسون المـدرسين؟ ولماذا يقضون أتعس الأوقات مع انهم يسمعون الناس تقول إن أحلى أيام العمر هي الدراسة؟

كان الناظر والمدرسـون يحاولـون تفسير الأمـر ويقولـون: إنهـم طلبة هذه الأيام ومساخرهم وتفاهتم.

وكان أولياء الأمور يقولون: هي حكمة الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب. وكان الطلبة يقولون: بل هو الحظ، بضربة حظ تنجح، وبضـربـة أخـرى تفشـل، يـا رب كثيـر من الحظ يـا رب.. كثـر من الحظ.

وذات يوم أتيح لطلبة ثالثة رابع أن يمروا بتجربة.

كان مدرس الرياضـة البدنيـة عملاقـا ضخما رهيبـا، كتفه تهـد الجبل وزنده في حجم الفخـذ وقبضته تحيـل الرءوس الى جمـاجم، ولم يكن في حصته مكان للترفيه أو العبث. فقد كان طلبة ثالثـة رابع كغيرهم من الفصول يخافونه، ويخافون اذا عنّ لواحد منهم أن يعبث في حصته ألا يرسله كالعادة الى المشرف أو يخرجه من الفصل مثلا، وانمـا يتولى العقـاب بنفسـه وقـد يتـولاه بقبضتـه، والكف عن العبث بالتأكيد أسلم نتيجة من عقاب يتولاه مدرس الألعاب بقبضته.

كان يأتي، وقبـل أن يدخـل الفصل يكـون الفصل واقفـا كله، وبـإشارة منـه يخرج الـطلبة عن الأدراج، وبإشارة أخرى يصـطفـون ويهبـطون السلالم دون أن ينبس أحـد ببنت شفـة، وفي سكـون تـام

يخلعون الجاكتات، ثم يتسلمهم العملاق بتمريناته. ثني مد. رفع. ضم. افتح سدرك. شد وسطك. اخبط الأرض بدماغك. وشك فدق. عايز الجزمه تطلع شرار.

وهكذا الى نهاية الحصة، حتى تتدلى الألسنة من الأفواه وتتجمع الرغاوي.. وتتشقق الحلوق وتتقطع الأنفاس، ولا يجرؤ واحد أن يقول آه أو لا.

عقل سليم جسم سليم، هكذا كان يقول. رياضة يعني رياضة. عايزين رجالة مش حريم. دلع مش عايز دلع. كلمة واحدة أقطم رقبتك. بص قدامك. لم نفسك. تخشب. التمرين الأول ابتدى.

وكان الطلبة حين تنتهي الحصة يقضون بقية اليوم في ترميم أنفسهم والتماس النقاهة. ويقضون بقية الأسبوع في تمن أن ينسف الطوربيد مدرستهم على الأقل قبل حلول حصة الألعاب التالية..

وفوجىء الطلبة ذات يوم بخبر نقل مدرس الألعاب ومجيء مدرس جديد. ولم يتحمس الطلبة للخبر فكل المدرسين كانوا لديهم سواء.. كلهم رجال كبار حكماء معصومون من الخطأ وأذكياء جدا ومتعلمون بغزارة، وبعيدون عنهم تماما هم الصغار الحمقى الجهلاء الذين تكمن فيهم كل العيوب والذين لا يفعلون سوى ارتكاب الأخطاء تلو الأخطاء..

وجاءت حصة الرياضة البدنية..

ودخل الحصة شاب لا لحية لـه ولا شارب، ولا يـرتدي ربـاط عنق وانمـا وضع يـاقة القميص فـوق الجاكتـة وفتـح صـدره. وعـادة المدرسين أن تكون الياقة منـطبقة على العنق وعلى ربـاط العنق تمام الانطباق.

وغادروا الفصل وهبطوا السلالم وخلعوا الجاكتات، ووقفوا كما كـانوا يقفـون وراحـوا يؤدون التمـرين الأول كمـا كـانـوا يؤدونـه أيـام المدرس السابق.

غير أنه لم تكد تمضي دقيقة واحـدة حتى طلب منهم المدرس أن يتوقفوا. وفعلوا هذا مستغربين وقال المدرس:

ـ اسمعـوا يا جمـاعة. . أنـا أحب الصـراحـة وانتم واضـح من حـركاتكم ان مـا عندكـوش أي حماس للعب. فبصـراحـة مين فيكم يحب يلعب؟ اللي عايز يلعب يرفع ايده.

لم يكن المدرس نفسه يعلم ماذا دعاه لإلقاء هذا السؤال، لعله خاطر عنّ له. . لعله لم يقصد. .

ورفع الطلبة كلهم أيديهم مخافة أن تكـون خدعـة مقصود بهـا كشف الـذين لا يـريـدون، فمـدرس الفـرنسـاوي عــودهم أن يبتسم للواحد منهم ويعطيه الزيرو.

وفوجئوا بالمدرس ينقبض وجهه ويقول:

ـ أنـا لا أحب الكذب أبـدا، وغيـر معقـول أن كلكم عـايـزين تلعبوا. أنا أحب العلاقة بيننا يكون أساسها الصدق. اللي عايز يلعب

من فضلكم يرفع ايده.

بدا الأمر جدا لا هزل فيه. . ان المدرس يريد حقيقة أن يعرف رأيهم وكان هذا غريبا. . فهم لم يعتادوا أبدا أن يؤخذ رأيهم في شيء. انهم منذ ولدوا وثمة قوى تدفعهم دفعا لا يعرفون الى أين، ولا يسألهم أحدا ماذا يحبون أو ماذا يكرهون. كل الناس تقول: هذا لمصلحتهم، ولا أحد يخطر له أن يسألهم عن رأيهم في مصلحتهم.

ونظر الطلبة بعضهم الى بعض وتولاهم شيء غير قليل من الاستهتار، ماذا يحدث؟ لقد سألهم رأيهم فلماذا لا يقولون الحقيقة؟

وأنزل الطلبة كلهم أيديهم، كلهم ما عدا واحد أو اثنين من هؤلاء الطلبة الذين يقضون العمر خائفين من العقاب ومن احتمالاته. ولكنهم وجدوا الكل لا يريدون أنزلوا أيديهم هم الآخرون خوفاً من العقاب الطلبة لهم هذه المرة.

وعادت الابتسامة الى وجه المدرس وقال:

ـ برافو! أهو كده. . أنا أحب الصراحة.

برافو! لا بد أن ذلك المدرس مجنون أو به هفة، قال الطلبة هذا لأنفسهم وهم يحسون بفرحة غامرة وعيونهم تكاد تدمع. والحقيقة أن فرحتهم كان لها سبب آخر، كانوا وهم يتبادلون النظرات وينزلون أيديهم يرتعشون من الخوف، فقد كان كل منهم يعبر عن رغبته وكان يحس أنه يرتكب اثما عظيما، فاذا بالمسألة لا جريمة فيها واذا بالارتباك يزول واذا بالفرح يعصف بهم، فقد استطاعوا آخر الأمر أن يقولوا شيئا، يقولوا لا ولا يشنقون، فلا بد أن المدرس مجنون ولا

بد أن به لوثة .

وسكت المدرس قليلا ثم عاد يقول :

ـ غريبه! اجماع رهيب على كره الرياضة . ليه؟ أمال بقية العلوم بتكرهوها ازاي؟

وتطوع أكثر من طالب بالاجابة والتفسير . وكانوا يتحدثون بنبرات لا اضطراب فيها ولا وجل . كانت ثمة ثقة قد ملأت صدورهم وأحسوا ربما لأول مرة أنهم آدميون لهم الحق في الكلام .

واندفع ثلاثة طلبة أو أربعة يطلبون اللعب ، كان ما يدفعهم في الحقيقة هو حماسهم للمدرس الشاب ذي الابتسامة ، وليس رغبة في مزاولة اللعب .

وقال المدرس لبقية الطلبة وهو يضحك :

ـ افرنقعوا . .

وهلل الطلبة وكأنهم أفرج عنهم بعد طول سجن . ودون وعي راحوا يضحكون ويتعانقون ويتضاربون ، وانسحبت أقلية ضئيلة الى المظلة ورقدت على الدكك قائلة وآدي نومه! . .

وجرى طالب وراء آخر وشنكله .

ووقفت الأغلبية وقد ارتدت ستراتها تتبادل اللكمات الخفيفة ، وتتفرج على المدرس وهو يؤدي التمرين الأول مع المجموعة الصغيرة التي أرادت اللعب .

وقفوا يتفرجون بكل استهتار، يضحكون على المدرس وعلى الأخطاء التي يقع فيها زملاؤهم ويدردشون.

كانوا يحسون بانتعاش وكأنهم يشمون أيدروكسيد أمونيوم حديث التحضير. . أن يحس الانسان أنه ليس مرغما. . أن يكون في وسعه ألا يفعل، أن يصبح في استطاعته أن يختار. . أشياء ما كانت تخطر لهم على بال.

وحين كانوا يصعدون السلالم بعد انتهاء الحصة كانوا لا يزالون غير مصدقين أن ما حدث كان حقيقة، وأنهم استطاعوا ولو لمرة واحدة في العمر أن ينفذوا من حصة الألعاب.

ومضى اليوم ولا حديث لهم الا عن المدرس الظريف الشاب الذي أصابته لوثة أنقذتهم من الرياضة والأشغال الشاقة.

وطوال الأسبوع ظل كل منهم في شغف حلول حصة الألعاب التالية ليعفى من الألعاب.

وجاءت الحصة. . وجاء المدرس حليقا مبتسما وياقته مفتوحة أيضا. وقبل بدء التمرين الأول أكثر من ابتساماته وقال؛

ـ هيه يا جماعة. . اللي عاوز يلعب يرفع صباعه.

ورفعت أقلية ضئيلة أصابعها. بينما وقفت الأغلبية في أماكنها لا ترفع أيديها ولا تتحرك، وكل منهم يريد أن يعرف ما سوف يفعله الآخرون.

ولما طال الوقوف قال طالب لآخر وهو يدفع عنه يده التي قد امتدت تهوشه:

ـ أنا ح العب يا عم.

وسرت همهمة. تعالت ثم تبلورت في رأى:

ـ وايه يعني؟ نلعب وإذا ما عجبناش نبطل لعب. هو مش قال كده؟

وهكذا ارتفعت أصابع الأغلبية.

وما كادت تمضي دقيقة حتى تثاءب واحد وقال:

ـ أنا تعبت. . كفايه بأه.

وانسحب، ولكنه لم يذهب بعيدا بل وقف يتفرج، وحين وجد أن أحدا لم يتبعه تردد برهة، وتثاءب مرة أخرى ثم عاد الى مكانه.

ولم ينسحب بعده أحد. بل كلما أحس أحدهم أن في استطاعته أن يتوقف إذا أراد، كلما أحس بهذا ازداد حماسة وشعر بطاقات هائلة تنفجر من جسده.

ويبلغ التنافس أشده.

وتعالت أصوات تهيب بالمدرس أن ينتقل الى تمرين أعنف.

وانتهت الحصة ودق الجرس والحماس لا يفتر.

وتأخرت ثالثة رابع عشر دقائق في الحوش بعد الحصة .

ووقف الناظر في ذلـك اليوم يلعن ويـزمجر ويـوبخ ، ويتسـاءل مغيظا عن سر ذلك الحماس المفاجىء للرياضة البدنية .









أرخص ليالى



أرخص ليالي

بعد صلاة العشاء كانت خراطيم من الشتائم تتدفق بغزارة من فم عبد الكريم فتصيب آباء القرية وأمهاتها، وتأخذ في طريقها الطنطاوي وأجداده.

والحكاية أن عبد الكريم ما كاد يخطف الأربع ركعات حتى تسلل من الجامع ومضى في الزقاق الضيق وقد لف يده وراء ظهره وجعلها تطبق على شقيقتها في ضيق وتبرم، وأحنى صدره في تزمت شديد وكأن أكتافه تنوء بحمل (البشت) الثقيل الذي غزله بيده من صوف النعجة.

ولم يكتف بهذا بل طوى رقبته في عناد وراح يشمشم بأنفه المقوس الطويل الذي كله حفر سوداء صغيرة، ويزوم، وقد أطبق فمه فانكمش جلد وجهه النحاسي الأصفر، ووازت أطراف شاربه قمم حواجبه التي كانت ما تزال مبللة بماء الوضوء.

والذي بلبل كيانه، أنه ما ان دخل إلى الزقاق حتى ضاعت منه ساقاه الغليظتان المنفوختان، ولم يعد يعرف موضع قدميه

الكبيرتين المفلطحتين اللتين تشقق أسفلهما حتى يكاد الشق يبلع المسمار فلا يبين له رأس.

ارتبك الرجل رغم القسوة التي ضم بها نفسه لأن الزقاق كان يمتلئ بصغار كالفتافيت يلعبون ويصرخون، ويتسربون بين رجليه، ويسرح واحد من بعيد وينطحه، ويشد آخر (البشت) من ورائه، ويصيبه شقي بصفيحة في اصبع قدمه الكبيرة النافرة عن بقية أصابعه.

ولم يستطع إزاء هذا كله إلا أن يسلط عليهم لسانه، فيخرب البيوت فوق رؤوس آبائهمِوأجدادهم، ويلعن الداية التي شدت رجل الواحد منهم، والبذرة الحرام التي أنبتته.

ويرتعش عبد الكريم بالحنق وهو يسب ويمخض ويبصق على البلد الخائب الذي أصبح كله صغار في صغار. ويتساءل، و(بشته) يهتز، عن معمل التفريخ الذي يأتي منه من هم أكثر من شعر رأسه. ويزدرد غيظه وهو يطمئن نفسه أن الغد كفيل بهم، وأن الجوع لا محالة قاتلهم، و(الكوريره) سرعان ما تجيء فتطيح بنصفهم.

وتشهد عبد الكريم وهو يشعر براحة حقيقية حين خلف النحل وراءه في الزقاق وأصبح يشرف على الواسعة التي تحيط بالبركة في وسط البلد.

وانبسط الظلام الكثير أمامه حيث تعشش البيوت المنخفضة الداكنة، وترقد أمامها أكوام السباخ كالقبور التي طال عليها

الإهمال، ولا شيء بقي يدل على الأحياء المكدسين تَحت السقوف إلا مصابيح متناثرة في الدائرة المظلمة الواسعة وكأنها عيون جنيات رابضات يقدح منها الشرر! ، ويأتي نورها الأحمر الداكن متبختراً من بعيد ليغرق في سواد البركة.

وتشتت بصر عبد الكريم في الظلام الفاضي، ودار برأسه هنا وهناك، ورائحة الماء الصديء في المستنقع تتلوى مع تقوس خياشيمه. وفي الحال شعر بالضيق يكتم فتحات أنفه، فشدد من قبضة يده، وزاد انحناءه، وكاد يرمي (بالبشت) على حافة البركة.

وكان ما ضايقه وكتم أنفاسه شخير الأرانب أهل بلده، وهو يمتد مع انتشار الظلام، ولحظتها كان ما يلهلب سخطه أكثر هو طنطاوي الخفير، وكوب الشاي (الزردة) التي عزم عليه بها في حبكة المغرب، والتي لولا دناوته، وجريان ريقه عليها ،ما ذاقها.

وتمشى عبد الكريم في الواسعة وأذنه لا تسمع حسا ولا حركة، ولا حتى صيحة فرخة، وكأنه وسط جبانة وليس في رحاب بلدة فيها ما فيها من خلق الله.

وحين بلغ منتصف الواسعة توقف. وكانت لوقفته حكمة، فهو إذا أطاع ساقيه ومشى، أصبح بعد خطوات قليلة في قلب بيته. وإذا أغلق دونه باب الدار، كان عليه أن يخمد أنفاسه وينام. وهذه اللحظة لم تكن في عينيه قمحة واحدة من النوم، بل كان مخه أروق من ماء (الطرمبه)، وأصفى من العسل الأبيض، ولا يهمه السهر ولو

لهلال رمضان.

وكل هذا بسبب دناوته، وسواد الشاي في الكوب، وأفعوانية طنطاوي وبسمته الزرقاء، ودعوته التي لم يفكر في رفضها..

ليس هناك نوم؟.. طيب.

ورجال البلدة الخناشير قد انكفأوا يغطون من زمان، وتركوا الليل لصغارهم الملاعين! فماذا يفعل عبد الكريم؟.

يسهر؟ وأين يسهر؟..

صحيح؟!.. أين يسهر؟..

هل يلعب (الاستغماية) مع الأولاد؟..

أو تـزفه البنات وهن يقلن: يابو الريش.. إنشا الله تعيش؟

صحيح.. أين يسهر وهو أنظف من الصيني بعد غسيله، وليس معه قرش صاغ واحد حتى يذهب إلى (غرزة) أبو الإسعاد ويطلب القهوة على البيشة، ويتبعها بكرسي الدخان، ويجلس ما شاء بعد ذلك على ريحة القهوة والكرسي، يراقب حريفة (الكوتشينة) من صبيان المحامين، ويستمع إلى ما لا يفهمه في الراديو، ويضحك ملء قلبه مع السباعي، ويلكز أبو خليل وهو يقهقه، ثم ينتقل إلى مجلس المعلم عمارة مع تجار البهائم، وقد يشارك في الحديث عن سوقها التي ركدت ونامت..

ليس معه قرش!.. جازاك الله يا طنطاوي!..

وهو لا يستطيع أن يخطف رجله إلى الشيخ عبد المجيد،

حيث يجده متربعا والمدفأة أمامه، والكنكة النحاسية تغلي وتوشوش على مهل، والشيحي جالس بجواره، يقص بكل ما في صوته من رنين، ما حدث في الليالي التي شاب لها شعره، والأيام التي انقضت وأخذت معها بصاغته من عقول الناس القدامى الفارغة الطيبة، وجعلته يتوب عن النصب والسرقة وقلع الزرع على أيدي النماردة من سكان هذا الجيل.

لا يستطيع أن يتنحنح ويطرق باب الشيخ عبد المجيد لأنه، أول الأمس فقط، دفع الرجل من فوق مدار الساقية فأوقعه في الحوض، وأضحك عليه الشارد والوارد، لما دب الخلاف بينهما على مصاريف إصلاح الساقية. ومن ساعتها ولسان الشيخ لا يلافظ لسانه.

كان الشيطان ساعتها شاطرا. . ولكن طنطاوي بدعوته أشطر. . الله يخرب بيتك يا طنطاوي. .

وماذا عليه لو سحب عصاته (المشمش) ذات الكعب الحديد ومر على سمعان، وانطلقا إلى عزبة البلابسة، فهناك سامر، وليلة حنة، وغوازي، وشخلعة، وعود، وهات إيدك. .

وإنما. . من أين يا عبد الكرم (النقطة)؟ ثم. . المساء قد دخل ويجوز أن سمعان ذهب يصالح امرأته من خالها والطريق خائنة، والدنيا كحل. .

يا ناس!. . لماذا هو الخائب الساهر وحده؟ وطنطاوي لا شك

قد استنظف مصطبة رقد عليها في (دركـه)، وراح في النوم. . نامت عليه البعيد أثقل حائط.

ومـاذا يحـدث لـو عاد إلى بيتـه هكذا كـالناس الـطيبين، ولكز امـرأته فـأيقظهـا، وجعلها تنيـر المصباح، وتمسـح زجاجتـه، وتشعل الموقد، وتسخن له رغيفا وتحضر الفلفل الباقي من الغداء، وحبذا لو كان قد بقي شيء من الفطيرة التي غمزتها بهـا أمها في الصبـاح، وآه لـو صنعت له بعـدها كـوزا من الحلبة، وجلس كسلطان زمـانه يـرقع الثـلاثة مقـاطف التي بـليت مقاعـدها ويصنـع لها آذانـا وقد تملصت آذانها؟. .

ماذا يحـدث بالله إذا كان هذا؟. .

هل تنتقل المحطة من مكانها؟!. .

هل يعمل العمدة ليلة لوجه الله؟. .

وهل تنطبق السماء على جرن القمح؟. .

أبدا. . لن يحدث شيء من هذا. .

ولكنه أعرف النـاس بامـرأته، وأعـرف من شمهورش بـرقدتهـا كزكيبة الـذرة المفـروطـة وقد تبعثـر حولهـا الصغار الستـة كالكـلاب الهافتة، ولن تصحو حتى لو نفخ إسرافيل في نفيره، وإذا تفتحت ليلة القدر وقامت فماذا تفعل؟. .

أهو يحاول الضحك على نفسه؟. .

وهل الذي يزمر يغطي ذقنه؟.

المصباح بالعربي ليس فيه (جاز) إلا ما يملأ نصفه، والمرأة في حاجة إليه كله لتعجن وتخبز طول الليلة الآتية إذا عاش أحد. ثم الأولاد لا ريب قد جاءوا ساعة المغرب، وأكلوا الفلفل ويآخر رغيف في (المشنة).

وهل تبقى فطيرة الصبح لتنتظر سهرته؟.. وعليه أن يطمئن نفسه، فلك الحمد، ليس في داره حلبة ولا سكر، ولا يحزنون..

ولن يستطيع طول عمره أن يحظى بكوب مثل التي لحسها لحسا عند طنطاوي..

الله يجحم روحك يا طنطاوي يابن زبيدة!..

* * *

ولو أن أحدا عنّ له أن يقضي حاجته في الواسعة، رأى عبد الكريم في وقفته، مزروعا كزوال المقاتة أمام وجه البركة الداكن، لظن في التو، أن الرجل مسه شيطان أو لبسته شيخة!

وعبد الكريم معذور، فالحيرة التي كان فيها أوسع منه، والمسألة أنه رجل على نياته، لا يقرأ الليل ولا يكتبه، والجيب خال، والليلة شتاء، والشاي يكوي رأسه، وجهلة السهر من أمثاله قد غيبهم النوم من سنة مضت في سابع أرض.

طالت من أجل ذلك حيرة الرجل، وطال وقوفه، وأخيرا فعلها وقر قراره.

وقطع الباقي من الواسعة في استسلام وقد رأى أن يقضي ليلته كما اعتاد قضاء البارد من لياليه . .

وأخيرا استقر في وسط داره، وقد أغلق الباب بالضبة وراءه. وتخطى أولاده وهو يزحف في الظلام على قبوة الفرن حيث يتناثرون. ومصمص بشفتيه وهو يئن منهم ومن الظلام، ويعتب بينه وبين نفسه على الذي رزقه بستة بطون تأكل الطوب.

وكان يعرف طريقه، فطالما علمته ليالي البرد الطريق. وعثر آخر الأمر على امرأته. ولم يزغدها، وإنما أخذ يطقطق لها أصابع يديها، ويدعك قدميها اللتين عليهما التراب بالقنطار ويزغزغها في خشونة بعثت اليقظة المقشعرة في جسدها.

وصحت المرأة على آخر لعنة أصابت طنطاوي في ليلته. وسألته في غير لهفة وفمها يملؤه التثاؤب عما جناه الرجل حتى يسبه في عز الليل.

فقال وهو ينضو ثيابه، ويستعد لما سيكون:

ـ هـه. . الله يخرب بيت اللي كان السبب. .

* * *

بعد شهور كانت النساء كالعادة يبشرنه بولد جديد، وكان هو يعزي نفسه على السابع الذي جاء في آخر الزمان، والذي لن يملأ طوب الأرض بطنه هو الآخر. .

وبعد شهور وسنـوات كان عبـد الكريم لا يـزال يتعثر في جيش النمل من الصغار الذين يزحمون طريقه في ذهابه وأوبته وكان لا يزال يتسـاءل كل ليلة أيضا، ويداه خلف ظهره، وأنفه يشمشم حولـه، عن الفتحة التي في الأرض أو السماء، والتي منها يجيئون! . .

نظــرة

كـان غريبـا أن تسأل طفلة صغيـرة مثلها إنسـانـا كبيـرا مثلي لا تعرفه في بساطة وبراءة أن يعدل من وضع ما تحمله، وكان ما تحمله معقدا حقا. ففوق رأسها تستقر «صينية بطاطس بالفـرن». وفوق هـذه الصينيـة الصغيرة يستـوي حوض واسـع من الصاج مفـروش بالفـطائر المخبوزة. وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التي استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددا بالسقوط.

ولم تـطل دهشتي وأنا أحـدق في الـطفلة الصغيـرة الحيـرى، وأسـرعت لإنقاذ الحمـل. وتلمست سبلا كثيـرة وأنـا أسـوي الصينيـة فيميـل الحـوض، وأعـدل من وضـع الصـاج فتميـل الصينيـة. ثم ضبطهمـا معا فيميل رأسـهـا هي. ولكنني نجحت أخيرا في تثبيت الحمل، وزيادة في الاطمئنـان، نصحتها أن تعـود إلى الفرن، وكـان قريبا، حيث تترك الصاج وتعود فتأخذه.

ولست أدري مـا دار في رأسها فمـا كنت أرى لهـا رأسـا وقـد حجبه الحمل. وكل ما حدث أنها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهي تغمغم بكلام كثير لم تلتقط أذني منه إلا كلمة (ستي)...

ولم أحول عيني عنها وهي تخترق الشارع العريض المزدحم بالسيارات، ولا عن ثوبها القديم الواسع المهلهل الذي يشبه قطعة القماش التي ينظف بها الفرن، أو حتى عن رجليها اللتين كانتا تطلان من ذيله الممزق كمسمارين رفيعين.

وراقبتها في عجب وهي تنشب قدميها العاريتين كمخالب الكتكوت في الأرض، وتهتز وهي تتحرك ثم تنظر هنا وهناك بالفتحات الصغيرة الداكنة السوداء في وجهها ،وتخطو خطوات ثابتة قليلة وقد تتمايل بعض الشيء، ولكنها سرعان ما تستأنف المضي.

راقبتها طويلا حتى امتصتني كل دقيقة من حركاتها، فقد كنت أتوقع في كل ثانية أن تحدث الكارثة.

وأخيرا استطاعت الخادمة الطفلة أن تخترق الشارع المزدحم في بطء كحكمة الكبار.

واستأنفت سيرها على الجانب الآخر وقبل أن تختفي، شاهدتها تتوقف ولا تتحرك.

وكادت عربة تدهمني وأنا أسرع لإنقاذها. وحين وصلت كان كل شيء على ما يرام، والحوض والصينية في أتم اعتدال أما هي فكانت واقفة في ثبات تتفرج، ووجهها المنكمش الأسمر يتابع كرة من المطاط يتقاذفها أطفال في مثل حجمها، وأكبر منها، وهم يهللون ويصرخون ويضحكون.

ولم تلحـظني، ولم تتوقف كثيـرا، فمن جديـد راحت مخالبهـا الدقيقة تمضي بها. وقبل أن تنحرف، استدارت على مهـل، واستدار الحمل معها، وألقت على الكرة والأطفال نظرة طويلة.

ثم ابتلعتها الحارة.

الشـــهادة

مـا كدت أضـع قدمي في قـطار حلوان حتى استـرعى انتبـاهي رجـل جالس في آخر العربـة، منهمك في مطالعة جريدة.

وتـوقفت لحظة، وفي ثـانية واحـدة كان كـل شيء أعـرفـه عن الـرجل قـد بدأ يبـرق في ذاكرتي كـالأنوار الخـافتة البعيـدة. وأمسك وعيي بخيـوط واهية تـربطني بجـزء قديم من حيـاتي، وراح يجذبهـا برفق. وفي كل جذبة كنت أستعيـد يوما، وأيامـا، وسنوات غيـر قليلة قضيتهـا في مدرسـة دمياط الثـانويـة وأستعيـد معهـا أحـلام صبـاي، وسحـرية دميـاط تتقاذفهـا وتلهو بهـا، وأماني مـراهقتي وهي تـدفعني وحيـدا، غريبـا، في عالم البلدة الـذي يكسوه ضبـاب شـاعـري يلف الناس والوحدة والسكون..

وتـراجعت بي الأيـام إلى مبنى المـدرسـة الكبيـر، وحـوشهـا الـواسع، وأطفـال وشبان صغـار يلهـون فيـه بـطرابيشهم التي فقـدت معـظم خيوط أزرارهـا، وتثنت جـدرانهـا، وتعـود الأيـام إلى الفصـل الضيق، ومقعدي في أول الفصل، والحفني أفنـدي مصطفى مـدرس الكيميـاء يكـاد يحتـل كـل مـا بقي في الفصـل من فـراغ، بكـرشـه

الضخم، ورقبته الغامضة المختفية وراء شحم كثير ينسدل من تحت فكه، ووجهه السمين ذي التجاعيد الغليظة، وسترته التي حال لونها، والتي كانت أصغر بكثير من جسده، وسرواله الذي يحشو فيه ساقيه المنتفختين حشوا فيبدو كشراب طويل، وكلماته البطيئة التي تفصلها فترات حزق طويلة وهو يشرح، حتى إذا ما أخذه الحماس، واستطرد مسرعا في شرحه تتلاحق أنفاسه لاهثة، ويمد يده يخرج منديله المنكوش يمسح به العرق الذي يقطر من حواف تجاعيده.

ومع أن تلاميذ الفصل كان لهم هدوء أهل دمياط إلا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم في حضرة الحفني أفندي، وكان المخضرمون الجالسون في أواخر المقاعد هم أحسن من يقلدونه، وأول من يضحكون عليه إذا أدار ظهره، والبادئين برش الحبر من ريشهم على سرواله حين يمر بين التخت، وهم الذين يلصقون له ذيول الورق الملون في سترته إذا ما هم بمغادرة الفصل، وما كان يكتشف ما حدث له عادة إلا في الحصة الثانية حين يدخل، وفي وجهه صرامة عسكرية، وعلى خدوده احمرار فاقع، وفمه لا ينطق بحرف، وإنما يزغر لنا كلنا ونحن واجمون صامتون، ويختار أي تلميذ، وغالبا ما يكون من الجالسين في الصفوف الأمامية، ويلعن أباه، ثم يهدأ الحفني أفندي.

ومع ذلك كان يعاملنا كالرجال الكبار، وكثيرا ما كان يقطع الدرس ويحدثنا عن متاعبه، فقد كان يقيم وحيدا في لوكاندة وكانت عائلته في مصر، فيكلمنا عن الجزار الذي خدعه، وباع له رطل

اللحم ثلاثة أرباعه عظام، وخادم اللوكاندة الذي أكل من الباقي قطعتين كبيرتين حين أرسله يشوي اللحمة، وكيف أصبح ذات مرة فوجد حافظته قد اختفت وفيها اثنان من الجنيهات..

ويحدثنا عن ابنه الذي يغوي البنات في مصر، والذي رسب ثلاث مرات في السنة الواحدة من أجل هوايته، وعن امرأته التي تأبى أن تسكن دمياط، والتي يرسل لها في أول كل شهر معظم ماهيته.

كنا نسمع منه هذا، ونضحك في بعض الأحيان، ونتظاهر بالحزن في بعضها، وهو لا يشاركنا في كليهما، وإنما كان وجهه يحفل بالاشمئزاز والاشمئناط كمن يعاني من مغص دائم.

وما كان الرجل يلقى تقديرا من أحد، فتلاميذه يعبثون به، وزملاؤه يسخرون منه، والناظر يتجهم في وجهه ويلذعه كلما رآه بالنقد، والمفتشون يكتبون عنه أزفت التقارير بل لا يتورعون عن تجريحه أمامنا في الفصل.

وكنت من المجتهدين الجالسين في أول الصفوف، الذين تهدد اللعنة في أي وقت آباءهم.

وكنت أكره (الشرز) الواحد الذي يرتديه صيف شتاء حتى كان يخيل إليَّ أن زغبه الخشن ينغرز في جسدي أنا، وكنت أكره رباط عنقه الذي يلقيه على ناحية نائية من ياقته، وأكره أصابعه الملفوفة القصيرة، وهو يهرش بها كرشه المنبعج، وأكره أسنانه الصفراء بغير دخان، ومنديله المتكرمش المتسخ حين يخرجه من جيبه ويدعك به

أسنانه في وسط المعادلة التي يشـرحها ثم يعيـد المنديـل، ويستأنف الدرس، وكأن شيئا لم يحدث.

مع أني كنت أكره كـل هـذا منه إلا أنني كنت أحبـه ،فوراء جسده التخين القصير، ومشيته المتطوحة، وصراحته، ونظرته الممغوصة، وطربوشه الملقى إلى الخلف في قلة اكتراث، كان وراء هذه طيبة كنا نتحسسها بقلوبنا الصغيرة، فنحبه، ولكن حبي له ما كان يمنعني من المشاركة في الضحك عليه، ولا من سترته وقد أغرتني ذات يوم فعلقت له فيها ذيلا.

ولا أنسى يوم دخل علينا الفصل، وترنحنا ونحن نقف له، وتناول من تحت إبطه أوراق إجاباتنا في امتحان الفترة، وسكتنا فقد كان كل ما يمت إلى سيرة أي امتحان كفيلا بإشاعة الرهبة فينا. وأفسح له سكوتنا واديا مترامياً راح يندد فيه بخيبة تلاميذه، وقلة نفعهم.

وبعد أن التقط أنفاسه الكثيرة اللاهثة التي تعقب حماسه، أشار إليّ ،وأشاد بإجابتي، وأخرج ورقتي وتلاها كنموذج للإجابة. وأقول الحق سرت في بدني فرحة عظمى أعادت إليّ ذكرى اليوم الجليل في حياتي، يوم رأيت نمرتي بين الأرقام الناجحة في امتحان الابتدائية.

ولقبني بعدها زعيم الكيمياء، وسقت أنا فيها رغبة في

الاحتفاظ باللقب، مضيت أذاكر كالآلة حتى انتقل الحفني أفندي إلى مدرسة أخرى.

وكان وداعنا له حافلا..

كان كل ما تذكرته مجرد قبضة واحدة سريعة من ذكرياتي، مرت بخاطري، فأشعلت النار في رماد حياة بأسرها، عشتها، ونسيتها، وأصبح بيني وبينها ما زيد على عشر سنين.

وما أن انتهى الوهج الذي خلفته القبضة حتى كنت قد عبرت ممر العربة، ووجدت نفسي أقف في آخرها أمام الرجل الذي في يده الجريدة.

وجلست على المقعد المقابل، وسألته في كثير من التهتهة إن كان يذكرني.

ونظر إليّ الرجل بنفس نظرته المشمئزة الممغوصة، ولم يقل شيئا، فاستطردت ألحم الكلام في الكلام، وأدخل الثالثة فصل أول في المعادلات وقانون الغازات، وأنبوبة الاختبار التي انفجرت ذات مرة، والرفاعي والدغيدي وأحمد مسلم من شطار الفصل.

وبعد كثير بان على الرجل أنه تذكرني، أو بالأحرى تذكر صبيا صغيرا يشبهني كان من تلاميذه. ولم يظهر عليه أنه سر لهذه الذكرى فلا ريب أنه استعاد أذيال الورق الملون، وتأنيب الناظر، وعبث الجميع به.

ولكني انطلقت أحدثه عن الأيام التي مضت، والسنين التي لم تغير في مظهره، ولم تضف إلى علامات العمر فيه علامات جديدة، وحدثته عن الكلمات الصغيرة السريعة التي كان يغمرني بها، والتي أصبحت علامات بيضاء دفعتني قويا في طريق الحياة وعن التقدير الذي أختزنه له من زمن..

وتعجب قليلا، وبعد أن كان واضحا أنه يضن بالكلام، وبدأ يحدثني حديث الإنسان عن المدارس التي تنقل فيها، وعن الوزارة التي تضن عليه بالدرجة، وعن زملائه الذين أصبحوا نظارا وهو لا يزال مدرسا، وعن امرأته التي طلقها، ونفقتها التي تستغرق مرتبه، وابنه الذي ترك المدارس وذهب يمثل في السينما.

وسألته عن طلبة هذه الأيام وأنا أضحك، فلم يجبني، وإنما أخرج منديله العتيد من جيبه، ودعك أسنانه ثم بصق من النافذة.

وذكرته بحكاية زعيم الكيمياء فابتسم لأول مرة، وأخذ ينصت باهتمام حين قصصت عليه كيف دخلت مسابقة الكيمياء وكنت الأول، وكيف التحقت بكلية الطب وتخرجت، ولي سنين وأنا طبيب..

وحين وصلت إلى هذا الحد، انفجر في ضحكة طويلة اهتز لها كل أرجاء جسده، وزغدني في كتفي وهو يقول:

- يا شيخ اتلهى!.. اتلهى!..

وحتى حين أطلعته على بطاقتي الشخصية وأنا أقول له :

ـ كل ده بفضلك . .

بان عليه حرج كبير وضرب كفا بكف وهو يقول :

ـ في المدة القصيرة دي . . تبقى دكتور! . . دكتور! . .

فقلت مرة أخرى :

ـ كل ده . . بفضلك .

وكنت أقولها في حماس الصبي الذي كان في دمياط، وفي رهبة الفتى أمام أستاذه، وفي تلعثم المبتدئ حين يقابل الفنان الذي وصل .

وطول المدة التي أمضاها في مدرستنا ما رأيت الحفني أفندي سعيدا أبدا، ولذلك تفرست في ملامحه وقد بان فيها تعبير بدائي عن سعادة تطرق وجهه ربما لأول مرة .

وأخذ يفرك كفيه، ويطبطب على فخذه، ثم يروح بالجريدة عن وجهه الذي احتلته ابتسامة واسعة بانت لها أسنانه وقد أسود صفارها القديم .

وبين الفينة والأخرى يردد :

ـ والله عال . . أهو واحد من دمياط نفع . . والله عال . . واحد نفع . .

وأقـول لـه اننـا كلنـا نفعنـا، ولكنـه لم يكن معي ، وإنمـا كـان يستغرقه شعور قوي يشيع فيه أحـاسيس لا عهد له بها.

وجـاءت المعادي ، وكـاد ينسى أنها محـطته، وشـد على يدي بحـرارة وهـو يشكـرني بـأنصـاف كلمـات. ولا أدري على أي شيء كان يشكرني ، وودعته حتى باب العـربة وابتعـد القطار بي ، وهـو يلوح بيـده، وفرحـة كبيرة تقلقـل خطواتـه، والابتسامـة تتموج في وجهـه، وسعادة غامرة تطفح من عينيه . .

كان كالطفل الذي نجح لتوه في الشهادة الابتدائية.

على أسيوط

ـ يا سيدي.. والنبي يا سيدي.. يا ناس.. يا ناس حرام عليكم.. دانا جي من أسيوط.. جي ماشي يا ناس.. على رجلي.. وبقالي هنا أسبوع.. سبع ليالي بايت.. نايم على الرصيف قدام المستشفى.. دانا مريض.. مريض يا عالم.. غلبان يا هوه.. ورجلي ما عنت طايق ريحتها.. المدة ضربت في وركي.. دا محرام.. والنبي دا حرام.. واللي خلق النبي دا ما يخلصوش..

وقبل أن تمتد أذرع «التومرجية» القوية تنتزعه، وتعيده من حيث جاء، تململ الطبيب في كرسيه، وقطع الحديث الدائر بينه وبين الحكيمة، واستدار إلى المناكف الجديد..

وعبر الطبيب على الوجه الصدئ الذي أمامه، والذي كله شعرات وفجوات وغضون.. عبر في سرعة وفي ملل، فالمترددون على المستشفى كلهم ملبدو الوجوه بغيوم الحاجة والمرض. ولكن الطبيب توقف قليلا، متفرجا، عند ملاءة السرير القديمة التي أسود لونها الأصفر الباهت، وامتلأت بالبقع والخروق، والتي عمم الرجل

بها رأسه، وتدلى طرفها بجانب وجهه كذيل ملطخ بالوحل لكلب عجوز.

ورمق الطبيب في قليل جدا من الدهشة رجله الملفوفة في عدد كثير من الخرق والأشرطة والجوارب القديمة من مختلف الألوان والأحجام، وقد كست رجله من قمة أظافرها إلى مفرق فخذيه، فضخمت الرجل وكبرتها حتى أصبحت كصبي مستقل صغير يرتكز عليه الرجل في ناحية، ويستند في الناحية الأخرى إلى فرع شجرة غليظ ملتو غير مشذب.

انتهى الطبيب من استعراضه في لمح البصر، واستقرت عينه على الشيء الذي يهمه من كل هذا.. على ورقة المستشفى البالية المتسخة، وقد استماتت قبضة الرجل عليها. وفي الحال شد منه الورقة، وقلبها في اشمئزاز، ثم انفرجت أساريره فجأة، وزأر في الرجل:

- يا بني آدم.. أنا مش محولك من أسبوع لعيادة الجراحة.. ايه اللي جابك هنا تاني؟.. هنا يا مغفل حاجة اسمها الاستقبال بس.. فاهم..

وقفز «التومرجي» يشاطر في الزئير ويقول:

- دا مكتوب له.. يحول في عربة كمان.. أما ناس ما بتختشيش..

وكاد الرجل أن يبتسم لولا أن وجهه خانه فبدأ يغمغم:

ـ يا خيه يا سعادة البيه . . ما الجراحة حولت الباطنية . . وباطنية حولت لسرية . . وسرية حولت لجلدية . . وآديني رجعت تاني . . وبقالي أسبوع يا سعادة البيه بارقد على الرصيف . . وآخـ . .

ورد الطبيب بسرعة وغضب:

ـ طاب . . وحاعملك إيه؟ . . وانا مالي يا أخي؟ . . أنا ملزوم؟ . . أنا ملجأ؟ . . أنا لوكانده . . اسمع . . مش عايز دوشه . . أنا حاحولك الجراحة تاني . . في عربية برضه . . إنما وشرفي لو شفت وشك بعد كده . .

ورفع الرجل يده الفارغة، وأمال جسده حتى كاد يلمس المنضدة التي يجلس إليها الطبيب، واندفع يقول ولا شيء يوقفه:

لا . . لا . . لا والنبي يابيه . . أنا مش عايز علاج واصل . . والنبي يابيه دانا . .

وانفجر الطبيب كالبركان:

ـ أمال عايز ايه؟! . .

وكان انفجاره هو إشارة البدء لأيدي «(التومرجية)» لكي تلتف في جبروت حول الرجل وتقتلعه من الغرفة، فناضل بكل ما يملك ضعفه من قوة يحاول تخليص نفسه. وقال في وهن ومسكنة:

والنبي يابيه . . والنبي . . وحياة والدك . . مش عايز الجراحة . . حولني على بلدي . . حولني على أسيوط . .

أبو سيد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذي يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون في ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلا زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يبتلع الماء ويصبه بعد ذلك في ضوضاء مكتومة . .

واستمر الوابور يون، والكوز يزحف ويبتلع وينصب ماؤه، وصفيحة الماء تقرقع، استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط في سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بآخر أنفاسه، وانطفأ، وعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذي ليس غريبا عليه يملأ الجو.

وظل «القبقاب» رائحا غاديا، وضوء المصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهمهمة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع

اقتراب الضوء وابتعاده . . ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما، ولم ينتفض ويفتحهما إلا على قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط الخشبي في يدها، تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل ما تستطيع ليحرث طريقه بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها السمين الخمري اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما في فروغ بال، بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى ثوبها الشيت النظيف ذي الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال في شيء من التحدي وهو يغلق عينيه:

ـ مش تحاسبي يا وليه . . قزازة اللمبة حطق من الميه . .

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد يتنفس بعمق، ويكن رجله ثم يفردها، ويشخر بمطلق إرادته، ثم قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى نظرة أخيرة على زوجته التي كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه، وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد أبيض حتى كادت

تختفي تجاعيده في تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التي احتلت وسطه . .

وارتعش رمضان، وأسرع يصفق عينيه في عنف، فقد كان يعرف من زمان سر هذه الابتسامة . . فاليوم يوم الخميس . . والليلة ليلة الجمعة . .

وأحس الرجل بالسرير ذي الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوي على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت في الدنيا التي يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذي دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لا يريد أن يكح . وطال سعاله وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى في صوت حنون ذليل:

ـ مالك ياسي رمضان . .

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول في همس خافت مليء بالاثم:

ـ أوعى سيد يكون صاحي . .

ولما لم يرد، تنهدت في حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهي تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهق، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً . . إلى حيث لا يراهما أحد، ثم يلوكها في نشوة ويدغدغ ضلوعها في حنان، ومدت يدها وملست على جبهته اللزجة بالعرق، ثم أرسلت

أصابها تتحسس رقبته الغليظة النافرة العروق، وقالت في صوت خنقته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

ـ اسم الله عليك يا خويا. . اسم النبي حارسك يا ضنايا.

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره. .

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس. وهو لا يذكر كم شهرا مضت، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر في الأمر أبدا ولا اعتبر ما حدث ـ يوم حدث ـ بداية لأية نهاية. . تماما كما لم يتبين جاره سي أحمد الكمساري في شركة الأوتوبيس أن السخونة التي أصابت ابنته يمكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك ورد ما أصابه في تلك الليلة إلى نوبة البرد التي ألمت به، ومرت أيام. وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح، ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها في نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد في انتعاش مطلع الموال الوحيد الذي يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية في قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، وبدلته بزرائرها الصفراء

اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه، وتضيق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقهـا الدهـان الذي لا يفلح في إخفـاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيـل في يده يلتقط نمـرة العربة في سرعة الواثق من يومـه وأمسه وغـده يدونهـا بخطه الـواضح الذي كان يفخر بجماله.. كانت الدنيا هي الدنيا.. الـدنيا التي هنـا، والتي هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتـربع على عـرشها، ويحكمهـا بصفارتـه، ويعز من يشـاء، ويذل من شـاء فقط متى لـوح بقفازه..

وحين كان يكتب أول مخالفـة كان عقله سـارحا في الليلة التي سينفض فيهـا عن نفسه خمـول المرض الـذي لازمه أسبـوعـا، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهنـاك تنقر المخـالف من تحت حافة القبعة، هذه العيون ألهتـه عن الخاطر، ولم يتنبه له إلا هناك.. حين كـان يجاهـد في خلع حذائـه الميري الثقيـل وقد ألقى بجسـده المنهوك على «الكنبة» وامـرأته تلقي إليـه بتحيتها الـوادعة، ثم تتـربع على الأرض وتقول في حماس أطفأت العادة جدته:

ـ عنك أنت.

وطـوقت يدهـا اللينة قـليـلاً سمانـة رجله بينما مقـدمة حـذائـه أصبحت مدفونة بين أثدائها، وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه.

ولم يعتبر ما جاء في باله عملا صبيانيا، فـراح يـزغـزغ المـرأة بحذائه الثقيل العريض، وهي تضحك، وتنهره، وتدفعه، وتميـل إلى

الوراء، ثم على جانبها حتى تكاد تلمس الأرض، وتشدد من قبضتها على عضلات رجله، وترخي القبضة في بطء، وهو قد استمرأ اللعبة، وانتشى وهو يعب من صوت امرأته التي كانت تمطه، وترفعه، ثم تحيله همسا، ونصفها يضحك، ونصفها يتدلل، وكلها تريد وترغب..

* * *

في ضباب البداية يذكر رمضان هذه الليلة ولا ينساها، فقد حاول في كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره.

وأزاحته المرأة مرات ومرات، ولعن أباها آلاف المرات، والمعركة تدور وتدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبي حتى يكاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيطه ويعود اللعاب يسيل من جانب فمه..

وهجعت المحاولات قرب الفجر، ونامت المرأة، ولم ينم رمضان.

وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة رمضان في نفسه ورجولته تستميت وهي تدافع عن نفسها، والواقع وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيرا سلم رمضان بعد ليال، وقال لنفسه في صباح يوم بصوت لا يدري أكان مسموعا أم غير مسموع:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. . واللا ضعت يا رمضان واللي كان كان. .

ولم تكن أول مرة يتحاشى فيها امرأته وهي تقدم له الفطار، وإنما كان يود أن يزيحها في هذا اليوم من أمامه، ثم يسرح ويخبط رأسه في الحائط عله ينفلق. كان شيء غريب يدور فيه، فبالقوة والعافية والعرق والليالي الطويلة كان عليه أن يصدق أنه لم يعد رجلاً. وكان هو يأبى أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهو مكسوف خجل كما لو كانوا يزفونه في البلد فوق الحمارة وهو عاري الجسد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديد يقول وكأنه يتلو آية الكرسي ليطرد جنية من الجان:

ـ واللا ضعت يا رمضان، واللي كان كان.

ويصمت ثم يقطع لقمة كبيرة من الرغيف ولا يأكلها. . ويقوم، وينظر من النافذة ثم يكح ويبصق بصقة كبيرة على العشش التي فوق السطوح أمامه ويعود إلى جلسته أمام الطبلية ويسرح في صمت طويل آخر وهو يحدق في الطعام ويمضغ صمته حتى يشبع فيرتدي البدلة وكأنه يخلع ملابسه ثم يتسلل من البيت كحرامي النحاس، وجسده هارب منه، وأطرافه لا يعثر عليها. .

وحين يقف وسط الميدان، والعربات تزدحم حوله، والأرض والسماء تتحرك، وهو وحده الواقف الهامد الضائع. . حينئذ يشعر

بتفاهة هذه المملكة التي له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بـالقبعة وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه. . ويومها لا يقيد محضرا واحـدا، وماله هـو والمحاضـر والمخالفـات، فليدع من يخـطئ يخطئ، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتـل يقتل. . وهـل هو الـذي ينظم الكـون. . لعن الله العربات وأصحاب العربات، والمرور وكل ما يمت إلى خلية النحل التي يلسعه ودويها وصرخاتها.

ولأول مرة في حياته كره بيته، ووجه امـرأته النحس، ولم يعـد تواً إليهما. .

وفي خـطوات لا يهمه وقعهـا، ولا أين تقـع راح يـدق الشارع بحذائه الثقيل، وقد كفأ القبعة فـوق جبهته، وامتـلات أخاديـد وجهه بالاشمئزاز واليأس، وفك حـزامه العـريض، وتمنى أن ترحمـه عربـة نـقـل وتـأكـله. ووصـل أخيـراً إلـى بـاب الإنـسـان الـذي لا يصادق في المدينة إنسانا سواه. وطرق الباب ـ ونادرا ما كان يطرقـه ـ ولم يفاجأ طنطاوي، وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكـالمعتاد عن البلد والقرايب والنسايب والذي مات والـذي عاش ومن تزوج. ولكنه فوجئ فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال في جد:

ـ اسمع يا واد يا طنطاوي. . عايزين تعميره. .

ولم يكن رمضـان يشرب الحشيش كثيـرا، ولكنـه شـرب هـذه المرة حتى ان طنطاوي لم يأتمن الطريق عليـه فأصـر على مرافقتـه. ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السـر

الذي يكمن وراء سكوته.

وفي الطريق سرح رمضان بعيدا، وأوغل في الزمان والمكان، حتى وصل سكينة جارتهم في بيتهم القديم على الترعة، ثم السنوات القليلة التي أعقبت بلوغه.. وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدري لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوي فيمشي، ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله في انبهار:

ـ يكونشي ياولاد الحشيش ينفع!؟.

وانفجر ضاحكا وقد كف عن المشي، وغمغم الطنطاوي وهو يهز رأسه في رثاء:

ـ الجدع انسطل والنبي..

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره الطنطاوي من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى.

* * *

ـ ولم ينفع الحشيش... أبداً.

وعاش رمضان بعد لياليها صامتا.. لا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاما كالعصارة الفاسدة لا نكهة له ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرم يعكره سخط غامق بليد، وامرأته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك. وعمله في الميدان

أصبح علقما يشربه في بطء الساعات التي يقضيها نصف واقف، وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح ينتزعها من جسده كما ينتزع الناب الفاسد. وأصبح يتخبط في حبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها.

وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء، ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده.

وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها. وتندى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: إزيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد، تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكد تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تئز بآهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممددا بجانب ابنه وامرأته على الحصيرة تحت أقدام الفراش.

وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر. وحين كانت تخطئ كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذي جاء بها؟..

وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط

وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

ـ بقى يا بني ما خبيش عليك . .

والحق أنها أخفت عنه الخطاب الذي أرسلته لها ابنتها من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة في حنكة العجائز، وكان صمته هو الذي شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

ـ وكل عقدة وليها يا بني حلال . . ألف حلال . .

عقدة ماذا؟ وحلال ايه؟! وماذا جاء بك ؟! ومالك أنت وما أضناك يا ابنة المركوب؟! وبدأت اللعنات التي تنهال من داخله إلى داخله تصنع بصابيص النار التي ألهبت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امرأته في المسألة، ولم يعترض وجودها وشعورها ورأيها طريقه وهو يترنح في الخرابة وحده، إنه ليس وحده . . ومن يدري كم معه الآن؟.

وشبت الثورة في حريق هائل قلب الطبلية وأطفأ المصباح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته في زئير مرتفع:

ـ عليَّ الطلاق ما انتي نايمة في بيتي . .

وباتت الحجة وابنتها عند الجيران وقبل الشروق كان القطار يحمل الأم وحدها إلى البلد، ولو كان للبنت مكان في دار أخيها لحملها هي الأخرى . .

كـان رمضان في نفس الـوقت يـتسرب من الحـارة وهـو يتلفت حـوله حتى لا يـراه أحد، وحين قـابله أبو سلطان وصبـح عليه غمغم بتحية قصيرة، ورأسـه منكس، وأقدامه تسـعى في عجلة حتى يتوارى عن الأنـظار. وكذلـك فعل مـع عبد الـرازق بائـع الجرائـد، والحاج محمد الفوال، وكل الوجوه التي يعرفها والتي لا يعرفهـا. كانت أقـل حركة فيها سـره، والكلمـة الواحـدة فيها إشـارة واضحة ،والضحكـة فيها سخرية منصبة عليه. . وكل الناس يعرفون حتى الواقف بجـانبه، المتعلق معه في عامود الترام، حين زغر له بعينـه والترام يميـل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كـالريـح وهو يتمنى أن يشف ويشف حتى لا يراه أحد.

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف في الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محدق وناظر أن ينكش سره الباتع. وخيـل إليه وهـو يحاول ضم ضفتي نفسـه ليحكم إغلاقهـا أن النـــاس يضعون عيـونهم وأنـــوفهم بين ضفتيهـا حتى تبقى مكشـــوفـة مفتـوحة. ودعـاه فشله إلى صب جام ·غـضبـه على النـاس. وقضى اليـوم بطولـه يدون المخـالفات ويهـدر بأوقـح الألفاظ ويـزور مركـز البوليس جانيا ومجنيا عليه. وكان يومه حافلا. .

* * *

وتلقف الميدان من ساعتها رجلا كئيبا غريبا!، لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا يتكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت يلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذي نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطاني.

وميدانه تحول ميدان رعب، وهو أصبح «بعبع» السائقين تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه ـ وما أقل ما يمرون ـ ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبي شوارب. وخشونته وسلاطة لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود عربة أو حتى تعبر الميدان.

ثم امرأته..

آه من امرأته!..

لقد أضناه التفكير فيها.. وماذا كانت تفعل يا ترى حين عاد مرة إلى البيت ولم يجدها.. قالت له يومها إنها كانت عند أم حميدة.. أم حميدة.. أم حميدة الصعيدية.. وأخوها مهني.. الولد الذي يلبس السكروته المكوية التي تظهر أفخاذه ويعقص الطاقية.. ماذا كانت تفعل عند أم حميدة؟..

ويوم أن ضبطها تطل من الشباك بلا منديل.. بنت الكلب.. وبلا منديل!..

وهكذا اعتاد التأخر في العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوي وعاد مرة في شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته

الصوف فوق رأسه، وفرش جسده المنهك المخدر فوق السرير، وأصوات اليوم تطن في أذنه.. وحديث طنطاوي ينبثق في مخيلته ثم يختفي..

وتبين بعد أن خف الطنين وغاب طنطاوي أن امرأته لا زالت مستيقظة.. ليس هذا فقط، بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان رمضان ليلتها قد بلغ به الأمر منتهاه، ووصل إلى حافة مقاومته، فظل بكاء المرأة يتساقط على الحاجز الجامد الذي وضعه بينهما فيلعقه، والحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظل ينصت لبكائها، وهو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقال وكل جزء من جسده ينشج بغير دموع:

ـ بس قوليلي يا نعيمة.. أعمل ايه..

ولم ترد، وإنما كانت تحملها شهقة وتضعها شهقة وقد انخرطت في بكاء عال..

وهزها رمضان في حنان ذليل وعاد يسألها. وما كان ينتظر منها شيئا وإنما ألحف في سؤالها ليغلب عجزه ويشرك إنسانا على الأقل في حل لغزه.

* * *

وبدأ البحث عما يفعله الناس، وبدأ السؤال، وفتح رمضان الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، وزار أسياد البلد كلهم، وأطعمته نعيمة الحمام والمنجة من توفيرها، ومص

زعازيع القصب، وترنح على دفة الطار في الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمي العمل في البحر، وسوت له امرأته الفطير مختلطا بدمائها، وتجرع من العطار كل ما عند العطار. .

وفي كل مرة كان يعود وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا. .

ثم عرف رمضان الطريق إلى المستشفى السري، وتعرف في طابور المرضى على رفاقه، وآنسته الصحبة بقدر ما امتلأ الكيس الذي خيطته له نعيمة بزجاجات الدواء، وفرغ الكيس وامتلأ، وانغرزت الإبر في عروقه وفي عضلاته، ودخل المستشفى وخرج. .

وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقود كما راحت غيرها، ولم تفرغ مشورات الحماة ونصائحها ولا آراء الأهل وأطراف الأهل. .

واستمر رمضان يفتش عن رجولته في كثير من اليأس، سائلا كل من يلقاه، جاريا وراء كل مشير، متتبعا كل اصبع، وحديثه أثناء ذلك لا يدور إلا عن البحث الذي وهب له نفسه. والحديث يدور في صلاة الجمعة، وعلى القهوة، وفي سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجي المستشفى، وحتى مع حضرة الضابط. كل هذا. . والحال مثل الحال. .

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمة فوق السطح والشمس تدفئهما في ذلك اليوم من أيام الشتاء. وكأحاديث الضحى الدافئ

كان الكلام يشرق ويغرب في كسل هادئ، والوقت يمضي ،ورمضان في يوم راحته لا يسأل ولا يسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين» الغداء من الصباح، وتمددت في استسلام فاتر. ودار الحديث ودار. وكانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيرا في امرأته. وأنب نفسه كثيرا حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره. . .

واقترب مما يريد، وطأطأ كلامه وكأن حديث الضحى لا يزال يدور وهو يقول:

ـ اسمعي يا نعيمة. .

ـ خير. .

وتردد رمضان ثم أسلمه تردده إلى سكون راح يخلص نفسه من حرجه ويتملص منه ليقول:

ـ مش. . مش أحسن أخلص ذمتي ومن الله و. .

وحين نظرت إليه في كسل وبشائر ضحكة تكاد تهب منها لحديثه المتعثر. . استمر هو يتهته:

ـ أحسن. . أحسن. . أطلقك يا نعيمة. .

واعتدلت المرأة حتى واجهته ودبت على صدرها وقد اربدت ملامحها وبان فيها عتب كثير:

ـ يا عيب الشوم يا رمضان. . ايه الكلام ده. . دانت أبويا

وخويا وتاج راسي . . دانت في عيني من جوه . . هو أنا أسوي الأرض اللي بتمشي عليها . . دانا خدامتك يا حبيبي . . بقى ده كلام . . مقصوصي شاب . . وشعرك أبيض . . ونعمل زي العيال . . دا . . دا . . يصح . . يابو سيد .

ولم يسكتها إلا موجة البكاء التي أوقفت لسانها، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمدت به دموعها حين قامت هالعة تهبط السلم وهي تتعثر َعلى درجاته .

وتركت وراءها رمضان يتحسس تجاعيد وجهه، ويملس على رأسه التي كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور ويشد شعر رجله الكث الذي ابيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد .

وتأمل الصبي وكأنه يراه الأول مرة منذ سنوات! . .

كان سيد يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب . وظل الرجل يلتهم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق . .

لا حول ولاقوة . .

أيكون قد نسي سيد في زحمة البحث عن رجولته؟ . .

أيكون قد نسي حتى ان له ابنا؟ . .

أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه! . .

كيف حدث هذا؟! كيف؟ . .

سيد . . يا سيد . . تعال يا سيد . . اقعد هنا جنبي . . أيوه

كده.. يابني يا حبيبي.. باسم الله ما شاء الله.. وكبرت يا سيد.. بقيت طولي.. خليني أبوسك يا سيد.. هه.. وكمان مرة.. يا بني.. أنت كنت فين.. وأنا فين.. وكبرت يا سيد.. وحتبقى راجل.. وأجوزك يا سيد.. سيد.. حجوزك واحدة.. حلوة.. لأ.. أربعة.. أربعة حلوين عشان خاطرك.. وتبقى راجلهم.. فاهم.. فاهم يعني ايه راجلهم يا سيد.. معلهش.. بكره حتفهم.. وتخلف.. سامع يا سيد حتخلف.. وأشيل خلفتك يا سيد.. بإيدي دي.. فاهم ياسيد..

ع الماشي

كان ما ضايق الأستاذ وهو عائد من الإسكندرية في الأوتوبيس الصحراوي أن جاره في العربة عرف أنه محام. وكان لا يخاف في الدنيا شيئا أو يعبس لشيء قدر خوفه وعبوسه إذا حدث في مكان ما وعرف الناس أنه محام فهو يعلم تماما أن الأسئلة حينئذ تنهال عليه، وتنهال معها الاستفسارات ولا يهم أن يكون هو متضايقا أم غير متضايق، مستريحا أم غير مستريح فهم لا يفرقون بينه كإنسان، وبينه كمحام، إنما يرونه دائما وفي كل وقت محاميا.

جلس الأستاذ في العربة وهو يستعيذ بالله خائفا أن يبدأ الجار حديثه، ولهذا راح ينظر من النافذة وقد ترك أفكاره ترعى على مهلها في الصحراء الجدبة الممتدةوتمرح فيها من أقصاها إلى أقصاها.

ولم ينفع هذا، إذ سرعان ما أحس بلكزة خفيفة أعادت أفكاره من انطلاقها وسمع جاره يقول:

ـ دي فرصة سعيدة يا أستاذ والله!..

فقال الأستاذ وهو يزوم:

ـ مرسي . .

وأقبلت فتـرة صمت كان قلب الأستـاذ فيها كـالريشـة في مهب الريح ، فـقـد كان يعلم أن جـاره سوف يتحـوقل بفمـه ويتبسمل بعـد قليل ثم يفتح باب الكلام ويا ويله لو فتح الباب . .

ولم يخب ظن الأستاذ إذ ما أسرع ما قال الجار:

ـ ألا من فضلك يا أستاذ؟! . .

فقال المحامي في اشمئناط :

ـ نعم! . .

ـ حضرتك بقى مدني والا جنائي . . والا مخدرات؟ . .

فرد المحامي على البديهة وكأنه محام :

ـ كل حاجة . . كله . . كله . .

ومن تجاربه السابقة مع أمثال ذلك الجار كان الأستاذ يعرف أن المتحدث يسكت هنا ، وتبدأ فترة صمت أخرى .

وفعلا أغلق الرجل فمه المبتسم قليلا ثم فتحه قائلا :

ـ أهلا . . وسهلا . . تشرفنا . .

واستطرد بعد هنيهة :

ـ حضرتك لازم تعرف بقى الأستاذ (. . .) المحامي . .

وتردد الأستاذ قليلا ثم استخار الله وقال :

ـ لا والله . . متأسف . . معرفوش . .

واستنكر الجار:

ـ متعرفوش ازاي . . دا أشهر من نار على علم! . .

فقال الأستاذ بفروغ بال:

ـ أهو اللي حصل . .قسمتي كده! . . والله وديني وما أعبد ما أعرفه . .

ـ دا راجل جبار. ناصح تمام . . ياما دوخ قضاة ومحاكم.

ـ يا سلام؟! . . بقى كده؟! . .

وسكت الجار ولم يرد . . وخاف الأستاذ من هذه السكتة فقد كان يعرف ما وراءها إذ بعد قليل قال الجار:

ـ يعني المدني حضرتك تفهم فيه برضه؟ . .

ـ طبعا . . طبعا . . أمال ايه!! . .

قال الأستاذ هذا ولم يسأل عن السبب مخافة أن يحدث ما لا تحمد عقباه . .

ولكن الجار تفوه بلهجة من لا يهمه الأمر:

ـ دا بس أصل فيه حكاية كده .

وأطبق الأستاذ فمه لا يود فتحه وكأنه ليس هنا . .

ولم يثبط هذا من همة الرجل فسرعان ما أردف:

ـ حكاية كده غلبوا فيها المحامين. . هو مش حضرتـك بتدافـع في المدني برضه. . أصل أنا خايف أضايق حضرتك! . .

وأصر المحامي على صمته ولم يرد. .

ومع هذا تنحنح الجار وقال:

ـ والحكاية غلبوا فيها كتير. . اوعى تكون حضرتك مضايق والا حاجة. . شوف يا سيـدي. . بقى أصل في سنـة ١٩٢٥ كان لي بيت وارثه عن أبويا، وكان فيه ورثة تانيين. .

وبدأ الجار يروي القصة بحذافيرها من يوم أن كانت إلى يومنـا هـذا، ويشرح مـا مـرت بـه، والجلسـات، والنقض، ونقض النقض والأستاذ قد انشـوى واستوى وهـو يصغي، ومضطر أن يصغي وكـانت العربة في هـذه الأثنـاء قـد وصلت «الرست هـاوس» فنزل المحـامي والرجل وراءه، وأكمل القصة وهما يتناولان القهوة وينفضان ما عليهما من أكـوام التـراب. . ودفـع المحـامي الحسـاب والجـار مستمـر في الرواية، وفي الطريق إلى العربة كان الرجل قـد انتهى أو كاد فـسـأل بلهجة لا تخلو من حداقة:

ـ وايه رأي سيادتك بقى؟! . .

ولا بد للأستاذ أن يكون له رأي . . أمال أستاذ ازاي؟! . .

وقـال المحامي رأيـه، وحينئذ مط الجـار ابتسامتـه على آخرهـا وقال:

ـ طيب لو سمحت بقى ولو فيها مضايقه بس تكتب لي مذكرة . . الكلمتين اللي قلتهم سيادتك دلوقتي كفاية قوي . . أصل الحكاية عقدة وصعبة . . دوخت المحامين . . والنبي أنا خايف أكون بضايقك . . طب بذمتك؟ وحياة والدك مانتاش مضايق؟! لا . . لا . . متتعبشي نفسك يا أستاذ . . القلم أهه وآدي الورقة يا سيدي . . متشكرين قوي . . متشكرين خالص . . عاجزين عن الشكر . . يا سلام . . دي فرصة سعيدة . . بيقولوا رب صدفة خير من ألف ميعاد . . بقى حضرتك ما تعرفش الأستاذ « . . . » . . ياه . . دنيا . . دا كان أعز أصحابي .

وكتب الأستاذ المذكرة وهو يفور ويمور وينفخ . .

واعتزم أن يترك المقعد الذي كان يجلس فيه، وأن يبحث له عن آخر بعيد كل البعد عن هذا الجار حتى لو اضطره الأمر أن يتخلف عن العربة . .

وأفلح الأستاذ في اغتصاب مكان . . وظل قلبه مع هذا في مهب الريح مخافة أن يكون الجار الجديد أحد المتحدثين الذين سواء عرفوه أم لم يعرفوه، فأسئلتهم لا تهدأ ولا تنتهي . . ولكن الجار كان رجلا طيبا صموتا ما فتح فمه، ولا حتى ألقى ناحيته بنظرة ولو على سبيل المجاز . .

ورغم أن الدنيا كانت قيظا، والعربة أصبحت كالفرن الذي ليس له مدخنة، والغبار من كثرته صار له لسع الناموس وأزيز

الذباب، والمقاعد عليها بحور عرق في وسطها ناس، ورغم هذا فقد استراح الأستاذ لصمت الجار الراحة كلها، وأحس بقلبه ينعنشه ثلج بارد.

وراحت العربة تئن وهي تقطع الطريق الملتوي الطويل. . وشعر الأستاذ بعد قليل أنه يود معرفة الساعة التي ستصل العربة فيها، وكان ممكنا أن يسأل جاره ببساطة ولكنه لم يشأ هذا حتى لا ينبش الجار فيفتح فمه ولا يقفله أبدا.

ولكن. . في مطب من المطبات الكثيرة مال الأستاذ على الجار فكاد يوقعه وكلمة من هنا واعتذارات من هناك تعرفا، واتضح للأستاذ أن جاره دكتور. . واكتفى الأستاذ بالذي كان فأغلق باب الحديث وأحكم الإغلاق. .

وانتهت المطبات، وسارت العربة كالريح والأستاذ صامت وجاره صامت أيضا، ولكن بعد وقت تذكر المحامي شيئا ونسي قراره فابتسم وقال لجاره:

ـ إلا حضرتك بقى دكتور في الطب. . والا في. .

وحين وصلت العربة إلى القاهرة وغادرها الركاب كان الأستاذ لا يزال يقول للطبيب:

ـ لا. . لا. . متتعبشي نفسك. . بلاش روشته. . آدي القلم والورقة. . اسند هنا على ضهر العربية. . بس والنبي عايز دوا يقضي

عليه . . دا مغلبني قوي الصداع ده . . زي ما قلت لحضـرتك . . من سنـة ٣٦ . . والروشتـات أهيه . . أوعى أكـون ضايقتـك يـا دكتـور . . والنبي؟! . . متشكـرين . . متشكرين قـوي . . بقى حضرتـك بتشتغل في إسكندرية . . يا سلام عالصدف السعيدة . . يا سلام!! . .

الهجـــانة

قـال البعض إن السبب هو نصف فـدان القـطن الـذي اقتلعت شجيراته في الليل من أرض البرنس.

وقـال آخرون إنـه النقب الذي حـدث في إصـطبـل الابعـاديـة المجاورة.

ورد بعض ثالث وكاد يقسم أن السبب هو الحريق الـذي اجتاح الساقيتين القبليتين في وقت واحد.

يختلف النـاس دائما أبـدا على السبب ولكنهم يذكـرون تمامـا عصـر الجمعـة الـذي جـاءوا فيـه، وتمشت مـع مجيئهم الهمهمـات تزحف في القرية وتقول:

ـ الهجانة وصلوا. .

كان الرجال يزومـون بها ثم تتشعب أصـواتهم مملوءة بالخـوف والتشاؤم تارة، وتارة تحفل بغبطة ساهمـة، فإن جـديدا سيحـدث في القرية، وما أقل ما يحدث في القرية من جديد.

وكـان الصغـار يتلقــون الكلمـة من أفــواه آبـائهم، وتــرتعش

أجسادهم وبالخوف من الغرباء الذين لم يسمعوا عنهم أو يروهم ثم تنبسط وجوههم بالفرح لأنهم سيرونهم . .

وأصبح لا حديث للنساء إلا عن العبيد الطوال السمر ذوي الأرجل الرفيعة الجافة والكرابيج المسقية بالزيت . .

ولم يراهم أحد حين دخلوا القرية، ولا حين تسربوا إلى دوار العمدة وكأنهم وصلوه من جوف الأرض. ولكنهم ما ان استقروا في الدوار حتى حفل الشارع الذي بجواره بأناس يتبصصون على القادمين، ويتسمعون ما يجد من الأخبار، وحينئذ تميل الرؤوس على الرؤوس، وتخرج الإشاعات رائحة غادية مخترقة البلدة من أقصاها إلى أقصاها.

ومن غير أن يلف مناد أو ينبه خفير، سرت الأوامر تحملها آذان إلى أفواه، وأفواه إلى آذان.

وعرف الناس في غمضة عين أن الويل لمن يخطي عتبة داره بعد المغرب، وعليهم إرجاع المواشي قبل حجة الشمس، وعليهم بعد هذا ألا يوقدوا نارا أو يشعلوا مصابيح ثم ليتعشوا ويصلوا ويناموا في الظلام، والويل لمن لا يعجبه الحال.

وكما يعم الصمت ساعة الإفطار في رمضان، سكتت الألسن فجأة في الحلوق على أثر هذه الأنباء، واهتزت الرؤوس تجتر الأوامر السريعة المتلاحقة على مهل وفي وجوم.

وشعر كل واحد أن الأمر أكثر من أن يفكر فيه وحده، فتقارب

الجيران مذهولين في حلقات، وامتلأت القهوة الوحيدة بالناس وقد أصبحت مصدر التخمينات.

وعلى قدر ما أذهلهم ما سمعوه فقد استنكروه وأبوا تصديقه.

* * *

ولم يستطع مخبول أن يتصور أن القرية كلها قد نامت من المغرب، والليل انقضى دون أن يسمع للعشاء أو للفجر أذان. لم يتصور مخبول حدوث هذا..

ولم ينتظر واحد منهم أن ينصت له آخر، فراحوا كلهم يتكلمون في انفعال واضح وقد علت الأصوات، واهتزت الأيدي وكلما ارتفع الجدال وازدحمت القهوة كثرت آذان النساء والبنات الملتصقة بالنوافذ، تلتقط ما استطاعت التقاطه ثم تطير به إلى المتحفظات القاعدات أمام الأبواب يتبادلن الآهات والحسرات.

وكان من المستحيل أن تستمر الحال على هذا المنوال، فشيئا شيئا كلت الأصوات، وهدأت المحاورات، ولف الحاضرون أيديهم حول كوبات الشاي والقرفة فقد كان هذا آخر عهدهم بالقهوة التي ستغلق أبوابها بعد اليوم ويبحث محمد أبو حسين صاحبها لنفسه عن عمل ثان. هكذا قالت الأوامر..

وسرعان ما بددت الجماعة الوجوم الذي أدى إليه النقاش، واستطاع جمعة أن يرفع صوته الأخنف حتى يسمع الموجودين ما كان يود قوله من زمن:

ـ والنبي لماشي في نص الليل . . واللي يقابلني حتف في وشه . .

ورد عليه حامد الصعيدي الذي يعمل الطعمية أيام السوق بصوته اللزج قائلا :

ـ يا شيخ اتلهى . . دانت لو دقت كرباج . .

وضحك الجمع ، واستمروا يضحكون وشعبان مقاول الأنفار يدق بيده على صدره ويقول :

ـ بذمة محمد أنا آكل عشرة من الكتربنت السود دول . .

وساهاه عبد الفتاح الخفير ، وهو في جموة كلامه ، ودلق بعض الماء في قفاه ، وانتفض شعبان ملسوعا خائفا . ولعلعت القهقهات .

وقال الخفير بعد أن شبع ضحكا :

ـ انتو عارفين ايه ياولاد . . دول بنادقهم هندي من أم حداشر طلقة ، مش زي الممغوصة بنادقنا الأرمنتوه . .

وأخذ بعد هذا يشرح ، في لهجة العالم ، الفرق بين الهندي والأرمنتوه ، وعدد قليل يسمع ، بينما الباقي قد تفرق يتهامس ويتحدث في شؤون العيش .

وساعتها كان نفر من الأعيان جالسين يستنشقون الهواء في الخلاء على مقاعد محطة القطار ومعهم العمدة . وتلقفوا الأنباء باهتمام قليل ، وأنصتوا إلى العمدة و أشداقه تضخم الكلمات ثم

تفرطها على دفعات وهو يقول ان البلد تلفت، والخلق باظت والذمم خربت، والناس تخاف ولا تخجل، ولا يصلحها إلا الكرابيج الغريبة. .

وكان الأعيان يموءون وهم يوافقونه على كل ما يقول، بل تمنى واحد منهم لو كان الود وده ليبقى الهجانة تسوق الناس أمامهم كالنعاج أعواما وأعواما.

* * *

واصفر العصر. .

وكانت البلد قد أفرغت ما لديها من كلام، وعرفت كل الأخبار والشائعات، ورويت من السخرية بنفسها ومن إخافة بعضها بعضاً.

وحين رأى الناس خيالاتهم تطول وتمتد، تذكروا المغرب وما ينتظرهم فيه.

وتحرك المصدقون والمكذبون والمتفكهون في كل اتجاه حتى أصبحت القرية كعش النمل. وأسرعت النسوة إلى الغيطان يستعجلن الأزواج ويروين ما حدث.

وازدحمت الأطباق والأذرع الملحة أمام الدكاكين، وتصاعدت أدخنة كثيرة من المواقد والأفران وقد تكهربت تنجز الطعام والخبز.

وفي النهاية قطعت الأرجل من الشوارع وتجمع الناس في

استغراب وسخرية حول الطبالي يحاولون ابتلاع العشاء، والشمس ما زالت طالعة.

وراح الآباء والأمهات يعدون الأولاد ويرون من الغائب، ويوصونهم ويخيفونهم من الشياطين السود من مغادرة الدور.

واختفت الشمس وراء نخيل الحوشة وحدها، ودون أن يراها أحد، فقبل المغرب كانت الأبواب قد أغلقت كلها، والناس رابضين في الدور وفوق السطوح.

ولم ينم الناس، وكيف ينامون، وانطلقوا يتحدثون داخل المنادر والقاعات، وغير مقتنعين بالذي حدث ولا مقيمين له أي اعتبار..

وجاء قطار الثامنة يتهادى، وسمع الناس صفيره فانقطعت الأحاديث واستعدت الآذان كلها لسماع ما يجري للعائدين من البندر في القطار، الذين بلا شك لم يعلموا بما جد ولم يهيئوا أنفسهم له.

وارتجت قلوب كثيرة، وبكت نساء، ونهنهت عجائز، والآذان تشرخها الصرخات التي عمت القرية، ولسعها أصوات الاستجارة والهرولة والركض.

وأعقب الضجة سكون أغرق الليل والظلمة والناس، ما كان يقطعه إلا دبيب الأحذية الميري الثقيلة وهي تحف بالأرض بين الحين والحين، والصوت الرفيع ذو اللكنة البربرية الغريبة يقول وكأنه مطواة تقطع.

ـ مللي هناك . .

ولا يـرد عليـه أحـد، وقـد ينبـح كلب بعيـد، ثم يعـود الصمت الغامق.

وبات الناس ليلة طويلة أكثرها خوف ويقظة، والقريـة قد لفهـا جو خطير محير.

وأدرك الناس في حسرة حينئـذ أن المسألـة جد لا هـزال فيها. وأن الذي يقع ستزهق روحه وتسلخ الكرابيج جثته.

* * *

وطلع الصبح . .

وتفتحت الأبواب، وانطلق الخلق كالدجاج الذي ضايقته زحمة القفص. وكانوا حين يتبادلون تحية الصباح يقولونهـا بقلوب متورمـة، وأرواح حخجلة. كـانوا كـالذي فقـد شيئا، ولكنـه لا يـدري كنـه مـا فقد.

وتنـاقـل النـاس وهم يتفـرقـون وراء رغيف الخبـز مـا حـدث للعائدين من البندر، وكـانوا يتنـاقلونه في فتـور خافت، وحين علمـوا أنهم ربطوا بحبل، وقضوا الليلة في الدوار بعد علقة نصفهـا الموت، كانوا يهزون رؤوسهم ولا يقولـون شيئا، أو ينطـق الـواحد بكلمـة لا معنى لها ثم يسكت.

وبدأ يوم طويل كغيره من الأيام . . ومضى النهار في تلكؤ يخنق

الأنفاس وحين عاد الرجال في الظهر وما بعد الظهر منهكين مشتتين التقت الجماعات فوق المصاطب وأمام الدور وقد أغلقت القهوة. وكان كلامهم كثيرا لا روح فيه ولا فائدة كثرثرة النساء، وكل منهم يغرق في رواية تفاصيل ما سمعه من دبيب أثناء الليل، ويقص نفس الحكاية عما حدث بعد قطار الثامنة.

وحين مج الناس الكلام والعودة إليه، تحول الحديث الدائر على مصطبة المعلم عمر إلى ناحية أخرى لما عنَّ لعبد الغني الجمل أن يطيل لسانه. وعبد الغني هو المنقذ دائما من الحديث الممجوج فهو لا يعدم نكتة يرنها على الحاضرين فينسوا كل شيء وتستغرقهم فكاهات عبد الغني. وكان هو نفسه فكاهة، بقامته القصيرة التي تطاولها قامات الصغار، ورأسه التي مثل حبة البطاطس، وطاقيته الصوف المنطبقة بحذافيرها على جبهته، والتي حولها المنديل المحلاوي القديم ملفوفا ومربوطا بعقدة خبير حتى لا يبين شعره. وما كان له شعر. فتحت طاقيته كانت قرعته حمراء راشحة. وكان الناس إذا لم تسعف النكتة عبد الغني يجدون في رأسه المتنفس، ويجذب الجريء منهم طاقيته فتفج الحمرة من رأسه، وتنهال عليها البصقات.

غير أن ما حدث وجد فيه عبد الغني ثروة ما بعدها ثروة، فراح يقلد الأسطى عبد الخالق الحلاق السمين الطويل ذي الشوارب، وهو ممسك بحقيبته الخشبية التي فيها العدة في يده، ورافعا باليد الأخرى ذيله، والكرابيج تنهال عليه، ولا يستطيع الجري أو حتى التحرك وإنما يقول في تهتهة عاتبة مختنقة بالبكاء:

ـ ما يصحش يافندي . . يافندي مايصحش . .

وينفلت عبد الغني في براعـة إلى عمك دعـدور بائـع السردين الـذي نظره شيش بيش والـذي يصر دائما على التحـدث بـالمنـطق والحجج والقانون، وعلى فلسفة كل ما يـدور في البلد من حادثـات . وعبـد الغني كان حين يغمـز دعدور لا يخلو فؤاده من بعض الحقـد، فقد كان الناس يضحكون لفلسفة دعدور السـاذجة أكثر من ضحكهم لنكات عبد الغني المفتعلة التي يدافع بها عن نور رأسه .

وعلى غرة وجم الجالسـون والواقفـون وكفوا عمـا هم فيه حين همس الشحات في صوت آمر :

ـ هس يا جدع . . أهم جم . .

وما انتهى حتى كان الثلاثة يمرون من أمامهم . وكانت هذه أول مرة تقع عليهم الأبصار في وضح النهار . وسن كل واحد عينيه محاولا أن يلتهمهم بنـظراته . كـان فيهم واحد طـويل رفيـع ملفوف كعـامـود التليفون يبدو أبو عوف الجمـال طفـلاً إذا وقف بجواره، وكـان الثاني أقصر منه إنما له شلاضيم أعوذ بالله منها يبرز بينها ضب من الأسنـان اللامعة البيـاض وكأنهـا أصابـع المذراة، وكـان ثالثهم مبـططا مربعـا وعيناه يقدح منهما الشرر، وكانت وجوههم في سـواد الهباب وحلكـة ليالي آخر الشهر، ويقطع سـوادها تشـريطات . وعلى كتف كـل منهم بندقية، وفي يـده كربـاج طويـل تلتف حولـه أسلاك نحـاسية صفـراء تنتهي بعقد غليظة، العقدة منها تطلع بقطعة لحم .

ومروا بلا سلام أو كلام وكأنهم فائتون على جبانة، وما كاد دعدور يفتح فمه يعلق على الموقف بعدما ابتعدوا حتى أقفله ثانية وأحكم الإقفال. فقد عاد الثلاثة وفي عيونهم شر مستطير. ودون سابق إنذار ارتفعت الكرابيج مرة واحدة، ثم دوت، بينما لكنتهم تقول في حقد:

ـ على بيتك.. يا بنت الكلب..

وكان الشاطر هو الذي أخذ ثوبه في أسنانه، وقال اخلو لي الطريق.. وفي غمضة عين لم يكن في الشارع كله إنس واحد. وجرى الثلاثة وراء الناس كالنحل الفائع وكانت وقعة الذي يقابلهم أسود من شعر رأسه.

ويومها نامت البلد من العصر.

* * *

ومر يومان وثلاثة وخمسة، ولا حديث للناس خلال الساعات التي يستطيعون فيها الحديث إلا عن الهجانة وما فعلوه. فالليلة دخلوا على الحاج مصطفى وهو يتعشى، وقلبوا الطبلية وضربوه ثم تسلقوا السطح وراء الحاجة فألهبوها وهي تجأر بالصراخ.

وفي الغد تتناقل الألسن ما حدث لعبد الحميد وامرأته حين أشرفت على الوضع وخرج غصباً عنه يحضر أم مخيمر الداية، وكيف ظلوا يضربونه حتى قال: إني مره..

وليلتها بات في الدوار ووضعت امرأته وحدها واستمرت تنزف

إلى أن جاءتها الإسعاف في الصباح . .

والا يوم قابلوا شيخ البلد وجف ريقه ووقف لسانه وهو يردد:

ـ أنا الشيخ . . أنا الشيخ . . أنا الشيخ . .

يقولها ويرددها حتى والكرابيج تنهال عليه والهجانة تقول:

ـ شيكه ايه يا هراميه . . خش بيتك . .

وكل حديث من الأحاديث كان يزيد انكماش الواحد في جلده، فأصبح لا هم لكل إنسان إلا أن ينهي ما في يده حتى يلزم داره. أما الذين كانوا يعملون في البندر ويجيئون في القطار فقد استغنى أكثرهم عن عمله، وداروا في القرية بلا عمل، والباقي فضل ألف مرة أن يبيت على أي وجه في البندر ولو على الرصيف.

وفي يوم السوق كانت قصة تحكي ويعقبها استنكار كثير. فقد ضربوا ليلتها مرسي أبو إسماعين. وصحيح أن مرسي لم يكن يملك قيراطا واحدا وليس في حوزته فدان إيجار، إنما كان ولدا ولا كل الأولاد، كان ابن ليل قتل وسرق ونهب، وفي صدره العريض الراسخ ترقد قصص تشيب لهولها الولدان ومع هذا ففي البلد كان يعيش في حاله، وأدبه في معاملة الناس مضرب الأمثال، كان يعود المريض ويعزي في الميت ويساعد الضعيف وينتقم للمظلوم ويقف لكل صغير وكبير وكانت البلد تفخر به إذا جاء مجال الفخر بين أبطال البلاد، ويروون عنه كيف لوى نسيخ الحديد وكسر المسمار ورفع كيس القطن وحده على الجمل. وعلى حسه كان الناس يتركون محاريثهم

ومواشيهم في الحقول. . وبعد هذا كله تضربه الهجانة؟ وتطلق عليه النار إرهابا حين حاول المقاومة؟ ثم تدك صدره بعد ذلك بدبشك البنادق وكعوب الأحذية؟ .

واضطر الناس في النهاية أن يصدقوا حين كانوا يقاربون السوق، ويمرون بالمركز، ويشاهدون أبو إسماعين قابضا على حديد النافذة كالأسد الجريح .

وعادوا يومها من السوق وكل يقول لنفسه: ابعد عن الشر وغني له .

* * *

وكما تتهادى مياه الترعة لا يقلقها إلا موجات خانعة لا تكاد تشب حتى تموت، عاش الناس وقد رضوا بما كان وسلموا بما حدث، وما قد بقي في قلوبهم من استنكاف زال وانمحى، ولم يعد بها إلا تسليم ذليل، حتى العمدة الذي كانت كل بادرة تصل إليه، فيسمعها، ويجعل أذناً من طين وأخرى من عجين، قابلوه ذات ليلة فقال لهم أنه العمدة فردوا عليه:

ـ ولو. . خش بيتك .

ودخل بيته، وأغلق الباب بالضبة والمفتاح دون أن يقول تلت الثلاثة كام .

وبلغت الحكـاية النـاس، وضحكوا في سـرهم على العمـدة، وتشفوا فيه!، وعرفوا أنـه غلبان مثلهم ولا حـول له ولا قـوة، وأنه لم يعد الحاكم الناهي في البلد. .

وتـطلع النـاس إلى الحكـام السـود الجـدد وبـدأوا يتعـرفـون أسماءهم ويخلطون بين حسن الطويـل وجاسر القصير، وسلطان الذي لـه عيون الـذئب، ومضوا يتحسسـون أخبـارهم ويعـدون عليهم كـل ساكنة، وواردة، ويعرفون يـوما بيـوم من عند من سيـأكلون، ومن أي بيت من بيوت الأعيان سيحمل لهم عبد الفتاح الخفير الصينية الحافلة فوق رأسه. .

وكـان الصغار سبـاقين إلى تتبع مـا يدور في غـرفـة الهجـانـة، فكانوا يدسون أنظارهم خلال نوافذها ثم يزهقون من التطلع فيجـرون وراء بعضهم وهم يقلدون أصوات العساكر ومشيتهم ويستعيضون عن الاستغمايـة أثناء الليل بالجري بالأطواق أثنـاء النهار، ويلحـون على آبائهم حتى يشتروا لهم كرابيج مثل التي مع الهجانة وحين لا يجدون في إلحـاحهم أملا يصنعـونها هم من ذيـول البهائم التي يـذبحها أبـو أحمد الجزار وكذلك من أجزاء أخرى. . وبدلا من الزجر الذي كانوا يلقونه من الآباء في أول الأمر، تساهل الآباء، بل تعـدى الأمر حـدود التساهل، وتـدخلت سيرة الكـرابيج فيمـا كان يـدور بين الرجـال من أحـاديث لا تنتهي حول صنعهـا وحول البـلاد التي تصنعها وهـل هي مصر أم السودان.

وكان الطلبة والتلامذة الذين يقضـون إجازتهم بـالبلدة يسمعون

الأحاديث، ويسخرون من الجهل الذي يسودها، ويتفضل واحد منهم ويصلح ما أفسده الجهل. ويتطرق الكلام إلى الهجانة أنفسهم، ويصغي الناس في شيء من الإكبار إلى الأفندية وهم يسخرون بالحكام السود، ويتفكهون عليهم، ثم ينقلبون بجراءتهم على البلدة الجبانة التي تتمسح في أحذية عساكر ثلاثة، لا يساوي الواحد منهم مليما أحمر.

وكان الناس يعرفون سر سخط التلاميذ فقد منعت الأوامر الجديدة طوابيرهم التي كانت تجوب القرية رائحة غادية، وكذلك سهراتهم إلى نصف الليل على الميزانية الحجر، وجريهم وراء بعضهم في دروب البلدة النائمة، وتربصهم بالبنات.

وكان الناس يسمعون الكلام ويسكتون. فالمتاعب لا تنقصهم ولكن كان بعضهم لا يسكت، فالبدراوي محترف كتابة العرائض والبلاغات مضى عليه أسبوع وله كل يوم عريضة وكل صبح بلاغ، يفند فيها ما صنعه العساكر بالبلد. ولكنه حين عرف أن الهجانة قد علمت بأمره، نفض يده من الكتابة، واندفع يتقرب إليهم ويتلطف معهم، ويرجع بنسبه إلى دنقلة حيث جاءوا، ويتطوع بإبلاغهم سرا ما يحدث وراء ظهورهم. ولم ينفعه كل هذا حين قابلته الهجانة التي لا تعرف عربي ذات ليلة وقد اطمأن إلى صداقتهم فجعلوه يعض الأرض وهو يستعرض تربة أجدادهم. .

وكانت البلد حين يسلمها يوم كئيب إلى آخر أشد منه كآبة

يزداد شعورها بأنها كانت في نعمة، وزالت، وأن الخراب قد حل، ويكاد محمد أبو حسين صاحب القهوة يخبط رأسه في الحائط على رزقه المقطوع، وتجار الكيف معه ساخطون، والخفراء يصرون على أسنانهم ويكتمون وهم في أعماقهم يتمنون مصيبة عاجلة تطيح بالهجانة وقد أصبحوا هم وشيخهم وعمدتهم دلاديل، وصار لزاما عليهم أن يقضوا الليل بطوله ساهرين، والدكاكين وقفت حالها، والعاملون بالبندر لا يجدون الخبز، ولا صلاة ولا عبادة أو سهر، وإنما ضرب وإهانة ومسخرة وكأنما البلد بأناسها عزبة أبيهم، والحكايات تترى عن ركنتهم في زقاق مبروكة، ومبروكة تاجرة البيض العازبة كانت الركنة في زقاقها حدثا تتلاعب له الحواجب وتغمز العيون.

والناس في صبرهم كالجمال، تشهد وتسمع وتقاسي حتى تحين اللحظة.

وقد حانت..

* * *

كان مرسي أبو سماعين قد مضت أيام على خروجه من الحجز ولكنه لم يمكث في البلد إلا يوما واحدا، ثم غادرها إلى حيث لا يعرف أحد. يومها كان الناس يتدبرون في ملل ماذا يطبخون ليلة النصف من شعبان. وفوجئ الذين خلفهم النهار في البيوت بالهجانة وهي تجري هنا وهناك هالعة. وما أثار جريانهم الخوف بقدر ما أثار

الاستغراب. فما كانوا يرتدون بدلهم أو أحذيتهم الثقيلة وليس في أيديهم كرابيج، وإنما حفاة عراة وقد نكشت شعورهم السوداء الغامقة.

وحسب الناس أن شيئا خطيرا قد حدث أو أن حريقا شب، فلم يتمالكوا أنفسهم وجرى البعض وراءهم. غير أن الخبر عرف في النهاية، واتضح أن عبد السلام النجار هو الذي وقف لهم على رأس الشارع، والورداني هو الذي أحضر السلمين وربطهما معا ثم صنع منهما قنطرة وصلت حائط الدوار بحائط بيت أبو حسين، وبقية الرجال كانوا على السطح وكان مع عبد المجيد سكينة طويلة بحدين، ومع الورداني بلطة، ومع صالح بندقية ميزر، وكان مع أبو حمد شمروخه الذي ما ورفعه مرة إلا وكسر به رأس.

والمهم أن مرسي أبو إسماعين الشارب من لبن أمه هو الذي تسلل وحده إلى الغرفة التي ينام فيها الهجانة في النهار وخرج حاملا بنادقهم.

وقص الرواة وشهود العيان ما جرى بعد هذا. وكيف تذلل الطغاة إلى العمدة وكادوا يقبلون مداسه، وكيف بكى جاسر وهو يستعطف الرجل ويرجوه أن يعثر لهم على البنادق حتى لا يروحوا في ألف داهية. واختلفت الروايات في رد العمدة ولكنها اتفقت على أن الرجل استعبط عليهم وأفهمهم أن الأمر قد خرج من يده، مع أنه يعرف، وكل الناس يعرفون من هم أولاد الحلال الذين فعلوها.

ويسكت الرواة، فالبقية قد شاهدها كل الناس، حين انقلب المركز، والنيابة، وجاء ضباط من المديرية، وارتبكت الدنيا، ولم يتوقف التليفون عن الرنين.

وانتهى اليوم وقد سيق الهجانة محروسين.

وحين أقبل الليل كان عشرة من أهل البلد قد غيبهم المركز، والمباحث تقص الأثر وراء أبو إسماعين، والقهوة لا تزال مغلقة، والناس تتساءل في قلق عما يحدث غدا، وهل يجيء هجانة آخرون، أم يكتفي الحكام بالذي مضى.

ورغم هذا فقد أوقد الناس المصابيح، ورأوا النور في الليل وقد اشتاقوا إلى النور، وأذن المغرب والعشاء وامتلأ الجامع بالمصلين، وانطلقت الضحكات لأتفه الأسباب، وبلا أسباب، ولعب الطلبة والتلاميذ الكرة في ضوء القمر، وانتشرت مواكب الصغار تجوب القرية مهللة فرحانة وأحدهم يهتف بأغنية خارجة عن الهجانة والباقون يردون، حتى الصبايا، لم يخجلن، فرحن يرددنها هن الأخريات، وتتوقف المواكب عند السامر الذي أحياه عبد الغني، وقد تحزم بمنديله، وكشف رأسه عن عمد فبانت حمرتها، وهو يرقص، وعمك دعدور يطبل له على طشت النحاس، والشاعر قد ازدحم بالضاحكين المصفقين وهم يردون على عبد الغني ويقولون:

أهي ليلة يا جميل..

أهي ليلة والسلام..

الحــــادث

ذات عام كان عبد النبي أفندي والست حرمه في مصر، وكانت الدنيا صيفا، وعبد النبي أفندي يمشي بجوار امرأته بجسده الذي هـو طويل حقـاً ولكنه ذلك النوع من الطول الذي لا يبدو له عـرض ،فلا سمنة تبرزه، ولا أكتاف ممشوقة تنسيك رفعه، وإنمـا شيئان هـاكعان مضمومان تتعلق عليهما سترتـه كأنهـا معلقة على شمـاعة. . ومـع أنه كان يرتـدي بدلـة، إلا أنك كنت تستـطيع أن تـدرك للتو أنـه لم يعتد ارتـداءهـا، فقـد كـان يخـطر فيهـا وكـأنـه لا يـزال يخـطر في الجبـة والقفـطان، ويمـد يــده وكـأنهــا لا زالت طليقـة في الكم الـواسـع الهفاف. . وكنت تستطيع أن تقسم أن نار المكوى لم تلسع بدلته منذ أن وجـدت وكـذلـك لا تقـدر أن تخمن متى وجـدت، ومــع ذلـك فالمحافظة على الملابس كانت في دم عبد النبي أفندي، ولهذا كان يضع منديله النص نص الأبيض بين رقبته وبين ياقة سترتـه حتى يمنع عنهـا العرق الـذي ينضحـه قفـاه الأسمـر، وكـذلـك كـان يفعـل في طربوشه. . والغريب بعد هذا أن ياقة السترة، وحافة الطربوش، كانتا دائمــا من أمتـع الأمكنــة التي يحلو للعـرق والتــراب البقـاء فيهــا واستعمارها. .

وبالقياس إلى وجه عبد النبي أفندي الذي قـدمت سحنته حتى اسـودت، وتناثـرت تجاعيـده في طيبة قبيحـة ولكنها طيبـة والسـلام، بالقياس إلى وجهه، كان وجه امـرأته المـاشية بجـواره حلوا أبيض فيه احمرار، ليس هذا فقط، بل إنها كانت ترتدي ثوبهـا الحريـر الأحمر الذي دخلت به، وفوقه الفستـان الشفاف الأسـود، وكانت تضـع فوق شعرها الـطويل البـري قبعة ذات ريشـة، كان عبـد النبي أفنـدي قـد اشتراها لها أيام (مودة) القبعات. . ولم تنس الست تفـاحة أن تسـدل فوق وجهها البيشـة الكحلية التي تثنت أطـرافها ولمعت أجـزاء منها، وتلاصقت من كثرة مـا وضعتها على وجـوه أطفالهـا حين كان يصيبهم الرمد.

وكان عبد النبي أفندي وهو يهم بخـطوه ليلاحق امـرأتـه، كـان في لحظة من تلك اللحظات التي يحس الإنسان فيها أن الدنيا عال، وكل شيء جميل، ولم تكن هـذه السعادة لأنـه في مصر، فقـد زارها مـرات قبـل هـذه المـرة ليسعى حتى لا تنقله الوزارة من المـدرسـة الالزامية التي هو مدرس فيها، زارها قبـل الآن مرات، وعـرف العتبة وكـوبري عبـاس والمعرض وشـارع المبتديـان الذي فيـه بيت حـافظ أفندي وترام ٤ الذي يروح السيدة.

لم يكن سعيدا إذن لأنه في مصر، ولكنه كان عامرا بالنشوة لأن تفاحة معه هـذه المـرة، هادئـة بجواره كـالحمل الـرضيع، لا تعـايره كعادتها بكبره وصغرهـا ولا تركب رأسهـا وتمتطي لسـانها وتسخـر منه ومن علمـه ومن (حتة) المـدرس الـذي لا طلع ولا نـزل، وإنمـا هي

صامتة مدهوشة ذاهلة وهو يفرجها على مصر، ويريهـا ولو مـرة واحدة في حيـاته، أنـه يعرف أكثر منها ولـه نفـع أكثـر من نفعهـا في بعض الأحيان.

وكان هذا ثاني يوم لهما في القاهرة وكذلك آخر يوم، وكان عبد النبي أفندي قد أتى بها في طراوة العصر ليريهـا البحر، وكـانت هي في ذهـولهـا لاهـيـة عن كـل شيء إلا عن نسـاء مصـر، ولحمهن المكشوف، وعيونهن التي تحـدق في قحة وفجور ناحية الرجـال دون أدنى خجـل أو كشوف. . وكـانت إذا مرت بهـا واحدة لا تستـطيع أن تكتم مـا في نفسهـا، فتبعث وراءهـا بسلسلة طـويلة من الشتـائم واللعنات. .

وحين انتهى عبـد النبي أفنـدي بهـا إلى مكـان على الشـاطئ توقف، ومضغ ملء فمه فرحا قبل أن يقول:

ـ شايفه يا تفاحة. . أهو دا النيل اللي بيقولوا عنه. .

وردت تفاحة وقد فاجأها البحر فتاهت في ملكوته ونسيت عيون النساء:

ـ ياه. . يا خرابي يا عبد النبي.

ولهثت قبل أن تستطرد:

ـ دا والنبي يبلع طوره زي بحرِ مويس. .

وانتظر عبد النبي أفنـدي متلذذا وامرأتـه تهضم انبهارهـا، وقلبه

يرفرف بالفرحة وهو فخور بالنيل الذي أدهش تفـاحة ـ ومـا كان شيء يدهشها ـ وكأن ذلك البحر نيله، والقاهرة بحالها إحـدى ضياعه. .

وقبل أن تستيقظ تفاحة من غفوة الدهشة التي انتابتها، عسعس عبد النبي أفندي بلا وعي في جيبه فعثر على حبة حمص كانت باقيـة فألقى بها بلا وعي أيضا في فمه، وخلع طربـوشه نهـائيا وأمسكـه في يده فبان شعـره الخفيف المنكوش الـذي لا يفلح في إخفاء صلعتـه، وقـال بصوتـه الفرحـان، وهو يحـاول نفخ كرشـه المتـواضـع، ويمـد الكلمات ويجد السعادة في مطها والركون عند أواخرها:

ـ وآدي. . يا ستي. . قصر إسماعين باشا. . . .

وابتلع عبد النبي أفندي ريقه، وأخذ يحرك حافة الطربوش بين أصابعه وكـأنها مسبحـة ،ومصمص ما تبقى من الحمصـة في ضرسـه الوحيد الذي نخره السـوس، واستعد للشـرح. . وفعلا بـدأ يتكلم. . ولكن تفاحة كانت قد رأت لحظتها الكوبري العريض الذي تمـر عليه عربات بأكملها، ثم يسع الناس بعد ذلك أيضا. ولـم تنتظر مـا يقولـه وإنما انطلقت كالمشدوهة ناحية الكوبري، ولحقها عبـد النبي أفندي وهـو يداري سخـطه غير يـائس، ولم يتوقف لتسـأله وإنمـا انطلق من نفسـه يـروي لهـا قصـة الكـوبـري، ويشيـر إلى الأسـدين الـرابضين والتمثال الذي في نهايته، ويمسح رذاذ كلامه بالمنديل ثم يعود يضعه حـول ياقـة سترتـه، ويدق بعصـاه ـ وكانت لـه عصـا ـ على الأسفلت ليريها متانته، وتنحني، فينحني معها على الحاجز ويستمر يتكلـم وهو يريها الماء الذي يمور ويفور ويتموج. .

وأخيرا نطقت تفاحة، سألته:

ـ اللا يا عبده.. صحيح البحر ده مالوش قرار؟..

وأجاب عبد النبي أفندي أنه بالتأكيد له قرار، فلم تصدقه، بل وتاهت عن نفسها وعنه وخيل إليها وعيناها تتابعان الموج في شغف أن الكوبري يتحرك بها ويتراجع، وعادت تحدق في الكوبري وقصر النيل، واطمأنت إلى أن كل شيء ثابت في مكانه لا يسير، وتعجبت أكثر، ثم تاهت مع الماء مرة أخرى..

وفجأة، جأرت بكلمة سمعها عبد النبي أفندي صرخة، فارتاع، ووقف ينظر إليها ضائع العقل.. وإستمرت هي تصرخ وتقول:

ـ الحق.. حوش يا جدع..

ولم تسعفها الكلمات، فلكمت كمية الدهن القليلة التي تصنع جنب عبد النبي أفندي، وقد تشنج فمها وتصلبت أطرافها، وودت من صميمها أن ينفذ لها عبد النبي ما تريده قبل أن يرتد إليها رمشها..

وكان هذا ما يضايق عبد النبي فيها فما أكثر ما كانت تدفعه وتصيح فيه، وتشده، طالبة منه أن يفعل شيئا دون أن تقول ما هو ذلك الشيء، ويقف عبد النبي لحظتئذ حائراً نافد البال، وكأنه أعمى يريد أن يلضم إبره..

ـ يـا شيخ اتحـرك. . الله. . الحق يا عبـد النبي. . يا ستـار يـا رب. . يا رب استر. . استر يا رب. .

ودبت على صدرها وابيض وجهها وكاد يصفر. .

وعلى قدر ما استـطاع اتجه عبـد النبي ببصره إلى حيث كـانت تنـظر، فما وجـد شيئا غيـر مـاتـوقـع أن يجـد، ولكن إلحـاح زوجتـه وقرصاتها ودفعها، جعلته يكذب نفسـه، وتتقارب أجفـانه، ويتـلاصق حـاجباه العـريضان الخفيفـان صانعين تجعيـدة مفرطحـة فوق أنفـه، محاولا أن يجد ذلك الشيء الذي أرعب تفاحة فأرعبته. .

وكـان صبر الـزوجـة نفـد فنـطـقت أخيـرا وقـد عـذبهـا فهمـه الحميري!. .

ـ حوش يا راجل! . . الولد!. . فين ايه!؟!. . يا باي عليـك . . أهـه يا أعمى!. .

وحدق عبد النبي أفنـدي مستغربـا في الماء، وهنـاك في وسط النيل رأى الحادث.

كـان العصر قـد بدأ يشحب وينتهي، وكـانت الشمس الذاهبـة التي في السمـاء والشمس الغـارقـة المـدفـونـة في المــاء. . كـانت شعـاعاتهـا تصطدم على سـطح المـوج الصغيـر الـمتـراقص فتتفتت الشعـاعات إلى مـلايين من ذرات ماس تتنـاثر في كـل اتجاه.. وفي وسط هـذا البريق العـائم كـان هنـاك قـارب أبيض صغيـر يكـاد يبلغ حجمـه حجم القـوارب التي يصنعهـا العـابث بـالـورق. . وكـان في

القارب طفل . . طفل دقيق يرتدي بذلة البحارة البيضاء وكان الهواء يداعب شعره الأصفر في عنف رقيق وكأنه ما يهب إلا ليداعب شعره . . وكان الصغير جالسا في أتم الهدوء وفي اتزان الكبير المالئ يده من قوته، وذراعاه الصغيرتان البضتان تمسكان بالمجاديف في ثقة وتعملان بلا وهوادة . .

وكان ممكنا أن تمر ساعة بأكملها قبل أن يقتنع عبد النبي أفندي ويسلم بحقيقة ما يراه، ولكن المسألة لم تأخذ وقتا طويلا، فبعد أن حملق من هنا ثم أحكم وضع الطربوش وأدلى رأسه على قدر ما استطاع وحملق من هناك، وثنى رقبته مرة إلى اليمين ومرات إلى اليسار. بعد هذا كله أغلق عينيه وقال بصوت فيه تأنيب:

ـ جرى ايه يا شيخه؟ طربتيني! . .

وانتفضت امرأته تقول وغيظها يشتد:

ـ جرى ايه ايه؟! مانتاش شايف؟! حوش يا راجل . .

ـ بس لو تطولي بالك . . لازم أبوه وأمه هنا والـلا هنا . . أمال! . . لازم! . . الله ! . . هي لعبة؟ . . واللامش معقول يا سيدنا لفندي؟ .

وسيدنا لفندي الذي توجه عبد النبي إليه بالخطاب لم يكن واحدا وإنما كان كثيرين . . وكان بعضهم قد وقف يتفرج على تفاحة وعبد النبي وقد أعجبه مرآهما ثم مضى بعد أن أشبع فضوله.

وكان البعض قد رأى الطفل فعلا فاسترعى الطفل انتباه الجزء

الأكبر من تفكيره ثم لما علا صوت تفاحة واشتد حماسها بدأ يوزع انتباهه بين الطفل وبين المرأة ذات الزي الغريب، وما تقوله والرجل الذي معها. .

وكان بعض ثالث قد أخذ الأمر على محمل الهزل فمضى يلعق بلسانه ثوب تفاحة وبيشتها، وطربوش عبد النبي أفندي وحذاءه، دون اكتراث لما يحدث داخل النيل. . ولم يعدم الأمر أن يكون هناك أفندي واحد عاقل راح يتطلع إلى الطفل ويتابع القارب بناظريه وقد امتصه المشهد كله، ولم يتبين أحد إن كان يحدث نفسه أو يرد على عبد النبي أفندي حين قال:

ـ يا سلام! . . أما ناس صحيح! . .

وأسرع عبد النبي أفندي يلحم الحديث حتى لا ينقطع:

ـ دا لازم خواجه. . مش معقول ده ابن عرب. .

وردت أصوات تقول:

أيوه دا لازم ابن جنية. .

وعقبت أصوات أخرى:

ـ أيوه يا سيدي. . الفرنجة اللي على أصلها بأه! . .

أما تفاحة فقد كان همها طول الوقت مركزاً في إنقاذ الولد . . فقد كانت متأكدة أنه حالا سيغرق في ذلك البحر الواسع الذي لا قرار له. .

ولذلك، وحين لم يسعفها عبد النبي استدارت تقول في إلحاح عصبي ولم تكن تدري لمن تقول:

ـ الله! . . حوشوا يا جماعة! . . هو مافيش خير؟! . . والنبي لـو كنت راجل . .

وكانت الجماعة في شغل عنها بالدوامات الصغيـرة من النقاش التي أخذت تلف وتدور حول القارب، والطفل، وأبويه وأحيانا حـول لـون شعره، والمـلابس التي يرتـديها . . ولمـح الأفندي ابن الحـلال الواقف تفاحة في عصبيتها وذعرها فرمقها بنـظرة فيها سخـرية متنكـرة في ابتسامة ورثاء وقال على مهله:

ـ يا ست متخافيش . . دا الولد بيتفسح . .

وأسعد الرأي الجديد عبد النبي أفندي الذي كان واقفـا لا رأي لـه ولا حول، فـانضم إليه في التـو، وقال مجيبـا على دهشة امـرأتـه واستنكارها:

ـ أيوه! . . أمال؟ . . بيتفسح!! . .

وردت تفاحة على عجل وهي لا تصدق:

ـ ياالهوي . . وأهله سايبينه كده؟ . .

وفي هـذه اللحظة تهلل وجـه الأفندي ابن الحـلال وقـد اشتـد إعجـابـه بمـا يجـري وقـال وهـو يبتسم في تؤدة ويشيـر إلى الشـاطئ الآخر:

ـ أهم! . . أهم! . .

وأقلعت العيون كلها صوب الشاطئ الثاني حتى التقت بشبحين بعيدين ممدودين يرتديان أبيض في أبيض، وفوق رأس أحدهما (إيشارب) أخضر وهما يلوحان بأيديهما، والطفل يلوح لهما هو الآخر بذراعه القصيرة في نشاط وغبطة.

وقال عبد النبي أفندي في جذل أبوي:

ـ دول لازم يا عيني أبوه وأمه . .

وتحدته تفاحة وهي لا تصدق قائلة:

ـ بقى يعني هم سايبينه صحيح يتفسح؟! . .

فرد عبد النبي أفندي وقد أفاق من جذله وأصبح من رأيها:

ـ أمال ايه؟! . . مجانين! . . فرنجه كدب . . ضلال . .

وكانت تفاحة تغلي. فليكن الولد في فسحة أو في مصيبة، ولكن أي أب مجنون هذا؟ . . وأية أم ملحوسة؟ . . وكيف يجلس هذا الشحط ممددا جسده على الحشيش بينما ابنه يكاد الماء يطبق عليه؟! وكيف تحتمل هذا المرأة أن تلوح بيدها للولد هكذا في رقاعة؟! ألا تستحق بالذمة قطع هذه اليد؟.

أهذه مصر؟ وآباء مصر وأمهاتها؟ . .

ـ تفوه علادي بلد . .

قالتها تفاحة وهي تبصق في حقد وشدة محاولة دفع البصقة

حتى تصل إلى الشاطئ الآخر، ولكن الريح الطيب تكفل بردها كاملة غير منقوصة إلى وجه عبد النبي أفندي . . وفوجئ المسكين، وبهت، ولكنه سرعان ما تناول منديله يمسحها، واهتز جسده كله وهو يقهقه ويمزح مع امرأته قائلا :

ـ اخصى عليكي هبلة ماتختشيش . . كدهـه؟ . .

واستدارت تفاحة دون اكتراث لما حدث ومشت وهي تتمتم :

ـ قال ايه؟! . . قال بيتفسح!! . . والنبي لو كان عيل من عيالي كنت دبحته . . أنهي مغفل يأمن على كبده؟ . .

وأسرع وراءها عبد النبي أفندي محاولا أن يهدئ من ثائرتها ولكن غضبها لم ينفثئ وظلت ما تبقى من النهار وبوزها شبرين . .

وعند رجوعها إلى اللوكاندة في سيدنا الحسين وعبد النبي أفندي جالس يراجع الكشف الذي كتبه بالأشياء الواجب شراؤها من مصر قبلما يجيئون، وتفاحة تصلي على النبي مرات لتستطيع أن تتذكر شيئا راح عن بالها أن تمليه، وحين يئست من تذكره، قطعت يأسها قائلة :

ـ أما عجيبة . . صحيح . . اللي يمشي يشوف أكتر . .

واستخلص عبد النبي أفندي نفسه وألقى نظرة على ركاب الترام قبل أن يقول وهو لا يزال سارحا بما في الكشف :

ـ يشوف ايه؟! . .

وأيضا لم ترد عليه، وإنما مضت تحدث نفسها وتقطع الكلمات:

ـ قال بيتفسح قال!! يخي يلعن. .

وفي آخر قطار وهما عائدان إلى البلد مدفونان في زحمته، جاءت جلسة تفاحة بجانب عجوز كانت نازلة في قليوب. . ولم يكن مستحيلا أن يبدأ الحديث. . وغادرت الولية القطار في قليوب وهي الأخرى لا تصدق ما روته جارتها عن الطفل وسنه التي لا تزيد عن الأربع سنين، والقارب والبحر. .

ولما وصلا البلدة والليل قد تأخر، وعلمت أن الأولاد قد انتهزا فرصة غيابها واستحموا كما كانوا يريدون في الترعة، لم تستطع الانتظار فأيقظتهم واحدا وراء الآخر، ولهلبت كلا منهم بعلقة. .

ومع الصباح توافدت النساء يسألنها عن مصر وعن الفاتحة التي أوصينها بقراءتها في السيدة، وعما طلبنه منها ووعدت بإحضاره. . ولم تذكر تفاحة من كل زيارتها إلا حكاية المفعوص الذي طوله شبر، والذي كانت أحيانا تقول أنه غرق أمام عينيها، وأحيانا أخرى لا يطاوعها قلبها فتروي أن مراكبيا أنقذه، وعلى أي الحالين كانت تلعن أباه وتسب أمه. .

ولم يبرح الولد مخيلتها أسابيع طوالا.

أما عبد النبي أفندي فمع أنه كان ينسى كل ما يمر به من حادثات مهما كانت الحادثات إلا أن هذه الواقعة بالذات كثيرا ما

كانت تراوده، وحينئذ كان يتذكر جمال الولد وصفرة شعره وثباته واطمئنانه وثقته، ويده الصغيرة البضة وهي تدفع المجداف، وفي الحال كانت ترتسم أمامه صورة ابنه الكبير محمد، الداخل باسم الله على عامه العاشر، ويده الخشنة الماسكة طول النهار بلقمة العيش المغموسة في العسل الأسود، والعسل يتساقط منها على الأرض وفوق جلبابه وداخل صدره، والذي يضع رأسه خجلا بين فخذيه إذا أقبل ضيف، وما أن يبدأه أحد بالكلام ـ أي كلام ـ حتى يتراجع خائفا، قائلا بصوت كمواء القطط:

ـ يا اما . . ياما تفاحة . .

كانت ترتسم أمامه صورة ابنه فيخطط الدوائر على الدرج الذي أمامه بقطعة الطباشير التي في يده، ويمصمص ضرسه المثقوب بصوت مسموع، ثم يتنهد وهو ينساب في حلم يقظان جميل فيرى محمدا راكبا ذات يوم قارباً وحده عابرا النيل في ملابس بيضاء نظيفة، وقد استوى شعره ولمع، واحمر وجهه وابيض، وهو غير خائف من الماء، ولا مقيم وزناً للبحر العريض.

رهـــان

كان يومها من أيام الصيف الحلال، والطريق الزراعي الطويل ليس فيه ذبابة ولا غراب، والدنيا ظهر، والحر يكتم أنفاس السكون، ويكفن صغار النسمات ويجعل من «غرزة» الشرقاوي جنة وحيدة على جانب الطريق الذي يتلوى بالقيظ والنار.

وكان في «الغرزة» ساعتها أربعة من زبائنها الدائمين، الذين تسرب موسم القطن إلى محافظهم، فجعلها تمتلئ بالبرايز والقروش والخمسات. وكانوا يتحدثون بكلام فاتر ممدود. وفيما عدا هذا كان صالح بائع التين الشوكي يتربع بجانب قفصه، وقد مال فوقه، وغرق في صمت حزين وهو ينش الذباب عن تينه وأحيانا عن وجهه. والشرقاوي صاحب المكان استغرقه الصراع مع النوم وأمامه «وابور» الجاز مطفيا، ولا يصغي إلى فرج، عامل رش الطريق، المتربع بجوار عامود من الأعمدة التي تحمل سقف الغرزة، والذي كان يطلب في إلحاح تتخلله فترات صبر طويلة أن يأذن له الشرقاوي فيشرب على «الجوزة» كرسياً من الدخان.

ودخل القادم الغريب..

كان أعرابيا طويلا ناشف العود، يرتدي قميصا من البفتة القديمة يكشف عن ساقيه اللتين التصق جلدهما بالعظام، وحول وسطه حزام عريض من الصوف يشد ظهره، وفوق رأسه شال في لون التراب، وعقال باهت تقطعت خيوطه، والعرق قد صنع فوق وجهه المدبب بحورا وأنهارا، وعيناه يكاد الدم يسيل منهما. .

ورد الجالسون سلامه، ووضع من فوق كتفه خروفاً صغيرا كان يلهث، وحين سأل عن الماء أشار الشرقاوي إلى الزير المدفون في الأرض. وشرب الرجل كل ما كان في قاع الزير، ثم أخذ مكانه فوق المصطبة وقد انتقل الماء في سرعة من بطنه إلى وجهه. .

ولم تكن الألسنة تستطيع احتمال الغفوة وفي حضرتها غريب وسرعان ما دار الحديث، وعرف الجالسون من أين هو قادم وإلى أين هو ذاهب، وما لبث الاستخفاف أن انزلق إلى الألسنة حين أدركوا أن الرجل لا ناقة له ولا جمل، ولا نقود معه ولا حشيش.

وفي الوقت الذي كان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، كان صالح قد بدأ ينشط، ويكف عن نش الذباب، ويساهم في الحديث بنصيب وافر، ويتغزل في التين وطراوته التي تنزل على القلب فتحييه.

وأصبح صالح وحده هو الذي يتكلم، ولعاب الباقين يتحرك لكلامه. .

واستفتح واحد منه بخمسة (كيزان) واستكثر الباقون الخمسة

عليه، وأهمل هو استكثارهم، وأعلن أنه يستطيع التهام القفص كله . .

وضحك الموجودون، وسألوا (شيخ العرب) عن رأيه وهم يضحكون. وتوقفوا حين قال العربي في صوته المؤدب الخافت: أنا آكل ميه . .

واستكثروا الرقم، بل لم يتصوروا أبدا أن الثور نفسه يستطيع أن يأكل مثل هذا العدد.

وحاوروه وداوروه وهم يسخرون ولكنه أصر على الرقم، وقدم الخروف الصغير ضمانا لكلمته.

وأخرج واحد محفظته وقد قبل الرهان، واستعد لدفع ثمن المائة إذا أكلها الرجل.

وكاد صالح يطير من الفرح وهو يقشر، والعربي يأكل، والباقون في نفس واحد يعدون.

وتحرك فرج من جلسته، ونسي كرسي الدخان، وانضم إلى صالح يقشر معه.

وكان الاثنان لا يلاحقان فم الرجل، وهو يتأوى (الكيزان) واحداً وراء الآخر في سهولة وسرعة وكأنه يقذفها في بئر لا قرار لها.

وحملق الشرقاوي في الرجل وقد غادره النوم إلى غير رجعة، وراح يهمس وهو يعد مع زبائنه ومع صالح وفرج.

وعند الأربعين فك الرجل حزامه . .

وحوالي الستين طلب الرجل ماء، فأسرع الشرقاوي يجري ويملأ الكوب من الترعة . .

وفي التسعين طلب الرجل ماء للمرة الثانية، ودفعه في جوفه ثم تكرع طويلا، وفي بطء وثقة أتى على المائة، وأكل بعدها كوزا آخر من أجل الحاضرين . .

وما أن انتهى حتى ألقى نظرة على وجوه الموجودين التي كلها صمت ودهشة، وانتظر برهة يلتقط أنفاسه. ثم حمل الخروف، وفي هدوء ألقى عليهم السلام ومضى.

وقبل أن يختفي عن الأنظار أسرعت العيون كلها تحدق في بطنه، ثم بدأت الجماعة تستعيد ألسنتها.

وقال الشرقاوي وهو يهز رأسه: ان الرجل من عرب الغرب ولا بد أنه عزم على التين وحضر الجن قبل أن يأكله. قال ذلك وتلفت يمنة ويسرة ثم سمى وهو يبصق في عبه.

وقال صالح: إن في بطنه دودا كان يبتلع التين أولا بأول.

وتنحنح فرج وقال: إن العرب كالجمال لهم معدتان.

وأكد رجل من الذين انتفخت حافظهم أن العربي سينفجر بعد قليل ويموت، وأنهم لا ريب سيعثرون عليه بعد يوم أو يومين طافيا فوق ماء الترعة، أو مكوما تحت الكوبري . .

وكثـرت الأقاويـل، وبعدت التخمينـات والتفسيـرات، وكـادت تنشب معركة . .

أمـا الرجـل فقـد مشى في الـطريق، وبـدايـات المغص تلـوي أحشـاءه وكل مـا يهمه أنـه تغذى، وسـكتت عنـه ولو هنيهـة مسـاميـر الجوع، وليكن بعد ذلك ما يكون.

٥ ساعات

كنت أجلس على المقعد ذي المسند العالي، وأمامي المكتب المتهالك وقد ملأه الأطباء الذين عملوا قبلي بأسمائهم التي حفروها عليه، والحجرة قديمة قدم القصر العيني، وكل شيء فيها قد رأيته مرات ومرات حتى ارتويت. كل شيء حتى بقايا القطن والشاش والدماء الجافة المتناثرة فوق الأرض، والترمومتر المكسور الذي وارته الممرضة لتوها في ركن الغرفة.. كل شيء حتى الأنات الصادرة من الكمساري الراقد هناك وقد انتهيت من إعطائه حقنة لم تستطع بعد أن تخدر المارد الجبار الذي كان يعتصر كليته.

وفجأة.. دق جرس الإسعاف..

دق في قصر مرتفع مبتور..

ولهذا الدق عند كل الناس معنى، معنى يحمل في طياته رهبة تشرخ قلوبهم، ورعشة تنتفض لها أعصابهم، فإنه يعني إنسانا يموت أو سيموت. أما عند الأطباء فإنه يحمل في طياته عملا، ويبعث في تفكيرهم بالخيط وقد لضم في الإبرة، والجلد وقد تعقم، ورائحة

المخدر وقد تصاعدت مختلطة برائحة صبغة اليود، وحشرجة إنسان يتعذب. .

ودق الجرس مرة ثانية. .

وتوقفت، وتوقف التومرجي عن سرحانه، واستدار ليلقي ببقية سيجارته خلسة، ثم عاد ينظر إليَّ من جديد وقد زال الحرج الكثير الذي شعر به طيلة أنفاسه المختلسة.

وسادت فترة صمت كنا نتسمع خلالها عويل عجلات (الترولي) وهو ينساب قادما إلينا عبر الممر الطويل.

ودلف رجل الإسعاف إلى حجرة الاستقبال، وقال وهو يكاد يلهث:

ـ حالة ضرب نار يابيه! . واحد ضابط اغتالوه في الروضة!

ضرب نار! . . ضابط! . . اغتيال! . .

لم أعد نفسي حينئذ لصبغة اليود وماسك الأبر والخيط، فقد اختفى من شخصيتي تماما عامل الحياة، وطفحت تلك الكلمات القلائل فوق ذهني يدفعها بركان يخترنه شعوري عن الاغتيال والظلام وضرب النار.

وقبل أن أستعيد نفسي، انساب (الترولي) إلى الحجرة في نفس اللحظة التي مزقت فيها سكون المستشفى كله صرخة مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا.

وغادرت المقعد في لهفة وانكببت على الجريح أراه وأرى النار التي أتت عليه.

والحق أنني لم أر ما حدست رؤيته، فقد كان الرجل يرقد في ثقة وقد أسبل عينيه وشبك ذراعيه فوق صدره وزم شفتيه واسترعتني ملامحه.. كانت فيها مصرية.. مصرية من ذلك النوع الذي يوقظ فيك مصريتك ويجعلك تعشقها من جديد. وكان أسمر.. تلك السمرة التي إذا ما تمعنت فيها وجدت في صفائها تاريخ شعاعات الشمس المجيدة التي صنعت الحضارة على جانبي النيل. وكان شاربه الأسود الكث يلون تلك السمرة، وتشف منه رجولة.. رجولة تبعث القشعريرة في الرجال.. وكان جسده صلبا شاهقا، وعنقه ممتلئا غليظا كان يضج بالحياة والفتوة.. ومع هذا يقولون مضروب بالنار.

وقفت أحدق فيه ولا أتحرك، ولم أعد إلى نفسي إلا حين هم بالكلام، إذ ملت عليه ألتقط الكلمات، وإذا بي أقول في صوت متنكر هامس:

- ايه؟!.. قتلوك؟!..

ومضى في نفس صوته المملوء المنخفض الرنان يقول:

- قتلوني.. في الضلمة.. ضربوني بالنار.. هنا.. في ضهري..

وسألته وأنا ملسوع دهش:

ـ مين.. مين هم؟!..

فقال وهو مسترسل بنفس صوته الذي كان يجذبني إليه بقوة وعنف:

ـ المجرمين.. ورئيسهم.. العصابة.. كلهم.. أولاد الكلب..

ثم توقف لحظة، وحدق بعينيه السوداوين الواسعتين وكأنه يخترق سقف الحجرة إلى ما وراءها من سماء:

ـ كده يا فاروق.. تقتلني؟!..

وتلقف الواقفون كلماته.. وسرت الهمهمة من داخل الحجرة.. إلى الخارج.. إلى الشارع.. إلى البلد كله.. إلى التاريخ.

وأحسست بنفسي أنفعل وكأن نارا قد شبت فيَّ. كنا أيامها تحت حكم فاروق.. وكانت هناك أحكام عرفية.. وكان الظلام والسخط يخيم على مصر ويعشش في قلوب الناس.

وكان لا يحمل إليّ إلا ضحايا العربات وعجلاتها، وصرعى الترام، وعتاة المتشاجرين، وكان ذلك أول جريح أراه مضروبا بالرصاص..

ولم أعد أتمالك نفسي..

تناسيت أني طبيب، وتناسيت ما عليَّ من واجب، ولم أعد

أفكر إلا كمصري يختنق بالظلم ثم يرى الظالم صرع أخاه.

وغمغم الرجل المسجى أمامي . .

كان وجهه يصفر ويصفر، وكانت تقاطيعه المفتولة تتراخى تحت وابل من نقط العرق الصغيرةوهي تتجمع فوق جبهته وعلى وجنتيه كقطرات الندى تتجمع على زهرة تذبل. وتلمست جسده فوجدته باردا . . ولم تكن برودة الثلج . . إنما كانت برودة ممر طويل في نهايته الفناء والضياع , .

وقفزت إلى ذهني في قوة الانفجار تلك الكلمة التي طالما استبشعتها:

ـ صدمة! . .

نطقت بها غير شاعر أني أنطق، ومددت يدي أتحسس ذراعه مرة أخرى لأرى نبضه، وصدرت من بين شفتيه التي كانت قد ازرقت تماما أنة طويلة عميقة تعوي وتتلوى. وجمدت يدي مكانها . .

ـ آخ . . آه . . دراعي . . دراعي مخلوع . .

والتقط بضع أنفاس لاهثة . .

وكنت أعرف الألم الذي لا يطيقه بشر حين تتحرك الذراع المخلوعة، إنه الألم الذي يصدم، ويقتل، ويميت. ومع هذا فقد

كان عليَّ أن أرى الإصابة، وكان عليَّ أن أديره، وأوقفت شعوري، وأوقف الرجال الموجودون أنفاسهم ورنات آهاته وآلامه تخرسنا جميعا.

واستقر بصري على أربع دوائر سوداء وحولها ظلام الجلد المحترق. وكنت أعرف ما يؤدي إليه السواد والظلام.. فقد كان يؤدي إلى ثلاث قطع محمية من الرصاص استقرت داخل الصدر، وقطعة نفذت واخترقت الرئة وسال من منفذها الدم!

وقلت وكأنني أستنجد بشيء غامض ولكنه قادر:

ـ الإسعاف السريع!..

كان في هذه الكلمات، إذا احتاج الأمر أن أقولها، ما يرد لهفتي دائما ولهفة المريض في بعض الأحيان، وهرج التومرجية والممرضات في كليهما.. كان فيها معنى النجدة.. كانت تصور لي ظلام الريف الواسع المفتوح، وإنسانا يستغيث في لهفة راجفة، فإذا بلهفته ترد إليه، ورجفته يعقبها طمأنينة، حين يسمع من بعيد، ومن أغوار الظلام، ذلك الصوت المغيث، تردده فتحات الفضاء:

ـ جايلك يا واد.. جايلك..

* * *

وعلى نفس السرير الذي مات عليه عبد العليم الطالب الصغير الذي أصيب بخبطة هوجاء في رأسه أثناء المظاهرات، والذي مات عليه صديق ابن العربجي الذي مرت فوق صدره عربة أبيه فتهشمت

ضلوعه، والذي مات عليه شعبان وصالح وعبد اللطيف ومحمد. .
على نفس هذا السرير رقد عبد القادر الجريح وحوله أسطوانات الأكسجين، وأجهزة نقل الدم، وأوعية الماء الساخن، وطلاء الحجرة الأبيض الناصع، وأزيز غلاية الماء، وحفيف البخار المتصاعد، ومجموعة من الأطباء، وممرضة، وصمت ترعشه أنات عبد القادر.

وما كادت آخر قطرة من أول لتر من الدم تأخذ طريقها إلى قلبه حتى اختفت قليلا تلك الصفرة التي علت وجهه، وخفتت حركات عينيه حتى تركزت حدقتاه عليَّ، وظل يحدجني ببصره طويلا كالذي يتحفز لفعل شيء دون أن ينطق بحرف. وعجبت لهذا التحديق، ثم زاد عجبي وأخذت دوائر صغيرة من القلق تنداح في صدري. .

وفي اللحظة التي بدأ الخوف يأخذ طريقه فيها إليّ تحركت شفتاه، وتغيرت ملامحه، ثم استقرت تقاطيعه على ابتسامة كانت أجمل ما رأته عيناي ليلتها. .

ولست أدري ما ارتسم على وجهي لحظتها، فقد أحسست بفرحة غامرة دق لها قلبي.

وطالت ابتساماتنا، وامتدت، وحتى قلت له وكأنني أقولها متأخرا جدا:

ـ ازيك؟. . ازيك دلوقت؟. .

ونطق بهمسة لاهثة:

ـ أحسن . . أحسن كتير . .

وشيئا فشيئا بدأت ابتسامته تتلاشى وراء غيوم . ثم اختفت، وأظلمت ملامحه، وتقاربت تقاطيعه، وانطلقت من سواد عينيه أشعة تبرق . فقلت وأنا قلق :

ـ مالك؟! . . فيه حاجة؟! . .

وتوترت أنفاسه اللاهثة واندفع يقول كالذي يخنقه كابوس :

ـ أيوه . . عليّ . . عليّ . . الندل . . يجرني للضلمة . وأنا صاحبه . . صاحبه . . الخاين . . بس لو أروق له؟ . . وأروق لهم؟ . .

وتعبت تقاطيعه، وخفت البريق، وأصبح سواد عينيه أكثر سوادا، وتلألأت فجأة تلك القطرات الصغيرة الشريرة من العرق على جبهته وعلى وجنتيه .

ولعل الابتسام هو ما كان يحاول فعله فلا تطاوعه قسماته حين قال في صوت خافت غير مهتز :

ـ ميه! . . عاوز أشرب! . . عطشان! . .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة أمدها إليه بقطعة القطن وقد بللتها بالماء لأمسح بها شفتيه ولسانه . وطاوعته القسمات في النهاية فابتسم وهو يقول :

ـ متشكر . . متشكر يا دكتور . . كمان . . كمان . . عطشان . . يا ناس . . عاوز أشرب . .

وكانت يدي أسبق من يد الممرضة لتمنع عنه الماء هذه المرة.

وسمعت نقرا على الباب. وحين فتحته وجدت الممر الطويل يضيق بالناس والهمسات والتوجس. واندفعت العيون نحوي ولمحت في كل العيون تساؤل.. ورجاء.. رجاء في أمل.

ودخل كاتب الاستقبال، صامتا على غير عادته، ولا تستقر نظراته كالذي يبحث عن شيء ونسي ما يبحث عنه. واتجه إلى الركن الذي وضعنا فيه أشياء عبد القادر.. بذلة في ظهرها ثقوب.. وقميص أبيض لا تهتم لبياضه بقدر ما تقشعر للدائرة الحمراء البشعة على صدره الأيمن.. وعلبه فيها ثلاث سجائر.. ومنديلان.. وقطعة حلوى.. وحافظة نقود فيها فوق ما فيها من أوراق صورة قديمة تثنت حوافها لطفل صغير.

وتلكأ الكاتب قليلا بعد أن انتهى من مهمته، ودار ببصر ذاهل في أرجاء المكان، واستقرت عينه بعد تردد على عبد القادر ثم غادر الحجرة تاركا خلفه أصداء همهماته المكتومة.

وأغلقت الباب..

* * *

وكان الوقت قد تأخر، والمصابون الذين يتطلبونني قد انتهوا وأو كادوا، والليل قد عم أرجاء المستشفى، والظلام في الخارج واسع واسع لا حدود له، والنور في الداخل ساطع يلمع له كل شيء، والغلاية تزن، والممرضة تتثاءب، والتومرجي واقف قد ألصق

ساقيه بحافة السرير، والهواء أصبح لزجا ثقيلا . .

وأحسست أول الأمر أن أشياء كثيرة حولي تلهث . .

ثم شعرت بالحجرة كلها تزفر وكأنها رئة محموم . .

والتفت حول قلبي أصابع رفيعة غامضة وشددت قبضتها .

ووجدت نفسي أقف، وأتمشى في الحجرة، ورفعت «كوبس» الغلاية، وأعدت برباط «محلول الملح» وما كان في حاجة إلى رباط . .

ومع هذا بقيت الحجرة كلها تلهث كرئة المحموم . .

وعلى حين بغتة عرفت ما حدث . .

ووقفت أرقب صدر عبد القاردر الصاعد الهابط وأتمعن فيه وهو يجاهد ليستخلص الهواء فتتقبض كل جارحة من جسده، ويصبح وجهه كالقمر المخنوق، ثم يناضل ويتألم وهو يناضل، حتى يدفع القليل الذي استخلص ويستعد للأقل الآتي . .

كان يتنفس وكأنما حجر ضخم يجثم فوق صدره ولا يستطيع منه فكاكا . .

واحتار السبب في رأسي قبل أن يجد الجواب . .

وأملت نفسي قليلا أرى الجانب الأيمن . .

ورأيت الدم . . الدم لا كما اعتدت رؤيته يلون جرحا أو يخضب رأسا وإنما الدم المندفع في نافورة حمراء وقد أغرق

الملاءات وشبعت منه المرتبة ومضى يتساقط عبر حديد السرير الأبيض نقطة وراءها نقطة، وسربا وراءه أسراب . .

لقد بدأ النزيف . .

وبحثنا جميعا عن كل ما استطعناه من قطن وشاش نكتم به الدم المتصاعد الوهاج .

واحمر القطن الأبيض وامتلأ . واعتصرناه ثم وضعناه فعاد يمتلئ ويتسرب منه الدم بإصرار وعمد إلى أرض الحجرة .

وأفلحنا أن نسد الثقب المتربص تحت الثدي الأيمن كالعدو المبين . . وألصقنا عليه المشمع طبقة فوقها طبقة . ولم أثق في المشمع فوضعت يدي فوقه أكتم بها النزيف .

ووقع بصري على يدي، فوجدتها كلها دم جف وآخر لم يجف .

ولم يكن هذا أول دم أراه، كانت رائحة الدم تملأ أنفي دائما منذ أن عملت في الاستقبال، الرائحة التي لها دفئه . . الدفء الخالق القابض، والتي تلمح خلالها زفارة كعفن الموت . . الرائحة التي تذكرك بالمذبوحين والمبقورين ومن في صدورهم سل . .

ولكن في تلك الليلة، كنت كلما رأيت دم الجريح المغتال يجف فوق يدي، وينكمش حين يجف، كلما أوغلت في تأملي للجريح الذي لا بد كان رجلا ككل الرجال . . نمى من طمي وادينا . . ومضغ قمحنا . . وارتدى قطننا . . وصنعت أذرتنا خلاياه . .

وكلما أوغلت في تأملي!، كلما هممت أستعيد ما فات، وأرى الأجداد والآباء والشهداء الذين لهم أسماء فوق الرخام، والشهداء الذين بلا أسماء ولا رخام، وأرى الناس ونفسي، وكل من له عرق، وكل من له خال، وكل أولئك القانعين بالألم.

أهيم ثم أعود إلى يدي التي فوق صدر الجريح.. إلى الأصابع التي تحاول عبثا أن تمنع موتا جديدا.. وأي موت؟..

عدت مرة لأجد اللاصق الذي وضعته قد انتزعه الدم الساخن المتصاعد، والنافورة قد بدأت..

وضغطت يدي، وأجلت بصري أراقب بقايا الزجاجة الخامسة من الدم وهي تسيل من الجهاز إلى شرايين الجريح، وتدفعها الشرايين إلى الثقب الذي ما كانت يدي تستطيع أن تفلح في سده، وينتهي الدم إلى خيط النقط الغليظ وهي تتساقط على أرض الحجرة الصلبة.

وفرغ كل ما في المستشفى من دماء صالحة.

ولم يفرغ الدم المنبثق.

وكنت وزميل جاء يساعدني تتقابل نظراتنا ثم تتباعد لتغيب عقولنا..

وكان لا بد من دم آخر..

وانتهت دورة الزميل على مستشفيات القاهرة كلها وقد عاد

بلتر واحد. . آخر لتر من الدم في البلد. . وآخر ما نتعلق به، وقد يئسنا، من الأمل.

وكنا قد يئسنا. .

فصدره الصاعد الهابط كان قد بدأ يخرخش، والفقاقيع التي تكونت في كرات حول فمه، وسمرته أخذت مكانها رمادية لا تمت إلى الأحياء.

وكثيرا ما رأيت أناسا. . ورأيت جرحى. . ورأيت جرحى يموتون. . ولكن كان صعبا على أن أصدق أن عبد القادر سيموت. وكان قد أقبل في أول الليل فما أحسست أن في صدره رصاصا. وقضيت بجواره ساعات. . خمس ساعات. أسمع حديثه اللاهث. . وأرى فتوته تنكمش وتنكمش، والعملاق الذي كان يضمر ويضمر، وجسده الذي كان قد ابتلع الجروح فما ظهر لها أثر، وأصبح كل ما فيه الجروح. . وكنت أكثر الوقت معه وحيدا. . وكان هو خائفا من الموت. . وكنت خائفا عليه. . وكان كلانا عنده أمل. وكنت أستمد أملي من الزجاجات والمورفين وحمام الكهرباء، وكان يستخلص أمله من أملي، ويناضل وهو يستخلصه كما يقاتل وهو يستمد الهواء.

وكان يقول لي في أول الليل: يا دكتور، وكنت أقول له يا كابتن، ثم ناداني باسمي وناديته باسمه. . وكأن الوقت يمضي. . في بطء ثقيل. . وكانت الأحداث كثيرة. . تكاد تستغرق عمرا بأكمله. . وكنت أحس طوال العمر الثقيل أنه مضروب في ظهره، وأنه مغتال،

وأنه مظلوم، لأننا كلنا مظلومون . .

وما كنت وحدي الذي حدث له هذا . .

كنت والممرضة والتومرجي قد ألف بيننا ذلك العمر، وهدتنا الخمس ساعات، وصاحبنا عبد القادر في رحلته فعزت علينا الصحبة، وأصبحنا كالأسرة الواحدة ذات الجرح الواحد.

وكان اليأس هو أمض ما نستطيع ابتلاعه . .

وكان اللتر الأخير الذي جاء به الزميل أهم حدث في ليلتنا.

ورحنا نعالج وضعه وإحكامه بحرص، ونكل في البحث عن وريد نضع فيه إبرة، وقد اختفت كل الأوردة، فلا تومرجي أو حكيم، إنما مجموعة من البشر تكافح من أجل إنسان . . إنسان قد أصبح عزيزا علينا . .

وسرى الدم الجديد . .

وتقاربنا حول الفراش نرقب النتيجة، ونخفي وجلنا ونحن نرقب رجلنا وهو يئن بلا فم ويتلوى ويرفع ساقه ويدفعها، وتنقبض أيديه وتنبسط بقوة، وجسده يصارع النزيف الداخلي.

وهدأ الجسد بعد هنيهة، واستمر الأنين الخافت المتواصل الأنين الذي يثير فيك كامن أشجانك فتذكر كل ما مر بحياتك من أحزان، وتبكي على كل من مات.

وحدسنا أن الأزمة قد مرت، والدم الأخير قد أفلح .

ولكن كان الهدوء الذي ساد جسده لا يطمئن. وكان الخرخشة التي في صدره تزداد حتى أصبحت كأصوات المنشار وهو يغور في الخشب.

وكانت الساعة تبتعد عن الثالثة..

وفجأة.. توقفت أنفاسه.. واشرأبت أعناقنا.. ولكنه عاد يفتح شفتيه ليبصق ملء فمه.. دما أحمر.. نفس الدم الذي كان منذ هنيهة في الزجاجة.

واحمر القطن من جديد وهو ينضح الدم.

وتباعدت أجفانه التي كانت مسدلة من أمد بعيد، وسقط الضوء على عينيه وهما تحدقان في لا شيء، وتحدقان في ضعف وكأنهما لا تريان شيئا.. تباعدت أجفانه، وانساب من حلقه صوت لا يكاد يسمع وهمس:

ـ ميه.. عطشان..

وبللت فمه بالماء.. بل أقول الحق جعلته يرتشف ما شاء من كوب الماء المثلج الذي أحضرته له.

وفتح فمه بعدها مرة، ومرة، ومرات ليبصق الدم.

وأصبح الجرح الذي في جانبه أوسع من فمه، وما يجيء منه أغزر..

ثم راح في غيبوبة..

ورحنا في صمت . .

وتلفت حولي لأجد الحجرة قد وقف ما فيها من هواء، ومصابيح النور حولها دوائر لها ألوان . . والجدران تردد حشرجة أنفاس تتباعد وتطول . . والوقت أبطأ من بطئه حتى لكأن بين الثانية والثانية عام . . وزميلي يكاد يقف على أطراف أصابعه وقد أمسك بالسرير وسمر عينيه على زجاجة الدم . . والممرضة راحت عيناها تعدو بين الفم الذي أصبح كالجرح، والجرح الذي أصبح كالفم، والتومرجي قد أمسك بمفتاح أسطوانة الأكسجين واستمات عليه .

كنا جميعا نتحفز ونستعد. كنا نحس بشيء غامض مخيف يحوم حولنا. وكانت قلوبنا وسواعدنا وعقولنا متشابكة متلاحمة تحاصر رجلنا وتمنع عنه الحائم المخيف.

وتباعدت الثواني ، وضاقت الحجرة، حتى ما عدنا نستطيع التنفس . .

واندفعنا نحوه كما نقذف بأنفسنا في خضم البحر لانتشال غريق . . وتصببنا مياها ونحن ندفع الهواء إلى رئتيه، ونخترق صدره بإبرة طويلة حتى تصل إلى قلبه فيحركه العقار، وننفخ في الزجاجة ليذهب الدم جميعه مرة واحدة إلى عروقه، ونفتح أسطوانة الأكسيجين على آخرها ليعلو صدره . .

وحاربنا عدواً قوياً لا نراه . .

كنا نكز على أسناننا ونبذل طاقاتنا كلها ونحس أننا نستطيع دك

الجبل، وهز السماء وإرجاف الأرض. .

ولكن الحقيقة كانت تلاحقنا. .

وخفنا أن نصدق، ورحنا نراوغها ونسابق بعضنا بعضا في المراوغة والهروب. . ونسرع في اعتصار أنفسنا، وضم قوانا ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة. .

وجاءمنا من الركن نحيب الممرضة المكتوم.

واقشعرت أجسادنا من النحيب وانتفضنا نبذل ما في وسعنا من جرأة اليائس ومقدرته.

وعلا نحيبها فأصبح كدوي الطبول.

ودفع التومرجي أسطوانة الأكسجين جانبا، وارتمى فوق عبد القادر وهو ينهنه ويبكي، ويقتلع النفوس ببكائه الرجالي الخشن ويقول:

ـ آه يا حبيبي يا خويا. .

وأفقت على قول زميلي والدموع تغص حلقه:

ـ البقية في حياتك. .

وتسربت إلى نفسي من خلال كلماته تلك اللحظة التي نعرفها جميعا، والتي نحس فيها أننا أوهن من الضعف، وأتفه من العجز، وأننا مضيعون. تلك اللحظة التي لا نملك معها إلا البكاء فيحملنا البكاء إلى بكاء.

وجال بخاطري أن أعانق زميلي وأضم ما في صدري إلى ما في صدره وأخفي ما أحس به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، أخفيه فيما يحس به من خجل..

ولم أفعل. بقينا بلا زمن، راجين، نتأمل الرجل المسجى. وتحز الخسارة في قلوبنا، وأعيننا ثابتة في مكانها لا تغادر وجهه الوديع الذي كان يلمع بالعرق.. آخر عرق.. وملامحه التي استراحت في هدوء دائم.

وحين واريناه تحت الغطاء كان الشك في موته لا زال يملأ منا النفوس..

الأمنيــة

كان (البرعي) يتساءل في غبطة وحيرة عن الوجه المليح الـذي طالعه فـي ذلـك الصباح، فمـا كان يعتقـد أبدا أن اللحـظة التي داخ وهو ينتظرها قد تأتي هكذا فجأة وبمثل السهولة التي جاءت بها.

ومع أن «أوضة» التليفون كانت خالية تماما، ودوار العمدة ليس به إنس، والخفير ذهب يفطر وأوصاه بـالحجرة خيـرا، مع هـذا كله، خاف أن يراه أحد، فأطـل برأسـه من الباب، ونـظر هنا وهنـاك، فلم يجـد إلا قـوافـل الأوز والبط وهي تـروح وتنقنق وتجيء في الشـــارع الضيق، وديكين نـافرين يتعـاركان، وكلب ابن عمـه الأجـرب راقـــد يتصيد الذباب على مهل مطمئن.

وروارب البـرعي الباب، ولف حـول المائـدة الكبيـرة الـوحيـدة بالحجرة وقد تشقق سطحها وامتلأ بدوائر الحبـر السوداء. ولم يتـردد وهو يجلس على الكرسي المتهالك الذي سقط معظم خيزران قاعـه. وضايقته الجلسة حتى اضطرته أن يعقص ظهره إلى الوراء كثيرا، وأن يمد رجليه الحافيتين تحت المائدة.

وذكرته جلستـه التي لم تخل من عـظمة بـالشيخ عبـد المعطي

عـامل (التـلافون) وهـو قاعـد على الكرسي، وقـد وضع رجـلا فوق الأخرى، وخلع العمامة عن صلعته التي لها نعومـة الخيار، وأسنـدها إلى دفتـر الأحـوال القـديم الـذي صنـع لـه جلدا من ورق اللحمـة الأصفر. .

ولم يسترسل البـرعي في سرحـانـه، فـالأمنيـة كـانت تلهبـه، وصندوق «التلافون» المثبت في الحائط أمامه كـان يجذبـه بمغناطيس لا يستطيع مقاومته. وهز البرعي رأسه في غبطة فلا شيء الآن يحـول بينه وبين رغبته، ولا أحد موجود في الدنيا كلها إلا هـو و«التلافون».

وتمطى في دلال وهو يقف، واقترب من الصندوق، وتملى فيه بـرهة، ودقق في سلكـه الفيراني الـطويل وهـو ينتهي في الزجـاجتين المملوءتين بشيء غريب.

ومد البرعي يده في قليل من الوجل ونقر على الصندوق. وكاد يضحك وهو يتوقع أن يرد واحد من داخله ويقول: مين. وابتسم وهو يرجع إلى أيام بلاهته وصغره حين كان يسميه «اللفلفون»، ويعتقد أن في داخله بني آدم صغير أوضعته الحكومة ليكلم الناس.

ولم يضيـع وقتا أكثر من هذا في السخـرية بنفسـه وإنما مضى يلمس على الصندوق الناعم، ويتحسس البوق الذي يبرز من مقدمتـه كما تبرز شفاتير حسن العبد، وتصل أصابعه إلى الأجراس الموضوعة كأجراس العجلات، فينقر عليها بأظـافره، وتنحـدر يده إلى السمـاعة المعلقـة بجانب الصنـدوق، فيلف قبضته حـولهـا، ويمـر بيـده فـوق

الحبل الذي يتدلى منها، ويمل هذا، فيرتد إلى الناحية الأخرى، ويلعب بيد التلافون الحديدية السوداء، ويكاد يديرها . .

وقبل أن يفعل شيئا آخر، اتجه إلى الباب، واطمأن من جديد إلى خلو الطريق، وعاد إلى التلافون، وأمسك السماعة بقوة، ثم رفعها قليلا قليلا في حرص شديد. واستغرب حين وجدها ثقيلة كرطل الحديد، وكلما ثقلت يده بها، دق قلبه، وسال العرق من يده، ونسي الابتسامة التي لا يدري متى علقها فوق وجهه.

وأصبحت السماعة أخيرا في حوزة قبضته بعيدة عن الصندوق فقلبها على ظهرها وبطنها أمام عينيه، وأعجبه الثقب الذي في أسفلها، ووضعها تحت طاقتي أنفه وشمها، فلمح فيها رائحة عرق الشيخ عبد المعطي التي يعرفها جيدا، وتعرفها معه كل بلدهم ميت غنيم . .

ثم . . ثم وضع السماعة فوق أذنه حتى التحمت بها، وحملق في الحائط الذي تساقط طلاؤه وهو يسمع هديرا عجيبا كدوي وابور الحرث البعيد. وبعد أن زالت صدمته الأولى تسربت إلى أذنه من وسط الهدير أصوات كنقيق الضفادع، فكز على أسنانه، ونقل السماعة بسرعة إلى أذنه الثانية، وكتم أنفاسه حتى لا يفوته شيء.

وانتشى . .

فقد استطاع بعد جهد إن يميز صوتا يقول: أيوه يا سيدي، وأصوات كثيرة أخرى ترد عليه، ثم تبعد كلها، وتختلط، ولا يربطها

في رأسه إلا دوي وابور الحرث الذي بدأ يدير رأسه، ولا ينعشه إلا صوت رفيع ممدود يقول بين الحين والحين: ألووه . . يا أخينا ألوووه.

وتبين بعد عناء كبير، وبعد أن تلاحقت أنفاسه وابتلع ريقه مرات أن نقيقا يقول من بعيد جدا: يا مركز. فيرد عليه آخر له بحة كحشرجة أم سليمان.

وما اهتم البرعي بمسألة في حياته قدر اهتمامه بمعرفة كل ما يقولون فأمسك السماعة بكلتا يديه وضمها بشدة إلى أذنه.

وكاد يقهقه وكأن الأصوات تزغزغه، وأحس أنه سعيد، وأنه يستطيع عمل أي شيء، وأنه هو الآخر ممكن أن يمط صوته، ويطيل عنقه، ويقول:

ـ يا مركز. .

وقالها فعلا في سره، ثم همس بها بينه وبين نفسه، وكأنها الفاتحة يقرؤها.

وحين اطمئن إلى أن حادثا لم يحدث بعد همسه، اجتاحته نوبة عاتية من الجرأة السعيدة، وزعق وقال:

ـ طب هه. . يا مركز. . يا واد يا مركز. .

وكما تقرع طبلة السحور، وجد أذنه يخرقها صوت أجوف عال تبين بعد وقت أنه يقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وشعر أنه وقع، وأصبح قلبه في أطراف أقدامه، وسقطت طاقيته فلم يعبأ بها.

ومأماً وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة

ومأماً وفأفأ وأذنه قد ماتت على السماعة التي تطبل كل لحظة وتقول:

ـ أيوه يا ميت غنيم . .

وأصبح لا شيء في عقله، ولا شيء على لسانه إلا أن يردد مرة أخرى:

ـ يا مركز . .

فيجيئه الجواب غاضبا:

ـ أيوه يا جدع . .

ـ يا مركز . .

ـ أيوه يا محروقة يا ميت غنيم . .

ـ يلعن . . يلعن أبوك يا مركز . .

قالها، ورمى السماعة بقوة وهو يحس بكل ارتياح . .

ثم اندفع إلى الخارج كالريح .

أم الدنيـــا

كان مطعم الدرجة الثالثة في آخر عشاء يسوده جو غريب، ومع أن الضوء كان قويا باهرا، ودقائقه تتساقط في عدد لا نهاية له على كل شيء فتبدو وجوه الجرسونات الحليفة الناعمة، والمفارش البيضاء والملاعق، والأكواب الزجاجية النظيفة، تبدو كلها لامعة أنيقة وكأنها طليت بماء النور . .

مع هذا إلا أن المسافرين كان حديثهم همسا خافتا، يدور معظمه حول الوصول إلى الإسكندرية في الصباح الباكر، ثم نهاية الرحلة بعد الظهر في بيروت، وكان بعض الحديث يدور حول البحر ودواره وصرعاه في اليومين السابقين الراقدين لا يستطيعون التحرك أو حتى العشاء . .

وأثناء الهمسات والابتسامات كان كثير من المسافرين يجولون بأبصارهم في أرجائه، ويودعون كل شيء بأعينهم ويودعون بعضهم بعضا وقد أحسوا بلذعة إذ سيتركون وجوها قد اعتادوا عليها وألفوها . . بل بدا الجرسونات أكثر ورقة، والناس ينادون بعضا منهم

بأسمائهم وقد عرفوها، ويتبادلون معهم فكاهات سريعة وهم يـوزعون الطعام . .

وكان المسافرون أنفسهم خليطا متنافرا . . بعضهم سـائحون . . وبعضهم أجانب عائدون . . ولبنانيون . . وأروام .

ثم كـان هناك بعض مصـريين . . سبعـة من المصـريين الـذين جمعتهم الرحلة ولا شيء سواها . .

وصحيح أن الرسام العائد من إيطاليا والذي كان جالساً في ركنه المعهود يمضغ الطعام على مهل تائه لم يكن يبدو عليه أنه مصـري، إلا أنه كان كذلك، بـل من حي الحسينية بـالتحديـد. وكان في آخـر عشاء أيضا لا زال منطويا على نفسـه، ولا زال يحدق في الفتـاة التي خلبت لبه وجعلته يمضي الأيام الأربعة التي استغرقتها الرحلة يلتهمها بنظراته، ويراها، وكمـا رآها أول مـرة، أجمل فتـاة في الوجـود، فلم تقع عينه أبدا على شبيه ولو من بعيد لذلك الجمال . . جمال الجهـاز الدقيق، الرائع الدقة، الجمال الـذي ليس فيه وجـه كالقمـر، وعينان مثـل عيون المهـا، وشفتان كـحبـات الكريـز، وصدر بـارز، وسيقان ملفوفة، وإنمـا ذلك الجمـال الذي لا تنبـع الروعـة من أجزائـه مهما بلغت من سحر، إنما هو كاللحن المـوسيقي الفريـد، بحس الإنسان بما فيه من عبقرية إذا اسمع إليه كله، واستوعبه كله وعاش فيه .

هكذا رآها أول مرة . .

وهكـذا أحس بهـا، ثمينـة في دقـائقـهـا ، حتى ليخـاف على

ملامحها من نظراته، رائعة في كلها، حتى لتروي ظمأ البشر أجمعين إلى الجمال.

وثيابها كانت بسيطة.. بل كان الجمال في بساطتها، بنطلون واسع وبلوزة، وحول عنقها إيشارب بنفسجي عقدته في إهمال بسيط مثير، كان يعبث به الهواء فيتطاير، ويبهت لونه، ويتلاشى وكأنه يستحيل إلى عطر وبنفسج..

ولم يكن أول ما وضع قدمه في الباخرة يحلم برؤيتها، بل ما كان يفكر حتى في دخول المطعم ولا العشاء، كان يومها مثل بقية المسافرين يحس بالانتقال المفاجئ من المدن والجبال والشاطئ إلى البحر والطبيعة الجديدة التي احتوته ولهذا كان يشعر بقلق غامض يمور في صدره ويدفعه للبحث عن شيء لا يدري كنهه، فراح يجوب الباخرة، ويقف ولا يدري لماذا يقف، ثم يسير ولا يدري أين يسير، ويتفرج على كل شيء. حتى على الفرشة التي ينظف بها البحار ظهر الباخرة، ويفكر في كل شيء ..حتى في شيال محطة نابولي الذي لا ريب قد استغفله، ويتلكأ ليسمع حديث البحارة الايطاليين، وتعجبه نغمة دقات العشاء وهي تخفت وتعلو وتبتعد، ويذهب هكذا وبلا إرادة إلى المطعم وهناك يراها، وحينئذ يدرك كنه ما ظل يبحث عنه، ويحس بالقلق الغامض يهدأ ويصبح كالراحة الأبدية في صدره.

ولم ير شيئا سواها طيلة الأيام الأربعة، وقنع بالتحديق فيها من بعيد لبعيد وهو يحس بها إحدى معجزات الكون، وينتشي برؤيتها، كما ينتشي برؤية السحاب المضيء، وأنوار القرى المبعثرة

على جـانبي مضيـق مسينـا وهي تبـرق في الليـل كـنجـوم الأرض، والبحر العميق الذي لا يهجع.

لم يحاول حتى أن يعرف اسمها، ولا من أين جاءت أو مع من تقيم. ورآها ترقص (الدبكة) مع اللبنانيين وسمعها تتحدث بالفرنسيـة مـرة والانجليزيـة مـرة أخـرى وأحب انجليـزيتهـا تمـامـا مثلمـا أحب الفرنسية وهي تنساب في رقة من بين شفتيها.

وظل يعبدها هكذا بنظراته إلى آخر عشاء..

وبينما الرسام في هذا كان هناك مدرس مصري آخـر عائـد من البعثـة مشغـولا كـالعـادة بمـزاولـة هــوايتـه في التعــرف إلى النـاس ومحادثتهم، وفـي ذلـك الوقت كان يتحدث باهتمام مـع جار جـديد له تعرف عليه قبل العشاء بدقـائق، وكان سعيـدا جدا بـالفرصـة التي انتظرها طويلا، فالرجل قد أتعبه وحيره أمره وهو يـراه لا يغير مـلابس الكشـافة التي ركب بهـا الباخـرة، ولا يكـل عن التجـول فـوق ظهـر المركب برأسه القليل الشعر، ووجهه الأحمر الشديد الحمرة، والشعر الأصفر القليل الذي حول ركبتيه المكشوفتين، والكتاب الأزرق الذي لا يتركه من يده..

حيـره الرجـل طويـلا حتى أتيحت له الفـرصـة في آخـر عشـاء فعرف أنه سائح ألماني في طريقـه إلى مصر، وأن الكتـاب الذي في يده هو عن آثارها..

وكـان بيترو هـو أسهل من تعـرف إليه من النـاس. إذ بعـد أن

وضع حقائبه في الكابينه، وصعد إلى البوفيه، وتلفت فلم يجد إلا وجوها متعبة. . عجوزا ممسكة بمجلة، وفوق عينيها نظارة، ورجلان سمينان مالت رأساهما وراحا يتهامسان وراهبة شديدة البياض ساهمة تحدق.

وعانس كان يبدو أنها انجليزية جالسة ترمق الموجودين باشمئناط، ولا شيء غير هؤلاء سوى المقاعد التي تنزلق وتتخبط كلما تمايلت الباخرة فوق صدر الموج الصاعد الهابط.

ولم يجد حينئذ ما يغريه، فاتجه إلى البوفيه وابتسم لبيترو الجرسون الواقف يعد القهوة وكأنهما صديقان قديمان، وقال له هاشاً باشاً بالايطالية:

ـ بونا سيرا. .

فقال بيترو:

ـ بونا سيرا سنيور. .

وهكذا انتهى كل ما يعرفه من الايطالية، وبدأ يستعين بالانجليزية التي ذهب إلى إنجلترا يتخصص في تدريسها وعاد يعد الماجستيراه. ولاحظ أن بيترو يجاهد بأدبه الكسول ليلم أطراف إنجليزيته ويجيب على أسئلته الكثيرة.

ومع هذا طال حديثه مع بيترو.

وعجب المدرس لذلك الإنسان الذي له بيت وزوجة وأولاد في

فينيسيا والذي لا صديق له سوى البحر وقد عمل فيه ثلاثين عاما، وأصبح لا يطيق ساعة واحدة يقضيها في البر حتى ولو قضاها في بيته وبين أولاده.

وعلى مائدة العشاء لم يكلفه الأمر أكثر من ابتسامات أربع أصبح بعدها يعرف كل شيء عن الأربعة الجالسين بجانبه إلى مائدة العشاء.

وكان الأمس فقط هو أكثر أيامه ازدحاما، فقد عرف فيه أكثر من ثلاثين مواطنا لبنانيا عائدين من المهجر.

وكان أغرب من عرفه حقا هو اليوناني العجيب الذي ليس في رأسه شعرة واحدة سوداء، والذي لم يصدقه أبدا وهو يروي كيف ذهب إلى العراق شابا قبل الحرب الأولى ليعمل في حقول البترول هناك، وكيف ظل يعمل ويكدح حتى انتهت الحرب الثانية. ولما أحس بالكبر وأراد أن يستريح باع كل ما يمتلكه، وعاد إلى اليونان هو وزوجته.

والذي أضحكه بحق أن اليوناني العجوز قال إنه لم يحتمل البقاء في اليونان، ولم يرتح إلى معاشرة مواطنيه وقد مات أصدقاؤه وتفرق معارفه، وانه أحس فعلا بالغربة في بلده، وامرأته ضاقت بلداتها اليونانيات، وكانت تبكي دائما حين يتهمنها بأن الصحراء قد خشنت طباعها وغيرتها. ولهذا قرر بعد شهور قليلة قضاها في اليونان أن يعود إلى العراق وهو وزوجته، فقد اشتاق إلى الماء هناك، وإلى

البيت الذي على نهر الفرات والذي طالما حلم به.

ويقهقه المدرس كلما تذكر العجوز وهو يتنهد ويقول بلكنته العراقية الأجنبية:

ـ وين أنت شيخ جابر؟.. وين أنت جافري؟.. وين كلكم؟ كلكم؟..

وبينما كان المدرس في آخر عشاء منهمكاً في حديثه مع الجار الجديد الذي تعرف به.. ومنهمكاً في مناقشة ما يحتويه الكتاب الأزرق عن مصر، ويتحمس وهو يعطي للسائح نمرة تليفونه ويعرض عليه مرافقته طوال فترة إقامته.

بينما هو في هذا، كان أربعة مصريين آخرين يحتلون المائدة التي بجواره، وكانت العين لا تفلت مصريتهم وحول المائدة طربوش وجلباب، ووجوه سمراء وأفواه فيها طعام، وضحكات، وقبضات تدق، وظهور مائلة إلى الوراء كثيرا، ومائلة معها المقاعد، ونكت تترى، و(قافية) قد انهالت على الجرسون الطلياني، وهيصة، وكلام.

وكان الأربعة خدم أمير مصري قضوا معه الشتاء في نيس، ثم أرسلهم يسبقونه إلى مصر.

وكان الأوسطى شرف الطباخ مرحا على غير عادته، وكان يرتدي نفس جلبابه الافرنجي الذي له جيب ساعة على الصدر، والذي فيه ساعة لها (كتينة) غليظة. وعلى رأسه كانت طاقيته البفتة وذيلها محبوك على جبهته. وكان جالسا على راحته بجسده الضخم

الذي في ضخامته طيبة وعنقه الغليظ السمين ووجهه المنتفخ الأشداق الوديع القسمات، وشاربه الكث الذي تناثرت فيه شعرات بيضاء قليلة. وكان الأوسطى يرف بعينه إلى المرأة الرومية البدينة، ويقشعر جسده فيخفي القشعريرة بضحكة عالية تتردد بين أشداقه.

ومنذ حادثة البوفيه والمرأة تكهربه كلما رآها. فهو قد ركب الباخرة بعد أن قضى في بلاد الناس شهورا طويلة عانى في أثنائها ما عانى من الحنين إلى امرأته فردوس وسروالها البمبي المشغول بالدانتلا والذي يصل إلى الركبة وكان أحيانا يضعف، ولكنه كان لا يطيق أبدا أن يرتكب الفحشاء، ولو بالنظر، وحين احتوته الباخرة كان لا يزال عند تصميمه الأكيد. ولكن تلك المرأة ذات الأرداف! أعوذ بالله.. هل سلطها الشيطان عليه؟!.. لقد كان جالسا في أمان الله في البوفيه يومها يلعب (الولد يقش) مع عوض أفندي، ومن حيث لا يدري ولا يعلم وجدها واقفة بجواره تبتسم، وحدث أن مالت الباخرة فجعلت المرأة تكاد تلتصق به، أو على وجه التحديد جعلت ردفها الأيمن يلطشه في جانبه، ومن ساعتها وكلما رآها وقف شعر رأسه، بل وقف شعر جسده كله.

وكان عوض أفندي كالعادة جالسا بجواره وعينه لا تفارق الطبق الذي أمامه، وطربوشه محكم الوضع على رأسه، ووجهه الأسمر هادئ لا اضطراب فيه، ولا يلمع منه في الضوء إلا مكان العصفورتين اللتين كانتا مرسومتين على جانبي وجنته ثم أزالهما بماء النار وبقي مكانهما أبيض يلمع. وكان عوض أفندي هو المختص

بقهوة الأمير وتقديمها وهو الذي عليه انتقاء البن وتذوقه وضبط السكر.

وكان ابن حلال لا يعرف لفاً ولا دورانا وقد قضى أيام الرحلة كلها يقرأ في المصحف الذي يحمله معه دائما حتى كاد يختم الربعة. وكان هناك شيء خطير يشغله ويربكه ويسد نفسه، فهو كان يصلي على ملاءة السرير. وظل يصلي عليها طوال الرحلة وما أدراه أن الملاءة طاهرة والناس الذين في الباخرة لا يعرفون طهارة أو يحزنون؟ . .

والأدهى من هذا أنه لا يجد أحدا على الباخرة يفتيه، وكل من عليها فسقة لا يصلون.

أما الأوسطى حامد الجالس ووجهه في الحائط المقابل فقد كان سائق الأمير الخاص. . وكان لهذا أتعسهم جميعا. وكانت العربة الجديدة سبب تعاسته، فقد اشتراها الأمير من أوروبا، وكان على حامد أن يتولى شحنها على نفس الباخرة، وقد فعل هذا على ما يرام ولكنها أصيبت بخدش واضح . .

ولم يفكر حامد أثناء المجيء كله إلا في ذلك الخدش وكيف يداويه، وهل يفلح في إخفائه عن عين الأمير الذي شغف بالعربة وجن بها، خاصة وهو الآن لا ريب قد وصل مصر من زمن وينتظرها على أحر من الجمر. ولم يفكر إلا في هذا، ولم ير إلا وجه الأمير الغاضب وعقله الصغير، ولسانه وهو يرطن بالتركية ويرفده.

وعلى عكسه، كانت الدنيا لا تسع سعد الله السفرجي وقد اشترى بكل ماهيته بدلة، أول بدلة في حياته، ولم يلبسها من ساعة أن اشتراها وإنما تركها في صندوقها الكرتون الكبير وكل ليلة كان يفتح الصندوق ويخرج السترة ويتلمسها وأحيانا يرتديها ويخطر بها أمام المرآة ثم يخلعها ويطويها ويعيدها إلى مكانها في الصندوق، وقضى الرحلة كلها وهو سعيد بملمسها الدافئ وبجيبها الداخلي الصغير الذي توضع فيه الفكة، ولا يستطيع أن يتخيل بالمرة أنه سيرتديها يوما ويصبح أفنديا.

أما السابع فقد كان ينزوي في آخر عشاء في ركنه المعهود لا يعجبته ضجيج مواطنيه وتشمئز له نفسه، وتنتابه موجات الضيق وهو يشاهد مواطنه الآخر المدرس الذي لا يمل الاحتكاك بالناس ولا التظرف إليهم. وكان السابع عائداً من البعثة كالمدرس والرسام بعد أن أخذ الدكتوراة في قانون القوانين. وكان مفروضاً أن يعود في الدرجة الثانية ولكنه آثر أن يحصل على الفرق ويعود في الثالثة.. وكانت مشاغله أكثر من أن تسعها الثانية والثالثة معا.. أربعة وثلاثون طردا معه، فيها هدايا وتحف وأشياء، عانى في نقلها العذاب الأليم، ومن قبل أن تبدأ الرحلة وهو مهموم يدبر كل تصرفاته يوم الوصول، وكم يأخذون في الجمرك، أو هل يعدونه يا ترى تاجرا .

وكان على العشاء الأخير يحدج مواطنيه ويُحسدهم على قلوبهم الخالية وضحكاتهم التي لا هم فيها.

* * *

وانتهى العشاء . .

وتسلل المسافرون إلى الشرفة التي أمام المطعم . .

واستند بعضهم إلى الحاجز، ومشى البعض متلكئا، وجلس آخرون . .

وكانت الدنيا رائعة . .

ظلام ليس أجمل من النجوم تملؤه، ونجوم ليس أجمل من الظلام يحيطها، وهدير البحر يتدفق إلى الآذان وكأنه آت من حناجر ملايين معذبة تعيش في أماكن مجهولة وراء الليل، واهتزازات موتور الباخرة التي يرتج لها كل شيء لا تنقطع، والطلاء الأبيض الذي يلون حتى الحبال، والأضواء الكثيرة التي تحيل الباخرة إلى نجفة كبيرة عائمة في الظلام .

وتوقف الرسام لا يتحرك وقد بلغت به النشوة حد السكون والاستسلام . . وأحس بخياله يمضي على موقع دقات المحرك واهتزازاته، ويجتاز ذلك الحاجز الرقيق الذي يفصل بين حياته وأحلامه فيعيش وكأنه يحلم، ويحلم وكأن أحلامه حياة . .

وصحا على قبلة عبرت بأحلامه، فدق الحاجز بيده كما لو كان يثور، وأخذ طريقه إلى الفراش وهو ساخط على نفسه وضعفه واكتفائه بمشاهدة الفتاة وكأنها طبيعة صامتة، لا حياة فيها ولا حياة فيه . . ولما احتواه الفراش لم ينم، ولكنه راح يتقلب ويثور ويؤكد لنفسه ما استقر عليه عزمه . . وكان قد قرر أن يبقى في الباخرة حتى

تنجلي الزحمة ثم يذهب إلى الفتاة ويحدثها ويطلب منها بلباقة في آخر الحديث أن تقضي معه بضع ساعات في الاسكندرية حتى يحين ميعاد إقلاع الباخرة.

ونام أخيرا وهو يرقب المحادثة التي سوف تدور وينتقي كلماتها بل ويجرب نفسه حين ينطقها. .

والتهم المدرس عشاءه كالموهوم ومضى حالا إلى فراشه، فقد عرف من أحد جيرانه أن وكيل وزارة المعارف مسافر في الدرجة الأولى على نفس الباخرة، وكان عليه أن يتعرف به، إذ من يدري؟ ربما؟! ربما أقنعه بكفاءته؟! وجائز جدا أن يقتنع، وجائز أن يعينه ناظر مدرسة أو على الأقل مدرسا أول في القاهرة! وفكر ثانية واحدة في الغد، وكيف سيجد المنيرة؟ لا بد أن أحداثا كثيرة قد وقعت. لا بد أن البواب العجوز قد مات، وصبي موقف التاكسي قد أصبح سائقا. وما لبث أن عاد الوكيل. وظل يفكر ويرتب الأمر بكل دقة حتى أصبحت كل خطوة كاملة العدة في عقله، وأحس بعقله المتعب يرتاح وتثاءب. .

وفي نفس الوقت كان الأوسطى شرف راقداً في الفراش، ونار موقدة تحت ظهره ويده تعبث بشاربه وتزن باتسامة المرأة الرومية البدينة التي لوحته بها على العشاء ويديرها على كل وجه، وقال وهو ينفث زفيره بحرقة:

ـ آه لو الواحد يقنيها. .

وقطع عوض أفندي صلاته وسلم وسأله عما يقول . .

ولم يجبه الأوسطى شرف فلحظتها كان بالتحديد في ليلة الدخلة، والباب موصد عليه وعلى ذات الأرداف . . ثم وجد نفسه يستعيذ بالله من فكرة كانت تحوم حوله وتلح ولا ينفع فيها نش، وكان آخر ما رأته عيناه ازدحام الناس الشديد، وتدافعهم والمرأة أمامه . . وداهمه النوم قبل أن يطرد الفكرة أو يستعيذ بالله . .

واستأنف عوض أفندي صلاته وهو يقضي فروض الأيام التي مضت وقد أدرك أخيرا أن الملاءة التي اعتاد الصلاة عليها غير كاملة الطهر . .

ولما انتهى وقبل أن يطفئ النور جاء حامد . . وكن قد ذهب للمرة المائة يرى الخدش، ووجد أنه أخطر مما كان يحسب، وأن رفته لا جدال فيه ولا شك .

وسأله عوض أفندي عن الساعة . فأجابه حامد وهو يتسلق سرير الأوسطى شرف ليصل إلى فراشه . . وعاد عوض أفندي يسأله ويكذب ساعته . . وبعد إصرار ومناوشات أدرك عوض أفندي مرغوبا أنه نسي تقديم ساعته فظلت دائرة بتوقيت أوروبا . . ومعنى هذا أن كل ما فات من صلاته باطل . .

وفيما كان حامد يريح جسده المنهك برقت في ذهنه فكرة جهنمية . فماذا يحدث لو طلى الخدش بورنيش حذائه ليداريه؟ وبعد أن يمر أول يوم يصلحه على حسابه؟ وهل إذا فاتت على الأمير تفوت

على الـوكيل؟ كـل شيء محتمل ولكن ليس لـديه خيـار. وحين جاء النوم كانت البطالة وأيامها السود تجذبه من ناحية، والأمل يـداعبه من ناحية أخرى. ولكن على أي الحالين كان طلاء الخدش أول ما يجب عليه في الصباح.

وأطفـأ عوض أفنـدي النور والحـزن يأكـل قلبـه على الفـروض الضائعة، وحين كان يقرأ آية الكرسي ويلف يده حول رأسـه كان قـد صمم على أن يقضي الفـروض كلها قبـل مغـادرة البـاخـرة، فيصلي الفجر. وينوي بعده للقضاء. ونام وهو يتمتم: إن شاء الله . .

وفي ذلـك الوقت كان دكتور القـانون يبحث عـن طـرد ناقص ووجده أخيرا تحت الفوطة، وابتسم للطرحة السوداء والفستان الحرير التي يحتويها الطرد، والتي أحضرها لأمه، ورأى نفســه دون أن يدري في قـريتهم، والنـاس يقـولـون يـا دكتـور، ويسـألـونـه عن أوروبـا، والتهاني، وبابهم الكبير المفتوح، وأمه تحاول من فـرحتها أن تـزغرد وهو يخجل ويمنعها . .

وعـاد إلى نفسه وراح يحسب كـل دقيقة من سـاعات الصبـح، ويحدد أين يقف، وعدد الشيالين، ويوصي نفسه بالمحاسبة على طرد البللور، ويخمن المبلغ الـذي سيسكت به مـوظف الجمـرك، وتعب عقله ونام. ومع هذا كانت تتصـاعد منـه بين الحين والحين غمغمات تدور كلها حول الطرود.

وكـان سعد الله السفـرجي آخـر من أوى إلى كـابينتـه، فليلتهـا

ذهب كما تعود إلى بيترو، وعب من خمره التي بلا ضرائب أو جمارك حتى ارتوى وفضفض كل ما عنده من انجليزية وعربية وسريانية، واستمر يبحث عن الممر المؤدي إلى الكابينة حتى عثر عليه الخادم السهران فقاده إليها، وما أن دخل حتى تهاوى جالسا على الأرض وأتعبه الجلوس فتمدد لا يلوي على شيء، وعثرت يده حين فردها على صندوقه الكرتون، وفي داخل الصندوق ملست أصابعه على صوف البدلة الخشن ورفت بذهنه المدووش ومضات . . النادي النوبي . . أبو عفان . . الواقفة تحت المصباح في ميدان سليمان والواحد مبسوط . . البدلة . .

ولدى ذكرها راق مخه تماما وأقسم أنه لن ينزل من الباخرة إلا وقد ارتداها . . ووضع يده في جيب بنطلونه . .

* * *

واستيقظ السبعة . .

وكان الواحد منهم حين يفتح عينيه ويرى الضوء منتشرا على غير العادة، يتولاه خوف داهم وكأنه تلميذ صحا بعد فوات الامتحان ولا تكاد دقيقة واحدة تمضي عليه إلا ويكون مندفعا إلى ظهر الباخرة كالسهم وهو لا يدري ما الذي يدفعه؟ .

حتى عوض أفندي الذي كان أول من صحا، لما ذهب ليتوضأ، أحس بشيء كالهاتف يأمره، فترك الوضوء وأسرع إلى فوق . .

وكان دكتور القانون هو الوحيد الذي وقف على باب الكابينة يحرس الطرود، ويروح ويغدو وثمة قلق ينهش خطواته.

وكان الصاعد إلى الظهر يذهله السكون المستتب، وفالباخرة تنساب بنعومة فوق البحر الذي هدأت أمواجه، والدنيا فيها سكون الصبح المبكر، والناس كثيرون متشبثون بالحاجز ويفتشون بأنظارهم الأفق ولا يجدون شيئا، ومع هذا يزدادون تشبثا وتصطبغ ملامحهم بترقب عظيم كالذي يتوقع أنباء هامة أو يتطلع إلى معجزة. .

وكانت طيور النورس هي الوحيدة التي تحدث ضجيجا صغيرا مفاجئا حين تنقض على سطح الماء وترتطم به.

وأظلم الأفق قليلا، ثم أشرق على خط رمادي طويل. .

وسرت همهمة. . هي. . مش هي دي سحابة. . لسه بعيد.

وأطلقت الباخرة صفارة لها ضجيج ومبحوح مرتعش. .

وأبطأت من سيرها وانخفض أزيز المحرك. .

وصفت زرقة السماء حتى أصبح لا يعادلها إلا زرقة البحر.

ومن بين الزرقتين أهل موكب الشمس وظهرت طلائعها، ثم بدأ القرص الأحمر الكبير والهيبة تحيطه يتقدم في بطء وجلال. .

ومضت الباخرة في حرص هادئ كالحبيبة حين تتسلل إلى لقاء الحبيب، والناس فوقها يرقبون تعاقب الألوان والمشاهد وكأنهم يتابعون أحداثا مثيرة على شاشة عرضها السموات والأرض. .

ومن حيث لا يتوقع أحد ارتفع صوت نسائي لـه رخامـة الصبح المبكر يقول:

ـ ماريا. . فرانشسكا. . لينا. . سيلفانا. .

وتعـالى صخب أربـع بنـات صغيـرات كـأنهن جئن في بـطن واحدة، واستطرد الصوت الرخيم يقول:

ـ كويستا ايجيتو ماريا! كويستا الساندريا . .

وتحـولت العيـون إلى مكـان الصـوت حيث كـانت تقف أم إيـطالية على صنـدوق قديم حـائرة مـوزعة بين بنـاتها الـلائي حملت واحـدة منهن، والباقيـات يصرخن ويجـذبنها من ثـوبها، ويقـرصنها، وبين رغبتهـا في رؤية الخط الـذي عند نهـاية الأفق وهـو يتحول إلى أرض. .

وأيقظت ضجة الصغيرات الناس من ترقبهم وانبهارهم. .

وخبط الأوسـطى شرف حـامـد على كتفـه ثم ضمـه وهـو يهتـز ويقول:

ـ واد يا حماده. . ولا يا حماده. . وصلنا يا واد. .

وسكت قليلا ولما تبين أن التي على مرمى البصر أرض حقيقية انتابته الخفة:

ـ والنبي هيه. . بلدنا أهـه. . يا سلام يا جدعان. .

وكان سعد الله يقول لعوض أفندي:

ـ وصلنا يا عم عوض؟! . .

ـ وصلنا يا أبو السعود . .

ـ ودي مصر يا عم عوض؟! . .

ـ والنبي مصر يا خويا . .

ـ وعشنا وشفناها؟ . .

ـ وشفناها . .

ـ أم الدنيا؟! . .

ـ أم الدنيا؟! . .

ـ ووصلنا؟ . .

وتلفت عوض أفندي إلى الواقفين غير مصدق وأحس بنفسه يستعيد عنفوان شبابه وكل ما فيه مرح وهو يسمع الأفواه تردد . . مصر . . ايجيبت . . ايجيتو . . ليجيبت . . السانـدريا . . كايرو . . ألكس . .

وغير بعيد كان يدور بين المدرس والرسام أول حوار لهما على الباخرة، وهما واقفان كتفا إلى كتف وعيونهما عند الشاطئ البعيد:

ـ يا أخي ليها وحشة . .

ـ ياه . . الواحد نفسه في قرص طعمية سخن . .

ـ الله . . دي فعلا ليها . . الله . . الواحد قلبه بيدق . .

ـ بقى هي دي اللي الواحد سابها قرفان . .

ـ بذمتك مش شامم الريحة؟ . .

ـ شوف الراجل ومراته لازقين في بعض وعمالين يبصوا إزاي؟! . .

ـ صحيح! . . ريحة! . . والنبي مصر لها ريحة . . بذمتك مش شامم . .

ـ يا ترى أخبارك ايه يا مصر؟ ومين مات ومين عاش؟! . .

وعاد المدرس بأنظاره إلى الناس ورأى الراهبة واقفة متجهة إلى حيث تتجه العيون ووجهها أبيض قد كسته حمرة طارئة، وشفتاها تتمتمان بشيء وكأنها تستقبل المذبح . .

ورأى كذلك اليوناني العجوز الذاهب إلى العراق فقال له بصوت لا ضابط له:

ـ أم الدنيا أهه يا خواجه . .

وابتسم العجوز وقال:

ـ لا خبيبي . . لا . . أنا واحد أمي هناك . . عند الفرات . .

وضحك المدرس أطول وأعمق ضحكة جرؤ عليها من أربع سنين . .

ولم يعد يحتمل الدكتور وهو يسمع المولد المنصوب على ظهر الباخرة ولا يرى شيئا . . وما كاد يلمح أحد البحارة حتى أوصاه

بالطرود على عجل ثم طار إلى الظهر . .

ودوت صفارة الباخرة طويلة ممدودة هذه المرة . .

وأقبل لنش بخاري فيه بحار، وفيه عساكر وضباط، وحين كان اللنش يدور حول نفسه ليرسو خلع قائد اللنش طربوشه ولوح به قائلا بترحيب طيب، لا ادعاء فيه :

ـ حمد الله عالسلامة يا جماعة . . حمد الله عالسلامة . .

واندفع الأوسطى شرف يقول بصوت كالرعد :

ـ الله يسلمك . . ميت فل عليك . .

وسكت يستجمع أنفاسه ثم انفجر بكل ما يملك :

ـ تحيا مصر يا جدعان . . والنبي تحيا مصر . . الله . . هو احنا لنا غيرها يا اخوانا . . والنبي لولا بركتها ما نساوي بصلة ! . . الله دي بلدنا ! . . دي بلدنا يا رجاله . . والا ايه ؟ !

وتهدج صوته حتى ظن الناس أنه يبكي . .

وأصبحت الاسكندرية تملأ الأفق . . وبدت كبيرة لا تحدها الرؤية ، وبدت الباخرة إلى جوارها كالسردينة الميتة الطافية . .

وبعد هذا نسي السبعة أنفسهم، ولم يعوا وهم يختمون الجوازات، ويحضرون الأمتعة، ويتعاونون على حمل طرود الدكتور وقد انتابتهم خفة الأطفال في يوم العيد . .

وعلا الضجيج حتى أصبح الصارخ لا يسمع نفسه . .

ولاح الرصيف . .

المرجيحــة

لم تكن الضجة التي يثيرها الصغار تهم عبـد اللطيف في ذلك اليـوم، لا هي ولا غيرهـا من مهام الحيـاة أو توافههـا، فقد كـان يوم الـعيـد. . العيد الكبيـر. . اليوم الـذي انتـظره شهـرين كـاملين وهـو يحسب لـه ويعـد ويختلف مـع امـرأتـه في العـد والحسـاب. . حتى جاء! . .

وخيـل لعبد اللطيف وقـد طال انتـظاره أن اليـوم سيـأتي فجأة، كبيـراً، واسعا، عريضا. . ولكنه عندما جاء لم يكن كـذلك أبـدا. . أشرق فجره ثم نما صبحه وكبر ضحاه في بساطة وبـلا تهليل، تمـاما كما يدفع هو بيده (المرجيحة) لترتد إليه بعـد ذلك متبخـترة متمايلة، فيها ما فيها من الأطفال وقد اندس بينهم بعض الكبار! كان اليـوم في بساطة قدومه كالزمن وهو يدفع (مرجيحة) الحياة بيـده القويـة فتذهب أيامنا وتجيء لياليـنا هكذا في يسر وبـلا ضوضـاء، وإنما نحن الـذين نصخب ونحن الـذين نصرخ ثم نحن الـذين نلعن الـزمن بعـد ذلـك ونسخط على الأيام.

وقف عبـد اللطيف يدفـع المرجيحـة بيده ويمـد يـده الأخـرى

يتحسس الملاليم التي تتلاصق في جيبه، ويفركها بأصابعه ويرنها في راحتــه، ويحس بنشــوة كتلك التي يحسهــا حين يعب أول نفس من الجوزة في الصباح . . فلم يكن يرى فيها ملاليم، ولم يكن يرى فيهـا أنها لا تساوي ورقة صغيرة من ذات العشرة قروش وإنما كان يرى في ملمسها غير الناعم حلما بأكمله ظل يعيش فيه شهرين طويلين كثيبين.

ولا يتركه إحساسه بجيبه وقد امتلأ، إلا حين يسلمه إلى ذكريات أيامه. . أيام كان يكسب مـلء جيوبـه قروشـا وعشرات ثم لا تـذهب بعيدا . . فقـد كان يضيعها على كيفه ومزاجه. ولا يندم، فهو صاحب كار متين وهو أحد أفراد عائلة النجارين. العـائلة التي عن لجدهـا أن ينفض يـده من الزراعـة، وقد زهـق منهـا، فتعلم النجارة بعـد عنـاء وأورث أولاده وأحفـاده الحرفـة حتى حذقـوها واحتكـروها ثم تفـرقوا وتناثروا في أرجاء البلدة وما جاورها من البلاد . .

وعبـد اللطيف لا يكذب على نفســه فليست النجارة في القـرية في حاجة إلى فن وحـذق وبقدر مـا هي في حاجـة إلى قوة وسـاعد، ولم يكن عبـد اللطيف يملك كليهمـا . . كـان مـريضـا . . تسـربت البلهـارسيا إلى مثـانته حتى أفقـدتـه القـدرة على التحكم في نفسـه. وتناثر مرضه حوله وتهـامس الناس بـه وتهامسـوا معه بـاللقب الجديـد الـذي أطلقوه عليـه . . (الطاجن) المشـروخ. ولم يلبث هو أيضـا أن اعتـرف بينه وبين نفســه أنه مشـروخ وأنه مـريض وأنه لن يكـون أبدا كجـودة ذي السـاعـد الممتلئ الغليظ الذي تنفـر عضلات يـده عندمـا يمسـك بالقـدوم كأنهـا جذع نخلة (حيـاني)، ولن يكون كـأبي خليل

الذي يوقف الساقية الحديد وحده وهو يضحك فتردد الساقية الجوفاء رعدات ضحكه.

إنه ضعيف مسلوب القوة. وكان يرقب ـ من خلال وهنه وعجزه ـ نصيبه من سنويات القرية وهو يصغر ويصغر. . كان يرقبه في مرارة معتلة وحقد ضعيف واهن، فالناس ما عادوا يأتمنون قوته على سواقيهم ومحاريثهم وفؤوسهم، وإنما يلجأون لغيره من أفراد العائلة القوية، ويلجئونه معهم إلى أن يترك بدوره صناعة المحاريث وإصلاح السواقي إلى عمل الطبالي الصغيرة ومفاتيح الأبواب الخشبية، وإلى أن يسعى إليه الناس حين يلم بهم عرس حتى يركب الدولاب أو ينصب السرير! . .

وكان نتاج هذه جميعها والحمد لله يكفي أن ينعم عبد اللطيف وامرأته وابنه وابنته بالرطل والنصف من اللحم كل يوم ثلاثاء. ويكفي أن يشتري حصيرة يرقدون عليها كل سنة، وأن يضيف إلى سقف وسط الدار المكشوف قطعة خشبية جديدة كل ستة أشهر. ولكنه لم يكن يكفي أن يسد مطالب الأفواه اللاصقة برقبته، فلا هو يقفل فم امرأته على قطعة لبان ولا يطبق فم ابنته على فص برتقال، ولا يكفي ابنه. . لعنة الله على ابنه. . هذا القزم الذي ظن يوم بشرته به الحاجة صباح، أنه سيكون قوته المسلوبة وجذع النخلة الذي ينقصه، فإذا به ينشأ هكذا أصفر عليلا معوج الجذع والساق.

ـ كده يا محمد ماشوفش فيك يوم راجي . .

كانت هذه الكلمات على لسانه طول اليوم. كان يتوقع من ابنه الكثير ولا يرحم ابنه حين لا يستطيع إلا أقل القليل. إنه لم يعلمه كيف يمسك الكماشة ليقتلع بها المسمار إلا بعد أن أصابه بأربعة جروح ما زالت بيضاء في رأسه، وبعد أن قذف به في الترعة مرتين. ومع ذلك فلم يستطع أن يمسك بها أبدا، على الأصول!.

كان عبد اللطيف يجتر كل هذا ثم يكز على أسنانه ويطلب من امرأته في جفوة أن تحضر له العدة والجوزة.. ويرتشف في نهم من كوب الشاي الأسود، ويعب الدخان الكثيف الأزرق من الكرسي، ويشد الحزام الصوف إلى وسطه ثم يفك حصره مرة أو مرات ويستنزل اللعنات على أجداد ابنه ثم يبصق في يده ويمسك القدوم ويعمل على مهل وفي اشمئزاز ضعيف مقهور!..

يعمل على مهل وامرأته الحلوة تختلس النظرات إليه من تحت أهدابها الطويلة وقد ربطت رأسها بالقمطة الحمراء وسببت شعرها الأسود المجعد اللامع حتى يبين طرفه من القمطة ومدت رجلها البيضاء الممتلئة فبان قدمها النظيف الذي قضت وقتا طويلا في حكه بالحجر..

تختلس النظرات إليه وهو لايدري أهذا الذي في وجهها ابتسام أم هو براعم ضحكة ستنفجر بعد حين. وعندما يكل ساعد عبد اللطيف - وما أقرب ما يكل - ينظر لها بعين فيها حمرة خابية، وفيها حيرة.. وبوجه تائه مشحون ويكاد يقول: آه يانبوية يا قتلاني..

والحق أنها كانت تقتله وكانت تدفعه تحت جنح الظلام إلى الفص الأسود يغتصبه من تاجر الأفيون وهو يقول له في غيظ:

ـ بكرة يا أخي أديلك..

كانت تقتله لأنه كان يأكل ويستحلب لعاب شهيته وهو يمضغ حتى يستطيع أن يجرع كوب الشاي. وكان يقبض على الكوب بيده وتترنم أذنه بالنغم الذي يصدره وهو يحتسي السائل الأسود اللزج، ليتبعه بأنفاس الدخان.

وكان يأكل ويشرب الشاي ويذيب الفص ويلتهم الدخان ليقضي الليل بطوله ويده تعبث بشعر امرأته الأسود المسبسب بينما قمطتها قد انحلت وتاهت في المخدة..

ولم تكن المشكلة تنتهي بانقضاء الليل، ولا بمضي الليالي، وإنما كان يراود عبد اللطيف السؤال الحائر: ترى هل نبوية قانعة بما يقدمه لها؟..

وإذا راجع أخماسه وأسداسه واقتنع أو استطاع بوسيلة ما أن يضحك على نفسه ويقتنع فإنه يسأل نفسه مرة أخرى وفي سؤاله شك مرتجف: وحكاية الطاجن المشروخ هذا، ترى هل وصلتها هي الأخرى؟ وهل إن كانت وصلتها قد أسقطته من عينها؟ تلك أسئلة كانت تدور بخلده وإنما كان ينهيها بعينيه الحائرتين ترمقان نبوية في شك وفي لهفة وهما تقولان مرة أخرى:

ـ آه يا نبوية يا قتلاني . .

* * *

اليوم يوم العيد . .

وعبد اللطيف قد اطمأن على نفسه بعد أن اختطف نظرة إلى هندامه في مرآة الدولاب القديم الذي دخل به ورأى شاربه الرفيع متهدلا حول فمه كما يحب أن يراه، ورأى وجهه الأصفر النحيل قد اجتز منه الأوسطى عبد السميع شعيرات ذقنه فبدا ناعما ورغم ما به من حفر قديمة، بل بدت خيوط من حمرة باهتة صنعتها الموسى تتبعثر في وجهه كما يحمر شفق يوم مغبر حين يظهر القمر . .

اليوم يوم العيد . . اليوم الذي تناسى عبد اللطيف ضعفه، وتناسى وعاءه المشروخ، وتناسى زحمة الحياة بين النجارين التي دفعته إلى نصب المرجيحة في العيد، وأن يقف بجوارها هكذا حليق الذقن مرتديا ثوبه الأبيض الجديد الذي اشتراه من ثلاث سنوات، واحتفظ به للمناسبات! تناسى هذا كله. ولم يعد يذكر إلا الملاليم التي تعمر جيبه والا المرجيحة التي نصبها جودة، ثم لم يكسب من ورائها شيئا . . كان جودة عملاقا قويا ولهذا لم يفز بنصيب من ثروة الصغار، فقد كانوا يخافونه ولا يطمئنون أبدا إلى يده الضخمة حين تدفع المرجيحة فتقذف بها إلى كبد السماء. ولهذا كانوا يستريحون لعبد اللطيف، ولعبته القديمة، ويده النحيلة التي لن تعلقهم أبدا بين الأرض والسماء! . .

وأسعد هذا عبد اللطيف.. أسعده أن يرى نفسه قد انتصر ولو ساعات قليلة كل عام. أسعده أن يتجمع الأطفال حوله وأن يشخط هو فرحا ويصرخ منتشيا. وكان أول ما فكر فيه حين سرت النشوة في جثته أن يغني.. ويغني بأعلى صوته حتى يصل غناؤه إلى أسماع جودة.. يغني ويرد الصغار عليه ويحمسهم هو ويطيل في أشواطهم حتى يرفعوا عقيرتهم أكثر وأكثر لينفجر جوده..

وكان الأطفال دائما مع المنتصر، وكذلك كانوا يتجمعون حول عبد اللطيف وحول قطع الأخشاب الأربع التي تمسك بمرجيحته العتيقة..

وكان هذا التجمع الكثير من أطفال معظمهم يشاهد العيد ويحضر المراجيح لأول مرة في حياته. كان هذا السبب في الصرخة المدوية التي انبثقت من راكبي المرجيحة، وفي الصدمة القوية التي سبقت الصرخة، وفي سالم ابن العمدة وقد تكوم على الأرض لا حراك به، والدم يندفع في غزارة من جرح عميق في رأسه بعد أن صرعه مقدم المرجيحة وهو واقف يشاهد هبوطها وصعودها في سذاجة وبلاهة.

- مات.. مات ياولاد.. ابن العمدة مات.. يا خرابك يا عبد اللطيف.

وكان يكفي لخراب عبد اللطيف أن يشتم ابن العمدة.. أو لا يقف إجلالا للعمدة.. فما بالك وقد جرح سالم جرحا لم يقتله وإنما

سالت له دماؤه في كثرة . .

وحين جروه إلى المركز وسألوه كثيرا قبل أن يلقوا به في الحجز المظلم، وكان هو قد شبع من كل إحساس حتى استوى فوق غيبوبة من شعوره فلم يهمه ان ذبحوه أو خنقوه . . وماذا يأخذون منه هو الراقد فوق بلاط السجن وقد ساب على نفسه، واصفر جلده وراح في دنيا غير دنيانا؟! . .

ولم يمكث عبد اللطيف في السجن كثيرا لأنه مات. ويحكون أنه قال قبل أن يذهب:

ـ البركة فيك يا محمد . . يابني . .

ولم تحل البركة بمحمد وإنما حل به المرض وامتلأ بطنه بالماء، وأطلق عليه رفاقه لقب محمد الزير. وكان ثقل بطنه يضطره إلى الرقاد أياما كثيرة في دارهم، تاركا الطبالي والمحاريث والفئوس تتكوم وراء الباب، حتى يأتي أصحابها وقد يئسوا من إصلاحها فيأخذوها بعد أن يتبادلوا الألقاب مع أمه نبوية .

وجاء اليوم الذي خلا فيه كل ما وراء الباب .

وكان محمد في خلال رقداته الكثيرة الطويلة يتساءل في عجب وفي دهاء مريض: من أين يأكلون؟ . .

ولم تكن إجابة السؤال تهمة أو تهم أخته أو أمه، ولكن أهل القرية وعائلة النجارين خاصة كانوا يهتمـون، وكانـوا يقضون الليالي الطوال في منـاقشة المصـدر الذي يبقيهم أحيـاء. . وفي المنـاقشـات تـدلف طاقية المعلم أحمد الوبـر و(لاسته) الحـريريـة، وحذاؤه (الاجلسيـه) اللامع. .

والمعلم نمر كبير. . تنمر يحمل في جيبه علبة فيهـا الحشيش مقطعا وملفوفا في ورق شفاف، وفيها الأفيون يرقد في أبنوسية العنبر. ويحمل بجانب العلبة محفظة تمتلئ دائما بالأوراق الخضـراء. وفوق العلبة والمحفظة أكتافه العـريضة، ومن أعلى أكتـافه تبـرز رأسه التي تعرف من أين تفتح الأبواب.

وكان عبد اللطيف قبل موتـه قد ارتكب هفـوة صغيرة فقـد مات وعليـه لأحمـد حسـاب. وكـان المعلم يعـرف كيف يحيـل الحسـاب الصغير بدراية وخفة وفهلوة إلى قبضة رقيقة متلصصـة يطرق بهـا باب المرحوم فتفتح له نبوية وفوق فمها ابتسامة.

وكان محمد في رقدته فوق الفرن يتسـاءل في مكر أيضـا، بينه وبين نفسه، عن قمطة أمه الحمراء النـظيفة، وعينيهـا اللتين كثيرا مـا زارهما الكحل، وخدودها الملتهبة، وكعوبهـا التي يقفز منهـا الدم. . كل هذا ولم يمض على وفاة أبيه شهـران، يتساءل محمـد ثم لا يهتم

بالاجابة فقد كان ينظر إلى بطنه العالي، وقد أخفى الدنيا عن عينيه ولم يعد يربطه بالوجود إلا يد أمه البضة وهي تحمل له كوب الشاي العلقم وتقول في رفق ونعومة:

ـ خد يا خويا. . خليك تخف. .

ولم يتحمل يوما كل هذا. .

كانت أمه قد فرغت من الخبيز وأرقدته فوق الفرن الملتهب حتى تصبب عرقا وحمت عظامه، فقال لها بصوت جعله أضعف ما يستطيع:

ـ ألا يا أما المعلم أحمد بييجي كتير ليه؟. .

واحمرت خدود أمه، وابتسمت، ثم تضاحكت وقالت له وقد بانت أسنانها البيضاء الحلوة:

ـ يعني ما انتاش عارف ليه؟. .

فقال في سذاجة حقيقية:

ـ لا والنبي. .

فغمزت بعينها وقالت هامسة وهي تشير إلى الغرفة:

ـ أصله بيتكلم على أختك. .

وبردت عظام محمد، وذهب العرق عنه، وانزاح عن خاطره هم كثير. . وصدق هذا، بل لم يجد مانعا لديه أن ينام أحمد في بيتهم، بل يكاد يقيم في النهاية معهم حين قرأ فاتحة أخته.

وكان محمد ينام كثيرا فليس له عمل إلا النوم. وكان لا يشعر بالحياة وهي تمضي إلا حين يخف الظلام فيعرف أن النهار قد حل وانتشرت معه ذرات الغبار التي تثيرها أخته حين تكنس أرض الدار. ولا يشعر بحياة من حوله إلا حين تسقيه أمه الشاي، أو تحضر له أخته الغذاء أو يغمزه المعلم أحمد بقرش الحلاوة الطحينية.

ومع هذا فمن خلال الطاقة الضيقة المعتمة التي يطل منها على الحياة.. لم يفته أن يراعي التنافس الذي استوى على أقدامه بين أمه وأخته في جلي الكعوب وتسريح الشعر وقرص الخدود حتى تحمر. ولم يفته أيضا أن أمه وأخته أصبحتا وكأن لا هم لهما إلا إرضاؤه والتنافس على تلبية إشاراته ورغائبه. وكان المعلم أكثر منهما.

وفي يوم تناول محمد إفطاره من اللبن الرائب ثم تقيأه ولم يكف عن القيء إلا الظهر حين غاب عن الوعي.

وزار البيت في هذا اليوم عدد كبير من الناس. وانعقدت مجالس وفضت مجالس ودار الشاي مرات ومرات.. وأخرج المعلم في كل مرة علبته من جيبه ليحلي أقداح القهوة. وكان آخر المجالس ذلك الذي دارت فيه الجوزة وانتشت الأكواب واستمر إلى ما بعد منتصف الليل.

واستقر الرأي بعد هذا كله على ذهاب محمد إلى طبيب البندر في الصباح.

ومن الفجر دارت نبوية تقرع الأبواب لتستعير حمارا يوصل

ابنها. وقرعت الأبواب مرات كثيرة دون جدوى. ومـا كان للحمار أن يأتي إلا من خلال المعلم ومن تحت أهداب علبته. وقد جاء. .

ورآه الطبيب، وبعد كلمة من هنا وجنيه من هناك، حجز محمد في مستشفى المركز.

وغاب محمد بعـد هذا عن وعي النـاس والقريـة، وشيئا فشيئـا عن وعي المعلم وأمه ثم أخته. .

* * *

كـانت الأحاديث على ظهـور الأفران أو فـوق المصاطب تبـدأ بـأمشير ومـا فعله في الأرض والناس، والسكـر الذي تـأخر صـرفـه، وتقاوى القمح الفاسدة، ثم تنتهي بفاتحة البنت التي قرأها المعلم.

وكـان يعقبها أو يسبقهـا قصة شعـر أمهـا المسبسب، وشبشبهـا العالي واللبـانة التي تطرقع في فمها، ثم حداقة المعلم وفهلوته.

وقد يتحد النـاس ويأتلفـون حول أي شيء، ولكنهم ينقسمـون دائمـا ويختلفون على من يقـع عليها الاختيـار، وهـل يتـزوج المعلم البنت أو أمها.

وتستمر الاشاعـات رائحة غـاديـة، تعيـد قصة المـرجيحة التي كـان ينصبها عبـد اللطيف كل عيـد، ويظل المعلم هـو الآخـر يـروح ويجيء بينهما فلا يستقر عند البنت أو حتى عند أمها.

المـأتـم

وقف أبـو المتولي على بـاب الجامـع، وشمس الضحى تنصب على وجهه (الأشعل) فتعذبه، ويتوهج لها شعر رأسه الناصـع البياض كشعـر الأرانب، وتزداد كـذلك حمـرة أجفانـه الخاليـة من الرمـوش، المضمومة بإحكام حتى تمنع الضوء من التسرب إلى مقلتيه. .

وقف يحاور الشمس وتحاوره، ولم يستطع أن يرى ما أمامه إلا بعـد أن مد رقبتـه، وأدخل رأسـه في ظل الجـامع بينمـا بقي جسـده خـارج البـاب، وحينئـذ راح يـطوف بعينيـه الصغيـرتين الضعيفـتين داخل الجامع حتى عثر على بغيته جالسا يغالب النـوم بجوار عمـود، فنادى بصوته الأخنف الهادئ:

ـ يا شيخ محمد.

وكانت همهمة الناس الكثيرين الذين يحفل بهم الجامع لا تفنى حين تغادر أفواههم، ولا تتبـدد، وإنما تبقى، وتنتشـر كالنحـل في كل اتجاه، وتظل تتخبط بين جـدران المسجد الـوقورة العـالية الملسـاء، فتصنع بتخبطها رنينا عريضا أجوف يدوي به المكان. .

ولم ينفـع صوتـه الأخنف الهـادئ فقـد ضـاع نـداؤه في هـالـة الـرنين، ورفع صـوته أكثـر وكافـح ليرفعـه حتى احمر وجهـه وأصبح كعرف الديك. .

وأخيـرا سمع الجـالس بجوار العمـود، فأدار بـرأسه كمن كـان يتـوقـع النـداء، وأسـرع بعينيـه إلى البـاب، ثم لم أجـزاءه وأسـرع بنفسه. .

وأحس أبو المتولي بالراحة حين سمعه الرجل فذلك كـان يعني انتهاء مهمة عينيه الشاقة، فأغلقهما ولم يبق إلا شعاعا رفيعا كافيا لأن يتحسس به ما حوله. .

ـ غبت ليه يا مبروك؟

ولم يـرد أبو المتـولي أو يضيع الـوقت في سـلام أو كـلام مـع الشيـخ محمد. . ووضـع اللفافـة التي كان يحملهـا فوق يـديـه على المصـطبة البـارزة من باب الجـامع. . وكـان في اللفافـة رضيع ميت ملفوف بحرام أجرب باهت. . وقال:

ـ صلي يا شيخ محمد. .

وتلكأ الشيخ قليـلا، وتغمز وتلمـز بعينيه اللتين يغـطي مقلتيهما سحـــاب أزرق، وحـرك رقبتـــه وبص إلى اليســـار، ثم استـــدار إلى اليمين، وابتسم ابتسامة كلها مكر سـاذج، وهـم أن يقول شيئـا، ولكن أبو المتولي الحانوتي كان فارغ البال، ناشف الـريـق، فشدد الضغط على أجفـانه، ورفـع وجهه إلى فـوق وكأنمـا يتحـدى الشمس والشيخ

محمد معا وقال:

ـ يوهوه. . بس صلي الأول!. .

وأكمل غضبته بخبطة على جلبابه، ثم استدار وبحركة لا إرادية ثبت كفا فوق عمامته من أمام، وكفا أخرى من الخلف وجذب العمامة بقوة ليحبكها ربما للمرة العاشرة منذ الصباح.

ولم يتحرك من مكانه إلا بعد أن نوى الشيخ، وبعد هذا مضى يراقب الخناقات الصغيرة الناشبة بين البائعين والمشترين ـ وما كان أكثرهم ـ حول الجامع وأمامه. . ثم أتعبته الشمس فاتجه بعينيه إلى الظل حيث كانت حلقة تذكر قائمة على قدم وساق. . وكانت الحلقة تضم جمعا قليلا متنافرا من الناس، وعلى رأسهم شيخ مجذوب له (شرف) أحمر وقد علق في كتفه (مخلاية) لا يعلم ما فيها إلا الله. . وكان الشيخ يمسك بمجلس الذكر على دقات مسبحته فوق عصاه المصنوعة من ماسورة حديدية، وأثناء هذا ينشد ويوشح، وكان صوته أقبح من وجهه. .

ولما جاء بائع العرقسوس، ورنت صاجاته وصيحاته، تذكر أبو المتولي ريقه الجاف ولم يستطع أن يقاوم إغراء الضباب المثلج الذي يحيط بزجاج الإناء والذي ترد رؤيته الروح. . فمد يده بنصف قرش للرجل، وأزاح الرغاوي المتجمعة على سطح الكوب بنفخة واحدة من زفيره. . ثم سمى ومضى يجرع. . وأعجبته (الشوية) فمد يده اليمنى من خلال فتحة جلبابته وهو يشرب وانتزع من جيب الصديري

تعريفة أحمر، وأعطاه للبائع . . وتلاعبت حنجرتـه التي لا تكاد تـظهر من رقبته وهو يتاوي الكوب الثاني . .

وتكرع، وحفل جسده بالعرق . .

ورمق بائع جميـز بربـع عين، ولم يعجبه الجميـز، فرجـع إلى الباب ليجد أن الشيخ محمد قد انتهى من الصلاة.

ـ السلام عليكم ورحمة الله . .

قالها الشيخ محمد وهو يحملق ناحية الحانوتي، وقالهـا بصوت مرتفع منغم وكأنما يوبخ أبو المتولي ويؤنبه . . ثم انخفض صوته حتى أصبح حوقلة وهمسا، وانخـرط في ختم الصلاة . .

وألقى عليه الحانوتي نظرة فيها شك وعدم اطمئنان وسأله :

ـ بقى ودينك يا شيخ . . الواد على القبلة مظبوط؟ .

ورفع الشيخ محمد صوته بختام الصلاة وكأنما يرد عليه :

ـ اللهم صلي وسلم وبارك . .

ولم يجز هذا على الحانوتي فعاد يقول :

ـ بقى بذمتك أنت على وضوك يا شيخ محمد؟

ـ على سيـدنا محمـد وعلى . . يـا أخي هـو مـافيش إسـلام . . وعلى آله وصحبه وسلم . .

وهمهم أبـو المتولي بكـلام لم يفهمه هـو نفسه، ثم مـد يـده

وحمل اللفافة فوقها.. وكان الشيخ قد أنهى الختام على عجل فقال وهو يمسح وجهه بكفيه ويقبلهما:

ـ يبقوا كام بقى يا عم متولي؟

وتوقف الحانوتي وقد عاوده ملله، وازدادت عصبيته وكأنه يحمل فوق يديه أرطالا من حديد.. وصمت لحظة صمت اليائس فقد عمل كل ما في وسعه ليتجنب الخوض في مثل ذلك الكلام ولكن ما باليد حيلة.. وببطء قال:

ـ بدهه يا شيخ محمد.. يبقوا سبعه..

ـ سبعه؟! سبعة ايه؟! وحياة الست مسكة وأم هاشم وأولية الله ثمانية يا مبروك..

ـ سبعة يا شيخ محمد والله العظيم سبعة!

ـ دانت صاحب عيال يا عم متولي.. وحياة سيدي.. الله أدحنا فيها.. الواد اللي جبته من الحنفي الصبح.. واحد.. والبنت بنت عمك..

ـ اسمع يا شيخ محمد.. عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أ.. أ.. أ.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. مش يا مبروك.

ـ عليَّ الطلاق سبعة!

ـ أف. وزمتك يا شيخ.. الله وكيلك..

ـ وصلك كام يا شيخ محمد؟!

ـ حته بعشرة يا مبروك . .

وانتظر الحانوتي حتى يحسب الحسبة ثم قال :

ـ يبقى باقيلك من حساب السبعة أربعة ساغ .

ـ بس . . بس . . يعني . .

ـ بس ايه . .

ـ بس وأنت سيد العارفين يا عم متولي . . النهارده رطل القوطة بكذا . . والبامية بكيت . . ولا ليالي ولا مياتم . . والحالة كرب . . والولية امبارح اشتريت لها سبرين . .

ـ طماطم ايه! . . وهباب ايه! . . يا شيخ اصطبح وقول يا فتاح! الصيف أهو طالع . . والنزلة جاية ومش حتلحق تحوش عن قفاك . . خليها على الله . . خد!

وتردد الشيخ محمد وهو يكن يده ثم يفردها، ولكنه توكل على الله، وتناول ما في قبضة الحانوتي وتحسس الشلن الورق وأدخل رقبته في الجبة القديمة، وفرفط غمزاته ولمزاته، وفركه بين أصابعه، وطبقه، وكاد يرده، ولكنه سحب ناعما، وحدق من خلال الضباب الذي أمام عينيه وقال :

ـ طب هات ساغ كمان يا مبروك .

ولم يسمعه أحد، فأبو المتولي كان قد اختفى باللفافة في زحمة الناس . .

١/٤ حوض

الفكــرة شيء انسانـي عجيب، فهي دائمــا تتـطلب عمــلا وجهدا، وأحيانا تخطر للانسان فكرة فيظل يستضعفها ويملها وهو كاره ما وراءها من عمل حتى يقتلها، وأحيـانا تخـطر له فكـرة فيها جـدة، وفيها روعة ولـذة، فتقلب هدوءه رأسـا على عقب، وتنفخ فيـه أطنانـا من النشاط . .

واسمـاعيل بيـه الماحي واتتـه فكرة. . وكـان لا يدري من أين جاءته، ولا أي وحي هبط عليه بها، وكل الذي يدريه أنه كان ممـددا في فراشه في الحجرة الزرقاء البحرية من(الفيلا) أو على الأقل هكذا وجد نفسه حين استيقظ. وهـو لم يستيقظ مرة واحـدة كخلق الله انما استيقظ مرات. . وكان في كل مرة يراود نفسه: فهـل يصحـو أم ينـام كما كان؟ واذا صحا فماذا يفعل، وماذا وراءه؟ .

وفي هـذا اليوم لم يكن وراءه شيء أهم من النـوم، ومن أجـل هـذا كانت استشاراته لنفسـه لا تستغـرق وقتـا طـويـلا يعـود بعـدهـا لتستضيفه الملائكة. .

واستيقظ مـرة، وساءل نفسـه كالعـادة ثم قرر ان ينـام. . ولكن

قراره كان خيالاً على وهم، فإن جسده كان قد تشبع ولم يعد فيه مكان لذرة نوم واحدة . .

ولم يكن هناك حل الا أن يتناوم، ويقنع نفسه بأنه في أحلى نعاس وفهو في أتم يقظة، وجازت الحيلة على جسده وفوتها على نفسه، انما عيناه لم تحتملا أجفانهما المضمومة طويلا فسرعان ما أزاحتا الأجفان وخرجتا الى النور.

وسلم لعينيه المفتوحتين، وجابهته حينئذ مشكلة عويصة، فهو لم يكن يعرف الوقت، وساعته التي على((الكومودينو) بجانبه واقفة لا حراك بها، والضوء في ذلك الريف اللعين لا يعتمد عليه، فشعاعات الشمس قاسية فظة تنفذ من أسمك(شيش) وتجعل السادسة تبدو كأنها الثانية بعد الظهر. .

وتلوى في الفراش قليلا وتثاءب، وماء، وشد على جسده ملاءة السرير الزرقاء الرقيقة وأرخاها، وعرى ساقه فأحس بنسمة من البرودة تغطيها، وعرى حينئذ الثانية . .

وما كاد يستريح الى البرودة التي تلامس أطرافه حتى جذب الملاءة، فقد سمع أزيز ذبابة، ثم رآها، وجاءت وراءها واحدة ثانية . .

وخلقت له الذبابتان مشكلة أعقد، فمن أين يجيء الذباب؟ وكيف يقتحم الناموسية؟ أيكون فيها ثقب؟ أتكون قد بليت؟ وما

يدريه انهما اثنتان فقط؟ ألا يجوز أن ثالثتهما قد حومت حول فمه وهو نائم؟!

وانقبض لهذه الخطرة ،وانصرف عن المشكلة كلها الى الوقت الذي لا يعرفه، كان عليه ليعلم الساعة أن ينادي على عبده، وفي النداء مشقة، وقد لا يسمعه أحد أو قد ترد الست تلومه على كسله، أو قد يضطر للنهوض من الفراش، واذا نهض كان عليه أن يغتال الذبابتين بالمرة، وهذه مشقة أخرى. .

من أجل هذا انصرف عن مشكلة الوقت أيضاً، وقنع بالتحديق في أرجاء الحجرة، وكان الظلام المضيء المنتشر فيها يشع غموضا أعجبه، ويصنع من زرقة حيطانها ضفافا لبحيرة هادئة، وراح يسبح في البحيرة على زوارق من أحلامه. .

وفجأة واتته الفكرة. .

وفي التو اعتدل، ثم جلس في الفراش، وأزاح الملاءات الرقيقة الهفهافة، وخرج من الناموسية، وأصبح على السجادة وغادر الحجرة وهو يقبض ذراعيه وينفضهما بقوة. .

وكانت الست هي أول من رآه، وقبل أن تفتح فمها،سألها بلهفة:

ـ الساعة كام؟

ـ حداشر ونص يا سيدي . .

ـ ياه . . .

وتركها قبل أن تفتح فمها مرة أخرى وأسرع الى الحمام . ولم يمكث بـه سوى بضع ضقائق وخرج ـ وكان عبده يتلكأ في الممر منتظرا أن يسأله عما اذا كان يحب الفطار في الفراش أو على السفرة . . وفوجىء عبده بالبيه وهو يأمره بصوت عاجل أن يحضر القبعة ـ . . وأسرع عبده يتلكأ ويحضرها ،وسمعت الست الأمر فجاء صوتها من بعيد وهي في الصالة الثانية .

ـ على فين؟

واحتار البيه ثم قرر أن يقول :

ـ آه . . مفيش . . نازل تحت . .

فردت عليه مستنكرة :

ـ دلوقت . . ليه؟ . . فيه ايه؟ . . من غير فطار؟ . . وبالبيجامة؟!

ـ ماليش نفس . .

ـ طيب . . خد الشاي بس . .

ـ لا . . أنا راجع أفطر . .

وتناول القبعة من عبده وهو على أول درجة في السلم، ثم نزل مهرولاً وزعقات الست تتبعه وهو يرد عليها، وكلاهما لا يهتم بما يقوله الآخر . .

ولمحه عم عبد الله الجنايني وهو يخطو أولى خطواته داخل

الجنينة، فجاء مهرولا بجسده القصير المنحني ووقف وبينه وبين البيه بعد غير قليل، وابتسم، وتجعد شعر ذقنه النابت الأبيض، وأطلت سنتاه الوحيدتان المهددتان في كل لحظة بالانهيار، أطلتا من سعة فمه، وانطلق صوته يقول بارتعاشة فيها زمن طويل:

ـ الجنينة نورت يا سعادة البيه.. دا احنا من زمان..

ورد عليه إسماعيل بك والنوم ما زال يهدج من صوته:

ـ اسمع.. أنت عزقت حوض الياسمين بتاع امبارح؟..

وابتسم عم عبد الله بسنتيه الأماميتين قائلا:

ـ أمال يا بيه..

ـ طيب.. وريهولي..

ومشى إسماعيل بك فوق (المشاية) كلها بينما اكتفى عم عبد الله بالقناة التي بجوارها فراح يخوض في قاعها المبتل، ويبتسم بين الحين والحين ويقول:

ـ من هنا يا بيه.. اتفضل.. الناحيادي.. لا مؤاخذة.

ووصلا أخيرا حوض الياسمين، وتفحصه البيه بعيني صقر ونصف وجهه تظلله القبعة والنصف الآخر تلسعه الشمس، ودار حول الحوض وعم عبد الله يراقبه ببسمة طيبة فخورة كلها ثقة وكأنه فنان يباهي بما صنع.. وضاعت ابتسامته حين توقف البيه عند ركن الحوض، وتملى في أرضه ثم أشار إلى ناحية منه قائلا في اتهام:

ـ دي . . هنا . . ده عزيق يا راجل . .

واقترب عم عبد الله ، وحدق هو الآخر بنظره الذي على قده ثم قال :

ـ آه . . دي ريشة الحوض يا سعادة البيه . . ما تتعزقش .

ـ مين قالك . . مين علمك ، ايش عرفك . .

وسكت عم عبد الله وهو لايدري بماذا يجيب . وتدلى فكه على قدر ما سمحت به عضلاته المستهلكة وهو يسمع البيه يقول للمرة الثانية :

ـ أيوه . . هات فاس . .

ـ العفو يا بيه . . داحنا . .

ـ ياللا . .

ـ إنما . . دا تعب على سعاد . . .

ـ تعب ايه يا راجل انته . . دي رياضة . . ياللا روح . .

وانطلقت من إسماعيل بيه كلمة (روح) كما تنطلق البندقية وفي أعقابها انطلق عم عبد الله .

والبيه بينه وبين نفسه لم يكن في حاجة لأن يكهرب الرجل هكذا ليستطيع تحقيق الفكرة التي واتته . . وكان ممكنا أن يطلب الفأس ببساطة ويعزق! ، ولكنه فعل ما فعل من قبيل التسلية ، فمزاجه

يـومهـا كـان رائقـا، وإذا لـم يتسـل على عم عبـد الله فعلى من غيـره يتسلى؟.

وعاد عم عبد الله يجري وفي يده الفأس. وقبل أن يتناولها البيه تردد الرجل لحظة ثم تهته قائلا:

ـ عن. . عن إذن. . سعادتك. .

ولم ينتظر الإذن، واندفـع يجري، وعـاد وقد غسـل يد الفـأس وأزال ما علق بها من طين خشن جاف.

والتقط البيه الفأس في رشاقة كما يلتقط عصا (البليـاردو) وقد أحس بخفة تكاد تطير بـه، وشعر بـالريف، والصبـاح، وجو العـزبة، تعيده في سرعة سحرية من السابعـة والثلاثين حيث هـو إلى السابعـة عشرة، بل تكاد تصل به إلى السابعة.

وزرر سـروال (البيجـامـة) ثـم رفـع الفـأس. وكـانت ـ ككـل الفئوس التي في عزبتـه ـ جافيـة فظة لهـا حد عـريض ورأس غليظ. وأنزل البيه الفأس فنزلت على طول حافتها فلم تغور في الأرض قليلا أو كثيرا.

وحـاول عـم عبد الله أن يتنحنح فلم يستطع، وقنع بأن يقول في صوت يريد كتمه وابتسامة كبيرة تطل منها سنتاه الطيبتان:

ـ مش كده لا مؤاخذة يا بيه. . لا مؤاخذة اعوجها شوية.

وجاءه الرد من بين ساقي البيه وقد انحنى وظهره إليه:

ـ اسكت أنت. . أنت مالك. .

وارتفعت الفأس، وهوت وقد اعوجت إلى ناحية. وغورت في الأرض هذه المرة. وسر البيه، وتحمس، ورفعها بسرعة وأنزلها، أخذه الحماس. .

ووقف عم عبد الله يتفرج غير مرتاح، فقد كانت هذه أول مرة يرى فيها البيه منحنيا، ويرى فيها سترة (بيجامته) وقد تهدلت، وتهدل ما تحتها، فبان جلده أبيض كاللبن الحليب. ولم يطل حرجه فسرعان ما انفرج فمه، وهز رأسه وتوقف لبرهة ثم عاد يبتسم ويكاد يضحك ويهز رأسه من جديد.

وتنبه عم عبد الله بعد مدة أن وقفته خلف البيه فيها شيء من قلة الذوق فتحرك ليواجهه. وأدرك وهو يدور أن البيه ولو أنه لم يخبط إلا بالكثير عشرين خبطة، قد تعب، فالفأس كانت تغيب حتى يقتلعها من الأرض، وتغيب حتى يقتلعها من الهواء. ولم يعجب عم عبد الله أبدا حين أصبح أمام البيه فألفى وجهه قد صار قطعة من الدم، والعرق يسيل بحورا فوق حمرته، ورأسه لا يقل دما وبحورا عن وجهه، والقبعة كان قد ضاق بها فرماها، وأنفاسه تلهث وهي تسابق بعضها البعض.

وضيق عم عبد الله جفونه الأربعة، وانكمشت التجاعيد في وجهه فاتسعت زميلاتها عند جبهته، واتخذت سيماه طابع الجد. وتقدم خطوتين فأصبح أمام البيه تماما وقال وهو ينحني ويمد يده ناحية الفأس:

ـ عنك يا سعادة البيه . . عنك . . ودا كلام . .

وتسمر في مكانه حين جاءه جواب البيه كالرعد :

أوعى . . امشي . .

ولم يكن لديه وقت ليمشي فيه أو يختفي ، وكذلك ما كان لديه وقت يستغرب فيه من لهجته ، فقد رفع البيه الفأس وهو ينتزع النفس بكل قواه ، ثم تعلقت الفأس فوق رأسه لا تريد أن تهبط . . وشيئا فشيئا تراخت يده ، وقذف بالفأس إلى ناحية . وجلس مرة واحدة .

ولم يستطع الصبر على جلسته فمدد جسده غير حافل بخشونة الأرض وما فيها من قلاقل وطوب ، وعثرت أصابعه الممتدة في كل اتجاه على شجيرة ياسمين نابتة فاقتلعها وهو يجاهد ليملأ رئتيه بالهواء .

وكان عم عبد الله في ذهول تام ، فالذي حدث كان كثيرا عليه أن يواجهه ، أو يصنع شيئا حين يواجهه . وكان لا يمكن أن يصدق أن العشرين خبطة التي خبطها البيه يمكن أن تفعل مثل هذا في بني آدم .

وذهل أكثر حين لهث البيه ونفس يحييه ونفس يميته .

ـ آه . . ياه . . هنا . . قلبي . .

ـ كفا الله الشر يا سعادة البيه . . خير . . خير إنشاء الله .

واقترب حتى أصبح بجواره تماما ، وانحنى وأمسك يد البيه في

وجل، واستمر يتمتم ويقول:

ـ خير. . خير إنشاء الله.

وكانت طراوة اليد التي يقبلها ويشد عليها غريبة على يده، وجزع عم عبد الله حين رأى ما أحدثته الفأس فيها من فقاقيع انفجر بعضها واختلط سائلها الأبيض. .

وأسبل البيه جفونه وقال في ضعف لاهث:

ـ اندهلي . . اندهلي . . الست . . حـ . . حالا.

واندفعت ساقا عم عبد الله تلفان على بعضهما وتجريان. ولم يكن جري عم عبد الله سريعا، فالرجل قد شاب وتلخلخ وجاوز السبعين من زمان.

ولما رجع لم تكن معه الست وحدها، بل جاءت معها الست الصغيرة، وعبده، وأم حياة الطباخة وكاتب الأنفار. وكانوا كلهم يهرولون، وعم عبد الله يحاول أن يريهم الطريق. ووجدوا البيه مطروحا لا حول له ولا قوة، وعيناه مغمضتان، ويده على قلبه والعرق يغطيه.

وكانت أصواتهم عالية مختلطة تسأل عما حدث وتخمن، وأحس بهم البيه ففتح عينيه وضغط برفق على قلبه وأزاح وجهه إلى الناحية الأخرى وكان لا يزال يلهث حين قال:

ـ آه. . ذبحة. . ذبحة صدرية يا نعمت. . خلاص.

وبهتت الست، وبدأت ذرات العرق تخترق الكريم الـذي فوق وجهها، واقشعرت شفتاها وهي تقول محاولة دون جدوى أن تبتسم:

ـ اخص عليك يا سمسم.. ذبحة ايه يا شيخ..

ورد عليها بصوت ضعيف كليل:

ـ وحياتك ذبحة.. آه.. قلبي.. جنبي.. دراعي.. دراعي منمل..

وأجابت الست في لهفة:

ـ دي لازم يا شيخ ذبحة كدابة..

وكانت الست الصغيرة تقول في نفس الوقت:

ـ ما تقولشي كده يا بابا.. دانت تعبان بس.. دي لازم الشمس.. دي ضربة شمس..

وقال البيه في تبرم خافت:

ـ أبدا يا ناس.. أبدا.. بزي الشمال.. الحقوني.. هاتوا دكتور.. بسرعة.. الحقوني..

وأسرعت الست الصغيرة إلى الفيللا بينما أشارت الست الكبيرة إلى الباقين، وتعاونوا في حمله دون أن تتحرك له شعرة وابتعد الموكب في بطء، وكان يتوقف قليلا ثم يعود إلى المضي، وكان صوت البيه يضعف قائلا:

ـ قلبي.. الحقوا.. خلاص..

وكان صوت الست يرتفع قائلا:

ـ وطي صوتك.. اسكت.. الله.. اسكت..

أما عبده وكاتب الأنفار وأم حياة فكانوا واجمين وكأن على رؤوسهم الأسى.

وخلف الموكب وراءه عم عبد الله والذهول لا يزال مستحوذا عليه، والخواطر تذهب به إلى اليمين ثم تسرع به إلى أقصى اليسار، ثم تصطدم وتتبعثر لتتركه حائرا، تائها، لا مخرج له.

ولم يمنعه ذهوله من الجلوس..

ولم تمنعه حيرته من أن يخرج علبة الدخان الصفيح من جيب (صيديريه) ويلف سيجارة، ويقدح زنادة ويشعلها.

ويبدو أن شدات الدخان ،راق لها باله، وأزاحت عن كاهله ذهولا وهماً فقد عادت إليه ابتسامته طائعة مختارة..

وبعد أن رمى البقية الباقية من سيجارته، قام وتمشى إلى (السراية) ولم يبرح نافذة (السلملك) حتى غادر الطبيب المنزل، واطمأن إلى أن الحكاية جاءت سليمة، وأنه لا ذبحة هناك ولا ضربة شمس.

وعاد من فوره إلى حوض الياسمين. وشمر عن ساعديه، ووضع ذيل قميصه في فتحة (الصديري)، وبصق في يده وأمسك بالفأس. وقال بصوته الراجف وهو يرفعها:

ـ هـه . . قـال بهوات قـال . . أمال احنـا ما بتخـدناش الـدبحة ليه . . دا كان زمان الواحد ادبح . . وشبع دبح .

وهوى بالفأس في ضربة قوية مزقت الأرض . .

مشــوار

كـانت «مصر» إذا جـاءت سيرتهـا في حديث عـابر يـرتج على الشبراوي، ويرى أنه غير عائش، ويتحسر على ساعة واحـدة يقضيها في القبيسي أو عنـد المعلم أحمد في التـرجمان، ويجتـر شوقـه إلى حفلة من حفـلات النهار في السينمـا الأهلي ويرتـد عقله بسرعـة إلى الأيـام الخوالي التي قضـاها في الجيش حـيث. كان يـذرع مصر من مشرقها إلى مغربها كل أسبوع . .

وغالبا ما كان ينهي الشبراوي لهفته وحسرته وشوقه بـأمنية ليس كثيرا على الله أن يحققها، فيهيئ له ظرفا مناسبا، وقرشين حتى يشـد الرحال إليها ويستعيد يوما من أيامه.

وأصبحت الجملة التي يعرفه بها زملاؤه من كثرة ترديده لها:

ـ أبيع عمري على ساعة فيكي يا مصر . .

ولكنـه لم يضطر إلى بيـع عمره، فقـد أتى الفـرج من حيث لا يـدري، ومن باب لم يعمـل له حسـابا قط. فهـو جالس في المـركـز جلستـه منذ أربـع سنوات وإذا بجمـاعة حـافلة تدخـل، وبعـد سؤال

وضجيج اتضح أنها امرأة مجنونة من كفر جمعة ومعهـا أهلها وأقـارب الأهل والجيران، وملأ الصراخ المكان فالتمت الناس وضاق المركز.

ودق قلب الشبراوي في أمل بين ضلوعه فلا منـاص من إرسال المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في مصر مع (مخصـوص)ومن غيره ينفع أجدع مخصوص؟ . .

ولم تكن ثمة حاجة إلى وسـاطات أو شفـاعات للمعـاون. فقد تنصل كل العسـاكر من المهمـة ومن مسئوليتهـا. وحين تقدم هـو إلى المعاون طائعا مختارا انتهى الأمر.

وفي الحال أرسل الـواد عنتر صبي البـوفيه إلى امـرأته يخبـرها بسفـره وبأن تجهـز لـه لقمـة في منـديـل، وتـرسـل الخمسين قـرشـا الصحيحة بأمارة ما هي موضوعة في كيس المخدة.

ومضى نصف ساعة . .

وأصبـح كـل شيء جـاهـزا، وخـطاب مفتش الصحـة معـدا، واستمارات السفر مكتـوبة، وليس بـاقيا إلا أن يضـع رجله في القطار ليكون بعد ساعات في قلب مصر.

ولم يكن هينا أن يصدق الشبـراوي أن ما حـدث كان حقيقـة، وأن الأمر انتهى هكذا بسهولة ونعومة، ,وأنه صحيح سيرى مصر مـرة أخرى، ويتفسح فيها، ويركب التـرام ويقابـل الإخوان والأصحـاب، ويتعشى نيفة عند المعلم حنفي.

لم يكن ذلك هينا، ولكنـه مضى بخطوات تضـطرب بفرحـة لا

يصدقها إلى المحطة ومعه ما يزيد على المائة نفر، وكلهم يوصونه بزبيدة وبأن يكون صبورا معها.

وغمزه أبوها بريال، وأعطاه زوجها بريزة، وهز الشبراوي رأسه كثيرا، وابتسم باستمرار، وهو يؤكد لهم أنها في عينيه، وأن يطمئنوا عليها، ويعتبره أخاها من أمها وأبيها.

وكان الموكب وهو يخترق البلدة يسترعي انتباه الناس ويجدون الشبراوي على رأسه فيسأله الذين يعرفونه أين هو ذاهب، وكان يجيب في تواضع:

ـ لحد هنا..

فيعود السائل يتمحك:

ـ لحد فين..

فيجيب الشبراوي وهو يزيد من قلة اهتمامه:

ـ كده لحد مصر..

وكثيرا ما كان يأتيه الجواب:

ـ هنيالك يا عم..

وتنمل السعادة في أحشاء الشبراوي..

وبعد انتظار كثير جاء قطار الدلتا. وركب هو وزبيدة، وجلست هادئة ساكنة، وتحرك القطار في أمان الله..

وتحسس الشبراوي الأوراق للمرة الثالثة وقد وضعها بعناية في جيبه الداخلي، ولما رأى أن لا متاعب هناك وأن الحال مثل القشطة، فك حزامه البوليسي العريض، واستراح، وكاد ينسى زبيدة.

وانتهى قطار الدلتا من ركناته وسرحاته ومحطاته التي لا تفرغ، ثم دخل المنصورة كالدودة السوداء الطويلة، وعبر الشبراوي الكوبري، وزيبدة في يده، وهو لا يني عن ترديد:

ـ بركاتك يا سيدة زينب..

وسأل عن قطار مصر فوجده رابضاً ينتظره، وركب وأجلس زبيدة بجوار النافذة. وجاء بائع الليمون فشرب منه كوبتين في نفس واحد، ومد الثالثة إلى زبيدة، ولكنها دفعتها في تبرم وحنق، وهدهد عليها وهو يتبع الكوبة زميلتيها.

وتحرك القطار والناس فيه آمنون مطمئنون، وزبيدة تنظر من الشباك كالطفلة الصغيرة وعلى فمها ابتسامة نيئة، والشبراوي تطقق له السعادة أصابعه.

وقبل السنبلاوين استدارت زبيدة فجأة، ثم دبت على صدرها في عنف وقالت وهي تنظر إليه في اتهام غريب:

ـ يا لهوي..

ونزل الشبراوي مهرولا من جنات سعادته، ورد عليها في انفعال:

ـ مالك ياختي . . مالك يا زبيدة . .

ولم تجبه، وإنما وضعت كفها تحت أنفها، وبأقصى قوتها أطلقت زغرودة خالية من كل هم.

وأعقبتها بسرب طويل من الزغاريد.

والتفت الركاب إليها، وصمتت العربة كلها في دهشة عظمى، وتخلخل الشبراوي وداخ قليلا فلم ينطق بحرف. .

وبعد أن حاول ابتلاع ريقه فلم يجد له ريقا طبطب على زبيدة، ومعلشي ياختي، حقك عليَّ، طولي بالك، اعملي معروف، بلاش فضايح، وكلمتين من كلماته الهادئة، وسكتت زبيدة.

ولكن الركاب لم يسكتوا، بل انطلقت ألسنتهم تعلق همسا على ما حدث. ثم ارتفعت الأصوات. كل هذا والعيون لا تتحول عنه أو عنها.

وسمع بأذنه واحدة تقول:

ـ دي لازم مراته يا ضنايا. .

ورنت ضحكة في آخر العربة، وتنحنح الرجل الجالس أمامه وهو يفيق من غفوته، ووقف طفلان فوق المقاعد يتفرجان. .

وعرق الشبراوي حتى نفذ العرق إلى بذلته الصفراء ومد يده ولم المنديل الذي كان قد فرده ليغير ريقه، ثم عقده كما كان.

وسأله جار لم يعجبه الحال:

ـ هي الست مالها يا شاويش؟ . .

وقال الشبراوي وقد استرد لسانه وإن لم يسترد مفاصله:

- أبدا.. ولا حاجة..

وسكت قليلا ثم أضاف:

- أصلها

وضم أصابع يمناه ثم حركها في دائرة بجوار رأسه، وهز الرجل جسده كله يؤمن على ما قال الشبراوي وكأنه قد اكتشف شيئا عويصا.

ولم يكن الشبراوي قد كف عن تحريك يده حين استدارت إليه زبيدة وتكلمت بأعلى صوتها ومعالمها مدببة مشحوذة:

- ولا حاجة إزاي.. إزاي يا جدع ولا حاجة..

ونظر الشبراوي إليها في جزع حقيقي وهي تقترب بخلفتها من وجهه، وتراجع برأسه حتى ألصقها بخشب العربة واضعا المنديل بما فيه بينه وبينها.

ولكنها أنهت اقترابها منه فجأة، وانتصبت واقفة ثم فتشت سقف العربة بعينين زائغتين وزعقت بكل ما تستطيع:

- ولا حاجة إزاي.. يسقط عمدة بلدنا إبراهيم أبو شعلان.. يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك.. يعيش جلالة الملك الريس محمد بيه أبو بطة.

وطقت زغرودة فائرة..

ووقفت العربة على رجل، وطار النوم من عيون النائمين، وأخذ الرجل الجالس أمامه المقطف من تحت المقعد ثم مضى مسرعا. وفي ثانية أصبح لزبيدة والشبراوي نصف العربة، بينما انزوى كل الركاب في النصف الآخر متوجسين شرا.

وغادر العربة نفر قليل من المسافرين بينما أبقى حب الاستطلاع معظمهم.

وأصبحت بدلة الشبراوي كالمغسولة بعرقه. ومد يده يرغم زبيدة على الجلوس وينهي الموقف، ولكنها خبطته على يده، وتأودت وهي تزغرد وتقول:

ـ يسقط عمدة بلدنا.. يعيش جلالة الملك الريس أبو بطة.

وانطلقت ضحكات بائعي الكازوزة والفول السوداني، وجرت وراءها ضحكات المسافرين، ولم يجد الشبراوي مانعا من ضحكه هو الآخر، ولكنه لم يضحك طويلا، فقد فوجئ بالمسألة تنقلب جدا ولاهزل فيه، وروعه من زبيدة أنها مدت يدها، ورفعت ذيل ثوبها تريد أن تخلعه. وكانت ترتدي ثوبها فقط، وهجم عليها يوقفها، ودفعته وهي تزغرد، وقامت معركة.

ولو أنه تغلب عليها آخر الأمر فأقعدها بالقوة وربطها بكوفية تبرع بها واحد من المسافرين، مع هذا إلا أنها كانت قد فعلت شيئا أفقده صوابه، فقد قذفت بطربوشه من نافذة القطار.. الطربوش الذي ظل فوق رأسه من يوم أن دخل الخدمة، وبقيت فروته عارية

بيضاء إلا من شعره القليل القصير.

ولم تهدأ زبيدة حتى بعد أن فعلت هذا، وظلت تطلق الزغاريد وفي كل مرة يسقط العمدة ويعيش الريس.

وقرابة بلبيس كان الهدوء قد أخذ طريقه إلى عقلها وسكتت حتى بدأ بعض الجريئين من الركاب يعودون إلى أماكنهم وكان الشبراوي يمنع نفسه منعا عن قذفها من القطار فقد كان يغلي على طربوشه الذي ضاع أمام عينيه.

واستمر يغلي حتى دخل القطار محطة مصر..

وانتظر الشبراوي حتى نزل كل الناس ثم شدها بعنف، ولف ذراعه حول ذراعها وجعلها لاصقة بها كالكماشة. ولكنها لم تكن في حاجة إلى كل هذه الشدة فإنها كانت تمشي معه كالحرير المطاوع.

وبهره ميدان المحطة، ولكن الظروف لم تكن متاحة أمام الذكريات لتشغل باله.

وعلى الفور ركب الترام وهي معه أعقل ما تكون، ونزل في العتبة، وخرم على شارع الأزهر واشترى طربوشا بالريال وهو يلعن زبيدة وأباها وفلوسه الحرام.

ولم يسترح إلى الطربوش الجديد فوق رأسه وأحس أنه ثقيل كقطعة الدبش.

وعقد العزم على أن يجعل زبيدة تغور من وجهه أولا،

ويتخلص من مسئوليتها ثم بعد ذلك تكون مصر كلها له وهولها. واستراح لهذا القرار، وركب الترام والناس فيه فوق بعضهم، وغرق يراجع ما فات من متاعبه وما سيجيء. ولكنه صحا في نصف الطريق يطمئن على زبيدة فوجدها لاصقة بأفندي من الراكبين وفكها قد تدلى في بلاهة راضية ، والأفندي منسجم غاية ما يكون الانسجام، ومتشاغل بقراءة جريدة يحملها. وزغدها الشبراوي وهو يشدها بعيدا. وانقلب الرضا الذي على وجهها غضبا وزغردت وسقط العمدة وعاش الريس أبو بطة.

وأوقف الكمساري الترام بلا محطة وأنزل الشبراوي وهو يشبعه لوما وتريقة وتقريعا على ركوبه ومعه واحدة لها هذه الخطورة.

ووجد الشبراوي أنه من المستحسن أن يأخذها كعابي إلى المحافظة. ومشت زبيدة على يمينه وقد صممت ألا تكف عن زغردتها، والتأم شارع محمد علي كله وراءهما وبجوارهما، وكلما كثر الناس علا صوت زبيدة، بينما راح الشبراوي في غيبوبة ووجهه لا يرتفع عن الأرض.

ورأى العسكري الواقف أمام باب المحافظة هذا التجمع مقبلا وفيه زغاريد وأصوات فتوقع حدثا مثيرا. ووقف الشبراوي في يسأله عن طبيب المحافظة. وعرف العسكري الحكاية بخبرته ورثى له فالساعة كانت قد جاوزت السادسة ولا أحد هناك.

وسأله الشبراوي بلهفة:

ـ طيب وبعدين؟ . .

ـ فقال العسكري بكل هدوء؟ . .

ـ تعال بكره . .

ـ بكره؟ . . بكره إزاي؟ . .

ـ بكره الصبح . .

ثم أعقب العسكري جوابه بشخطة فرقت الناس وفي جعبتهم أكثر من نادرة.

وتوسل إليه الشبراوي وهو يسأل إن كان ممكنا تركها إلى الصباح في المحافظة.

وحدجه العسكري بعينيه دون أن يتكلم، وفهم الشبراوي فسحب زبيدة ومضى. ومن هذه اللحظة بدأ يطرق عقله طرف المشكلة، وبدأ يفكر كيف يبيت ومعه هذه الداهية. ولكنه كان متعبا مهدودا، وله ساعات لم يدخل جوفه طعام.

ودخل أقرب قهوة في باب الخلق حيث جلس وأجلسها بجانبه وكتفه في كتفها. ولم يعبأ أبداً بتحديق الجالسين فيه وفيها ولا بما يقولون. وطلب شايا وتعميرة، وشربهما، وأحس بالخدر يتمشى لذيذا في جسده. وأفاق من خدره على شيء حدث داخله فجعله يتململ ويرتد إلى أقصى الخلف ثم يتلوى إلى أقصى الأمام. وقدر أنه لن يستطيع الاحتمال وعليه أن يبحث في التو عن المكان الذي

يقضي حوائج الناس، وسأل الجرسون وعلى وجهه ألم. وأشار الرجل إلى مكان لا يبعد كثيرا.

ولكن.. زبيدة..

وتلفت حوله، ولم يكن صعبا أن يبدأ حديثا سريعا مع جاره الذي كان يرتدي بالطو وجلبابا بلديا. وعرف منه أنه مخبر في المحافظة. واضطر الشبراوي أن يقص الحكاية من طقطق إلى سلام عليكم، وأن يختمها راجيا المخبر أن يأخذ باله من زبيدة حتى يعمل مثل الناس ويعود، وما كاد الرجل يقبل بغير ترحيب حتى اندفع الشبراوي وكأنه طلقة..

وحين عاد كانت القهوة قد انقلبت إلى مولد تحييه زبيدة.

وجرها الشبراوي في غلظة بعد أن ألحف في الاعتذار للمخبر ومشى وهو لا يدري أين يذهب. وكان الوقت يمضي والشمس غابت، والأضواء القوية تزغلل عينيه محاولة تذكيره بالذي مضى.. ولكنه كان في عالم آخر.

وظل يبحث في ذاكرته حتى عثر على قريب له من بعيد طالب في الزراعة في الجامعة. وعثر أيضاً في ذاكرته على مكان بيته.

وتاه في الجيزة ساعات فقد كان يعرف البيت في النهار فقط.

وأخيرا استدل عليه. ودق الباب وفتح قريبه، وسلم عليه بحرارة، وأنت فين يا أخي، والله زمان، وإزاي الجماعة.

وقبل أن يدخل في الموضوع زغـردت زبيدة بحماس وكانت ما فتحت فمهـا طول الوقت.

ونظر إليها الشبراوي وتمنى لو كان معه سكين ليذبحها.

ولم يدخل في الموضوع أبـدا، وإنما انسحب في سكـون وهو يروي لقريبه نتفا متفرقة من الحكاية.

وحين احتواه الشارع قال لزبيدة وهو يضغط على ذراعهـا يريـد كسرها:

ـ حاتسكتي واللا أروح فيكي مؤبد.

واستمر يهدد ويتوعد وهي ماشية بجـواره كالأوزة لا تلوي وزي ما تيجي..

وذكره المـؤبد، الذي يريد الرواح إليه بـالقسم. ووجد أنـه حقا أصلح مكان يأويها ويأويه في تلك الليلة السوداء.

والأوتـوبيس، وفي خطوتين كـان أمام الشـاويش النبـطشي في قسم السيدة.

والحكاية أعادها وقد تمرن عليها وحبكها..

وهز الشاويش رأسه في بطء وهو يقول:

ـ دي مسئولية يا حبيبي.. وأنت سيد العارفين.

ورد الشبراوي وغيظه يحترق:

ـ طب حطنا في الحجز. .

وفي بطء قال الشاويش:

ـ برضه مسئولية . .

وحين غـادر القسم كـان يلعن كـل مـا يمت إلى المسئـوليـة والسائلين بصلة ويكاد يضـرب نفسه وهـو يلومها على هـذه المسئولـة التي اندب فيها كالرطل.

وحين كان يسترد أنفاسه لاحت له فكرة اللوكاندة، ولكنه نبذها في الحال فهما اثنان، وزبيدة حرمة، وخطرة، والحسبة فيهـا بالـراحة خمسون ستون قرشا، والحكاية على الله.

ولم يبتعد الشبراوي كثيرا فقد تربع أمام جامـع السيدة وجـذبها حتى تهـاوت بجانبـه، والحيـاء يمنعـه من البكـاء فلم يكن يعتقـد أن إنسانا آخر في العالم له مثل تعاسته، وبؤسـه. وكان مجـاذيب الست حولهما كالنمل، وحين زغردت زبيدة ضاع صوتها في تمتمة الشيـوخ وبسملتهم وزقزقة النساء ودوامات الذكر. .

وسر الشبراوي لهذا وانبسط، فلم يعد فيمـا تفعله زبيدة غـرابة أو شذوذا. وفي الواقع كان هو الغريب الشـاذ بين هذا الجمـع وكان هـو التعس الـوحيـد كـذلـك. وتمنى أن يفقـد عقله حتى ينجـذب ويسعد ويستريح مثلهم.

ورغما عنه بدأ يخرج من نفسه ومن آلامه وغيظه ويرمق ما يدور حوله. وكان ما يـدور مسليا، فـلا أحد يسأل الآخر ماذا يفعل أو ينهاه

عن فعله. وانصرف الشبراوي بكليته إلى الشيخ الذي بجواره والذي كان ممددا مسترخيا في موازاة الحائط وقدأسند رأسه إلى ساعده وراح يرقب الناس الغادين الرائحين بلا أدنى مبالاة، وفي وجهه اكتفاء واستمتاع، وكأنه ملك العصر والأوان.. وكان بين الحين والحين يخفض رأسه ثم يرفعها بعد مدة ويحدق في الشبراوي ويقول في صوت ممدود عميق ساخر:

ـ وحد الله..

فيوحد الشبراوي في سره..

ثم يغيب الشيخ ليعود ينظر إليه نظراته التائهة الطويلة.

ومر واحد من فوق الرصيف ورمى بعقب سيجارة وجاءت في متناول الشيخ. وفي اتزان واطمئنان وثبات مد الشيخ يده والتقطها، وشد منها نفسا عميقا وأخرج دخانا كثيرا من جوفه وهو ناعم ملتذ، وأطل بنظرة سعيدة على الشبراوي وحلقات الدخان تلهو في بطء حول وجهه وقال بكل ثبات:

ـ وحد الله..

ولم يتمالك الشبراوي نفسه. وضحك. وتمنى أن يرقد مثل رقدة الشيخ، وأن يكون خالي الهم والمسئولية مثله. وحين مرت المسئولية على لسان وعيه التفت ناحية زبيدة فوجدها تتثاءب..

وكاد يرقص من الفرحة..

ولم يطل بها التشاؤب وشيئا فشيئا مضى جسدها يثقل ويستكين، ثم راحت في النوم.

ولأول مرة تملى الشبراوي في وجهها، لم تكن حلوة، ولكنها كانت بيضاء، وكانت صغيرة وأقدامها فيها طين وجروح وخلخال غليظ. وكانت في نومتها لا تفترق عن العاقلين.

ولاحظ الشبراوي أن ثوبها مشقوق وفخذها بائن منه. وخفض من بصره وهو يلم الثوب ويغطيها.

ثم انخرط في تخريف لا يعرف له أول من آخر مع الشيخ حتى نام..

وحين تقدم الليل، وسكنت الدنيا، وتكوم محاسيب الست يغطون بجوار الحائط كالقرود التي أنهكها يوم مشحون بالرقص والنط، كان هو يتساءل عما أزال الغضب منه فلا يجيبه إلا الشخير الذي كاد يقلق السيدة في مقامها.

وصمم أن يسهر الليل بطوله ولم يكن هذا سهلا فالنهار قد هده والسفر أخذ منه ولم تبق لديه عافية بعد أن امتصت المشغولية وطول التفكير عافيته.

وطال عليه الليل وهو نصف نائم يرنو إلى ساعة الميدان ويستعجل الوقت الذي يتهادى في بطء ثقيل الدم.

وما جاءت السابعة حتى كان في المحافظة ينتظر الطبيب وينش الناس من حولهما كما ينش الذباب وزغاريد زبيدة تلعلع بلا انقطاع.

وأخيرا جاء الطبيب، وبعد كثير كان هو وزبيدة أمامه، وقلب الرجل الأوراق ثم قال وهو يؤشر عليها:

ـ خذها القصر العيني عشان تتحط تحت الملاحظة..

وأخذها الشبراوي مستسلما وخرج، ومن ترام إلى ترام وصل القصر العيني. وسأل واحدا فلم يجبه، ونظر آخر إلى زبيدة ثم مضى، ودلته تمرجية عجوز على الاستقبال.

واستمع الطبيب إلى زبيدة وهي تهتف بسقوط العمدة وحياة الريس، وضحك كثيرا وهو يسألها فتجيبه وتهلوس وهي تجيب، وكان حين يضحك يرتاح الشبراوي أيما ارتياح، ويطمئن. ولكن الطبيب اتخذ في النهاية طابع الجد وأخبره أن لا مكان لها في قسم الملاحظة. وكتب هذا على الأوراق.

وسأله الشبراوي وروحه تحت لسانه:

ـ وأعمل ايه؟..

ـ روح المحافظة تاني..

ـ تاني!!..

ـ أيوه تاني..

وكان وهو خارج يحمل الدنيا فوق قرنه، وفعلا راودته نفسه أن يقتل زبيدة ويقتل الأطباء كلهم ثم يعمل مجنونا وينتهي. ولكن الأمر لم يتعد حدود المراودة البريئة.

وعاد إلى المحافظة وهو يلهث. وقرأ الطبيب ما كتب الطبيب وقلب الأوراق مرة أخرى ثم فاجأ الشبراوي بسؤاله إن كان قد أحضر أحدا من أقاربها. وأحس الشبراوي بغصة وهو ينفي أنه أتى بأحد.

وأخبره الطبيب أن هذا ضروري لملء استمارة المستشفى، وأن عليه العودة ببساطة من حيث جاء.

وبهت الشبراوي واصفر وهو يقول:

ـ أرجع الدقهلية بيها..

ـ أيوه..

وضربها الشبراوي في عقله فوجد أن هذا أحسن حل..

ولكنه تنبه إلى أمر ذي بال فقال للطبيب:

ـ مش ممكن يا بيه.. دانا معايا استمارة رجوع واحدة بس.. بتعتي..

ـ يابني لازم حد من قرايبها..

ـ أنا في عرضك يابيه..

ـ يابني دي مسؤولية ما اقدرش أتحملها..

وكانت مرارة الشبراوي قد انفجرت من هذه المسؤولية. وقبل أن تتولاه ثورة يحطم معها كل ما أمامه قطعت زبيدة الحديث بزغرودة رطبة، وفي أقل من لمح البصر خلعت ثوبها المهلهل، ثم اندفعت خارجة فجأة، وجرت في حوش المحافظة والكل مذهول قد عقدت

الدهشة أيديه وأرجله.

وكان الشبراوي هو أول من جرى وراءها بكل ما يملك من قوة. وحلق الناس والمساجين والعساكر عليها، وأفلح الشبراوي في الامساك بها فتملصت منه وهي تهتف بسقوط العمدة، وعضته، وصرخ الشبراوي ثم هوى على وجهها بكفه وسال الدم من فمها وأسنانها. وأعيدت إلى غرفة الحكيم وهي تهتف وتتمرد وتزغرد.

وجاء قميص الكتاف وتعاون أربعة على إدخالها فيه.

وتدحرجت زبيدة على الأرض وهي تحاول التخلص والدم يسيل فيلون أسنانها ووجهها وشفتيها، واللعاب يصنع الزبد حول فمها.

وحرر الطبيب الاستمارة على عجل، ووقف الشبراوي مبهوتا يرقبها، وينتفض بدنه مما تفعله في نفسها. .

وذهل وهو يكتشف بعدما وضعت زبيدة في قميص الكتاف أنها مجنونة، وأنها لا تفقه مما تقول حرفا، وليس لها ذنب فيما قاساه، ثم انها لم تأكل ولم تشرب وهي معه ولا حتى حين كانت في البلد.

وشعر بشفقة غريبة تدب في نفسه وهو يراها تتدحرج وتخبط رأسها في الأرض وتتلوى.

وقال له الطبيب: خلاص. .

وانتهت بذلك مهمة الشبراوي ومسئوليته.

وكـان يخيل إليـه أنه سيحيي ليلة لـوجه الله إذا انتهت مهمتـه، وتخلص من زبيدة ومصائبها، ولكنه تلقى الخبر وكأن غيـره هو الـذي يعنيه الخبر.

وجـاءت العربـة وأركبوا زبيـدة فيها وهي تـزغرد وتهتف بحيـاة جلال الريس والناس كلهم يضحكون.

وتحرك الشبراوي كالمطعون ورجا السـائق أن ينتظر دقيقـة، ثم جرى واشترى رغيفا من الفينو وحـلاوة طحينية، وأعـطاها للعسكـري الذي يرافقها وهو يقول له في رجاء حار:

- والنبي توكلها وتخلي بالك منها.. اعمل معـروف وحياة اللي ماتو لك تتوصا بها..

ومضت العربة..

وتسلل الشبراوي من المحافظة إلى المحطة مباشرة وقد شبعت نفسه من مصر ومن الدنيا.. وبين الآونة والأخرى كان يلمح كفه التي ضرب بها زبيدة فيقشعر جسده بخجل لم يحسه في حياته..

بصــــره

ـ آه. . أهو جه. .

ـ ليلتك سودة يا مليم. .

ـ أما حتبقى حتة ملعبة. .

ـ دي حتبقى مدعكه. .

ـ شد حيلك يا حمودة وهات لنا أجله. .

ـ أهو دلوقت تحلى الفرجة ياولاد. .

ومضى الجالسون في القهوة يتقاذفون التعليقات وهم يتسمعون إلى الضحكات العالية التي تترى من الخارج، وقرقعة الصفائح الفارغة، ودبيب الأقدام الثقيلة التي تجري وكأنها أقدام فيل.

وظهر (مليم) السقا في النهاية، ومقهقها صاخبا لاعنا أبا الدنيا ومن تهمه الدنيا كعادته، ووضع صفيحتي (الجاز) الفارغتين والعصا التي فيها الخطاطيف فوقهما، وضحكت عيناه لكل الموجودين في سخرية خالية من الهم، ثم انتحى كرسيا نائيا جلس عليه، ووضع

ساقا فوق ساق، وصفق بيديه كأحسن زبون، فتعالت الضحكات لجلسته وتصفيقه.

وجاء نبقة (الجرسون) يلبي الطلب في احترام مصطنع، وزغده المليم وهو يأمر بواحد شاي بالحليب وكرسي دخان.

وعوى فيه وهو يقول: خلي بالك من الكرسي.. فاهم..

ومضى نبقة عنه سريعا وهو يغني في صوت روتيني ممدود:

ـ صلي عالنبي.. تكساب..

وكأن جلسة مليم قد حلت عقد الألسنة كلها فانهالت عليه لاذعة متفكهة، بادئة بقدميه الكبيرتين العريضتين على قصر وقد جمعتا كل ما استطاع حفاؤهما جمعه من طين، وصاعدة إلى ساقيه العاريتين الوارمتين بالعضلات وكأنهما فخذا كندوز، ثم قميصه الذي كان هو كل ملابسه وقد تحزم عليه بقطعة بالية من شبكة صيد فجعل له (عبا) تدلى له القميص فوق ركبتيه الخشنتين المشققتين. ولا تهدأ الألسن حتى تتمرغ فوق صدره الموشوم عليه فتاة تمسك بيديها سيفا وتختنق تحت غزارة شعر صدره الكثيف الشائخ. وتمتد اللذعات إلى وجهه واصفة إياه بالرغيف المحروق، وقعر الحلة الأسود، ثم تصل إلى صلعته التي كانت الشيء الوحيد الأبيض الماسخ فيه.

كل خذا ومليم جالس لا تخدش النكات جارحة فيه، وإنما هو حكم عدل بينها، يستعذب الحلوة ويستملحها، ويفرق بين السخيف والجديد فيها، ولا يسب صاحب البائخة، ولا يمدح قائل الجديدة،

إنمـا يضحـك فقط إذا أعجبتـه النكتـة. وكـانت ضحكـاتـه من نـوع فريد.. كانت فيها طبول ودفوف وقرقعة صفائح ثم ذيـل طويـل رفيع يختمها به..

ولما بدأ ضحك الجـالسين يهمـد، وقلت نكاتهم وقـدمت، لجأ مليم إلى الحيلة التي يلجأ إليها دائما ليضحكهم، فوضع قـروشا في حلقـه حتى وصلت زوره، ولا يدري أحـد كيف كانت تصـل إلى زوره، ثم دق على رقبته فشخشخت القروش، وضحـك، ولم يملك الناس حينئذ أنفسهم..

وأخيـرا هدأت العـاصفة التي أثـارها مليم بـدخولـه، وكـان المغـرب قـد حـل، وبـدأت العـربـات المـارة في الشارع تضيء مصابيحها، وكان نبقة قـد رش ما أمـام القهوة بـالماء، وفتـح الراديـو على آخره ليجتذب الزبائن، وأشعل الكلوب وعلقه، واستـوت شاليـة النـار في الخارج فـأدخـلها وكلهـا بصابيص متـوهجة ووضعهـا بجوار (النصبة) وغطـى نارها بالرماد لتعيش وتكفي السهرة. وكان المعلم قد اتخذ مكـانه أمـام البنك وطلب فنجـال القهوة السـادة، وأمر نبقـة بتغيير ماء (الجوزة) ليستطيع أن يشرب كرسي المغرب.

وكان حمودة جـالسا بجـوار المعلم وقد أمـال جسده قليـلا في حفز، فمنذ الصباح والكل يتحـدث عن اللعبة التي ستقـوم الليلة بينه وبين مليم، والكل يستعد ويتنبأ.

وقال له المعلم وهـو يمد الغـابة إليـه، فتناولهـا، وجذب نفسـا قصيرا، وأخرج الـدخان، ثم أراح ظهـره على ظهر الكـرسي محاولا

بجهـد أن يلد واحدة من ابتسـاماتـه، وكان يستعمـل ابتسـاماتـه دائماً لإخفـاء ما بـه من تعب. وهو في الحقيقـة كان يتعب، ومـع أنه كـان رجلا طويلا عريضا إلا أنه كان يعمل صبيـا لموقف العـربات. وكـان ينغـرز اليوم بـطوله في الشـارع، والشمس في نـافـوخ رأسـه العـالي المهدل الشعر، وعينه الحولاء التي فيها بياض كثيـر زائغة هنـا وهناك علها تلمح راكبا، وحنجرتـه الراقـدة كالقبـوة لصق عنقه تهتـز وتتعالى وهو يجأر قائلا:

ـ اللي رايح شبين.. شبين والكفر. بتلاتة ساغ لشبين.

وكان يقضي اليوم هكذا ينادي على النـاس ويشحن العربـات، ويتشـاجـر مـع السـائقين عـلى (الفيـة)، ويسب الـركـاب والمـوقف والعفاريت الزرق، ثم يخرج آخر النهار بصوت ما عادت البحـة تؤثـر فيه، وبجاكتتـه التي كانت قميصـا من مخلفات الجيش وقـد ارتداهـا فوق جلبابه الذي كان له لون ذات يوم، وبجيب القميص الـذي على صدره وقد عمر بالقليل من النقود. ويخـرج آخر النهـار بهذا كله إلى القهـوة، وقد يخـرج إلى المركـز، وقد يسـافر في عـربـة ليشحن دور الفجر في شبين، وقد لا يخرج بشيء على الاطلاق..

سأل المعلم حمودة عن الحـال. وسكت حمودة قبـل أن يقول انهـا مثـل اللبن، وحـاول المعلم أن يقيس مـا في سكتتـه من طـول ليعـرف ما في جيبه من نقود، ولمـا اطمأن المعلم قـال وهو (يخمن) الكرسي:

ـ الواد مليم بيتحنجل..

وابتسم حمودة، وحدق في المعلم بعينه الحولاء وقال في اشمئزاز:

ـ دابن (. . .) هو مش حيسكت إلا أما أدبوا عشرتين . .

وجاء الدور على المعلم ليبتسم فتبين سنته الأمامية المطلية بالبلاتين ونفض ما علق في بلغته من تراب وهويقول:

ـ حلو . . آدي الجمل وآدي الجمال . .

وكانت أسماع الجالسين حول المعلم قد اجتذبها الحديث، وأصاخت، فاستعذبت الحديث، وعلا صوت حمودة وترددت صيحته بين جنبات القهوة وكأنه ينادي على الركاب قائلا:

ـ والنبي لما يكون ابن جنية . . دانا أكله . . دانا مضيع عليها شبابي . .

وتلفت الجالسون يبحثون دون وعي عن مليم فلم يجدوه، وارتفعت همساتهم تتساءل. وأراحهم المليم حين أقبل بعد قليل وقد ملا دور الماء للقهوة. وتحولت الأنظار إليه وهو يتمخطر تحت عبء الصفيحتين الممتلئتين واحدة تجذبه بثقلها والأخرى تدفعه، ورجلاه تنتفخ عضلاتهما وهما تأخذان طريقهما بين الصفيحتين في حنكة وخبرة وقوة.

وقهقه مليم لما رأى نفسه محطا للأنظار، ورقص بالصفائح .

وأعجب نبقة رقصه فاتخذ البوفيه طبلة وراح ينقر، وساح

المليم رقصا وقد ترك العصا ترتكز وحدها على مؤخرة عنقه بينما يده قد ارتفعت إلى فوق، والأخرى قد وضعها في وسطه.

وابتسم المعلم، وانفرجت أسارير حمودة، وانهالت اللعنات والألسنة تهري مليم، ثم سكتت الضجة قليلا حين علا صوت المعلم:

ـ اسمع يا واد يا مليم.. فيكشي عشرتين بأربعة صاغ..

ورد مليم وهو لا يزال يرقص:

ـ أربعة ساغ.. أربع برايز.. أربع وقات.. أربعة النينو كوانينو.. كله ماشي يا معلم.. ما يهمكش.. ملعون أبو الدنيا وملعون أبو.. ملعون أبويا.. هأوو..

وتوالت الأحداث مسرعة..

فحالا أعدت أحسن منضدة أمام حمودة، وكانت هي الوحيدة التي لها سطح من الأبلكاش الناعم لولا بعض الحفر السوداء التي صنعتها بقايا السجائر والبصابيص فيه. وتولى الجالسون أمر الصفيحتين فأنزلوهما وأفرغوهما في الزير الراقد بجانب النصبة.. وتولى آخرون دفع المليم وهو يتدلل ويصدر كل الأصوات التي تجيء على خاطره من فمه ومن أنفه على حد سواء، والكل يعرف أنه في لحظته تلك أسعد خلق الله لأنه سيلعب وما أدراك ما هو المليم حين يلعب؟..

وما أن استوى مليم في مكانه حتى تلفت حوله ثم دق المنضدة

بجمع يده وهو يقول كالأسد:

ـ أجدع كوتشينه يا وله..

وعاد نبقة مسرعا بالكوتشينة الوحيدة الجديدة في القهوة، وما كانت جديدة، بل كان المعلم يحضرها من نادي الموظفين حيث يلعبون بها البوكر ليلة أو ساعة من ليلة ويتركونها جديدة أو تكاد ليشتريها المعلم وأمثال المعلم.

وألقى نبقة الدستة بدراية فجاءت كما أرادها وسط المنضدة تماما. وسرعان ما امتدت إليها يد المليم فأخرجها من العلبة، وقبلها وهو يلعن أباها ويقهقه، ثم يبلل إبهاميه بالكثير من لعابه وعدها بطريقته الغريبة السريعة والأنظار كلها بين أصابعه، ثم فنطها وجعل وسطها في طرفيها، ثم جعل طرفيها في وسطها ووضعها وهو يدق المنضدة في قوة ويقول لحمودة في تحد:

ـ اقطع..

وكان حمودة ينظر إلى حركاته في اشمئزاز ظاهر وليس بينه وبين صفعه إلا قراريط معدودة، وقبل أن يرد على تحديه وقف نبقة كالزوال ووضع يده فوق (الكرت) قائلا:

ـ عايزين ايه..

وطلب حمودة شيشة، وطلب المليم كازوزة بالثلج، ولم يتحرك نبقة إنما قال:

ـ كمان طلبين تانيين.. دي الكوتشينة الجديدة يا عالم.

وحدق فيه الاثنان دون أن ينطقا بحرف، واستدارت نظراتهما

إلى المعلم تستنجده ولكنه هز رأسه مؤمنا على كل كلمة قالها صبيه، وفي استسلام طلب كل منهما مشروبا آخر.

وأيضا لم يتحرك نبقة إنما قال في لهجة حاسمة:

ـ ايدكو عالتأمين..

وفي تهور أخرج مليم قرشين من ظرف جواب قديم كان يضع فيه كل ما يملكه من نقود، وكان يدسه دائما بين طيات حزامه.

وفي بطء وامتعاض استخرج حمودة شلنا ورقا من جيب قميصه ورماه بقلة اكتراث على الطرابيزة.

وفرق مليم..

وبدأ اللعب..

* * *

بدأ اللعب في هالة من الصمت الجاد لفت اللاعبين ثم اتسعت حتى قتلت كل الهمهمات التي كانت تنبعث ممن حولهما. ولم يكن هؤلاء كثيرين، وكانت نفس الوجوه التي يسيل عرقها كل مساء ويلمع تحت سطع الكلوب وهي تحملق في الأوراق التي على الطرابيزة، والتي في أيدي اللاعبين. وكان الجالس على يمين مليم، والواضع كتفه فوق كتفه حتى ليكاد ينحيه عن كرسيه، كان عبد الودود، وهو رجل لا هشة له ولا نشة، له ثلاثة قراريط يزرعها فجلا وطماطم، ومزاجه الذي يؤرقه أن يجلس في القهوة يراقب اللاعبين،

ويزجر هذا في لطف وضعف لأنه يغالط، ويناصر صاحب الحق ان كان هناك صاحب حق. وكان كعادته يلوك في فمه متلذذا حبة نعناع فهو لا يدخن ولا يحشش ولا يشرب الجوزة إلا معزوما، ومع ذلك فقد كان حريفا كبيرا، ولكنه تاب عن لعبها حين أقسم من عام مضى بالطلاق ألا يلعبها، ولم يحنث في قسمه، واكتفى أن يجلس جلسته تلك إذا ما انتصب المجال، ويهتف في فرح للعبة الحلوة ويمصمص حبة النعناع لكل لعبة تفلت.

وكان مصيلحي يجلس بجوار محمد ويزاحمه محاولا أن يجد له منفذا إلى المنضدة، ومصيلحي كان تلميذا في المدارس، صغيرا إذا ما قورن بالكبار الجالسين حوله، ولكن ذلك لم يمنعه أن يكون أكثرهم نقودا في بعض الأحيان ولم يحل بينه وبين أن ينازل واحدا منهم في كثير من الأحيان، وكأنه كان يجد في الكوتشينة والقهوة سحرا خاصا يجذبه بعيدا عن أصدقائه ولداته من التلاميذ أمثاله، فكنت لا تراه إلا جالسا في القهوة بجلبابه النظيف، لاعبا إن كان هناك مجال للعبه أو متفرجا متحمسا إن عز المجال.

ثم كان هناك الشافعي وأبو الخير وعبد ربه وهم أنظف الموجودين من كل ما يمت إلى المعاملة بصلة. كان لا عمل لهم في القرية فموسم العمل قد انتهى فكانوا يأتون كل يوم إلى البندر علهم يجدون عملا، وكانوا لا يجدونه، فتلمهم قهوة المعلم بلدياتهم، وكثيرا ما كان يزجرهم، وغالبا ما كان يتركهم حين كان يجد لأكتافهم البلوطية وأذرعهم البرية عملا عنده، وكفاهم ثمنا أن يجلسوا على

القهوة.

وكانوا هم الآخرون يزاحمون ويبحلقون، وتعلموا الكوتشينة من كثرة ما زاحموا وبحلقوا، وكان حلمهم الأكبر أن تفضي دستة قديمة تآكلت أوراقهاوتمزقت حتى ينتحي بها أبو الخير وعبد ربه جانبا ويلعبا، ويعد لهم الشافعي الأبناط، فمع أنه كان أضعفهم بنية إلا أنه كان الوحيد الذي يستطيع أن يعد حتى يصل المائة.

وانتهت العشرة الأولى..

ومع أن الأولى ليست دائما بذات قيمة، وكل واحد يحاول فيها أن يختبر حظه ويتعرف مهاوي زميله ويريح التوتر الذي في أعصابه والذي سبق اللعبة، مع هذا إلا أن المليم حمرق، وأصر على أنه هو الغالب.

وسواء كان غالباً أو مغلوباً فقد كان له إصرار عجيب على أنه الغالب حتى يلومه الموجودين كلهم ويقنعوه بأنه المغلوب. وكان يوافق حينئذ على مضض كأنه مظلوم مهضوم.

وهكذا لعب مليم، فمع أنه كان حريفا لا بأس به، ويجيد (الدق) والاستدراج والتفنيط إلا أنه كان يعتمد، أكثر ما يعتمد، على الضجة التي يصنعها، والإهانة التي لايني عن توجيهها لخصمه، ومع هذا فقد كان الكل يعجبون لخارق عاداته، كان يكفي أن يضع أوراقه بين سبابته وإبهامه ليعرف كم زوجا ناقصا على أخذ الورق، وكان ماهرا في دس الأولاد والعشرة الطيبة والورق الثمين لتكون من

نصيبه. وكان يفعل هذا ويخفيه بزعيقه وغلبته، وهزة وسطه، وملايين الصلاة على النبي، ووحدوه، التي يجأر بها بين كل لحظة وأخرى.

ويا سلام لو جاءته بصرة.. كان يقف نصف وقوف ويزغرد أو أن كان متحمسا يستعجل فيصرخ، ثم يدب الورقة بكل ما يملك من قوة على الطرابيزة قائلا: بصره.. شاهدين..

وغالبا ما كان هذا يدفع الغضب إلى زميله، ويشوش تفكيره، فلا يستطيع أن يحسب ما فات من أوراق أو أن يخمن ما سيجيء، وحينئذ يضطرب ويلقي له بأي ورقة فإذا بها بصرة ثانية..

وكان حمودة أتعس خصم لمليم، فهو ليس صاحب كلام كثير، وإذا تكلم خرج كلامه سريعا موجزا كأنه طلقات مدفع سريع، وما أقرب ما يغضب، فيمط وجهه حتى يصبح طويلا كاللبانة الممدودة، وتتنافر عيناه، ثم تتوالى الطلقات من فمه، ويثور.. كان هذا حمودة على طبيعته، أما حين كان يلعب مع مليم فكان حينئذ لا يتكلم، ويكسو وجهه قناع متحفظ جامد، فقد كان يرى أنه بلعبه مع مليم انما ينزل عن مستواه، فهو ابن عيلة، ومليم هذا لا يعرف أحد كيف جاء إلى البلد ولا من أين جاء، فقد أصبحوا يوما ووجدوه بينهم، وما زال كما كان يوم جاء صائعا هلفوتا، يملأ صفائح الماء للمحلات من حنفية المجلس البلدي، كل صفيحة بمليم، وينام حيثما اتفق، في القهوة حينا وفي الخرابة التي وراءها حيث يقوم السوق حينا آخر. صحيح أنه يقول أنه من الغربية، ويهدد كل يوم بترك البلدة والذهاب إلى أهله في بلاد العز، ولكنه لم ينفذ تهديده أبدا..

ثم ان حمودة متزوج وله بنتان أما هذا فلا زوجة له ولا ولد وإنما هو يلف تارة مع فيفة السبارسية وأخرى مع أم الشحات العجوزة صاحبة الغرزة.

وحمودة كان يرى نفسه متعلما فقد قضى عاما في المدرسة الالزامية، أما مليم فأين تعلم.. انه أمي جاهل لا يجيد إلا الرقص والدق على عنقه حتى يشخشخ.

من أجل هذا كان حمودة يعامله بحرص، وإذا ضايقه مليم بصراخة وجعجعته كان يلقي عليه نظرة بجانب وجهه الذي فيه عينه، ويكز على شفته ثم يسكت..

وعلى هذا اشتد الخلاف على العشرة، وكان المتفرجون يقولون ان حمودة هو الغالب، وكانوا يقولونها في قسوة ليست غريبة عليهم، فهم يخذلون المغلوب مهما كان المغلوب، ويشيع فيهم سرور وحشي وهم ينهشون كل ما يبذله الخاسر من محاولات يائسة للنيل من انتصار زميله. واستسلم مليم في النهاية بقحة غاضبة وهو يزأر ويموء غير موافق، وطالب أن يولوا الحساب واحدا له ذمة. واقترح الجالسون «الأستاذ» مصيلحي، ووافق اللاعبان وكل منهما يمدحه بكلمة. وانتشى مصيلحي وقد أسعده أن يرتضوه حكما وأمينا..

ودار اللعب..

كان مليم يمسك الأوراق متقاربة ويكاد يلصقها في صدره، ولا

يفتحها إلا بحساب. وكان يراقب حمودة في دقة وحذر وهو يفرق، ويفتش الورق في كل مرة (يقش) فيها حمودة ولا يطمئن إلا إذا رأى الولد بعينه.

وكان لا يكتفي بتفنيط حمودة فيمسك الدستة ويكاد يمزقها تفنيطا لولا زغرات المعلم التي توقف كل شيء عند حده.

وعلى النقيض، كان حمودة يمسك أوراقه مفرودة مبعثرة في غير اعتناء فيعطي مليما الفرصة لكي يعرف أوراقه بنظراته المختلسة المتلصصة. وكان لا يجاري مليما في شكوكه وظنونه السوداء، إنما كان مخه هو الذي يعمل فقط، فهو يحسب كم ثمانية تبقت، وهل انتهت السبعات أم بقيت الكومي، وساعات كان يغلبه طبعه فإذا بدا أن العشرة سيخسرها كان يتصنع الغباء، ويبدأ في العد من جديد، ويناكف ويغالط ولكن بغير ضجة أو ضوضاء.

وكسب مليم العشرة الثانية..

وتنهد الجالسون في ارتياح، فمعنى هذا أن تستمر اللعبة.

وسكت حمودة فلم ينطق بحرف، ولم يهدأ مليم فقام ورقص هنيهة وهو يزعق بملء صوته ثم جلس.

وعلى ذلك أصبح كل منهم مغلوبا في عشرة، وبدأوا يلعبون عشرة أخرى ليتخلص أي منهم من غلبه ويصبح الثاني مغلوبا في العشرتين.

وهكذا بدأ التطبيق..

ومعه بدأ الحماس، حماس المتفرجين، فالتطبيق يكون عادة أحمى من العشرات الأولى، ففيه سينجلي من يتحمل الحساب وحده.

وكذلك بدأ حماس اللاعبين، وإن كان يشوبه بعض الاطمئنان فعلى فرض أن أحدهما خسر العشرة، فله أن يلعب عشرتين «فرق»، ولا يستطيع الجالس أمامه أن يقوم إلا إذا غلبه مرتين متتاليتين. .

وهكذا، فالأمل ممدود، واللعبة بدأنت تزهو، والليل طويل، ولا شيء يعدل ما هم فيه من لذة محمومة.

ودور في الثاني في الثالث راحت العشرة، وأصبح اللعب كله عند مليم، ولم يحزن، ولم يثر، وكذلك لم يضحك أو يرقص، بل اندفع على الفور يقول بصوت هادئ وفي عينيه ألف عفريت:

ـ الفرق. .

وابتسم حمودة ابتسامة صفراء وهو يقول بصوت فيه نخوة وعدل:

ـ اديك فرق زي مانتا عايز. . أصول لعب. . والّلا ايه يا اخوانه. . ماتقولوا. .

ويزوم الإخوان، وتتمشى بينهم موجة أمل وفرح، وتصبح الموجة عاصفة حين يقول مليم وهو يطلب المشروبات على الفرق:

ـ أنا مش عايز حاجة. . شوف الرجالة يشربوا ايه يا نبقة.

ولا يتخلف حمودة بل يسرع قائلا:

ـ هات لي كرسي دخان.. وهات للأستاذ حاجة.. والمعلم تعميره..

ويتهلل الجالسون المتفرجون وقد حانت لحظتهم، ويطلبون، وينتقون ويوصون، ويعرفون أن فائدة الفرجة قد هلت..

ويبدأ اللعب في عشرتي الفرق..

ولهذا تنظف المنضدة. ويزيح حمودة عبد الودود الراقد فوق كتفه، وتتخلخل الكراسي وتتباعد، ويتقارب بعضها، ويسود غير قليل من الهرج والمرج..

ويغمز المعلم لنبقة، ويأتي نبقة كالزوال، ويمد يده، ويلعب أصابعه دون أن ينطق حرفا..

ويدق مليم على زوره وهو يضحم ورقبته تشخشخ، ثم يخرج من فمه أربعة قروش..

ويبدأ اللعب وقد قل الضحك، وزاد التربص، واشتدت رقابة مليم على أصابع حمودة، بينما الأخير قد أدرك أن مليما يرى ورقه فحاول أن يحتفظ به مضموما مخفيا، وسرعان ماسها عن محاولاته فعادت أوراقه إلى ما كانت عليه..

* * *

كان الراديو قد انتهى، وعزف السلام ومضت بعد هذا ساعة،

وكان نبقة قد أتى بالمقاعد من الخارج ورصها صفوفا بجوار الحائط، ثم لم ضلف الباب الأربعة وأغلق ثلاثا منها. وكان الكلوب ما زال يوش ويهمس وإن كان نوره قد ضعف، وكان مليم وحمودة جالسين جلستهما، والورق مفروشا أمامهما، والمتفرجون قد تسرب النوم إليهم فقاموا ولم يبق إلا الأستاذ ماسك الحساب. وعند البنك كان المعلم يحاسب نبقة، وكانت هناك خمسة قروش ناقصة، وكان الصبي رابضا على الأرض عند قدمي المعلم مسندا ظهره إلى الحائط محاولا أن يلم في رأسه كل الطلبات «الشكك» التي أخرجها، وأن يجد بينها الخمسة قروش. وكان المعلم مريحا رأسه على البنك ووجهه إلى نبقة، ويكاد يغرز الماشة التي أمامه في عينيه، منتظرا نتيجة محاولاته على جمر خبيث. .

والذي حدث أن نبقة لم يتذكر، وإنما فوجئ هو والمعلم بصوت مليم يوقظ القهوة من سكوتها، ويهتف كأنما زال عنه الطاعون:

- راحت. .

- راحت ايه يا حلوف.

وقبل أن يتحرك المعلم كانت المنضدة قد قلبت، وبعثرت الكوتشينة على الأرض، وكانت يدا حمودة حول رقبة مليم ضاغطة عليها.

ولم يتحرك المعلم، وإنما حدق كالصقر وقال:

ـ بس يا بهيم أنت وهوه . .

وفي نفس واحد، وفي كلمات ملتهبة متلاحقة، قص كل منهما قصة تختلف عن الأخرى تماما، ولم ينس كل واحد منهما أن يستشهد بالأستاذ . .

ولم يقل المعلم شيئا إنما ظلت عيناه محدقتين في ثبات مريع . وسكت الاثنان، ثم انحنيا يجمعان الأوراق المبعثرة ويعيدان المنضدة والكراسي إلى حيثما كانت، وفي هدوء ساكت جلس مليم وقد أقر بغلبه، وكان معنى هذا إن اللعب قسم، ومعناه أيضا أن هناك «تطبيقاً» على كل اللعب، وأن هناك فرقا بعد التطبيق .

وأخيرا غض المعلم من بصره، وقال ولهجته ونظراته وبهتان ابتسامته تعني جميعها عكس ما يقول :

ـ ما كل واحد يشيل النص . . وننتهي يا سيادنا . .

وهب الاثنان في نفس واحد يرفضان . كان عند كل منهما الأمل أن يخرج من اللعب سليما، وأن يقضي السهرة ويسقي المشاهدين وأصحابه على جيب الآخر، ثم يتندر بانتصاره أمام الرواد أسبوعا أو أسبوعين . .

وقال المعلم وقد انفثأ غضبه وكأنه يسلم بالقضاء والقدر :

ـ على كيفكو . أنا معاكو يا سيادنا لآخر الطريق . . أما نشوف . .

ثم أكمل وكأنه كان ناسيا:

بس ايدكو عالتأمين. .

وأخرج مليم كل ما معه وأحصاه فوجده ينقص عن التأمين نصف قرش، واحتار قليلا ثم أخرج علبة سجائره من عبه وأخذ منها السيجارتين الباقيتين وأكمل بهما التأمين.

أما حمودة فلم يكن قد بقي معه شيء فأخرج من جيبه مطواة لها سلاح طويل، وناولها للمعلم. وأخذها الرجل وتفحصها، وفتحها وقفلها وعين حمودة تبرق وهي ترقبه بينما مليم هاجع ساكن.

وقال المعلم وهو يهز المطواة في يده: ما تكفيش. .

- ودين النبي أنا شاريها من طنطا بخمستاشر ساغ يا راجل حرام. .

وقال المعلم مرة أخرى: ما تكفيش. .

وخلع حمودة قميصه، واكتفى المعلم. .

واستأنفا اللعب. .

كان نور الكلوب قد شحب كثيرا، وكان «الأستاذ» ليس في عينيه ذرة نوم، وحماسه لم يفتر لا للعب، فما كان هناك لعب، إنما للعمى الذي أصاب اللاعبين فأصبح كل منهما يسرق سرقات ساذجة مكشوفة ومع ذلك لا يراها زميله، وكل منهما يرمي البصرة ولا

يلحظها الآخر أو يشعر بها. وكان «الأستاذ» عن كل هذا ساكتا لا يفتح فمه.

وانتهى المعلم من حساب نبقة وخصم القروش الخمسة من يوميته، وانتحى ركنا وجلس يلتهم العشاء الذي أحضرته له امرأته من المغرب بعد ما عزم بفتور على الجالسين. وبعد أن غسل يديه جلس ينتظر نهاية اللعبة ويسمع ما يدور..

كان حمودة إذا سبق يشم نفسه ويقول:

ـ العب يابو صفايح يا نتن.. والنبي مانا مخليك تعرف وشك من أفاك.. والنبي لمتوبك عن مسكها..

وكان مليم إذا اجتاز حمودة بأبناط قليلة يصرخ، ويزغزغ نفسه، ويقلد الديكة والمعيز والحمير، ولا يرد إلا بقوله:

ـ كله ماشي.. كله عال.. صلي على سيدك.. أهي دي تاكل دي.. ودي تروح مع دي. يا سلام يابو الملاليم.. والنبي حقيتك تبقى نص ريال.. بصرا..

يقولها ملء فمه، وملء قوته، ولا يسكت إلا حين يناوله المعلم كلمتين كاللكمات.

ولما قاربت العشرة على الانتهاء جاء الرجل بنفسه وجلس يشهد ويراقب ويحكم.

وخسر مليم فأمسك بالمنضدة في قسوة وأربدت ملامحه وقال:

ـ إزاي . . إزاي . . احسبــوا تـاني . . مش معقــول . . احسب ياسي أستاذ .

غيـر أن شهادة المعلم الـواثقة الخـافتة المـطمئنـة جعلت غيـر المعقول معقولا .

وبانت الهزيمة على مليم حين قال بصوت غليظ :

ـ العب الفرق يابن (. .) .

وكـان الفرق يعني تـأمينا جـديـدا . وقـال مليم للمعلم بصـوت منخفض متوهما أن حمودة لا يسمعه :

ـ خلي التأمين بأجرة الشهر الجاي . .

وهز المعلم رأسه قائلا :

ـ ما ينفعش . . هو حد عاش . .

وكأنما أهان رده مليما ، فقال بكبرياء ضعيفة مجروحة :

ـ يكفيك الصفايح يا معلم . . خدهم . .

ـ الاثنين بستة ساغ . .

وبحلق فيـه مليم ولم يقل شيئـا ، ولكنه مـد يده يفـرق . ولكي يخلص المعلم ذمته من الله أخرج من جيبـه ثلاثـة قروش هي كـل ما تبقى بعد التأمين ووضعها أمام مليم .

وأشـار المعلم لنبقة حتى يحضـر الطلبـات ، ولكنـه تـوقف في

منتصف إشارته وقد تذكر شيئا فقال وهو يبتسم :

ـ ايه رأيكو ياولاد . . فيه سمك ورز . . تاخذوا الفرق منه .

ووافقا في التو فقد كانا جائعين ، وقد أصابهما غثيان من كثرة ما عبا من قهوة وشاي ودخان .

وأحضر نبقة بقايا عشاء المعلم . .

وفي دقائق اختفت البقايا . .

ومن جديد فنط حمودة الكوتشينة . .

وبعد أن ألقى بتعليماته لنبقة ، وهمس له أن لا يدعهما يلعبان إلا عشرتين فقط ، خرج وقفل الباب وراءه .

* * *

قبل شروق الشمس ، كان المعلم يأخذ طريقه إلى القهوة وهو يتمتم بختام صلاة الصبح ، ويده ترفع ثوبه من خلفه ، ويده الأخرى تحرك مسبحته الكهرمان في رزانة وخشوع .

وحين فتح الباب بمفتاحه كانت القهوة يسودها ظلام تخرقه خيوط من ضوء ما قبل الشروق التي تنفذ من الثقوب الكثيرة في نافذتيها ، وفي حائطها نفسه . وكان هواؤها ثقيلا فيه دخان وله رائحة ، وكان الكلوب مطفيا ، والأرض عليها أكوام من تفل الشاي ، وقشر السوداني ، وورق المعسل الفارغ ، وفيها برك صغيرة من ماء أسود حالك .

وكـان نبقة راقـدا يشخر على كنبـة طويلة وقـد تعرت سـاقـاه وتعلقت إحداهما في الهواء.

وعلى المنضدة الأبلكاش، كان هناك مليم وحمودة وقد ألصقـا رأسيهما ليستطيعا رؤية الأوراق على ضـوء اللمبة «أم سـاروخ» ولهيبها يتلاعب وينفث هبابه فيسود وجهيهما، ويلتهم ما شاء من شعر حمودة النافر في كل اتجاه. وكان الأستاذ هناك أيضا وقـد ربع يـديه ووضـع فوقهما رأسـه، مـائـلا إلى اليمين ليلمح أوراق حمـودة ثم مرتـدا إلى اليسار ليرى ما عند مليم.

ويبدو أن أحدا لم يحس بمقدمه، أو ان كانوا قد شعروا فـإنهم لم يبـالوا بـالقادم ولا بمن يكـون. ولكنهم أفاقـوا تمامـا على صـوت المعلم وقد عادت هامته إلى الارتفاع، وجحظت عينـاه على آخرهمـا في غضب واستنكار ودهشة:

ـ يا فتاح يا عليم.. هو أنا حقلبها قمار.. هو انتـو موظفين يـا ولاد الكلب يـا جعانين.. واد يـا مليم.. واد يـا حمـودة.. فـز أنت وهوه عمى في عينك منـك له.. أصـل العيب مش عليكو. العيب على الصايع دهـه..

وشـد المعلم نبقـة من رجله المعلقـة في الهـواء فـرمـاه على الأرض، وصحا الولد شاهقا هالعا، ولكنه لم يمهله فانهال عليه بكفه ومسبحته وبلغته وقدميه..

وهنـا فقط تحرك الثـلاثة الـذين كـانـوا واجمين مسمـرين على

مفاجأتهم الأولى وكأنهم ضبطوا متلبسين ولا أمل لهم في نجاة. كان أولهم الأستاذ الذي انسل كالنسمة مغادرا القهوة، وتبعه مليم وحمودة وكل منهما يجر نفسه جرا وعيناه مطفأتان محمرتان فيهما تعب مريض، وقد تجمعت نقط بيضاء جافة على أركانهما، ووجهه ممتقع أصفر يختلط فيه الإنهاك بهباب المصباح. وليس في رأسيهما إلا طوابير من العشرات الطيبة والأولاد ومئات البصرات. وامرأة حمودة وبناته وصفائح مليم والغربية بلده.

ومضيا على غير هدى في الضوء الرمادي الباهت.

المكنــة

كانت ادارة(مكنة) الطحين، مثل كسوف القمر، ووهج البرق، احدى الطلاسم التي لا يفهمها أحد، ومع هذا فالناس كانوا ينتظرون ادارتها بصبر فارغ، ويحسبون ليوم الطحين ألف حساب، ويحمدون الله أن هيأ لهم مكنة قريبة من البلدة.

ولم يكن أحد يدري متى بنيت ولا كيف أحضرت عدتها مع أن الشيخ الهادي العجوز يزعم أنه رأى بعينه(الونش) الذي حملها، ولكن الجيل الحديث لا يطرق باله هذا الزعم ولا يصدقه فمن يومه وهو يراها هكذا قائمة ثابتة كالجميزة الطاعنة، ترسل دقاتها مثل القلب النابض بنغم منتظم رتيب.

وكان الناس حين يمرون فوق السكة الضيقة المؤدية الى الطريق الزراعي، ويرون باب المكنة مفتوحا، وشبح الاوسطى محمد يروح ويجيء داخلها يدركون من فورهم انها سرعان ما تدور، فيلقي كل مستعجل نظرة خاطفة الى الباب، ويتلكأ من ليس وراءه عمل، وقد يجلس البعض فوق كومة السباخ القريبة. يحدث هذا من بعيد لبعيد، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب، حتى الأولاد الذين كان الطفل

منهم مستعدا أن يتنازل عن الرغيف الذي في يده أو الجلباب الذي يرتديه على اللحم ليستطيع مشاهدة ما يدور في الغرفة المظلمة المصنوعة من الصاج. . حتى هؤلاء الصغار كانوا غير راغبين في المجازفة بأعمارهم والاقتراب، فالكل يعلم أن الاوسطى محمد هناك وانه الآن في أتعس حالاته، ولو وضع انسان عود كبريت على طاقة أنفه في هذا الوقت لاشتعل العود.

والذي يرى الاوسطى محمد في غيظه وحنقه يعجب حين يشاهده يدخل المكنة في الصباح، يربت على العدة القديمة المهروشة المتآكلة بيده ويطمئن الى سلامتها، والى أن ذارت الدقيق الناعم لم تتسرب من حجرة الطحين ولم تفسد خضرة دهانها الذي لم يبلى. ويدور الأوسطى محمد حولها، ويفرغ وعاء الزيت، ويعمر الوابور ثم يشعله، ويضعه في مكانه من العدة حتى تسخن(طاستها)، ولا يتوقف أثناء هذا عن دق أشياء بداخلها، وتلمس أشياء، وتجربة مسالك ومقابض حتى يرى بينه وبين نفسه أن الوقت قد حان، فيضع رجله في(الحدافة) الكبيرة الضخمة، ويستند بذراعيه القويتين الى الحائط، ثم يستعين بالسيد البدوي ويدفع العجلة.

وقد تقوم(المكنة) في ساعة، وقد لا تقوم، فيسب لها الاخضرين. وقد تعمل مرة، ويتصاعد صوتها الحبيب الى نفسه من المدخنة الحديدية ولكنه لا يلبث أن يتلاحق وقعه، ويهبط حتى يموت ليعود الى اشعال الوابور وتسخين الطاسة.

ونـادرا ما كـانت تقوم قبـل العصر بعـد أن يكون الاوسـطى قد هدهد عليها وهو حانق، واستعطفها وهو يكاد ينفجر، وتحايل عليها، وداعب(البستم) ونغمش «الشناير» بأصابعه.

وحين يتم قيـامها كـان الاوسطى ينتـظر قليـلا ليـطمئن أنهـا لن تفعلها معه وتقف، وان العادم تمام، و«البوبينات» شغالة بالمضبوط.

وكان حينئذ ينفض يده منها، ويمسحها بقطعـة«الاصطبـة» وهو يقول بكل الحقد الرؤوف الذي في قلبه عليها:

ـ الله يلعن أبو أصحابك. .

وكان وهو يستدير لا يستطيع اخفاء شبح ابتسامة راضية يداريها عن المكنة وهو يخرج. وكان يغادر الباب المـظلم وعليه غبـرة وزيت وشحم، وهو لا يني عن مسح الجاز والعرق الذي في وجهه وذراعيـه وصدره بقطعة«الاصطبة» ثم يضعها في حرص بجوار الحائط الصاج.

ويمشي إلى الخليـج القريب حيث يغمـر كل مـا هو بـائن من جسده بـالتراب ويـظل يـدعكـه حتى يتحـول إلى طين أسـود يغسله فينـداح الزيت والجاز على سطح الماء في حلقات.

ويعـود بعد هـذا الى جلستـه المختـارة تحت شجـرة الخـروع بجوار حائط المكنة وفي مواجهة بابها، وتكون الادوات جاهزة فيتربع ويشعـل النار في الاصـطبة من الـولاعة النحـاس التي صنعهـا بنفسه. ويغلي الماء في الكوز الـذي له يـد طويلة من السلك المبـروم ويظل يغلي الشاي حتى يستوي ويخرط مرات.

ولا يستطيع انسان أن يحدثه قبل أن يرتشف في بطء حكيم وفي خبرة الكييف القطرات الأولى من الشاي ذي الكيان الأسود.

وكان الناس يقولون ان في شايه رائحة الجاز، وانه يلقط من الزيت الذي لا تخلو منه يده، ولكن كل من شاركه مرة كان يؤكد ان الجاز، ان كان هناك جاز، يضفي على الشاي نكهة ذات مزاج لذيذ، ويجعل له مذاق العنبر.

وكان الاوسطى محمد لا يتحدث كثيرا، واذا تكلم فإنما لينفض متاعبه، ويروي كيف حرنت(مكنة) الطحين، أو كيف انزلق السير عن الطارة، أو ضبط ذات مرة امرأة من حاملات المقاطف تحاول دخول غرفة العدة، وهم ببعثرة ما تحمله لولا تدخل الناس.

وكان اذا انحرف الحديث وخرج عن المكنة، ينطق بكلمة أو كلمتين، وكان كلامه في المليان فهو لا يعجبه الحال المائع، ولا الثرثرة التي لا فائدة منها.

وكان مستمعوه، القليلون، وهم دائما قليلون، ينظرون الى وجهه الذي احترق الجزء الأسفل منه وبقي الجلد مكانه سميكا لا ينبت فيه شعر ذقنه التي كثيرا ما يتركها تنبت وتترعرع، ولا تفلت العيون شاربه الذي لا هو بالكثيف أو الخفيف وانما منفوشة نهاياته ومتفرقة، ذائبة في لحيته النامية.

كان مستمعوه ينظرون اليه ثم يهزون رؤوسهم موافقين وقانعين بالسكوت فإنهم يعرفون أن لا نتيجة من وراء جداله، وانه اذا قال

شيئا لا يتحول عنه ولو أعطوه مال قارون .

ولم تكن لهجته تتغير حتى حين يكلم الحج طه، والحج كان يستأجر المكنة من صاحبها الذي له في البندر بيوت وماكينات ولم يكن الحج أول مستأجر ولا صاحبها أو صاحب. ففي خلال أعوام كثيرة تقلبت من يد الى يد، وانتقلت من بائع الى مشتر ورهنت مرات وفك الرهن، والاوسطى محمد يتنقل معها ويلف، وليس بينه وبين مستأجرها كلام أو سلام، فالحج جالس في غرفة الطحين يزن المقاطف والاجولة على(الطبلية)، ويحاول مغالطة الزبائن في كيلة، أو نصف كيلة، ويحاول الزبائن الجور عليه، واستعطافه واستجداءه اذا لم ينفع الجور أو يجدي . .

والاوسطى محمد ليس له داع بما يحدث فالعدة هي كل دنياه . لم يكن له زوجة، فقد ماتت من أمد طويل بعد أن خلفت له شحاته . وما تزوج بعدها أو فكر في الزواج، وانما علم شحاته، وكان يطمع أن يرثه في صنعته، ولكن الولد خاب وفسد، وبعد أن رأى الويل في تعليمه أصول الكار ذهب واشتغل صبيا على عربة نقل في البندر، وكثيرا ما كان يبيت هناك فلا يراه أبوه أو يسمع عنه .

ولم يكن الاوسطى محمد ساخطا على ابنه أو غاضبا منه، وكان اذا جاءت سيرته أو حكى واحد انه رآه، يصمت وتتعمق ملامحه ثم يقول :

ـ خليه يشوف اللي شفته . .

وأهـل البلد كلهم كـانـوا يعـرفـون الاوسـطى ويسلمـون عليـه ويحيـونه، الا أنـه لم يكن يعرف منهم، مـع طول اقـامتـه بينهم، الا القليلين. ولم يكنن يسهـر اذا عن له السهـر الا مع عـائلة الهـواشمـة التي تصنـع الاقفاص، فكـان يضمهم سطح منـزلهم، ويجلسون بين أكوام الحطب، وتدور كراسي الدخان الحاف، ثم يتركهم الاوسـطى ويذهب لينام في بيته ذي الغرفة الواحدة التي لها طاقة صغيرة عاليـة، وكان قد استأجر البيت يوم جاء بخمسة قروش في الشهر من نعسـة أم هاشم. وماتت نعسة وتركت لـه بنتها التي تـذهب اليه كلمـا قرصت الحاجة زوجها، وعلى كل ثدي من أثدائها ذباب وطفل معلق، تطالبه بالقرشين.

وكـان يدفـع لهـا على مضض، ووجهـه معقـود، فـأجـره كـان ضئيلا، ومع هذا فما طالب بزيـادة أبدا، فقـد كان يضن بكـرامته أن تخدش اذا رفض الحج طلبه، وكان قانعا بـالمكنة، واضعـا فيها كـل همـه، حتى قطعـة الأرض الفضاء الصغيـرة التي أمامهـا ظل يـرشهـا ويـرويهـا ويـزرعهـا حتى أصبحت جنـة، وحجـرة المكنـة كـانت كالعروسـة، وكان يضن بـدنياه المحـدودة أن يرشقهـا واحد بنـظرة أو يستحل لنفسه التطلع اليها أو الجلوس فيها.

وكان الناس يعـزون انطواءه على نفسـه ومكنته الى انـه مصاب بداء الكبر ولهذا فأنفه دائما في السماء، بل كان يذهب الذاهبون الى انـه مـريض بـالسـل، وأنه السبب في اعتـداده وفي وجهـه الـذي لا ينفك.

وذات يوم حدث شيء لم يتوقعه أحد . .

فقد فاجأ الاوسطى محمد ابن الحج طه داخل غرفة العدة وهو يحاول أن يلمس الحدافة الضخمة الدائرة. ورأى الاوسطى أن السير يكاد يلهف ثوبه ويقطعه، فعلق الولد من أذنه وهو يفركها في غيظ بين أصابعه، ثم سحبه الى الخارج كالعنزة العاصية.

وذهب الولد باكيا منتحبا الى أبيه، وفار دم الرجل وجاء مسرعا الى حيث كان يجلس الاوسطى تحت الخروعة يصنع الشاي. وقال له بوجه أصفر عليه قطرات صغيرة من العرق، وبعينين زائغتين، وشفاه مرتجفة:

ـ يا أوسطى محمد. . شوفلك شغلة تانية . .

ولم يتحرك الاوسطى أو يثور، وانما ظل ممسكا بالكوز، رافعا بصره الى الحج، محدقا فيه، ثم قال بعد برهة وبعد أن جاهد ليبتسم حتى أعوج شاربه:

ـ بس كده. . حاضر. .

وشرب شايه على مهله، ثم قام وأوقف المكنة، ولم أشياءه، ومضى. .

خرج الاوسطى محمد من هنا، وبدأ الناس يتقاطرون على الحج طه الذي كان لا يزال يرتعش، ويحاولون ارجاعه عن قراره. واستمرت المحاولات دون فائدة، ودون أن يلين قلب الرجل أو يتحرك له ضمير. وانقلب الناس الى الاوسطى محمد يلحون عليه أن

يستسمح الحج، ولكنه كان يرد عليهم وهو ساهم في تصميم أكيد:

ـ والنبي لما أحلق فردة من شنبي وأسيب فردة.

ويئس الناس الطيبون من محاولاتهم، فتركوا ما يحدث يحدث وأمرهم الى الله.

وتناقش أهل البلدة كثيرا فيما كان وانتشرت الاقاويل تلوم الحج وتؤنبه، وتقول انه لو لف الأرض سبع مرات فلن يجد أحدا مثل الاوسطى محمد. وكان الاوسطى يسمع الكلام ويبتسم فهو أدرى منهم بقيمته، فما كان انسان يعرف مثله أسرار المكنة، فقد رباها على يده، وعرف متى تعصي وكيف تلين، وما هي الدفعة التي تديرها والضغطة التي تلف حدافتها ثم الغمزة التي توقفها. كان يعرفها أكثر من نفسه ويعرف مزاجها وضعفها مثلما يعرف مزاجه وضعفه. واثقاً أن الحج سيأتيه حالاً وهو صاغر ويسوق عليه الناس كي يرجع.

في ذلك اليوم وقفت المكنة طول النهار، وفي اليوم التالي رجع الحج من البندر وفي جعبته أوسطى آخر قضى ساعات كثيرة، يلهث ويعرق ويستريح، وحين غابت الشمس ضرب الجنيه الذي أخذه بعد مساومة في جيبه وانصرف دون أن يتكتك للمكنة صوت.

وطالت السهرة على سطح الهواشمة، وامتد الحديث عن خيبة الاوسطى الجديد.

ولم ييأس الحج فغاب عن البلدة قليلا ثم عاد ومعه ثلاثة من

الأسطوات. وهلكت امرأته وهي تعد لهم الطعام والشاي كل يوم وهم يتخبطون ويختلفون.

وكلما طال تخبطهم كان الاوسطى محمد يسعد غاية ما تكون السعادة حتى انه ما كان ينتهي ضحكه، وحتى أصبح الناس يأنسون اليه فيكلمهم، ويهزر معهم، ويلكزهم أحيانا.

وكان انفراج وجهه بعد طول تكشير وتقطيب بالنسبة اليهم فاكهة في غير أوانها، فذهب ما كانوا يشعرون به من رهبة تجاهه، وأحسوا انه انسان مثلهم من دم ولحم، وانه ليس مريضا أو متكبراً، وإنما طبعه حلو، ودعابته رائقة.

ومع أن الناس وحشهم صوت المكنة، وانقطع عنهم دقها القوي المكتوم، ولم يعد هناك طحين أو بياض أرز، وفرغ الفضاء الذي حولها من الحمير والجمال، وانتهى زعيق الرجال أمامها وزحمة النساء، وراح الناس يقترضون من بعضهم الدقيق.. مع كل هذا الا انهم كانوا مع الاوسطى محمد، وكانوا على أتم استعداد لقضاء أيام كثيرة دون أرز أو طحين.

وكانوا يسخرون بالحج وبالاسطوات الذين يأتي بهم ويتنبأون معه بفشلهم وبأنهم سيرجعون كما جاءوا ووجوههم مثل قفاهم.

وأثناء هذا لم يقطع الناس الطيبون محاولاتهم الملحة للصلح، ولكن الحج أبى الا أن ينفذ كلمته ولو صار فيها ضرب نار. وحين

زهق ركب القطار إلى مصر وعاد في ذات اليوم ومعـه أوسطى يـرتدي عفريتة زرقاء.

وتهامس الناس وهم ينـظرون الى صغر سنـه، وذقنه الملسـاء، وبشرته التي ليس فيها خشونة ثم تنبأوا له بالفشل الذي لحق بسابقيه.

وكان الاوسطى محمد ساعتها جالسا على جسر الترعة يتحدث الى الناس، ويتحدث الناس اليه، ويشرق الحديث ويغرب ولا محور لـه الا الاوسطى الـذي جاء من مصـر، والذي يـرتدي عفـريتـة آخـر الزمان.

وكان الاوسطى محمد يؤكد للحاضرين أن هذا الصبي لو حاول ادارتها فستنفضه وتلقيه في الخليج.

وكان يتحدث في ثقة وايمان كما لو كان يتكلم عن نفسه.

وعلى حين فجأة انبعثت تكتكة عنيفة ثم انقطعت.

* * *

وانتهى الحـديث في التو، وصمت المـوجودون وكـأن ألسنتهم ربطت الى أوتاد. وتحـولت الانظار كلهـا الى الأوسطى محمـد الذي كان صامتا، وفي صمته دهشة غير قليلة وفي أعماقه يغلي قلق استحوذ عليه ولم يغب عن الانظار. ورغم أن ثقته في نفسه وفي المكنة كانت لا حد لها الا أن الفأر بدأ يلعب في عبه، فقام دون أن ينـطق بحرف أو يسأله الحاضرون أين هو ذاهب. وتمشى على الجسر واضعاً يديـه خلف ظهـره، ورأسه مـائلة على صدره، وعقله يتـأرجـح بين الشـك واليقين.

وقادته قدماه غصبا عنه الى المكنة. وجلس على حافة المصلي القريبة وعيناه مصوبتـان إلى بابهـا، وأذنه تتسمـع دوي الوابـور، وهو يسخنها، وثمة ابتسامة واثقة غير مصدقة حائرة على شفتيه. .

واتسعت ابتسامته وهو يشاهد الاوسطى الصغير يستعين بالحـج على ادارة الحدافة. ولكن البسمة غاضت تمـاما من وجهـه حين رأى البستم الملعـون يلف ويـدور ولا يقف، والحـدافـة قـد انـطلقت من نفسها كالمجنونة وقد أخفت السرعة هيكلها وابتلعتـه، بينما المـدخنة اندفعت تنفث حلقات الدخان في نظام لا تشوبه شائبة.

ولم يحتمل الاوسطى محمد، ففر من جلسته واقفا وهو يكذب مـا يراه ومـا يسمعه وشيء لاسـع ينهش صدره وهـو يلمح الاوسـطى الصبي يغـادر الحجـرة وعلى سيمـاه بشـر كثيـر، والنـاس يتجمعـون حوله، ويسلمـون عليه، ويـرحبون بـه، ويدخـل بعضهم يتفرج على المكنة الدائرة ويهنىء الحج ويشد على يده.

وقف الاوسطى محمد وحيدا مزروعا في مكانه، والناس رائحة غادية من أمامه لا يلحظونه ولا يلحظهم. وقبل أن يغادر مكانـه انتزع من صدره تنهدة حارقة طويلة، وغمغم باشمئزاز، وكأنـه الزوج يضبط امرأته متلبسة بخيانته:

ـ الله يلعن أبو صحابك. .

ثم بصق ملء فمه.

شغلانة

كان عبده في حاجة الى قرشين . .

ولم تكن هـذه أول مرة يحتـاج فيها عبـده، فقـد أمضى عمـره باحثاً عن القرشين . .

كان في الأصل طباخا، تعلم على يد الحاج فايد الشامي وأتقن الصنعـة، حتى أن طبق(الدمعـة) كـان حين يخـرج من يـده محبـوكـا محوجا يحظى بإعجاب المعلم نفسه.

ولكن الحال لا تدوم على وتيـرة واحدة، وهكـذا اشتغل عبـده صبيا في الورشة التي بجوار المطعم ثم طرده صـاحب الورشـة فعمل بوابا فترة من الزمن وأشرف وحده على عمـارة من عشرة طـوابق، ثم أسلمه عوده الفارغ وساعـده القوي الى عـربات النقـل فأصبـح شيالا حتى أصيب بالفتق.

وعبده كان له صوت، وصوته، لم يكن جميلا، ولكنه كان قويا طـازجا، وحين كـان يبيع الخيـار والشمام والعنب كـان يلفت الشارع كله الى بضاعته بنداء واحد

وقد عمل عبده ذات مرة سمسارا، وكان يجوب الأزقة ليل نهار بحثا عن حجرة خالية، وكان يجدها، ويجد معها العشرة قـروش، ثم

استطاع أن ينفذ الى كهنوت السماسرة، فيقبض القروش العشرة بلباقة من الزبون ولا يجوب الأزقة أو يجد الحجرة. .

وعبده في شغل القهاوي عجب، وكان أيام عزه يقف في أرضية القهوة وحده ليلة العيد فلا يؤخر طلبا أو يكسر كوبا.

وكانت له زوجة، يسكن واياها حجرة وحولهما الجيران. ورغم المعارك الصغيرة التي كانت تنشب بين نسائهم وامرأته، فقد كانوا على العموم أناسا طيبين، يواسونه ويقرضونه اذا لم يعمل ويدعون له وأحيانا يقترضون منه اذا وجد العمل، والدنيا ماضية به وبهم تبيع لهم العيش بالميزان، وتنقص كل يوم في الميزان، وانما هي الدنيا والسلام.

كان عبده في حاجة الى قرشين. .

وهذه المرة كانت حاجته قد طالت، ولم يكن هناك أمل في نهايتها، ومعارفه القدامى حفيت قدماه وهو يلف عليهم ويدور، ويعود من لفه ودورانه بنفس وجهه المقطب العابس ويديه الخاويتين ويدق الباب فتفتح امرأته فلا يحييها، ولا تحييه، وينام على الحصيرة، ويسد أذنيه عن لغط نفيسة ودوشتها وهي تجره جرا الى الذي يحدث كل يوم، والى تهديد صاحب البيت، وأنصاف الارغفة الحاف وأرباعها التي يتصدق بها الجيران، والعيد القادم، وأقة الخوخ التي نفسها فيها وتتوحم عليها، وابنته التي ماتت، وابنه الذي في الطريق والخوخة التي سيولد بها.

وطالت هذه المرة على غير عادتها، وعلا صوت نفيسة حتى لم يعد يحتمله، وأصبح لا يطيق النظر الى وجوه جيرانه ورءوسهم المهتزة الآسفة على شبابه وقلة بخته، أو تمنياتهم التي لا يمضغها تحت أسنانه أو يستر بها جسده نفيسة.

وفي يوم وعبده عائد، قالت له نفيسة أن طلبة قد أرسل له.

وأحس عبده بفرحة فإن أي سؤال في مثل حاله يعني الأمل، وليكن أملا كاذبا أنه أحسن من لا شيء على أية حال.

وفي التو ذهب الى طلبة، وكان سيد القاطنين في البيت بلا جدال، فقد كان يعمل تمورجيا في المستشفى، وكان كذلك أحدث القاطنين.

ورحب به طلبة، وابتسم عبده لترحيبه في خجل. وما كاد طلبة يسأل عن الحال حتى قص عبده الحكاية، وكان عبده يشعر بالراحة وهو يقصها ويتحدث عن أيام مجده وذكرياته، كان اذا أحس بالنظرات تقشعر وهي تعبر جلبابه المهلهل لا يستريح حتى يتكلم عن حرفه، وعن الناس الذين عرفهم وعمل معهم، وكأنه يداري خروق جلبابه، وحين يتكلم عما فات كان صوته يمتلىء ونفسه تكبر ويشعر بأنه كان رجلا، ثم يخفت حديثه وتتبرم لهجته، ويسخط على الدنيا والزمان والناس، ويتشوق الى الخير الذي ضاع ويشمئز من الشر الذي ملأ القلوب. ثم كانت كلماته تصغر، وصوته يضعف وابتسامة خجلة تأخذ طريقها الى وجهه، وهو يتحدث الى جليسه عما صار

اليه، ويسأله، بعد أن يفرغ كل الضعف الذي في صوته، وتنتهي كل الاستكانة التي يهمس بها، يسأله ان كان يعرف له الطريق الى عمل.

واستمع طلبة، وقاطعه كثيرا وهو يستمع ثم أخبره في النهاية بأن هناك عملا ينتظره.

ورجع عبده وكأن ليلة القدر فتحت له.

وحدث نفيسة كثيرا عن طلبة وترحيبه وطيبته، وأمرها أن تذهب في الغد بعدما ترجع من عند الطلبة الذين تغسل لهم الى امرأته وتساعدها، وتسليها..

ومن الفجر كان عبده مستيقظا، وقبل شروق الشمس كان هو وطلبة أمام قسم نقل الدم في المستشفى.. وانتظر.. وجاء أناس مثله وانتظروا، وفتح الباب في العاشرة.. ودخلوا.. وأخذ عبده بالمكان الذي كله سكون وصمت.. ونفذت الى أنفه رائحة كالفنيك تملأ الجو، وجعلت معدته تطفو حتى تصل الى حلقه. وأوقفوهم طابورا وسألوه وهو كالذاهل واستجوبوه وعرفوا اسم أمه وأبيه، وكيف مات خاله وعمه، وطالبوه بصورة وبحث عبده فلم يجد الا صورته الملصقة على تحقيق الشخصية الذي يحمله دائما خوفا من الطوارىء والعساكر.

ودفعوا ابرة في وريده، وأخذوا منه ملء زجاجة من الدم الأحمر. وقالوا: بعد اسبوع.

وخلال الأسبوع كان عبده لا يزال في حاجة الى القرشين، ولا

يزال غاديا رائحا يبحث، وأنصاف الارغفة وأرباعها كادت تفرغ، بل فرغت. وفي الميعاد تماما كان أمام القسم. وفي العاشرة فتح الباب. وقالوا للذي قبله في الطابور: لا..

وحين تصلب الرجل في مكانه أزاحوه وهم يقولون؛ دمك فاسد..

وخفق قلب عبده..

ولكنه كف عن الخفقان حين قالوا له: أيوه..

ولما تثاقل في مكانه أزاحوه وهم يقولون: حناخد منك.. النهاردة..

وكاد عبده يركب رأسه، ويمضي في الطابور مهللا مقهقها كما كان يفعل في عز شبابه، ولكنه كان جائعا، ففرح على مضض وانتظر..

وبعد قليل نادوا عليه، وأدخلوا ذراعه في ثقب لا يسع الا ذراعه. وخاف عبده ولكنه اطمأن حين وجد على يمينه واحدا وعلى شماله آخر. وأحس بذراعه كلها يغمرها شيء بارد وكأنها وضعت في لوح من الثلج. واندست فيها بعد برهة مسلة، وتأوه، ثم لم يعد شيء يضنيه فسكت. وأتاح له سكوته أن يتفرج على المكان، وأن يرفع رأسه ويشب ويختلس النظرات خلال الزجاج الفاصل فيلمح فتيات كالورد يرحن ويجئن في صمت وليس لهن ضب امرأته، ولا ثوبها الاسود، وأدرك عبده بعد برهة انهم ليسوا كلهم فتيات، وانما

بينهن بعض الرجال ولكن وجوههم هي الأخرى كانت بيضاء كـالقطن المندوف ولامعة كالحرير. وراح عبده يحسـد ذراعه والـرجال الـذين في الـداخل، ويتمنى أن تـطول ذراعه وتـطول حتى بـدأ حتى تصـل أصابعه الى قناع واحدة من الفتيات فيشده، ويقرص وجهها الحلو.

واستمر عبده يشب ويتأمل الوجوه المقنعـة ويخلط بين الرجـال والفتيـات حتى بدأ الـزجاج الفـاصـل يضيء وينـطفىء أمـام عينيـه، والوجوه الحلوة تغطيها الأقنعة ثم تنحسر عنها . .

وأحس أنه تعب . .

وشعر بذراعه تبرد، ثم شعر بها تسخن وتبرد . .

وسأل الذي عن يمينه: هم حياخدوا قد ايه . .

وأجاب الآخر وهو يغمغم وكأنمـا ينوي ليتـوضأ: أنـا عارف . . بيقولوا نص لتر . .

وانتهى الحديث . .

ودقوا على ذراعه وهم يقولون: خلاص . .

ومشى عبـده وهو غيـر ثابت وسـأل عن القرشين . . وقـالـوا لـه انتظر . . .

وانتظر . . .

ودفعوا له جنيها وفوقه ثلاثون قرشا. وخصموا الدمغة . . وكانوا كراما فأفطروه . . .

وقبل أن يرجع الى البيت مر على الجزار فأخذ رطل اللحمـة، وفـات على الخضري فـاشترى البـطاطس، ودق بـاب الحجـرة وهـو يبتسم . .

وحين فتحت نفيسة ووجدته محملا ردت تحيتـه، وحملت عنه ما في يده وقـد انتابتها خفة، وكـادت ـ لولا الحيـاء ـ تقول انهـا تحبه وتموت فيه.

وطبخت نفيسه، وشاعت رائحة(التقلية) في الحجرة، وتسربت الى أرجاء البيت، وشمشم الجيران، وابتسم بعضهم، وتحسر آخرون وهم واجمون.

وأكل عبد اللطيف حتى ملأ بطنه، ثم تهور واشترى بطيخة . .

وفي الليل لم يسمع لامرأته زعيق، ولا نصبت الزفة، وانما دار بينهم همس كحديث الحبايب . .

وانتهى الاسبـوع، وقبل أن ينتهي كـان عبده قـد صرف كـل ما أخذ . .

وفي الميعاد ذهب الى المستشفى، ومد ذراعه، وأخذوا منـه ما أخذوا ، وأعطوه ما أعطوه، ولم ينسوا فأطعموه.

وارتاح عبده الى العمل الجديد فليس فيه امارة معلم أو شخطة أوسطى ولا تمحيكة عسكري، وليس عليه الا أن يـذهب كل اسبـوع الى هذا المكان النظيف الذي كله أبيض في أبيض، ويعطيهم نصف لتر من دمه، ويناولونه الثمن، وتدبر امرأته عيشهم بما يأخذه، ويكـون

جسده قد دبر الدم، حتى اذا مـا انتهى الاسبوع يعـود ليعطيهم الـدم ويناولونه النقود.

كان عمله(ألسطة)، وحساده كثيرين . .

وكانت حال امرأته معه على كف عفريت، فحين يقبل وفي يده ما في يده تـبسم له وتكاد تـزغرد، وحين ينـام طيلة الاسبوع لا تـدعه ينام وانما تحدثه عن رجليـه الرفيعتين، ووجهـه الـذي يصفر، وتقص عليـه في كلمات مبتـورة عابـرة، ما تقـوله نسـاء(الحتة) عنـه، وكيـف عايرتها حميدة حين تشاجرت معها بزوجهـا الذي يبيـع دمه. وأحيـانا كانت تهدهـد عليه وتشفق وكـأنها أمـه، وتغطيـه في الليل وتثقـل في الغطاء ولا تجعله يتحرك من مكـانه أثنـاء النهار وانمـا دائما بين يـديه تلبي كل اشاراته وكأنه طفل مريض.

وكان عبده يلمس هذا، ويشعر بالمرارة وهو يلمسه، ولكن ماذا يهم . .

صحيـح انه كلمـا أخذوا منـه الدم يـدوخ وينـام بجـوار حـائط المستشفى حتى العصر.

وصحيح أن الناس تتكلم، وكلام الناس كثير، ولكن المهم أن وابورهم والع، وايجارهم مدفوع، والذي لا يعجبه هذا فليشـرب من أوسع بحر.

غيـر أن عبـده ذهب يـومـا الى المستشفى، ولـم يجلسـوه أمـام الثقب وانما نادوا عليه وقالوا له: لا . .

ـ ليه؟ . .

ـ . . أنيميا . .

ـ أنمية ايه؟ . .

ـ . . فقر دم . .

ـ وماله؟ . .

ـ . . ما ينفعشي . .

ـ وبعدين؟ . .

ـ . . لما تقوى . .

ـ أنا قوي أهه . . أهد الحيطة . .

ـ هبوط في القلب . .

ـ مالكوش دعوة . .

ـ . . تموت . .

ـ أنا راضي . .

ـ . . صحتك . . الانسانية . .

ـ ودي . انسانية يا جدعان؟! . .

ـ مش ممكن . .

٩٠٠

ـ يعني ما فيش فايده؟ . .

ـ . . ولا عايدة . .

وفي هذا اليوم نسوا فلم يطعموه . .

ومن جديد أصبح عبده في حاجة الى قرشين . .

مظلوم

كان لنا صاحب اسمه عبد المجيد، وكنا لا نذكره إلا ونذكر الحشيش، فهو من رواده الأول القلائل، وله فيه صولات وجولات، وله معه تاريخ حافل طويل.

وكنا لا نراه إلا (مسطولاً) ونكون واثقين حينئذ أن في جيبه بقية.

ومرت علينا أيام كان لا حديث لنا فيها الا عن عبد المجيد ونوادره. كانت كل كلمة من كلماته نكتة، وكل رد من ردوده قفشه، وكان لا يجيء ذكره الا ويحكي كل منا عشرات مما حدث له مع عبد المجيد، وعشرات مما حدث لعبد المجيد.

وكان عبد المجيد يعمل طبيبا في مستشفى كبير، والناس يعتقدون أن الطبيب لا بد أن يكون قصيرا، سمينا له كرش وعنق غليظ، وعلى عينيه نظارات، وفوق ملامحه بسمات طيبات..

ولكن عبد المجيد كان على عكس هذا، فهو طويل رفيع، نحيف، شاحب الوجنات.

ولا أريد الاسترسال في الحديث عن عبد المجيد، فالحديث عنه طويل، وسيرته كسيرة الحيات اذا وجدت لها بداية فلن تستطيع العثور لها أبدا على نهاية.

المهم انه في ليلة كان عليه نوبتجية الاستقبال، وكان لا بد ان يسهر الليلة كلها استعدادا لما تتمخض عنه المدينة من أحداث. وكان لا يمكن أن تمر مناسبة كهذه دون أن يستعد لها ويبالغ في الاستعداد. ودخن عبد المجيد حتى أصبحت عيونه ليست حمراء تماما ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين. وجلس على مكتبه في حجرة الاستقبال، وبدأت أسراب الموجوعين والممغوصين تفد اليه صارخة.

وفي أعقاب هذه الاسراب جاءته احدى المعضلات، اذ دخل ضابط ومعه اثنان من العساكر يحرسان رجلا قصيرا محنيا ذا خدود غائرة. ووضع الضابط أوراقا كثيرة على مكتب الطبيب وقص عليه الحكاية بالاختصار، وقال له انهم هاجموا(غرزة) ففر كل من فيها واستطاعوا امساك هذا الرجل، وحين فتشوه عثروا معه على قطعة حشيش، وفيما هم مشغولون بمتابعة الهاربين غافلهم وابتلعها، وانه حاضر اليه ليعمل للرجل غسيلا للمعدة ويستخرج ما فيها من حشيش..

وأعجبت المعضلة صاحبنا عبد المجيد، وقد وجد فيها لذة، ولحلها جدة تختلف كل الاختلاف عما جرت به الليلة من أولها الطويل..

ونظر الى الرجل الواقف والحديد في يديه، وسأله بلهجة خبير، وبحنكة ناب أزرق:

ـ انت يا واد بلعتها والا رميتها. .

وأجاب الرجل في ذلة ذليلة، وضعف ضعيف، وبراءة دونها براءة الأطفال:

ـ أنا يا بيه؟!. . بلعت ايه؟!. . والله معرف حتى شكله! والنبي مظلوم!. . يا ناس مظلوم!. .

ونظر له عبد المجيد وقد كبر في عينيه وابتسم وكأنما يقول له:

ـ لا والله جدع يا واد!. . يحميك!. .

ولم يكفه التشجيع الصامت فأصر على أن يفك الحديد من يديه. وبعد مناقشة قصيرة اقتنع الضابط ذو الوجه الأحمر والشارب الاصفر والعيون الزرق. .

والمفروض أن الطبيب هو الذي يقوم بعملية غسيل المعدة، ولكنها ليست عملية أو شيئا من هذا القبيل، انما هي اجراء يستطيع أن يقوم به أي ممرض. ولذلك أمر الطبيب عبد السلام أن يعد الغسيل. وذهب الرجل وفي صحبته العسكريان الى الحجرة الأخرى، وبقي الضابط والطبيب وحدهما في المكتب.

وكان من المستحيل أن يظلا ساكتين، وبدأ الحديث بالفتاة المرسومة على مجلة كانت في يد الطبيب، ثم تشعب الحديث

واكتشف الاثنان أنهما كانا ذات عام في مدرسة ثانوية واحـدة، وأنهما يموتان في أغاني أم كلثوم، وان الضـابط يسكن في العباسيـة، ولعبد المجيـد شلة أصدقـاء فيهـا، وان الاثنين لم يـأخـذا بعـد اجـازتهمـا الاعتيادية، فالرؤساء يحتجون بزحمة العمل. وقبل أن تمضي سلسلة الاكتشافات الى نهايتها، قال الضابط:

ـ يا أخي حاجة تعكنن بصحيح!.. داحنا كنا قاعدين حتة قعدة في روف واحد نعرفه في مصر الجديدة.. والليلادي كان لنا صاحب لسـه جاي معمـر من فلسطين.. وحليت القعـدة.. وأم كلثـوم بتغني هلت ليـالي القمر.. ولسـه يـدوبـك بنبـدي، والـواحـد بـدا يتنعنش ويحس انه صح تمـام الا ومخبر جـايني ومعاه أمـر التفتيش.. أعمل ايه؟.. رحت قاطع القعدة وقايم معاه.. الله يلعن أبو دي عيشة!.. بذمتك مش حاجة تعكنن؟!..

ووافقه الطبيب ان هذا شيء يعكنن، وافقه وهو ينظر الى عيني الضابط الجميلتين وقد غـرقت حبتاهمـا الزرقـاوان في بحيرة، ليست حمراء تماما، ولا هي بيضاء، انما لها وردية البين بين..

وقبـل أن يوافقـه أكثر، ويحكي لـه فصلا ممـاثلا حـدث له في احدى ليالي سلطنته، دخل عليـه عبد السـلام التومـرجي قائـلا بفرح وتهليل وكأنه اكتشف أمريكا:

ـ الحتة أهه يا بيه.. الراجل نزلها.. دي تطلع قرشين..

فرد الاومباشي:

ـ قرشين ايه؟!.. أقطع ذراعي إن ما زادت عن ربع وقية خروبتين..

وهز العسكري رأسه هزة خبير وقال:

ـ لأ.. وحته حلوه.. باين عليها غباره يا بوي..

وعلى عجل غادر الطبيب والضابط المكتب، والتفوا كلهم حول الرجل القصير الراقد فوق المنضدة العالية يستخرج كل ما في جوفه من خير ومن شر. وشخط الطبيب في عبد السلام يأمره بوضع القطعة مع بقية الغسيل في حرز ويختمه بالشمع، وتلألأت عين الضابط الوردية بالفرح، وقد ثبتت الجريمة، وأصبح جسدها في حرز حصين. واقتيد الرجل في النهاية وقد أعيد الحديد الى يديه ومشى بين حراسه يقول في صوته الضعيف الثائر:

ـ مظلوم يا ناس!.. والله مظلوم!..

في الليل . .

كانوا قد تجمعوا كما اعتادوا التجمع كل ليلة وكان الملل قد بدأ يتسرب إليهم، وأملهم في ظهوره راح يتأرجح .

وجاء واحد وقال انه رآه عند الجامع .

وتهلل الجالسون والواجمون . .

كان بعضهم قد مدد رجليه في إعياء وملل، وكان آخرون قد تربعوا، والباقون قد أراحوا ظهورهم على الجدار ليريحوا ما فيها من ألم ممض، وكانت أجسادهم كلها ليس فيها موضع لتعب آخر، وقد أتوا بعد العشاء كالاشباح الناحلة السمراء قد اختلط في وجوهها العرق بالرماد، وطالت لحاها، واحمرت منها العيون .

وجاء قادمون جدد . .

وتبادلوا تحية المساء مع الجالسين، تبادلوها في فتور، وكان الواحد منهم ما يكاد يجلس حتى تزحف ذرات التعب الذي لاقاه طول النهار كجيوش النمل آخذة طريقها الى رأسه، فيتخدر جسده لزحفها، ويسكر، ويحس بالراحة تتصاعد من جوفه فتلطف جفاف

حلقه وكأنها حبات نعناع .

وقال واحد وهو يناجي نفسه أكثر مما يخاطب الآخرين :

ـ يا سلام . . الدنيا ضلمة يا ولاد . . والعتمة حلوة .

وما كان الليل جميلاً لما فيه من سكون أو نجوم ، وإنما كان جميلاً لأن ليس فيه عمل ، ولأن فيه راحة وجلوسا ، ولأنهم يستطيعون فيه الحديث ويحسون اذا جلسوا واستراحوا وتحدثوا أنهم بشر مثل سائر البشر .

ومع أن الليل كان هناك ، وكانوا جالسين مرتاحين الا انهم ملوا ما راحت أفواههم تلوكه من تافه الأخبار ، وسرعان ما مات الكلام على أفواههم وتجمد .

وتبادلوا نظرات متثائبة ، في تثاؤبها تساؤل ، وفي تساؤلها قلق غامض .

ومرة أخرى راحت أسئلتهم تترى عنه .

وقبل أن يعودوا ويملوا السؤال ، جاءهم الصوت الرطب الواضح الخارج ، الحلو ، المملوء بالرنين ، يقول :

ـ مساء الخير يا رجاله . . .

* * *

وتحركت ألسنتهم وقد طال سكوتها :

ـ مساء الخير يا عوف . . ليلتنا ندا يا عبده . . انت فين يا

أخي . . يا ميت ندامة على اللي حب ولا طلشي . .

وبينما الجماعة قد علتها ضجة الترحيب به، لم يتمالك بعض منها نفسه وهو يرى الابتسامة الحائرة التي تود الظهور على وجه عوف فيمنعها أدبه، لم يتمالك نفسه وهو يقارن وجهه الجاد بالهزل الذي قاله، والذي سوف يقوله، فانطلق يضحك.

ولم ينتظر عوف أن يهدأ الهيجان، وانما انسل في رقة وأدب، وركع في سرعة على ركبتيه قبلما يقوم له أحد، ومد يده في خجل مؤدب وسلم عليهم واحدا واحدا بحرارة وهو يقسم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا، واندفع الذين لم يضحكهم أدبه، فضحكوا على حرارة سلامه وغلظ قسمه.

وأخيرا جلس، بينما تنحى أناس، واعتدل آخرون، وامتدت أذرع تصلح أوضاع الجالسين، وتوسع الحلقة.

وتلاقت العيون والاسئلة كلها عليه وقد تربع ووضع قبضيته متلاصقين في حجرة كما اعتاد أن يفعل، ولمعت بشرته السمراء والابتسامة ما زالت تتردد قبل ظهورها على ملامحه.

كانوا يودون سؤاله مثلا ان كان وجد عملا. وآخر عمل كان يقوم به عوف كان مع تجار البهائم، اذ كان عليه أن يوصل بضاعتهم من المواشي الى الأسواق قبل الفجر، وحين ينفض السوق يعود بما بقي دون بيع، وما جد بالشراء، وكان لا يعود قبل حلول الظلام.

وانتهى موسم التجارة، ووقف سوق البهائم، وأصبح عوف مرة أخرى بلا عمل.

وكانوا يودون سؤاله أيضا أين كان طيلة ما بعد العشاء، اذ لا ريب أنهم كانوا لا يعرفون كيلة الاذرة، وما جرته عليه من مصائب، ولا ما أجبرته عليه من سؤال وهمس وإلحاف.

وما استمر السكون الذي صنعه قدوم عوف طويلا، اذ سرعان ما رفع رأسه، وحدق فيهم جميعا دون أن ينطق حرفا، وأدار رقبته، وشمشم بطاقتي أنفه، وتابع الموجودون حركاته وهم صامتون يخمنون ويستعدون. وظل عوف برهة يحاور عيونهم ويلاعبها، ثم جعل ابتسامته تضحك ضحكتها القصيرة الخاطفة وأتبعها بقوله وكأنه يستنكر:

ـ واللا هاو آريو يا رجاله! . .

وانفجر الجمع ضاحكا . .

ولم تتحمل الصدور ما فيها من ضحكات، فسعلت، وضحكت، ثم سعلت. واستلقى بعضهم على ظهره ليضحك أكثر، وانثنى البعض حتى لاصق وجهه الارض وهو يضرب بيده على فخذه وقد تشنج ضاحكا.

لم يكن ما قاله عوف يستحق كل هذا الانفجار، بل ما كان قوله غريبا على أسماعهم، ولكنهم كان يكفي أن يروه أو يسمعوه، أو حتى تأتي سيرته ، لتنساب منهم الضحكات. كان هو التميمة القادرة

دائما على فتح أفواههم وقد سمرها طول النهار.

ولم تكد الموجة الأولى تنحسر، ويبدأ الضحك يتحول الى همس ضاحك، حتى قال عوف بصوته الذي فيه بحة رنانة يذوبون فيها:

ـ كيلة الدرة يا ولادا! . .

ودون أن يعرفوا ما هي الحكاية قهقهوا بكل ما يملكون من صدور. .

واستطرد عوف القهقهات تترى من حوله:

ـ أني سايب الوليه من غير عشا يا جدعان! . .

ولعلعت الضحكات، ووضع البعض أيديهم على بطونهم حتى لا تتمزق بينما تعبت بطون الآخرين.

ولما لم يجز عليهم ما في وجهه من جد ولا ما في ابتسامته المؤدبة من تردد، ولا ما في ملامحه من حزن وتأثر، هز رأسه في يأس ووسع ابتسامته على قدر ما استطاع، وتلفت حوله وهو يدير رقبته في استسلام، وعلى يمينه كان هناك جالس قد استحوذ عليه النعاس رغم كل تلك الضجة، وراح يفقر، ورأسه تهوي على صدره ثم تنتفض عائدة الى مكانها فوق رقبته.

ومضى عوف يتأمل الرأس الصاعدة الهابطة عن يمينه وقد ران عليه تفكير عميق وكأنه أمام معضلة لا حل لها. وكان الجالسون ينظرون اليه، ثم الى النائم ولا يستطيعون بعد هذا أن يملكوا زمام

أنفسهم فيضحكون. وبدا على عوف أنه قد وجد الحل، فقرب فمه من أذن النائم ثم قال بأعلى صوته وكأنه يهش على جدي كبير:

ـ سك . . سكك دبحه! . .

وثارت عاصفة ضحك عاتية، واستيقظ النائم على ثورتها نصف مذهول واسترد وعيه وهو يضحك، ثم أسرف في الضحك حتى قهقه، ولما رأى العاصفة مستمرة قام، وخلع طاقيته الصوف ورماها وداس عليها بقدمه الغليظة ثم سب أبا الدنيا وقعد وهو يبتسم في سذاجة وذهول.

ونسي عوف نفسه وسوق الماشية والكيلة وما بعد العشاء، وقد أعجبه ما أشاعه فيهم من ضحك وحياة، بل إنه أحس بشيء غير قليل من الفخر والتيه وهو يرى كلماته تتلاعب بعقولهم فتحركها أنى تشاء.

ونسي الحاضرون أنفسهم هم الآخرون، ونسوا حياتهم.

وما كان يأتيهم النسيان الا بعد عناء.

وبدأوا يضحكون حقيقيا . .

وأيضا ما كان يأتيهم الضحك الا بشق الأنفس.

كانوا يضحكون أول الأمر وهم فقط يقلدون من يضحكون.

ثم يحسون أن ما هم فيه يستحق الضحك فعلا فيضحكون.

ثم يرون أن ما أمامهم فرصة ينعمون فيها بضحك لا ثمن له،

وهم ما اعتادوا أمثال تلك الفرص. . فيضحكون لحاضرهم ويختزنون ضحكات أخرى للمستقبل. .

ثم كانوا يتذكرون ما قاسوه في النهار، وما سوف يبذلونه في الغد المقبل فيتشبثون بما هم فيه من ساعة أنس، ويضحكون ويغضبون على أنفسهم ويضحكون أكثر وأكثر.

ولا يدوم هذا الى الابد. .

فسرعان ما يمسح عجوز منهم الدمعة الضاحكة عن عينيه ويقول بصوت فيه رنة ندم وكأنه اقترف اثما:

ـ اللهم اجعله خير يا ولاد. .

* * *

وفي لحظة من لحظات السكوت نادى واحد وطلب شايا لعوف. .

وأحس الموجودون كلهم أنهم غفلوا عن شيء خطير، وأنهم أخطأوا في حق الرجل وقد منعهم الهرج من القيام بالواجب، ولذلك راحوا يتنافسون، وكل منهم يصر أن شاي عوف سيكون على حسابه. وعوف قد جلس جلسته المتربعة المؤدبة الخجلة يتمتم من بين شفتيه الوادعتين:

ـ خلي عنكو يا رجاله. . خلي عنكو. .

ولكن الرجال لم يخلوا عنهم، بل وطلب كل منهم لنفسه طلبا

وكأنهم يجلسون في أحسن قهوة، والمكان ما كان حتى غـرزة، وانما هو فضاء صغير تحده البيوت الداكنة المنخفضة، وفي وسـطه حفرة، فيها نار، وعلى النار براد كبيـر، رأى صاحبـه أن يجلس، ويضحك، وأيضـا يعمـل، فكـان يصنـع لهم القهـوة والشـاي، ويـرص لهم الكراسي . .

وسرعان ما وزعت الاكواب على الـذي معه والـذي ليس معه، فما كان لحظتها مهمـا من الذي يـدفع، وقـد أصبح مـا في جيب كل منهم ليس هـو محط تفكيـره وبؤرة اهتمـامـه، ولكن أصبـح مـا في الجيب آخر ما يفكر فيه، وإخـراجه أسهـل، والندم الـذي يعقبه أقـل وأوهى .

وراحت أفواههم التي عليها بقايا ضحكات وابتسامـات ترتشف ما في الاكواب، وأحسوا لأصوات رشفاتهم، وحشرجة شفطهم ترنيمة رائقة تتصاعد في جوف الليل الساكن الساجي وكان القـدح الذي في يـد عوف مجمـع أنظارهـم فقـد كان ممسكـا ايـاه بـطريقتـه الـرشيقـة ويـرتشف منه بفمـه الذي ضيقـه ودقق من فتحتـه بينمـا لمعت سمـرة وجهه بعرق خفيف أشاعه دفء الشاي . .

وأخـذ واحـد منهم رشفـة ذات نغم طـويـل ثم مصمص حلقـه وقال :

ـ ازاي الحال . .

ولم ينتظر ليرد عوف وانما مضى يسأله :

ـ ازاي الحال دلوقتي؟!..

سأله وهو يبتسم. وفي تؤدة واتزان قبل عوف باطن يده ثم قبل ظهرها ونظر اليه بعينيه التائهتين السارحتين وقد ضيق المثلث الضاحك الذي فيه شاربه وقال:

ـ عال.. نحمده.. أنضف من الصيني بعد غسيله.. والاشيا معدن..

وسخسخ الحاضرون ضاحكين، وتساقط بعض ما في الاكواب على أيديهم فلسعها، وتساقط على أثوابهم فما سألوا فيها، بينما اصطدمت الضحكات الخارجة من أفواهم بالرشفات الداخلة، فاحتقنت الوجوه وشاعت فيها حمرة غريبة على ما كان فيها من شحوب، ولم يرحمهم عوف وانما استطرد:

ـ هو طول ما انت فيها يا أبو وش يملا كنكه احنا حنشوف طيب..

وانهال عليه بلسانه..

وكان المضحوك عليه أول الضاحكين، فما تأثر أو اربد، بل أسعده في الحقيقة أن يتخذه عوف هدفا للذعاته. وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه. كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه رغم أنه كان أفقر رجل في القرية ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها، ولا يستطيعون العيش الا اذا كرهوا وحقدوا وتخاطفوا. كانوا ككل من في القرية يودون الحياة، ولا حياة هناك الا بالصراع، ولا بقاء الا للأقوى.

وفور فيهم ما احتسوه من قهوة وشاي نشاطا، وتلمظ عوف ووجهه يلمع، وبحث فيهم بعينيه التائهتين، ثم توقفت ابتسامته وقتا غير قليل على واحـد منهم وأشار اليـه بطرف ابتسـامته وقـد ضيق احدى عينيـه وقال في أدبه وخجله:

ـ الا معاكشي حتة ألف يا عوبد؟ . .

ولم يملك الرجل يده فامتدت للتو في جيبه وأخرج علبة صغيرة غمس فيها عود كبريت وقدمه لعوف وعليه سنة أفيون وحين كان يرجع العلبة الى جيبه وقد عاد كمـا كان ينـظر الى الرجـال حولـه، لمح في عيونهم رغبات، ومرة أخرى لم يستـطع أن يملك يده، فـاستمر عـود الكبـريت رائحا غـاديا بين العلبـة وبين ألسنتهم وقـد أخـرجـوهـا من أفواههم ومدوها على قدر ما يستطيعون.

وعلى رشفات الشاي مصمصها عوف والألسن حوله تتحرك في الأفـواه المقفلة فتنبعج لحـركتها الاشـداق. وفي جرعـات أخـرى من الشاي ابتلعوا ما أذابوه، وبدأ الانسجام.

وأحسـوا جميعـا بـريقهم يجف وحلوقهم تـطلب الكثيـر مـن الدخان. ودارت الجوزة التي لا شيء عليها، وراح الرجال يعتصرون صدورهم ويجذبون الأنفاس، وتـزدحم عروق رقـابهم النحيلة بما في أجسادهم من دم قليل وهم يجذبون ويجذبون، والجوزة تكركر وتجأر كعـربة نقـل ينوء محـركها بمـا فوقهـا من أحمـال، وغـامت الجلسـة بسحـابـات الـدخـان الـرمـادي الـرخيص وهي تنعقـد وتنفض فـوق الرؤوس.

وقال عوف وكلماته تصنعها دفعات الدخان التي ينفثها:

- عارفين الحرب التي قامت ليه يا رجالة؟ . .

وانتبهت العقول كلها، وصمت القليلون المتحدثون، فقد كانوا يتوقعون هذا السؤال أو مثله من زمن، ويأملون وقد طال بهم الانتظار أن يتحفهم عوف بحكاية.

ولم يجب عوف مرة واحدة، انما بكلماته التي كان ينتقيها بخبرة وروية ثم يقطعها وينغمها ويمثلها، وبملامح وجهه التي يملك زمامها كلها ويستطيع أن يقول بها ما شاء دون حاجة الى كلام، وبحنجرته التي تخرج منها الاصوات لها بحة الناي الحزين الذي يضحك حزنه، بهذا كله بدأ عوف في رواية القصة فتنحنح ثم قال:

- انتو عارفين جدكو عامر يا ولاد؟ . .

وضحكوا قبل أن يقول حرفا آخر. اذ ما كادوا يتصورون الجد عامر العجوز الذي ترك وراءه التسعين وبدأ يتطلع الى المائة والذي قضى حياته لا يعرف الا الزرع والصلاة، والذي كانوا أول الأمر يجعلون من كلامه حكما يرددونها في المناسبات، لا لشيء الا لأنه عجوز وشعره أبيض كله. ما كادوا يتصورون الجد عامر وعوف يردد نفس حكمه بنفس كلماته فيدركون مدى سخفها، وكثرة ما فيها وما في حكم الكبار كلهم من تخريف.

ما كادوا يتصورون هذا حتى ضحكوا وأغرقوا في الضحك، واستمر عوف يقول وهو يغالب ابتسامته:

ـ كان مرة جدكو عامر هو وأبوكو اسماعين قاعدين يشمسوا في ضهر الزريبة. وانتو عارفين الاتنين ولله الحمد خبراء من الدرجة الأولى في الفقر وقلة البخت. وبعدين السياسة حزقت أبوكو اسماعين قوي، قام قال:

ـ ألا بذمتك يا جد مخيمر. . وحياة الله يرحمها دنيا وآخرة جدتي أم عاشه. . وحق من أماتها يا شيخ. . عارفشي الحرب قامت ليه؟. . قام جدكو عامر هرش ضهره في الحيطة وقاله: بقى يابن أم خرزه ما نتاش عارف ليه؟. .

قال له: والله أهو أني عارف كل زقاق في السياسة الا المدعوقة دي. .

قام جدكو عامر اتنهد وقالوا ايه: أما عقلك فارغ صحيح. . دا يا واد الحكاية بسيطة قوي. . الالمان قالوا للانجليز طياييركو ما تمشيش مع طياييرنا في سكة واحدة. الانجليز قالوا رأسنا وألف سيف. . وهب. . راحت قايمه. .

وما كانت تلك أول مرة يرويها، ومع هذا فقد ضحكوا لها وأسرفوا في الضحك، فالحكاية من فمه كانت لها لذة، وروايته لها وتمثيله اياها كانت تضفي عليها رونقاً جديدا.

وانتهت القصة ولم تنته القهقهات التي انبعثت وراءها والتي كانت تتصاعد حية مليئة بالحياة والرغبة فيها، تتصاعد من أعماق القرية الراقدة كقبعة سوداء كبيرة من الصمت القتيل.

وأعادت ضحكاتهم الكثيرة كل ما جار عليه الزمن من إنسانيتهم وانتشوا وهم يحسون أنهم مثل الافندية تماما، لهم قعدة ومجلس، وتحكى من أجل ايناسهم القصص.

وتعالت الاصوات تطلب من عوف المزيد وقد هضموا كل ما فات..

وتمنع عوف أول الأمر ككل فنان، ثم انطلق يحكي عن أبيه وكيف كان لا عمل له الا الصيد بالسنارة، وكيف كانوا يتعشون كل يوم سمكا.

ويحكي عن لسان أبيه وطوله، وخاصة ساعة الطبلية، وما كان يتبادله هو وأبوه من قفشات حتى ينقلب عشاؤهم آخر الأمر الى سامر يتجمع له الناس ويتسمعون من وراء الباب. ثم يذهبون بعيدا ويضحكون.

والمرة التي طلعت لأبيه في السنارة فردة حذاء، والمرة التي رأى فيها الجنية وكاد يتزوجها..

ولا تفرغ قصص عوف..

وكانوا يحبون كلهم حكاية ذهابه الى المولد وهو صغير والثلاث ورقات والملحمة الكبيرة التي قامت ليلتها واستوعبت كل ما في المولد من شماريخ وخيزرنات وحلاوة ورجال.

ولا يستكن لسان عوف.

كان يسخر من كل شيء.. من الناس.. ومن نفسه.. ومن الحياة التي يحيونها..

كان قد لف مصر من أولها الى آخرها، ودخل السينما، وشاهد المتاحف وقام بأنواع لا أول لها ولا آخر من الاعمال، وعاش في القاهرة وعرف مخابىء الاسكندرية أيام الغارات وتعلم هاو آريو من الجيش الانجليزي حين كان فيه. وكان يدور دورته ويعود الى القرية:

ألاقي أبوك الحجعلي لسه بيقول للفحلة.. عاه يا بنت الانيته، وخالتك أم بركة لسه بتدور على فرن خابز تشحت منه رغيف، والعمدة لسه متنك على قرماية الخشب وأبوك مخيمر واقف جنبه لابس حتة العباية اللي ما تساويش تلاته أبيض، ودي بنت مين اللي فايته يا مخيمر؟ يقوله.. دي بنت فلان يا عمدة اللي اجوزها علان واللي طلقها تلتان.. حاجة تفلق اللي ما ينفلقش.. الدنيا تنشال وتنهبد وبلدنا ولا هي هنا.. يا رب لا اعتراض ولا مانع.. انما ادنته شايف.

وحين كانوا يسمعونه يشرق ويغرب ويقول كل ما عنده كانوا يهزون رؤوسهم ويضحكون وهم يوافقون، ويحسون بفرحة وهم يوافقون، ويزدادون بكل حكاية من عوف ايمانا بأن حياتهم لا جديد فيها ولا طريف. حتى الموت ما كان فيه من جديد، وانما كان عودة حزينة لحزن قديم.. الناس تولد وتكبر ثم تموت، والبقرة تدور في الساقية مغماة لا تدري أين تسير، وعيون الساقية تغترف الماء من

باطن الأرض، وتمتليء به، ثم تصبه العيون، ليعود إلى الأرض وباطنها. . لا جديد في حياتهم ولا طريف. .

* * *

وفجأة سكت عوف عن كلامه، وسكت الناس لسكوته، وتحولوا ينظرون حيث ذهبت عيناه، ومن بعيد أقبل شبح أسود طويل عرفوا فيه امرأته وكلها سواد في سواد حتى وجهها قد غطته، زيادة في الحياء، بشاشها الاسود الذي لا يخلو من ثقوب.

وكانت تمسك بمفتاح ضبة بابهم الخشبية وتتلاعب به.

ومن بعيد أيضا جاء صوتها رفيعا كقوامها، طَوِّيلا كطولها:

ـ عبد الرحمان. .

وارتج على عوف ومأمأ برأسه، ثم خفضها وهو ينحني حتى أصبحت بين فخذيه. . وقال في همس مملوء بالخوف الذي يضحك:

ـ ولاد. . اني مش هنا. .

وسمعوها تغمغم بكلام لم يسمعوه، ثم نادت بعد برهة بصوت يائس وقد نفد صبرها:

ـ يه. . شوفوا الراجل يا خواتي واني لفيت عليه البلد حتة حتة. . عبد الرحمان. .

وأفلح البعض في كتم ضحكاته، ولم يـفلـح، آخرون، ولعلها لمحته وهو منحن وقد قارب الارض فإنها صرخت قائلة:

ـ وطي كمـان وطي. مانتـاش مكسوف والنبي عليـك.. سايب الدار على الحميد المجيد وجاي تنصب السامر بتاع كل ليلة.. عبد الرحمان..

ولم يجد عوف بداً من الظهـور فاعتـدل شيئا فشيئـا وهو يقـول لمن حوله هامساً:

ـ أهي قلبت بغم يا رجاله!..

ورفع صوته جادا لا أثر للهزل فيه وقال:

ـ روحي يا بت..

وتعالت الضحكات لجده وامارته..

وردت المرأة وقد عيل صبرها:

ـ والنبي يا شيخ؟!.. اسم الله عليـك وعلى حواليـك!.. مش تلايمها شوية.. فين يا راجل حق كيلة الـدرة اللي انت قايللي دقيقـة واحدة وحاجيبه؟!.

وبنفس الصـوت الجاد قـال عوف بعصبيـة أكثر وقـد تذكـر كل شيء:

ـ روحي يا بت اختشي..

وضحكوا كما لم يضحكوا في ليلتهم بل في أعمارهم كلها.

وأغاظت ضحكاتهم المرأة فقالت وهي تكاد تصرخ:

ـ والله مـاني منقولـة الا أمـا تجيب حق الكيلة.. دا صـاحبتهـا قاعدة في الدار ما المغرب.. سامع والا لأ..

وأجاب عوف بصوت عال:

ـ لا مش سامع..

فقالت وهي مغيظة:

ـ عنك ما سمعت.. هه.. وآدي قعدة.

وحـاولوا مـرة أخرى أن يتـأدبوا ويكتمـوا الضحكـات، والمـرأة تنتقي لنفسها مجلسا فوق كومة سباخ عـالية. ورفـع عوف رأسـه ونظر اليها وهي ممتطية الربـوة كأم قـويق، وسكت برهـة، ثم قال بصـوت نصفه ضاحك، ونصفه جاد:

ـ روحي يا بت يام وش زي وش السلندر.

ومع أنهم ما كانوا يعرفون ما هو السلندر الا انهم انثنوا وتمايلوا مقهقهين وعيونهم قد شدت الى عوف الجالس لا يعرفون ان كان هـو جاداً في كلامه أم هازلا..

ولم تسكت المرأة وإنما قالت على الفور:

ـ والنبي ماني مروحة يابو رأس أنعم من البريزة الماسحة.

واستمرت الضحكات تترى بلا انقطاع..

وقال عوف وهو يزيد النصف الضاحك من صوته:

ـ والنبي ان ما روحتي لقايم فاتح بطنك ومطلع منه طعم..

وما عاد الحاضرون يتمالكون أنفسهم ولا يعرفون ان كانوا يضحكون أو لا يضحكون..

وبينما هذا يحدث كان بعضهم يفكر فيه من ناحية أخرى، وتمنى أكثر من جالس أن يمد يده الى محفظته الكالحة ويستخرجها ثم يسقط في يد عوف ثمن الكيلة. ولكن أمانيهم بصيرة، وأيديهم قصيرة ـ جد قصيرة.

وكان عوف هو الآخر يضحك بقلب، ويحلم بقلب آخر. أن تمتد يد في حجره وتدفىء أصابعه بالثلاثين قرشا التي داخ عليها من المغرب. وبقيت أصابعه باردة في حجره..

وشخط عوف في المرأة قائلاً:

ـ عليّ الطلاق ان ما روحتي..

وعلى الفور نزلت المرأة واستدارت عائدة بشبحها الأسود الطويل..

وقال عوف وقد سره ما أحدثته الشخطة واستعاد لسانه الحاد:

ـ شايفين يا ولاد. والنبي رجل مراتي اليمين بتنفس..

واختلطت القهقهات بالأصوات وسمعوا ضحكة تفلت من المرأة المبتعدة رغما عنها.

وكانوا قد تعبوا وما عادوا يستطيعون الضحك فسكتوا. وسكت الليل. وسكت كل شيء وأصبح لا صوت هناك الا نقيق الضفادع وتنهدات البعض والماء وهو يغلي في البراد ويفور.

حتى عوف كان قد أرخى رأسه على صدره وكأنه يفكر.

واستمر الصمت زمنا لم يقطعه الا عوف حين رفع رأسه وقال وهو يستغرب منهم السكوت، ويحدق فيهم:

ـ والله هاو يا رجاله..

وانفجروا يضحكون، واستمرت الضحكات تنفجر وهي لا تريد أن تنتهي وكان يبدو أنها لن تنتهي لولا أنهم سمعوا همهمة لم يألفوها وحمل اليهم الظلام جعجعة شيخ الخفراء المعهودة ونبراته القاطعة الحادة:

ـ واد انت وهوه.. انتو عاملينها غرزه يا ولاد الكلب. قوم قامك عفريت منك له..

وكان أول من تسلل لا يلوي على شيء هو خالي الوفاض منهم، أما الذي في حافظته قرش أو يتدفأ جنبه بورقة فقد تكاسل قليلا وهو يقوم، ولما وقف تثاءب كثيرا وتمطى ثم مضى في خطوات وئيدة وهو يلقي بالسلام الى من حوله، ويشدد على عوف باللقاء في ليلة ثانية، وكلهم يحسون ان الليلة قد انتهت وما كان يريد لها أحد أن تنتهي.

واستوقف شيخ الخفراء عوف، وقال له بعد أن اطمأن الى ذهابهم جميعاً:

ـ واد يا عوف. . ازيك؟. .

وفهم عوف ما يريد، فقال له وكأنه يؤدي فرضا عليه:

ـ هاو آريو يا شيخ الغفر. .

وقهقه الرجل، وظل يقهقه ويتلوى وعوف يأخذ طريقه الى داره. .

ومضى الليل. .

* * *

وقبل شروق الشمس الجديدة كانوا جميعا يأخذون طريقهم الى النهار، وكانوا يأخذون طريقهم اليه ووجوههم باسمة وأطياف من الليلة التي مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما في نهارهم من حدة. .

وكان عوف يتسلل هو الآخر كالعصفور المبتل، مؤدبا وخجولا، ليستأنف همسه وسؤاله عن ثمن الكيلة.



المحتويات

رقم الإيداع : ١٩٥٨ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٤٠٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣







يوسف إدريس

القصص القصيرة ٢